الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية

تأليف

عزيز سامح التر

ترجمه

د. محمود علي عامر





دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت - ص.ب ١١٠٧٤٩

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م


دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١-٧٤٩

* الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا، بناية كريدية، تلفون: ٣٠٣٨١٦/ ٣٠٩٨٣٠/ ٣١٢٢١٣
برقياً: دانهضة، ص.ب ٧٤٩-١١
تلكس: NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني رقم ٣، غربي الجامعة العربية، تلفون: ٣١٦٢٠٢

* المستودع: بئر حسن، تلفون: ٨٣٣١٨٠

الإهداء

إلى أحبائي

وائل ووليد ووفاء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

لعل من أبرز الأسباب التي دفعتني إلى ترجمة هذا المرجع أهميته من الناحيتين التاريخية والعلمية، فغناه بالمعلومات التي تشكل جزءاً هاماً من تاريخ المغرب العربي عامة والجزائر خاصة، كفيلة بإعطاء القارىء العربي صورة كاملة وواضحة عن أهم الأحداث التي جرت هنالك خلال وجود العثمانيين في تلك البقاع العربية.

إن كتاب الشمال الإفريقي لمؤلفه (عزيز سامح التر) يعتبر في حد ذاته من أهم المراجع التي تتناول حقبة طويلة من تاريخ الجزائر في العصر الحديث لأن المؤلف استفاد من توفر مادة البحث بين يديه إضافة لكونه قادراً على فهم الأحداث وتحليلها تحليلاً علمياً، على الرغم من انجرافه وتأثره بالعاطفة القومية ومحاولته الدفاع عن أبناء جلدته، عندما نسب البطولات التي تمت على أرض المغرب العربي لهم، متجاهلاً دور سكان المنطقة، ويمكن للقارىء أن يلمس هذا في مواطن كثيرة من الكتاب.

وإذا كان للأتراك سلبيات كثيرة خلال سيطرتهم على الأرض العربية لا يدركها المؤرخون فحسب بل يدركها القارىء العادي، فإن هذا لا يعني عدم

وجود أحداث يمكن الوقوف عندها، وبشكل خاص ما فعله هؤلاء عندما أوقفوا الزحف الإسباني على الشمال الإفريقي، يوم كانت إسبانيا تتولى زعامة العالم المسيحي والأداة الطيعة لمرامي البابوية الداعية للغزو الصليبي في الشمال الإفريقي، وعلى ضوء ذلك يمكننا القول أن الأتراك قد مارسوا مهمة جهادية خلال وجودهم في الشمال الإفريقي.

ومن جهة أخرى فإن الكتاب يظهر حقيقة مهمة جداً وهي قوة المجاهدين الجزائريين وجرأتهم في مجال الحروب البحرية، وهذا دفع الكثير من الدول والقادة إلى البحث عن وسيلة يضمنون بها ولاء هؤلاء المجاهدين أو رضاهم على الأقل، وعندما فشلت كل المحاولات لتحقيق ذلك وصفوهم بـ (القراصنة).

لقد قام هؤلاء الأبطال بحرق السواحل الأوروبية ليس حباً بالقتل والتدمير ولا تأثراً بسمة العصر الذي يمكن تسميته بعصر القتل والتدمير، وإنما هو رد على الممارسات التي ارتكبتها تلك الدول الأوروبية من احتلال للأرض وقتل للأبرياء وارتكاب للمجازر والأعمال اللاإنسانية.

بقي أن نشير إلى أن الكتاب على الرغم من أهميته ودقة معلوماته، فإن مؤلفه قد ارتكب مغالطة تاريخية في إغفاله للدور العربي عندما كان ينسب الأعمال التي كان يقوم بها العرب والبربر للأتراك، وينسب لسكان المنطقة صفات هم في واقع الحال منها براء ـ ولا يمكن الإشارة لها هنا ـ لأن تلك البلاد بأرضها وجبالها، تعشق الحرية، وفي هذه البلاد ولدت الشجاعة، فسكان المنطقة لم يقبلوا الأتراك ليتعلموا منهم البطولة بل لأنهم كان يحملون الراية الإسلامية، ويدّعون حماية العالم الإسلامي في تلك الفترة، ولا يمكننا أيضاً إغفال دور الرابط الديني الذي كان يربط العرب والبربر والأتراك معاً، إذ أن الطابع القومي لم يكن له أهمية تذكر أنذاك.

إن قدوم البحارة الأتراك بادىء الأمر لم يكن بقصد الدفاع عن تلك البلاد ضد الهجمات الإسبانية المسيحية بل جاؤوا إلى المنطقة لممارسة الأعمال البحرية، وحينما لمسوا التعصب المسيحي الرامي إلى قهر سكان المنطقة لكونهم مسلمين، وخاصة ما فعلوه فيما بعد بالمسلمين الأندلسيين حول الصراع من صراع اقتصادي إلى صراع ديني ما بين العالم المسيحي

الممثل آنذاك بإسبانيا والعالم الإسلامي المرتبط بالإمبراطورية العثمانية.

والجدير بالذكر أن المؤلف اتهم عرب شمال إفريقيا عامة بالتعاون مع الإسبان وتناسى أن هناك بعض الأسر العربية الحاكمة التي ارتبطت بالإسبان ووقفت معهم ضد العرب والأتراك على حدٍ سواء.

وإلاّ فكيف نفسر وقوف المرابطين وأصحاب الطرق الصوفية إلى جانب الأتراك؟ وهل يعقل لبضعة ألوف من الأتراك التصدي للإسبان أو للعالم المسيحي بمفردهم؟ وإذا كان البحارة العرب قد تركوا القيادة البحرية للرياس الأتراك فهل يعني هذا نسب البطولات إليهم وتجاهل أبطال الجزائر خاصة والشمال الإفريقي عامة والدور الذي لعبوه على الساحتين البحرية والبرية؟ إن الإدارة العثمانية في تلك البقاع لا تختلف عن مثيلاتها في بقية الولايات التي خضعت لسيطرتهم حيث ساد الفساد وبيعت المناصب وعم الظلم والجور مختلف طبقاتها الإدارية، ولم يكن الظلم وقفاً على التشكيلات العسكرية وحدها بل شمل الإدارة المدنية أيضاً.

إن الفوضى والاضطرابات التي عمت ولاية الجزائر خلال السيطرة العثمانية عليها، كانت نتيجة لاقتتال التشكيلات العسكرية فيما بينها لاستلام السلطة هناك، وقد أدى الولاة دوراً في تعميق الصراع الدائر في الولاية، ومن ناحية أخرى فإن هذه التشكيلات على الرغم من الاقتتال الدائر فيما بينها، فقد أثبتت تواجدها في تلك البقاع، واستطاعت إيقاف الزحف الإسباني، وحققت انتصارات رائعة، ضمنت من خلالها سلامة التراب الإفريقي، بحيث غدا أرضاً محرمة على الأعداء لقرون عدة.

لقد قمت بترجمة الكتاب بأمانة، متوخياً الدقة قدر المستطاع، الأمر الذي أظهر انفعالات وتأثيرات المؤلف بشكل واضح على الترجمة، لكن هذا لا يمنع من التذكير بما قاله العماد الأصفهاني:

«إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، لو زيد هذا لكان يستحسن، لو قدم هذا لكان أفضل، لو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

وقال الدكتور جنسن: (يتوق كل من يؤلف كتاباً إلى المديح، أما من يصنف قاموساً فحسبه أن ينجو من اللوم) وحبذا لو أضاف الدكتور جنسن (أو من ترجم كتاباً) لخفف عنا عبء النقد والذم.

وختاماً فإنني أتوجه بالشكر الجزيل إلى الشيخ الحاج عبد السلام أدهم الذي منحني الشجاعة والجرأة على ترجمة الجزء الأول من هذا المرجع القيم، ولأن ما ترجمه الحاج عبد السلام أدهم سهل عليَّ البحث في الوثائق العثمانية وكان عوناً لي أثناء كتابة أطروحتي يوم كنت في تركيا، وأشكر أستاذي الدكتور محمد خير فارس الذي شجعني للإيفاد إلى تركيا للتخصص هناك، وأستغل هذه الفرصة لأقدم خالص شكري وامتناني إلى الأستاذ ماجد الربداوي قنصلنا العام في استانبول وزوجته للعناية والرعاية التي أحاطمونا بها، كما أقدر لهما تمسكهما بالواجب الوطني والقومي ورعايتهما للطلبة العرب عامة والسوريين خاصة فلهما مني ومن زوجتي التي شاركتني الكفاح وتقاسمت معي هموم البعد عن الوطن الاعتراف بالجميل ممزوجاً بالشكر والامتنان العميق، كما وإنني أتقدم بالشكر إلى جميع الأصدقاء والزملاء.

نسأل الله التوفيق والنجاح في خطانا.

المترجم

ترجمة المؤلف

كتبتُ للسيد سكرتير عام مجلس الأمة التركي أرجوه أن يزودني بالمعلومات المتوفرة لديهم عن السيد الذي كان عضواً في مجلس الأمة التركي عن أذر بيجان سنة ١٩٣٧ م. فبعث ترجمة حاله المختصرة التي قدمها النائب المذكور لمكتب المجلس لما انتخب نائباً وهي مؤرخة في ٢٢ أكتوبر أذكرها فيما يلي:

«تخرجت في سنة ١٣١٧هـ ١٩٠١م بدرجة يوزباشي أركان حرب وذهبت إلى سوريا. وقضيت مدة ثمانية أشهر تدريب في كل من الصفوف الثلاثة (مشاة وفرسان ومدفعية).

وبما أنه لا يمكن استخدام المهندسين النصارى في تخطيط السكك الحديدية المراد مدها بين المدينة المنورة ومكة المكرمة فقد تقرر تدريب سبعة من ضباط أركان الحرب على هندسة الخطوط الحديدية لاستخدامهم كمهندسين في خط الحجاز، وأرسلت إلى حيفا وعملت أثناء مد خط حيفا ـ المزيريب في سوريا في كافة الشؤون الفنية والعملية به. وأخيراً نقلت لأركان حربية الجيش، ثم نقلت من سوريا إلى الروم حيث توليت قيادة الكتيبة المكلفة بمطاردة العصابات. .

اشتركت في جميع أعمال القوات المقاتلة في ألبانيا.

اشتغلت ثلاثة أعوام كوميسيراً لحدود الجبل الأسود.

أثناء الحرب الطرابلسية عملت بصفة تاجر في تونس في خدمة نقليات الجيش.

في الحرب العامة كنت في المقر الرئيسي لأركان الجيش.

في سنة ١٣٢٩هـ ١٩١٣م كنت رئيساً لأركان حرب فيلق الفرسان في وكالة قيادة الفرق وفي رئاسة مكتب التجنيد، وفي أثناء الهدنة كنت متقاعداً.

خلال حرب الاستقلال كنت قنصلاً عاماً لحكومتنا في باطوم ومن ثم عينت لرياسة إدارة تجنيد صامسون وبقيت فيها إلى انتهاء القتال بالنصر.

في سنة ١٩٢٥م عينت كوميسيراً لخطوط ساحل صامسون الحديدية، وبعد انتخابي للنيابة قدمت استقالتي.

والسيد عزيز سامح أيلتر (الترّ) هو ابن شعبان وأمه تدعى ألفت.

ولد سنة ١٢٩٣هـ ١٨٧٧م في كوروتشاي.

يجيد اللغة التركية والفرنسية والألمانية والروسية.

متخصص في الشؤون العسكرية وأعمال السكك الحديدية، متزوج وله أربعة أولاد، انتخب في ١٣/ ١٠/ ١٩٢٧ نائباً عن أذربيجان للهيئة النيابية الثالثة وأعيد انتخابه في الدائرة نفسها للدورات الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة وانتخب للدورة الثامنة بتاريخ ٢/ ١٢/ ١٩٤٨ وهو نائب قارص[١].

(١) أخذت هذه الترجمة من ترجمة الحاج عبد السلام أدهم الذى تفضل بترجمة القسم الثانى من كتاب الأتراك العثمانيون فى إفريقيا للمؤلف عزيز سامح التر وقد قام الحاج عبد السلام أدهم بترجمة ما يتعلق بطرابلس الغرب (ليبيا) وتوس، مما خفف عنى مسأله دراسة حياة هذا المؤلف الشهير، وقد أرسلت عدة رسائل إلى بعض الأصدقاء فى الجماهيرية الليبية مستفسرا عن عنوان الحاج عبد السلام أدهم فلم أوفق، فله منى جزيل الشكر والتقدير مقرونا بالاعتراف لجميله (المترجم)

مقدّمة المؤلف

إن حدود إفريقيا الشمالية لم تتعين بعد تماماً. فمصر ذات التاريخ المستقل والمدينة العريقة كانت دائماً تعتبر خارج هذه الحدود. بعض المؤلفين الأوربيين اعتبروا طرابلس الغرب وبنغازي من إفريقيا الشمالية وكثير من المؤلفين يقرون بأن إفريقيا الشمالية هي الأراضي المرتفعة التي بين المحيط الأطلسي والصحراء الكبرى والبحر الأبيض المتوسط.

إن الجبال التي في إقليم المغرب والجزائر وتونس لا تمتد حتى طرابلس الغرب إلا أن اختلاف الأراضي لا يستدعي اختلافاً في التاريخ.

إن الإيالة التي كان العرب يطلقون عليها إسم إفريقيا في بدء فتوحاتهم ما هي إلا طرابلس الغرب وبنغازي، وبما أنني أريد البحث في تاريخ الأتراك بالشمال الإفريقي ـ ما عدا مصر ـ فقد رجحت الرأي القائل إن طرابلس الغرب وبنغازي تدخلان في هذا التعبير.

لقد ذكر في هذا المؤلفْ باختصار جغرافية إفريقيا الشمالية وتاريخ أزمنة الفينيقيين ثم علاقاتها بالنشاط البحري للأتراك وعبورهم للشمال الإفريقي وسجلت أخبار الجزائر وتونس وطرابلس الغرب كُلاً على حدة.

إن الأتراك لم يحكموا بلاد المغرب إلا أن اشتراك الجزائر في الحدود مع المغرب جعلتني أذكر الحوادث التي قد تؤثر إلى درجة بعيدة في شؤون المغرب الداخلية سواء أكانت قبل مجيء الأتراك لإفريقيا الشمالية أم إبان حكمهم لها. لقد اختصرت تاريخ المغرب قبل مجيء الأتراك بحيث سردت

شبه قائمة بأسماء الحكام. وكان من الضروري أن أستهل ذلك بذكر ماضي المغرب والفوضى التي ضربت أطنابها في إفريقيا والظلم والفساد وانعدام القيم والأخلاق لأثبت أن الإدارة القوية التي أسسها الأتراك في شمال إفريقيا كانت عامل استقرار فيها، كما أني سردت أحوال المغرب بطريقة موازية مع الجزائر بعد دخول إفريقيا الشمالية في يد الأتراك لمنح فرصة المقارنة بين الإدارتين.

ذكرت في آخر هذه المقدمة الكتب (المراجع) التي أطلعت عليها لتأليف هذا الكتاب. وبما أن كل مؤلف يراجع عدداً من المؤلفات لجميع المواد اللازمة للتأليف فإني أظن أن مؤلفات قليلة بقيت خارج نطاق التدقيق. وإن ما يزيد تأليفي قيمةً هي الوثائق التاريخية الهامة التي أخذتها عن المخطوطات غير المطبوعة الكائنة بسجلات الشؤون الهامة للديوان السلطاني.

إن الكتب التي لها قيمة في عالم التأليف تذهلنا كثرتها لأن معظمها كُتِبَ قبل دخول إفريقيا في حوزة الأجانب. لقد كنت يوم كنا هناك نرقُص خيولنا ونهز سيوفنا وفي الأزمنة التي كنا نرفع راياتنا المظفرة خفاقة في أجواء تلك البلدان.

لقد وضعت مؤلفات قليلة عن تلك البلدان الجميلة التي بقيت أكثر من ثلاثة قرون في حوزتنا وإن التفصيلات التي يحتويها التاريخ العثماني قليلة جداً. أما أكثر المؤلفات تفصيلاً فهي تلك الخاصة بمناقب الغازي (بربار وس) خير الدين باشا كما أن وقائع إفريقيا الشمالية الداخلية وعلاقاتها بالأور بيين تكاد تكون مجهولة.

إن السلاطين العثمانيين لم يتعرفوا على هذه الأقطار الجميلة وعلى أبطال الترك ذوي القبضات الفولاذية الذين استولوا عليها واكتفوا بأن أطلقوا عليها إسم أو جاقات المغرب ولم يسعوا لإخفاء الطابع التركي عن تلك المواطن التي خلفوها ببطولاتهم.

وهذه هي مراجع الكتاب:

١ ـ إفريقيا الرومانية تأليف أشلتن.

٢ ـ تأسيس سلالات الأشراف في المغرب وتنافسها مع الأتراك.
٣ ـ تاريخ إفريقيا الشمالية تحت السيادة الإسلامية.
٤ ـ تاريخ الجزائر تحت حكم الترك لمؤلفه غراممونت.
٥ ـ تاريخ المغرب من ١٦٣١ ـ ١٨١٢ تأليف هوراس.

وهذا الكتاب ترجمة للتأليف المسمى (الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب) لمؤلفه أبي القاسم أحمد الزياني.

٦ ـ إفريقيا الشمالية تأليف هنري لورين.
٧ ـ استعمار إفريقيا الشمالية تأليف من «بيكة».
٨ ـ مدينة إفريقيا الشمالية تأليف ـ ف «بيكة».
٩ ـ إيالة طرابلس الغرب تأليف فر. هوفر.
١٠ ـ تونس وطرابلس تأليف ع. شارم.
١١ ـ تونس تأليف جج مارسيل.
١٢ ـ تحفة الكبار في أخبار البحار.
١٣ ـ مرآة الجزائر.
١٤ ـ تاريخ ابن غلبون.
١٥ ـ تاريخ هاممر.
١٦ ـ تاريخ جودت.
١٧ ـ تاريخ واصف.
١٨ ـ تاريخ بيجوى.
١٩ ـ تاريخ نعيما.
٢٠ ـ خير صاحب.
٢١ ـ تاريخ السلحدار.
٢٢ ـ الجغرافيا العامة لأرنس لاغرانح.
٢٣ ـ التاريخي العمومي.
٢٤ ـ تاريخ الترك تأليف رضا نور.
٢٥ ـ تاريخ الترك تأليف نجيب عاصم.
٢٦ ـ قاموس الأعلام تأليف شمس الدين سامي.
٢٧ ـ باربـاروس خير الدين تأليف علي رضا سيفي.

٢٨ ـ الرئيس درغوت تأليف علي رضا سيفي .
٢٩ ـ الرئيس كمال وبابا أورج تأليف علي رضا سيفي .
٣٠ ـ مجلات مجمع التاريخ .
٣١ ـ مجلات الأسطول .
٣٢ ـ مجلات كلية الآداب .
٣٣ ـ غزوات خير الدين باشا الموفقة .
٣٤ ـ المخابرات الرسمية غير المطبوعة المحفوظة بخزانة الأوراق (سجلات الشؤون الهامة للديوان الهمايوني) .
٣٥ ـ تاريخ الإسلام المصور .
٣٦ ـ تاريخ الدول الإسلامية .
٣٧ ـ للملك وللمجالس (حقيقة أسباب قطع العلاقات مع الجزائر) .
٣٨ ـ غزوات خير الدين . منظومة .
٣٩ ـ كتاب البحرية تأليف بيري رئيس .
٤٠ ـ المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب . تأليف أحمد النائب .
٤١ ـ الكتابات التركية والعربية في الجزائر ج ٣ تأليف غابرييل كولين .
٤٢ ـ تاريخ تونس باللغة العربية .
٤٣ ـ خلاصة أخبار تونس مخطوطة لمسجل الأحداث أسعد أفندي .
٤٤ ـ تاريخ منجم باشي المعروف بإسم صحائف الأخبار .

إن مؤلف كتاب (تأسيس سلالات الأشراف في المغرب وتنافسها مع الأتراك) المسجل تحت الرقم ٢ درس جميع الكتب الموضوعية باللغات العربية والفرنسية والإسبانية . كما اطلع على كل الوثائق السياسية وأدى دوراً هاماً في المغرب وأجرى تحقيقات بخصوص ملوك البرتغال وكبار رجالهم وفي تراجم أحوالهم الخاصة ، وقد قام بكل هذه المجهودات لجمع المواد التي ضمنها في كتابه[١] .

(١) أخذت ترجمة المؤلِفْ والمؤلفْ وأسماء المصادر من الترجمة التى قام بها الحاج عبد السلام أدهم ، وقد أشرت إلى ذلك قبلاً . مع خالص امتناني وشكرى له (المترجم) .

مختصر أوضاع الجزائر حتى دخولها في حوزة الأتراك

بادىء ذي بدء تعرض المؤلف إلى جغرافية إفريقيا الشمالية، والتسميات التي أطلقت عليها، ومن التسميات التي ذكرها، موريتنايا، ومملكة الأسود (بلاد الأسود)، مملكة البربر، إفريقيا المسكونة، إفريقيا الصغرى، البربرية وبربرستان.

إن أراضي طرابلس الغرب وتونس والجزائر وفاس تكوّن بلاد الشمال الإفريقي والتي سماها العرب إفريقيا، ولما توغلوا في أراضيها قسموها إلى أقسام ثلاثة هي: المغرب الأدنى والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، لكن حدودها لم تكن واضحة آنذاك.

فقد أطلقوا على فاس المغرب الأقصى وهي لا تزال محافظة على هذا الإسم، والجزائر وتونس بالمغرب الأوسط، وما تبقى من مناطقه الأخرى أطلق عليها إسم المغرب الأدنى، ولكن الأتراك حالما استولوا عليها أطلقوا عليها إسم أوجاق الغرب، وظلت تعرف بأوجاق الغرب طوال خضوعها للسيطرة التركية. ، ومع انتهاء عصر البكلربكية ،صدر فرمان سلطاني بتقسيمها إلى ثلاث أوجاقات هي: أوجاق الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وخرجت فاس من دائرة الأوجاق لكونها لم تخضع للإدارة التركية بصورة مباشرة، على الرغم من اعتراف سلاطينها بالتبعية للسلطان العثماني.

يشكل الشمال الإفريقي ساحلاً طويلاً يبدأ من خليج السلوم وحتى مملكة فاس بطول قدره ٣٩٠٠كم، وهو ساحل تكثر فيه الخلجان، غدت فيما

بعد موانيء طبيعية لأوجاقات الغرب . وقد اقتصرت السيطرة العثمانية خلال المراحل الأولى على المناطق الساحلية ، ثم توسعت وغدت تشمل معظم أراضي الجزائر وتونس وطرابلس الغرب .

لقد عرفت أراضي الشمال الإفريقي خلال مراحل التاريخ أقواماً متعددة الجنسيات ، وما الدويلات التي قامت في بعض مناطقه ، إلا نتيجة لمحاولة تلك الأقوام الاستقرار فيها. ثم انتهى الأمر إلى حدوث صراعات سياسية ساهمت في تجريب مؤسساته الإدارية ، فضعفت قدرته الدفاعية ، هذا الضعف جعله مسرحاً ومرتعاً للتنافس فيما بين سكانه ، وانتهى الأمر به إلى سيطرة قبيلة صنهاجة الملثمة ، التي تمكنت من إقامة إمبراطورية عُرفت تاريخياً بإسم دولة المرابطين .

استمرت دولة المرابطين تفرض سيطرتها على الأجزاء الغربية من المغرب العربي وإسبانيا قرابة نصف قرن من الزمن ، خلفتها بعد ذلك دولة الموحدين ، وقد تمكنت دولة الموحدين من السيطرة على معظم أجزاء المغرب بدءاً بمدينة طرابلس الغرب وأنتهاءً باغادير.

عمل المرابطون وفيما بعد الموحدون على حماية أراضي المغرب من الخراب والدمار وتصدوا بقوة للغزاة ، وحالما بدأت علائم الضعف الإداري تتسرب إلى نظام الأمبراطورية الموحدية ، عادت المنطقة إلى سابق عهدها من الانقسام والتناحر ، ونتج عن هذا التصارع والتناصر ظهور ثلاث قوى هي : الحفصية والمرينية وبنو عبد الواد .

وبما أن بحثنا يقتصر على الجزائر ، يمكننا القول على ضوء ذلك : إن بني حفص وبني عبد الواد استقروا في تونس وتلمسان ، وغدت تلمسان محوراً رئيسياً للصراع ، وهدف بنو حفص وبنو مرين للسيطرة عليها وضمها إلى أملاكها ، لكن حكام تلمسان من بني عبد الواد ، تمكنوا من ضمان سيادتهم المستقلة عنهما لفترة من الزمن ، علماً بأن استقلال بنو عبد الواد في تلمسان ظل مشروطاً لكسب ود صداقة إحدى هاتين القوتين ، وفي أثناء ذلك استغلت قبائل بني هلال وسليم الفوضى القائمة في مناطق المغرب ، فانطلقتا تخربان وتدمران ما تبقى فيه من نظم إدارية .

هذا الضعف والانحلال الذي شهدته مناطق المغرب وخاصة مناطق المغرب الأوسط، عرّضه لحملات استيطانية من قبل البرتغاليين خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر، وتشجعت إسبانيا على مهاجمة أراضي المغرب، ووجهت اهتمامها بشكل خاص إلى الجزائر وتونس، في حين تركزت الحملات البرتغالية على مناطق المغرب الأقصى.

أن الهجوم الإسباني على مناطق المغرب، لم يكن بغالبه يحمل مضامين اقتصادية، بل كان طابعه الرئيسي الانتقام من المسلمين، واستمر ذلك حتى وفاة الملكة إيزابيلا سنة ١٥٠٤م، وكان للوصايا التي عثر عليها فيما بعد الدور الرئيسي في مواصلة الحملات العسكرية ضد مناطق المغرب.

احتدم الصراع ما بين سكان المغرب والإسبان، خاصة بعد استقرار الأندلسيين المهجّرين في سواحل المغرب، فانضموا إلى السكان الأصليين في مهاجمة الثغور الإسبانية، رداً على أعمال الظلم والإرهاب التي مارسها الإسبان ضد الأندلسيين المهجّرين.

هذه العوامل مجتمعة دفعت المسلمين إلى مهاجمة الإسبان والانتقام منهم، وكرد على تسلل الأندلسيين المسلمين للثغور الإسبانية ونهبها وتدميرها، بدأ الملك الإسباني فرديناند بتوجيه حملات عسكرية منظمة إلى مناطق المغرب، بدافع السيطرة والانتقام من المسلمين، والتزاماً بوصايا الملكة إيزابيلا، وتحقيقاً لهوسه الاستعماري، فاختار (دون دييجو فرنانـد دوكور دوفا) قائداً عاماً للحملة الموجهة إلى السواحل المغربية.

وفي العاشر من أيلول سنة ١٥٠٥م رست الحملة الإسبانية أمام المرسى الكبير، وقد ذُهل سكان المنطقة من الهجوم المفاجيء الذي حقق الإسبان من خلاله نصراً ساحقاً، دفع حامية الميناء للاستسلام، وقد ارتكب الإسبان أعمالاً وحشية قلما عرف التاريخ لها مثيلا، وتفيد المصادر الإسبانية أن المدينة غدت خالية من الطيور والحيوانات، ولم ينجُ من سكان الجزائر ألا من تمكنّ من الفرار إلى قمم الجبال.

ولدى سماع الإسبان بانتصار أسطولهم البحري، أقاموا الأفراح ابتهاجاً بهذا النصر، واستدعى الملك فرديناند قائد الحملة دييجو لإكرامه

وتهنئته على ما حققه من نصر مكّنه من إعادة اعتباره ، واكسبه إعجاب وثقة العالم المسيحي .

وهكذا مع بداية القرن السادس عشر، بدأ العرب صراعهم مع الإسبان ، واستمر هذا الصراع قروناً عدة ، تكبد الإسبان خلالها ألوف القتلى ، وقدم سكان المغرب العديد من الشهداء لقاء تصديهم للإسبان دفاعاً عن تراب وطنهم .

لم تقتصر المقاومة المغربية على التصدي للإسبان فقط، بل وقفوا وجهاً لوجه تجاه العالم المسيحي ، وقد شارك الأتراك سكان المنطقة خلال هذه القرون مصابهم وجهادهم ، فاستحقوا بذلك تقدير سكان المنطقة ، وغدا سكان المنطقة ينظرون إلى الأتراك على أنهم أخوة لهم في الدين الإسلامي .

لقد اعتقد الإسبان أنهم سيتمكنون من إخضاع كافة أجزاء المغرب لسيطرتهم ، لكن توزع مشاغلهم باتجاه القارة الأروبية ، وحروبهم مع الفرنسيين ، ومنافستهم للبرتغال في مجال الاكتشافات ، وظهور آل برباروس ، جعلهم يصابون بخيبة أمل كبيرة ؛ جنوا من جرائها الخراب والدمار ليس على مناطقهم فقط بل حل الخراب والدمار على كافة سواحل العالم المسيحي ، حتى مناطق عاصمتهم الدينية شهدت هي الأخرى هجمات مكثفة للمسلمين ، وغدت أعلام أوجاقات الغرب ترفرف فوق المحيطات التابعة للعالم المسيحي .

إن قدوم آل برباروس إلى مناطق المغرب ، واستقرارهم فيها ، وتحمّلهم أعباء الدفاع عنه ـ وانتقاماً من المسيحيين الذين شردوه مع إخوته من جزيرة مديلي ـ أسفر عن خروج الإسبان من المناطق التي احتلوها ، وأصبح الإسبان إزاء ذلك في موقع المدافع عن أرضه ، تجاه الهجمات التي شنها أبطال المغرب وخاصة الجزائر ، وألحقوا بهم خسائر فادحة ، وغدت سواحلهم شبه مهجورة[1] .

ولفهم الحوادث والوقائع التاريخية ، وفي عهد أي سلطان وقعت ، لذلك عمدنا إلى تقديم جدولٍ بأسماء سلاطين بني عثمان .

---

(١) عمدنا إلى تقديم ملخص عن مقدمة الكتاب التى قدمها المؤلف (المترجم) .

الإسم	هجري	ميلادي
١ ـ السلطان عثمان	٦٩٩	١٢٩٩
٢ ـ السلطان أورخان	٧٢٦	١٣٢٥
٣ ـ السلطان مراد الأول	٧٦١	١٣٥٩
٤ ـ السلطان يلديرم بيازيد الأول	٧٩١	١٣٨١

مرحلة الفتور ٨٠٤هـ ١٤٠١م

الإسم	هجري	ميلادي
٥ ـ السلطان محمد شلبي	٨١٦	١٤١٣
٦ ـ السلطان مراد الثاني	٨٢٤	١٤٢١
٧ ـ السلطان محمد الفاتح	٨٥٥	١٤٥١
٨ ـ السلطان بيازيد الثاني	٨٨٦	١٤٨١
٩ ـ السلطان سليم الأول	٩١٨	١٥١٢
١٠ ـ السلطان سليمان القانوني	٩٢٦	١٥٢٠
١١ ـ السلطان سليم الثاني	٩٧٤	١٥٦٦
١٢ ـ السلطان مراد الثالث	٩٨٢	١٥٧٤
١٣ ـ السلطان محمد الثالث	١٠٠٣	١٥٩٥
١٤ ـ السلطان أحمد الأول	١٠١٢	١٦٠٣
١٥ ـ السلطان مصطفى الأول	١٠٢٦	١٦١٧
١٦ ـ السلطان عثمان الثاني	١٠٢٧	١٦١٨
١٧ ـ السلطان مصطفى الأول (للمرة الثانية)	١٠٣١	١٦٢٢
١٨ ـ السلطان مراد الرابع	١٠٣٢	١٦٢٣
١٩ ـ السلطان إبراهيم الأول	١٠٤٩	١٦٣٩
٢٠ ـ السلطان محمد الرابع	١٠٥٨	١٦٤٨
٢١ ـ السلطان سليمان الثاني	١٠٩٩	١٦٨٧
٢٢ ـ السلطان أحمد الثاني	١١٠٢	١٦٩١
٢٣ ـ السلطان مصطفى الثاني	١١٠٦	١٦٩٥
٢٤ ـ السلطان أحمد الثالث	١١١٥	١٧٠٣
٢٥ ـ السلطان محمود الأول	١١٤٣	١٧٣٠
٢٦ ـ السلطان عثمان الثالث	١١٦٨	١٧٥٤

٢٧ ـ السلطان مصطفى الثالث	١١٧١	١٧٥٧
٢٨ ـ السلطان عبد الحميد الأول	١١٨٧	١٧٧٤
٢٩ ـ السلطان سليم الثالث	١٢٠٣	١٧٨٩
٣٠ ـ السلطان مصطفى الرابع	١٢٢٢	١٨٠٧
٣١ ـ محمود الثاني	١٢٢٣	١٨٠٨
٣٢ ـ عبد المجيد	١٢٥٥	١٨٣٩
٣٣ ـ عبد العزيز	١٢٧٧	١٨٦٠
٣٤ ـ السلطان مراد الخامس	١٢٩٣	١٨٧٦
٣٥ ـ السلطان عبد الحميد الثاني	١٢٩٣	١٨٧٦

قائمة بأسماء قباطنة البحر (قبطان باشا) الذين تولوا قيادة الأسطول العثماني منذ خضوع الجزائر للسيطرة العثمانية وقد أخذت هذه اللائحة من أسمرة التواريخ :

الإسم	هجري	ميلادي
١ ـ چيلاق مصطفى باشا	٩٢٦	١٥١٩
٢ ـ كمناقش أحمد باشا	٩٣٩	١٥٣٢
٣ ـ خير الدين بربار وس	٩٤١	١٥٣٤
٤ ـ محمد باشا الطويل	٩٥٣	١٥٤٦
٥ ـ سنان باشا	٩٥٧	١٥٥٠
٦ ـ يبالي باشا	٩٦١	١٥٥٣
٧ ـ المؤذن ابن الشهيد علي باشا	٩٧٥	١٥٦٧
٨ ـ قلج علي باشا	٩٧٩	١٥٧١
٩ ـ إبراهيم باشا	٩٩٥	١٥٨٦
١٠ ـ أولوج حسن باشا	٩٩٦	١٥٨٧
١١ ـ جغاله ابن سنان باشا	٩٩٩	١٥٨٩
١٢ ـ خليل باشا	١٠٠٣	١٥٩٤
١٣ ـ جغاله ابن سنان باشا	١٠٠٦	١٥٩٧
١٤ ـ قايا باشا بن مصطفى باشا	١٠١٠	١٦٠١
١٥ ـ درويش محمد باشا	١٠١٤	١٦٠٥

١٧ ـ حافظ محمد باشا ١٠١٦ ١٦٠٧
١٨ ـ خليل باشا ١٠١٨ ١٦٠٩
١٩ ـ أوكوز محمد باشا ١٠١٩ ١٦١٠
٢٠ ـ خليل باشا ١٠٢٢ ١٦١٣
٢١ ـ شلبي علي باشا ١٠٢٦ ١٦١٧
٢٢ ـ داود باشا ١٠٢٦ ١٦١٧
٢٣ ـ شلبي علي باشا ١٠٢٧ ١٦١٨
٢٤ ـ خليل باشا ١٠٢٩ ١٦١٩
٢٥ ـ الدفتردار مصطفى باشا ١٠٣٠ ١٦٢٠
٢٦ ـ خليل باشا ١٠٣٠ ١٦٢٠
٢٧ ـ رجب باشا ١٠٣٢ ١٦٢٢
٢٨ ـ حسن باشا ١٠٣٥ ١٦٢٥
٢٩ ـ مصطفى باشا ١٠٤١ ١٦٣١
٣٠ ـ جعفر باشا ١٠٤١ ١٦٣١
٣١ ـ دلي حسين باشا ١٠٤٤ ١٦٣٤
٣٢ ـ مصطفى باشا ١٠٤٥ ١٦٣٥
٣٣ ـ السلحدار مصطفى باشا ١٠٤٧ ١٦٣٧
٣٤ ـ دلي حسين باشا ١٠٤٩ ١٦٣٩
٣٥ ـ سياوش باشا ١٠٥١ ١٦٤١
٣٦ ـ أوزون يبالي باشا ١٠٥٢ ١٦٤٢
٣٤ ـ أبو بكر باشا ١٠٥٣ ١٦٤٣
٣٨ ـ يوسف باشا ١٠٥٤ ١٦٤٤
٣٩ ـ موسى باشا ١٠٥٧ ١٦٤٧
٤٠ الدفتردار موسى باشا ١٠٥٧ ١٦٤٧
٤١ ـ فضلي باشا ١٠٥٧ ١٦٤٧
٤٢ ـ عمار زادة محمد باشا ١٠٥٨ ١٦٤٨
٤٣ ـ أحمد باشا ١٠٥٩ ١٦٤٩
٤٤ ـ بيكل مصطفى باشا ١٠٥٩ ١٦٤٩
٤٥ ـ محمد باشا ١٠٥٩ ١٦٤٩

٤٦ ـ علي باشا	١٠٥٩	١٦٤٩
٤٧ ـ درويش باشا	١٠٦٢	١٦٥١
٤٨ ـ شاويش زادة محمد باشا	١٠٦٣	١٦٥٢
٤٩ ـ مراد باشا	١٠٦٤	١٦٥٣
٥٠ ـ مصطفى باشا	١٠٦٦	١٦٥٣
٥١ ـ كنان باشا	١٠٦٦	١٦٥٥
٥٢ ـ محمد باشا	١٠٦٦	١٦٥٥
٥٣ ـ طوبال محمد باشا	١٠٦٧	١٦٥٦
٥٤ ـ شاويش محمد باشا	١٠٦٨	١٦٥٧
٥٥ ـ دلي حسن باشا	١٠٦٨	١٦٥٧
٥٦ ـ علي باشا	١٠٦٩	١٦٥٨
٥٧ ـ حسام زادة علي باشا	١٠٧٠	١٦٥٩
٥٨ ـ عبد القادر باشا	١٠٧٢	١٦٦١
٥٩ ـ قره مصطفى باشا	١٠٧٢	١٦٦١
٦٠ ـ قبلان مصطفى باشا	١٠٧٦	١٦٦٥
٦١ ـ علي باشا	١٠٨٢	١٦٧١
٦٢ ـ سيدي زادة محمد باشا	١٠٨٧	١٦٧٦
٦٣ ـ قرة محمد باشا	١٠٨٨	١٦٧٧
٦٤ ـ قبلان مصطفى باشا	١٠٩٠	١٦٧٨
٦٥ ـ سلاحدار مصطفى باشا	١٠٩١	١٦٧٩
٦٦ ـ مصاحب مصطفى باشا	١٠٩٥	١٦٨٣
٦٧ ـ مصرلي زادة مصطفى باشا	١٠٩٧	١٦٨٥
٦٨ ـ قالالي أحمد باشا	١٠٩٩	١٦٨٧
مصرلي مصطفى باشا	١١٠١	١٦٨٩
٧٠ ـ يوسف باشا	١١٠٣	١٦٩١
٧١ ـ عمجه زادة حسين باشا	١١٠٦	١٦٩٤
٧٢ ـ موزمورتو حسين باشا	١١٠٧	١٦٩٥
٧٣ ـ عبد الفتاح حسين باشا	١١١٣	١٧٠١
٧٤ ـ محمد باشا	١١١٤	١٧٠٢

٧٥ ـ عثمان باشا	١١١٥	١٧٠٣
٧٦ ـ بلطجي محمد باشا	١١١٦	١٧٠٤
٧٧ ـ عبد الرحمن باشا	١١١٦	١٧٠٤
٧٨ ـ دلي باشا	١١١٦	١٧٠٤
٧٩ ـ إبراهيم باشا	١١١٨	١٧٠٦
٨٠ ـ محمد باشا	١١٢١	١٧٠٩
٨١ ـ محمد باشا	١١٢٣	١٧١١
٨٢ ـ إبراهيم باشا	١١٢٤	١٧١٢
٨٣ ـ سليمان باشا	١١٢٥	١٧١٣
٨٤ ـ محمد باشا	١١٢٥	١٧١٣
٨٥ ـ خوجه سليمان باشا	١١٢٥	١٧١٣
٨٦ ـ جانم خوجه محمد باشا	١١٢٦	١٧١٤
٨٧ ـ إبراهيم باشا	١١٢٩	١٧١٦
٨٨ ـ خوجه سليمان باشا	١١٣٠	١٧١٧
٨٩ ـ مصطفى باشا	١١٣٢	١٧١٩
٩٠ ـ عبدي باشا	١١٤٣	١٧٣٠
٩١ . داماد أحمد باشا	١١٤٣	١٧٣٠
٩٢ ـ جانم خوجه محمد باشا	١١٤٤	١٧٣١
٩٣ ـ شاهين باشا	١١٤٤	١٧٣١
٩٤ ـ عبدي باشا	١١٤٤	١٧٣١
٩٥ ـ مرابط سليمان باشا	١١٤٤	١٧٣١
٩٦ ـ سلاحدار أبو بكر باشا	١١٤٤	١٧٣١
٩٧ ـ جانم خوجه محمد باشا	١١٤٥	١٧٣٢
٩٨ ـ لاذ علي باشا	١١٤٥	١٧٣٢
٩٩ ـ سليمان باشا	١١٤٩	١٧٣٦
١٠٠ ـ صاري مصطفى باشا	١١٥٣	١٧٤٠
١٠١ ـ مصطفى باشا	١١٥٧	١٧٤٤
١٠٢ ـ أحمد باشا	١١٥٧	١٧٤٤
١٠٣ ـ محمود باشا	١١٥٩	١٧٤٦

١٠٤ ـ دوراق محمد باشا	١١٥٩	١٧٤٦
١٠٥ ـ ملك محمد باشا	١١٦١	١٧٤٨
١٠٦ ـ قرة باغلي سليمان باشا	١١٦٨	١٧٥٤
١٠٧ ـ عبد الكريم باشا	١١٧٣	١٧٥٩
١٠٨ ـ آمراخور مصطفى باشا	١١٧٤	١٧٦٠
١٠٩ ـ حسن باشا	١١٧٤	١٧٦٠
١٠١٠ ـ كتحدا محمد باشا	١١٧٥	١٧٦١
١٠١١ ـ سيناك مصطفى باشا	١١٧٦	١٧٦٢
١٠١٢ ـ ملك محمد باشا	١١٧٧	١٧٦٣
١٠١٣ ـ آغا محمد باشا	١١٨٠	١٧٦٦
١٠١٤ ـ آغا حسين باشا	١١٨١	١٧٦٧
١٠١٥ ـ طوسون باشا	١١٨٦	١٧٧٢
١٠١٦ ـ سليمان باشا زادة محمد باشا	١١٨٦	١٧٧٢
١٠١٨ ـ إبراهيم باشا	١١٨٦	١١٧٢
١٠١٩ ـ حسام الدين باشا	١١٨٦	١١٧٢
١٠٢٠ ـ جعفر باشا	١١٨٧	١٧٧٣
١٠٢١ ـ جزائرلي غازي حسن باشا	١١٨٨	١٧٧٤
١٠٢٢ ـ كريتلي حسن باشا	١٢٠٣	١٧٨٨
١٠٢٣ ـ كوشوك حسين باشا	١٢٠٦	١٧٩١
١٠٢٤ ـ محمد قدري باشا	١٢١٨	١٨٠٣
١٠٢٥ ـ حافظ إسماعيل باشا	١٢١٩	١٨٠٤
١٠٢٦ ـ حجي محمد باشا	١٢٢٠	١٨٠٥
١٠٢٧ ـ حجي صالح باشا	١٢٢١	١٨٠٦
١٠٢٨ ـ سعيد علي باشا	١٢٢١	١٨٠٦
١٠٢٩ ـ عبدالله رامز باشا	١٢٢٣	١٨٠٦
١٠٣٠ ـ تشارهجي علي باشا	١٢٢٤	١٨٠٩
١٠٣١ ـ حافظ علي باشا	١٢٢٥	١٨١٠

الجُزءُ الأوَّل

الفصل الأول

- ١ -
آل برباروس

أصلهم، أسر عروج، إنقاذه، ذهابه إلى مصر - علاقته بالسلطان قرقود - غنيمة الكخيا (الكاهية) اللئيم - التحرك إلى المغرب - الريس خضر - اتفاق البابا مع عروج.

بعد أن تمكن السلطان محمد الفاتح من فتح جزيرة مديلى سنة ١٤٥٧ م[١] أمر بابقاء حامية عسكرية فيها، وكلفها بالمحافظة على القلعة، وقد ترك السلطان حرية البقاء لمن يرغب من العساكر، وكان غالبية الذين رغبوا بالبقاء في الجزيرة من منطقة الأناضول والروم إيلى (الروميلي)، فانفصلت الحامية الموجودة فيها عن الجيش، وكان من جملة العساكر رجل يُدعى يعقوب وهو شاب من الروميلي ومن فرقة الخيالة، ولم يكن في الجزيرة إسلام، وبما أن الحامية التي بقيت في الجزيرة كلفت بالبقاء بصورة دائمة، فإنها لا تستطيع البقاء بدون زواج، فعُرض الأمر على السلطان محمد الفاتح، فأذن لهم بذلك شريطة رضاء أهل الفتاة، وفي حال عدم موافقة الأهالي على تزويج بناتهن من العساكر، فقد سمح لهم باستخدام القوة، وبناءً على ذلك فقد تزوج يعقوب أمة مسيحية، فانجبت له أربعة أطفال، أكبرهم إسحاق ويليه عروج ثم خضر وكان أصغرهم إلياس.

ولا تتوفر لدينا معلومات دقيقة عن تاريخ ولادتهم، ولكن إسحاق وُلد عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م وعرّوج ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م وخضر ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م ومن

(١) تذكر غزوات خير الدين أن فتح جزيرة مديلى كان سنة ١٤٦٢م.

المحتمل أن تكون هذه التواريخ قريبة من الحقيقة[1].

عمل الأولاد الأربعة بالتجارة، فإسحاق عمل في جزيرة مديلي، وعمل عروج وإلياس بالسفن التجارية، وكانا يذهبان إلى طرابلس الشام والإسكندرية، أما خضر فكان يذهب إلى سلانيك. وسيروز وآغربوز لممارسة الأعمال التجارية هناك، وقد انتفع الأخوة الأربعة من التجارة، وضمنوا بذلك العيش، ولم يعودوا بحاجة إلى أحد.

وفي أثناء إحدى الرحلات التجارية لعروج وإلياس، تعرضا لهجوم من قبل فرسان رودس، وكان هؤلاء الفرسان يمارسون أعمال السلب والنهب، وبخاصة السفن الإسلامية، وغدوا قطاعاً للطرق البحرية في وقت لم يكن هناك قانون ينظم أعمال البحار، وكان القوي يفرض القانون الذي يريده ويرغبه، وإزاء ما فعله هؤلاء الفرسان به وبأخيه فقد أقسم على منازعة قطاع الطرق المسيحيين المتعصبين، ونذر نفسه لذلك.

وعلى الرغم من معرفته السابقة في عدم قدرته على التصدي لسفنهم القوية والكبيرة، فقد اصطدم معهم، وأسفرت النتيجة عن استشهاد إلياس ووقوعه بالأسر، فنقلوه ألى جزيرة رودس وسجنوه فيها[2].

---

(١) غزوات خير الدين (فى المدة التى جاء فيها الأولاد الأربعة) يقال بما أن فتح جزيرة مديلي سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م فإن الطفل الأول ليعقوب لا يحوز ان تكون ولادته قبل سنة ٨٦٧هـ. فخير الدين ولد سنة ٩٥٢هـ ١٥٤٦م وفى هذه الحالة فإن عمره تجاوز الثمانين عاماً، ومن المعلوم أن خير الدين حينما توفى كان عمره ٨٢ سنة، فإذا قبلنا ذلك فإن ولادته تكون سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٧م وإن ولادة عروج ما بين هذين التاريخين، وهذا ما يدفعنا للقول بأن الولد ولد بعد سنتين من هذا التاريخ أى فى سنة ٨٦٩هـ.

(٢) بشأن الإطلاع على حياة الاخوة الأربعه، يعتبر كاتب حلبي في كتابه تحفة الكبار، أدق من كتب عنهم، ويقدم خلاصة عنهم مستقاة من (غزوات خير الدين)، لكنه يذكر لنا بأن الريس خضر هو الذى وقع في الأسر وسجن في رودس. وهو قول مغالط للحقيقة.

فالمنظوم والمنثور من (غزوات خير الدين) كلاهما يذكران بأن يعقوب كان بجوار سلانيك، وهذا أيضاً خطأ كبير لا يقل عن سابقه كما ارتكب خطأ بذكره لسهل أجه (Accova) : ولا نعلم تماماً من أين جاء بذلك، كما أننا لم نتمكن من فهم ما ذهب إليه، فكتاب البحرية العثمانية يرشدنا إلى أن سهل أجه، يقع في شبه جزيرة غاليبولي (Gelibolu) وفي الجهة الغربية لميناء يسمى ميناء الحصان، الواقع في شمال رأس كفالوس (Kefalos) من جزيرة أرموز (Irmoz)، وإذا كان ما ذكره هو جزيرة فاردار (Vardar) القريبه من سلانيك، فليس هناك أى حاجة لذكرها =

كانت جزيرة رودس تحكم من قبل أحد القباطنة وإلى جانبه أعداد كبيرة من العساكر، ومهمتها حراسة الجزيرة وحفظ الأمن فيها، وكان حاكمها يُطلق عليه قبطان أول أو قائد.

وحينما أسر عروج كان غنيمة مشتركة بين رجلين، أحدهما موجود بجانبه بصورة دائمة، ولم يكلفه هذا الرجل بأي عمل من الأعمال حتى ولا بحفر الخندق وردمه، بل قيده بالحديد وتركه يتجول بالجزيرة. تأثر أخوه خضر تأثيراً كبيراً لدى سماعه بوقوع عروج في الأسر، فأخذ يجمع المال لفدية أخيه وإنقاذه، وكان يعيش في جزيرة مديلي رجل مسيحي من أصل رودسي، وهو يمارس التجارة فيها، كما كان يتنقل بتجارته ما بين رودس ومديلي، فتعرف عليه خضر، وطلب منه أن يتوسط لفك أسر عروج، فقبل الرودسي التوسط لفك عروج من الأسر وتخليصه، إذا جمع المال المطلوب، وبحثا الفدية، وقدرت بـ (١٠٠٠) أقجة ذهبية، وبعد الاتفاق ذهبا معاً إلى جزيرة بودروم (Bodrum) ومن هناك تابع الرجل المسيحي طريقه إلى جزيرة رودس للاطلاع على أحوال وأخبار الريس عروج، وتقابل الرجل المسيحي مع عروج، وأخبره بأن أخاه جمع مبلغاً من المال لفديته وإنقاذه، فسر عروج من عمل أخيه كثيراً، لكنه لم يخبر أحداً بذلك، وجلس منفرداً لنفسه، وبعد مدة تنبه لنفسه، وطلب مقابلة الرجل الوسيط ثانية وأثناء إقامة عروج في رودس، تعرف على رجل غني ولطيف، يُقال له ابن سانترى، فشاوره عروج بأمره وقال أنت رجل جيد وطيب وتعلم حالي، وأنني من الأسرى، فأرجو أن تشتريني، ومن ثم بإمكانك بيعي وستربح إن فعلت ذلك، ففهم ابن سانترى قصد عروج وقبل توسله واتفق الإثنان على خطة لا يعلمها غيرهما، وبينما

= في هذه المناسبة. ويفهم من ذلك أن إحدى الروايتين اقتبست عن الأخرى، فدفع هذا إلى وقوع التباس، فغزوات خير الدين مكتوبة بخط اليد وموجودة في مكتبة الطوب قابي، لكن نهايتها ناقصة، وقد دققتها عدة مرات. وفي مكتبة دار الفنون جملة كتب قدمها خالص أفندي من مكتبه الخاصة، وقد عثرت على كتاب بعنوان تاريخ الجزائر، ولدى تدقيقه تبين لي بأنها نسخة منثورة عن غزوات خير الدين، كذلك فقد عثرت في نفس المكتبة عن نسخة أخرى للغزوات وهي منظومة، ولدى مقارنة المنثورة مع النسخة المنظومة يظهر بوضوح أن الكاتب هو خير الدين لأن خير الدين دوّن معاركه البحرية والبرية، وليس هناك أي خلاف في سرد معاركه، كما أن الخط يؤكد أنه خط خير الدين.

كان ابن سانتري يجلس في دكان القباطنة البحرية على عادته، مر عروج وفعل كما اتفق عليه، ونبه الجالسين أمام الدكان على مروره، فسألهم ابن سانتري، الا تبيعونني هذا التركي، وقبل أحد القباطنة ممن يملك حصة بعروج، في حين رفض الشريك الآخر، وأصبح عروج بنتيجة اختلاف الشريكين مجالاً للمساومة، وبسبب تدخل شخص آخر، غدا ثمن عروج ٢٥ ألف قجة ذهبية.

لم يكن القبطان الثاني راضياً عن هذه الصفقة، فباع نصف حصته لشريكه الثاني، فأصبح عروج ملكاً لشخص واحد فقط.

نقل المالك الجديد عروج إلى بيته، وحالما وصل البيت، قيده بالحديد، ورماه في الخندق، وبعد مرور عدة أيام، تكدر عروج وازداد حزنه وألمه، فطلب من أحد حراسه رؤية القبطان، فأخذه إليه، فقال الريس عروج للقبطان، لماذا قيدتني بالحديد ثانية، وتركتني في الخندق، فقال له القبطان: وهل تعتقد أنني سأتركك فأنت لا تعلم كم مرة سأضربك بالحديد، والعذاب والأذى المخبأ لك. ولا أي عاقبة ستنزل على رأسك، وعندما يحين الوقت تفهم ذلك جيداً.

أجابه عروج: أمرك يا سيدي، ولكن ما قصدك من ذلك؟ أجاب الرجل: ما قصدي؟ ألا تعرف؟! أن أخاك أحضر مالاً لا يُعرف مقداره، وهو الآن في بدروم (بودروم)، وأنت لا تريد أن يدفع شيئاً، إذاً انظر إلى نفسك.

بعد هذه المناقشة، أُرسل عروج إلى الخندق، وفي هذه الأثناء، كان السلطان شيخ زادة قرقود والياً على إنطاليا، وكان يهتم بفداء أسرى المسلمين من أيدي النصارى، فهو يجمع بكل ما لديه من ماله تبرعاً لوجه الله، ويرسل هذا المال مع أحد رجاله إلى رودس لانقاذ الأسرى المسلمين واعتاقهم من الأسر.

وفي هذه السنة كلف أحد البوابين بالذهاب إلى رودس، وزوده بمبلغ من المال لافتداء أربعين أسيراً مسلماً، وبعد أن دفع المال المطلوب، نقلهم بسفينة رودسية حتى سواحل إنطاليا حيث سيتركهم هناك، وكان عروج من

جملة مَنْ كلفوا بالتجديف فى السفينة المكلفة بنقل الأسرى إلى سواحل إنطاكيا كجزء من العذاب الذي ينتظره.

وحينما كان الريس عروج في رودس، كانت إحدى قيوده قد كُسرت، وأثناء سفره كمجدف في السفينة، عَرَضَ عليه أحد أصدقائه اعتناق المسيحية.

وبما أنه كان يتقن اللغة الرومية، وممن يتمتع بصحبة لطيفة، أجابه قائلاً: إنني أؤمن بالله فقط، ولن أؤمن بصليبكم، وإن حضرة محمد سينقذني. فضحك الحاضرون لقوله كثيراً. وقالوا له: امسك المجداف كيفما شئت، لنرى متى سينقذك محمدك من هذا المأزق الذي أنت فيها.

وبينما هم يتبادلون الحديث، كانت السفينة قد وصلت إلى سواحل إنطاليا، وقضت ليلتها هناك، وانفصل عن السفينة زورق لصيد السمك، وبقيت السفينة بدون زورق، وأثناء الليل هبت عاصفة قوية، أجبرت الجميع للخلود إلى النوم بعد الإرهاق الشديد الذي عانوه بحارة السفينة[1].

استغل عروج هذا الموقف، فرمى القيد المكسور من قدمه، وكسر القيد الآخر مستغلاً حالة الإرهاق المسيطرة على طاقم السفينة والمجدفين الآخرين، وبعد أن سلم نفسه لله، اندفع بين الأمواج، وظل يسبح إلى أن بلغ الشاطىء، فسجد لله شاكراً، ثم سار على إحدى الطرق بهدوء واطمئنان، ولحسن حظه، كانت إحدى القرى قريبة من الساحل، فلما بلغها دخل صدفة إلى بيت امرأة عجوز، وشرح لها حالته، فاستقبلته، وأخبرت جيرانها، فأسرع القرويون للترحيب به. وكان سكان هذه القرية، يرحبون بالفارين من قراصنة رودس، ويقدمون لهم الطعام والشراب والكساء، وقد خصّوا عروج بإكرام خاص، وبعد أن زودوه بالطعام وبما يلزمه من تجهيزات أخرى أعطوه كمية من النقود.

ولما سكن البحر وهدأت العاصفة، استعدت السفينة للإقلاع، أمر قائدها بتفقد المجدفين، وقد تبين لهم أن عروجاً غير موجود، فاضطرت السفينة للبقاء حتى الصباح، وللتأكد من هربه، كلف قائد السفينة زورقاً فيه

---

(١) أخذ هذا البحث بمجموعه من عرواب حر الدين.

ثلاثة أشخاص بالبحث عنه ، فجاء هؤلاء إلى القرية ، ولدى سؤالهم عنه ، علموا بأنه كان هنا قبل قليل ، وازداد يقينهم ، بعدما رأوا جنزير الحديد مكسوراً ومرمياً على الأرض ، فتذكروا حديثه ، وأنه نجا بمعجزة من النبي محمد، فعادوا إلى السفينة وأخبروا قائدها بما حدث معهم .

تابع قائد السفينة سيره إلى رودس ، وعلائم الأسى والحزن بادية عليه ، بسبب هروب عروج .

كان الريس خضر في بودروم ينتظر خبراً من رودس عن أخيه ، وبعد مدة جاءه الرجل الرودسي ، وأخبره بأن عروج هرب من السفينة ، ولكن الريس خضر لم يصدق الخبر بادىء الأمر ، وعندما أكد له بحارة السفن الموجودة في الميناء صحة الخبر ، عاد إلى مديلي مسروراً ، وتابع عمله بالتجارة والرياسة كما كان سابقاً .

توجه عروج إلى مدينة إنطاليا ، فلما وصلها استراح ليلة ، وفي اليوم الثاني بدأ بالبحث عن عمل في السفن ، وهناك شاهد سفينة ، فاتجه إليها ، وسأل عن صاحبها وحينما قابله ، سأله عما إذا كان يلزمه بحار لسفينته .

كان صاحب السفينة رجلاً لطيفاً ، يدعى الريس علي ، وكان على وشك السفر إلى مصر ، فرحب بعروج وعينه قبطاناً في السفينة . وأثناء تحركهم إلى مصر ، ساعدتهم الرياح بالمسير ، وما إن بلغوها حتى غادر عروج السفينة بكل أدب ، وشكر الريس علي على حسن معاملته .

استقر عروج في مصر ، وبعد مدة من استقراره ، تمكن من مقابلة سلطان مصر ، وعرض عليه العمل لديه ، فقبل سلطان مصر ، وسلمه سفينة من نوع قادرغة(*) .

في هذه الأثناء كان سلطان مصر ، يقوم بإنشاء أسطول بحري ، بهدف إرساله إلى الهند ، فكلف عدة سفن بالذهاب إلى خليج بياس

(*) قادرغة : وهي نوع من أنواع السفن الحربية المستخدمة آنذاك ، وهذا النوع من السفن مخصص لمهاجمة السفن المعادية : تحتوى على ٢٥ مقعداً يعمل عليها ٤٩ مجدّفاً يبلغ طولها من ١٦٥ ـ ١٦٨ قدماً وعرضها من ٢١ ـ ٢٢ قدماً . . . للمزيد انظر :

Resimli Osmanli Tarihi S. 158.

(Payas) لإحضار الخشب اللازم لإنشاء الأسطول، وكانت سفينة عروج من جملة السفن، وحينما وصلوا إلى المنطقة المحددة، نزل بحارة السفن إلى البر لجمع الخشب المطلوب، فعلم المسيحيون بأمرهم، فهاجموا السفن المصرية الراسية في الخليج، وأحرقوا السفن والأخشاب التي فيها، فاضطر بحارة السفن للفرار وتفرقوا في تلك المناطق.

عاد الريس عروج ثانية إلى إنطاليا، وهناك اتصل بواليها الشيخ زادة قرقود. وشرح له حالته، فأمر قرقود بإعطائه سفينة تتسع لثمانية عشر مقعداً، وبعد أن جُهزت السفينة، سلموها للريس عروج، أنزلها إلى البحر، وتحرك بها متجهاً إلى رودس ماراً بين الجزر، وكلما مر على جزيرة هاجمها، فدب الرعب في معظم الجزر، وشكى سكانها أمرهم إلى سيد رودس، فأمر بملاحقة عروج، وبدأت السفن الرودسية بالبحث عن عروج في كل ميناء، وبينما كان عروج نائماً في إحدى الجزر هاجمه فرسان رودس، ففر عروج ورفاقه إلى اليابسة، مصطحبين معهم بعض أطفال الأسرى المسيحيين، والتجأ ثانية إلى السلطان قرقود، ولكنه علم بأن السلطان قرقود ذهب إلى منيسا، فذهب إلى هناك، وفي منيسا تقابل مع صديق السلطان قرقود يبالي بك، فقدم إليه أسيرين وإلى الشيخ زادة قرقود أربعة أسرى كهدية له، وشرح يبالي بك للسلطان قرقود ما حل بعروج، فغضب الشيخ زادة كثيراً، فزوده بكتاب إلى قاضي إزمير، يأمره بتلبية حاجات عروج، وأن يضع له سفينة مؤلفة من أربعة وعشرين مقعداً، لكي ينتقم من المسيحيين، فتوجه عروج إلى إزمير، وسلم الأمر إلى قاضيها، فحدد له القاضي مكاناً مناسباً لإنشاء سفينته، وأمر القاضي بالإنشاء فوراً، وبعد الانتهاء من إعدادها وتجهيزها بشكل جيد، سلمها إلى عروج، فتوجه عروج بسفينته الجديدة إلى فوجه، ومنها ذهب إلى منيسا تاركاً سفينته هناك، والتقى مع يبالي بك، فأخذه إلى الديوان لترقيته بحضور السلطان قرقود، فقلده السلطان قرقود حلة الرياسة الجديدة، وأذن له بالسفر داعياً له بالتوفيق، وكان لدى يبالي بك سفينة خاصة، فوضعها تحت تصرف عروج، وألح عليه بالاتصال به، وطلب منه إرسال شخص من طرفه لدى احتياجه لأي شيء مهما كان، وكان هذا تكريماً وتعزيزاً له، وأوصاه بعدم الاقتراب من بلاد الروم، وترك الديار الأوربية.

وصل الريس عروج إلى فوجه، وركب سفينته بعد أن استعان بالله، انطلق مبحراً بسفينته أولاً إلى جزيرة مديلي، وبعد أن شاهد أقاربه واصل سفره، وقد مر أثناء سفره بالقرب من بوليه، وبينما كان يتجول في عرض البحر، شاهد سفينتين، فهاجمهما، واستولى عليهما، وعاد بعدها إلى سواحل الروميلي قانعاً بصيده، وحالما وصل إلى المكان المسمى (درزى قياس)[1]. الواقع بالقرب من جزيرة آغر بوز، رأى في الميناء ثلاث قليونات[2]. وحالما شاهد البحارة عروج، بدأوا باطلاق النار عليه، محاولين منعه من دخول الميناء، ولكن عروج أخبرهم بأنه لن يتعرض لهم، ولكنهم رفضوا الإصغاء إليه، فقال عروج لأصدقائه (إننا وعدناهم بعدم التعرض لهم ولسفنهم، لكنهم رفضوا، وكسروا بخاطرنا، قاصدين من وراء ذلك إحضار البلاء على رؤوسهم، وبدون أدنى شك سوف يتعرضون إلى مصاب أليم، وكأنهم يقولون لنا، أنتم خرجتم في البحر بحثاً عن الصيد، وها نحن جئنا إليكم، تعالوا فخذونا وقال عروج: والله باستطاعتي تمزيقهم بمفردي)... ووافقه رفاقه، وعلى الفور رفع عروج العلم وأسرع متجهاً إليهم.

التقى الطرفان، وحقيقة الأمر، صدق عروج حينما قال: بأن مصابهم قريب، وهم الذين أحضروا البلاء لأنفسهم، وقد أسفرت المعركة البحرية عن هزيمتهم، وأسر عروج ثلاث سفن من سفنهم، ومن بعدها توجه إلى جزيرة مديلي.

عندما وصل عروج إلى جزيرة مديلي، سمع بأن السلطان قرقود هرب خوفاً من أخيه السلطان سليم وذلك سنة ٩١٨ هـ الموافق تشرين الثاني ١٥١٢[3]. وكان عروج مقرباً من السلطان قرقود ومن أنصاره، وكان الجميع يعلمون بعلاقته مع السلطان قرقود وخاصة سكان مديلي، إضافة إلى تخوف

---

(١) تذكرها الغزوات بإسم (ترد) صفحة ١٢.

(٢) فاليونه) سفينة شراعية، استخدمت فى الأسطول العثمانى منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى. وقليونة كلمة إيطالية الأصل، وهى تستخدم للأسفار الطويلة.
للمزيد أنظر: Resimli Osmanli Tarihi S. 160

(٣) هامر. التاريخ العثمانى.

عروج ، فقد بدأ الأهالي بمضايقته ففر هارباً من جزيرة مديلي .

غادر عروج جزيرة مديلي مصطحباً معه ساحبتين (تشكنري[*]) . وسفينة بحرية كبيرة ، وأحرق السفن الباقية .

توجه عروج إلى مصر ، ولما بلغها قدم عدداً من الأسرى لسلطانها ، وطلب منه السماح له بقضاء الشتاء في الإسكندرية ، فرحب به سلطان مصر واشترط عليه بعض الشروط ومن جملة ما قال له (يمكنك قضاء الشتاء ، شريطة ألا تخاصم أحداً ، أو يشكو منك أحد) . فأجابه عروج بالقبول . وكان سلطان مصر الملك الأشرف قانصوه الغوري .

ومع قدوم ربيع ١٥١٣م خرج عروج إلى البحر بسفنه ، يصطاد من هنا وهناك ، وحصل من جراء ذلك على غنائم كثيرة ، وقد استقر رأيه على اتخاذ جزيرة جربه مركزاً له ، ووضع ماله وغنائمه في مكان أمين فيها ، وعاد ثانية لمهاجمة السواحل المسيحية سنة ١٥١٣م .

أصدر السلطان سليم الأول أمراً بمنع الإيجار في شواطىء الأناضول وموانئها وللتأكد من تنفيذ أمره ، كلف القبطان إسكندر باشا بإحراق جميع السفن التي تقترب إلى هناك ، فقام إسكندر باشا بتطبيق الأمر بحذافيره[١] .

بعد ذهاب عروج ، جاء إسكندر باشا إلى جزيرة مديلي ، وأخذ بمضايقة الريس خضر لكونه أخاً لعروج ، ولأن عروج من أنصار السلطان قرقود ، فاضطر الريس خضر إلى تحميل سفينته بالقمح ، واتجه إلى سواحل المغرب ، طالما مُنع ممارسة التجارة من سواحل الأناضول . ولدى وصوله إلى ولاية المغرب ، قام بتبديل قمحه بالمأكولات والجواري ، ومن ثم اتجه إلى بروزه (Prevze) [٢] . وباع حمولة سفينته هناك ، وفي معرض مشكلور Mesklor باع ما تبقى لديه من جواري للعرب ، بنية الذهاب إلى مناطق

(*) تشكنرى : نوع من السفن الشراعية تستخدم لسحب السفن وهى تعمل بالشراع وبالمجادف .

(١) لم أعثر على قصة القبطان إسكندر باشا ، وقد وجدت لدى معلم التاريخ فوزي كورت أدغلو فى ثانوية البحرية فى مدينة بورصة . وضمن قيودات المحكمة الشرعية أن إسكندر باشا قتل من قبل السلطان سليم الأول . سنة ١٥١٢م .

(٢) تذكرها الغزوات (برون) صفحة ١٣ .

سمندرة Semendire) لكن مشتري السفن تعذر عن دفع ثمنها كاملة ، فاضطر للعودة إلى پروزه ، وهناك باعها لرجل غيره ، وفي أيامايا (Ayamaya) وجد سفينة أعجبته ، فاشتراها ، وقادها ، وكان سابقاً قد اشترى سفينة أخرى ، فأرسلها إلى جربه محملة بالأخشاب والمجاديف . وفي طريق عودته ، أخذ يتجول في عرض البحر مصطاداً ما يصادفه ، وفجأة التقى بأخيه عروج ، وفرح الأخوان بلقائهما ، وفي سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م ، كان عروج متوجهاً إلى جربه لأخذ أشياءه وأمواله بقصد العمل مع البابا ، وبعد الالتقاء مع أخيه قرر الأخوان الذهاب سوية إلى تونس(*) .

باع عروج إحدى سفنه بـ ٤٠٠ قطعة ذهبية ، ودخل تونس محملاً سفينته بالمجاديف ، وكان حاكم تونس آنذاك أبا عبدالله محمد . .

كان حكام تونس واعتباراً من ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م من الحفصيين ، ومنهم أبو عبدالله محمد الأول . ومن بعده أخيه الأمير ذكريا ، وخلفه حفيد عمه أبو عبدالله محمد الثاني ٩٠٧هـ ١٥٠١م دام حكمه ثلاث وعشرين سنة .

خلاصة عن الشاه زادة قرقود[1]

كان للسلطان بايزيد الثاني خمسة أولاد ، يديرون أجمل خمس ولايات في الأناضول وفي تلك الأثناء ، كان الشاه زادة قرقود ، قد عين سابقاً في صاروخان ، ولكن والده نقله إلى صنجق تكه ، غير أن الشاه زادة لم يكن مسروراً من ذلك ، فطلب من والده إعادته إلى صاروخان فرفض والده طلبه بسبب خلافه مع الصدر الأعظم علي باشا . فرد قرقود على والده بانفعال شديد ، وأخبره بنيته الذهاب إلى الحج ، وفعلاً جهز قرقود نفسه وتوجه إلى مصر سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م وقابله حاكم مصر الملك الأشرف قانصوه غوري بترحيب عظيم ، وأخبره عن عزمه الحج إلى بيت الله ، وبعد أن سمح له الذهاب عبر الأراضي المصرية ، وعده الملك الأشرف بالتوسط مع السلطان بايزيد الثاني لحل الخلاف بينهما ، وكان قرقود قد ترك رسالة إلى الصدر

(*) يفهم من هذا أن عروج كان يعمل ببيع المجاديف الخشبية لأصحاب السفن .

(١) شاه زادة : وهي كلمة فارسية الأصل وتعني ابن الحاكم أو ابن الملك وقد استخدمها سلاطين بنو عثمان في ألقابهم .

الأعظم بعدما تصالح معه، يطلب منه التوسط لدى المقام السلطاني، وقبل السلطان وساطة الصدر الأعظم ووافق على ابقائه في صنجق تكه، وأثناء عودته حاول فرسان رودس، مثلما فعلوا بالسلطان جم، ولكنه وصل إلى إنطاليا سالماً سنة ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ م.

ذهب الشاه زادة سليم والي ولاية كفى إلى أدرنة للتحدث مع والده، وطلب منه أعطاءه ولاية الروميلي، ولكنه أعطاه ولاية سمندرة بقصد إبعاده، وحينما علم السلطان قرقود بمجيء أخيه إلى أدرنة، أسرع إلى ولاية صاروخان واستولى عليها، (وكانت نية) كل من سليم وقرقود الاستيلاء على العرش بالرغم من عدم وفاة والدهما، أو كأنهما ينتظران وفاته بأقرب وقت لكن السلطان بايزيد الثاني أرسل جيشاً بقيادة قرة كوز باشا ضد الشقي المسمى (ابن الشيطان) وحالما سمع السلطان بهلاك ابن الشيطان على يد قائده، تحرك من أدرنة إلى استانبول، فعاد الشاه زادة سليم إلى أدرنة عن طريق سمندرة.

وفي ربيع الأول سنة ٩١٧هـ/ حزيران ١٥١١م، أعلن أحد أولاده العصيان والتمرد، فهاجمه وهزمه. وعاد الشاه زادة سليم إلى القرم أيضاً. وكان الشاه زادة قرقود مثل بقية أخوته يطمع بالحكم والسلطنة لنفسه، ولتأكيد صحة الخبر وإعلام أخوته بنيته، دعا الوكلاء واتجه لهم إلى استانبول، وتوقف في ثكنة الإنكشارية، وأظهر قادة الإنكشارية الإقدام والتقدير والقرقود. وبناءً على طلبه اصطحبوه إلى مقام السلطان لتقبيل يد والده، وحينما لم يشاهدوه موفقاً بالخطوة لدى والده، تخلوا عنه. وكذلك تحرك الشاه زادة سليم من القرم إلى إستانبول. وكان الإنكشاريون يحبونه كثيراً، وبعد وصوله إلى إستانبول، سلم عليه كبار الدولة ومن جملتهم أخوه قرقود.

اختار بايزيد الثاني للولاية ابنه أحمد والي أماسيه وفي ١٨ صفر ٩١٨هـ/ ٢٥ نيسان ١٥١٢م قام أحمد وبمساعدة والده بضم بورصة إلى ولايته، ولكن الشاه زادة سليم تحرك بجيشه إلى بورصة، والتقى مع أخيه في ١٢ جمادي الأول ٩١٨ هـ/ ٢٩ تموز ١٥١٢م، ولكن أحمد تنازل لأخيه بعدما تخلى عنه معظم قادته، وغدا سليم الأول السلطان الشرعي بعدما توفي والده.

أصدر السلطـان سليم الأول أمـراً بمنـع أخيه جم من الهـروب إلـى أوربا، كما أصدر أمراً يحذر الجميع من السفـر والتجـول في الأناضـول، وكلف ٢٥ قادرغة بتنفيذ أمره. وفي ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٥١٢م قتل بعض إخوته، وعين أخاه قرقود والياً على صاروخان، فتوجه قرقـود إلـى هنـاك، وأرسل رسالة إلى أخيه سليم بشأن الحكم، فرد عليه سليم يمنحه الأمـان، وطلب منه ألا يخجل من طلب أي شيء يريده، ولكن سليم كان موقناً من أن خلافاً سيحدث بينه وبين أخيه قرقود بشأن السلطنة، فأرسل رسائل سرية إلى أمراء العساكر يطلب منهم التخلص منه، فكشف قرقود الحيلة المدبرة ضده، ففر قرقود مع يبالي باشا، وبينما كان السلطان سليم يتظاهر بالصيد وإلى جانبه جيش مؤلف من ١٥ ألف جندي، كـان قرقـود ويبالي باشا قد وصلا إلى تكه وتنكرا بألبسة القرويين والتجأا إلى إحدى المغائر وبقيا فيها لمدة خمسة عشر يوماً وبعد أن تنكرا دخلا إلى المدينة للبحث عن وسيلة تمكنهما من الهرب إلى أوربا. وقد كلف يبالي بالبحث عن وسيلة نقل وإحضار الطعام.

شاهد القرويون الحصان الرائع الـذي يقـوده يبالـي، وشكّـوا بالأمر، وتعقبوا يبالي بك سراً إلى أن اهتدوا إلى مكان قرقـود، فألقـوا القبض عليه وأحضروه إلى بورصة فأمر السلطان سليم بقتله سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م[١].

من أجل تأكيد وتثبيت ذهـاب عروج وخضر إلى المغرب، فقد كتـب تاريخ ذهابهما من باب التخمين، فحينما سمع عروج بهروب قرقود، تحرك هو من جزيرة مديلي في كانون الأول سنة ١٥١٢م، وعلى الأغلب فالسلطان سليم قتل أخوته في ٢٧ تشرين الأول من نفس العام، وإن السلطان تحرك إلى منيسا بعد ذلك التاريخ، بقصد منع إخوته من الهرب إلى أوربا، وأنه كلف إسكندر باشا بمراقبة سواحل الأناضول في ٢٩ تموز سنة ١٥١٢م.

إذا كان عروج قد تحرك في هذا التاريخ، فمن المؤكد أنه تحرك في منتصف سنة ١٥١٢م وعلى الرغم من شدة المراقبة التي فرضت على سواحل الأناضول، فإن عروج تمكـن مـن الـفرار، ومن المحتمل أن الريس خضر سافر بعد أخيه بزمن قصير، ومن المؤكد أن الأثنين تركا جزيرة مديلي في نهاية

---

(١) هامر التاريخ العثماني.

سنة ١٥١٢م، في حين يذكر بعض المؤرخين وعلى رأسهم دي غراممونت(*). وفور بيك (فوربيكة Forbige) بأن سفر الأخوة بربار وس إلى المغرب هو في سنة ١٥١٠م أو سنة ١٥١٢م.

في حين يذكر بعض المؤرخين أن الأخوة بربار وس كانوا في المغرب قبل سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م فإن المرجع الوحيد الذي يؤكد لنا صحة الأحداث هو (غزوات الريس خير الدين) ويؤكد خير الدين ويؤكد خير الدين في كتابه. أن سفر عروج إلى المغرب تم بعد فرار قرقود، والمصادر التركية تؤكد جميعها أن قرقود هرب في سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م فهذا يعني أن الأحداث سارت كما ذكرت سابقاً.

اتفقت المصادر على أن عروج قضى شتاء السنة التي هرب فيها في الإسكندرية، فهذا يعني أن سفره إلى جربه كان في ربيع ١٥١٣م وأن انتصاره ورجوعه إلى تونس يؤكد لنا صحة ذلك.

إن المؤلفين والمؤرخين الأجانب، يذكرون بأن عروج نال شهرته من القرصنة في المياه المغربية، وهذا صحيح ومؤكد. ومن الممكن أن يكون قد شوهد بعض الرياس الأتراك في المياه المغربية قبل آل بربار وس من أمثال الريس بوراق والريس كورت أوغلو مصلح الدين، والريس سنان والريس بيري، والريس كمال في سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م ونسبوا تاريخ وجود آل بربار وس هناك إلى ذاك التاريخ. إضافة إلى هؤلاء الشجعان فهناك بعض الأبطال ممن أدوا دوراً بارزاً في تلك المنطقة لم نتمكن من التعرف عليهم. وقد دققت في كتاب البحرية العثمانية، ورأيت في مكتبة البحرية نسختين تبرع بهما حسن باشا من جزيرة بوزدة (Bozda) الأولى رقمها ١٦٧٣ ومكتوب عليها (مقدمة من القبطان بيري إلى السلطان سليمان بمناسبة تعريف نامه). والثانية رقمها ١٦٧٤ وعلى الصفحة الأولى كتب أسم (هذا كتاب البحرية) وكلاهما نسخة واحدة. الأولى قديمة، أما الثانية فمن المحتمل أن تكون قد نقلت عن الأولى والخرائط الموجودة فيها رسمت بقلم تخطيط من قبل رسام

(*) بعض المصادر العربية تكتب إسم المؤرخ دي عرامونت والبعض الآخر دي غراممونت وتطابقاً مع كتابه المؤلف له فقد فصلنا كتابتها بالتاء أي (دي غرامونت) (المترجم).

مختص ، على الرغم من أن الرسم والكتابة تؤكدان على قدمهما. أما صور الجبال والسواحل فغير موجودة في النسخة الثانية .

إن هذا الاحتجاج يأتي تأكيداً لصالح الكتاب الأول ، وقد قمت بالتأكد من ذلك ، فجمعت كلمات مقدمة الكتاب الأول (النسخة الأولى) وكان مجموع كلماتها ٩٣٢ كلمة في حين بلغ مجموع مقدمة الكتاب الثاني ٩٠٢ كلمة . وبناءً على هذا فإن ثلاثين كلمة لم تكتب . إما حذفت قصداً ، أو سقطت سهواً ، ومقصدي من ذلك هو أن النهاية ذكر فيها إسم فوزي هادي ، وفوزي هادي ورد ذكره بتاريخ ٩٣٢هـ. أما الريس بيري قبل أن يكتب تعريفاً عن البحر الأبيض فقد كتب حياته ، وكيف أن السلطان بايزيد خان كلفه بخدمة الدولة سنة ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م ومن بعد ذلك كتب عن أسفاره ورحلاته ، وما حققه من انتصارات منذ خروجه من منزله حتى التحاقه رسمياً بالأسطول الهمايوني. واستناداً إلى الشواهد التي ذكرها ، وسرد تفصيلات ما حدث معه ، يؤكد أن هذا الكتاب يتحدث عن الرحلات البحرية حتى سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م. ولم نتمكن من العثور على أي إشارة أو عبارة تشير إلى أن آل برباروس كانوا في المغرب قبل التاريخ المذكور. وذكر في الكتاب الأول في الصفحة ٣١٧ ، وأثناء التعريف بميناء الجزائر أن (القادم من بلاد الروم الريس عروج وأخيه خير الدين، وأن اسمهما ذكر في القلعة) من المؤكد، أنّه إذا كان الريس بيري قد شاهد خير الدين أثناء سفره إلى هناك ، فتكون رؤيته له ، قد حدثت بعد تمركز آل برباروس في الجزائر، وهذا يعني أنه لم يشاهدهما قبل سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م.

في كتاب البحرية كرر الرقم ١٦٧٣ ، كما وجد كتاب مدون باسم (اتفاقيات البحر الأبيض كتاب البحرية للريس بيري) وهو مشابه تماماً لكتب البحرية الأخرى ، وعندما قمت بتدقيقه تبين لي أنه أكثر اختصاراً منهم ، فهو لا يقدم توضيحاً عن مدينة الجزائر ودلس ولا عن آل برباروس ، لكنه أورد تعريفاً عن أطراف مدينة تنس في الصفحة ١١٩ . وما ذكره جاء زيادة عن بقية الكتب الأخرى. ويقال (بأن السلطان لم يهتم بأمر المغرب ، وأن تلك البلاد لا حراك فيها ، كما أنه لم يعد هناك أي قوة لغزوها ، فترك الأسطول راسياً في الميناء ، وقد ازداد شغفاً بقتال الكفار ، ولدى قدوم عروج من بلاد الروم إلى

تلك الديار، وأن السيطرة على القلعة ستكون من نصيب المتفهم والمدرك للوضع القائم هناك، لكن هذا العمل يحتاج إلى مصاريف زائدة وجنود كثيرة العدد). وصرّح في مقدمة الكتاب أنه أتم كتابته سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م عندما كان في غاليبولي، وبناءً عليه يفهم من سياق ما ذكر أن عروج لم يكن في المغرب قبل ذلك. وهذا ما يؤكد لنا أن ذهاب الأخوة بربار وس إلى المغرب كان سنة ١٥١٣م.

أطلق الأوربيون على الأخوين عروج وخير الدين لقب بربـاروس. وبما أن لحية عروج كانت حمراء مائلة إلى الصفرة فقد أطلق عليه هو الآخر لقب بربار وس، وفيما بعد عرف بإسم خير الدين بربار وس واشتهر به. أما أصدقاؤه الأبطال فكانوا ينادون عروج بإسم بابا عروج احتراماً وتقديراً له. والواقع فإن ذلك واستناداً إلى قاموس البحرية يعتبر خطأً كبيراً، لأن كلمة بابا تعني رتبة عسكرية. وأحياناً كانوا ينادونه بابا بك، وإذا كانت كلمة بابا قد وردت في قاموس البحرية بمعنى رتبة عسكرية، فمن المحتمل أن تكون قد أدرجت في القاموس بعد وفاة عروج، واستخدمت في القاموس كرتبة عسكرية، ولكننا لم نجد أي بحار أو قبطان نودي بهذا اللقب سوى عروج. وهو احتمال قريب من الصحة.

- ٢ -

آل برباروس

الاتفاق مع حكام تونس - مناقب الأبطال - الهجوم على بجاية - جرح عروج وقطع ذراعه - نقل الريس خضر للمسلمين الأندلسيين - الهدايا إلى سلطان استانبول - احتلال جيجل والهجوم على بجاية ثانية - احتلال الجزائر - فشل الهجوم الفرنسي على تونس - الهجوم الإسباني ١٥٠٦م وهزيمتهم - احتلال تنس - تقسيم البلاد بين الأخوين - التشكيلات المدنية - تهنئة السلطان ياووز بفتح مصر - غزو تلمسان واحتلال أوجده - الهجوم الإسباني - استشهاد الريس إسحاق والريس عروج .

كانت تونس تحكم من قبل الأسرة الحفصية ، وقد قام أفراد هذه الأسرة بمساعدة القراصنة ، وفي بعض الأحيان اشتركوا معهم ، للحصول على الغنائم ، لتغطية نفقات عساكرهم .

توجه الأخوة برباروس إلى سلطان تونس ، وقدموا إليه الهدايا الكثيرة ، وطلبوا منه منحهم مكاناً يلجأون إليه ، ووافق السلطان الحفصي على ذلك ، مقابل دفعهم خمس الغنائم ، شريطة ألا يتخاصموا مع سكان المنطقة ، وقد منحهم مكاناً في حلق الواد يسمى (جالطة) للإقامة فيه بشكل دائم ، فاختار الأخوة مكاناً مناسباً لهم ، وكان ميناء تونس صالحاً لممارسة أعمال القرصنة ، لكونه تتوفر فيه كافة الشروط المناسبة لهم . كذلك فقد وجد في حلق الواد برج مراقبة صغير وإلى جانبه بناء للجمارك .

عمل الأخوة برباروس على تقوية مركزهم وحصنوه بشكل قوي ، ومن

ثم خرجوا إلى البحر باحثين عن الغنائم البحرية ، وبعد خروجهم للبحر عدة مرات، أدركوا أهمية تونس وما تتمتع به من موقع جيد.

كان القراصنة الأتراك آنذاك يقدرون بمائة بطل تركي ، التفوا حول بعضهم البعض مشكلين أسطولاً بحرياً مكوناً من ١٢ قاليون.

إن بطولات آل بربار وس التي نشأت بجوار جزر رودس استمرت حتى نهاية العمر ، فقد جدد هؤلاء ببطولاتهم الجريئة الأعمال البحرية ، التي وصلتنا من أفواههم ، ولكن بقدر ما هم بسطاء متواضعون ، إلا أنهم نقلوا إلينا صوراً عظيمة من الشجاعة والإقدام.

عندما كان بابا عروج يتجول بجوار جزيرة ألباء شاهد سفينتين حربيتين من نوع باشتاردا(*) ، عائدة للبابا جوليوس الثاني إحدهما تسمى غالية رويال ، وكانتا تحملان أشياءً ثمينة ، قادمتين من جنوه إلى (جيفتا فكيا Civita Vekya) وكان مجدِّفو السفينتين في حالة إنهاك شديد لكثرة ما قاموا من تجديف ، فالرياح كانت خفيفة جداً .

خطط عروج لمهاجمة السفينتين ، لكن الطاقم المرافق له ، اعترض على ذلك ، فرد عليهم بابا عروج برمي قسم من المجاديف التي بحوزته في البحر ، وبعمله أجبر بحارته على اتباع طريق وحيد وهو المهاجمة وبدون مجاديف ، فاندفع مع مرافقيه من البحارة الشجعان إلى داخل سفنهم ينتظرون السفينة المتقدمة أولاً ، وكانت السفينة (غالية رويال) تتقدم ببطء وبدون أن يشعر بحارتها بأن الخطر والموت ينتظرهم على بعد مسافة قصيرة ، ولم يشعر مناوبو (غالية رويال) إلا جنوداً كالسهام تحيط بهم ، والتحم الطرفان في معركة غير متكافئة ، وما أن فتح الأتراك النار على المسيحيين ، حتى ازداد إرباكهم وضعفهم ، وكان الريس عروج في مقدمة المهاجمين ، فقفز إلى السفينة المعادية ، وخلال زمن قصير تمكن بمن معه من الاستيلاء على

(*) باشتاردا : وهي نوع من القادرغة ، ولكنها أكثر قوة وأكثر تسليحاً تحتوى من ٢٣ - ٢٦ مقعداً ، مزدوجة التجديف ، يعمل على المجداف الواحد من ٥ - ٧ أشخاص وهى على نوعين باشتاردا ، ونصف باشتاردا للمزيد انظر:

Resimli Osmanlı Tarihi S. 34.

السفينة ، وأسروا ما فيها ، ووضعوهم في العنبر ، وحتى ذلك التاريخ لم يكن أحد ، قد تمكن من التغلب على السفينة (غالية رويال) . كما طلب عروج من رفاقه مهاجمة السفينة الثانية من الخلف . وقد حاولوا إقناعه بعد مهاجمتها والاكتفاء بما حصلوا عليه ، لأن الموقف صعب ، وقد يتعرضون للخطر ، لكن عروج لم يعتد على التراجع في قراراته ، وبدافع الغرور بالانتصار وإكراماً له التزموا بأوامره واستجابوا لرغبته . فألبس عروج رفاقه ألبسة بحارة السفينة المأسورة ، وانتشروا في السفينة (غالية رويال) منتظرين قدوم السفينة الثانية ، ولم يكن بحارة السفينة الثانية يعلمون بما حدث لغالية رويال ، وبدأت تقترب إليها وهي مطمئنة ، ووسط الاطمئنان والفرح المسيطر على بحارة السفينة الثانية ، فاجأهم عروج بنيران مدفعيته وبثوانٍ حولها إلى كتلة هامدة ، وأسر من بقي فيها حياً ، واتجه عائداً إلى حلق الواد محملاً بالغنائم الكثيرة .

تركت هذه البطولة صدى عميقاً في تونس والعالم المسيحي ، وغدت تلك المناطق في حيرة ودهشة للشجاعة التي أظهرها عروج في البحر ، هذا الانتصار وتلك الشجاعة أكسبته شهرة كبيرة من الصعب تصورها ، فمنذ تلك اللحظة أصبح عروج من أشهر وأشجع القباطنة الذين عرفهم ذاك الزمن[1] . كما أصبح عروج بعد ذلك من أكثر القباطنة البحريين احتياجاً للمجدفين ، ونتيجة لذكائه وخبرته ، تمكن من تلافي ذلك . فقد استخدم عروج الأسرى الطليان الموجودين لديه كمجدفين ، وأسند مهمة القتال للأتراك .

قضى عروج شتاء سنة ١٥١٣م في حلق الواد ، وانصرف خلال ذلك إلى إصلاح ما لديه من سفن ، وزوّدها بالمعدات واللوازم الحربية ، وفي ربيع سنة ١٥١٤م خرج إلى البحر بسفينتين ، وتمكن خلال تجواله من الاستيلاء على سفينة فرنسية محملة بالقمح قادمة من جنوة ، كما شاهد أثناء عودته سفينة ضخمة كالقلعة ، تحمل أجواخاً وأقمشة ، تابعة للإنكليز ، فهاجم الفرنسية أولاً ، وبعد ذلك التحم مع السفينة الإنكليزية بمعركة بحرية قصيرة ، أرغم طاقمها على الاستسلام ، ثم عاد بهما إلى تونس . وتنفيذاً للشروط ، قدم

---

(١) لين بول (Lenpol) تاريخ قراصنة البرابرة صفحة ٣٥ ـ ٧٦ ، علي رضا سيفي ، خير الدين بربا روس .

خمس الغنائم إلى سلطان تونس ، ووزع الباقي على القراصنة وبعد عدة أسابيع ، عاود مهاجمة السواحل المسيحية من جديد، وأثناء تجواله شاهد سفينة إسبانية تنشر أشرعتها ، فهاجمها وسيطر عليها[١] . وكانت مرتبات السفينة عدا طاقمها تقدر بـ ٥٠٠ جندي مسلح من المشاة[٢] . وبعد قتال عنيف ومقاومة ضارية ، تمكن عروج ورفاقه الأتراك من الانتصار على السفينة الإسبانية ، وأسروا عساكرها وقائدها ، وعادوا بهم إلى تونس كأسرى . كذلك فقد اصطحبوا السفينة معهم ، وغدا برباروس يتردد في كل مكان ، وعمت الويلات سواحل البحر الأبيض .

انتشر إسم عروج في جميع سواحل الشمال الإفريقي متموجاً بالفرح والسرور ، وفي هذه الأثناء طلب منه عبد الرحمن المساعدة من أجل إعادة حقه من حكومة بجاية[١] . وعلى الفور لبى عروج طلبه وتوجه على رأس أربع سفن إلى هناك[٢] ، ووجد عبد الرحمن بانتظاره ومعه ٣٠٠٠ شخص[٣] . وأثناء تحرك عروج إلى بجاية ، شوهد من قبل الأسطول الإسباني ، فبدأ بتعقبه وملاحقته .

تصدى عروج لسفن الأسطول الإسباني بكل شجاعة ، وتمكن من إغراق واحدة بالمدافع ، وأسر اثنتين ، وفرت السفن الباقية .

كانت بجاية محتلة من قبل الإسبان ، وبعد استيلائه على السفن الإسبانية[٤] . وضعها جانباً ، ونزل الريس عروج مع ٥٠ مقاتلاً وبعض المدافع ، وعلى الفور باشر بقصف الاستحكامات الإسبانية ، ومن ثم هاجم القلعة[٥] . وبعد ثمان أيام من القصف فتح ثقباً في جدارها[٦] ، وكان عروج يكبر عندما كان يهاجم القلعة ، فسقطت عليه من القلعة قذيفة أصابته في

---

(١) كاتب جلبي .

(٢) علي رضا سيفي (خير الدين برباروس) .

(١) دي غراممونت .

(٢) كاتب جلبي .

(٣) علي رضا سيفي (خير الدين برباروس) .

(٤) كاتب جلبي .

(٥) غزوات خير الدين باشا .

(٦) دي غراممونت .

ذراعه الأيسر فجرحته جرحاً بليغاً، فأسرع رفاقه ونقلوه إلى السفينة، وأوقفوا المعركة بعد ذلك، وانسحبوا عائدين إلى تونس. وفي طريق العودة سيطروا على قطعة بحرية كبيرة، كانت تمر من هناك[1].

أما الريس خضر فلشدة تأثره وحزنه على إصابة أخيه، تجول في البحر باحثاً عن سفينة للإسبان، وما أن قطع مسافة حتى صادف سفينة صغيرة في طريقه، فألقى القبض عليها، ونظراً لقلة أهميتها، أرسلها مع أخيه المجروح إلى تونس[2]. وتابع طريقه مبحراً من تلقاء نفسه، فهاجم منورقة التابعة لجزر البليار، واحتل بعض الأبراج، ودمر وخرب عدة قرى هناك كما شن هجوماً على أميرال كورسيكة وتمكن بسفنه الثمانية من إلحاق الهزيمة به.

واظب الريس خضر تحرشه بالأعداء، واصطدم معهم في حرب طويلة، واشتد القتال بينهم، ولم يتمكن خضر من إحضار السفينتين اللتين أسرهما فتركهما، وعاد إلى تونس مهزوماً.

رغم مداواة ذراع الريس عروج، فإن جرحه لم يشف، فاضطر إلى قطعها، ولحسن حظ الريس خضر، فلم يكن شتاء هذا العام بارداً، فقد كان يبحر وسط العواصف، وفي أصعب الظروف، تمكن من أسر عشرين سفينة خلال شهرين من تحركه، إضافة إلى أسره ٣٨٠٠ شخص؛ كذلك فقد هاجم الريس خضر جزر كناري سنة ١٥١٥م وألحق بسواحلها الخراب والدمار، وأسر منها ١٨٠٠ أسير، ولكنه تركهم مقابل فدية مقدارها ١٢,٠٠٠ قطعة ذهبية.

توقف الريس خضر عن مهاجمة السواحل المسيحية، بعدما لمس أن رفاقه القراصنة يرغبون بالاستراحة واللهو قليلاً.

في إحدى الليالي المظلمة، ذهب الريس خضر لإشعال القناديل، فوقع نظره على أربع قطع بحرية، فظل يرقبها حتى الصباح الباكر، وحينما تأكد من هويتها، شن عليها هجوماً مفاجئاً واستولى عليها، وأحضرها إلى تونس، وكانت تحتوي على ٨٠٠٠ لفة من القماش، كما لمح في ليل اليوم الثاني لدى

---

(١) علي رضا سيفي (خير الدين برباروس).

(٢) غزوات خير الدين باشا.

وقوفه أمام السفن الأربع التى اصطادها ، سفينة تجارية ، ولكنه لم يتعقبها ، لأنها وقعت بأيدي الرياس الآخرين ، فأحضروها إلى تونس ، وكانت سفينة فرنسية محملة بالأخشاب ، وقد استسلمت السفينة دون أي مقاومة لدى سماع طاقمها بإسم بربا روس ، وكانت معظم السفن المسيحية تستسلم فور سماع إسم بربا روس (مثل الفأر لدى سماعه صوت الهر ، هكذا كان مصير السفن المسيحية ، أي صورة يمكنها التعبير عنها في مثل هذه المواقف) فالريس سنان ، حينما كان يتجول في عرض البحر ، إذا التقى بسفينة معادية وتجنباً من حدوث أي مقاومة بينهما ، كان يرفع شارة بربا روس ، فتستسلم السفينة .

قدم الريس خضر السفينة التي غنمها إلى ابن بلده الريس كمال ، كما أرسل هدايا وتحف ثمينة إلى السلطان العثماني ، وطلب من الريس محي الدين إيصالها إلى استانبول[1] .

قدم محي الدين الهدايا المرسلة معه إلى السلطان العثماني ، كما سلم الهدايا الأخرى إلى أصحابها ، سر السلطان بهدايا آل بربا روس ، فوجه إليهم رسالة شكر وتقدير ودعاء بالنصر ، وتقديراً لذلك أمر الريس محيُ الدين بإرسال قادرغاتين مجهزتين مع رجل قوي وأمين[2] .

لدى طرد الإسبان للمسلمين من أسبانيا ، أعد الريس خضر ما لديه من سفن استعداداً لنقل هؤلاء المسلمين من السواحل الإسبانية إلى السواحل الإفريقية ، وقد أنقذ بعمله الكثير من المسلمين[3] .

في سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م دعا أحد زعماء المرابطين عروج إلى بجاية لإنقاذها من أيدي المسيحين نهائياً[4] . فلبى عروج دعوته ، فجهز ١٢ سفينة واتجه مع أخيه الريس خضر ورفاقه . تدارس عروج مع أخيه الموقف ، فصمما أولاً على احتلال المدن الساحلية ، وقررا التوجه إلى جيجل[5] وحالما بلغها اتخذ نقطة استناد قريبة ، وباشر بقصفها ، وبعد مقاومة بسيطة استسلمت المدينة .

---

(١) كاتب حلبي .

(٢) غزوات خير الدين باشا .

(٣) الجزائر ـ أونيفرس (جامعة الجزائر) تاريخ الدول الإسلامية .

(٤) الجزائر ـ أونيفرس . تاريخ الدول الإسلامية .

(٥) كاتب چلبي .

ألقى عروج القبض على الجنود الجنويين (نسبة إلى جنوة) والبالغ عددهم ١٠٠ جندي، وكان عروج قد أنزل قواته في (وادي صومان ـ نهر بجايه) حيث يلتقي النهر بالبحر، وقام بنقل مدفعيته إلى البر، أما القسم الباقي من قواته، فقد تمكنت من دخول الميناء، وبعد أن كلف خمسين شخصاً بحراسة الميناء، توجه في ١ آب سنة ١٥١٥م لمحاصرة دي فانتيرا قائد القلعة[١].

انضم إلى عروج قرابة عشرين ألف متطوع من الأهالي[٢]، وبعد قصف استمر أربعة أيام سقط الحصن الخارجي، وتهدمت الاستحكامات الرئيسية للقلعة، فاندفع المتطوعون لمهاجمة القلعة، واستولوا على القلعة الداخلية، وأسروا خمسمائة شخص عدا القتلى والجرحى، أما حصار بجاية فقد استمر مدة أربعة وعشرين يوماً، أبدى المسلمون خلاله شجاعة فائقة.

خلال هذه المدة فرغ البارود من قوات عروج، وإن كميات البارود التي طلبها قبلاً من سلطان تونس لم تصله، ووسط هذه الضائقة التي يواجهها عروج، وصلت خمس سفن بعساكرها من إسبانيا بقيادة دي مارتين لنجدة القوات الإسبانية[٣].

أما البربر الذين تطوعوا لمساعدة عروج، انسحبوا بعد حصولهم على الغنائم، كذلك فإن عروج أصبح مجبراً على فك الحصار بسبب اقتراب موسم العواصف البحرية، والذي يبدأ مع نهاية أيلول. ولم يكن فك الحصار عن القلعة أمراً سهلاً بالنسبة لعروج، فقال لنفسه: (هنا تركت ذراعي، وها أنا سأترك قلعتي أيضاً، والله لن أعود قبل أخذها) لكنه أُجبر على الخضوع، فشد لحيته بعنف، وكأنه يريد نتفها، وترك القلعة بعدما رفع الحصار عنها.

اضطر عروج لإحراق السفن، لكي لا تبقى غنيمة للأعداء، فالسفن التي تركها في وادي صومان (الواد الكبير) جفت ماؤها، وغدت سفنه على اليابسة، وهذا ما دفعه لإحراقها والتخلص منها، وذهب سيراً على الأقدام

---

(١) الجزائر أونيغرس (جامعة الجزائر) تاريخ الدول الإسلامية.

(٢) دي غرامموت.

(٣) يذكر كاتب چلبي: أن الإسبان أرسلوا ٢٠٠ سفينة تحمل ١١ ألف مقاتل، هو قول مبالغ فيه.

مسافة ٦٠ ميل براً حتى وصل أسوار جيجل. ويرد بعض المؤرخين أن من أهم الأسباب التي دفعت سلطان تونس للتخلي عن آل بربا روس، تخوفهم من ازدياد نفوذهم، وتصورهم أن عروج وأخاه ربما يتوجهان لإحتلال تونس عندما يتمكنان من طرد الإسبان نهائياً من تلك الديار.

أما السفن الثلاث التي تركها عروج بالقرب من جيجل، فكانت واحدة للريس خضر وهي بـ ٢٤ مقعداً، والاثنتان الباقيتان منهما للريس عروج، وأثناء غيابهما، استولى الأهالي عليهم، وذهبوا بهم إلى البحر لاصطياد السفن المسيحية، وقد سُر عروج بهؤلاء الأصدقاء الشجعان، وبقي معهم، في حين ذهب الريس خضر بالسفن الثلاث إلى تونس، وهناك اشترى أربع سفن أخرى، وانضمت إليه سبع سفن متطوعة، وبعد أن جهزهم بشكل جيد، أبحر للقرصنة بأربع عشرة سفينة، وقد انضم إليه خلال هذه الرحلة البحرية القبطان مصلح الدين بأربع عشرة سفينة.

ينتمي مصلح الدين إلى عائلة كورث أوغلو (أولاد الذئاب)، وهي عائلة اشتهرت ببطولات بحرية ضمن مياه البحر الأبيض المتوسط، وقد اكتسب مصلح الدين أوغلو شهرة لا تقل عن شهرة آل بربا روس.

تجولت الثمان والعشرون سفينة بحرية في المياه الإقليمية الإيطالية، وبالقرب من جنوه، شاهدوا ثمان سفن محملة بالقمح، وثلاث عشرة سفينة محملة بالقماش فهاجموهم وأسروهم جميعاً، وبعد أن باع الريس خضر ما لديه من غنائم، ودع صديقه مصلح الدين عائداً إلى جيجل[1].

احتلال الجزائر:

تصدى سكان الشمالي الإفريقي بكل عنف وشجاعة للأطماع الإسبانية والبرتغالية وأعلنوا تمردهم احتجاجاً على أعمال العنف والاضطهاد التي يمارسونها ضدهم، وتزعم المرابطون الثورة والجهاد، وهذا ما أكسب المرابطين حب الأهالي لهم والتفافهم حولهم.

تبنى أحمد بن القاضي فكرة الجهاد، وجاهر بها ودعا الناس إلى التمسك

(١) كاتب جلبي.

بالإسلام والدفاع عنه ضد الأعداء الطامعين به ، فلبت القبائل المجاورة دعوته ، وانضمت إليه وأيدته بكل قواها[1] .

صمم أحمد بن القاضي على إخراج الإسبان من قلعة بنون ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، لأن القلعة المذكورة بنيت فوق جزيرة صخرية ، تبعد عن مدينة الجزائر حوالي ٣٠٠م . وإن تمركز الإسبان فيها ، مكّنهم من التحكم بمدخل ومخرج المدينة ،فتسببوا في شل الأعمال البحرية الجزائرية . وعلاوة على ذلك ، فقد فرضوا على سكان المدينة تقديم ضرائب نقدية وعينية ، أرهقت الجزائريين ، وأشعرتهم بالذل والعار .

حكمت قبيلة مزغنة الجزائر منذ القديم ، وحينما تولى سالم التومي إدارة الجزائر ، إلتجأ إلى الإسبان بسبب ضعف شخصيته ، وطلب منهم التدخل ومساعدتهم لإعادة الأمور في الجزائر ، والقضاء على الثورة التي قامت ضده[2] .

رفض سكان الجزائر التجاؤه إلى الإسبان ، وبغية التخلص من الوصاية الإسبانية عليهم ، استنجدوا بعروج وطلبوا منه المساعدة .

أيد أحمد بن القاضي رأي الأهالي ، وشجعهم على ذلك ، وأخبرهم بأن سلامة المسلمين في الجزائر لن تُصان إلا بتدخل آل بربار وس ، وذلك من أجل طرد الإسبان من القلعة الصخرية التي غرست كالشوكة في أعناق الجزائريين .

اجتمع الأهالي مع سالم التومي وقرروا دعوة الريس عروج إليهم ، فأرسلوا إليه رسالة يلتمسون فيها مساعدتهم ، وتخليصهم من الإسبان أعداء الدين . وكتبوا له عهداً بالسماح له بالعيش والإقامة في مدينة الجزائر .

قبل الريس عروج طلبهم بكل سرور وكان منذ زمن بعيد ينتظر مثل هذه الفرصة ، فجمع قواته ، وحمّل ست عشرة سفينة بالمدفعية والذخيرة ، وأرسلها مع نصف جنوده بحراً . أما النصف المتبقي والبالغ عدده / ٨٠٠/ رفيقاً

---

(١) أوغست كور (Oğüst Kur) .

(٢) بنو مزغنه فرع من فروع صنهاجة .

(يولداش)(*) ، فتوجهوا بقيادته براً إلى مدينة الجزائر[1] . وفي الطريق انضم إليه ٥٠٠٠ شخص من القبائل ، وحالما وصل مدينة الجزائر ، ذهب لتوه إلى مدينة شرشال فاحتلها ، وترك فيها حامية لحراستها ، ومن ثم عاد إلى مدينة الجزائر ، ولم يُعرف سبب هذه الحركة تماماً[2] .

يعتقد أن عروج قصد من هذه الحركة تأمين مكاناً للالتجاء إليه وقت الشدة ، أو أنه كان ينتظر وصول بعض المهاجرين الأندلسيين لضمهم إليه وكسبهم لجانبه . أو بانتظار أخيه الذي أرسل له خبراً بضرورة الالتحاق به ، وبهذه الحركة يكسب الزمن الكافي لدراسة الموقف بوضوح تام[3] . وهذا الاعتقاد قابل للنقض والاعتراض .

دخل بابا عروج إلى الجزائر سنة ١٥١٦م ، وكان باستقباله الأمراء والأعيان ووجهاء المدينة وأعداد كبيرة من أهاليها! ورحبوا به ترحيباً حاراً ، ووعدوه بالوقوف بجانبه ، أما الريس خضر فقد ترك في جيجل حامية مؤلفة من ٣٠٠ جندي ، وتوجه إلى تونس ، وهناك تقاسم الغنائم مع مصلح الدين كورت أوغلو الذي لحق به بعد فراقهم في عرض البحر ، وفي هذه الأثناء وصلت من استانبول قادرغتين مع محي الدين ، كان السلطان سليم الأول قد أرسلهما هدية إلى آل برباروس ، وبعد أن سلم محي الدين الهدايا ورسالة السلطان ، قفل عائداً إلى استانبول ، وفي الوقت نفسه وصلت سفينة من جزيرة مديلي تحمل أخاه إسحاق[4] .

بعد استقبال أهالي الجزائر لعروج ، أرسل عروج خبراً إلى قائد الحامية الإسبانية ، يطلب منه الانسحاب من قلعة بنون وتسليمها إليه ، فرد عليه قائد

(*) يولداش Yoldas ومعناه رفيق الطريق ، وهو خطاب متداول من الأوجاق العثمانية للجنود الذين من اختصاص واحد أو الرتبة الواحدة ، انظر: تاريخ العثماني المصور صفحة ٣٤٦.

(١) دي عراممونت.

(٢) لم يذكر لنا كاتب جلبي شيئاً عن ضبط شرشال ، ويذكر جوان أن ضبطها تم سنة ١٥٢٠م وأن قره حسن أقام فيها حكومة صغيرة ، ولكن هذا غير مؤكد ، فقره حسن قتل من قبل رجل لأنه وجه إهانة لعروج .

(٣) الجزائر ـ أونيغرس .

(٤) غزوات خير الدين باشا .

القلعة الإسباني : لن نغادر القلعة لا بالسلم ولا بالحرب ، وذكّره بذراعه الذي فقده أثناء حصار بجاية . وحقيقة الأمر كانت القلعة قوية جداً ، وقوتها هي التي دفعت قائدها إلى الرد بهذا الشكل ، وكان عروج يدرك ذلك جيداً ، ولكنه أراد تخويف الإسبان ، وإظهار قوته تجاه الأهالي الذين ينتظرون منه إنقاذهم من هذه الحراسة البغيضة وتلبية لرغبة الجميع باشر بقصف القلعة .

أقام عروج بطارية مدفعية مؤلفة من ثمانية مدافع ، قصفت القلعة لمدة عشرين يوماً قصفاً مستمراً وبدون انقطاع . وبما أن مدافعه كانت ضعيفة ، لذا فإن القصف لم يترك أي أثر على جدار القلعة ، وهذا ما جعل الأهالي يفقدون ثقتهم بالقراصنة ، كما أنهم ندموا كثيراً على دعوتهم لهم ومنحهم الثقة ، يضاف إلى ذلك ، أن عظمة القراصنة وغرورهم كان سبباً في تخويف الأهالي ، وغدوا قلقين من تواجدهم في مدينتهم ، ووصل الأمر بهم إلى حد تناسي إسبان القلعة .

عمل المهاجرون الأندلسيون الذين استقروا في مدينة الجزائر باللأجرة لدى الأتراك ، وكان غالبية سكان الشمال الإفريقي ، يتطلعون أولاً إلى تحقيق المنفعة الذاتية ، وبمعنى آخر أنانيون يكرهون الخير للغير ، ولهذا تظاهروا بالنفاق لاعتقادهم بأن عروج ورفاقه لم يحققوا لهم ما يصبون إليه ، فانقلبوا عليهم لأن مصلحتهم الذاتية غدت مهددة بالخطر والدمار بسبب وجود الأتراك ، فاندفعوا بشراهة للاتفاق مع الأعداء ضد أخوتهم في الدين ، وحتى الذين لا يخضعون للسيطرة الإسبانية ، بدأوا يلعبون الدور ذاته وبشكل جنوني ، فالأتراك لن يمكنوا حكمهم ألا بمقدار ما يملكوه من سلاح ، هذا الأمر فرض عليهم تحصين البلاد وتقويتها ، وتسليم إداراتها ليد قوية ، تحسباً لمعارك جانبية قد يواجهونها رغماً عن إرادتهم ، حفظاً على سلامة البلاد وسلامة أهاليها .

فسالم التومي رجل ضعيف لا حول له ولا قوة ، فالأجانب يهاجمونه من الخارج ، وفي الداخل يعم الفساد مختلف أرجاء المدينة ، وكافة إداراتها ومؤسساتها ، والذين من أمثاله لا يصلحون للحكم ، وبقدوم الأتراك تغيرت الأمور وتبدلت ، فكبار شخصيات مدينة الجزائر وأعيانها ، أصبحوا نادمين على دعوتهم الأتراك بالقدوم لمساعدتهم ، ولهذا اتفقوا مع الإسبان بائعين

ضمائرهم وأنفسهم ، ولما علم الريس عروج بتلك الخيانة ، وما اتفقوا على تدبيره ، أمر البحارة بالوقوف على أبواب الجامع من يوم الجمعة المتفق عليه ، وألقى القبض على جميع القائمين بالفساد ، وأمر بقتلهم ، أما سالم التومي فقد علقه في باب عزون وتركه عدة أيام ، ومن ثم أعلن الريس عروج حكمه رسمياً على البلاد . أما ابن سالم فقد فر إلى وهران والتجأ إلى المسيحيين ، طالباً نجدتهم لاستعادة الحكم من الأتراك .

بعد أن حكم الريس عروج المدينة ، فرض إجراءات أمنية مشددة ، فخيم السكون والهدوء على مختلف مناطق المدينة ونواحيها ، إزاء ذلك ازدادت ثقة العرب والبربر بصدق نية الأتراك ، وأظهروا استعدادهم للتعاون معهم ، وقد استطاع الأتراك كسب ثقة الجميع من خلال معاملتهم الجيدة للأعيان والعلماء والأهالي ، وبتطبيقهم العدل على الجميع ، إضافة إلى ذلك ، فإن معاملة عروج للعلماء ، واستشارتهم في أمور البلاد ، ساهمت في إزالة الفوضى ، وأشعرت الجميع بالطمأنينة .

أسند الريس عروج للأتراك الوظائف الكبيرة والمهمة ، كما عمل على تأسيس إدارة جيدة ، ونظم الضرائب حسب الأصول ، وقام بترميم وإصلاح القلعة والأسوار ، وزاد في بناء نقاط الاستحكام ، ووزع الحرس عليها ، كما أرسل مفارز عسكرية إلى القبائل المجاورة ، وألزمهم بالطاعة ، ثم وجه قوة إلى دلس استولت عليها ، وأصدر عفواً عن المذنبين ، وحذر الجميع من الإخلال بالأمن أو ارتكاب الفوضى والانحراف .

ترك ظهور آل بربروس في مياه البحر الأبيض المتوسط ، وتمكن القراصنة الأتراك من فرض سطوتهم وسلطانهم عليه أثراً بالغاً ، أشعر المسيحيين بالضيق الشديد ، ولحقت بهم من جراء ذلك أضرار كبيرة ، وخاصة الفرنسيين .

أرسل الفرنسيون أسطولاً بحرياً مؤلفاً من ٣٣ سفينة من نوع ماعونة إلى تونس(*) ، وأنزل الأسطول جنوده في بنزرت ، وكان هناك الريس مصلح

(*) هي سفينة من طراز الساحبة (القاطرة) تحتوى على ٢٦ مجدافا مزدوجا ، وهي أكثر ارتفاعا من القادرغه ، حمولتها ٦٠٠ جندي و ٢٤ مدفعا . . . للمريد انظر مصور التاريخ العثماني ص ١٩٩ .

الدين كورت أوغلو، فترك الريس مصلح الدين أربع سفن خارج الميناء، وتوجه فوراً إلى القلعة، وأغلق أبوابها، ولكي يتمكن الفرنسيون من الاستيلاء على القلعة، فإن الأمر يتطلب منهم إرسال قوة عسكرية من جهة البر، وهذا يتطلب منهم زمناً طويلاً، فأسرعت سفن الأتراك الموجودة في مدينة تونس لنجدة بنزرت، ودارت بين الطرفين معركة دموية ضارية، أسفرت عن فوز الأتراك، وأجبروا الفرنسيين على الهرب مخلفين وراءهم ست سفن، فشعر الفرنسيون بالذل والعار، ولغسل عارهم وتعويض ما فقدوه من سفن وجنود، توجهوا إلى خلق الواد، لإبادة الأتراك الموجودين هناك، لكنهم اصطدموا بقوة صخرية قاسية، فالريس خضر موجود في حلق الواد، ومستعد لمواجهتهم، ولم يغضب من محاولتهم محاصرة القلعة، لعلمه بعدم قدرتهم على ذلك، لا لأنهم أنزلوا قواتهم إلى البر، ولكن غضبه كان بسبب تعطل القراصنة عن القرصنة لمدة شهر أو شهرين عقب هزيمة الفرنسيين ومغادرتهم للمنطقة، جهز الريس خضر أربع قادرغات مزودة بخمسة عشر مدفعاً، أخذها من السفن الفرنسية المتروكة، إضافة إلى تجهيز ٥٠٠ شخصاً بكامل أسلحتهم، وكلف أخاه الأكبر إسحاق بقيادتهم، والتوجه بهم إلى الجزائر.

فرح الريس عروج برؤية أخيه وأصدقائه فرحاً شديداً[1]. وقد عمد الأتراك بعد تمركزهم في الجزائر على تشكيل حكومة قوية في شمال إفريقيا، شكلت خطراً كبيراً على الحكومات المسيحية وخاصة إسبانيا التي اعتبرت الشمال الإفريقي مناطق نفوذ لها. وعلى أنها لقمة سهلة يمكنها ابتلاعها متى شاءت، ولكن الأحداث تغيرت، وطرأ على المنطقة مستجدات جديدة شملت مختلف مناطق الشمال الإفريقي، اختل على أثرها التوازن الإسباني، لكن التجاء ابن سالم التومي إليهم أعطاهم حجة قوية للتدخل بأمور الجزائر، ولهذا أخذوا يعدون الخطة لاحتلالها، واتفقوا مع الرياس المحليين بغية توجيه ضربة شديدة تنهي قراصنة الأتراك وتنفيذا للخطة المدبرة، فقد أعلن أمير تنس تمرده، وتحالف عرب متيجة مع الإسبان المقيمين في قلعة بنون، ووجه حاكم تلمسان دعوة رسمية إلى الملك الإسباني يلتمس منه مد يد

(١) غزوات حير الدين باشا.

المساعدة، فأصدر الوكيل الإسباني (باش وكيلي ـ رئيس الوكلاء) الكاردينال كزيمنسين أمراً في صيف ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م بإرسال خمسة وثلاثين سفينة تحمل خمسة عشرة ألف جندي، وعهد إلى دييجو ديفيرا بقيادتها، والتوجه إلى الجزائر لمحاصرتها، ومساعدة القوة الأهلية المتحالفة معهم، والمكونة من العرب والبربر والإسبان الموجودين في الجزائر(١).

استعد عروج مع الأتراك والمهاجرين الأندلسيين ـ الذين احترقت قلوبهم من ظلم الإسبان ـ للتصدي للأعداء ومقاومتهم، يساندهم بعض الأهالي والقبائل(٢).

اصطدم الطرفان في قتال دامي ومستميت، وخاب ظن القوى المتحالفة بالمقاومة التي واجهوها، وتجنباً من تعرضهم جميعاً للإبادة، أجبروا على الفرار مخلفين وراءهم حمولة ١٢ ألف جمل من الغنائم وأكواماً من القتلى، وأصبح كل فرد فيهم يبحث عن إنقاذ نفسه(٣).

وفي ٣٠ أيلول سنة ١٥١٦ م عاود الإسبان الكرة. ورسى أسطولهم في ميناء الجزائر. وفي اليوم الثاني أنزل الأسطول قواته بالقرب من وادي مرسال(٤). في مكان يسمى المسبح(٥). والمعروف حالياً بموقع الداي حسين(٦).

وعلى الرغم من أن قائد حصار بنون نيقولادي كنت، قد وجّه نصائحه للجنرال بترك قوات احتياطية لحماية مؤخرته وتأمين رجوعه، ألا أن الجنرال زج كامل قواته، وتجاهل نصائح دي كنت، إضافة إلى هذا فقد وقع في خطأ كبير، فزجه كامل قواته أعطى الأتراك فرصة أكبر للتحرك، بحيث أصبح خط القتال يمتد من ساحل البحر حتى حي الأتراك الواقع ضمن القلعة الداخلية. (٧).

---

(١) دي عراممونت.

(٢) كاتب چلبي.

(٣) دي غراممونت.

(٤) فور بيكة (فوربيك) يقول أن الإسبان نزلوا في باب الواد شرقي مغاسل قرب باب عزون.

(٥) دي غراممونت.

(٦) الجزائر ـ أونيغرس (جامعة الجزائر) تاريخ الدول الإسلامية.

(٧) جامعة الجزائر (أونيغرس ـ الجزائر) تاريخ الدول الإسلامية.

تمكن الإسبان من محاصرة القلعة، واحتلال بعض الأبراج، نتيجة للهجمات المكثفة التي شنوها على القلعة، فرفعوا أعلامهم عليها.

غدت القوات الإسبانية الهائلة العدد، في حالة ضياع بسبب طول خط القتال، ولأنها لا تملك خبرة قتالية[1]، فقد جُمعت من مختلف المدن الإسبانية ونقلت إلى أرض تجهلها، وغير قادرة على التحرك كيفياً، فهي تحتاج إلى قيادة توجهها، واتساع خط القتال زاد من ضياعها وتشتتها، وهذا ما سهل على بابا عروج استرجاع المواقع التي احتلها الإسبان سابقاً، بفضل الهجوم المعاكس الذي شنه عليها.

شعر الإسبان بعدم قدرتهم على متابعة القتال والصمود أمام هجمات بابا عروج القوية والخاطفة، فأصدر قائد الحملة أمراً بالانسحاب، وفي الحقيقة لا يمكننا تصور الموقف أو تقدير القوة المعاكسة التي قام بها بابا عروج، فسيوف الأتراك لم تفسح لهم مجالاً حتى للهزيمة والانسحاب، ولم ينجُ من القوة الإسبانية سوى ألف جندي، وحتى نجاة هؤلاء كانت بفضل قائد حصار بنون.

أما سفنهم فقد دمرتها العاصفة البحرية التي هبت فجأة، واستمرت تزداد قوة إلى أن ألقت بالأسطول الإسباني والمكون من ١٤٠ سفينة فوق رمال الشاطىء، ما عدا السفن الثقيلة فركبها الجنرال دييجو ديفيرا عائداً إلى بلاده، بعدما صُفع من قبل صاحب اليد المبتورة الريس عروج. فاستقبله الإسبانيون بأهاريج السخرية، وظل القائد المسكين موضوع سخرية الإسبانيين لفترة من الزمن[2].

وكان من أهم الأسباب التي أوقعت الإسبان بالهزيمة، عدم التهيؤ والاستعداد، إضافة إلى تخلي أمير تنس عبدالله عن وعده.

إثر هزيمة الإسبان وانسحابهم، أرسل الريس عروج إلى أخيه خبر فتحه للجزائر، وطلب إليه التحرك إلى جيجل فور استلام رسالته، وأعلامه عن موعد وصوله.

---

(١) دي غراممونت.

(٢) جامعة الجزائر. (أونيغرس - الجزائر).

تحرك الريس خضر فور استلامه الرسالة إلى جيجل ، وعند وصوله إلى جيجل تلقى رسالة أخرى من أخيه عروج ، يطلب منه إلقاء القبض على أحد العملاء ممن كان يقوم بإخبار الإسبان عن تحركات عروج[1] .

أنزل الريس خضر خمسمائة شخص إلى المدينة ، وألقى القبض على العميل المذكور ، وأرسله إلى أخيه عروج ، وقد عفا عنه عروج شريطة إحضار الضريبة التي جمعها من الأهالي بحجة تقديمها للإسبان . وفي الحقيقة فقد كُلف هذا العميل علاوة عن ترصد حركات عروج ونقلها للإسبان ، بجمع الضريبة المفروضة على الأهالي ، وكانت تشتمل على ٧٠٠٠ قطعة ذهبية ، و ٧٠٠ كيلة من قمح و ١٠٠٠ رأس غنم و ١٠٠٠ رأس بقر و ١٤ حصاناً[2] .

كان حاكم تنس مولاي عبدالله من عائلة بني زيان ، ومعظم عائلات الشمال الإفريقي تتصف بالقساوة ، وليس غريباً أن يكون أحد أفرادها عدواً لأخيه وحتى لنفسه أيضاً ، وعند نشوب أي خلاف مهما كان بسيطاً يفر الفرد العادي أو الحاكم لتوه يلتجىء إلى الإسبان ، وقد تعددت مثل تلك الحالات ، والإسبان كانوا يلبون رغبة الفار ، وترسل قوة لعزل أخيه وتنصيبه مكانه ملكاً على البلاد ، وحتى المعزول إذا التجأ إليهم يفعلون ما فعلوه مع الأول وهكذا دواليك . وهذا ما جعل الأهالي يسأمون من لجوء حكامهم إلى الإسبان ، ولكي يتخلصوا من ذلك ، استنجدوا بعروج طالبين منه إنقاذهم من مولاي عبدالله المتعاون مع الإسبان .

في الواقع كان الريس عروج ناقماً على مولاي عبدالله ويتحين الفرص المناسبة ، للتخلص منه ، وبما أن الأهالي طالبوا عروج بإنقاذهم منه ، فقد اغتنم ذلك ، فبعد أن عين أخاه وكيلاً له على الجزائر ، تحرك على رأس قوة تتألف من خمسمائة جندي من الأتراك ومهاجري الأندلس ، فاستولى على المدية ومليانة وبليدة ، وأثناء تنقلاته حارب بقسوة بعض العائلات الكبيرة ممن ارتبطت مع الإسبان ، قاصداً من عمله ، جعلها عبرة لكافة عائلات الشمال الإفريقي . وبالقرب من بليدة التقى مع أمير تنس ودارت معركة حامية

---

(١) كاتب جلبي . إن الشحص العملي هو شيخ البلد ورئيس البلد بآن واحد .

(٢) في سنة ١٥١٥ احتل عروج جيجل ، وقد ، فرض الإسبان الضريبة المذكورة أعلاه على سكان القلعة بعد سفر عروج إلى تونس .

الوطيس على ضفة نهر الشليف، وعلى الرغم من قلة عدد الأتراك وقلة البنادق التي بحوزتهم، فقد تمكنوا من الانتصار على قوات تنس وظلوا يلاحقونهم حتى دخلوا المدينة[1].

أغلق التونسيون أبواب مدينتهم، واستعدوا لمقاومة الأتراك، لكن الأتراك دخلوا المدينة عنوة بعد مقاومة استمرت يومين، وألقوا القبض على العصاة، كما أخذوا لهم أربع سفن كانت في المدينة[2].

لم يعامل عروج أهاليها معاملة قاسية، لكنه فرض عليهم ضريبة عالية، وغنم ما في حوزتهم وعاد إلى الجزائر سنة ١٥١٧م.

توسعت حكومة عروج بشكل خيالي، وقد عامل أخاه كمعاملته لذاته، فحينما عزم عروج على تقسيم إدارة البلاد، خصص لأخيه خمس بلديات في شرق الجزائر، وخصص خمس بلديات في غرب الجزائر لنفسه.

أدى عمل عروج إلى تقسيم البلاد، وإضعاف وحدتها، ولم تجلب مسألة التقسيم للبلاد إلا الخراب والدمار.

اختار الريس خضر مدينة دلس مركزاً لمناطقه الخمس، وقد وضع الأخوان أسس دولتهما، فعينوا قواداً وكتاباً لهما، وأحصوا السكان والأبنية والقرى والقصبات (المدن الصغيرة) وسجلوا وارداتها ومصاريفها[3].

كانت أعمال الأخوة موحدة سواء في البر أو البحر. فقد تحركوا سوية مع الرياس في البحر، فأحرقوا السواحل الأوربية وهدموها، وهذا ما جعل الكثير من كبار تجار البندقية وجنوة ونابولي يفقدون أبصارهم، نتيجة لتحديقهم الطويل في الأفق البعيد، منتظرين عودة سفنهم التي لن تعود[4]..

في ١١ محرم ٩٢٣هـ/ الموافق ٣ شباط ١٥١٧م تمكن السلطان سليم الأول من احتلال مصر، فأرسل له الريس عروج مع الريس مصلح الدين كورث أوغلو الهدايا والتحف الثمينة كتبريك له بفتح مصر، وقد عرض عليه

(١) دى غراممونت.
(٢) عزوات خير الدين باشا.
(٣) عزوات خير الدين باشا.
(٤) سان بول: تاريخ قراصنة الجزائر.

مراسيم العبودية والطاعة، وأعلم السلطان سليم الأول بما حققه من انتصارات هو ورفاقه الأبطال، فرد عليه السلطان سليم بجواب تقدير وإعجاب وتقبل عرض عروج بكل ممنونية[1].

غزو تلمسان :

تقع مدينة تلمسان في وسط المغرب، وهي تحتل أهمية كبرى نظراً لأهمية موقعها ومركزها الهام، ففي شمالها يقع سهل هنايا الواسع والممتد باتجاه الغرب، أما من الطرف الجنوبي فتحتضنها جبال ذات صخور حمراء، تشكل لها حصناً طبيعياً من الصعب على الغزاة اختراقه.

كانت مدينة تلمسان قديماً تقع في الجهة الشمالية الشرقية لمدينة أغادير، وكانت تسمى بوماريا، وفيما بعد قام يوسف بن ناشفين بتأسيس مدينة تقرات مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، ثم أمر بضمها ألى مدينة أغادير، وعلى بعد ثلاث كيلو مترات منها يقع موقع المنصورة. المؤسس من قبل أبو يعقوب حاكم بني مرين في بداية القرن الرابع عشر الميلادي، وغدا موقع المنصورة قاعدة عسكرية لجيشه أثناء فرضه الحصار على تلمسان، وبعد أن أخضعها لسلطانه، غدت المدن الثلاث تشكل مدينة تلمسان الحالية.

كانت مدينة تلمسان في منتصف القرون الوسطى مركز المغرب الرئيسي، وقد ظلت محافظة على أهميتها لفترات تاريخية طويلة، وموقعها المهم دفع كل من المرابطين والموحدين وبني مرين للتهافت عليها، وضمها لأملاكهم، وفي نهاية العصور الوسطى غدت تلمسان مركزاً رئيسياً للمبادلات التجارية بين أوربا والشمال الإفريقي، واستناداً إلى أقوال بعض المؤرخين، فقد بلغ عدد نفوسها آنذاك ١٢٥,٠٠٠ نسمة، لكن مدينة تلمسان لم تحافظ على أهميتها. ففي بداية القرن السادس عشر بدأت بالإنهيار بسبب تسلط الإسبان عليها، إضافة إلى ذلك فإن الحكام الذين عينوا عليها من قبل الإسبان لم يعملوا على تقويتها وتحصينها، وشيئاً فشيئاً بدأ الإهمال والفساد يسودها، وقد ظلت عائلة بني زيان تحكمها فترة من الوقت، ففي سنة ١٤٧٥م

(١) سفر مصلح الدين لمقابلة السلطان سليم في مصر، كان ما بين ٣ شباط سنة ١٥١٧م بعد فتح السلطان لمصر، وقبل عودته إلى سوريا في ١ أيلول سنة ١٥١٧م.

حكمها محمد ثابت بن المتوكل وفي سنة ١٥٠٥م خلفه ابنه أبو عبدالله محمد، وفي سنة ١٥١٦م خلفه أبو زيان، لكن أنصار عمه أبو محمد عارضوه، وتمكنوا من خلعه في نفس السنة، وسجنوه في قلعة المشور الداخلية، وحكمها أبو حمو باسم حمو الثالث، ولكنه ظل تحت الحماية الإسبانية[1].

بنيت قلعة تلمسان الداخلية في المكان الذي نصب يوسف بن تاشفين خيمته، أثناء حصاره لأغادير سنة ٥٥٠هـ/ ١٤١٥م يبلغ طول القلعة ٤٩٠م وعرضها ٢٨٠ وهي على شكل مستطيل، وقد بنيت القلعة في الطرف الجنوبي للمدينة، وفيما بعد اتخذها حكام الموحدين مقراً لهم، ومن بعدهم بنو مرين، وكان ولاة بني مرين يقيمون فيها ويتشاورون فيها، ولهذا سميت القلعة بقلعة المشور.

وبقدوم الأتراك إلى الشمال الإفريقي غدت أرضاً محرمة على الإسبان. وقد شعر أبو حمو الثالث بالخطر، فاتصل بالإسبان واتفق معهم سراً لطرد الأتراك من الجزائر قبل أن يستفحل خطرهم على المنطقة، وتعهد بمهاجمتهم من ناحية البر على أن يتكفل الإسبان بمهاجمتهم بحراً.

كان حاكم وهران وقائدها ماركي دي غومارس من أكثر المتحمسين لذلك، ولم يكن أهالي تلمسان راضين عن حكم بني زيان لهم، بسبب ارتباطهم مباشرة بالإسبان، كذلك فلم ينسوا ما فعله أبو حمو الثالث بابن أخيه واغتصابه للسلطة منه، وكانوا يدركون جيداً حرصه على الارتباط بالإسبان، وهذا ما أدى إلى كرههم له، إضافة إلى أنه أثقل كاهلهم بالضرائب، وغدا الإسبان كأنهم حكام تلمسان الحقيقيين.

كان سلطان تلمسان مكلفاً بدفع ضريبة سنوية للإسبان مقابل استمراره بالحكم وكانت الضريبة تتألف من: ١٠,٠٠٠ قطعة ذهبية و ١٠,٠٠٠رأس من الغنم و١٠٠٠ ثور و ١٠٠٠ كيلة من القمح و ١٤ حصاناً و ١٤ عبداً أسوداً، إضافة إلى ذلك فقد كان مكلفاً بتأمين الأرزاق لعساكرهم الموجودة في وهران والمرس الكبير والمناطق المجاورة لهم[2].

---

(١) دي غرامموت.

(٢) غزوات خير الدين باشا.

عقب استقرار الأتراك في الشمال الإفريقي حولت تلك الضريبة إليهم، لأنهم أصبحوا القوة الفعالة، إزاء ذلك تخلى الأهالي عن أبي حمو، وأفتى علماء المسلمين بقتل جميع الحكام المرتبطين الإسبان.

علم عروج وأخوه بما يجري في تلمسان واستعد الأخوان للرد على أي حركة تصدر عن الإسبان ومؤيديهم، ولم يستطع الأهالي تحمّل الإهانات التي ألحقها أبو حمو لهم، نتيجة لارتباطه ارتباطاً وثيقاً بالإسبان، فشكلوا وفداً وكلفوه بالذهاب إلى الريس عروج لطلب المساعدة منه وانقاذهم من الحكام الغرباء[1].

سر عروج بطلب أهالي تلمسان، لأنه كان يتشوق لذلك، فأعد قواته وتوجه إلى تلمسان بعد أن ترك أخاه خضر نائباً له في الجزائر[2].

عندما علم أبو حمو بما عزم عليه أهالي تلمسان، لجأ إلى إثارة الحقد والكراهية لدى أغنياء تلمسان، منبهاً إياهم إلى أن جيش عروج سينهب المدينة ويدمرها، آملاً من ذلك انضمامهم إليه ومساندته. لكنه فشل في ذلك ورفضوا بشدة الوقوف إلى جانبه.

سلك عروج أثناء توجهه إلى تلمسان الطريق الواقعة شرق وهران والبعيدة عن مسكره، تحسباً من وقوعه في أي كمين مفاجىء، وتابع طريقه باتجاه قلعة بني راشد[3]. وقبل وصوله إلى تلمسان بأربعة فراسخ، اصطدم مع جيش للأعداء مؤلف من ثلاثة آلاف جندي وستة آلاف خيال، لكن عروج تمكن من الانتصار عليه ولاحقه حتى تلمسان، وقد حاول أبو حمو دخول المدينة، لكن الأهالي أغلقوا أبواب المدينة ومنعوه من الدخول، وحالما وصل عروج فتحوا له الأبواب واستقبلوه بالترحاب[4].

---

(١) دي غراممونت.

(٢) يذكر دي غرامونت أن الريس عروج بعد احتلاله لتنس، طلب التلمسانيون مساعدته، لذلك عهد إلى أخيه إسحاق بأخذ ٣٠٠ جندي للتمركز في قلعة بني راشد، والمحافظة عليها.

(٣) بنيت قلعة بني راشد على جبل البربر، فوق رابية عامودية، يبلغ ارتفاعها ٨١٤م وقد ذكرت من قبل ابن خلدون بإسم قلعة هوارة، وهي تقع على طريق مستغانم وهنين ومسكرة، ويذكر فور بيك أن المسافة من هنين حتى القلعة تستغرق نصف ساعة سيراً على الأقدام.

(٤) لم يتعرض أحد من المؤرخين لهذه المعركة سوى دي غرامونت.

وكان الأهالي قبل فتح الأبواب لعروج قد أخذوا عليه عهداً بعدم هدم المدينة ونهبها وإلحاق الضرر بها، فأقسم عروج على القرآن الكريم، بأنه لن يلحق بهم الضرر، وأنه سيبقى الحكم بعائلة بني زيان[1].

فر أبو حمو أول الأمر إلى فاس ومنها ذهب إلى وهران. ثم تابع طريقه إلى إسبانيا إسوة بمن سبقوه من أفراد العائلات الحاكمة في المنطقة للالتجاء والتآمر.

أطلق عروج بعد دخوله المدينة سراح أبي زيان حاكم تلمسان السابق، وسلمه الحكم، وبما أن أهالي تلمسان معتادون على الفوضى وينفرون من النظام، سرعان ما كرهوا إدارة الأتراك الصلبة والقاسية، وغدوا يتشوقون إلى الإدارة القديمة المملوءة بالفوضى والاضطراب، وحينما علم عروج بسوء نواياهم، أدرك بأن ذلك سيؤدي إلى سفك الدماء وقتل الأبرياء من أهالي المدينة، فأسرع بإلقاء القبض على أبي زيان وأعدمه، ثم أعلن نفسه حاكماً على البلاد[2].

قام عروج بعد إعلامه استانبول بالانتصارات التي حققها، وما يحتاجه من قوات ومعدات حربية، وبتطبيق النظام، ففرض إجراءات أمنية مشددة، وضرب بقسوة مثيري الشغب والأشقياء، كما أرسل مفارز عسكرية إلى المناطق المجاورة لأخذ الطاعة منها، وقام باحتلال وجدة ونبدة، وأخضع قبيلتي بني عامر وبني إيسناسن، ولم تكن قوات عروج أثناء سيره إلى تلمسان كافية إلى الحد الذي يمكنه من التصدي للقوات الإسبانية التي أعطيت لأبي

---

(١) جامعة الجزائر (الجزائر - أونيفرس) يتردد إسم هذا المصدر كثيراً ورغم بحثي الشديد والدقيق في قائمة أسماء المؤلفين فلم أتمكن من التوصل إلى معرفة إسم المؤلف، والأسئلة التي طرحتها على الكثيرين أيضاً لم توصلني إلى نتيجة، فاضطررت معذوراً إلى ترجمنه كما ذكر سابقاً (المترجم).

(٢) لم يذكر لنا دى غرامونت. أن ابن زيان عاد ثانية إلى الحكم. وكل ما ذكره لنا أن بنى زيان خنقوا جميعاً، وهذا ما جعلها أشبه بالخرافة، وحسب روايه (جامعة الجزائر - تاريخ الدول الإسلامية أن ابن زيان قتل مع أولاده - أما الحكام الآخرون فقد خنقوا جميعاً فى حاووز (صهريج) القصر، وأن هذا الصهريج يقع بين بابى فاس ووهران يبلغ طوله ٢٠٠، وعرضه ١٠٠م وعمقه ثلاثة أمتار وقد بنى فى عهد يوسف بن تاشفين، ويذكر لنا جوان أن ٢٢ شخصاً من عائلة بنى زيان خنقوا فيه سنة ١٥١٨م، لكنه لم يذكر لنا من قبل من، وما هى أسماؤهم.

حمو، فكتب عروج إلى أخيه يطلب منه جمع أكبر قوة ممكنة والإسراع بها إلى تلمسان لاحتلال قلعة بني راشدالواقعة على الطريق الواصل ما بين مدينة الجزائر وتلمسان، والتمركز بها لجعلها نقطة استناد لقواتهما.

أما من الناحية السياسية فقد أجرى عروج اتفاقاً مع بني وطاس حكام فاس ضد الإسبان[١]. وبنفس الوقت قام الريس عروج بإصلاح وترميم جميع أسوار القلعة وأبراجها وتعزيز نقاط الاستحكام فيها كما قام بجمع الضرائب من المناطق المجاورة، وبتخزين كميات كبيرة من المواد الغذائية، وأمن احتياجاته من المعدات الحربية والبارود، وبما أن أبا حمو قد التجأ أولاً إلى قائد وهران الإسباني ماركي دي غومارس الذي زوده بتقرير ليقدمه إلى الملك الإسباني، وكتب في التقرير الذي سيعرض على المجلس الملكي الإسباني. إن المصلحة الإسبانية تقضي بضرورة احتلال تلمسان أو إقامة حكومة عربية فيها موالية للعرش الإسباني، وبقيام هذه الحكومة يتعزز الوجود الإسباني في المنطقة ويتسع نفوذه ليشمل كافة السواحل الإفريقية، كذلك فأن الضرورة تقتضي طرد الأتراك من تلمسان وربطها بهم، وقد اقتنع المجلس الملكي الإسباني بما جاء في تقرير دي غومارس، لذلك قرر إرسال قوة له مؤلفة من عشرة آلاف جندي[٢].

كان الريس بو رقبة من الرؤساء الذين يتمتعون بنفوذ قوي بجوار

---

(١) بالنظر إلى كتابات المؤلفين الإسبان حول اتفاق عروج مع الفاسيين نلاحظ أنهم يشككون بوجود أي اتفاق بين عروج وحاكم فاس، لأن الجيش الفاسي وصل إلى مليلة عندما استشهد الريس عروج، فالريس عروج عندما كان يحارب على مدى ستة أشهر، كان الفاسيون يبعدون عنه مسافة عدة أيام، وعلى من هذا كله فلو أن الفاسيين أرادوا تقديم المساعدة لعروج لما استطاعوا، إضافة إلى ذلك على افتراض أن المعاهدة معقودة فعلاً، لما خاطر عروج القيام بمثل ذلك قبل أن تتحرك القوات الفاسية لمساعدة. وحتى أثناء الحصار لاستطاع فكه بحركة بسيطة من قبل الفاسيين، ولتخلص مما هو فيه، لأن القوة الإسبانية ليست بالقوة الكافية لمقاومة الطرفين ومن المحتمل أن تكون هناك نية لقيام مثل هذا الاتفاق ولكن أمير فاس لم يكن جاد بذلك، ولهذا لم يوليه اهتمام يذكر، كما أنه مشكوك بقدرته على تقديم المساعدة لذلك انسحب من عقد الاتفاق.

(٢) جامعة الجزائر (أونيغرس ـ الجزائر).

تلمسان، وكان هو الآخر قد لجأ إلى القائد الإسباني ماركي دي غومارس، وطلب منه مساعدة عسكرية لمحاربة الأتراك مزودة بثلاثة آلاف جندي، كما كلفه بقطع خط الارتباط بين عروج وأخيه خضر، علم الريس بورقبة بتحرك الريس بقوة مؤلفة من ستمائة جندي من أجل مساعدة أخيه، فأرسل خبراً للإسبان في وهران يطلب منهم مساعدة أخرى، فأُرسل له ستمائة جندي من وهران[1]. وفي هذه الأثناء كان الأتراك قد وصلوا إلى قلعة بني راشد واحتلوها، ومن ثم رأوا أنه من المناسب لهم اتخاذها نقطة لمهاجمة الإسبان.

اقترب الإسبان مع حلفائهم من القلعة وكادوا أن يلتصقوا بها، فاغتنم الأتراك حلول الظلام وشنوا عليهم هجوماً عنيفاً، تشتت القوات الإسبانية على أثره، وتمكنوا من أسر مئة شخص وقتل سبعمائة شخص أيضاً، في حين فر الباقون باتجاه وهران حاملين معهم أنباء الهزيمة التي حلت بهم.

لم يكن بمقدور الأتراك استخدام كافة ما لديهم من قوات في جميع المعارك التي اشتركوا بها، وذلك بسبب قلة عددهم من جهة، ولكثرة أعدائهم من جهة أخرى، أما في هذه المرة فقد بلغ عدد القوة التي أرسلها الريس خضر مع أخيه إسحاق ونائبه إسكندر تتراوح بحدود ستمائة جندي من خير مقاتليهم الأبطال[2].

ذُهل ماركي دي غومارس عندما سمع بما حدث لقواته في قلعة بني راشد، وعلى الفور أرسل قوة أخرى مع أبي حمو تتألف من ألفي جندي أوربي، كما جهز قوة إضافية من الأهالي مقابل مبالغ من المال، وأرسلها إلى قلعة بني راشد بعدما عهد إلى مارتن دأرغوث بقيادتها عمد مارتن دأرغون فور وصوله إلى تطويق القلعة بقصد محاصرة الأتراك وقطع الإمدادات عنهم، ولكسر الحصار الذي فرضه الإسبان عليهم، قام الريس إسحاق مع إسكندر بشن عدة هجمات خاطفة على القوات الإسبانية، وألحقوا بها خسائر فادحة،

(١) في غزوات خير الدين باشا ذكر أن قوات أبو حمو كانت تتألف من ١٥ ألف جندي مزودة بـ ١٥٠٠ رشاش، وبجمع هذه القوة مع الأهالي الذين انضموا إليه يكون العدد تماماً كما ذكر سابقاً.

(٢) جامعة الجزائر: تم نقل هذه المعلومات عن لسان رجل كورسيكي اعتنق الإسلام.

لكنهم فقدوا عدداً كبيراً من الشهداء الأبطال ، أما الأهالي الذين يقاتلون مع الأتراك ، فقد انسحبوا من القلعة ، وبانسحابهم بدأ الخوف والإرباك ينتشر بين صفوف المقاتلين وخاصة بعدما علموا بنفاذ ما لديهم من أرزاق .

بدأت القوات الإسبانية تقصف جدران القلعة بالمدفعية ، ونتيجة لطول القصف وشدته ، فتح ثقب في جدار القلعة[1] ، ورغم ما حدث فقد ظل الأتراك يقاومون بشجاعة وبسالة ، ورفضوا تسليم القلعة ، لكن مقاومتهم ضعفت شيئاً فشيئاً ، واضطروا مؤخراً لتسليم القلعة ، بعدما نفذ جميع ما لديهم من مؤن وأرزاق ، واشترطوا لتسليمها أن يخرجوا بأمتعتهم وأسلحتهم إلى تلمسان ، وبغية تطبيق الاتفاق بشكل سليم ، طالب الإسبان تسليم ١٢ شخصاً منهم كرهائن .

قبل الإسبان شروط الأتراك ، وحالما ركب اليولداش الخيل وبدأوا بالخروج من القلعة بدأ الإسبان يعترضون سبيل الأتراك محاولين منعهم من أخذ أسلحتهم . إلا أن الأتراك رفضوا تسليم أسلحتهم ، ونتج عن هذه المشادات قتل جندي إسباني ، فأعطى القائد الإسباني إشارة الهجوم على الأتراك ، إزاء ذلك قاوم الأتراك هجمات الإسبان مقاومة عنيفة وبطولية ، وظلوا يقاتلون حتى آخر جندي منهم ، ولم يبق منهم إلا الرهائن الذين أرسلوا إلى الإسبان ، وبعد أن كُلف أبو حمو مع عدد من جنوده بالمحافظة على القلعة وعاد مارتن دأرغوث إلى وهران في كانون الثاني سنة ١٥١٨م[2] .

عهد ماركي دي غومارس إلى مارتن دأرغوث بترتيب وتنظيم القوات المزمع إرسالها إلى تلمسان ، أما القوات القادمة من إسبانيا والبالغ عددها عشرة آلاف جندي فقد نزلت في منطقة راشكون Rasegun (وهو المكان الذي يصب فيه نهر تافنا بالبحر) وهناك انضم إليهم الأهالي ، ومن ثم تحركوا باتجاه

---

(١) كتب في غزوات خير الدين باشا أن عدد القوات الإسبانية عشرة آلاف جندي إسباني وعشرون ألف مقاتل محلي ، ولكن هذه القوة لم تذهب إلى قلعة بني راشد ، بل ذهبت إلى تلمسان ، وقد وقع التباس ما بين القوات التي حاصرت قلعة بني راشد وتلمسان ، فجاءت المعلومات في الغزوات متداخلة مع بعضها البعض .

(٢) تحفة الكبار وغزوات خير الدين باشا ، ذكرا أن حصار قلعة بني راشد استمر ستة أشهر ، ولو أن الأمر استمر هذه الفترة لكانت الإمدادات وصلت إليه سواء من الجزائر أو تلمسان .

تلمسان، كما انضم إليهم في الطريق عدد من اللصوص والمشاغبين ممن يجدون فرص عيشهم في مثل تلك الفرص، وعلى الفور عمد مارتن دأرغوث إلى فرض حصار محكم وعنيف على تلمسان، لقاء ذلك قام الريس عروج بالدفاع عن المدينة بشكل مستميت، ودام الحصار ستة أشهر، وخلال هذه المدة كان القتال يستمر ليل نهار، ولكن الأعداء تمكنوا من السيطرة على نقاط الاستحكام، فأقيمت المتاريس وسط المدينة، وتحولت المعركة إلى قتال شوارع، وبعد أن فقد عروج مع قواته السيطرة على المتاريس الداخلية، انسحب إلى القلعة الداخلية، وحتى ضمن القلعة استمر يقاتل بشراسة مدافعاً عنها بكل قواه.

عندما كانت المعركة على أشدها وفي أدق لحظاتهاانسحب الأهالي الذين قدموا سوية مع عروج، ولم يبق من أرض المعركة سوى خمسمائة مقاتل تركي، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل عروج مسيطراً على الساحة، ويوجه للأعداء ضربات شديدة ومؤلمة، وظل يناوشهم بشجاعة، معتقداً أن سلطان فاس سيمده بامدادات عسكرية كما اتفقا سوية. ضجر سكان تلمسان من الحصار الطويل الذي فُرض على مدينتهم، وغدت منازلهم عرضة للدمار والخراب، فاتفقوا فيما بينهم على ضرورة التخلي عن الأتراك الذين بقوا بمفردهم بعدما انسحب الأهالي، وحل يوم عيد رمضان، فطلب الأهالي من عروج السماح لهم بتأدية الصلاة في جامع المشور[1]، ولم يتصور عروج أن الأهالي اتفقوا على خيانته، وأن طلبهم سيشكل خطراً عليه، وعندما دخلوا إلى القلعة الداخلية، سلوا سيوفهم المخفية تحت البرانس، وبدأوا بقتل الأطفال الآمنين، فاضطر الأتراك لاتخاذ موقف سريع ومفاجىء، وتمكنوا من تطويق الأهالي والسيطرة على الموقف، بعدما تعرضوا لخسائر فادحة، ونظراً لقلة من بقي من الأتراك، أعطى عروج أمراً بالانسحاب، وهذا يعني ضرورة اختراق صفوف الأعداء بغية الوصول إلى الساحل لانتظار سفن أخيه الريس خضر والمتوقع وصولها.

استغل عروج ظلام الليل، وخرج من بين صفوف الأعداء دون أن

---

(١) هذا الجامع اتخذه الفرنسيون فيما بعد كنيسة للمستشفى الفرنسى التى أقاموها هناك.

يشعر به أحد[1] . واتخذ طريقه بكل قوةوشجاعة ، ولم يشعر الإسبان بخروجه إلا بعد عدة ساعات ، وحالما علموا بذلك كلفوا مفرزة من الخيالة بملاحقته ، وفي اليوم الثاني لحقت به المفرزة ما بين زاوية سيدي موسى وممر ريودي سالادو ، وأدرك عروج عدم قدرته بمن معه من القلة التركية على المواجهة ، وبقصد إشغالهم عن ملاحقته ، قام بإلقاء بعض ما لديه من المال والأشياء الثمينة ، لكن ذلك لم يفده ، فقد استمرت المفرزة بملاحقته بقيادة الفيرز غارجيا دي تينئو Alferez garcia de Tieno ، وأجبرته على الالتجاء إلى خرابة قديمة . وبدأ بالتصدي لهم في معركة لا خيار فيها ، وظل يقاتل رغم يده المقطوعة إلى أن قتل ، بعدما رماه ألفيرز غارجيا برمح في صدره في آب ١٥١٨م . فقطع رأسه المبارك وحمله مع ألبسته البحرية المزركشة مع الشال الذهبي الذي كان يلف خصره به إلى وهران ، ثم أرسلت ألبسته إلى إسبانيا ، وقدمت هدية إلى كنسية (سانت جيروم)[2] في قرطبة ، فصنع منها رجال الدين هناك شعاراً يسمى (شارة بربا روس)[3] . وهكذا استشهد الريس البطل عروج مؤسس حكومة الجزائر ، ولم يكن لعروج أولاد ، لكن أوصافه وخصاله الحميدة بقيت راسخة في أذهان الأعداء والأصدقاء على حدٍ سواء . وغدت موضع فخر واعتزاز للأتراك .

قال مورغان في كتابه صفحة ٢٥٧ ما يلي :

إن الريس عروج عُرف من قبل الجميع ، حتى الذين لم يروه تصوروه شخصيته فقد توفي عن عمر يناهز ٤٤ عاماً[4] . ولم يكن طويل القامة ، فهو

---

(١) يذكر دي غرامونت أن الريس عروج أخذ خزينة أبي حمو وخرج ، وفي الواقع هذا افتراء كان أبو حمو قد هرب مع نسائه وأولاده وثروته ، والجميع يعلم ذلك صراحة ، وربما أن يكون قد جمع بقايا ثروة بين زيان ، وأيضاً هذا الاحتمال قابل للشك .

(٢) دي غرامونت .

(٣) أونيغرس ـ الجزائر . (جامعة الجزائر ـ تاريخ الدول الإسلامية) .

(٤) عندما توفي عروج لم يكن عمره كما تذكر بعض المصادر هو ٤٤ سنة ، فلو أشرنا إلى ولادته الواقعة سنة ٨٦٩هـ ووفاته سنة ٩٢٤هـ لبلغ خمس وخمسين سنة ، كما أن المكان الذي استشهد به عروج غير معروف بصورة واضحة ، وهو مقدر تقديراً ، فحسب أقوال (لين بول) : إن الأتراك حُصروا بين سهلين ، واضطروا للالتفاف حوله إلى أن وصلوا النهر ، وأنهم لو عبروا النهر لتمكنوا من النجاة ، وفي الواقع فإن نصفهم عبر النهر بمساعدة عروج ، ولكنهم عندما شاهدوا أصدقاءهم مشتبكين في قتال مع الأعداء ، عبروا النهر ثانية وشاركوا في القتال ، أما =

ضخم الجثة، قوي البنية، شعره ولحيته يميلان إلى الحمرة، له نظرات حادة كلهيب النار، وأنفه شبيه بالأنف الروماني وبشرته بيضاء مائلة إلى السمرة (حنطية)، هذه الأوصاف كانت تمنحه القوة والثبات في قراراته، له همة عالية، يرمي نفسه في المخاطر، يكره تكديس الأموال، يتمتع بقدرة خارقة أثناء القتال، لم يكن سفاكاً للدماء بغير حق، ولا ظالماً لمن يطيعه، ويحب عائلته وأصدقاءه وجنوده وخدمه وحتى الأسرى الموجودين لديه، فبادله الجميع الحب والصدق وحتى الجبناء كانوا يحترمونه ويقدرون شهامته.

ويقول دي غراممونت أيضاً: من خلال الاطلاع على كتب التاريخ المترجمة والمنقولة منها، لم أعثر على وصف مشابه تماماً للوصف الذي وصف به الريس عروج، وهذا شيء نادر، والريس عروج كان شجاعاً في جهاده، مدافعاً عن دينه وإسلامه ضد أعدائه، وقد عبر عن ذلك من خلال حروبه البرية والبحرية، ولم يكن في جهاده مخالفاً للقواعد المتبعة آنذاك، كذلك فإنه لم يكن ظالماً ولا متهاوناً مع خصمه، باديء الأمر كان ملتزماً بطاعة رؤسائه، وعندما جمع قوات كافية رغب العمل ملتمساً لديه القدرة على ذلك، فاتجه إلى شمال إفريقيا مستفيداً من الفساد والفوضى هناك، فبدأ بتأسيس إمبراطوريته. ولاستمرارية حكومته عمد إلى إيجاد الحلول المناسبة، فعمل على طرد الإسبان من سواحل شمال إفريقية، ومارس ضغطاً قوياً على عملاء إسبانيا، بغية إبعادهم عن المنطقة، وكان محظوظاً في بداية تحركاته، فتمكن من طرد المسيطرين على الولاية الغربية وأخضعها لسلطانه، وكان استشهاده بسبب تخلي المتحالفين معه، وقد تأثر عليه جميع الذين عملوا تحت إمرته وإلى جانبه.

= مصدر جامعة الجزائر، فيذكر أن مارتن دارغوث لحق الريس عروج بعدما قطع النهر بمسافة قدرها ثلاثون فرسخاً، أما دى غراممونت فيقول مستندا على أقوال الدكتور شوف / ٢٥٧/ وهايدو أن المكان الذى لحق الإسبان بالأتراك فى الفترة الأولى هو ريودى سالادو، واستناداً إلى بعض النظريات يكون وقوع الفاجعة قد تم على طريق فاس فى جبال (أسناسن) وجاء هذا التأكيد من دليل إفريقيا (العدد ١٨ سنة ١٨٦٠م والعدد ٣٨٨ سنة ١٨٨٧م. أما فوربيكه فقد لاحظ خلطاً فى جميع الروايات واستنتج (بأن استشهاد عروج تم فى ريودى سالادو مستنداً على عدم قدرة عروج على الاهتداء على طريق العودة، ومن غير الممكن أن يتوجه شرقاً بعد فقدانه الأمل بوصول مساعدات فاس.

ولدى استشهاد عروج قال الريس خضر معبراً عن ألمه وحزنه لفقدان أخيــه عروج: لو تمكنت من قتل جميــع سكـــان بلاد الإفرنج بالسيف لما استطعت استرداد ثأر أخي ورفاقه[1].

---

(١) لم يرد أسم الريس عروج إلا فى مخطوطة واحدة وهى الأن موجودة فى متحف مدينة الجزائر وفد نقلت إليه من قلعة شرشال

يفول غابربيل كولين فى كتابه العرب والأتراك في الجزائر صفحة ١٢ عن برج القلعة ما يلى·

هذا البرج بناه القائد محمود بن فارس ذكى فى عهد خلافه الفائم بأمر الله والمجاهد فى سبيل الله عروج بن يعقوب سنة ٩٢٤هـ. والبرج الذى وجد فيه المخطوط، هدم سنه ١٨٦٠م و بالنظر لهذه الكتابه نجد أنه وجد فى سنه ٩٢٤هـ فى مدينه شرشال قائد إسمه محمود بن فارس ذكى، ويفول دى غراموىت حول استشهاد الريس إسحاق وأصدقائه فى نهاية كانون الثانى سنة ١٥١٨م، وإن استشهاد عروج كان فى اب سنة ١٨د ١م، وقد ثبت أنه بقى محاصرا فى تلمسان مده ستة أشهر، لكن دى عراموىت يذكر من جديد حادثه حيانة الأهالى له ليلة صلاه العيد سنة ٩٢٤هـ وهو يصادف الأول من أيام محرم، وعلى ضوء ذلك يُفترض أن تكون شهاده عروج فى شهر شوال، وهذا يدل على أن دفاعه استمر ثمانيه أشهر ونصف، وفى حال اعتبار شهادته فى ٥ شوال فإن تاريخ استشهاده يصادف ١٠ تشرين عام ١٥١٨م.

- ٣ -

آل برباروس

حكومة خير الدين بك - الأزمة الأولى - أوصاف الريس خضر - تقديمه الهدايا للسلطان سليم الأول وإعلان تبعيته له - خيانة الأهالي له - هجوم هوغو دو منكاد - فشل الهجوم الإسباني والقضاء على الجيش والأسطول - الانتقام للريس إسحاق - السيطرة على تنس ثانية - توزيع الأسرى الإسبان على الأهالي بسبب كثرتهم - إعدام القباطنة بعد إصرارهم على الهرب - البلاد بين أحمد بن القاضي ومحمد بن علي - قره حسن - ترك الريس خير الدين للجزائر وأخذه لاشيائه وعائلته - جيجل - العودة إلى حالة سنة ١٥١٤م - الغزاة الجدد.

بعد استشهاد الريس عروج، اتفق جميع أصدقائه على تسليم القيادة من بعده لأخيه، الريس خضر بتاريخ ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م، وكان الريس خضر متأثراً جداً بسبب هزيمة أخيه عروج ومقتله مع أفضل العساكر ممن كان يُعتمد عليهم، ويتصفون بشجاعة فائقة واستقامة نادرة، وعلاوة على ذلك فقد تخلّى بعض الأصدقاء الأشداء عن الريس خضر لعدم ارتياحهم له، ولشعورهم بأن الريس خضر لن يكون بديلاً عن الريس عروج. كما أعلنت القبائل المؤيدة لعروج عصيانها وتمردها على قيادة خضر.

استغل الإسبان الصعاب التي يواجهها الأتراك، وباشروا بالتحرك لطرد الأتراك من الجزائر، هذه الأسباب والمواقف مجتمعة، وضعت الريس خضر أمام ثلاثة احتمالات مخيفة، فقد توجه تفكيره بادىء الأمر بترك الشمال

الإفريقي والعودة إلى استانبول ، لكن سحب الإسبان للجنود التي شاركت في مهاجمة تلمسان ، جعل الريس خضر يعيد حساباته من جديد، فأقلع أولاً عن فكرة الذهاب إلى إستانبول نهائياً ، وبدأ مجدداً بمعالجة الأمور بدم بارد كما اعتاد سابقاً[1] .

أثناء هجوم الإسبان على تلمسان ، تمردت تنس وشرشال لدى عودة حكامهم القدامى ، وبنفس الوقت بدأ أحمد بن القاضي يحرض الأهالي والقبائل ضد الريس خضر ، بهدف خلو الساحة من منافس له ، إزاء ذلك كلف الريس خضر عساكره ومؤيديه بالتوجه إلى تنس وشرشال لتأديبهما تأديباً لائقاً بهم ، في حين ترك تأديب القبائل القوية إلى وقت آخر ، لأن الوقت غير مناسب للقيام بمثل ذلك ، إن اتباع الريس خضر لسياسة الحكمة والدهاء ، دفع العلماء والمرابطون للوقوف إلى جانبه ، وتعاهدوا سوية على طرد المسيحين من البلاد ، كما أجبر قسماً كبيراً من الأهالي للتخلي عن معاداته ، وإعلانهم صراحة عن تأييده ومساندته .

كانت أولى المشكلات التي واجهت الريس خضر بعد كسب الأهالي ، مشكلة تأمين السلاح والبارود ، ففي تلمسان تسلم الحكم ثانية أبو حمو وامتد نفوذه حتى مليانه ، فغدا بذلك على مقربة من مدينة الجزائر.

اتصف الريس خضر إضافة إلى الشجاعة والإقدام بالحنكة السياسية ، فحسن تصرفه ، وهدوء أعصابه تجاه الأزمات مكنه من تحقيق أعمال عجز الريس عروج عن تحقيقها ، فهو لم يكن يعرض نفسه للخطر إلا بشكل نسبي وبالحدود التي ترهب أعداءه وترفعه لدى أصدقائه ، وقبل القيام بتنفيذ عمل كان يقوم بدراسته وفهم أبعاده ومحصلة نتائجه ، وكان يبتعد عن زج نفسه في أي خطر لا لزوم له ، وبنفس الوقت إذا اتخذ قراراً ما ، كان يعمل على تنفيذه تنفيذاً كاملاً ، فلم يعتاد أن يفرط في حق طالما يعتقد بضرورته وفوائده ،وحينما يعتمد توجيه أي ضربة ، قلما يستطيع أي إنسان توجيهها مثله .

أدرك الريس خضر بتفكيره السليم ، ومحاكاته للواقع الذي يتعايش معه ، أنه بحاجة إلى حماية دولة قوية تحميه ، ويستند عليها في أوقات الشدة

---

(١) دي غراممونت .

والضيق ، وآنذاك كان نجم بني عثمان يسطع كأقوى نجم ، وأن حكومتهم هي أقوى حكومة يمكن من خلالها ضمان وجوده وتقوية نفوذه ، إضافة إلى أنها دولة إسلامية إطارها العام إسلامي وتتوجه نحو حماية الإسلام ، لذلك قرر الرجوع إليها ، فأرسل رسالة إلى السلطان سليم يعرض عليه خضوعه وتبعيته له ، شارحاً في رسالته مدى حاجته إليه وطالباً منه المساعدة ومد يد العون[1] .

قبل السلطان سليم الأول عرضه قبولاً حسناً ، وأرسل له مع الحجي حسين أحد عبيد المقام العالي سيفاً مرصعاً وصنجق (علم) وزوده بعدد من الرجال ، وفي الطريق اعترضتهم سفينة تابعة للبندقية فأسرتهم وقتلت عدداً منهم ، أما الحجي حسين فقد نجا مع ثلاثة من رجاله ، فاتجه إلى مينون ومنها إلى إستانبول ، وفي إستانبول مورس ضغط كبير على سفير البندقية ، فأعيدت السفينة وتحرك الحجي حسين ثانية إلى الجزائر.

قبل الريس خير الدين هدايا السلطان سليم الأول بكل تواضع واحترام ، ثم جمع ديوانه والأهالي ، وأخبرهم بإعلان تبعيته رسمياً للسلطان العثماني[2] . وأعاد الحجي حسين إلى إستانبول معززاً مكرماً .

قام السلطان العثماني بحل مسألة احتياج خير الدين للسلاح وهو أكثر ما يحتاجه ، ثم أرسل له / ٢٠٠٠/ جندي مسلحين بالبنادق ، وعدداً من رجال

---

(١) اضطر الريس خير الدين باشا لإعلان تبعته للدولة العثمانة لأمور عدة منها . حاجته إلى العساكر والسلاح والبارود . كثرة الأعداء من حوله ، دفعته للبحث عن دولة قوية يعتمد عليها ، فمثلاً حكام تلمسان وبعض المناطق الأخرى أعلنوا صراحة معاداته ، يضاف إلى ذلك أن حكام تونس بدأوا يتآمرون عليه ، كما أنه لم يعد يثق بهم خدعوا أخاه سابقاً وكذلك حكام فاس ، إزاء ذلك توجه إلى القوة العثمانية الناشئة لإعلان تبعيته لها ، فجهز أربع سفن محملة لمختلف الهدايا مع أربعين أسيراً ، وأربعة قباطنة وأرسلهم إلى السلطان سليم مع رسالة بشرح له فيها وضعه .

(٢) إن تاريخ مراجعة خير الدين للدولة العثمانية غير معروف تماماً ، واستناداً إلى الحجر الموجود فى جامع خير الدين الواقع بالقرب من قصر الجنينة ، ويفهم من هذه الكتابة أن خير الدين أصبح مستقلاً في تاريخ ٩٢٦هـ وهذه الحجر نزعت من هناك ونقلت إلى متحف الجزائر.

(غابرييل كولين) في كتابه العرب والأتراك في الجزائر ص ١٣ . ويذكر أنه كتب على الحجر الثاني : أمر ببناء هذا المسجد المبارك السلطان المجاهد مولانا خير الدين بن يعقوب بو ترك بتاريخ جمادي الأول من سنة ست وعشرون ونسعمائة (٩٢٦هـ) المصادف نيسان ١٥٢٠م وبهذا تكون مراجعة الريس خير الدين للسلطان العثمانى بعد هذا التاريخ ، كذلك فقد وجد في =

المدفعية مع مدفعيتهم وعدداً من المتطوعين ، كما أعلنت الدولة العثمانية عن تأمين مصاريف الطريق للراغبين بالذهاب إلى الجزائر، ووعدتهم بالحصول على الامتيازات التي يحصل عليها الإنكشاريون.

إن ما تمتع به الريس خضر من بطولات إضافة إلى الوعود والامتيازات التي قطعتها الدولة العثمانية للمتطوعين دفعها إلى إرسال / ٤٠٠٠/ متطوع مسلحين بالبنادق إلى الجزائر، وجاءت تلك القوات في وقتها المناسب، ولم تكن زائدة عما يتطلبه الموقف آنذاك في الجزائر.

سر السلطان سليم الأول بعد فتحه لمصر، بإعلان خير الدين تبعيته له، فبإعلان خير الدين التبعية للدولة العثمانية، تأمنت حدود مصر الغربية وتوسعت أملاك الدولة العثمانية بدون بذل أي جهد أو مصاريف، وغدت بذلك من أكبر الدول الإسلامية، وبنفس الوقت فتح مصر أخاف حكومات شمال إفريقيا كذلك فإن الرسائل التي أرسلها السلطان العثماني إلى سلطان تونس وتلمسان أشعرتهما بالرعب والخوف، وذكر لهما في الرسائل (تعلمون أن الأتراك تمركزوا في الجزائر، وأنهم أصبحوا حكامها، وإهمال التفكير بالجيرة يشكل خطراً كبيراً عليكما، فالحاكم خضر شجاع وعنيد وحريص ومستعد للتضحية، فإذا لم نتمركز في البلاد، ولم نكن أقوياء، فإن بلادنا ستكون عرضة للاحتلال من قبل الأعداء، وهو أمر معلوم، لذلك أدعوكم جميعاً لأخذ الاحتياطات اللازمة)[1].

فحكام تونس من بني حفص أدوا دوراً كبيراً في الأحداث، وقد حاولوا القيام بدور الوسيط من أجل إزالة الخلاف ما بين المصريين والعثمانيين، ونتيجة لقيام سلطان تونس بتلك الوساطة خجل من الأتراك.

= هذا المتحف دليل السكة الهابونية وإن النقود التي طبعت كتب عليها إسم السلطان وتاريخها وبهذا تكون مراجعته بتاريخ ٩٢٦هـ ما بين جمادي الآخر وذي الحجة وأكثر ما يلفت النظر إلى الكتابة هو أن الريس خضر بتاريخ ٩٢٦هـ لم يكن له أي علاقة مسبقة مع السلطان العثماني وقد لقبه بخير الدين آنذاك وبلقب سلطان، وبناء على ذلك فالسلطان العثماني سليمان القانوني قال له (أنت من خيرة أبناء البلاد وقد سميتك خير الدين) إن الرواية التي تذكر ذلك غير صحيحة، فالريس خضر بعد احتكاكه مع عرب الغرب غدوا يلقبونه بخير الدين ومنذ ذلك الوقت عرف بهذا الإسم.

(١) أوغست كور (Ogûst Kur).

بعد سقوط العباسيين ، بايع شريف مكة سلطان تونس بالخلافة ، على اعتبار أن دولته من أقوى الدول الإسلامية آنذاك ، واشتهر بلقب حامي الحرمين ، وفي سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م أرسل عبد الحق بن سبوين لقراءة فرمان البيعة أمام الأهالي ، وظل أمراء تونس يطلق عليهم لقب أمير فقط . وبعد ذلك أطلق على الحاكم لقب (أمير المؤمنين المستنصر بالله) وفي سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م اعترفت حكومة بنو مرين بالنفوذ الروحي لأمير تونس[١] . وقبلت أيضاً بلاد تونس هذا النفوذ الروحي أيضاً ، وقد اقتصر هذا النفوذ على ذكر إسم السلطان الحفصي في الخطبة ، ولكن هذا الاعتراف لم يتجاوز حدود المنفعة الذاتية .

بعد فتح السلطان سليم الأول لمصر ، قام شريف مكة ابن بركات بتسليم مفاتيح الحرمين له ، وبايعه الأهالي ، ومنذ ذلك التاريخ أطلق على السلطان سليم الأول حامي الحرمين الشريفين كما تلقب خليفة المسلمين ، فانتهت بذلك الخلافة العباسية ونُقل مركز الخلافة الإسلامية إلى إستانبول . وحصل العثمانيون من جرائها على شهرة عظيمة وأهمية كبرى لدى العالم الإسلامي ، وتولى السلطان العثماني رئاسة العالم الإسلامي الدينية ، هذا الانتقال أخاف سلطان تونس من جهة ، ومن جهة أخرى أثرت الفكرة الدينية تأثيراً رئيسياً في سياسة العثمانيين ، وخاصة تجاه الشمال الإفريقي[٢] .

في سنة ٩٢٦هـ ١٥٢٠م توفي السلطان سليم الأول ، وخلفه ابنه سليمان القانوني ، وقد اتبع السلطان سليمان طريق والده في الحكم والمحافظة على الولايات التي خضعت لسيطرة العثمانيين .

حكم خير الدين الجزائر بإسم السلطان العثماني وصك العملة بإسمه[٣] . وقد تخوف خير الدين من كثرة حدوث التمردات والعصيانات ، وحدوثها هو الذي دفعه للارتباط بالدولة العثمانية ، وضمان الجزائر من الخطر الإسباني .

إن ميناء الجزائر الصغير كان واقعاً تحت نيران مدفعية القلعة الإسبانية ،

(١) أوغست كور .

(٢) أوغست كور .

(٣) دي عراممونت .

ولهذا السبب كان الرياس يضعون سفنهم فوق رمال الشاطىء ما بين وادي مرسال وباب الواد وحينما لمس الأهالي أن الأتراك يسعون جادين إلى تثبيت وجودهم في الجزائر، اتفقوا مع القبائل المجاورة على سحق الأتراك في يوم البازار (سوق البيع).

دخلت القبائل التي تقطن في السهول المجاورة إلى مدينة الجزائر خفية ومعها أسلحتها. في حين ذهب قسم منهم إلى الساحل حيث ترسو سفن قراصنة الأتراك من أجل إشعال النار فيها، وذلك وفقاً للخطة المرسومة، فحينما يشاهد القراصنة أن النار تشتعل في سفنهم، فيسرعون لإطفائها، وحالما يخرجون من المدينة يقوم الأهالي بإغلاق أبواب المدينة، ومن بعد ذلك يقومون بقتل من تبقى من الرياس والأتراك، لأن أعدادهم وقتذاك قليلة، وبهذه الطريقة يتخلصون من الأتراك، لكن جواسيس خير الدين أعلموه بما تم الاتفاق عليه، فألقى القبض على المخططين منهم، وقطع رؤوسهم، وعلقها على باب القصر، بعدما مثل بجثثهم، فخمدت ثورة الأهالي، وخافوا من إعلان التمرد والعصيان بعد ذلك التاريخ[1].

كان خير الدين محقاً بتخوفه، لأن الإسبان وحكام تلمسان كانوا يخططون للهجوم على الجزائر، عقب استشهاد الريس عروج، لكنهم اكتفوا بما حققوه من نصر، وقرر الإسبان الإنسحاب نتيجة للخسائر التي تكبدوها خلال المراحل السابقة، وانسحاب القوات الإسبانية، منح خير الدين القوة وغدا المجال أمامه مفتوحاً للتحرك والتخطيط لمواجهة المرحلة القادمة، وكان من جملة العوامل الأخرى التي دفعت الإسبان لسحب قواتهم، هو ما لمسوه من شجاعة الأتراك أثناء حصار قلعة بني راشد، فأدركوا صعوبة المواقف التي يواجهونها في الجزائر.

كان والي وهران مصمماً على إخراج الأتراك من الجزائر، فاتفق مع حاكم تلمسان، وعرضا على شارلكان الأخطار الناجمة عن بقاء الأتراك، يضاف إلى ذلك فإن شارلكان كان متأثراً لهزيمة قائده دون دييجو دويفيرا، ولديه نية مسبقة بفكرة شن حرب ضد الأتراك، وبناء على تحريض قائد وهران

(١) دي غراممونت.

وحاكم تلمسان وهواجسه الاستعمارية التوسعية ، أمر نائبه في صقلية (هوجو دو منكاد (Hogo de Monkade) بتجهيز جيش من العساكر القدامى وكلفه باحتلال الجزائر[١] .

كُلف حاكم تلمسان بمهاجمة الجزائر من جهة البحر، وكان منكاد قائداً شجاعاً ولديه خبرة حربية ، وبعمله هذا سيقدم لإيطاليا خدمة عظيمة وينال شهرة ذاتية كبيرة ، وقد تمكن خلال وقت قصير من جمع قواته وتجهيزها .

تحرك من صقلية في شهر تموز سنة ١٥١٩م[٢] . والتحق بمنكاد شخص يدعى (غونزالفو مارينو دوريبرا (Gonzolvo Marino de Ribera) وبما أنهما لم يتفقا ، فإن الحملة أصيبت بالفشل .

توجه الأسطول بادىء الأمر إلى وهران ، وبما أن والي وهران قد اكتسب وعساكره خبرة كبيرة بخوضهم عدة معارك مع الأتراك ، فقد اختار قطعة منهم واتجه بها إلى المرسي الكبير، وتباحث مع ماركي دي غومارس بشأن ضم القوات المحلية التي سيقدمها سلطان تلمسان إلى قواته في وهران[٣] .

في هذه الأثناء أرسلت مفرزة إلى سهل سرت بالقرب من مستغانم وهاجمت قطعان الماشية وصادرتها ، وقد تركت هذه العملية اللصوصية والمنافية للمنطق السياسي أثراً كبيراً عليهم ووضعتهم ضمن دائرة ضيقة[٤] .

تحرك هوجو دو منكاد من وهران بسفنه متجهاً إلى الجزائر، ودخل ميناءها في منتصف شهر آب ، وأنزل قواته غرب وادي الحراش، وأرسل مفرزة لاحتلال موقع في غرب المدينة ، وخلال ذلك حدثت مصادمات خفيفة ، بعدما رفض خير الدين بشدة التكليف الموجه إليه بتسليم مدينة الجزائر والانسحاب منها .

وفي ١٨ آب انتشرت القوات الإسبانية حتى بلغت كدية الصابون ،

---

(١) تذكر تحفة الكبار : إن قوه هذا الجيش كانت مؤلفه من ١٧٠ سفينة و ٢٠ ألف جندي ، وانضم إليها فى وهران من ٣ ـ ٤ آلاف جندي ، أما دي غرامونت فيقول أنها مؤلفة من ٤٠ سفينة و ٥٠٠٠ جندي ما عدا قوات وهران .

(٢) دي غرامونت .

(٣) جامعة الجزائر ـ تاريخ الدول الإسلامية .

(٤) دي غرامونت .

وتمركزوا فيها بعدما أقاموا عدة بطاريات فيها، استعداداً لقصف المدينة، وللبدء بالقصف كانوا منتظرين وصول قوات سلطان تلمسان.

امتلأت قلوب الأهالي حقداً على منكاد وأبي حمو المفروض عليهم بالقوة، واعتبروا معاونته للإسبان ضد إخوتهم المسلمين خيانة كبرى يرفضها الدين الإسلامي، وخاصة أهالي تنس وتلمسان الذين رفضوا الاتفاق مع الاسبان ومشاركتهم الحرب إلى جانبهم، لأنهم نهبوا أموالهم وحلالهم، وفي حال الضغط عليهم، فإنهم سيعرقلونهم ويتركون المعركة منسحبين منها.

كان منكاد يريد شن الهجوم فوراً، لكن دي ريبرا قائد المدفعية، رفض شن أي هجوم حتى وصول المقاتلين المحليين، وبعد ستة أيام من الانتظار لم تصل قوات المحليين.

بدأ الإسبان هجومهم، وخلال يومين من بدء المعركة ظهر العياء والإنهاك على القوات الإسبانية، فبدأت بالتراجع والانسحاب، وفي اليوم الثالث شكل الريس خضر فرقة من خمسمائة شخص وكلفها بحرق أرزاق الإسبان ومهماتهم الموجودة على الساحل[1].

خدع الإسبان بالفرقة التي شكلها الريس خضر، فأعدوا قوة لمهاجمتها تاركين مواقعهم الدفاعية، فاستغلت القوات التركية فرصة انسحابهم؛ وانقضوا بكل قواهم على الإسبان، وأحدثوا خللاً وإرباكاً في صفوف الإسبان، ومما زاد إرباكهم خبرة قتالية، انهارت معنوياتهم، واضطر البعض منهم إلى تسليم نفسه دون قتال، وغدت القوات الإسبانية وسط دهشة كبيرة محاصرة من ناحية البر، ولم يبق أمامهم سوى البحر، فاندفعوا يتسابقون إليه تاركين سلاحهم

(١) تتحدث تحفة الكبار عن المعركة قائلة: في هذه المعركة سلطان تلمسان جاء برا، لكن خير الدين كان قد تحدث إلى حاكم تلمسان يحذره من الاعتداء على الأطفال والنساء، وقد التزم حاكم تلمسان بوعده، كذلك فإنها تذكر عدد قوات خير الدين وتقول أنها تتألف من ٦٠٠ تركي و ٢٠ ألف متطوع محلي، ومن المؤكد أن القوات البرية والمدفعية المرسلة من إستانبول وصلت إليه أثناء المعركة، وبناء عليه فقد صعب علينا تحديد عدد قواته. لأن خير الدين كان قد أرسل ٢٠٠٠ مقاتل عربي و ٧٠٠ جندي بقيادة حسن آغا إلى تلمسان كما يقال أن خير الدين وضع ٦٠٠ جندى للدفاع عن مؤخرته، وتأمين خط انسحابه فى حال حدوث عكس ما خططه ورسمه.

وعتادهم في ساحة القتال، وغدوا لا يفكرون إلا بنجاتهم، وأتم البحر على من نجا منهم من سيوف الأتراك.

لم يتمكن الإسبان من ركوب جميع سفنهم بسبب العاصفة البحرية التي هبت آنذاك، كما تحطمت ٢٦ سفينة نتيجة لاصطدامها باليابسة، وغرق ٤٠٠٠ شخص أما منكاد فقد أجبر على ترك مدافعه ولوازمه الثقيلة، واندفع الأهالي باتجاه الغنائم المتروكة من كل طرف، وتعرض الجيش الإسباني والأسطول إلى فناء تام، ولم ينجُ منهم إلا القليل، ونقلت السفن مَنْ تمكن من الوصول إليها إلى ميناء (إيفيسيا - إيفيشا) بعدما أخذ الإرهاق والجوع منهم كل مأخذ.

أمر الريس خضر بقطع رؤوس الأسرى بالسيف انتقاماً لاستشهاد أخيه الريس إسحاق (الذي قتل بعد أن سلم نفسه) وقد أنسى هذا النصر المؤزر الجزائريين هزيمة الأتراك في تلمسان، وفاقت شهرة الريس خضر شهرة ونفوذ أخيه الريس عروج[١].

وفي ربيع ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م الريس خضر (خير الدين)[٢]. قوة إلى تنس لاحتلالها. فطلب قائد تنس النجدة من إسبانيا، فقدمت خمس عشرة سفينة لمساعدته، ولكن الريس خير الدين أرسل ثمان عشرة سفينة لدعم القوة التي أرسلها سابقاً، وقاد بنفسه قوة بحرية أخرى، وتوجه مباشرة إلى تنس واحتل قلعتها، وأسر خمس سفن للأعداء، ومن بعدها عاد الجزائر.

وبينما كانت سفن الريس خير الدين راسية في ميناء الجزائر، علم خير الدين بوصول الأسطول الإسباني بقيادة الأميرال فرديناند، وكان الأسطول مؤلفاً من ١١٠ قطع بحرية وعلى الفور خرج الريس خير الدين بسفنه من

(١) عقب هذا الانتصار أرسل حسن بك على رأس ٧٠٠ جندي و ٢٠٠٠ مقاتل محلي مزودين بالخيول والمعدات إلى تلمسان، وما أن وصل تلمسان حتى بلغ عدد قواته ٢٠ ألف مقاتل بسبب انضمام المتطوعين إليه، في حين كان عدد القوات الإسبانية ٣٧٠٠ جندي، وقد تمكن حسن بك من إبادة الإسبان ولم ينجُ منهم سوى ٧٠٠ شخص وفر الباقون إلى تنس، أما تحفة الكبار فتقول أن تنس فتحت بعد هذا الانتصار ومن المحتمل أن يكون فتحها قد تم بعد ذلك بقليل، لأن الأحداث القادمة تؤكد أن تنس وتلمسان لم يبقيا بيد الريس خير الدين.

(٢) منعاً للالتباس فقد فضلنا كتابة الريس خير الدين لأن المؤلف مرة يكتبها خضر ومرة يكتبها خير الدين.

الميناء، وشن هجوماً بحرياً معاكساً على الأسطول، وبما أن الهجوم كان مفاجئاًالأسطول الإسباني من الخلف، حدث اضطراب في قيادة الأسطول، وبسبب الفوضى والاضطراب بدأت سفن الأسطول تصطدم ببعضها البعض وغدت السفن تتجه باتجاهات مختلفة وسقط بعضها على الشاطىء وكان من جملة السفن سفينة القائد فرديناند، فالتقطه الأهالي مع مئة شخص آخرين، أما الريس خير الدين ورفاقه فقد أسروا ستة وثلاثين قبطاناً وثلاثمائة بحار إسباني، وأسفرت المعركة عن هزيمة الأسطول الإسباني وتحطيم قسم من سفن الأسطول، وفر قسم وأسر قسم آخر.

امتلأ سجن المجدفين بالأسرى الإسبانيين، ووزع الزائد على الأهالي ونتيجة لكثرة عددهم انتشر الفساد والمرض بينهم، فأخذوا يخططون للهرب وفي أثناء ذلك قدم شخص إسباني للتباحث مع الريس خير الدين لافتداء الأمير والقباطنة، وكلفته دولته بدفع فدية مقدارها ١٠٠,٠٠٠ ليرة. لكن علماء المسلمين وأعيان الجزائر، اعترضوا على الفدية المقدمة، بحجة أن هؤلاء القباطنة أقوياء ولديهم الخبرة البحرية الجيدة، وفي المستقبل قد يلحقون الضرر بالديار الإسلامية، وقالوا أن فديتهم يجب ألا تقل عن ٢٠٠,٠٠٠ ليرة. وحينما علم الأسرى بما جرى أثناء التباحث، تمردوا وأعلنوا العصيان والامتناع عن الطعام، وبدأوا يخططون للفرار، فأمر بإعدام ٣٠٠ شخص من بينهم الأمير فرديناند إزاء ذلك عرضت إسبانيا عن دفع فدية مقدارها ٧٠٠٠ ليرة مقابل الحصول على جثة فرديناند، لكن العلماء ورجال الدين تدخلوا بذلك رافضين تسليم الجثة، لأن الشرع الإسلامي يحرم بيع جثث الموتى، والقيت الجثة في بئر مهجور. أدرك خير الدين أن القبائل المحلية ستكون أكثر هدوءً واستقراراً في حال تسليم قيادتها لزعامة محلية، لذلك عين أحمد بن القاضي على القبائل الشرقية ومحمد بن علي على القبائل الغربية[1].

أحس الأتراك بعد تمركزهم في الجزائر أن الخطر سيأتي عليهم من تونس وتلمسان لذلك بدأ الريس خير الدين يخطط لاخضاعهم إلى سيطرته، وبما أن الجزائر كانت قديماً مرتبطة بتونس، ولهذا فإن سلطان تونس اعتبر

(١) جامعة الجزائر ـ تاريخ الدول الإسلامية.

الريس خير الدين شخص عاص ومغتصب، فبدأ هو الآخر لإعادة الجزائر إلى دائرة نفوذه وطرد خير الدين منها.

إن صفاء قلب الريس خير الدين دفعه إلى تسليم نصف البلاد إلى أحمد بن القاضي معتقداً أن ذلك يساعد على استقرار الأمور واستتباب الأمن، لكن أحمد بن القاضي، كان يكن الحقد والبغضاء للريس خير الدين، فاتفق مع حاكم تونس وجمع القبائل حوله وحرضهم ضد الريس خير الدين، وحينما اطمأن إلى تأييدهم له، جهزهم بالسلاح، وتحرك حسب الاتفاق مع الجيش التونسي باتجاه الجزائر.

أعلنت القبائل المجاورة لمدينة الجزائر عصيانها وتمردها، فاضطر خير الدين إلى تأديبها، وقد استمرت عملية التأديب قرابة ستة أشهر، ولكن أحمد بن القاضي أجّل عملية الهجوم بسبب حلول فصل الشتاء، وأجرى صلحاً مع الريس خضر (خير الدين) ثم توجه إلى تونس. فاستغل أخوه فرصة غيابه وعقد تحالفاً مع الجزائر، بعدما أخبر الريس خير الدين بالاتفاق الذي عقده أخوه مع حاكم تونس.

أعلن أحمد بن القاضي عن تحالفه مع خير الدين، فجهز قواته وانضم إليه، وحينما كان خير الدين يحارب القوات التونسية، انقلب أحمد بن القاضي وجنوده على خير الدين الذي وجد نفسه بين نارين، وألحق به من جراء هذا التآمر خسائر فادحة، ولم ينج إلا هو وقليل من رجاله.

إثر الهزيمة التي لحقت بخير الدين، فقد نفوذه خارج مدينة الجزائر، كذلك فقد أعلن الجزائريون عن تمردهم وعصيانهم، إلا أنهم لم يملكوا الشجاعة على مهاجمة الأتراك الموجودين في القلعة، وبما أن علاقة الأتراك لم تكن حسنة مع المناطق المجاورة، لذلك بقي الأتراك بدون أرزاق ولوازم، وأصبح خير الدين شبه محاصر، وبعد تفكير طويل قرر ترك المدينة والرحيل منها بعدما تنكر الأهالي له، لكنه تخوف من مهاجمة الأعداء له عند تنفيذه لقراره، وقيامهم بمحاولة منعه من أخذ أمواله وعائلته، فتظاهر بتسليم البلاد لقره حسن وكلفه بإدارتها، وبحركة جماعية سريعة أخلى القصر، وحمّل أشياءه وأمواله على متن تسع سفن. ثم نادى الأشراف والأعيان وطلب

منهم إقامة صلح مع حاكم تونس والخونة الأشرار الذين لا حماية لهم ، وألقى بمفاتيح القلعة قائلاً لهم (لتكن أهالي الإسلام وديارهم أمانة في أعناقكم) ، ثم ركب حصانه وتوجه إلى سفينته وركبها ، وبما أن رؤوساءهم لم يفكروا إلا بمصلحتهم الذاتية ، وأن الأهالي كانوا إلعوبة بأيديهم ، إضافة إلى أنهم لم يتصوروا أن خير الدين سيفارقهم ، أسرعوا إليه وطلبوا منه البقاء وطلبوا من الرياس الذين قضوا ليلتهم في الجزائر إقناع خير الدين بالبقاء والعدول عن السفر والمفارقة . وبدأ الجميع يتساءل عن المصير الذي ينتظرهم . إن ما قدمه خير الدين من تضحيات بالأموال والأرواح بقصد جعل هذه البلاد نقطة استناد للإسلام ، يضطر مكرها على تركها ، بعدما عمل خلال السنوات الثلاث الماضية على صيانتها وتدريب أهلها على الالتزام بالنظام ، إضافة إلى ما حققه من انتصارات رائعة رفع فيها إسم الجزائر عالياً ، وفي الصباح الباكر ركب الريس خير الدين برباروس قادرغاته متوجهاً إلى جيجل ، فرحب أهاليها بصديقهم القديم[1] .

كانت جيجل خلال ذلك تتعرض لقحط شديد ، فخرج الريس خير الدين إلى البحر ، وهاجم السواحل الأوروبية ، ثم عاد إلى جيجل محضراً تسع سفن محملة بالقمح فوزعها على الأهالي ، وبعمله الإنساني الرائع رفع الفاقة عن أهالي جيجل .

عاد خير الدين إلى الحالة والوضعية التي كانت سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٤م ، وهذا يتطلب منه العمل من جديد ، ففي جيجل أسس قاعدة له غير قاعدة جربه ؛ وغدت مركزاً رئيسياً لسفنه ، في حين ظلت قاعدة جربه مركز للمتطوعين القادمين من الأناضول .

بدأ خير الدين بإنشاء دار للسفن في جيجل ، فقد أنشأ سفينة تحتوي على سبعة وعشرين مقعداً من نوع باشتاردة ، وبعد الانتهاء من تجهيزها بشكل كامل ، خرج إلى الغزو بتسع سفن ، وبالقرب من السواحل التونسية استولى على عدة سفن عائدة لسلطان تونس فأحرقها ، ثم تابع طريقه إلى سواحل جنوه ، وهناك إستولى على ست سفن محملة بالقمح ، فاستولى عليهم

(١) تحفة الكبار .

وأرسلهم إلى جربه، وعند عودته وزع القمح على أهالي جربه، وبغية توسيع دائرة هجماته نادى الريس إيدين والريس شعبان وبقية الرياس وجمعهم حوله مكوناً أسطولاً بحرياً مؤلفاً من أربعين سفينة بحرية، وبدأ بمهاجمة السواحل الأوروبية المطلة على البحر الأبيض فقلبها رأساً على عقب، وقد أحس سلطان تونس أن عاصفة بحرية تدور حول رأسه، فلجأ إلى إرسال الهدايا والوسطاء لإجراء مصالحة مع الريس خير الدين، لكن الريس خير الدين رفض مصالحته رفضاً باتاً وصمم على مهاجمته[1].

(١) ورد في تحفة الكبار اقتباساً عن كتاب الغزوات بعض الأخطاء في ترتيب الحوادث، وإن معظم هذه الحوادث لم يسجل تاريخ حدوثها، فاضطررنا إلى مراجعة بعض المصادر الأجنبية، فنشأه ترك خير الدين للجزائر ذكرته تحفة الكبار بصورة مغايرة تماماً لما ذكره دي غرامونت وفور بيكه وكتاب جامعة الجزائر، فبعد هزيمة الإسبان وتحطيم أسطولهم وقواتهم العسكرية، فسلطان كوكو أحمد بن القاضي انقلب على خير الدين، وإن القوة التي أرسلها خير الدين احتلت القالو، ولكن أحمد بن القاضي جمع القبائل حوله في السنة التالية، وحينما علم خير الدين بذلك هاجمها، وليتمكن من سحقها بشكل جيد، اخترق صفوفها بكل جسارة ولم يتمكن من الانسحاب باتجاه الشرق إلا بصعوبة فائقة، ومن ثم اتجه إلى جيجل، أما أحمد بن القاضي فقد تمكن من دخول الجزائر بدون أي مقاومة. وفي سنة ١٥٢٠م استولى على تنس وشرشال، وترك لهم حرية التصرف ثم أرسل إلى الجزائر بطلب أشياءه.

- ٤ -
آل برباروس

الريس خير الدين في جيجل - مجيء القراصنة وذهابهم - ملل الأهالي من أحمد بن القاضي - مرور خمس سنوات - مهاجمة أحمد بن القاضي والانتصار عليه - قطع رأس أحمد بن القاضي وقره حسن - الريس خير الدين يدخل الجزائر سنة ١٥٢٥م - احتلال السواحل من جديد - تأديب قسنطينة - الهجوم على الإسبان في بنون - تبديل أطراف الحصار - أوضاع جيران الجزائر - فاس - تلمسان - تونس - فشل الهجوم الإسباني على شرشال سنة ١٥٣١ - استيلاء أندريا دوريا على قورون - احتلال الريس خير الدين - عصيان حاكم تلمسان - تأديبه - نقل الصراع الإسباني.

أ - حكومة الريس خير الدين في جيجل :

انسحب الريس خير الدين إلى جيجل سنة ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠ م. فدخل أحمد بن القاضي الجزائر مع مقاتليه الجبليين، ونتيجة للمظالم التي ارتكبوها من سلب ونهب للأهالي، غدا الجزائريون أكثر حباً وتقرباً للأتراك، فالإسبان لم يتحركوا لاغتنام فرصة انسحابه، كما أنهم لم يقوموا بأي حركة طوال هذه الفترة، فاستغل خير الدين هذه الفرصة، وقام بتقوية نفوذه المعنوي والمادي فمنح القراصنة صلاحيات واسعة، وقدم لهم الغنائم الكثيرة والقيمة، فضمن بذلك جذب أكبر قوة فدائية للعمل معه وغدت تأتمر بإمرته.

وخلال السنوات الخمس الواقعة بين ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م و ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م استطاع تمكين نفوذه واستعادت قوته القديمة ، علماً بأن الدولة العثمانية لم تقدم له خلال هذه الفترة الحرجة أي مساعدات مادية أو معنوية ، وما فعله كان بفضل جهوده وحسن تصرفه وإداراته للأمور. مكنه من تأسيس قوة عسكرية جيدة ، أحضر جنودها من المتطوعين الذين انضموا إليه طوعاً من داخل البلاد ، واتفق مع عبد العزيز زعيم قبيلة بني العباس ، أما الجزائريون فقد ازدادوا سوءاً على سوء ، وكل ما شاهدوه من تطور هو تبديل الأفندية فقط ، فضجر السكان من تصرفات أحمد بن القاضي وبدأت غالبية الأهالي تبحث عن وسيلة لتأمين الاتصال مع الأتراك من أجل الاتفاق معهم ، وتعلم البربر للفساد والنفاق خدم الأتراك خدمة عظيمة ، وتحول حب البربر لابن القاضي إلى حقد وكراهية ، وشاركوا أهالي الجزائر نفورهم من تصرفات ابن القاضي. وبما أن الإسبان بدأوا يلاحقون المسلمين بالحديد والنار ويجبرونهم على الهجرة ، فقد قام القباطنة الأتراك بنقل مسلمي الأندلس إلى الجزائر وكافة السواحل الإفريقية ، ولكن ابن القاضي رفض بشدة استقبال هؤلاء المسلمين ، وحتى لم يسمح للسفن التي تنقلهم بالرسو في الميناء ، فاضطروا للذهاب إلى جيجل ، واشتكوا الأمر إلى خير الدين ، وبما أن قوة الريس خير الدين العسكرية قد كبرت وقويت ، وبإمكانها التحرك ومهاجمة أعدائها. وأن النقمة ازدادت على أحمد بن القاضي ، فقد استغل تخلي أحمد بن القاضي عن مساعدة المسلمين المهجرين ، وهذا يعني تخليه عن الإسلام فجهز قواته وأرسل خبراً إلى الجزائريين يعلمهم بقدومه وتأديبه لأحمد بن القاضي ، وقد أبدى الرياس استعدادهم لذلك.

في سنة ١٥٢٥م اتجه الريس خير الدين إلى قبيلة بن العباس واتفق مع سلطانها ، وكانت هي المرة الأولى التي يتوجه فيها الريس خير الدين إلى مناطق القبائل ويحقق انتصاراً حاسماً هناك.

التقى الريس خير الدين مع أحمد بن القاضي في وادي بو قدوره ، وخلال ساعات قليلة من القتال انهزم أحمد بن القاضي منسحباً إلى ممر في جبل بني عائشة ، ووجد بين قوات ابن القاضي عساكر سلطان كوكو[1]. ممن

(١) كوكو: وهو استحكام يقع في جرجرة ، يشبه مدينة صغيرة ، وهو ملك لقبيلة زواوة وتقع كوكو =

انضموا إلى قوات خير الدين وقدر عددهم بـ ١٨٠٠ مقاتل مسح بالبنادق، فازدادت قوة خير الدين بانضمامهم إليه.

أعلن عساكر أحمد بن القاضي تمردهم عليه، فقطعوا رأسه وقدموه هدية إلى خير الدين، بعدما عبروا عن أسفهم وندمهم لخيانته، وأقسموا على مساندته والوقوف لجانبه، ولكسب صفة اليولداشية لاحقوا حليف ابن القاضي قره حسن (حسن الأسود) الذي هرب إلى شرشال عقب الهزيمة التي لحقت به، فوافق خير الدين على ملاحقته إلى شرشال وألقى القبض عليه هناك وقتله، وبمقتل قره حسن لم يبق حاجة للحرب لأن أبواب مدينة الجزائر وطرقها مفتوحة أمامه، فدخل الريس خير الدين الجزائر معززاً مكرماً سنة ١٥٢٥م.

ب ـ خير الدين في الجزائر:

دخل الريس خير الدين الجزائر بلا مقاومة، وعمل مباشرة على إعادة الجزائر التي عرفها سابقاً، فبدأ أولاً بضرب المتمردين بشدة، ودأب خلال سنتي ١٥٢٦ و١٥٢٧م على ملاحقة العصاة وحرص على ذلك، فألقى القبض على حكام تنس وشرشال وقطع رؤوسهم، وفرض سيطرته من جديد على الساحل الممتد من جيجل حتى وهران، وفي سنة ١٥٢٨م تمردت قسنطينة وقتلت القائد الذي عينه خير الدين عليها، ولولا اتحاد حراس المدينة من القبائل مع قبيلة هودنا، لما استطاعوا الدفاع عن المدينة ضد المتمردين، فاضطر خير الدين في سنة ١٥٢٨ م إلى توجيه ضربة قاسية إلى مدينة قسنطينة والقبائل المجاورة لها، وغدت المنطقة وما جاورها خالية من السكان وظلت لعدة شهور مأوى للوحوش والأشقياء.

فبعد مقتل سلطان كوكو أحمد بن القاضي، استلم أخوه حسين الذي قدم الطاعة إلى خير الدين وفقد ماله وعياله نتيجة ذلك، وقد عفا عنه خير الدين شريطة دفع ٣٠ يوك من الفضة(*). تسلم خير الدين حكم البلاد دون أي

= على استقامة (ثيزيوز ـ فورناسيول ـ ميشله ـ بني منصور) وعلى بعد ٨كم من ميشله من الجهة الشرقية منها. بني فوق هضبة مرتفعة، ومحاط بسور قديم مهدم وبداخله جامع.

(*) يوك Yük : ومعناها حمل، ومقداره ١٠٠,٠٠٠ ليرة أو أقجة ثم بدل هذا التعبير فيما بعد إلى كيسه أو ثوربه، وكانت الدولة العثمانية تفرض الضرائب على ولاياتها مقدرة باليوك، وغدت=

اعتراض من أي جهة ، ولم يعد خائفاً من جيرانه ، لكن الإسبان ما زالوا موجودين في قلعة بنون ، وإن حالة العساكر المقيمين فيها غدت سيئة للغاية ، ويعيشون حالة بؤس وغربة كاملة بسبب بعدهم عن الوطن الأم ، كما أنهم حرموا من أي مساعدة حتى المواد الغذائية حرموا منها ، وحتى مياه الشرب كانوا يضطرون لاحضارها من جزيرة مايوركا (ميورقة) ، ولكنهم اعتادوا على ذلك. لقد كانت قلعة بنون مهملة من قبل الإسبان سواء من ناحية تأمين القوات الموجودة فيها أو من ناحية التسليح[1] ، ومما زاد في يأس وقنوط القوات الإسبانية وجود قائدهم المسن دون مارتن دي فرغاس Don Martin de Vergas .

حقق الريس خير الدين بعد دخوله الجزائر انتصارات واسعة ، فقد لاحق أعداءه وضربهم بشدة ، ووطد الأمن والاستقرار ، وأخضع المدينة للنظام ، فخاف قائد قلعة بنون من نشاط خير الدين ، ولكي لا تداهمه عاصفة خير الدين فجأة ، طلب من دولته تزويده بالمعدات والأسلحة ، ولكن دولته لم تصغِ إلى طلباته.

كان وجود الإسبان في قلعة بنون يشكل خطراً كبيراً ومباشراً على مدينة الجزائر، لأن الجزائريين كانوا يعتبرون وجودهم في هذه القلعة إهانة كبيرة لهم ، إضافة إلى ذلك فإن السفن الجزائرية كانت تواجه مصاعب عدة في الذهاب والإياب.

إن سفن الريس خير الدين بلغت عشرين سفينة ، والقباطنة الذين يساندونه يملكون ضعف هذا العدد ، وهذا يعني أنهم بحاجة إلى ميناء ، وبما أن خير الدين استقر في الجزائر بصورة نهائية ، فقد أصبح ميناء جربه غير مناسب له ولرفاقه ، وإن طرد الإسبان من القلعة غدا ضرورة حتمية يعزز سلطانه من جهة ، ويضمن لسفنه ولميناء الجزائر الأمن والسلامة من جهة أخرى ، فأرسل في أيار سنة ١٥٢٩م خطاباً إلى قائد القلعة دون مارتن دي

= الكيسه تساوي ٥٠٠ قرش واستمر يتبدل له تبعاً للظروف وتبعاً لتبدل المعايير المالية ، ولكن هذه التعابير أزيلت نهائياً من المصطلحات العثمانية بعد فترة التنظيمات التى بدأها السلطان محمود الثاني ونفذها ابنه عبد المجيد.

(١) دي غراممونت.

فرغاس بضرورة تسليم القلعة ومغادرتها مع جنوده فوراً لكن قائد القلعة رد عليه بالرفض ، عندئذ ، نصب خير الدين بطاريتي مدفعية مقابل القلعة ، وباشر بقصفها لمدة عشرين يوماً ، ونتيجة لشدة القصف عم الذعر والخوف حاميتها ، وفي ٢٧ أيار تمكن من فتح ثغرة في جدار القلعة ، وعلى الفور جهز ٤٥ زورقاً وملأهم بالعساكر، وكلفهم بمهاجمة القلعة[1] .

لم يجد دون مارتن وسيلة ، بعد انهيار معنويات جنوده ، سوى القتال بنفسه ، فأخذ سيفه ، ووقف أمام الثغرة يقاتل بقوة شديدة ، لكن الأتراك انتصروا عليهم ، وتمكنوا من عبور الثغرة ، وأسروا الإسبان الموجودين فيها ، وكان عددهم سبعمائة جندي . ومن ثم هدموا القلعة ، وأقاموا برجاً دائرياً ، مستفيدين من الأسرى المسيحيين ، وكلفوا ثلاثين ألف بنقل أنقاض القلعة إلى البحر ، ووصلوا القلعة بالساحل وأنشأوا رصيفاً لحماية الميناء من رياح الشمال والشمال الغربي ، فأصبح ميناء الجزائر غاية في الروعة ، كما وضع في البرج فناراً (شعلة) وبطارية مدفعية وعدداً من الحراس ، وغدت سفن القراصنة تنام آمنة مطمئنة ، ولضمان ذلك أقاموا قرب البرج ثكنة عسكرية ، واعتباراً من ذلك التاريخ تأسس أوجاق الجزائر واستمر الأمر حتى سنة ١٨٣٠م .

عقب تأسيس ميناء الجزائر، انصرف خير الدين إلى تشجيع القرصنة البحرية ، وبدأ نشاط الجزائريين يزداد شيئاً فشيئاً، وأصبحت الجزائر تسيطر على البحر الأبيض المتوسط، وقراصنتها القوة الضاربة والشجاعة في مياهه[2] .

بعد سقوط القلعة بعشرة أيام قدمت إليها تسع سفن إسبانية محملة بالأسلحة والمعدات ، بناء على طلب دون مارتن دي فرغاس ، لكن قادة السفن لم يشاهدوا أي أثر للقلعة ، وظلوا في حالة من الدهشة والحيرة إلى أن أحاطت بهم خمس قادرغات تابعة لخير الدين ، ولم يجد قادة السفن وسيلة سوى الاستبسلام ، فأحضروا إلى ميناء الجرائر، فاستولى خير الدين على

---

(١) دليل إفريقية لسنة ١٨٧٥م ص ١٦٣ .

(٢) دى غراممونت .

السفن وطواقمها، إضافة إلى كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات جاءته بدون أي جهد أو حساب[1].

علم ملك إسبانيا بأن الريس أيدن والريس صالح نهبوا أربع عشرة سفينة التقوا بها في سواحل جنوة، ومن بعد ذلك توجهوا إلى السواحل الفرنسية، ورسوا في أطراف مرسيليا، وغنموا من هناك الشيء الكثير، ومنها تابعوا طريقهم إلى السواحل الإسبانية فهاجموها ودمروا مناطق واسعة منها، وأسروا الاف الأشخاص.

وبينما كانوا يدمرون السواحل الإسبانية، علم الريس أيدن بخبر المسلمين الراغبين بالتخلص من الظلم الإسباني، فأسرع مع رفاقه إلى سواحل أوليفا حيث تجمع المسلمون هناك، فنقلوا مائتي عائلة بأموالهم، ثم اتجهوا إلى جزيرة فومنتره Formentre ليقضوا ليلتهم فيها، وفي منتصف الليل هاجمهم الأميرال الإسباني بورتوندو Portondo بتسع سفن حربية، أقوى من سفن الجزائريين متانة وتسليحاً، وألقى القبض على بعض العرب الهاربين مع أموالهم وعيالهم، وكان الأميرال قد وُعد بمكافأة قدرها ١٥ ألف ليرة ذهبية لقاء القبض على القراصنة الجزائريين. وقد استدعى من جنوة للقيام بهذه المهمة من قبل البابا الذي كان يلبس شارلكان تاج أمبراطورية بولونيا.

حقيقة الأمر، لقد استحق الريس آيدن اللقب الذي منحه إياه الإسبان (ضارب الشيطان) في هذه الليلة وتلك المعركة، ولكي يتمكن الريس آيدن من التحرك والمحاربة بشكل أفضل، أنزل أولاً الأولاد والنساء لانقاذهم من الهلاك، ثم انطلق كالشيطان يهاجم الإسبان بقوة ومهارة فذُهل الإسبان وأصبحوا وسط دائرة من الإرباك لم يشهدوا لها مثيلاً في تاريخ القتال البحري، فبدأوا بترك سفنهم والاتجاه إلى البحر مفضلين الغرق على الموت بالسيف، وتمكن آيدن من قتل الأميرال، وأسر سبع سفن، وغرقت واحدة وفرت واحدة، وغدت جثث الإسبان تغطي وجه البحر، وبعد الانتصار، أركب المهجرين الأندلسيين في السفن ثانية، وبعينيه المليئة بالدموع كان يرقب ساحة الشهامة، لأنه أحضرهم إلى الجزائر سالمين غانمين، وقد أعجب

---

(١) تحفة الكبار.

خير الدين بشجاعة ومهارة الريس إيدن، وأخبر السلطان بهذا النصر العظيم الذي حققه الريس إيدن ورفاقه الأبطال.

جـ - أوضاع جيران أوجاق الغرب في الجزائر:

كانت حكومة بني مرين في فاس تعاني الضعف والانحطاط، ولهذا فقد عمل الأشراف السعوديون في مراكش على تقوية نفوذهم لاستلام السلطة منهم، ولكن كلا الطرفين عملا على طرد البرتغاليين والإسبان من البلاد.

ويتفرع من أسرة بني مرين، فرع يسمى فرع بنو وطاس، ففي سنة ١٤٧١م تمكن قائدهم عبدالله بن محمد من تأسيس حكومة في المغرب الأقصى، وفي سنة ١٥٠٤م خلفه ابنه محمد الغالب وفي عهده شهدت البلاد هدوءاً واستقراراً، وفي سنة ١٥١٠م تسلم أخوه محمد المنصور حكم البلاد، وكان مركز الحاكم فاس، فأسس محمد المنصور في مراكش حكومة شبه مستقلة عن بني مرين.

كان أبو عبدالله محمد القائم من الأشراف السعديين، يتمتع بقوة ونفوذ سياسي واسع، وقد توفي سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٨م وقبل وفاته قسّم البلاد بين ولديه، فعهد إلى أبي العباس الأعرج بالطرف الشمالي، وإلى محمد المهدي بالطرف الجنوبي، وكانت العلاقة بين الأخوين حسنة، ولهذا فقد انصرف كل منهما لتوسيع دائرة حكمه، فعملا أولاً على طرد البرتغاليين، وفي سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م هجم أبو العباس الأعرج على مراكش واحتلها، مستغلاً محمد المنصور بمحاربة الإسبان في الشمال، وفي الداخل تمرد عليه أمير شفشاون، إزاء ذلك لم يستطع محمد المنصور القيام بأي عمل تجاه احتلال الأعراج لمراكش، فانصرف إلى تسوية أموره الداخلية.

على الرغم من أن أشراف مراكش أزاحوا الستار عن وجوههم بشكل سافر، إلا أنهم لم يعلنوا استقلالهم صراحة، وذلك بسبب انشغالهم بالجهاد، وتحرير البلاد من المسيحيين، وبعد احتلال الأعرج لمراكش مباشرة، أرسل الهدايا إلى محمد المنصور، وأعلن تبعيته له، لكنه رفض تقديم الضرائب.

أرسل مولاي محمد المنصور وثيقة احترام وكتاباً يعلمه فيه الاتفاق على

ضريبة جزئية بسيطة لكن الأعرج رد عليه بكتاب يعلمه فيه ، أن دفع الضريبة لا يليق بالشرف ، وهدده بإعلان الحرب عليه طارحاً ستار الحياء جانباً ، لكن محمد المنصور هاجمه أولاً وتمكن من محاصرة مراكش[1] . وبينما كان محمد المنصور يحاصر مراكش ، أعلن أحد أقربائه تمرده عليه ، وتسلم السلطة في فاس بدلاً من محمد المنصور. فاضطر لرفع الحصار عن مراكش ، وخاصة عندما علم بأن محمد المهدي في الطريق لمساعدة أخيه الأعرج ، وهكذا خرجت مراكش نهائياً من أيدي بني مرين ، وتوفي المنصور سنة ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م وحل مكانه في بادىء الأمر أحد أولاده (أبو حسون) ولم تمضي فترة طويلة حتى حل مكانه أخوه (أحمد) وفي سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٣٦م هاجم مولاي أحمد الأعرج ، لكنه خسر المعركة وانهزم ، وعلى ضوء ذلك أقاموا بينهم صلحاً على أساس المساواة[2] . فمن شرق تادلا وإلى الشمال مباشرة عائد لحاكم فاس ، من سوسه جنوباً عائد لسلطان مراكش[3] . ولم يبحث في هذا الاتفاقية مسألة التبعية ، وهكذا تمكن الأشراف السعديون من إقامة أسس دولتهم اعتباراً من ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م .

في سنة ١٥٣٦م استطاع محمد المهدي أخو (أبو العباس الأعرج) من استعادة موقع (سانتاجروز) من البرتغاليين ، وفي سنة ١٥٣٩م حاصر محمد المهدي آسفي ، ولكن المدينة قاومته بشدة ، فاضطر لفك الحصار والانسحاب ، لكن ملك البرتغال أمر بنقل القوات البرتغالية إلى مزغان ، نظراً لقلة واردات الشمال الإفريقي وزيادة المصاريف ، إضافة إلى أنه لم يكن مؤيداً لإقامة مستعمرات في إفريقيا .

د ـ حكومة أبو زيان في تلمسان :

عاد أبو حمو الثالث إلى حكم تلمسان مرة أخرى بمساعدة الإسبان ، ولكنه كان ألعوبة بيدهم ، وقد استمر حاله على هذا الشكل طوال حياته . مات أبو حمو سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م خلفه في الحكم أخوه أبو محمد عبدالله

(١) أوغست كور (Ogust Kur) .
(٢) فور بيكة Forbige .
(٣) أوغست كور .

والملقب (عبدالله السرحاني السعودي)[1]. الذي اغتصب الحكم من ابن أبو حمو الثالث مسعود، فهرب مسعود والتجأ إلى فاس.

لم يساند الإسبان عبدالله، فتخوف عبدالله من الإسبان، لذلك اتفق سراً مع الريس خير الدين بك وتعهد له بدفع الضريبة بدلاً من الإسبان، وكان موقف عبدالله صعباً، لأن الإسبان بدأوا بالتآمر ضده، فسعى لإرضائهم بالضرائب، فأثقل كاهله بالضرائب، ولهذا سعى عبدالله جاداً للتخلص من الوصاية الإسبانية. فأعلن تمرده عليهم بشكل واضح خاصة بعد سقوط قلعة بنون بيد الريس خير الدين، امتنع عن دفع الضرائب وتقديم الأرزاق لهم كذلك فقد تجاهل وعده للأتراك أيضاً، أما ابن أخيه مسعود الذي التجأ إلى فاس، فقد اتصل بالريس خير الدين، وطلب مساعدته لاسترجاع حكمه في تلمسان، وتعهد بدفع الضريبة وإعلان تبعيته للجزائر، فزوده خير الدين بعدد كافٍ من الأتراك، فاتجه بهم إلى تلمسان بعدما اتصل مع الأهالي.

خاف عبدالله من القوة التي أحضرها مسعود، ففر هارباً إلى إسبانيا، وجلس مسعود على عرش بني زيان في تلمسان، وبعد أن حقق مسعود مقصده، غيّر فكرته وموقفه تجاه الأتراك، وكان يعلم أن عمه عبدالله في هران، ولكي يضمن بقاءه في الحكم أعلن تبعيته للإسبان وقدم لهم الضريبة، فقبله الإسبان، وأبقوه في الحكم[2].

قرر الريس خير الدين غزو تلمسان ومعاقبة هذا الخائن، وبينما هو على وشك الذهاب جاءه أحد مربطي مولاي عبدالله طالباً العفو والصفح لسيده، وتوسل للريس خير الدين أن يساعده لاستعادة عرشه من ابن أخيه مسعود، فكر الريس خير الدين بالعمل الذي سيقوم به، وأدرك أن بعد تلمسان سيجعل الأمر صعباً، ووجد أنه من المناسب الإسراع بذلك بسبب مراجعة المرابط له، لكن عبدالله كان تحت مراقبة الإسبان ولن يسمحوا له بالتحرك، ولهذا توجب على الريس خير الدين إنقاذه أولاً، ورسم لذلك خطة محكمة، فحينما يتقدم الجزائريون باتجاه الغرب حتى مستغانم، فإن فرار عبدالله من هران

---

(١) تاريخ الدول الإسلامية (جامعة الجزائر).

(٢) تاريخ الدول الإسلامية أو (أونيغرس ـ الجزائر).

سيكون سهلاً، ومن هناك سيلتحق ويجمع أنصاره ويتوجه مباشرة إلى مهاجمة تلمسان. وأرسل خبراً إلى عبدالله يعلمه بأن الأراضي التي هي خلفهم ستكون آمنة، ولتنفيذ الخطة المرسومة، تحرك خير الدين بقوة برية إلى مستغانم، وأرسل قوة بحرية تتألف من ثمان وعشرين سفينة. وكانت مستغانم خاضعة لنفوذ بني زيان، فاستولى عليها خير الدين بسهولة، والتقى هناك مع مولاي عبدالله، ومن هناك تابع طريقه إلى قلعة بني راشد، وسيطر عليها بعد محاصرة بسيطة، فوضع عليها محافظين، وبعد يومين من مساره تصدى له مولاي مسعود بجميع قواته، ولدى أول لقاء تزعزعت قوات مسعود ففر هارباً إلى قلعة تلمسان وأغلق أبوابها عليه.

لم يتمكن الأتراك من دخول القلعة لأنهم لم يزودوا بالمدافع[1]، ولكن الأتراك الأبطال نفذ صبرهم من المحاصرة، وفي الليلة العشرين من الحصار، تسلقوا جدران القلعة وحالما دخلوا القلعة فتحوا الأبواب لرفاقهم الذين في الخارج، وكان مسعود في القلعة الداخلية، ففر بمساعدة ٢٠٠ شخص من رجاله[2]. ودخل عبدالله القلعة واستلم الحكم بدلاً من مسعود، وفور استلامه أعلن تبعيته للأتراك[3]. وقبل مغادرة الريس خير الدين لتلمسان ترك لديه/ ١٥٠/ محافظاً من الأتراك، فمنحهم عبدالله رواتب عالية، ووافق على إعلان الخطبة وصك العملة بإسم السلطان العثماني. عاد الجيش إلى الجزائر، وبعد سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م بزمن قليل، جمع مسعود قواته وتوجه إلى تلمسان وحاصرها لمدة أشهر، ومع وصول الإمدادات من الجزائر، غُلب مسعود على أمره، ووقع أسيراً بيد الأتراك، فسُجن حتى وفاته.

ذ ـ تونس:

كان أبو عبدالله محمد الخامس المتوكل على الله من العائلة الحفصية حاكماً على تونس منذ سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م، وكان أبو عبدالله محمد الخامس

---

(١) تاريخ الدول الإسلامية.

(٢) تحفة الكبار.

(٣) يقال في تحفة الكبار: بعد دخول الأتراك لتلمسان كانت الولاية بعد بيد السلطان سليم الأول، فإذا كان هذا صحيحاً فإن الحادثة تكون قد حدثت في السنة التاسعة لولاية سليمان القانوني، أي سنة ١٩٢٩م والخطبة والعملة الآن باسمه..

قد تقبل القراصنة ومنحهم مكاناً في حلق الواد، وأجرى اتفاقاً معهم، وقد استمر في الحكم إلى أن توفي سنة ١٥٢٦م فخلفه ابنه أبو عبدالله الحسن واشتهر باختصار بإسم (مولاي الحسن) وحالما تسلم مولاي الحسن الحكم قتل أخوته[١]. ولم ينجُ سوى أخٍ له يسمى الرشيد الذي فر ملتجأ إلى الريس خير الدين بك، ومولاي الحسن كان رجلاً سفيهاً سفاكاً وعديم الأخلاق والضمير، أهمل الجيش والتحصينات، ولم يفكر بشيء سوى بنفسه واناقته، وقد اهتم بحرسه الخاص والمكون من ٤٠٠ شاب من أجمل شبان البلاد، وأمرهم بالالتفاف حوله، فضجر السكان كثيراً من تصرفاته، وسئموا حكمه المملوء بالظلم والقهر، ولكثرة ما اتبع الظلم والاستبداد. اضطر الأهالي إلى حني رؤوسهم أمام ظلمه وغدره[٢].

ر ـ بقية الجيران:

ومن جملة المجاورين بخير الدين بك، حكومة بني العباس الصغيرة أو رئيس القبيلة عبد العزيز، وكان عبد العزيز صديقاً وفياً لخير الدين بك، وحالما يحدث بينهما أي خلاف سرعان ما يتفاهمان، ويزول الخلاف.

ظل الإسبان الموجودين في وهران والمرسى الكبير شبه محاصرين، بسبب التزام خير الدين وعبد العزيز بالاتفاق الدائر بينهما، ولهذا ظلوا عرضة لهجمات القراصنة بحراً والأهالي براً.

قدم سكان وهران شكاوي عديدة بحق الحاكم ماركي دي غومارس، فكلف الملك موظفاً بالذهاب إلى وهران لإجراء تحقيقات حول الشكاوى المقدمة ضد حاكمها، وعلى ضوء التقرير الذي قدم للملك، استُدعي ماركي إلى فالادوليد Valadolida .

ز ـ الوقائع حتى ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م:

إثر انهيار قلعة بنون وهدمها وطرد الإسبان منها على يد الأتراك الأبطال، عم الغضب والهيجان مختلف المناطق الإسبانية، فاندفع أهالي السواحل بشكل دائم ومستمر على المجلس العالي للدولة الإسبانية، يشكون

---

(١) يقول هامر أنه قتل أربعة وأربعين أخاً له.

(٢) هامر: تاريخ هامر.

أوضاعهم، وما يعانونه من رعب وخوف من جراء مهاجمة القراصنة عليهم، وطالبوا بانقاذهم وتخليصهم منهم، وبناء على طلب الأهالي وإلحاحهم، قرر المجلس الملكي غزو الجزائر، ووافق الملك على القرار، وأن تكون سنة ١٥٣٠م سنة الغزو.

عين الملك أندريا دوريا قائداً لحملة الغزو، وبعد أن جهز الأسطول والجنود قرر أندريا دوريا اتخاذ شرشال نقطة إنزال لقواته. وكانت التحصينات القائمة في شرشال من جهد الريس عروج.

اختار الملك الإسباني هذه السنة لشن هجوم على الجزائر، لأنه وقّع في هذه السنة صلحاً مع فرنسا، وقد ارتاح الفرنسيون كثيراً لقيام شارلكان بغزو الجزائر، وتأييداً لذلك شاركوا بعشرين قادرغة.

استمر إعداد الحملة قرابة سنة، وفي شهر تموز سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م تحرك أندريا دوريا مع جيشه وأسطوله من جنوة باتجاه شرشال[1]. علم الريس خير الدين بالترتيبات التي يعدها الإسبان لغزو الجزائر، فجمع خير الدين خمس وثلاثين سفينة في ميناء الجزائر، كما أرسل خبراً إلى الريس سنان الموجود في جربه، وكلفه بإخبار جميع القباطنة بنية الإسبان.

التحق الريس سنان بسفنه السبع مع عدد من الأتراك الأبطال والشجعان بالريس خير الدين، وضاق صدر خير الدين من الانتظار، وحينما علم بتحرك الحملة، قرر ملاقاتها وكان يأمل بملاقاتها في جزر البليار، لكن أندريا دوريا

---

(١) ولد أندريا دوريا سنه ١٤٩٨م وهو من أولاد عائلة تعود بأصلها إلى حنوة، وفي شبابه عمل حارساً لدى البابا، وبمساعدة (دوج داوربينو (Duc d'urbino)والفونس دى نابولى Alfons dinapoli) تعلم فن الحروب والمغامرات البحرية، وعندما بلغ سن الأربعين التحق بالبحرية وأظهر براعة فائقة، فأصبح قائداً للأسطول الجنوي سنة ١٥١٣م ولدى حدوث انقلاب من جنوة، ضايقه أعداءه، فقرر الالتحاق بالأسطول الفرنسي، وبفضل مهارته البحرية وخبرته، سجل الأسطول الفرنسى عدة انتصارات على الأسطول الإسبانى، ولدى تخلص جنوة من الظلم والاستبداد عاد إليها، فكلفه الملك بحكمها، لكنه رفض وقبل منه فقط لقب أميرال البحر، وقد مارس أندريا دوريا القرصنة على حسابه الشخصى، وجمع أموالا كثيرة من جراء ممارسته للقرصنة، يُعتبر أندريا دوريا أول بحار فى العالم المسيحى، فحينما هاجم شرشال كان عمره / ٦٢/ عاماً.

وصل إلى ميناء شرشال ومعه أربعين كادرغة[1] . وفي الحال أنزل قواته إلى البر بجوار المدينة

كان الحراس الأتراك المقيمين في برج قلعة بنون يراقبون الإسبان، وفي ذلك الوقت كان حوالي ٧٠٠ إلى ٨٠٠ أسير مسيحي يعملون في رصيف المدينة، وحالما علموا بنزول القوات الإسبانية إلى البر، كسروا قيودهم، وانضموا إليهم، وقد واجه الإنكشاريون مصاعب جمة أثناء محاولتهم دخول القلعة، وبما أن العدو كان واثقاً من نفسه وقواته إلى حد دفعه إلى عدم الاكتراث والمبالاة بالإنكشاريين، أدرك الإنكشاريون الفوضى السائدة في قوات العدو، ولهذا شنوا هجوماً مكثفاً وإلى جانبهم المهجرين الأندلسيين الذين ينتظرون ساعة واحدة للانتقام من الإسبان. بدأت مدفعية القلعة تقصف أسطول أندريا دوريا، والإنكشاريون يجولون بسيوفهم وسط قواتهم، وكانت تلك اللحظات من شدة هولها تخطف الأبصار، فلقد زُهقت أرواح وقُطعت رؤوس. فاندفع أندريا دوريا بمن بقي معه إلى البحر ممتطياً سفنه بعدما خلف وراءه / ١٥٠/ قتيلاً و ٦٤٠ أسيراً، وبعد انتهاء المعركة بساعات وصل الريس خير الدين، فقيدوا الأسرى بالسلاسل وربطوهم إلى إحدى القادرغات وكان من جملة الأسرى معاون أندريا دوريا، وأخبره بأن أندريا سيذهب إلى جنوه، فتحرك خير الدين خلفه على أمل الالتقاء به والقاء القبض عليه هناك. رست سفن خير الدين بك على بعد ثلاثين ميلاً من ميناء مرسيليا، في إحدى الجزر وبقي فيها عشرة أيام، وفي هذه الأثناء وصلت سفينة من ميورقه محملة بالجبن، فتصدى لها القراصنة الجزائريون وأسروها، وقد شوهدت الحادثة من ميناء طولون[2]، وبما أن الحادثة تمت أمام أعين قائد ميناء طولون، لذلك كلف أربع سفن فرنسية بمهاجمة القراصنة، وفي طريقهم التقوا بإحدى سفن الريس خير الدين تحمل على متنها ثلاثمائة مجدّف مسيحي، فانقضوا عليها وخطفوها، ثم أخبروا قائد الأسطول والغضب بادٍ عليهم، بأن أسطول الريس خير الدين يرسوا في الجزيرة المجاورة لمرسيليا، ولكي لا يفسد القائد عمله، أدرك ضرورة العودة إلى الوراء بدلاً من التقدم والهجوم.

---

(١) دي عراممونت.

(٢) تحفة الكبار.

ومع الصباح الباكر تحرك الريس خير الدين بسفنه إلى أطراف جنوة، وهاجم أحد الحصون وأسر ما فيه، وأحرق ٢٢ سفينة كانت راسية في الميناء، ومن ثم توجه مباشرة إلى جنوة، لكنه عاد من منتصف الطريق متجهاً إلى الجزائر بسبب هبوب العاصفة[١].

لم يعد أندريا دوريا إلى جنوة بعد هزيمته في شرشال، بل اتجه إلى السواحل الإسبانية ورسى في إحدى موانئها، وطلب من جنوة أمداده بثلاثمائة عسكري وكميات من البارود والمعدات الحربية المختلفة، فأرسلت له طلباته على متن سفينتي أحدهما تسمى الصخرة السوداء. وأثناء سيرهما في عرض البحر هبت عاصفة هوجاء دفعت بالسفينتين إلى الجزيرة التي يرسو بها الجزائريون، ومع الصباح الباكر شاهد القراصنة الجزائريون شراع سفينة ضخمة، وبعد أن حرروا أنفسهم، تأهبوا للانقضاض عليها، وعندما حانت المسافة المناسبة، تحركت عشر سفن نحوها، وبعد قتال عنيف تمكنوا من أسرها وأحضروها إلى مكان رسو سفنهم، كما علموا بأن سفينة أخرى تسير خلفها، وبعد ساعات قلائل شاهد السفينة الثانية.

ومع حلول المساء، توقفت العاصفة، وبقيت السفينة مكانها، لا تستطيع الحراك، ولهذا لم يهاجموها ليلاً، وفي اليوم الثاني ظل الهواء ساكناً، وبما أن الريس خير الدين لم ير أي ضرورة للتضحية، فقد أمر بضرب السفينة من بعيد[٢]. لكن الريس سنان لم يتخذ أي احتياطات لمثل ذلك، فالتصق بالسفينة قاصداً سحبها سالمة، فنال نتيجة تهوره، فقد أصيب برصاصة في عينه، فانسحب إلى الوراء، عندئذ أمر الريس خير الدين بقصف السفينة المسماة الصخرة السوداء وركزوا القصف على مقدمتها ولمدة طويلة، فبدأت بالغرق.

وحقيقة الأمر، لقد دافع طاقم السفينة بشجاعة وبسالة، ولكنهم اضطروا مؤخراً إلى قذف أنفسهم في الماء، فأسرع الجزائريون، والتقطوهم وأسروهم، ونتيجة لما تحتويه السفينة من أسلحة ومعدات حربية، دخلها

---

(١) من المحتمل أن تكون الجزيرة التي هاجم حصنها وأحرق السفن في مينائها جزيرة حيرس Gigeres .

(٢) تحفة الكبار.

الجزائريون وأخذوا منها ما استطاعوا قبل غرقها، ثم أحرقوا السفينة الثانية بعدما أفرغوا ما فيها من حمولة، وعادوا إلى الجزائر.

علم أندريا دوريا بأخبار السفينتين، فازداد غضباً على غضب، وبدأ يتجول في مناطق البحر الأبيض وحينما بلغ جبل طارق، أخذ بقصف مدنه وقراه بشكل جنوني انتقاماً لما لحق به من هزائم وخسائر(1).

عندما عاد الريس خير الدين إلى الجزائر، علم بأن الشاويش مصطفى أحد شاويش الباب العالي يحمل إليه فرماناً من السلطان سليمان، وكتب إليه السلطان سليمان في الفرمان يخبره بأنه عقد صلحاً مع الفرنسيين، ويأمره بعدم التعرض للسواحل والسفن الفرنسية، ويسأله بعض الأسئلة عن أحواله، فكتب له المعلومات التي يريدها، وأعاد الشاويش مصطفى إلى إستانبول.

تزوج الريس خير الدين في الجزائر من إحدى بنات سادات الجزائر، وانجبت له طفلاً وحيداً سماه حسن بك، وكان حسن بك يذهب مع الرياس منذ طفولته ويعود بالغنائم كأنه واحد منهم.

س ـ احتلال قلعة قورون (Koron):

تحرك السلطان سليمان إلى النمسا من جديد سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣٢م(2). وكان أمبراطور النمسا فرديناند شقيقاً لشارلكان، فأرسل فرديناند خبراً إلى شارلكان يطلب منه المساعدة فكتب يقول له (ليس ضرب قلعة أو قلعتين مهارة، وإنما ما تقدمه لي من مساعدات أفضل بكثير من كل المهارات).

هرع شارلكان من جنوة، بغية إرسال مساعدات لأخيه، فكلف أولاً أندريا دوريا باحتلال قلعة قورون (Koron) عن طريق البحر، وفي هذه الأثناء كان الريس خير الدين على وشك التحرك باتجاه المياة الشرقية، ولكي يتمكن أندريا دوريا من تنفيذ مهمته، أرسل أسطولاً مؤلفاً من ١٤ سفينة إلى

(1) تحفة الكبار.

(2) خرج السلطان سليمان فى إستانبول فى ١٩ رمضان سنة ٩٣٨هـ الموافق ٢٥ نيسان ١٥٣٢م وكانت هى المرة الخامسة التى يهاجم فيها النمسا، وعاد من سفره فى ١٩ ربيع الأخر ٩٣٩هـ الموافق ١٨ تشرين الثاني سنة ١٥٣٢م، وعلى ضوء ذلك يكون احتلال أندريا دوريا القلعة قورون ما بين هذين التاريخين.

سواحل وهران بقصد أشغال خير الدين .

تمرد حاكم تلمسان الأمير عبدالله على الأتراك بعدما كان تابعاً لهم ، وبما أن الريس خير الدين كان يستعد للسفر إلى إستانبول ، فقد اضطر لتأجيل سفره ، ريثما ينتهي من تأديب المتمرد ، وتوجه بنفسه لتأديبه ، وأسفرت المحاربة عن انتصار الريس خير الدين على المتمردين ، ومثلوا بين يديه معلنين أسفهم وندمهم على ذلك ، في حين فر عبدالله إلى تلمسان ، فلاحقه وألقى القبض عليه ، لكنه عفا عنه بعد توسط بعض الشرفاء مع دفع غرامة قدرها ثلاثون ألف قطعة ذهبية ، وعاد الريس خير الدين إلى الجزائر.

تمكن أندريا دوريا من تحقيق مقصده ، واستولى على قلعة قورون ، وإذا تحرك القبطان أحمد باشا على رأس أسطوله والمؤلف من ثمانين سفينة ، فأنه لن يلحق بالقبطان الإسباني أندريا دوريا[1] . وحينما علم الريس خير الدين بسفر أندريا دوريا كلف خمس عشرة سفينة مع رياسها بالذهاب إلى السواحل الإسبانية لحرقها وتدميرها .

توجه الرياس إلى السواحل الإسبانية وبالقرب من جزيرة قوبوقلوش Kobukluş عثروا على خمس عشرة سفينة بكامل طواقمهم ، واصطدموا معهم ، وتمكنوا من إغراق سفينة واحدة ، وأسروا أربع عشرة سفينة وعادوا إلى الجزائر.

عاد الإسبان إلى مضايقة المسلمين المقيمين في إسبانيا ، وخاصة بعد عودة شارلكان يائساً من مساعدة أخيه ، وبسبب الظلم والقهر الذي فرضه شارلكان على المسلمين ، فروا هاربين إلى أحد الجبال ، وأرسلوا خبراً إلى الريس خير الدين يعلمونه بما حل بهم ويلتمسون منه المساعدة ، فكلف خيرة الرياس مع ٣٦ غالية لمساعدتهم ونقلهم إلى مناطق الشمال الإفريقي .

وحالما وصل أسطول الأبطال الجزائريين إلى السواحل الإسبانية ، باشر الرياس بإنزال جنودهم إلى البر ، وخصصوا ألف مقاتل للدفاع عن مواقعهم ، في حين بدأ المسلمون بركوب السفن ، وقد قام الرياس بسبع رحلات لإنقاذ المسلمين ، ونقلوا خلالها سبعين ألف مسلم إلى السواحل

---

(١) تحفة الكبار.

الإفريقية، وبمجيء هؤلاء المهجرين الأندلسيين انتعشت المدن الجزائرية وبقية المدن الإفريقية التي حلوا بها، بعد أن أصيبت بالشلل والجمود فترة الحروب التي شهدتها، وقد اغتنم الرياس أثناء سفرهم واستفادوا من خبرات المهجرين الأندلسيين، فطوروا سفنهم[1]، وكسبوا أصدقاء جدد، كما نتج عن توفر المهارات العالية، ووجود الصناع البارعين للمهجرين الأندلسيين إلى زيادة ثروات مدن الشمال الإفريقي، فتطورت الصناعة، وتحسنت أساليب الزراعة، وغدت مدنه أكثر حيوية ونشاط[2].

---

(١) تحفة الكبار.

(٢) هذا الانتقال غير معروف تماماً، ولكن من المؤكد أن نقل المسلمين من الأندلس إلى شمال إفريقيا تم بعد عودة شارلكان، وقبل ذهاب خير الدين إلى إسنانبول، ويمكننا تحديده تاريخياً سنة ١٥٣٣م.

ـ ٥ ـ
آل برباروس

دعوة خير الدين إلى إستانبول وموفقيته ومن ثم ذهابه إلى حلب وعودته منها ـ مساعيه في إستانبول ـ الأتراك، المرابطون، القادريون ـ استيلاء خير الدين باشا على تونس ـ هجوم شارلكان على تونس ـ انسحاب خير الدين باشا إلى الجزائر ـ فواجع ومظالم الإسبان ـ ضرب جزيرتي ميورقة ومنورقة والعودة إلى إستانبول.

أ ـ بعد عودة السلطان سليمان من حرب النمسا منتصراً، قرر محاربة شارلكان سياسياً، فعقد صلحاً مع فرديناند، وقد أزعج الصلح المعقود بين السلطان سليمان وفرديناند شارلكان وأشعره بضعف موقفه.

ولكي تكون الأعمال البحرية أكثر نجاحاً وفعالية، يجب أن تعهد قيادة الأسطول إلى الريس خير الدين، فوجه فرماناً سلطانياً في سنة ٩٣٩هـ/ ١٥٣٣م إلى خير الدين، وكلف الشاويش سنان بإيصاله إليه، وكتب إليه فيه (رغبتي توجيه عمل ضد إسبانيا، ضع مكانك رجلاً جيداً وعاقلاً، وأسرع إلينا، وإذا لم تجد من تتوفر فيه المقدرة، اعلمنا)[1].

لم يُسر المسيحيون وأتباعهم استلام خير الدين لقيادة الأسطول العثماني، لذلك حاول أندريا دوريا منعه من السفر إلى إستانبول، وسعى لتدبير حيلة، فقد أشاع بأن سفينة ستأتي إلى الجزائر، وعليها الأسرى الذين

(١) تحفة الكبار.

أسروا في قلعة قورون، وتحمل أيضاً أمتعته بقيمة ستة آلاف ليرة ذهبية وسبعين شخصاً من بينهم ملك إسبانيا.

وفعلاً فقد أرسل أندريا دوريا سفينة إلى المياه الجزائرية، فهاجمها القراصنة وأسروها، ولكنهم لم يجدوا عليها ما أشيع من أقوال، فأدرك الريس خير الدين بأنها حيلة دبرت لمنعه من الالتحاق بقيادة الأسطول. وقد شرح له أسرى السفينة تفاصيل الحيلة المدبرة.

ورداً على ما دبره أندريا دوريا، قام خير الدين بتدبير حيلة، وأحكم أطرافها بشكل جيد، فقد تظاهر أمام أسرى سفينة بأخذ أشيائه من السفينة المعدة لتنقله إلى إستانبول، ثم أطلق سبيل السفينة المأسورة مع طاقمها، وحالما وصلوا إلى إسبانيا، أعلموا أندريا دوريا بأن خير الدين ألغى سفره إلى إستانبول، ففرح أندريا دوريا لنجاح حيلته، ثم اتجه إلى قلعة قورون والسرور بادٍ عليه.

وكان الأمر الذي تسلمه خير الدين يحثه بالقدوم إلى إستانبول بالسرعة القصوى ولكنه كان متخوفاً من السفر، وغير مطمئن على البلاد، لأنه سيترك سبعة آلاف أسير في الجزائر، إضافة إلى ذلك فإن قتل الأسرى آنذاك كان طبيعياً، وهذا الأمر كان يقلقه جداً ويثير مخاوفه على الأسرى المسلمين والمصير الذي سيؤولون إليه، وقد رفض خير الدين معاملة الأسرى المسيحيين، كمعاملة المسيحيين للأسرى المسلمين، وردد أكثر من مرة بأن قتل الأسير جريمة كبرى، ولذلك حرم قتل الأسرى تحريماً باتاً.

إن الأوربيين كانوا يعمدون إلى قطع أنوف وآذان المسلمين الذين يقعون أسرى لديهم، ويقتلونهم بعد تعريضهم لعذاب شديد إلى حد لا يمكن للعقل تصوره أو إدراكه. فأرسل خبراً رسمياً إلى حكومات أسبانيا وجنوة والبندقية، يعلمهم فيه (أنهم استمروا في ممارسة الأعمال اللاإنسانية، فأنه سيعامل أسراهم نفس المعاملة، وأن كافة الأسرى حتى (المقاتلين) الذين يقعون بأيدي الأعداء منهم معصومون من العذاب والقتل) وقد تظاهروا بقبول عرضه، لكنهم استمروا يعاملون الأسرى المسلمين معاملة وحشية، فاضطر خير الدين إلى تنفيذ إجراءاته إسوة بما يفعلونه بحق الأسرى المسلمين،

فسُمعت أصوات الاستغاثة والنجدة من مختلف الجهات ، ملتمسين منه إيقاف وعيده ، وأنقذ عمله الأسرى سواء مسيحيين أو مسلمين من العذاب ، وغدوا يعاملون كأسرى فقط ولم يفرض عليهم سوى ممارسة الأعمال الشاقة أما القتل فلم يفرض عليهم إلا في حالة الفرار.

في الوقت الذي كان فيه خير الدين يسعى للمحافظة على سلامة الأسرى ، وضمان أرواحهم ، كان الأسرى الذين تحت رحمته وبين يديه ، يحضرون الأذى والعذاب لأنفسهم ، أرسل هؤلاء الأسرى رسالة إلى قائد بجاية يخبرونه فيها بوجود سبعة الآف أسير في سجن الجزائر، وأنه في حال إرساله سفينة في الوقت المحدد ، فأنهم سيقفلون الأبواب ، ويخرجون من السجن ، فإذا لم يتمكن من احتلال المدينة ، فأنه على الأقل سينقذهم من الأسر. لكن الرسالة وقعت بأيدي الريس خير الدين ، وبعد إطلاعه عليها ، تركها تصل إلى قائد بجاية ، كي يضبطهم بالجرم المشهود.

أرسل قائد بجاية سفينة ليلاً إلى الجزائر، وكان الريس خير الدين يرقب ذلك بكل دقة وحذر، وحالما وصلت الميناء ، أسرعت قادرغاته ، وألقت القبض عليها ، كما ألقى القبض على القباطنة الذين حاولوا الخروج من السجن لمساعدة السفينة مع مئة وعشرين شخصاً ، وكان من بين الذين حاولوا الهرب عشرون بكاً وقبطاناً ، وقد خرجوا والحديد في أعناقهم[1] ، كذلك فإن رئيس فرسان القديس يوحنا المطرود حاول الهرب معهم.

تردد الريس خير الدين كثيراً قبل أن يصدر بحقهم أحكاماً فورية ، وتصور أمام عينيه أطفالهم وعيالهم الذين ينتظرون قدومهم إليهم ، فقرر قبول الفدية التي أرسلت مع الرجل القادم من جنوة ، والمكلف بدفع عشرين ألف قطعة ذهبية ، لكن العلماء وأعيان المدينة احتجوا على قراره ، وأصروا على ذلك ، وأجابوه قائلين (إن هؤلاء الأسرى يشكلون برجوعهم قوة كبيرة لدى الأعداء ، وإن إطلاق سراحهم يقتضي منا اتخاذ الحيطة والحذر) ، فأمر الريس خير الدين بقتلهم ، ثم أرسل قائمة بأسمائهم إلى جنوة[2] . واستناداً

(١) تحفة الكبار.

(٢) تحفة الكبار وهامر يقولان: إن من بين الأسرى الذين ورد ذكرهم في فورمنترا Formentra الأميرال بورتوندو Portondo ، ويذكر أنه تم أسرهم مع سبع غاليات بكامل =

للمخطوطة التي بين أيدينا، تكونت لدينا قناعة، أن سبب القتل هو إصرارهم على الفرار[1].

ترك الريس خير الدين إدارة البلاد لخادمه وولده حسن آغا، وأثناء تحركه إلى إستانبول، اصطحب معه رشيد أخا حاكم تونس وعدداً كبيراً من خيرة قادته وقباطنته وليتوج خير الدين دخوله إلى إستانبول بالنصر والغنائم، هاجم أثناء سيره سواحل سردينيا وصقلية، كما هاجم القلاع القريبة من جنوة ونهبها، وأمام مسينا التقى مصادفة بثمان عشرة قطعة بحرية، فهاجمها واستولى عليها، وبعد أن أسر من فيها، أحرقها أمام المدينة.

علم الريس خير الدين بتوجه أندريا دوريا إلى قورون بست وعشرين سفينة، فتابع خير الدين طريقه إلى (Prvaze)، ولدى سماع سكان برنديزي باقترابه من مدينتهم أغلقوا أبوابها(*).

كلف الريس خير الدين خمساً وعشرين سفينة بملاحقة أندريا دوريا، ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق به، وفي طريقهم صادفوا سبع سفن متجهة إلى نابولي، فأسروا إثنتين، وفرت الخمس الباقية.

التقى الريس خير الدين مع الأسطول العثماني بقيادة القبطان أحمد باشا في نافارين، فتوجها معاً إلى قلعة قورون، وأنقذا الأسرى المسلمين الموجودين فيها، ومن ثم ذهبا إلى مضيق الدردنيل (چنّة قلعه çana Kale)، وبعد استئذانهما من السلطان دخلا إستانبول محاطين بالأعراس والأفراح.

رست القوات البحرية الجزائرية أمام غلطة في منتصف سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م(*). وفي اليوم الثاني أنزلهم أحمد باشا ضيوفاً عليه في منازله الكائنة بميدان الخيل وكان الريس خير الدين في المقدمة[2].

= طواقمهم، وبالمقابل فإن الريس طرغوت والريس صالح وقعا في الأسر، وأنه تم مبادلتهم، لكنهما لم يذكرا لنا شيئاً عن بقية الأسرى الآخرين ولا نعرف تماماً ما هو مصيرهم، المبادلة، الفدية، الموت.

(١) تحفة الكبار، هامر.

(*) برنديزي: وهي مدينة إيطالية، أما قورون فهي إحدى القلاع الواقعة في بحر إيجه.

(*) غلطة Galtat : وهي إحدى الأماكن المخصصة لرسو السفن في إستانبول.

(٢) تحفة الكبار.

وفي يوم الديوان ، دخل الريس خير الدين مع ثمانية عشر شخصاً إلى الديوان ، وبعد أن قبلوا أيدي السلطان وقدموا الهدايا له ، أمر السلطان بإلباسهم الخلع المخصصة لكل منهم مع تأمين كافة احتياجاتهم ومتطلباتهم ، وفي هذه الأثناء كان الصدر الأعظم الداماد إبراهيم باشا في حلب[1] .

منح السلطان سليمان الصدارة لخير الدين براً وبحراً ، فطلب الريس خير الدين من السلطان السماح له بزيارة حلب لمقابلة الصدر الأعظم ، فأجابه السلطان قائلاً : تستطيع الذهاب إلى أي مكان ومتى رغبت .

توجه الريس خير الدين إلى حلب براً ، وفي اليوم الذي كان فيه خير الدين ، كان مقامه بادىء الأمر مع الباشوات والبكوات في الطابق السفلي من الديوان ، وبعد أن عين بكلربكي الجزائر ، وارتدى الخلعة ، خرج إلى مجلس البكلربكي في الطابق الأعلى .

حالما وصل خير الدين إلى حلب استقبله الصدر الأعظم إبراهيم باشا استقبالاً حسناً وأبقاه في حلب يومين ومن ثم عاد إلى إستانبول وفي طريق عودته مر على بورصة وقونية وقضى في كل مدينة يوماً واحداً ، وقد استقر خير الدين في ذهابه وإيابه ٢٢ يوماً ، وبعد وصوله إلى إستانبول بيومين ، مارس عمله كقبطان للأسطول العثماني أعطاه السلطان صلاحيات واسعة فيما يتعلق بصناعة السفن والأسطول ، فبدأ خير الدين بصناعة السفن بناء على رغبته الخاصة ، ونظمها ورتبها معتمداً على خبرته السابقة ، وخلال فترة قصيرة من استلام خير الدين بدأ الأسطول العثماني وبحارته يلمسون تنظيماً وتدريباً جديداً .

وبعد أن صنّع خير الدين باشا ٦١ قادرغة ، وكان لديه ثمان عشرة سفينة ، وقُدمت له خمس سفن هدية ، فجمعها لبعضها البعض ، وشق البحر بأسطول مؤلف من أربع وثمانين سفينة .

ب ـ الأتراك، المرابطون، القادريون :

كان السلطان سليمان مثل والده يطمح إلى إتباع سياسة ترأس العالم

(١) الداماد : كلمة تركية وتعني الصهر ، والصدر الأعظم كان صهراً لسلطان سليمان .

الإسلامي، وكان ياووز السلطان سليم يحترم العلماء كثيراً(*) كذلك فقد شجع الطرق الصوفية وانتسب إلى الطريقة القادرية، فغدا محبوباً من جميع القادرين في العالم الإسلامي، وبانتسابه حصلت القادرية على نفوذ كبير. وخاصة في عهد السلطان سليمان الذي كان قادرياً هو الآخر.

مع مطلع القرن السادس عشر احتل المسيحيون بعض المناطق الإسلامية، فتصدى لهم العلماء، وتمثل أولاً ذلك بظهور المرابطين على الساحة وهم يقسمون إلى قسمين. القسم الأول: كانت تشكيلاته غير منظمة وغير مترابطة، وفردية، وكان غالبيتهم من السكان المحليين، ولكن لا أحد يعلم كيف جاؤوا، ولا من أين؟ ويذكر البعض أنهم جاؤوا من (الساقية الحمراء)، ولكن إذا دققنا في صحة مجيئهم، فإن بعض الشك يحوم حول ذلك، وبالرجوع لما بين أيدينا من معلومات يتبين لنا أن هؤلاء جاؤوا من الأطراف الغربية، وهناك بعض المعلومات تذكر بأن قسماً منهم جاء من داخل الأندلس، ولكن ليس لدينا ما يؤكد ذلك. فطالما جاء هؤلاء من الأندلس، فالسؤال المطروح كيف ومتى وبأية صورة قدموا ولماذا؟ على كل حال مهما كان الأمر فليكن، المهم أن هؤلاء أخذوا دورهم واحتلوا مكانة سياسية في مناطق المغرب، وغدوا حماة للدين الإسلامي والأتراك في شمال إفريقيا[1]. والمرابطون حموا الأتراك لأنهم كانوا يعلمون جيداً أن الأتراك مسلمون، وهم حماة الإسلام في شمال إفريقيا، ولهذا وقفوا إلى جانب الأتراك ودافعوا عنهم.

أما القسم الثاني: كانوا من أصحاب الطريقة القادرية، وكانت أسس طريقتهم شبيهة بالطريقة الشاذلية، والمعلومات الموجودة بين أيدينا، تؤكد أن الأتراك انتسبوا إلى الطرق الصوفية، وأن الطريقة القادرية، دخلت إلى إفريقيا قبل دخول الأتراك بزمن مبكر، والطريقة القادرية تنسب إلى العالم والفقيه عبد القادر الكيلاني، والجدير بالذكر، أن معظم شيوخها علماء وأطباء، ولم يكن نفوذهم مضراً بالحكومات القائمة هناك، كذلك فقد وُجد لهم مراكز في تونس والجزائر وقسنطينة وفاس وقادريو فاس، عملوا على

(*) ياووز: وهو لقب تلقب به السلطان الأول ومعناها: الشديد، العالي، الصارم.

(1) أوغست كور.

نشرها بين البربر والمناطق الساحلية ، ومن أهم مريدوها عبد الرحمن ثعلبي وعبد الكريم المكحيلي اللذان نشرا القادرية في ثوان ، وقام التجار والمبشرون بنشرها في مختلف المناطق التي حلوا بها وبلغوا بها حتى مناطق السودان ، فأعلن إبراهيم الماجي أحد حكام السودان إسلامه وانتسابه إلى القادرية ، كذلك فقد عمل التجار والمبشرون على نشرها في جنوب درعة ، ولكنهم اصطدموا مع السحبيين في كالاتا (Kalata) ، وتمكنوا من طردهم من هناك فانتقل المبشرون إلى أطراف تمبكتو واستقروا فيها ومع مرور الوقت تمكنوا من تعميق نفوذهم في تلك المناطق ، واعتباراً من ذلك التاريخ أصبح الدين الإسلامي حاكماً في نيجريا .

إن انتشار الطريقة القادرية في شمال إفريقيا مكّن (أولاد سيدي الشيخ) من تأسيس دولة ملكية في المغرب الأقصى من الناحيتين السياسية والدينية ، في حين أسس في الجنوب الغربي ما يسمى بالقبة (الأبدية) والتفوا حولها[١] . وبهذه الصورة بدأت القادرية بالانتشار في شمال إفريقيا منذ مطلع القرن السادس عشر ، وغدا الساحل الشرقي لشمال إفريقيا مركزاً رئيسياً ، لتصدير القوافل التجارية المشبعة بالقادرية لنقلها إلى البربر في المناطق الجبلية العالية من جبل عمور ، وهذا ما ساعدهم على الاستيلاء على مناطق توات وامتد نفوذهم حتى السودان وشريط درعة والريف وفاس . أما الشمال الغربي للمغرب فقد سيطر أعداؤهم عليه وعمقوا نفوذهم هناك .

أما في تلمسان ، فحكامها كانوا بعكس بني مرين ، الذين اتبعوا الطريقة الشاذلية وشمل نفوذ الشاذلية قسماً من إسبانيا والريف ومراكش وسوسة ، ولكنها لم تنتشر في المغرب إلا بشكل محدود . وذلك بسبب التزام السكان بطاعة السلاطين مؤيدي الطريقة القادرية ، وبالرغم من قيام تصارع بين أصحاب الطرق الصوفية ، فإن الفهم والإدراك لم يكن واضحاً ، وإنما كان تقليدياً يخضع للسلطة الحاكمة ، وبالرغم من عدم الوضوح والإدراك ، فقد عمل أعداؤه على تشويه الحقيقة ومغالطتها ، قاصدين من ذلك تحقيق مآربهم

(١) أولاد سيدي الشيخ : كانوا قادريين وأنصاراً للأتراك ، أما أصحاب الطريقة التيجانية فكانوا أعداء لأولاد سيدي الشيخ وللأتراك ، ولهذا أسسوا القبة الأبدية والتفوا حولها .

الشخصية ، وتزعم الأعداء المسيحيون وأنصارهم من الأسر الحاكمة . وعلى العموم فقد تصرف الأتراك حيال المرابطين بحكمة وذكاء ، لأن أي ثائر على المرابطين يعتبر ثائراً على الأخوان ، والأخوان في مناطق المغرب كثر وأقوياء ، وكان بعضهم ينتسب لبعض القبائل ، ومن لا ينتسب لقبيلة ما ، كان يلجأ إليها ، وتتكفل القبيلة بحمايته مهما كان الأمر . ولكي لا يخوض الأتراك عداء لا نهاية له مع القبائل ارتبطوا مع المرابطين بصلة قائمة على التفاهم ، على الرغم من عدم اقتناع الأتراك بذلك . وتصرفهم أكسبهم احترام وتعظيم المرابطين . وقدم المرابطون للأتراك خدمات جلى ، ووقف غالبية كبرى من الأهالي إلى جانبهم وتمكنوا مع مرور الزمان من الحصول على مساعدات معنوية وسرية ، ساعدتهم في تعميق نفوذهم في إفريقيا . ولو وُجد أن أحد سلاطين بني عثمان ممن خلف سليمان القانوني كان قادري الطريقة لتمكن من احتواء القادرين الموجودين في شمال إفريقيا ، وبما أنهم فقدوا ذلك بين سلاطين عثمان ، بدأوا شيئاً فشيئاً بالغياب عن الساحة تخوفاً من إنزال ضربة فاصمة بهم وبنفس الوقت لم يعد لهم هذا النفوذ الذي كانوا يتمتعون به مع مطلع القرن السادس عشر .

حينما استقر الأتراك في الجزائر ، كان رئيس الطريقة القادرية أحمد بن يوسف وخلال زمن قصير تمكنوا من إيجاد ضمان وسند سياسي ، وكان كبار الموظفين من بني وطاس أكبر فروع بين مرين منتسبين إلى الطريقة القادرية ، وبناء على ذلك فقد تعاملوا مع الأتراك وتخاصموا مع السعديين[1] .

ازداد نفوذ القادرية من خلال زواياها الكثيرة ، وحصلوا على احترام الجميع ، وخاصة في المناطق الخاضعة للسيطرة الاسبانية بسبب فقدان الحكومات القائمة وفقدان المفسدين للدعم ، ومما زاد سكان تلك المناطق على التمسك بالرباط الديني ، استخدام الإسبان للظلم والاضطهاد ضد الأهالي المسلمين عامة ، ورجال الدين المسلمين من شيوخ وعلماء خاصة ، إضافة إلى الدعم المادي والمعنوي الذي قدمه أصحاب الطريقة القادرية لهم ، واعتبار الجهاد الوسيلة الرئيسية والأساسية للمسلم المؤمن ، وباتباع القادريين لهذا الأسلوب وهذا النهج تمكنوا من توجيه الأحداث لصالحهم ،

---

(١) أوغست كور .

فأسسوا بذلك حكومات شبه مستقلة، وهي حكومات مخالفة لحكومة المركز.

وبناء عليه فقد تخوفت الحكومة المركزية من اتساع نفوذ القادرية وازدياد نشاط أنصارها وكثرة مؤيديها في مختلف المناطق، فلم تلجأ إلى المواجهة العلنية بل عمدت إلى بث الفوضى والفساد، محاولة إحداث فتنة من داخل زوايا القادرية، ولكن انتشار الفوضى والفساد لم يكن بصالح الأتراك، ولمواجهة ذلك لجأوا إلى إقامة اتفاقيات مع الحكومات الصغيرة والأهالي المعاديين للحكومة المركزية وضد الأهالي والقبائل المرتبطة مع الإسبان، وقد ركز الأتراك أولاً على طرد الإسبان من السواحل الإفريقية وتحريرها، وتمسك الأتراك بهذا الهدف، دفع الأهالي والمرابطين للالتفاف حول الأتراك، فقدموا لهم كل ما لديهم من مال ورجال.

أما الريس خير الدين فقد ارتبط مع المرابطين والعلماء بعلاقات طيبة وقربهم إليه إلى درجة غدوا كمستشارين له فيما يتعلق بالأوضاع الداخلية للبلاد، وحتى الإنكشاريون أحبوا العلماء والمرابطين ولقبوا بإسم مرابط[1]. وجرت فيما بينهم مناقشات حول إطلاق إسم مرابط على أفراد الإنكشارية، لكنه كان نقاش ودي.

كان شارلكان يكن الحقد والكراهية لمناطق شمال إفريقية، كما كان عدواً لدوداً للسلطان سليمان القانوني، وخصمه الأول على الجبهة النمساوية قبل حكامها.

استغل الأتراك الأفكار السياسية والدينية السائدة في شمال إفريقيا في تثبيت أقدامهم هناك، وانتهى الأمر إلى أن غدا قاعدة لأمبراطوريتهم إضافة إلى ما كانت تعاني مناطقه من ضعف وانحطاط، وقد أدى هذا الضعف إلى قيام تصارع فيما بين الحكومات القائمة هناك، ففي المغرب الأقصى ظهر.

---

(١) تذكر بعض المصادر التركية إن إسم مرابط استخدام لديهم، والدليل على ذلك فقد ورد في بعض المراسلات العثمانية، وأول ما استخدم لقب مرابط كان في بلاد الأناضول أي قبل ذهاب الأتراك إلى مناطق الشمال الإفريقي وفى مجموعة التاريخ العثماني صفحة ٦١٢ ما يثبت أنه كان مكتوباً فوق مقام محمد بك بن آيدين وقد وجد على باب تربته ما يلى (الأمير الكبير المجاهد المرابط) وفي الصفحة ١١٤٧ كتب على باب مدرسة عائدة لأحمد غازي بك من عائلة فتشه (الأمير الكبير المرابط).

السعوديون وهم استمرار لفرع بني مرين ، وأيضاً كانوا ضعفاء ، وقد ترتب عن ضعفهم طمع الدول الأوربية بمناطقهم ، وبدأوا يسعون لاتخاذ بعض السواحل كقاعدة جيدة لهم ، ومع مرور الزمن بدأت أطماعهم تتوسع بدءاً من قيام حركة الكشوف الجغرافية ، وتزعم ذلك البرتغال والإسبان .

ولكن السواحل التي ركز البرتغاليون والإسبان أنظارهما عليها ، اتخذها الأتراك قاعدة أساسية لتوجيه ضربات قوية متلاحقة ضد شارلكان .

كان خير الدين الشهير ببربار وس الآمر الناهي على تلك البحار ، ولكي يتمكن من توجيه ضربة قاتلة ضد شارلكان ، فإن الأمر يتطلب إستتباب الأمن والاستقرار في المناطق التي يشرف عليها ، وخلوها من أي عدو له ، أو أي خائن ، وهذا ما كان يعانيه ، فالأمن والاستقرار مفقود تماماً والأسر الحاكمة شعرت بفقدان عروشها من خلال تواجده ، فأسرعت وارتبطت مع الإسبان ، وكانت الأسرة الحفصية الحاكمة في تونس تتزعم العداء ضد الريس خير الدين ، ومرتبطة مع شارلكان وتابعة له ، ولهذا اتفق شارلكان مع بني حفص ضد المرابطين بغية عزل الأتراك ، لأنهم مؤيدون لهم .

أدرك الأتراك أن مهمة طرد الإسبان من مناطق شمال إفريقية وقفاً عليهم ، بعدما لمسوا تلاعب الأسر الحاكمة هناك ، يساندهم في ذلك قلة من الأهالي ، وأن الدولة العثمانية لن تساهم هي الأخرى بمساندتهم بسبب انشغالهم في حرب المجر ورودس التي ستستغرق من الدولة العثمانية تقديم أفضل ما لديها من قوات وإمكانيات ، حيال ذلك لجأ الريس خير الدين لمواجهة الصعاب التي تعترض سبيله باتباعه سياسة القوة حيناً والذكاء والحنكة حيناً آخر ، ولكي لا تكون الدولة العثمانية بمعزل عما يدور في شمال إفريقيا عمد السلطان سليمان القانوني إلى عقد اتفاق مع الفرنسيين بغية تخفيف الضغط عن خير الدين[1] . فالسلطان سليمان يعلم تماماً أن الريس خير الدين سند قوي يضمن لدولته تقديم خدمات جلى ، وأن تونس تشكل نقطة هامة في تثبيت الأمن والاستقرار في مصر ، ولهذا ركز جهوده في سبيل اخضاعها لسيطرته .

---

(١) أوغست كور .

فحينما كان خير الدين باشا يقوم ببناء أسطول قوي استعداداً لفتح تونس(*) وكان السلطان سليمان قد اتخذ قراراً بفتحها، بغية ضمان أمن مصر من ناحية وفرض سلطانه على إفريقيا من ناحية أخرى.

إن نزول الأسطول العثماني في حلق الواد والدور الذي سيلعبه رشيد أخو مولاي حسن سيمكن خير الدين باشا من تحقيق هدفه، إزاء ذلك أعطى رشيد أهمية خاصة وخصص له معاشاً محترماً، ومنح حق الاستقرار في إستانبول، وبعد أن أتم خير الدين باشا إعداد الأسطول بشكل جيد، زوده السلطان سليمان بثمانية الآف جندي إنكشاري وثمانمائة قطعة ذهبية، ثم أذن له بالتحرك باتجاه الشمال الإفريقي، لاحتلال تونس وطرد الإسبان منها بصورة نهائية.

جـ ـ احتلال خير الدين لتونس:

في أوائل صيف سنة ٩٤٦هـ/ ١٥٣٤م عندما كان السلطان سليمان القانوني يعبر الأناضول متجهاً لغزو إيران، كان خير الدين باشا يخرج من (جنة قلعة) ناشراً أشرعة سفنه باتجاه السواحل الإيطالية، ولدى انتقال الروم إلى قورون ومودون، هاجم خير الدين باشا ريچه Rigo (ريغيو Regio) وضبط في مينائها ست سفن فأسرهم، وهدم القلعة الموجودة فيها، ولدى سماع الأهالي بقدومه، خافوا وتركوا المدينة بعد اخلائها، وفي اليوم التالي استولى على قلعة سانت أوسيدو (Sentusido) وأسر منها ثمانمائة شخص ثم أحرقها وفي مساء ذلك اليوم وصل إلى قلعة چيترار و (Gitraro) فهاجمها وأسر منها كافة من فيها، وبعد إحراقه لثمان عشرة سفينة مسيحية أمام قلعتها، تابع طريقه إلى سواحل نابّولي، فاستولى على قلعتها وأسر من فيها، كما هاجم قلاع أسبرلونجا (Sperlonga) فخربها ودمرها بعدما أسر منها عشرة آلاف شخص[1].

رغب خير الدين باشا بشن هجوم مفاجىء على (Kontes de Fündi

(*) بعد تعيين خير الدين قائداً للأسطول، منح رتبة باشا وهي رتبة عسكرية وليست لقباً فخرياً كما يتصور البعض، واستمرت تتضمن مضامين عسكرية حتى قيام الجمهورية سنة ١٩٢٣. ومن بعد ذلك غدت لقباً فخرياً (المترجم).

(١) تحفة الكبار.

(Cülya Gonzoga زوجة (Vespozya Kolona) التي تغنى شعراء إيطاليا بجمالها ومدحوها بقصائدهم وكان لها أخت جميلة مثلها تسمى (يوأنة دي آراغون Yuanne de Aragon) وتلقب بوردة العشاق، وكانت تقطن مدينة فوندي (Fondi) وهي مدينة فوندوم القديمة (Eski Fondum) وقد تغنى بجمال هاتين الإمرأتين ألوف الشعراء الإيطاليين.

وأثناء نزول القراصنة إلى البر، كان يلف المنطقة هدوء وسكون لا مثيل له، فارتدت جوليا ثوب نومها الشفاف الفاتن، وكان أحد الفرسان مفتوناً بجمالها وبحجة إنقاذها من قبضة خير الدين وقراصنته، خطفها، وفعلاً تمكن من إنقاذها من أيدي رجال خير الدين باشا بصعوبة بالغة، ولكنها أمرت بقتله تحت قصرها لأنه أبدى شجاعة أكثر من اللازم ولأنه شاهد ما هو محرم عليه مشاهدته[*] وبسبب عدم تمكن القراصنة من إلقاء القبض عليها، بدأوا بهدم تحصينات المدينة بحدة وغضب، واستمر نهب وسلب مدينة فوندي أربع ساعات، ونتيجة لذلك عُلقت فيما بعد لوحة على جدار الكنيسة تعبيراً عن أحداث تلك الليلة المخيفة[1].

وبعد أن فرغ خير الدين باشا من تلك المناطق اتجه إلى سردينا فهاجمها ونهبها، وبعد أن أثقلت سفنه بالغنائم والأسرى، توجه إلى الجزائر، وبسبب رداءة الطقس توجه إلى بنزرت، وما أن شاهد حاكم بنزرت ضخامة أسطول خير الدين حتى أسرع إلى سلطان بني حفص يخبره بذلك.

قصد خير الدين من ضرب السواحل الأوربية وتدميرها، نشر الرعب في نفوس الأوربيين فقط، وتمهيداً للهجوم على تونس، فإن الأمر يتطلب منه صرف أنظار الأوربيين عن مهاجمته لتونس، وبعمله أجبر الحكومات

(*) لقد ذكر المؤلف هذه الحادثة، علماً بأنني قمت بترجمتها كما وردت التزاماً بالأمانة العلمية على الرغم من أن ذكرها يتنافى تماماً وأخلاقية هؤلاء الأبطال الذين أثبتوا خلال أعمالهم البحرية حرصهم على المرأة، ولو أن الحادثة جرت مع غير خير الدين كنا قلنا ربما يحدث مثل ذلك، ولكن شهامة خير الدين ترفض ذلك ونفسه تأبى ذلك، فلقد تملكه القلق عندما دعي إلى إستانبول لقيادة الأسطول بسبب تركه الأسرى المسيحيين يتعذبون، وتمكن من إصدار أمراً يمنع تحريم الأسرى... (المترجم).

(١) هامر. التاريخ العثماني.

الأوربية على توزيع قواتها ضمن أراضيها وبصورة خاصة على سواحلها، بهدف التصدي للقراصنة في حال مهاجمتهم تلك المناطق مرة ثانية[1].

كان حاكم تونس مولاي حسن من بني حفص، ولم يكن مولاي حسن محبوباً من قبل الأهالي بسبب ظلمه وغدره، وقد رغب الأهالي بالتخلص منه إسوة بقتله لأخوته ما عدا (الرشيد) الذي استطاع النجاة إلى الجزائر.

كان مولاي حسن يحب العشرة، ومتعلقاً بحبه للغلمان، ويحب أصدقاء ولده الوحيد، ولهذا فقد جمع الشبان الذين بسنه وتكفل بهم شريطة أن يظلوا إلى جانب ولده، وبسبب ذلك فقد جمع في قصره أكثر من أربعمائة غلام جميل، فأرسل الأهالي خبراً إلى الرشيد يدعونه للقدوم إليهم، ويعدونه بالمساعدة لاستلام الحكم بدلاً من أخيه، وعندما سمع مولاي حسن بدعوة الأهالي، أرسل الهدايا ألى السلطان سليمان مع أحد رجاله وزوده برسالة شكوى ضد خير الدين بك، وأخبره رسوله أن شائعات تسرى من الديوان، أن السلطان سليمان سيستدعي خير الدين والرشيد إلى إستانبول بأقرب وقت، ولن يسمح لهما بالذهاب إلى تونس، وحقيقة الأمر فإن السلطان سليمان كان ينوي فعلاً احضار خير الدين والرشيد إلى إستانبول، وأنه خصص لمولاي الرشيد مصروفاً قدره خمسمائة أقجة يومياً، وإن كافة احتياجاته ولوازمه ستؤمن من بيت الطعام (خزينة الطعام)[2].

تحرك الأسطول العثماني من بنزرت، وما أن وصل مدينة تونس، حتى خرج الأهالي لاستقباله، فسمع مولاي حسن بذلك، وأن أخاه الرشيد موجود في الأسطول، وأنه قادم لاستلام الحكم منه.

احتل خير الدين باشا حلق الواد، وأنزل قواته إلى البر، ودخل تونس بخمسة آلاف سواري (خيال) وتمكنت قواته من الاستيلاء على القلعة، وفي ١٦ آب/ ١٥٣٤م هرب مولاي حسن، أما أنصاره الذين رغبوا بالمقاومة، فالقُي القبض عليهم، ووضعوا في القلعة في حين قتل بعض الشيوخ ممن وضعوا ترتيبات المقاومة.

---

(١) تحفة الكبار.

(٢) تاريخ بجوى ص ٤٩٢.

عندما علم التونسيون بأن رشيداً لن يأتي ، وأن بلادهم أصبحت تُحكم بإسم السلطان العثماني. وهم الذين عاشوا ثلاثة عصور تحت حكم الحفصيين الظالم ، والآن سيخضعون لإدارة العثمانيين القوة الشديدة ، تخوفوا كثيراً وفضلوا حكم بني حفص على حكم العثمانيين ، فأرسلوا خبراً بالسر إلى مولاي حسن بدعوته للإلتجاء إلى إحدى القبائل ، وبدأوا يهيؤون أنفسهم لمساعدته لإستلام الحكم ثانية ، وفعلاً تشجع مولاي حسن وجمع قواته واتجه إلى مهاجمة تونس ، ولكنه فر هارباً عندما قتل من قواته ثلاثمائة جندي ، فكتب خير الدين باشا رسائل إلى المناطق المجاورة يشجعهم على إلقاء القبض على مولاي حسن الهارب ، كذلك فقد وجه رسائل إلى بعض عساكره في الجزائر يأمرهم بالتفاهم مع القبائل بغية تحريضها ضد مولاي حسن ، في حين انشغل هو بإدارة وتنظيم البلاد ، أما مولاي حسن فقد توجه إلى القيروان ، وهناك وجد أنصاراً له ، فجمع حوالي خمسة عشر ألف متطوع ، وما إن سمع خير الدين باشا حتى جمع خمسة عشر ألف جندي وثلاثين مدفعاً ، ونقلها فوراً إلى الصحراء والتقى مع مولاي حسن في الصحراء[1] .

وما أن فتح نيران مدافعه حتى ولى مولاي حسن مع قواته ، فقدم إليه المشايخ والأعيان طالبين منه إيقاف إطلاق النار ، وأعلنوا فروض الطاعة والولاء له ، في حين التجأ مولاي حسن إلى الإسبان أسوة ببقية أمراء إفريقيا .

كان السلطان سليمان مستمراً بحربه مع الإيرانيين ، ولكن أخبار خير الدين باشا كانت تصله كاملة فاستغل البابا انشغال الدولة العثمانية بحروب خارجية وبدأ يحرض شارلكان على الاستفادة من هذه الفرصة الذهبية ، موضحاً له أن وجود الأتراك في الجزائر ، يحد كثيراً من نشاطه السياسي والاقتصادي ، كذلك فإن دخول الأتراك إلى تونس يشكل ضرراً كبيراً على العالم المسيحي عامة وإسبانيا خاصة .

كان العداء بادىء الأمر مقتصراً على الجزائريين والإسبان ، والآن أصبح بين السلطان سليمان القانوني وشارلكان ، ونتيجة للدراسات التي

---

(١) تحفة الكبار .

أجراها شارلكان تبين له بوضوح أن الخطر ليس ضده فقط، وإنما ضد البرتغال أيضاً.

قبل شارلكان عرض فرسان مالطة بشأن تقديم المساعدة لهم ولمولاي حسن، فاستدعاه، ووعده بإعادته لعرشه ومملكته، وجاء قرار شارلكان في وقت غدا الأتراك أقوياء بعد حصولهم على تونس، وأصبح حكام الحكومات الصغيرة مؤيدين للأتراك، فقد أعلن حاكم تلمسان تمرده على الإسبان وقرر مهاجمتهم.

منذ زمن طويل وماركي دي غومارس يطلب نقله إلى إسبانيا، وبسبب تأزم الأوضاع وتصميم شارلكان على مواجهة الأتراك، قبل طلبه وعين مكانه الكونت دالكودت Kont d' Alkodet .

عمل الكونت دالكودت قصارى جهده للحد من انتشار الثورات، وعدم انتقالها إلى المناطق الأخرى، لأن قواته لم تكن قادرة على إخماد الثورة في المناطق الخاضعة له[1] .

ففي سنة ١٥٣١م أعلن محمد بن عبدالله حاكم تلمسان العصيان ضد والده عبدالله، ووقف سكان تلمسان إلى جانبه، لكن محمد أبو سرحان تمكن من احتلال هنين بمساعدة الإسبان، وبنفس الوقت قام أحد أفراد العائلة الزيانية ويدعى عبد الرحمن بن رضوان بإعلان تمرده ضد الحكومة، وطلب هو الآخر المساعدة من الإسبان، فأرسل الكونت دالكودت مفرزة بقيادة (دون الونزو مارتينز Don Alonzo Martenez) مع قوة كافية من المشاة والفرسان والمدفعية إلى تلمسان، وأثناء توجهها إلى تلمسان اعترضت سبيلها قبيلة بني رشيد وقضت على مفرزة دون الونزو مارتينز بالقرب من إسّد في موقع تبده سنة ١٥٣٥م[2] .

د ـ هجوم شارلكان على تونس وفاجعة التونسيين :

إن الجيش والأسطول اللذان جهزهما شارلكان لمهاجمة تونس لم يُعرف لهما مثيل منذ زمن القديس لويس Sen Luis ، وقرر شارلكان قيادة

---

(١) فور بيكه Forbige ورد في بعض المصادر التركية الأخرى فور بيك.

(٢) تم القضاء على مفرزة دون مارتينز في موقع (شعبة اللحم ـ ممر اللحم) وتعبير ممر اللحم = .

الجيش بنفسه، وعين أندريا دوريا والدوق دالب Duk dalp كمساعدين له في تلك الحملة. وقد ضم جيشه عشرين ألف من الشاة وألفين من الخيالة، وعدداً كبيراً من المدافع، بنقلهم أسطول مؤلف من مئتي سفينة.

تحرك الأسطول من برشلونة في الثاني من حزيران سنة ١٥٣٥م، فمر بطريقه إلى كاملياري، ووصل قرطاجنة في الرابع عشر من حزيران[١]. ورسى الأسطول أمام البرج المائي بالقرب من حلق الواد[٢].

ضم الجيش عدداً كبيراً من الألمان والإيطاليين إضافة إلى فرسان مالطة، فنزلت أولاً القوات الألمانية ثم تلتها القوات الإسبانية ومن بعدها الإيطالية إلى البر، علم خير الدين باشا بحملة شارلكان، وعلى الرغم من ضخامتها فقد قرر التصدي لها بما معه من قوات والبالغ عددها ثمانية آلاف جندي، يضاف إليها جزء ضئيل جاءه من الجزائر، وما انضم إليه من الأهالي أثناء حربه مع مولاي حسن، وكان خير الدين باشا يتوقع مثل هذا الهجوم إثر احتلاله لتونس، لذلك عمل على ترميم القلعة والأسوار بعد انتصاره على مولاي حسن وفراره إلى الإسبان.

يطل قسم من حلق الواد على البحر، في حين تجاوره بحيرة من طرفه الثاني، أما أطرافه الأخرى فيحيط بها خندق مائي، وأن خطوط دفاعه تقع في الوسط، وقد كان بادىء الأمر على شكل مضلع، وفيه خطوط منكسرة صالحة جداً لنصب المدفعية، وفي طوله مربعات يبعد كل منهم عن الآخر مسافة ميل، كما يحتوي على برجين كبيرين، وكانت القلعة الداخلية والترسانة (دار صناعة السفن) بيد خير الدين باشا، ولهذا السبب فأن مهمته قاسية وشاقة، وبغية المحافظة على القلعة والترسانة كلف الريس سنان بمهمة المحافظة عليهما، وزوده بعدد كاف من الجنود.

أمر شارلكان بادىء الأمر بمحاصرة القلعة، وحالما اقتربت سفينة

= خطأ لأنه لا يقصد به مكان مخصص لموت الإنسان، والمكان الذي قضى فيه على المفرزة هو تبده، وقد ذكر هذا في دليل جوان ص ٩٥.

(١) يقول دي غرامونت: إن الجيش الإسباني بلغ قرابة هذا العدد، في حين يقول فورميكة: إن عدده بلغ / ٣٠/ ألف. أما تحفة الكبار فتذكر أن عدده كان / ٢٤/ ألف.

(٢) هامر. التاريخ العثماني.

شارلكان، أمر الغاليات الأربع المرافقة له بقصف القلعة ليل نهار، ثم أنزل جيشه إلى البر بمدافعه الثقيلة.

باشر جيش شارلكان بالهجوم مع قصف مدفعي، وعلى الرغم من القصف المستمر فقد ظل حلق الواد صامداً خلال شهر بكامله، وخلال القصف الكثيف، شن الريس سنان مع رجاله ثلاث هجمات خاطفة، أضاعوا للأعداء ستة آلاف شخص وقتلوا لهم قائدين، وعدداً من أبطالهم المشهورين، ولكنهم اضطروا للانسحاب نتيجة للقصف الكثيف والمركّز عليهم من قبل الإسبان، وعدم تمكنهم من استخدام مدافعم، واستمروا في الانسحاب إلى أن دخلوا تونس في الرابع عشر من تموز دون أن يتعرضوا لخسائر مادية أو بشرية.

عقب انسحاب الأتراك رفع فرسان القديس يوحنا المالطيون وعلى رأسهم فرسان كوسيئة (Kosie) علم الأمبراطور على برج القلعة، كما استولى الأعداء على البرجين الموجودين في حلق الواد هما: البرج المائي وبرج الملح، وغنموا أربعين مدفعاً ثقيلاً تركهم الأتراك أثناء انسحابهم مع كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات[1].

في التاسع والعشرين من حزيران تقدم سلطان تونس مولاي حسن مع عدد كبير من أنصاره إلى شارلكان منحنياً أمام قدميه، ومعلناً فروض الطاعة والولاء فقبله الأمبراطور وأحسن إليه، وكانت قوات مولاي حسن مسلحة بالأقواس والنبال والخناجر والرماح الطويلة، فأمر شارلكان بتزوده بقوة تقدر بـ ١٦٠٠ خيال، وحمولة ثمانية آلاف جمل من الأرزاق، كذلك فإن انسحاب خير الدين باشا من حلق الواد أوقع قسماً من أسطوله ومدفعيته بيد الإسبان..

قرر خير الدين باشا أولاً إغلاق القلعة، ومحاربة العدو من خارجها،

---

(١) يذكر هامر في كتابه التاريخ العثماني نقلا عن تاريخ بجوى، ان عدد الأسرى ٤ آلاف شخص، وأن هؤلاء الأسرى الذين أسرهم خير الدين باشا أثناء مروره على مناطق بحر إيجه والمناطق الإيطالية، ووضعهم في مدينة تونس وكلف المهتدي فرنك جعفر بالمحافظة عليها بعد أن عينه نائبه على مدينة تونس وكلفه بالمحافظة على المدينة في حين انسحب هو «إلى القلعة لتحصينها والتصدي للأعداء.

واختار بعض المواقع المناسبة للتمركز، ومع تقدم جيش شارلكان إلى المدينة بدأت المعركة بين الطرفين. وقبل البدء بالمعركة علم خير الدين باشا بأن الأهالي سيعلنون تمردهم استجابة لطلب مولاي حسن، فقال لهم خير الدين باشا: إنني سأحارب الأعداء خارج القلعة، فخجل الأهالي من قول الباشا، فأجابوه بصوت واحد. إننا سنشترك معك بالدفاع عن المدينة، وكانت القوات المشتركة في الدفاع ثلاثة أرباعها من الأتراك، والربع الأخير من التونسيين، وأثناء المحاربة وصلت قوة صغيرة من الجزائر، فازداد خير الدين قوة بقدومهم. وتمكن بمن معه من قوات إلحاق خسائر فادحة بالعدو، ولكنه فقد أمله بالنصر، فبدأ يستعد للانسحاب والهروب، فانسحب التونسيون أولاً إلى القلعة، ومن بعدها اضطر خير الدين باشا إلى سحب مدفعيته إلى داخل القلعة.

وفي اليوم الثاني للقتال بدأ خير الدين باشا بإضافة المتاريس إلى القلعة، وكلف جنوده بمهاجمة الأعداء وانشغالهم ريثما تصله الإمدادات من الجزائر، ولكي يزد جنوده حماسةً قاد بنفسه عدة هجمات.

وعُلِمَ أن التونسيين تركوا المدينة وفروا هاربين، وفي اليوم نفسه كانت قوات العدو مضطرة للانسحاب من أرض المعركة بسبب قلة الماء وازدياد حرارة الجو.

وفي الوقت الذي خرج خير الدين إلى القلعة، كان قد عهد سابقاً إلى وكيله المهتدي فرنك جعفر بأمر المحافظة على المدينة، ووضع بعهدته سبعة آلاف أسير أوربي[1]، ولكن فرنك جعفر انقلب على خير الدين، فأطلق سراح الأسرى فاستولى هؤلاء الأسرى على المدينة وأغلقوا أبوابها.

عندما علم خير الدين باشا بما فعله المهتدي فرنك جعفر، فقد أمله بالنجاح والنصر، ولذلك قرر مع الرياس الذين معه وهم الريس آيدين والريس سنان وعدد آخر، الذهاب إلى بون (عناية) عن طريق البر، وبقي هناك ينتظر وصول خمس عشرة قادرغة[2].

---

(١) تحفة الكبار.

(٢) بون: وكانت سابقاً تسمى بلد الغاب وهو إسم قديم سميت به.

كان خير الدين باشا موفقاً باختياره بون (عنابه) نقطة لجمع قواته، لأنه لو توجه إلى الجزائر لتعرض لمشاكل لا حصر لها، فقائد بحابة الإسباني ألقى القبض على سلطان كوكو، ولم يطلق سبيله حتى استحصل منه على وعد بإغلاق طريق الجزائر أمام الأتراك[1].

وفي الحادي والعشرين من تموز شن شارلكان هجوماً مفاجئاً على تونس واستولى عاليها وقبل دخوله المدينة عقد مجلساً دام ثلاث ساعات، ناقش فيه مسألة الغنائم ونهب المدينة، ولم يكن بنية الأمبراطور نهب المدينة، لكنه لم يستطع الثبات أمام إصدار عساكره بشأن نهبها، فسمح لهم بنهب المدينة لمدة يومين فقط من الصباح حتى المساء. وخلال هذا الزمن المحدد، قدرت خسائر المسلمين بأكثر من ثلاثين ألف شخص ماتوا خنقاً وعشرة الآف شخص أخذوهم كأسرى، لقد كان المسيحيون ينتظرون مثل ذلك الفرصة للانتقام من مدينة تونس وما جاورها، فاطلقوا الحرية لثلاثين ألف مسيحي، واستبدلوهم بجثة ثلاثين ألف مسلم، قتلوا على أيديهم، يا لها من مبادلة مؤلمة وحزينة، ويا له من وضع مؤلم وخالٍ من الضمير.

في عملية القتل والنهب والسلب، كانت القوات الإسبانية أكثر شهرة من غيرها من القوات الأخرى، لقد بحث الإسبان في المنازل والصناديق وبيت المؤن، وحتى الآبار البعيدة، ولم يتركوا مكاناً إلا وبحثوا فيه عن الأهالي، وبعد ذلك بدأوا باتباع أساليب أكثر وحشية مما اتبعوه سابقاً، لقد هدموا المدارس والمساجد والجوامع ومزقوا وأحرقوا الكتب القيمة والنادرة، وأصبحت شوارع المدينة وأزقتها مليئة بالقتلى من الشيوخ والأطفال والنساء، وعاملوا اليهود بنفس المعاملة، فغدت المدينة خالية تماماً من الأهالي.

وفي اليوم الثالث دخل الأمبراطور المدينة برفقة العساكر الإلمانية، وقد سمح لهم بنهب المأكولات فقط، ثم إصدار أمراً بإيقاف السلب والنهب، وأن عقوبة المخالف الإعدام.

---

(١) من هنا وما بعد حذف قسم منه ولم يكن هناك سبب موجب للحذف، وهذا ما لا حظناه في كتاب هامر من الكتاب رقم ٢٨. وإن القسم المحذوف يتحدث عن الوحشية التي مارسها المسيحيون في مدينة تونس.

وفي الأول من آب تجمع الجيش الإسباني في حلق الواد أمام البرج المائي حيث كان سابقاً، وكان الجيش الإسباني يرتكب الوحشية في كل خطوة يخطوها.

إن قتلهم للمسلمين بهذه الوحشية المفرطة، يفسر لسببين، إما للتخلص من المسلمين التونسيين أو لتأكيد وحشيتهم وإطفاء نار الحقد والبغض التي تغلي في صدورهم ضد المسلمين، فجثث القتلى أكواماً أكواماً وبينها نساء وأطفال وشيوخ، وفوق هذا وضعوا السم للأسرى المسلمين بغية التخلص منهم.

وفي اليوم الرابع قاموا بنقل الموتى بعيداً عنهم، وحينما أنهكهم التعب، أعلنوا عجزهم عن نقلهم لكثرتهم، فصدر أمر علني بتركهم في أماكنهم.

وفي السادس من آب حاولت القوات الإيطالية والإلمانية ممارسة أعمال السلب والنهب لأنها لم تمنح فرصة، فأصدر شارلكان أمراً بنقل نصف الجيش إلى حلق الواد، بنية التخفيف من أعمال السلب والنهب.

وفي الثامن من آب وقع مولاي حسن معاهدة مع شارلكان، وهذه المعاهدة وضعت مولاي حسن من أدنى مراتب الذل والإهانة، وقد تضمنت المعاهدة على ما يلي:

١ ـ إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين في تونس.

٢ ـ السماح للمسيحيين بإقامة شعائرهم الدينية بمنتهى الحرية.

٣ ـ تسليم جميع المدن التي وقعت سابقاً بيد خير الدين باشا (بون ـ بنزرت ـ المهدية ـ حلق الواد) إلى الأمبراطور فوراً.

٤ ـ يتعهد مولاي حسن في كل سنة بتقديم ١٢ حصاناً و ١٢ مهراً للأمبراطور قبل يوم من عيد (سان تان).

٥ ـ دفع ١٢ ألف دوقة سنوياً[١]، للانفاق على الجنود المقيمين في حلق الواد.

---

[١] الدوقة: وهي عملة فلورنسية (نسبة إلى مدينة فلورنسا) وهي تعادل درهمين عثمانيين وقد استخدمتها الدولة العثمانية كعملة ذهبية فقط.

٦ ـ إذا تخلف مولاي حسن عن أي شرط، سيدفع ٥٠ ألف دوقة وفي المرة الثانية ١٠٠ ألف دوقة، وفي المرة الثالثة تؤخذ البلاد منه.

تعهد مولاي حسن الالتزام بشروط المعاهدة، كذلك فقد أمر شارلكان أحد قادته برنار مندوزا (Bernar Mendoza) باحتلال جالطة (Golet) بعدما زُود بألف جندي إسباني، كذلك فقد تُركت في تونس عشر سفن عُهد إلى ابن أخ أندريا دوريا بقيادتها. وفي السابع عشر من آب غادر السواحل البربرية.

نظر المؤرخون إلى الأحداث. شارلكان في تونس وسليمان القانوني في تبريز ووزيره الصدر الأعظم إبراهيم باشا. ووجدوا من الصعب إجراء مثل تلك المقارنة. إبراهيم باشا بإداراته القوية أثناء غياب السلطان ضمن حماية تبريز وبغداد من أعمال السلب والنهب والتخريب. أما ضعف الإمبراطور فقد تسبب في حرق المكاتب القيمة وإزالتها من الوجود تماماً، وبقتل ثلاثين ألف إنسان بريء ومعصوم، فكانت وصمة عار في تاريخه[١]. وفوق هذا كله فقد جلس مولاي حسن وسط أكوام من الجثث ووسط الخراب والدمار دون أن يحسب حساباً لما حل بشعبه وبأرضه، فخير الدين بقواته القليلة واجه العدو، وأبدى شجاعة فائقة كادت أن تؤدي إلى دمار جيش العدو الضخم، وعلى الرغم من أن المدينة قد أُغلقت في وجوه الأتراك ألا أنهم تسلقوا أسوارها وشقوا طريقهم إلى عنابه وسط القبائل المتحالفة مع الإسبان والمعادية لهم.

إن تلك البطولات لا يمكننا إخفاءها، وهي تدل على شجاعة عظيمة ومناورة حكيمة ومغامرة فذة، إن الهزيمة التي واجهها خير الدين ورجاله يمكننا أن نشبهها بالنصر، لأن برباروس حافظ على قواته وعاد بها إلى بون (عنابه) سالمة وهو عمل مشرف له[٢]. عندما كان شارلكان يهاجم تونس، أمر خير الدين باشا بإغراق السفن الموجودة في عنابه، وأخذ كل ريس سفينته وأبحر بها، عائدين إلى الجزائر، فاستقبله الجزائريون استقبالاً عظيماً، وبعد أن تحدث إلى عائلته، أبحر مع الريس مراد بتسع سفن وأخذ من الجزائريين

---

(١) من هنا وبعد يمكن الاستفادة من هامر.

(٢) فوربيكة.

ثمان سفن أخرى أيضاً ، وغدا بحوزته وما مع الريس مراد ثلاث وثلاثون سفينة بحرية ، وبعد خروجه من تونس بخمسة عشر يوماً بدأ بربـاروس يصـارع الأعداء في البحـر الأبيض ، في حـين ظـن الـكثيرون أنـه قتـل أو عاد إلـى إستانبول .

حينما كان خير الدين باشا يرسو عن بعد ثلاثين ميلاً من جزيرة ميورقة سمع ٥٠ ـ ٦٠ طلقة مدفعية ، ومنهم أنهم يحتفلون بالنصـر الـذي حققـوه ، فتحرك نحوهم وهو يردد بأعلى صوته (ستسمعون الصوت الحقيقي للمدفعية بعد قليل) وأثناء تحركه استولى على قطعتين بحريتين وكان بداخلهما أسرى تونسيين فأطلق سراحهم ، وبعد قتله لطاقم السفينتين أحرق السـفينتين ، ثم تابع طريقه إلى جزيرة مينورقة ، ودخل ميناء ماهون (Mahon) واعتقد الرياس من الميناء وحراسـه أنـه الأسطـول المظفـر ، فأمـر بإطـلاق المدافـع تحية واستقبالاً له ، وقبل قليل شاهدت سفينتان برتغاليتـان القراصنـة ، فهربتـا من الميناء لأن الرياح كانت تساعدهما على ذلك ، لكنهما سمعتا صوت مدافـع الاستقبال من القلعة فعلمتا أنهما أخطأتا التفكير ، فعادتا إلى الميناء بسرعـة ورستا فيه .

عندما اقتربت هيئة الاستقبال من سفن الأتراك أمـر خير الـدين بإلقـاء القبض عليها ، فقيدوا أعضاءها بالحـديد ، ثـم أرسـل كادرغتين إلى السفـن البرتغالية للقول لهم (تعالوا إن بربار وس يريدكم) وحالما سمعوا ذلك ذهلوا وسلموا أنفسهم وكان معهم تسعون أسيراً مسلماً فأنقذوهم .

ذهب بربار وس من ماهون إلى ميورقة فضرب سواحلها ، ثم عاد إلى الجزائر ومعه ستة آلاف أسير ، وحينما عاد شارلكان إلى بلاده إدعى بأنه قتل بربار وس وأنه فتح جميع السواحل البربرية . وما أن سمع بأحداث جزيرتي منورقة وميورقة حتى ذهل وبـدا عليـه الغضب والانزعاج ، فأمر أندريا دوريا بالبحث عن بربار وس وإلقاء القبض عليه ، فانطلـق أنـدريا دوريا بأربعين سفينة من نوع قادرغـة ، ولكن خير الدين باشا تحرك إلى إستانبول في الخامس عشر من تشرين الأول[١] .

---

(١) دي غراممونت .

عند اقتراب خير الدين باشا من جزيرة جربه شاهد سفن أندريا دوريا في الأفق البعيد، وكان يرغب بمواجهته، لكنه أجل توجيه الضربة القاصمة إلى وقت آخر، وتابع مسيره إلى إستانبول[1].

---

(١) إن حياة خير الدين باشا من الآن فصاعدا لم تعد مرتبطة بالشمال الإفريقي، بل أصبحت مرتبطة بالتاريخ العثماني، فخير الدين باشا قائد ماهر، وبحار من الدرجة الأولى وخبير بالسياسة وفي ذلك الزمن كان إدارياً من الطراز الأول، وهذا ما قاله عنه المؤرخ فور بيكه Forbige.

إن الفاتح الحقيقي للجزائر هو الريس عروج، وكان الريس عروج يقول، بغية الاحتفاظ على هذه السواحل يجب السيطرة على المناطق الداخلية، وكان الريس خير الدين مقتنعاً بهذه الفكرة، وقد عمل بصورة جدية على تحقيقها وتطبيقها، كماعمل على تشكيل حكومة موحدة لكافة مناطق الشمال الإفريقي (دي غرامونت المفاوضات الفرنسية في الشرق ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٩٠.

Negociation de la France dans la Levant. D. C Tom I. P 248 - 290.

ونستدل من الكتابات التى صدرت عن حير الدين باشا أنه تسمى بأسم سلطان (غابرييل كولين) وعنوان الكتاب العرب والأتراك فى الجزائر ص ١١٣. وهذه الكتابة موجودة الآن فى متحف الجزائر وهي عبارة عن قطعة صخرية نزعت من جامع خير الدين باشا الواقع بالقرب من قصر الجنينة ومكتوب عليها.

أمر ببناء هذا الجامع حضرة السلطان المجاهد مولانا خير الدين ابن الأمير المجاهد أبو يوسف يعقوب التركى وتكملة الكتابة فى الصفحة ١٣٥.

بذل خير الدين كامل جهوده وشجاعته من أجل تحقيق هذا الموضوع لكن الأوضاع لم تساعد على البقاء بشكل مستقل، فاضطر إلى إعلان تبعيته للدولة العثمانية فبعد عرض عبوديته وردت كتابية سنة ٩٤١هـ على جامع صفر جاء فيها: (مملوك مولانا السلطان الكبر المعظم الشهير المجاهد في سبيل رب العالمين مولانا خير الدين) ولكنه لم يوفق فى تأسيس حكومة هناك، لكن صمن للأتراك الاستقرار في مناطق الشمال الإفريقي، والمجد والشهرة، واستطاع المحافظة على السلام فى البحر الأبيض المتوسط، ولقبه السلطان سليمان بقبطان باشا والأمين والمقتدر والشجاع بهذه الصورة حاول خير الدين باشا أن يحقق أمانيه، ولكن الشكوك الفرنسية وكثرة شكاويهم وما كان يثيره السفير بين الفينة والفينة فى الديوان الهايونى كانت سبباً في عدم تمكن خير الدين من الاستقرار فى مناطق الشمال الإفريقي، وأنه نقله لقيادة الأسطول كانت بسبب كذب الفرنسيين وافتراءهم عليها، فمنعوه من تحقيق مشروع. كما أن الملك الفرنسى أو سمراءه حاولوا اختلاق شتى الأسباب التى تحول دون عودة خير الدين باشا إلى مناطق الشمال الإفريقي، وبعد سماع خير الدين بمكائد الفرنسيين قطع علاقته وصداقته معهم كما يقول دى غرامونت.

في السادس من جمادي الأول سنة ٩٣٥هـ الموافق ٤ تموز سنة ١٥٤٦م مرض خير الدين باشا لفترة قصيرة ثم فقد الحياة وبفقدانه الحياة انتهى عمله المشرف هذا (مات رئيس البحارة) وسجلت وفاته فى هذا التاريخ. =

= قبل وفاته أوصى خير الدين أن يدفن في إستانبول فى منطقة بشكطاش (منطقة مهد الحجارة) (وهو المكان المخصص لرسو السفن الثقيلة التي تصل ما بين قسمي إستانبول الأوربي والآسيوي).

خصص لخير الدين تربة خاصة به، ولم يكن لخير الدين أولاد سوى ولده حسن وقد ترك له ثروة طائلة، فقد ترك له قصر في مضيق البوسفور وأوصى إلى رستم باشا ٢١٠,٠٠٠ أقجة ولابن أخيه مصطفى ٦٠,٠٠٠أقجة وأوصى بثلاثين ألف أقجة لإنشاء جامع فى بشكطاش، كما أوصى باطلاق سراح الأسر ممن دون الخامسة عشرة، كما قدم للسلطان ٨٠٠ أسير و ٣٠ سفينة من نوع قليونة مجهزة بالأسلحة والمعدات.

كتب على تربته (هذه تربة فاتح الجزائر وتونس المرحوم قبطان البحر الشجاع خير الدين باشا رحمة الله عليه ٩٤٨هـ) وتذكر تحفة الكبار وهامر ومتارس البحر (كتاب عن البحرية) أن وفاته كانت بتاريخ ٩٣٥هـ وأننا نأسف جداً لوقوع خطأ في التاريخ المسجل على تربته.

الفصل الثاني

- ١ -
أ ـ عهد البكلربي (أمير الأمراء)

تحرير مدينة الجزائر ـ التشكيلات العسكرية لأوجاق الغرب في الجزائر ـ الإدارة، الملكية، الواردات، المصاريف، إدارة المدينة ـ المدينة والمدنيين ـ التجارة، الصناعة ـ اليهود ـ أمرة الأمراء ـ القرصنة والقرصان ـ العلاقات الخارجية .

قام بلقين بن زيري في منتصف القرن العاشر ببناء مدينة الجزائر عندما كان والياً على مدية ومليانة من قبل الفاطميين ، وقد بنيت مدينة الجزائر فوق أنقاض مدينة قديمة كانت تُعرف باسم أقسيوم ، ونتيجة للخراب والدمار الذي حدث في عهد الوندال ، غدت المدينة مهجورة أكثر من خمس وعشرين سنة ، أما اسم مدينة الجزائر فهو مأخوذ من الجزر الصخرية الصغيرة المواجهة لها ، أو من جزائر بني مزغان أو من أسمائها القديمة (سزارا) وعلى ما يبدو فإن الروايات نقلت هذا اللفظ إلينا خطأ .

وكان سكان الجزائر فخورين بمدينتهم ، على الرغم من حداثة إنشائها ، فهي تتمتع بإقليم ملائم ومناخ معتدل وميناء صغير هادىء ، ويقول الجغرافي البكري (٤٦١هـ ـ١٠٨٦م) (الجزائر مدينة جميلة مزدحمة السكان . ميناؤها صغير ومزدحم بالسفن ، وذو حركة كبيرة يغلب عليها الهدوء ، فيها جامع جميل ، وهي تعتز بسوقها المحلي ، وذات نفوس كثيرة) . وكتب الأدريسي (٥٥١هـ ـ ١١٥٤م) قائلاً : إن معظم سكانها يعملون بالتجارة .

إن الحروب التي حدثت في القرن الثاني عشر، أدت إلى دمار هذه

المدينة المزدهرة التي تسير نحو التقدم والحضارة، فالحروب المدمرة التي شهدتها البلاد تسببت - استناداً إلى بعض الروايات - في تدمير أكثر من ثلاثين مدينة، وكانت الجزائر في مقدمتها.

بعد انهيار دولة المرابطين غدت الجزائر بيد الموحدين، وكانت مرتبطة على التوالي في بجاية، تلمسان وتونس، وفيما بعد حصلت المدينة على استقلال نسبي، على الرغم من وجودها تحت حكم قبيلة عقبة الثعالبي.

أثناء قدوم آل بربار وس إلى الجزائر، كانت المدينة على شكل مثلث قاعدته البحر ورأسه القلعة الداخلية، أما الآن فقد أصبحت قاعدته شارع الجمهورية، أما شارع فاليه (Valée) وشارع غامبتا (Gambeta)، فهما يمثلان ضلعي المثلث[1]. وشارعا فاليه وغامبتا تشكلا نتيجة لردم الخندق المائي الموجود حول القلعة.

تبدأ المرتفعات بالتدرج بدءاً من السهل الممتد على الساحل مشكلة شريطاً ساحلياً، أما السور الذي يحيط بالمدينة فهو يشبه العصا المرصعة. أعلى منطقة فيها القلعة الداخلية، وقد أطلق الفرنسيون على القلاع الداخلية اسم (القصبة). وقد لقيت الداخلية اهتمام جميع الحكام الذين خلفوا الريس عروج، وأصبح كل حاكم (رئيس) يعمل على تجديد البناء وتقويته، وكان قسم من جدار القلعة مبنياً بالقرميد (الآجر) والقسم الآخر من الحجارة، ويبلغ محيط القلعة (٤٥٠٠م) وسماكته (٤ أمتار، وارتفاعه (١٠ أمتار) وكان يبلغ عرض الخندق سابقاً ٢ - ٢,٥م، وفي عهد أحمد باشا أصبح عرض الخندق ٦,٥م، وعمقه ٢,٥م.

وكان لسور مدينة الجزائر ستة أبواب، وكلف الأتراك من ٣ - ٤ حراس على كل باب، علاوة على حراس السور الأصلي، كذلك فقد أقيمت عدة استحكامات للدفاع عن المدينة، ومن أهم هذه الاستحكامات الدفاعية:

١ - استحكام الأمبراطور ويسمى أيضاً إما قلعة السلطان أو موقع كدية الصابون، وهو يقع فوق التل المشرف على المدينة من ناحية الجنوب

---

(١) جوان: دليل الجزائر.

الشرقي[1]. وقد كلف مئة حارس للمناوبة فيه بصورة دائمة في الأوقات العادية.

٢ ـ البرج الجديد: وهو سباعي الشكل، يبلغ محيطه الأصلي أربعين متراً.

٣ ـ القلعة الداخلية: ويُطلق عليها إسم (قصبة) كذلك فقد سُميت القصر، وهي مبنية فوق تل يتحكم بالمدينة والسور الأصلي المتجه من الشرق إلى الجنوب، وفيها برجا استحكام، وحراس البرجين يعينان بصورة دائمة من الإنكشاريين، لأن خزينة الجزائر تُوضع فيها، ومن هذه القلعة تُرصد حركة السفن القادمة والمغادرة، وعند وجود أي خطر يُعطى الميناء إشارة معينة.

٤ ـ استحكام باب الواد أو الباب الغربي، وقد أُنشىء سنة ١٥٩٦م فوق رأس صخرة مطلة على البحر.

٥ ـ استحكام رأس مكسر الأمواج، أو (رأس الميناء المصطنع) وفيه خمسة مدافع ومجموعة من العساكر.

٦ ـ استحكام حاجز الأمواج أو (الميناء المصطنع) وهو برج خماسي الأضلاع، وقد أنشىء فوق الجزيرة الصخرية، وفيه خمسة مدافع مع طواقمها.

٧ ـ الميناء الداخلي وهو مبني فوق جدار مكسّر الأمواج، وهو ميناء صغير، لكنه محصَّن بشكل قوي ومتين، يبلغ محيطه ٥٠٠ قدم، ويرتبط مع الفنار المثبت فوق الصخور الموجودة في الساحل، وضع فيه ستة وستون مدفعاً، وهذه المدافع لم توضع بغرض القصف وحماية الميناء الداخلي، وإنما عبارة عن مدافع تذكارية، أخذت أثناء الحرب التونسية، وإلى جانب هذه المدافع، نُصبت عدة بطارية للمدفعية، كذلك فقد حفرت عدة خنادق.

وبعد أن أصبحت الجزائر بيد الأتراك، عمتها الفرحة والعظمة، وانتشر العمران فيها وتحسنت أحوال سكانها، كذلك فإن أوجاق الجزائر نشرت

---

(١) مجموعة البحرية العثمانية.

الرعب والخوف في قلوب المسيحيين براً وبحراً، وغدت أوجاق الجزائر خلال مدة تجاوزت ثلاثمائة سنة يُحسب لها حساب لدى حكومات أوربا قاطبة.

إن الأمم الأوربية لم تشهد في تاريخها مثيلاً لشجاعة البحارة الأتراك، وأصبحت أصداء أفعالهم تتردد على جميع الألسن، فشجاعتهم أجبرت ثلاثة أرباع أوربا على دفع ضريبة سنوية لهؤلاء الأبطال، وحتى أمريكا أيضاً، وهذا ما أدى إلى اتفاق الدول الأوربية ضد القراصنة(*)، لكن شجاعتهم وحيويتهم أخمدت الأصوات وأجبرتها على الرضوخ لمطاليبهم ورغباتهم.

حقيقة الأمر. أن حركات عصيان القباطنة والخلافات التي كانت تحدث في صفوف أوجاق الجزائر لا يمكن تصورها أو التعبير عنها، ولو أن هذه الحركات والخلافات تعرضت لها أي جمعية أو منظمة ما، لكان مصيرها الفناء المؤكد، فعلى الرغم من حدوث المشاكل من تمرد وعصيان، فإن الأوجاق لم تتأثر بها أو تشكل أي ضرر عليها، بل على العكس من ذلك منحتهم القوة وضرورة التماسك والتآلف لإثبات وجودهم في الجزائر.

وبطبيعة الحال لا يمكننا إجراء مقايسة بين ميناء الجزائر والميناء الغربي لفرنسا، على الرغم مما وفرته كل من سفينتي جانبرت (Ganbart) وسوركوف (Sürkof) من غنائم ومكاسب، يضاف إلى ذلك فإن تعطل الميناء الغربي لفرنسا يُعتبر شيئاً تافهاً وثانوياً، أما بالنسبة للجزائر فميناؤها - يمثل حياتها الدائمة، فمن خلاله تضمن وجودها واستمراريتها، وهو أمر كان يدركه الأوجاق ويقدرونه تمام التقدير.

لقد شوهد ولأكثر من ثلاثمائة سنة في أسواق الجزائر الذهب المكسيكي والماس الهندي وحرير الشرق وأقمشته وفضة البيرو وغيرها من المعادن الثمينة العائدة لأمم متعددة، وكانت هذه الأشياء تتدفق يومياً على الجزائر مثل

(*) على الرغم من تعصب المؤلف لقوميته، نراه يطلق على هؤلاء الأبطال إسم القراصنة ونحن لا نوافقه على ما ذهب إليه، فهم أصحاب حق يردون عن أنفسهم القتل والتدمير الذي تكنه لهم أوربا قاطبة، والصراع في جوهره صراع ديني (المترجم).

النهر، كما كانت السفن ذات الأعلام المختلفة تدخل وتخرج ميناء الجزائر، وهي مليئة بالأسرى والأرزاق والثروات الاحتياطية، وبهذا الشكل غدت الخزينة الجزائرية مليئة بالنقود المتعددة الجنسيات، والرياس (البحارة) من أشجع واحد فيهم إلى العاجز منهم إن وجد، كان بإمكانه العيش وتأمين حياته دون بذل أي جهد يُذكر، فجمع الذهب كان أسهل بكثير من صرفه، هذا الترف كان يمنحهم اللذة والذوق في حياتهم.

إن رغد العيش والسرور السائد على المدينة، سحر الأهالي وجعلهم يتمردون على الحكم وأصحاب الفضل، كما أن ظلم الإنكشاريين أيام القحط وزمن حدوث الأوبئة تسبب في حدوث عدة مشاكل، كان من أهمها تعرض المدينة لحركة تمرد وعصيان، إضافة إلى محاولة المسيحيين الانتقام من المسلمين، فاتسعت دائرة الفوضى وانتهى الأمر بنشوب حروب واقتتال داخلية[1].

إن الجزائريين الذين تصدوا لتوجيهات الأتراك، أخذوا يتفاخرون عليهم في إسلامهم، لكن أصداء انتصاراتهم عمت مختلف أرجاء الدنيا، ولهذا فقد لجأ بعض المؤرخين الأوربيين إلى تجاهل تلك الانتصارات وخاصة المؤرخين الإسبانيين الذين نظروا إلى انتصارات الجزائريين على أنها وصمة عار في تاريخهم، في حين تغنى شعراء الإسلام بها وقال مؤلف زهرة النيرة «إن تراب الجزائر ممزوج بدم الكفار، وخاطب أبطال الجزائر قائلاً: الشأن لك والشرف لك» في حين قال هايدو «الجزائر آفة الدنيا مضجع القراصنة. عجباً إلى متى سيظل ملوك أوربا يتحملون سفاهة وذل القراصنة»[2].

ب ـ التشكيلات العسكرية[3]:

على الرغم من أن التشكيلات العسكرية لأوجاقات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب تتشابه مع التشكيلات العثمانية، إلا أننا سنتعرض إلى هذه التشكيلات بشكل مختصر.

---

(١) دي غرامونت.

(٢) دي غرامونت.

(٣) محمود شوكت باشا: التشكيلات العثمانية والقيافة العسكرية.

يعتبر السلطان العثماني القائد العام للجيش العثماني ، والصدر الأعظم نائبه . وفيما بعد أصبح الصدر الأعظم يكلف رسمياً بقيادة الجيش .

فالجيش العثماني يتألف من :

١ ـ عبيد الباب (القابي قول) .

٢ ـ عسكر الإيالة .

٣ ـ القوات البحرية .

هذه الأقسام الثلاثة . تقسم إلى عدة أقسام ، كل منها يحمل اسماً خاصاً به ووظيفة خاصة . هذه القوات في مجموعها تنطوي تحت اسم الأوجاق ، ويسمى أكبر ضباطها آغا الأوجاق ، والأوجاق الواحد يتكون من : الإنكشاري ، الجعجي (الجندي المدرع) الطوبجي (المدفعي) العربجي (العربات) القليونجي (البحري . وهو نسبة إلى نوع من السفن) .

١ ـ القابي قول (عبيد الباب) ، حاجب باب السلطان ويقال له الحرس الخاص . بياده (المشاة) سواري (الخيال) . وهؤلاء يقيمون في ثكنات خاصة بهم ، ويعطون رواتب .

القابي قول المشاة يتألفون من سبع أوجاقات :

١ ـ الإنكشارية .

٢ ـ الغلمان الأعاجم (الأغرار) .

٣ ـ الجعبجيلر (عناصر المدرعات) .

٤ ـ الطوبجية (المدفعية) .

٥ ـ قومبرجي (رماة القنابل) .

٦ ـ طوب عربجي (عربات المدافع) .

٧ ـ السقالر (حملة الماء) .

يخضع الأوجاق لإمرة أغا الإنكشارية ، ومعاونه يسمى آغا وكيل الخدم ـ زاغر باشي (رئيس العدّائين أو السباقين) طورنجي باشي (رئيس الطورنجية) محضر باشي (رئيس المناوبين) بيوك وكوتشوك خاصكي

(الموظفون الكبار والصغار في السرايا السلطاني) شاويش (رقيب) باش شاويش (رئيس الرقباء)، كتخدا المكان (معتمد المكان)، كاتب أو أفندي إنكشاري وهو من ذوي الرتب الكبيرة، وضباطهم يشكلون مقر القيادة إضافة إلى أركان البحرية، ويطلق على القطعة العسكرية إسم أورطة (بلوك)(*). ويترأس البلوك قائد يسمى (قائد البلوك) وضمن القسم الواحد يوجد (أورطة باشي) وهو ما يعرف برئيس الغرفة أو المهجع، وكيل الخراج (مسؤول الصدف) بيرق تار (حامل العلم)، باش أسكي (رئيس القدامى)، باش أوستة. وهؤلاء بمجموعهم يشكلون هيئة الضباط، وتتألف الإنكشارية من ١٩٦ أورطة ويتألف البلوك من: عبيد الباب ـ الفرسان ـ المسلحين ـ العلوفجية (ميمنة وميسرة) الغرباء (ميمنة وميسرة) ولكل بلوك آغا يسمى آغا البلوك (آغا القسم) ومعتمد المكان (كتخدا) والخطيب ومعلم الصنعة (باش أوستة)، وشاويش ورئيس الشاويشية. وهؤلاء يكونون هيئة الضباط، ويستقرون في المناطق الموجودة بين إستانبول وأدرنة وبورصة.

عساكر الإيالة: (*)

وتتألف من: المشاة المحليين ـ حرس الحدود ـ حرس الأرض وهم بغالبيتهم من الخيالة. أما المشاة المحليون وقادتهم بكوات الصناجق وهم يعينون وضباطهم من قبل باشا الإيالة. وعساكر المشاة تتألف من خمسة أقسام وهم: العزب ـ السكبان ـ اللغمجية ـ المرتزقة ـ الفصائل المسلمة، وهي تقسم إلى عدة أورطات.

أما حرس الحدود (سرحاد قولو) وهم يكلفون بحراسة الحدود ومراقبتها، ويمتازون بالسرعة والرشاقة.

أما الخيالة المحلية (طبراقلي سواري). وهذا الصنف من العساكر

(*) ويعنى قسم ورتبه وقد ظل هذا التعبير مستخدماً فى التشكيلات العسكرية العثمانية حتى سنة ١٩٠٨م وقد ألغى فى نفس العام قبل الانقلاب على السلطان عبد الحميد بأشهر قليلة واستخدم بدلاً عنه اللفظة الفرنسية. كومندان. وفى بادىء الأمر كان البلوك يعنى تشكيلا عسكرياً.

(*) الإيالة: هو اصطلاح إدارى فالعثمانيون قسموا المناطق التى أخضعوها إلى عدة مناطق إدارية من أهمها اصطلاح الإيالة وبعد إعلان التنظيمات استبدلوها باسم ولاية. ولس هناك أي خلاف بينهما.

يقوم تشكيله حسب قانون الزعامت والتيمار، فتأمينهم وتسليحهم من اختصاص ومسؤولية أصحاب الزعامت والتيمار. فكما هو معروف فالتراب العثماني قُسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ ملك خاص: ويوزع على الوزراء وإمرة الأمراء (البكلربكي) والأمراء. ويقدر دخله بأكثر من ١٠٠,٠٠٠ أقجة.

٢ ـ الزعامت: ويقدر دخله من عشرين أقجة إلى ٩٩,٩٩٩ أقجة.

٣ ـ التيمار: ويقدر دخله من أقجة واحدة إلى ٢٠,٠٠٠ أقجة.

وقد كلف أصحاب الزعامت والتيمار بالمشاركة بكافة الحروب التي تخوضها الدولة العثمانية، وعليهم تجهيز خيال بكامل سلاحه وعتاده عن كل ثلاثة آلاف أقجة، أما أصحاب الملك الخاص فمكلفون بتجهيز خيال بكامل سلاحه وعتاده عن كل خمسة آلاف أقجة. أما أصحاب الملك الخاص والزعامت والتيمار في ولاية قبطان باشا، منهم مكلفون بتقديم الجنود إلى القوات البحرية، وهؤلاء الجنود يعملون بسفن غير عادية لأسيادهم، كما أنهم مكلفون أيضاً بتجهيز السفن وإرسالها إلى الحرب.

٣ ـ عساكر البحرية:

وهم الجنود العاملون في الترسانات (دار صناعة السفن) ويسمون أوجاق الترسانة ويتألفون من عدة أوجاق. وأساسهم مؤلف من: صانعي السفن ـ صنف الحرب (المحاربون في السفن) وهذان الصنفان يعملان تحت أمرة القبطان باشا (قائد الأسطول).

ويعتبر الريس عروج نقطة بداية القرصنة. ففي زمنه لم تكن السفينة تضم إلا الريس عروج وأصدقاءه الذين يشكلون طاقم السفينة. وكان هؤلاء يخضعون لأمرة البطل والشجاع منهم بكل سرور، وفيما بعد استمر الريس خير الدين على السير على هذا المنوال، فقد كانت العلاقة بين الريس وطاقم السفينة علاقة ودية، ولكن بعد إعلان خير الدين تبعيته للدولة العثمانية، جاءه من إستانبول ألفا إنكشاري. وهؤلاء الإنكشاريون مع رفاقهم الجزائريين أسسوا أوجاق الجزائر، ونظراً للامتيازات التي تمتع بها الإنكشاريون فقد جاءهم أربعة آلاف متطوع آخر، وبهذا الشكل غدت التشكيلات العسكرية

لأوجاق الجزائر مشابهة لإنكشارية إستانبول. إلا أن إنكشارية إستانبول لم يكونوا من عناصر الدفشرمة(*). وإنما ينتقون من خيرة العناصر التركية في الأناضول، ومن الفدائيين من ذوي السلالات التركية الصافية، أما إنكشارية الجزائر فكان من الذين ارتكبوا جرائم في وطنهم الأم، ومن الذين أغضبوا أباءهم وأمهاتهم، ومن المشاغبين والميالين بطباعهم إلى الحكايات والأساطير، فاندفعوا إلى بلاد المغرب مجربين حسن طالعهم وحظهم، وكان في كل من إستانبول وإزمير وإنطاليا ممثلٌ لأوجاق الغرب.

وكان هؤلاء الممثلون يرفعون الأعلام منادين بأعلى أصواتهم (للربح بدون تعب، وجمع النقود بدون عرق، ودون بذل أي جهد، تعالى للانضواء تحت علمنا) وحالما تمتلىء السفينة بالمتطوعين، تتوجه إلى الجزائر، وكانوا في بعض الأحيان يصطحبون معهم المدافع اللازمة للإيالة، ولكن يكون هؤلاء المتطوعون من أفراد الإنكشارية ولكي يصبح من إنكشاري الجزائر، يجب أن يكون الفرد من جنسية الأتراك، ومع مرور الزمن غدا هؤلاء الإنكشاريون يتحكمون بمقدرات الجزائر، وشمل ذلك من أدنى المراتب حتى أعلاها، في حين اعتبر أهالي الجزائر أدنى مرتبة من الإنكشاري وأقل صلاحية.

وكان بإمكان الأندلسيين والقولوغلية والبربر أن يصبحوا عساكر، ولكنه لا يحق لهم أن يكونوا إنكشاريين، ويتراوح عدد الإنكشاريين في الجزائر من ٦٠٠٠ - ٢٢٠٠٠ إنكشاري، ولهذا فقد خصص لإنكشاري المدينة ثكنات عُرفت باسم (القصرية) وبلغ عددها داخل مدينة الجزائر سبع ثكنات منظمة ومقسمة على شكل غرف، ووضع داخل الغرفة الواحدة ثلاثة أشخاص. كذلك فقد منح الإنكشاريون معاشاً مناسباً، وكلفت الأسرى بخدمتهم، وإذا أظهر الإنكشاري اللياقة والطاعة، فإنه يُرفع إلى رتبة أعلى، والبعض منهم توصل إلى رتبة آغا، إضافة إلى ذلك فإنه بإمكان الإنكشاري ممارسة المهن التي يتقنها، وقد أطلق على أبناء الإنكشاريين الذين تزوجوا بنساء

(*) الدفشرمة: وتعني عملية الجمع أو القطف. وكان السلطان يكلف لجنة بالذهاب إلى الولايات المسيحية لجمع الشبان من سن ثمان سنوات وحتى سن الثامنة عشر وإحضارهم إلى إستانبول لإعدادها وتدريبهم تدريباً خاصاً للمزيد أنظر:

Resimli Osmanli Tarihı S. 76.

محليات لقب (قول أوغلو) أي ابن العبد.

أما الأغرار فقد وزعوا على الأقسام وكانوا يلقبون بـ (اليولـداش) أي الرفاق. وبعد قضائهم عدة سنوات في الخدمة يسمون أسكى يولـداش أي (رفيق قديم) ويتقاضى الفرد منهم ١٣٠ فرنكاً.

الرفاق القدماء يصبحون باش أسكى أي (رئيس قديم) ويخصص لهم خيمة خاصة بهم ويعيّن عليهم أكثرهم قدماً، وقد توصل البعض منهم إلى منصب وكيل خراج (مسؤول الصرفيات)، وإذا كلف أحدهم بقيادة مفرزة أو موقعٍ مستقلٍ يُطلق عليه اسم آغا ويعين من بين رؤوساء الأقسام رئيساً عليهم، ويطلق عليه (باش بلوكباشي) أي رئيس رؤوساء الأقسام، وهو من الإنكشاريين القدامى بالضرورة، ويكلف أربعة منهم بالتواجد في مقام أمير الأمراء (بكلربكي) ويطلق عليهم ياوري (Yaveri) أي المرافقون، أما إذا كلفوا بحراسة قصر الباشا، يعين أقدمهم رتبة بمنصب وكيل آغا الإنكشارية، كما يعين أقدم الوكلاء في منصب آغا الإنكشارية، ولكن تعيينه بالغالب من إستانبول وفي حال تعيينه من قبل إستانبول، فيعتبر بمثابة أحد الشاوش المرسل من إستانبول[1].

واستناداً إلى السجل العسكري المتعلق بالجزائر فقد بلغ عدد رؤوساء الأقسام من ٤٠ ـ ٦٠ بلوكباشي، وهؤلاء يعتبرون أصلاً من أعضاء ديوان الإنكشارية، وتقسم الخدمة لدى أفراد الإنكشارية إلى ثلاثة أقسام.

١ ـ الجنود الأغرار (أعجمي نفرلري) وهم يكلفون رسمياً بالتعليم والتدريب ضمن مواقعهم العسكرية.

٢ ـ الأفراد المتدربون وهم قسمان: القسم الفعال والقسم المقاتل.

٣ ـ الأفراد القدامى والمتقاعدون: ويستخدمون في الخدمات الثابتة.

وتتحمل المواقع العسكرية مسؤولية حفظ الأمن والنظام، وكانت المواقع العسكرية في إيالة الجزائر وضمن الأماكن التالية[2]:

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني.

مدينـة الجزائـر ـ مرسـى ذوبـان (ميناء الذبـاب) تيزي أوزون(*)، بوغاني، برج بو عريريج مع الباب الجديد الواقع بين بو عريريج وبين بني منصور، سور العزلان قسنطينة. أما المواقع الواقعة على طريق مدينة الجزائر فهي القال، آذمور الواقعة في الشمال الشرقي من مجانة، قسنطينـة ويطلـق عليها (قسنطينة العرب)، بون، بجاية، تيبسة، وهران، مستغانم، تلمسان.

ويتم تبديل الجنود القادمين من المركز (إستانبول) بجنود المعسكرات في ربيع كل سنة، وكان هناك بعض الجنود من غير الإنكشاريين الأتراك، وخاصة في قسمي الخيالـة والفرسـان، والمـدفعية، وقـد سُمـح للقولـوغلية الاشتراك في هذه الأقسام، وكانـت العناصـر القادمـة من إستانبـول تشـكل نواتهم، كما شكل أمراء الصناجق طابوراً أو أكثـر من القولـوغلية والسـكان المحليين، كذلك فقد شكلت مفرزة خيالة من السكان المحليين أطلق عليها لقب (المخازن).

وبعد أن تم ضبط الجزائر وتونس وطرابلـس الغـرب، وزعـت الدولـة العثمانية على الـذين بذلـوا جهـداً كبيراً في طرد الإسبـان من ديار الشمـال الإفريقي أملاكاً من نوع التيمار والزعامت أي حولتهم إلى جنود السباهية أسوة بما حدث في بقية الممالك العثمانية الأخرى، ولكن الدولة حولتها بعد فترة إلى أملاك همايونية خاصة، نظراً لاتساع دائرة المشاكل، وأعطتهـم مقابـل استحقاقاتهم أموالاً نقدية، وقد اقتصر هذا الإجراء علـى أوجاقـات الغـرب فقط.

خولت الدولة العثمانية قادة الإنكشارية ترقية بعض العناصر النشطة من الإنكشاريين، وبنفس الوقت طالبت الدولة بتـطبيق النظـام بحذافيره تجـاه العناصر المخلة بالنظام وفرضت عقوبات بحـق القـادة الـذين أظهـروا ميلاً للإخلال بالنظام أو تجاهل أي خطأ على العناصر مهما كان بسيطاً لأن ذلك الإخلال البسيط والثانوي الذي تجاهله القائد يعتبر حسب قانون الإنكشارية من أكبر الذنـوب وهـو بمثابـة جرم، علمـاً بأن قانـون العقوبـات المتعلـق بالإنكشاريين كان ثابتاً ويختلف اختلافاً تاماً عن القانـون المدنـي المرتبـط

(*) تيزي أوزون: وهى تيزى إيزو وهى عاصمة منطقه القبائل.

بصورة عامة بالشرع أو بالعرف والعادة.

فالإنكشاريون شجعان لكنهم مغرورون جداً وجهلة، إلا أنهم بنفس الوقت محاربون أقوياء جداً، وإن قيادتهم سهلة إذا كان آمرهم رجلاً قوياً، ومطيعون ولهم فوائد عديدة إذا أدركت القيادة ذلك. أما إذا كان آمرهم رجلاً ضعيفاً، فهم مشاغبون ويحبون تجاوز السلطة، وظلام لا يرحمون، وهؤلاء المغرورون والمتعالون بطباعهم، اعتدوا على الأهالي في الجزائر ومارسوا ذلك في كل مكان حلوا به[1].

أما رياس السفن وطواقمها، فلم يتمكنوا من إخفاء سخطهم وغضبهم على الإنكشارية وقد شكل الريس خير الدين باشا مفرزة من المهتدين (المسيحيون الذين أسلموا) ضمت ستمائة شخص، وعهد إليها مهمة الحراسة، فالبحارة أكثرهم من الروم والأرناؤوط، وقد تجاوز عددهم ستة آلاف شخص، وقد أسند إليهم خير الدين باشا المدفعية وكلف أحد أصدقائه بالإشراف على هذه القوة، ولكنه كان يشرف بنفسه على تدريبها وتجهيزها، وبهذه الطريقة ضمن التوازن بينها وبين الإنكشارية، كما تمكن بواسطتها من تأديب الإنكشاريين والمتمردين والخارجين عن طاعته، وأيضاً تمكن من إلزام الأهالي الذين رفضوا دفع ما عليهم من ضرائب. هذه التدابير التي اتبعها خير الدين باشا ساعدته على فرض سلطانه، ولهذا لم يجرؤ أحد على التمرد عليه وخاصة في الفترة الأخيرة من وجوده في الجزائر[2].

لقد تطورت القوة التي أنشأها خير الدين باشا تطوراً كبيراً بحيث غدت الإنكشارية تخافها وتحسب لها حساباً، وبما أن خير الدين باشا وثق بها، لذلك لم يتدخل بشؤونها، وهي لم ترهقه لا بطلباتها ولا بمشاكلها الداخلية، ولم تتجاوز حدود الصلاحيات الممنوحة لها.

وفي عهد إمرة الأمراء (بكلربكي) انشغل ديوان الإنكشارية بالأعمال المتعلقة بالإنكشارية مثل الترقية والانتخابات، ففي داخل الديوان تطبق العدالة، وتناقش أمور الإيالة الداخلية والخارجية وترسم الخطط وتتخذ

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دي غراممونت.

الإجراءات ويتبادلون الرأي فيما بينهم ويفصحون عن آرائهم بكل صراحة ، إلا أنهم لا يلتزمون بما اتخذوه أو قرروا فعله ، لأن القرار النهائي بيد الباشا واعتباراً من سنة ١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م بدأ الديوان يتدخل بكل شيء ، وأصبح الباشا العوبة بيدهم ، وقد حاولت الإنكشارية قبل هذا التاريخ استلام السلطة ، لكنها فشلت لأن قلج علي باشا الذي خلف خير الدين باشا كان قوياً وعمل بكل جد ونشاط للمحافظة على الأسس السابقة والالتزام بها وتطبيقها لمنع الإنكشارية من الوصول إليها أو الإخلال بها ، وظل محافظاً عليها حتى وفاته .

إن شغب الإنكشاريين ومحاولتهم الإخلال بالنظام ، عرض البلاد لصعوبات كثيرة ، وهذا ما دفع أمير الأمراء حسن باشا للتفكير جدياً بحل الجيش الإنكشاري ، وتشكيل جيش جديد يلتزم بالنظام ويتحلى بالصفات الحسنة ، ولكن الفكرة لم يكتب لها النجاح ، لأن الإنكشاريين كانوا يتمتعون بنفوذ قوي إضافة إلى أن السلطان كان يثق بهم ، هذا النفوذ وتلك الثقة مكنتهم من تحطيم الفكرة ، حينما استجاب السلطان لشكواهم ضد حسن باشا . فقد أشاعوا بأن أمير الأمراء يرغب في تكوين جيش وطني بهدف إعلان استقلاله والانفصال عن الدولة العثمانية العلية ، وقد أخذ السلطان والديوان الهمايوني بتلك الشائعة ، وأصبح حسن باشا شخصية مشكوكاً بها ، وقد نتج عن فقدان ثقة الديوان بأمير الأمراء إلى زرع بذور الفرقة والفساد في صفوف الأوجاق الغربي منذ تأسيسه ولم يدرك الديوان الهايوني نتائج ذلك إلا مع بداية القرن السابع عشر ، ففي تلك المرحلة كانت سفن القراصنة والتي يتراوح عددها من ٣٠-٤٠ سفينة تجني من غزواتها الربح الوفير ، فالخزينة مليئة بالغنائم ، وكميات الذهب التي لا تحصى نتيجة لغزوهم تلمسان وتونس وفاس[1] . إضافة إلى ذلك فإن رئيس القباطنة هو نفسه أمير الأمراء أمثال (خير الدين باشا ، الريس صالح ، قلج علي باشا ، وفندقلي حسن باشا) ولم يكن هناك أي تأخير في دفع الضريبة السلطانية المفروضة على الإيالة ، كذلك فإنهم كانوا يتمتعون بنفوذ كبير لدى الديوان الهمايوني ، ولديهم المقدرة على تأديب المتمردين حتى ولوكان الإنكشاريون أنفسهم .

---

(١) دي غراممونت.

إن التشكيلات البحرية تختلف اختلافاً كلياً عن التشكيلات الإنكشارية ففي البحرية النظام والطاعة حتى الموت، والرياس مع بحارتهم ينظمون سفنهم ويجهزونها كما يرغبون، وقد بدأ الخلل والاضطراب يتسرب إليهم منذ أن منحت الإنكشارية أحقية مشاركة الرياس غزواتهم البحرية، واستمرت أمورهم بالتدهور إلى حد أصبح بإمكان الإنكشاريين تعيين قائد السفينة وخلعه متى يشاؤون.

جـ ـ إدارة البلاد:

كانت إدارة البلاد العليا بيد أمير الأمراء يعاونه خمسة أعضاء يكونون للمجلس الإستشاري للإيالة، وهؤلاء الأعضاء هم: الخزنجي ـ وكيل خراج القصر (مسؤول الصرفيات) ـ حجة الخيل (ناظر الخيل) ـ آغا العرب.

الخزنجي: وهو مسؤول عن الأمور المالية (دفتردار) ويلي الباشا في الأهمية.

وكيل الخراج: ويعادل ناظر البحرية وهو مسؤول عن السفن وتجهيزها وصناعتها وعن (المجدفين، الأسرى، المدفعية، المهام الحربية؛ القلاع ـ دار صناعة السفن (الترسانة).

ناظر الخيل: وهو مسؤول عن أملاك الدولة وسائر الحيوانات في الإيالة من بيع وشراء.

آغا العرب: وهو مسؤول عن الأولوية خارج مدينة الجزائر وعن القبائل والمحافظة على الأمن في تلك المناطق.

وهؤلاء يسمون الهيئة الحكومية. فالقولوغلية لا يمكن لأي فرد من أفرادها استلام أي منصب من هذه المناصب الخمسة نهائياً، ويجب أن يكونوا هؤلاء من أصل تركي، أما الديوان فيتألف من: الباشا مع أعضاء حكومته وينضم إليهم آغا الإنكشارية والقاضي، ويقوم بالأعمال الكتابية وتنظيم الوقائع أربعة موظفين يعينون خصيصاً لهذه الأعمال ويسمى الواحد منهم(كاتب الديوان).

أما في المراتب الصغرى فيوجد حوالي مئتي موظف بصفة كاتب ومترجم وجابي وما شابهها من أعمال، ويُستخدم في المجلس مترجمان

أحدهما تركي والأخر عربي، وكذلك موظفون للجمارك والضرائب وأمين عنبر وموظفون آخرون لتأمين مختلف الخدمات.

يجتمع المجلس كل يوم ما عدا يومي الثلاثاء والجمعة وأيام الأعياد، ويستمع خلال ذلك إلى شكاوي الأهالي من الصباح حتى الظهر ويفصل بها، أما بعد الظهر فيُخصص للنظر في الأعمال الرسمية للدولة وللآغوات والكتاب وكبار الموظفين، كما يستقبل القناصل أيضاً. أما يوم الثلاثاء فيخصص للاجتماع مع أمير الأمراء في قصر الجنينة، ويصدر الديوان أحكامه بحق مرتكبي الجنحة بالجلد والضرب، ودفع غرامة مالية، أما بالنسبة لمرتكبي الجنايات فعقوبتهم الإعدام، والإعدام يكون على الشكل التالي: قطع الرأس، التعليق، الخنق (الشنق)، الخوزقة التعليق بالشناكل، الحرق بالنار، وهذه العقوبات حسب نوع الجريمة.

أما عقوبة التعليق بالشناكل، الخوزقة وأعمال التعذيب حتى الموت فهي لأصحاب الجرم السياسي، وعقوبة الحرق بالنار للمرتدين واليهود، وعقوبة قطع الرأس فهي من أعمال الجلادين، وتنطبق على المجرمين والقتلة.

إن الأشخاص الذين يُحكم عليهم بعقوبة الخنق (الشنق) يؤخذون إلى خارج باب عذون فهناك يعلقون بالمشانق من نوافذ القلعة، والمحكوم عليهم التعليق بالشناكل فيُقذف بهم من أعلى سور القلعة على الشناكل المثبتة في جدارها، فيقعون على الشناكل. أما المحكوم عليهم بالخوزقة فينفذ الحكم فيهم في باب الواد أو في الميناء أمام مركز انطلاق السفن.

أما عقوبة الفلق والجلد فتتم في المجلس من قبل أسيرين حيث تقيد الرجل المحكوم ويُنْزَعُ حذاؤه ويضرب عليهما بعد رفعهما إلى الأعلى. أما الغرامة المالية فتدفع مباشرة في المجلس، أما الإنكشاريون الذين يُحكم عليهم بالإعدام فإن العقوبة تنفذ داخل السور وتحديداً في قصر آغا الإنكشارية وبصورة سرية جداً.

د ـ الأمور القضائية في الدولة:

وجد في الجزائر محكمتان ومفتيان مفتي المذهب الحنفي، ومفتي المذهب المالكي، أما المذهب الخامس (الجعفري) فليس له مفتٍ.

والأحكام تصدر حسب الشريعة الإسلامية ، ومن لا يقبل بحكم المفتي ، فبامكانه مراجعة المجلس الكبير ، ويضم المجلس الكبير علماء المذهب الحنفي والمالكي والمنسوبين إليهما والقاضي المعزول مع المفتيين ، وهم يجتمعون في الجامع الكبير وتدقق الأحكام الصادرة قبل تلاوتها وأعضاء المجلس الكبير يستمعون إلى حكم الحاكم ، فإذا كان غير مطابق للشرع يُنقض[1] .

التقسيمات الإدارية :

قسمت الجزائر بشكل عام إلى عدة صناجق من أهمها : صنجق المركز ، صنجق الغرب ، صنجق الشرق وصنجق الجنوب ، كذلك فقد قسمت إلى مناطق لها قيادات مستقلة وقسم إلى قيادات .

تأسست إدارة الصنجق الغربي سنة ٩٧١ هـ ١٥٦٣ م ، وإمارة الصنجق الجنوبي ٩٥٥ هـ/ ١٥٤٨ م وكان مركز الصنجق الشرقي مدينة قسنطينة ، أما مركز الصنجق الغربي نقل إلى مسكرة سنة ١١٢٢ هـ/ ١٧١٠ م وكان بادىء الأمر في مازونه منذ تأسيسه سنة ١١١٣هـ/ ١٧٠١م وبعد فتح وهران سنة ١٢٠٦ هـ/ ١٧٩١ م نقل إليها مركز الصنجق .

كان مركز الصنجق الجنوبي في مدية والمسمى بإمارة تيطري[2] . أما الصنجق المركزي فيضم مدينة الجزائر وقيجة مع بعض المرافىء المجاورة .

أما لاقال ، سيبو ، بليدة (بحر العزون) فيطلق عليهم البلاد السوداء وقد عين عليهم قادة مستقلون ، أما تلمسان فقد جعلت ولاية خاصة ، وفي بعض الأحيان كانت تنس وبجاية ترتبط بصنجق تيطري ، وفي بعض الأحيان كانت تعتبر صنجقاً منفصلاً[3] .

وكان أمراء الصناجق يقسمون مناطقهم إلى مشيخات ، فالأمير في مناطقه مخول بممارسة نظام إداري مصغر ، وتؤكد وظيفة أمير الصنجق عند

---

(١) مرآة الجزائر.

(٢) مذكرات جوان ص ١٤٤ .

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى.

تصديقها من إستانبول وبهذه الصورة يتمتع بملكية خاصة[1] .

وقد وفق الأمراء بإدارتهم بفضل مساعدة بعض القواد والمحافظين لهم ومن المميزات التي منحت إلى القبائل ، لأن هذا القبائل التي تمتعت بامتياز خاص تُعرف بقبائل المخزن . أما أمير قسنطينة فقد اعتمد على قوة القبائل المحلية ، وفي مقدمة تلك القبائل قبائل بني العباس في مجّانة والقبائل العربية في زاب وهودنا وشيوخ هذه القبائل يطلق عليهم إسم شيخ العرب ، أما الحكام الشعبيون من الدواودة فكانوا على خلاف شديد مع الحنانشة[2] . وكان صنجق الجزائر مثل غيره من صناجق الدولة العثمانية من حيث تطبيق الإقطاع الأرضي . فقد قسمت الملكيات فيه إلى تيمار وزعامت وملك خاص ، لكن ذلك لم يستمر طويلاً فقد ألغي وحولت تلك الأملاك إلى أملاك همايونية خاصة . وخصصت واردات تلك الأملاك الهمايوينة إلى الإدارة العسكرية .

هـ ـ الواردات والصرفيات :

كان الرسم الجمركي على الواردات والصادرات في ولاية الجزائر محدد بنسبة ١١٪ كما طبق على الجلد والعسل والغنائم التي يكسبها القراصنة وكانت تتراوح ما بين ٥ ـ ٨٪ ، كما فرضت الرسوم على الأموال المتروكة بدون وريث ، وكذلك على الميناء ، وعلى أماكن الترف وبيوت الدعارة وهناك رسوم الوراثة والطوابع والغرامات المالية ، وهذه الرسوم لم تخضع لنظام ثابت محدد بل كانت تختلف من مرحلة إلى مرحلة ، وقد قُدرت الواردات بشكل عام حوالي ٥٠٠ ألف دوقة من الذهب ، أما الواردات الزائدة عن احتياج الأمراء والقادة في مناطقهم فكانت ترسل إلى المركز .

وبغية جمع الضرائب المحددة ، كانت تشكل مفرزة من العسكر كل سنة مرة وتبدأ عملها ما بين شهري أيار وتشرين الأول وتتجول على القرى والقبائل وتجمع الضرائب المفروضة عليهم ويطلق على هذه المفرزة (مفرزة التحصيلات المحلية) . وتنتقل هذه المفرزة من منطقة إلى أخرى بكل هدوء ،

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى .

(٢) فيكتور بيكه (Victor Pike) .

وأثناء قيامها بجمع الضرائب يتحمل الأهالي نفقات إطعامها ومصاريفها زيادة عن الضرائب المخصصة، وعلاوة على ذلك فقد كان العساكر يجمعون رسوماً إضافية خاصة بهم، ووصل الأمر بالمفرزة إلى جمع مؤن وأموال تكفيهم لمدة سنة، وعملهم هذا اثار غضب الأهالي وحقدهم على المفرزة لارتكابهم الظلم، فاضطر الأهالي إلى تقديم الشكاوي، بحقهم[1]. أما منطقة القلاع التابعة لسلطان (كوكو) فقد تمتع قبائلها بنوع من الامتياز، ومن هذه القبائل قبيلة بني العباس التي كانت تدفع نسبة من الضريبة السنوية، لكن هذا الامتياز ألغي فيما بعد، وكانت واردات الخاص الهمايوني تكفي العساكر، ولهذا أرسل الفائض إلى الخزينة في القلعة الداخلية، أما بعض أمراء الصناجق فقد تكفل بتأمين الطعام إلى العساكر الموجودة في صنجقه. والتزم بدفع الضريبة السنوية، . وفيما يلي مقدارها:

صنجق قسنطينة: (كان العرب يطلقون عليها القسطنطينة) وكان مكلفاً بدفع ١٤٠ ألف قرش سنوياً، وإطعام العساكر المرابطة فيه والبالغ عددها ثلاثمائة عسكري سباهي ومئة وخمسون جندياً محلياً.

صنجق تيطري: مكلف بدفع ٤٢٠٠ قرش سنوياً وإطعام خمسمائة عسكري سباهي.

صنجق الغرب: مكلف بدفع مئة ألف قرش سنوياً وإطعام ألفي جندي قولوغلي وألف وخمسمائة جندي محلي.

وقائد بليدة: مكلف بدفع اربعة عشر ألف قرش، وقائد البلاد السوداء مكلف بدفع خمسة وعشرين ألف قرش ومئة عبد. وكانت واردات ومصاريف الجزائر تفتش وتدقق بناء على أمر من إستانبول، ولهذا فقد عين دفتر خاص لتنظيم المحاسبة في الولاية، أما الأموال الزائدة عن حاجة الولاية فترسل إلى إستانبول[2].

ف ـ إدارة مدينة الجزائر:

يطلق على رئيس إدارة مدينة الجزائر لقب (شيخ البلد) وهو المسؤول عن

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني.

إدارتها، وتخصص له إدارة خاصة به، يساعده مجلس مكون من أشراف وأعيان الجزائر[1].

سكان البلد مكونون من خمسة أقسام:

١ ـ الأتراك.

٢ ـ القولوغلية.

٣ ـ البربر والعرب المحليون.

٤ ـ مهاجرو الأندلس.

٥ ـ الأجانب واليهود.

وكان الأتراك والقولوغلية على المذهب الحنفي، أما المحليون والأندلسيون فعلى المذهب المالكي، وتتألف البلدية من (قائد اليون، قائد الوصان، قائد الزمبيل) وهذه الوظائف على رأسها ثلاثة موظفين كبار.

قائد اليون: وهو المسؤول عن المياه داخل وخارج البلد ومسؤول أيضاً عن المجاري المائية ومياه السبل في المدينة وعلى الطرق المؤدية إليها.

قائد الزمبيل: وهو مسؤول عن تنظيف المدينه ويكلف عدداً من الموظفين لتنظيفها بصورة دائمة ليل نهار ويطلق عليهم القولجية (الحراس) والبكجية (المناوبين).

قائد الوصان: وهو المسؤول عن الأسرى المخصوصين والجواري ويكون لهم المرجع الأول، فإذا أرادوا العمل يسعى لإيجاد عمل لهم. والذكور منهم يعملون بنقل الزميلات (نوع من السلال مصنوع من القش). كما يعملون في التبييض (الدهانات) وغدت هذه الأعمال من اختصاصهم. (الرجال فقط منهم) أما النساء فيكلفن العمل في الحمامات وصنع الخبز وكبائعات متجولات.

كانت مدينة الجزائر نظيفة جداً، فقد قُسم الأجانب الموجودون فيها إلى مجموعات بحسب قومياتهم، وبترأس كل مجموعة رئيس أو محافظ، وكان الرئيس مخّولاً بفرض العقوبات عليهم، لأنه مسؤول أمام الحكومة عن

---

(١) مراة الجزائر.

تصرفاتهم ، وكان يطلق عليه شاويش بلدية من الدرجة الثامنة أو بوليس (شرطي) ، وهؤلاء الشرطة والحجاب يعملون كموظفين في البلدية ، إلا أنه لا يحق لهم حمل السلاح ولا حتى عصا يتوكأ عليها ، لكنهم أشخاص محترمون جداً ، وكل من يخالفهم عقوبته الموت ، فإذا أراد الشاويش إيقاف أحد الأشخاص يقترب إليه بهدوء ، ويربت بإصبعه على كتفه مشيراً إليه متابعته دون إحداث أي ضجيج أو مناقشة ، وإذا حاول الشخص الرفض أو المقاومة ، طلب الشاويش من الحاضرين مساعدته ، لأن كل إنسان مكلف بمساعدته فوراً ، فيمسك الشاويش بالشخص المطلوب ويأخذ إما إلى السجن أو المحكمة.

أما الحارس في خارج المدينة فيقال له (الفاحص) ، وهو مكلف بضبط الأمن والمحافظة على سلامة الناس وأمنهم ، ورئيسهم قائد الفحص ، وبما أن وظيفة قائد الفحص وموظفيهم لا يعتبران من الوظائف الشريفة بنظر الأتراك ، لهذا تخلو عنها للأهالي أو الأسرى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي مجدداً.

غ ـ مدينة الجزائر وسكانها:

كانت شوارع مدينة الجزائر ضيقة ومنازلها متلاصقة بعضها مع البعض ، ولهذا فإن أسطحة المنازل متصلة بعضها مع البعض ، ونظراً لوقوعها ضمن سور وأراضيها معرضة لحوادث السلب والنهب من الأجانب الطامعين بها ، علاوة عن الهجمات التي تتعرض لها المدينة من القبائل القاطنة بالقرب منها ، ولم يكن داخل المدينة مقاهٍ أو خمارات ، فأماكن اللهو والترف أقيمت خارج السور ، فمنازلها التي أقيمت على شكل مدرجات أعطتها منظراً جميلاً إضافة إلى قصور الأغنياء التي أقاموها حول المدينة ، فاكتسبت المدينة بذلك روعة قلما توفرت بمدينة أخرى ، فالأغنياء اتخذوا تلك القصور مقراً لنزواتهم ولهوهم[1] ، كما أن الأندلسيين الذين هربوا من ظلم الإسبان ، أغنوا المدينة بما لديهم من خبرات وصناعات بما تبقى لديهم من أموال.

وفي نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، كان الأهالي يتفاخرون كثيراً

---

(١) هايدو.

و (الفاحص) واللباس الأنيق الذي كان يرتديه ومدى اهتّمامه بنظافة المدينة كذلك فقد وجد حوالي عشرة قصور محاطة بالحدائق المليئة بمختلف أنواع أشجار الفواكه[١] .

كذلك فقد كُلف الأسرى بالعمل في الحدائق والمزارع في الساحل ومتيجة ، فقد وُجد هناك حوالي ألفين وخمسمائة مزرعة ، وقدر عدد البيوت بمدينة الجزائر ثلاثة عشر ألف بيت ، وغالبيتها آية في الروعة والجمال .

بلغ عدد سكان مدينة الجزائر قبيل القرن السابع عشر الميلادي مئة ألف شخص ، كما وجد فيها ثلاثمائة عائلة للقباطنة والرياس وستة آلاف عائلة للإنكشاريين وستمائة عائلة تركية وألفا عائلة أندلسية مهجرة ، وعشرة جوامع ومعبدان لليهود وكنيستان للكاثوليك[٢] .

وقد أقيم في مدينة الجزائر عشرة ينابيع ماء (ماء سبيل) ضخمة لتأمين المياه للأهالي كما قام حسن باشا ومحمد باشا بن صالح باشا ببناء الحمامات المجانية لعامة الناس ، بالإضافة إلى بناء عدد من الثكنات والمستشفيات[٣] . وكانت دار السلطان المسماة قصر الجنينة تزين المدينة .

كانت مدينة الجزائر مليئة بمختلف أنواع الأطعمة من لحوم وأسماك ، ولو أن طعام سكان المدينة اقتصر فقط على الأسماك فقط لزاد عن حاجتهم ، لأن مدينة الجزائر في عهد إمرة الأمراء كانت حافلة بالنشاط والحيوية ، فقد حصّنوها تحصيناً قوياً ومتيناً ، كما شيدوا فيها العديد من الجوامع والحمامات والقصور المزينة بالمرمر الذي أحضروه من صقلية وإيطاليا .

هـ ـ تجارة المدينة ـ صناعتها ـ اليهود :

كانت التجارة الخارجية لمدينة الجزائر محدودة وقليلة جداً ، وقد اقتصرت تجارتها على نشاط المهجرين والأندلسيين واليهود وقلة قليلة من المسلمين ، وقد وجد في الجزائر حوالي / ٢٠٠٠/ يهودي ، وتركزت تجارتهم على الغنائم التي كان القراصنة يحضرونها من غزواتهم البحرية .

---

(١) هايدو.

(٢) مراة الجزائر.

(٣) دي غراممنت.

فالغنائم التي كان الرياس يحضرونها لم يكن بالإمكان بيعها في مدينة الجزائر، ولهذا فقد تعهد اليهود بيعها في كل من إيطاليا وإنكلترا والنمسا وغيرها من المدن الأوربية وذلك عن طريق عملاء لهم أو بواسطة أبناء جلدتهم من اليهود، وقد حققوا من جراء ذلك أرباحاً طائلة، كما عمل بعضهم ببيع الذهب وتصنيعه وتصريف العملات، وكان اليهود يقطنون في أحياء خاصة بهم، فقد سُمح لهم بفتح بعض الدكاكين إلا أنهم أجبروا على ارتداء لون خاص من اللباس يختلف تماماً عن الألوان التي يرتديها السكان.

وكان اليهود يعاملون معاملة سيئة، بحيث سمح للأسرى المسيحيين بضرب اليهود، وإذا حاول اليهودي الرد على ضاربيه من الأسرى المسيحيين، فإن المسلمين يساندون الأسير ضد اليهودى، علاوة على ذلك فقد فرضت عليهم ضريبة عالية جداً.

أما المهاجرون الأندلسيون فكانوا يتقنون الزراعة والصناعة والأعمال الإدارية بشكل جيد، كما عملوا بالدباغة والسروجية (صناعة السرج) وصنع الأسلحة والأعمال الأخرى. وعلى الرغم من أن سكان الجزائر الأصليين يملكون ذوقاً رفيعاً وحساً مرهفاً، لكنهم كانوا ميالين إلى حب الثرثرة والمشاجرة، أما خارج الجزائر فكانوا مرحين ومحبوبين، وفي الداخل (ضمن الجزائر) حقودين وظلاماً، مثلهم مثل جميع المخلوقات الضعيفة، كذلك فهم يركعون أمام القوة، حيث يتقبلون الأمر الواقع بسهولة ودون أي عناد(*). فالجزائريون يفضلون ممارسة الأعمال التي لا تحتاج إلى جهد كبير مثل الخياط وحياكة الكنزات الصوفية والقطنية، والتطريز بالقصب والغزل والقيام بالأعمال التجارية الخفيفة والسهلة، وممارستهم لتلك الأعمال جعلتهم خمولين ومخنثين كالنساء[1].

إن عظمة فرسان العرب وتعصبهم القوى ضد الجوالين عندما كانوا يمشون أمام المحليين تظهر تضاداً وتضارباً واضحاً، ولم يكن باستطاعة

(*) حقيقة الأمر لقد غالط المؤلف الحقيقة ونسب إلى الجزائر صفات الجزائريون براء منها، فالجزائريون من ذوى الصفات بحبون الضيف، ويحترمونه، وكرمهم هذا ليس جُبناً، فالجزائريون معروفون بالبأس، والشجاعة وعزة النفس (المترجم).

(١) دى غراممونت.

الجزائري المحلي الرد على ذلك بأي شكل من الأشكال، لذلك لم يكن لهم أي دور مهم وبارز في تاريخ الجزائر.

كانت القوافل التجارية القادمة من داخل الجزائر تتخذ الساحل مركزاً لها، وكانت خزينة الجزائر تعتبر الخزينة الثانية في العالم من حيث الغنى النقدي، وذلك بفضل شجاعة أبطالها وقوة جيشها المطفر[1]. فالأموال التي كانت تكتسب بسهولة كانت أيضاً تصرف بسهولة، فحياة الفقراء كانت قائمة على فضلات الولائم والعزائم التي كانت تُقام بصورة دائمة ومستمرة، وعلى الرغم من أن البلاد تعرضت لمجاعات كثيرة نتيجة لحلول الجفاف والجراد، وإصابتها بالوباء من البحارة الذين قدموا إليها من جهات مختلفة وخاصة بحارة إزمير وتونس، فلم يقم أحد من الحكام باتخاذ تدابير وقائية وصحية ضد الأوبئة والأمراض التي تعرض إليها الأهالي، وعمدوا على معالجة تلك المصائب بالصبر والتوكل[2].

ك ـ إمرة الأمراء (البكلربكي):

كان أمير الأمراء يسكن في قصر السلطان، وقد سميت بدار السلطان، وعندما كان خير الدين بربار وس في إستانبول، شغل منصبي أمير أمراء الجزائر وقبطان باشا، فكلف وكيله في الجزائر بإدارة الأمور بشكل عام، وكان أمير أمراء الجزائر يختلف عن غيره من بقية الأمراء في الولايات الأخرى، حيث تتمتع بصلاحيات واسعة وامتيازات خاصة به فقط، فهو يعتبر شبه مستقل من حيث تعين وعزل البكوات في ولايته، لكن جميع أمرة الأمراء مطيعون للسلطان، ويلبون رغباته وأوامره بكل سرور وطيب خاطر. كما أنهم يلتزمون بالأوامر الصادرة عن الباب العالي ويعملون بموجبها، وقد قُدرت مخصصات القباطنة (قبطان باشا) في كل من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بـ ١٢ مثل عن غيرها من الولايات الأخرى، يعني / ١٠٠٧٠٠/ ألف أقجة[3].

---

(١) دي غرامموت.

(٢) دي غرامموت.

(٣) رحلة أوليا شلبي (جلبي).

وقد جعلت قبطان الباشوات بولايه واحدة ومنحت كل من: غاليبولي، آغربوز، قارة إيلي، ليبناتو، رودس، مديلي، كوچه إيلي، بيغا، صوغلا، مزمسترة. وقد خصصت واردات هذه الصناجق لأمرة الأمراء وأرباب الزعامت في الأسطول وأطلق عليها أمرة أمراء جزائر بحر سفيد، وهي غير ولاية جزائر الغرب(*).

قدرت واردات الزعامت في ولاية الغرب بـ ٨٨,٣٩٠ أقجة والتيمار ٦٣,٠٣٧ أقجة.

وكان موظفو ولاية جزائر الغرب بادىء الأمر على النحو التالي:

كتخدا (نائب وكيل) قابجي باشي (رئيس البوابين) كوتشوك قابجي باشي (رئيس البوابين الصغير) قابي كتخداس (وكيل البوابين) خزينة دار باشي (رئيس دار الخزينة)، رئيس الإصطبل، رئيس الشواش، إضافة إلى عدد من الكتاب والشواش والسقاة والمسلحين.

وكان مسلحو الباشا يرافقونه أينما حل ورحل، وكان سلاحهم يتألف من: بندقية قصيرة وسيف مذهب ورماح وخناجر، وكانوا يرتدون عمامة خفيفة، ويحملون درعاً مذهباً، ولم يسمح لهم الدخول إلى قصر الجينية بالسلاح نهائياً. وكانت عقوبة الداخل إلى القصر بالسلاح الموت، كما كُلفت مفرزة قوية بحراسته والمحافظة عليه، وتختلف قوة وعدد هذه المفرزة من باشا لآخر.

ل ـ الحروب البحرية:

كانت القرصنة تشكل أساس الأوجاق الغربي، وكانت غزواتهم تعتبر نوعاً من أنواع الجهاد[٣]. وباتحاد رياس البربر مع الرياس الأتراك غدت البحرية العثمانية قوة ضاربة يحسب حسابها، ففي بادىء الأمر وجه الرياس

(*) أطلق على هذه الولايه استنادا للوثائق والمصادر التركية إسم جزائر بحر سفيد وللتميز بينها وبين الجزائر سميت الجزائر (جزائر العرب أو أوجاق الغرب) (المترجم).

(١) رحلة أوليا جلبي.

(٢) رئيس دار الخزينه، وهو موظف خاص فقط بخزينه الباشا.

(٣) دي غرامونت.

اهتمامهم بالدرجة الأولى لانقاذ المسلمين من ظلم الإسبان، والقضاء على التجارة الإسبانية في البحر، وضرب سواحلها وألحاق الأضرار بها، وبهذه المهمة الجهادية لم يعد بإمكان أي إنسان مقارنة نفسه بواحد من الرياس الجزائريين، لأنهم كللوا أعمالهم بالنصر والنجاح، واثبتوا وجودهم حتى النهاية، كذلك فقد كانوا يتسارعون لتلبية إرادة السلطان فى كافة الحروب التي خاضها، ووقفوا خلال هذه المعارك في الصف الأول، كما حدث في حرب مالطة وتونس ولبيناتو، فكسبوا بشجاعتهم ومواقفهم الإنسانية ثقة الجميع، وعمت الشهرة مختلف الأرجاء والأصقاع.

ويقول هايدو (كانوا يخرجون إلى البحر في فصلي الشتاء والربيع، لا يعرفون الخوف والجزع أبداً، فعند خروجهم وتجولهم في مياه البحار الشرقية والغربية، كان بحارتنا مع سفنهم ينامون في الموانيء متمتعين باللهو والراحة، على الرغم من ضخامة سفننا المليئة بالرجال والعتاد، وإذا التقت سفننا صدفة مع سفنهم الخفيفة والمدهونة بالزيت، تلجأ مباشرة إلى الهروب، لقد اعتادت سفنهم العودة إلى الوراء والهرب).

لقد أعطى الجزائريون أهمية كبرى لسفنهم، وعملوا باستمرار على تطويرها وتنظيمها، واعتمدوا في معظم حروبهم على الكادرغات، فالأضرار التي ألحقها الرياس بأعداء تركيا، يصعب بل يستحيل تقديرها أو حساب النتائج التي ترتبت عنها. ففي سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م بلغ عدد سفن القراصنة الجزائريين خمساً وثلاثين قادرغة وخمساً وعشرين فرقطة (فرقاطة)(*) إضافة إلى عدد من السفن الأخرى والمسلحة بأسلحة متنوعة.

فسفن الأوجاق كانت في غاية الروعة والنظام والترتيب، لقد كذب مؤسسو الأسطول الجزائري الشائعات والتهم التي أطلقها عليهم البعض حينما وصفوهم بلصوص البحر[1]. فمصدر هذه الشائعات الكاذبة جاءت من

(*) الفرقاطة وهي نوع من السفن الحربية الرفيعة والثقيلة، تسع من ١٠ ـ ١٧ مجدافاً ويعمل على كل مجداف شخصان. يسعها أثناء الحرب ٨٠ شخصاً، وعليها رئيس ووكيل وبحار وموجه وشاويش، وهي تزود من ٤ ـ ٨ مدافع متنوعة، ونظرا لسرعتها تستخدم لنقل الأخبار بين السفن أثناء المعارك وللربط بين المحاور.

(١) دي غرامون.

المؤرخين الإسبانيين، وهذا الوصف كونه من الإسبان فهو شهادة على أن الجزائريين أصحاب حق ومدافعون عنه، ألم يفكر الإسبان وحلفاؤهم بما فعلوه من قتل وتدمير للسواحل الإفريقية، فنسبوا الصفات البشعة إلى قراصنة الجزائر والبربر وتناسوا عن قصد حقدهم وكراهيتهم وقتلهم للنساء والأطفال المسلمين، فاعتمد بقية المؤرخين على ما كتبه المؤلفون الإسبان، ونشروا ما تكون لديهم من معلومات هي في الأساس معلومات لا أساس لها من الصحة، ومغالطة تماماً للحقيقة والواقع بآن واحد.

إن ما قام به الرياس الجزائريون في سبيل الإسلام مشابه لما فعله فرسان سان إتيان (فرسان القديس يوحنا) من أجل المسيحية، ففرسان الجزائر غدوا مسلطين على السفن المسيحية فهاجموا سفنهم التجارية، وأحرقوا وهدموا مدنهم الساحلية وأسروا سكانها، وخربوا ما استطاعوا إليه، لكنهم عاملوا الأطفال والنساء معاملة طيبة وحسنة.

إن الكتاب الأجانب الذين وصفوا هذه الأعمال بالوحشية، أجحفوا كثيراً بحق الرياس الجزائريين، فلربما وقعت أعمال قتل وتدمير، فقد تناسوا عن قصد أن الحروب آنذاك كانت تتصف بالقسوة والشدة[1]. فالرياس أثناء غزواتهم كانوا يحصلون على غنائم كثيرة، وهذه الغنائم عمت فائدتها على جميع سكان المدينة، ويقول هايدو: «عندما كان الرياس يعودون من غزواتهم كانت المسرة والفرحة تعم الجميع، فالتجار يشترون الأسرى والمجوهرات والتحف الثمينة التي أحضرها القراصنة معهم، والتجار يبيعون الألبسة والأرزاق للقادمين الجدد، فيكسبون من جراء ذلك أرباحاً كبيرة، وكان كل شخص من سكان المدينة يتذوق لذة الفرح والسعادة، وهذا ما دفع الجميع إلى إظهار حبهم وإخلاصهم للقراصنة، لأنهم المدافعون عن الدين وحماته أيضاً، وكانت موائد البحارة المحبوبين تستقبل الجميع، كما كانت الفائدة تعم سكان الحي وخاصة الفقراء منهم، لكن الأهالي لا يحبون الإنكشاريين، وحتى تاريخ ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠ ظلت رابطة البحارة بإستانبول ضعيفة، إلا أن هذه العلاقة لم تنقطع، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلوا يخضعون لأوامر السلطان».

---

(١) دي غرامون.

م ـ العلاقات الخارجية :

ظلت العلاقات الجزائرية الفرنسية طوال فترة حكم إمرة الأمراء جيدة ، حيث عمل الريس سنان والريس طرغوت مع القباطنة القدماء من الفرنسيين أمثال ستروز لاغادره وساينت بلانجارد سوية في البحر ، كذلك فقد لجأ الرياس في بعض الأحيان إلى ميناء بروفانس وأخذوا الأرزاق منه ، كما توجهوا عدة مرات إلى مرسيليا وحصلوا من هناك عن معلومات بحق الأعداء .

كان هنري الثاني وشارل التاسع يقدمان المعلومات للقراصنة الجزائريين عن تحركات الإسبان[1] .

إن كره الفرنسيين للإسبان هو الذي أجبرهم على تمتين صداقتهم مع القراصنة ولم يجد الفرنسيون وسيلة تمكنهم من الانتقام من الإسبان سوى مشاركة قراصنة الجزائر هجماتهم ضد الإسبان ، ولكن الفرنسيين كانوا ينظمون علاقاتهم مع الجزائريين على ضوء علاقاتهم مع الإسبان في حالتي الحرب والسلم .

فالسفير الفرنسي المسيو دو بترمول (M. De Petermol) ، طلب من الملك إقامة قنصلية فرنسية في الجزائر بحجة أن أصحاب السفن الفرنسية قدموا شكاوى ضد القراصنة الذين استولوا على سفنهم وسلبوهم إياها ، ولم يجد الملك الفرنسي حلاً أفضل من ذلك ، فأمر في سنة ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م بتعيين قنصل فرنسي في الجزائر. وكلفه بالسفر فوراً إلى الجزائر، لكن الجزائريين لم يسمحوا له حتى بدخول المدينة ، وظل الأمر حتى سنة ٩٨٤/ ١٥٧٦م وبعد مفاوضات سمح الجزائريون للفرنسيين بإقامة القنصلية ، فعين موريس صورو كأول قنصل فرنسي في الجزائر.

لم يتمكن الفرنسيون من تعيين وتثبيت قنصلهم في الجزائر إلا بعد أن حصلوا على موافقة إستانبول وزودهم السلطان بفرمان بذلك ، وبهذه الوسيلة تمكن القنصل الفرنسي من ممارسة عمله بحرية تامة فى الجزائر اعتباراً من ٩٨٦هـ/ ١٥٧٧م. وحتى ذلك التاريخ لم يكن لأي حكومة تمثيل

---

(١) دى عراممونت. المفاوصات الفرنسية فى الشرق ج ٢ ص ٧٢، ٢٤٢، ٢٧٨ و ج ٣ ص ٣٨٨.

قنصلي قبل هذا التاريخ في الجزائر.

عمل القنصل الفرنسي على الاهتمام بالعلاقات التجارية مع الجزائر، وغدا عمله وكأنه وكيل تجاري لمدينة مرسيليا، إزاء ذلك أرسلت إنكلترا في سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م إلى الجزائر جوان تيطون (John Titony) كممثل تجاري للشركة الإنكليزية التركية، فالجزائر قبل مجيء آل برباروس كانت تقيم علاقات تجارية مع بيزا، جنوة، فلورنسا، مرسيليا، برشلونة. وكان هؤلاء يصطادون المرجان من السواحل الجزائرية، وكذلك فقد عمل في هذا المجال بعض البروفانسيين، وفيما بعد تأسست شركة في الجزائر، أطلق عليها (شركة إفريقية الملكية)، ولم يقتصر عمل هذه الشركة على صيد المرجان فقط بل أصبحت تمارس الأعمال التجارية أيضاً، حيث أقيم في سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م أول مؤسسة تجارية عُرفت بإسم قرة بورون (الأنف الأسود)[١].

في سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٧م حصلت عائلة لومليني الجنوية على إذن باستخراج المرجان من جزيرة طبرقة، كما حصلت الحكومة الفرنسية من الديوان الهمايوني على إذن بفتح مخازن تجارية هناك، إضافة إلى أنها منذ زمن بعيد كانت تقيم علاقات مع قبيلة مازولة (Maozule) ومن خلال الموافقة السلطانية أقام الفرنسيون لهم شركة تجارية وعهدوا إلى توماس ليمسوه (Tomas Limcio) وكارلوس ديوير (Karlos Didier) بإدارتها، وقد اتخذت الشركة الفرنسية استحكام فورتن (العاصفة) الواقع على بعد ١٢ فرسخ شرقي بون مركزاً رئيسياً لها. وفيما بعد عُرف هذا المركز بإسم الباستيون الفرنسي. كذلك فقد افتتحت الشركة مخازن من لاقال وقبنغرة وبون وقبروز وفي القالو.

وقد عمل الفرنسيون على اصطياد المرجان واستبدال المنتجات الفرنسية بالجلود والقمح والشمع والعسل[٢]. لكن الأتراك فى الجزائر قاموا

---

(١) دي غرامبوب. يذكر غرامبوب أن احتكار صيد المرجان في جزيرة طبرقة أعطي للجنويين لقاء إطلاق سبيل الريس طرغوت، وأن عائلة لومليني تمركزت في جزيرة طبرقة سنة ١٥٣٤م، علماً بأن الريس طرغوت أطلق سراحه قبل ذلك

(٢) دي غرامبوب.

بهدم الباستيون سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م[1] ، وطردوا الفرنسيين من الجزائر، ولم يسمحوا لأحد بممارسة الأعمال التجارية في تلك السواحل حتى سنة ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م. وبما أن ممارسة هذه الأعمال التجارية تدر أرباحاً طائلة وكبيرة جداً ، لذلك ظل الفرنسيون يركضون خلف ذلك بكل جهدهم .

وفي سنة ١٥٧٧م تمكن شخص فرنسي يدعى نيقولا من الحصول على إذن من إستانبول تخول الفرنسيين حق ممارسة الأعمال التجارية وصيد المرجان مكان المؤسسات القديمة التي هدمت سابقاً، وتتضمن الفرمان الهمايوني السماح للفرنسيين صيد المرجان في المناطق الواقعة ما بين الجزائر وتونس ، وطُلب من أمير الأمراء التعامل معهم بشكل حسن ، شريطة دفع عُشر أرباحهم ، ولكن الفرمان لم يسمح لهم بإنشاء قلعة هناك وقد سُلم الفرمان الهمايوني إلى أمير أمراء الجزائر في سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م[2] . ولم يُعثر في السجلات الهمايونية عن أي معلومات تشير على أن الفرنسيين اتخذوا لهم أماكن تجارية في شمال إفريقية بشكل رسمي قبل هذا التاريخ .

(١) الكسندر دى لابوردة .

(٢) دي غراممونت .

- ٢ -
أمرة الأمراء

حسن آغا وكيل خير الدين باشا ـ فتنتان لم تمرا في تاريخنا ـ إسبانيا تحاول كسب خير الدين باشا وحسن آغا لجانبها ـ غزو شارلكان للجزائر سنة ١٥٤١م ـ هزيمته، عودته، هربه ورميه لتاجه في البحر ـ تحرك خير الدين باشا ـ التوجه إلى سلطان كوكو ـ وقائع تلمسان ـ هجوم الكونت دالكودت على تلمسان ـ وفاة حسن باشا ـ حجي بشير.

توجه خير الدين برباروس إلى إستانبول بعد أن عين خادمه الأمين حسن آغا وكيلاً له على الجزائر، وكان حسن آغا قد أسر في إحدى غزوات القراصنة الجزائريين من سواحل سردينيا، ولدى توزيع الغنائم كان الطفل من نصيب خير الدين برباروس.

تبنى خير الدين الطفل وعلمه ودربه كأحد أولاده، وكان حسن آغا ذكياً وعاقلاً، ولم يقم بعمل إلا وأتمه على أحسن وجه وبمنتهى العقلانية والهدوء، ولهذا عينه خير الدين وكيله على الجزائر، لاعتقاده الأكيد بأنه سيدير الجزائر إدارة جيدة وناجحة، ولدى مغادرة خير الدين لميناء الجزائر، كان حسن باشا في مقدمة مودعيه[١].

حاول شارلكان عقب إخراج الأتراك من تونس سنة ٩٢٤هـ/ ١٥٣٥م وتنصيبه لمولاي حسن حاكماً عليها، مهاجمة الأتراك في الجزائر وبقية

(١) دي غراموب.

المواقع الأخرى وكان من أهم الأسباب التي دفعت شارلكان للتفكير بذلك، خروجه في حرب تونس منتصراً، ولو أنه تابع هجومه آنذاك على الجزائر، لربما تمكن من تحقيق هدفه وأمنيته، وقد حالفه الحظ في ذلك الهجوم، ولكن نشوة النصر وظهور علائم التعب والإنهاك على جيشه وأسطوله، ومعرفته من عدم قدرة قواته على متابعة الهجوم، أرغمته على الانسحاب إلى بلاده يحمل تباشير النصر باستعادة تونس من الأتراك، ولم يكن يفكر بمهاجمة الجزائر لولا كثرة شكاوى أنصاره وازدياد نفوذ خير الدين برباروس[1].

ولدى مغادرة خير الدين للجزائر، قام حسن آغا بتجهيز أسطول مؤلف من ثلاثين غالية وقادرغة[2]، وبدأ بمهاجمة السواحل الإسبانية[3].

بدأ شارلكان يستعد لتحقيق فكرته، وكان شارلكان قد احتل بون أثناء عودته من تونس، والآن لو أننا دققنا النظر بالأحداث المتتالية مع بعضها البعض، لوجدنا أن جبل طارق تعرض للسلب والنهب نتيجة لثلاث هجمات شنها قراصنة الجزائر عليه، وتوزعوا في شعابه.

كان لدى شارلكان الأميرال أندريا دوريا وهو من أشهر أميرالات البحر وأشجعهم، وبمساعيه فكر شارلكان بوسيلة تمكنه من كسب خير الدين باشا لجانبه، فالجميع على علم بحب خير الدين باشا لحكم إفريقيا والبقاء فيها، ويفضل بقاءه فيها على أي شيء آخر لذلك حاول شارلكان استغلال ذلك وعرض على خير الدين برباروس حكم شمال إفريقية، وأنه يعهد إليه منصب الحاكم العام لشمال إفريقيا إذا أعلن تبعيته للإسبان، ولن يكلفه إلا بدفع ضريبة جزئية، وكان هدف شارلكان من ذلك انتزاع شمال إفريقيا من أيدي العثمانيين وجعلها مناطق نفوذ له ولقواته، كما اعتقد شارلكان إن تم خضوع شمال إفريقية له، فإن الهدوء والاستقرار سيعم مختلف مناطقها، وقد كلف شارلكان للقيام بهذه المباحثات السرية ألونودي آرجون والقبطان فرغاره

---

(١) دى غراممونت.

(٢) غالية. وهى نوع من السفن ويلفظها الأوروبيون (قاليوطة) وهي تتمتع من ١٩ ـ ٢٤ مجداف.

(٣) دليل إفريقية لسنة ١٨١٥. ص ١٤١.

والدكتور روميرو وبإشراف أندريا دوريا.

أظهر خير الدين باشا بادىء الأمر تقبله للأشخاص المرسلين، وأعلن استعداده للتباحث معهم وتسلم الهدايا منهم، وبنفس الوقت أعلم السلطان بذلك، وأخبره عما سيفعله معهم، وبهذه الوسيلة تمكن خير الدين باشا من خداع أندريا دوريا، واعتقد الإسبان بأنهم كسبوا خير الدين باشا لصفهم، وقد استمر خير الدين يحاور الإسبان مدة سنتين. لكن السلطان العثماني أراد وضع حدٍ لتلك الدسيسة، فأمر بإلقاء القبض على الدكتور روميرو (D. Romero) بتهمة تحريض أتباعه على الخيانة وسجنه في يدي كوله (الأبراج السبعة).

وفي الطرف الآخر حاول والي وهران الكونت دالكودت (Kont d, Alkodet) خداع حسن باشا من خلال منحه بعض الوعود، وبنفس الوقت أظهر حسن آغا بعض التراخي من خلال الرسائل التي تمت بينهما، وعلى الرغم من فشل المحاولة وتمكن حسن آغا من خداع الكونت د الكودت فإن العلاقات فيما بينهما استمرت على ما هي عليه سابقاً[1].

وفي صيف سنة ٩٤١هـ/ ١٥٤١م قام شارلكان بتجهيز جيشه وأسطوله، وباشر بتحميل الجنود على السفن، وأشرف بنفسه على جمع القوات المتبقية من جنوده، وقد تمكن من تجهيز (٣٩) سفينة من جنوة، وفي ١٥ أيلول اتجه من جنوة إلى جزر البليار لتمضية وقته هناك، لاعتقاده بأن الاستعدادات تستغرق زمناً طويلاً، وحالما توقفت العواصف البحرية، أمر بالتحرك إلى الجزائر، فبلغها يوم الأربعاء ١٩ تشرين الأول ١٥٤١م الموافق ٢٨ جمادى الآخر ٩٢٨هـ[2].

---

(١) يذكر دي غرامونت أن من أهم الأسباب التي دفعت الأمبراطور للتحرك بهذه القوة وهذه السرعه، بالرغم من صعوبة المرحلة التي تواجهها إسبانيا والبابا أيضاً ومشاركة البابا مشاركة فعالة في هذه الحملة والتي هي من تحريضه، تظاهر حسن آغا بقبوله تسليم مدينة الجزائر لشارلكان بهدف تغطية خيانة حسن آغا واتفاقه مع شارلكان، ويقول فور بيكه (Forbige) مقدراً شجاعة حسن آغا (إذا لم نذكر الشجاعة التي أظهرها حسن آغا أثناء الحرب، على الرغم من الفرق الشاسع بين القوتين نكون قد ظلمناه).

(٢) يذكر تحفة الكبار أن وصول القوة الإسبانية إلى الجزائر، كان يوم ٢٨ جمادي الآخرة الموافق =

وكان الأسطول الإسباني يتألف من / ٥١٦/ سفينة شراعية و / ٦٥/ غالية كبيرة **تحمل /١٢٣٣٠/** بحاراً و / ٢٣٩٠٠/ جندياً، وهي تعتبر أكبر قوة عسكرية في القرن السادس عشر، وقد شارك فيها نبلاء إسبانيا وإيطاليا وألمانيا كجنود متطوعين، وكان لفرسان مالطة شرف الاشتراك في هذه الحملة، وعُهد إلى /١٤٠/ شخصاً من شجعانهم بقيادة / ٤٠٠/ عسكري مدربين تدريباً جيداً[١].

وبدا وكأن غالبية القادمين في الأسطول قادمين للحصول على مكافآت أعدت لهم، ومما يؤكد هذا وجود أعداد كبيرة من النساء الإسبانيات في هذه الحملة[٢]. وفي ٢٠ تشرين الأول الساعة السابعة صباحاً[٣]. أقام الأسطول عرضاً **عسكرياً** رسمياً لدى دخوله الميناء، وكان البحر سيئاً، وبعد الظهر ازدادت رداءته أكثر من قبل، فلجأ الأسطول إلى ميناء ماتيفو[٤]، واستمر الطقس على وضعه خلال يومي ٢١ و ٢٢ تشرين الأول، وفي الأيام الأخيرة أجري كشف على المعدات الموجودة في المنطقة الرملية، وقد لاحظ الإسبان أن سفينتين جزائريتين تحاولان الاقتراب من أسطولهم، فكلف **(فيكونت جيغالا) بملاحقتها**، وتمكن من إلقاء القبض على واحدة، في حين تمكنت الثانية من الفرار، وفي ٣ تشرين الأول بدأ العساكر بالنزول إلى البر على الساحل الشمالي لنهر الحراش، وخلال النزول لم يتعرض الجيش لأية مصاعب، وقد اضطر المدافعون الجزائريون للتراجع إلى الوراء بسبب

= للناسع عشر من نشرين الأول، وإن ما ذكره هامر خطأ فادح، لأن يوم الأربعاء يصادف ٢٠ تشرين الأول، وقد اتفق جميع المؤرخين على هذا التاريخ.

(١) تذكر تحفة الكبار أن تعداد الحملة هو: ١٠٠ قطعة بحرية وأربعة الآف حصان و ٥٠ ألف عسكري، وأما فوربيكه فيذكر أنها تتألف من / ٥٠٠/ سفينة شراعية، تنقل / ٢٣/ ألف عسكري.

(٢) دي غراممونت.

(٣) يذكر دي غرامونت أن جريدة **(Vondenesse)** تعرضت بالتفصيل لتحركات الأسطول يوماً بيوم وساعة بساعة، وإن ما ذكرته جاء مطابقاً تماماً لما جاء في السجلات المحلية، كذلك فإن جريدة الوقائع البحرية تعرضت إلى الحملة بشيء من التفصيل.

(٤) يذكر دي غرامونت وهامر: أن الجيش الإسباني نزل في رأس ماتيفو الذي يبعد عن مدينة الجزائر / ١٢/ ميلاً. وأنه امتد على الساحل بطول / ٢٠/ ميلاً وقد استغرق الجيش لقطعه مشياً على الأقدام مدة ثلاثة أيام.

القصف المدفعي المكثف الموجه عليهم، وفي الساعة التاسعة صباحاً نزل الأمبراطور شارلكان إلى البر أيضاً، وكان قد قسم الجيش إلى ثلاثة أقسام، **واتخذ مقر الجيش في منطقة يقال لها الآن (حديقة التجربة) في موقع حامه،** وهي لا تبعد عن مكان نزول الجيش أكثر من ألف خطوة فقط.

ومع حلول الظلام شن الجزائريون هجوماً على مقر قيادة الجيش الإسباني، وبنتيجة الهجوم الذي شنه حسن آغا مع ستمائة إنكشاري وألف فارس عربي **تشتت الجيش وفقد توازنه**، ثم انسحب إلى المدينة بعد أن ألحق بالإسبان خسائر فادحة مع قتل ثلاثمائة شخص منهم[1]، وظل جيش الأعداء حتى الصباح بدون نوم، وفي صباح ٢٤ تشرين الأول بدأ جيش شارلكان بالتقدم نحو المدينة على النحو التالي: الجنود الإسبان بقيادة فيرنان غونزاك (Fernan Gonzak) في المقدمة، بينما تولى الأمبراطور شارلكان مع أبناء النبلاء قيادة القوات الإلمانية في الوسط، أما المؤخرة فقد عهد إلى (كاميل كولونا (C. Colona) بقيادة القوات الإيطالية وفرسان مالطة. في حين عُهد إلى القادرغات حماية الجناح الأيمن للجيش من جهة البحر[2].

وحالما بدأت القوات الإسبانية تقدمها، واجهها الأهالي وأخذوا يشنون عليها هجمات خاطفة، لكنها تمكنت من التقدم حتى الساحل المجاور لكدية الصابون، على الرغم من الخسائر التي لحقت بها، وفي كدية الصابون أجبر على اتخاذ ترتيبات جديدة استعداداً لاحتلال المدينة، فكلفت المقدمة باحتلال القمة، فقامت فرقة بون وصقلية بقيادة كل من (دون الفارو دي ساند Don Alvaro de sand و (لوى برز دي فرغاس Lui Perez de veɪgas) بالهجوم على كدية الصابون منطلقة من وسط المروج، وتمكنت بعد شن هجوم مكثف من احتلالها، وعلى الفور أمر الأمبراطور بنقل مقر القيادة إلى كدية الصابون، وهناك شكل القيادة من جديد، ثم أمر بإنزال القطعات المقاتلة من كدية الصابون باتجاه الساحل بغية احتلال التلال الموازية لها، وقد تمكنت القوات من احتلالها بسهولة، في حين كلفت المؤخرة من الإيطاليين وفرسان مالطة باحتلال التلال الواقعة بين الساحل وقنطرة

---

(١) تحفة الكبار.

(٢) هامر. م

الفرون، كما أقاموا مقراً آخر للجيش في المسابح الخلفية، وهكذا توزع الأعداء بشكل كامل وجيد، وقد استخدم الأعداء الواديين العميقين كخنادق طبيعية لهم، مما مكّن كل شخص منهم النوم بأمان.

أما الأسطول فقد استمر بالتحرك مقابل مدينة الجزائر يرقب تحركات الأهالي، وقد أثارت قوة الجيش إرباكاً وبلبلة لدى الجزائريين، فالمدينة قوتها ضعيفة جداً، واقتصر اشتراك الأهالي في القتال على المهاجرين الأندلسيين ولم يكن عددهم يتجاوز أكثر من خمسة آلاف مقاتل، وحالما وصل الأمبراطور إلى مقر قيادته الجديد في كدية الصابون، وكلف أحد أعضاء المجلس الإسباني بالذهاب إلى حسن آغا يطلب منه تسليم المدينة، فغضب حسن آغا من طلب الأمبراطور ورد عليه رداً قاسياً[1].

وحتى هذه اللحظة كانت الأوضاع مساعدة جداً للإسبان، لأن المواقع التي احتلوها كانت استراتيجية، وتمكنهم من التحكم بالمدينة وسكانها، وغدت المدينة تحت رحمة نيران مدافعهم لكن الإسبان لم يحضروا كامل أرزاقهم من الأسطول، إما نتيجة لإهمالهم ذلك، أو لعدم تمكنهم من نقلها، ولم يكن معهم من الأرزاق ما يكفيهم لمدة ثلاثة أيام فقط، وفي ٢٤ تشرين الأول بدأ المطر بالهطول، وفي المساء ازداد المطر غزارة، وخاصة ما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة، ورافقه هبوب رياح شمالية غربية، ونظراً لشدتها، غدا الأسطول مهدداً بالغرق[2]. أما الجيش فوضعه كان أكثر سوءاً من وضع الأسطول، بحيث أصبح أفراده يتقون الريح والأمطار بالالتفاف بعضهم حول البعض بعدما هدمت الرياح خيامهم، أما الجزائريون منهم معتادون على ذلك.

رفع أندريا دوريا مرساة أسطوله، وانسحب إلى شرق رأس ما تيفو، وأثناء انسحابه تعرض بحارته إلى إرهاق شديد، نظراً لقلة النوم مع برد ومطر

---

(١) يذكر هامر أن حسن باشا نهرب من الجواب.

(٢) يتفق حجى قلفه مع دي غرامونت: بأن العاصفة هبت على أسطول شارلكان في اليوم الخامس من دخوله للجزائر. ويقول هامر أنه تقرر إخراج الأرزاق والمدفعيه في يومي ٢٣ و ٢٤ تشرين الأول ولكن العاصفة هبت خلال ذلك ومنعتهم من إحضارها (هامر كتاب رقم ٣٠ ص ٢٣٤).

وجوع ، فازدادت أوضاعهم سوءاً عن قبل ، واستهلكوا الأرزاق التي أخرجوها معهم خلال يومين . ومع شروق الشمس استفاد حسن آغا مع وكيله بشير من هبوب العاصفة المطرية وما رافقها من برد شديد وقاسي ، فانقضوا على رأس تافورال (الذي سُمي فيما بعد استحكام باب عزون) **مخترقين جبهة** القتال ، فصُعق الأعداء من هذا الهجوم المفاجيء[1] .

أما القوات الإيطالية المتمركزة في الفرون ، فقد تعرضت لهجوم غير منظم من قبل الأهالي ، وتمكنوا من تشتيتهم ونشروا الرعب في صفوفهم ، **وأعملوا** السيف فيهم قتلاً وفتكاً ، **بعد أن لاحظوا اليأس والقنوط الذي يواجهه** الأعداء . ولولا صمود فرسان مالطة ، لفُني الجيش الإيطالي فناءً تاماً .

ولدى تعرض القوات المتمركزة في قنطرة القرون لأول خلل ، أسرع فرسان مالطة بالسيطرة على الممر المؤدي إلى كدية الصابون ، وبعد عبورهم

---

(١) اختلفت أقوال المؤلفين حول نعداد القوات الجرائريه ، ويقول هاممر كان نعدادها ٦٠٠ خيال وعدة آلاف من العرب ، ويقول روبرتسود . إد نعدادها كان ٨٠٠ تركي و ٥٠٠٠ محلى ، أما دي غراممونت فيقول . إد عددها نجاوز عن ٨٠٠ نركى و ٥٠٠٠ محلي وفي الحقيقه فإن هذه الأرقام غير صحيحه لأنه :

أولاً : من غير المحتمل ألا يصم المركز سوى ٦٠٠ ـ ٨٠٠ جندي ، وهي قوه قليله جداً بالنسبة لمدينة الجزائر وذلك لأن نصف الإنكشارية كان باستمرار موجوداً في المركز وعلى الأقل فإنه ٢٠٠٠ إنكشارى .

ثانياً: الهجوم الذى شنه حسن آغا كما تذكر تحفة الكبار استخدم خلاله ٦٠٠ إنكشاري ومن المستحيل أن يشترك بكل قواته ، فإذا كانت مفرزة تعدادها ٦٠٠ إنكشارى فمن المؤكد أن لديه قوة لا تنقص عن ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ جندى إنكشارى .

ثالثاً: يقول هاممر فى كتابه رقم ٣٠: إن السلطان عندما كان فى فيليبه ، أمر خير الدين برباروس بتجهيز / ٨٠/ سفينة للتصدى للأسطول الإسبانى ، وأمره بالإسراع لمساعدة الجزائريين ، ويذكر أن السلطان سليمان تحرك من إستانبول فى ٢٣ حزيران متجهاً إلى المجد ، وأنه بلغ فيليبه بعد ٢١ يوماً ويتضح لنا أن برباروس اتجه لمساعدة الجزائريين فى الرابع عشر من تموز وبما أن حسن آغا على علم بالاستعداد الإسبانى قبل قدوم الحملة إلى الجزائر بزمن ، فمن المؤكد أن حسن آغا أعلم خير الدين بربار وس بذلك ، وإذا كان حسن آغا لا يعلم بتلك الاستعدادات فمن المحقق أن خير الدين أعلمه بقدومه إلى الجزائر بغية إعلامه والوقوف إلى جانبه ، وبما أن حسن آغا مدبر فمن غير المعقول ألا يطلب جمع بعض الإنكشاريين من المواقع الأخرى التابعة له على الأقل ، ولن يعقل أن يواجه حسن آغا جيش شارلكان بـ ٨٠٠ إنكشارى .

الجسر، تمكنوا من أيقاف المهاجمين بصعوبة بالغة، وبغية كسب الوقت قام كاميل كولونا والأمير دي سالمون (Prens de Salmon) بجمع الهاربين من قواتهم، وأخذا يحثان جنودهما على الصمود والقتال، فأجبرت قوات حجي بشير للتراجع حتى الأسوار، وخلال ذلك وما يتمتع به فرسان مالطة من مهارة حربية تمكنوا من غرس علمهم في باب عزون. استغل شارلكان الفوضى القائمة وانشغال قوات حجي بشير بالقتال ومقارعة فرسان مالطة، فهاجم الجناح الأيمن للجزائريين[1].

كان الجميع يقدرون شجاعة فرسان مالطة ويحسبون لها حساباً، لكن نصف قواتهم قد فنيت وقُضي عليها، إضافة إلى أنهم لم يتمكنوا من استخدام سوى البنادق، ونتيجة لغزارة المطر المتساقط عليهم تبللت حشوة بنادقهم وتوقفت عن الإنفجار، فاستغل الجزائريون ذلك وانهالوا عليهم بسيوفهم ونبالهم فتكاً وقتلاً إلى أن قضوا على من بقي أمامهم من فرسان مالطة.

أما المدرعون الإسبان فقد غرقوا في الطين، وأصبحوا يزحفون على أيديهم وأرجلهم، ورغم هذا فقد ازداد سقوط المطر وهبوب العاصفة ضعفين عما كانا عليه سابقاً، كما أن السفن وخاصة سفن النقل غدت تصطدم بعضها ببعض بسبب قوة الريح، فبدأت بالسقوط على الساحل الواحدة تلو الأخرى، وخلال ساعات قلائل قُضي على مئة وأربعين سفينة، في حين كانت أضرار السفن الكبرى بفضل إداراتها الجيدة وثقلها أقل ضرراً، وقد عمل قباطنتها على السير بها عكس هبوب العاصفة محاولين إنقاذها ومنعها من الاصطدام بالساحل.

استمرت هذه المناورة أربعاً وعشرين ساعة، ومن بعدها تمكن الجنود والبحارة من النزول إلى البر والتعب والإرهاق زلزل قواهم، ولكنهم تعرضوا لهجمات الأهالي القادمين من الأطراف المجاورة للسلب والنهب، فقتلوا معظمهم. وقد غرق للإسبان خلال ذلك ست عشرة سفينة كبيرة من نوع غالية

(١) يقول هامر: قام الإيطاليون بهجوم معاكس وتمكنوا من الاقتراب من مدفعية مدينة الجزائر، ونصبوا سلاليمهم تحت أفواهها محاولين اقتحام السور، كما كلف شارلكان القوة التي أنقذها بمساعدتهم، لكنهم فشلوا في اقتحامه بسبب متانته، وصمود حراسه.

(قاليوطة)[1] . وقد ساهم في زيادة تلك الفاجعة المجدفون المسلمون الذين كانوا يعملون في تلك السفن ، لأن المجدفين المسلمين سعوا إلى إغراقها أو ضربها بالساحل بغية التخلص من الأسر، وفي الحقيقة فقد تمكن ألف وأربعمائة أسير مسلم من النجاة[2] .

أما طواقم السفن الذين نزلوا إلى البحر، فَلَو أن الأمبراطور أرسل عدة فرق عسكرية لإنقاذهم من سيوف المهاجمين ، لما بدّل من النتيجة شيئاً ، فالأضرار والخسائر التي لحقت بالأسطول كانت كبيرة جداً ، لأن أرزاقهم ومعداتهم تلفت ، وغُطى الساحل من دلس حتى شرشال بجثث الجنود وقطع السفن المحطمة ، وأن الغنائم التي حصل عليها الجزائريون أصبحت مضرباً للأمثال ، ومقياساً للغنائم التي أصبحوا يحصلون عليها فيما بعد ، كما أن المدفعية الموجودة في البر قدمت الحماية التامة لأسطول أندريا ولولاها لفقد الكثير من سفنه . وقد شاهد فرناند دي كورتيز بأم عينيه سفينته بذهب المكسيك والتحف الثمينة يبتلعها البحر مع بقية السفن المحطمة الأخرى[3] .

لقد شوهد شارلكان ولأول مرة في تاريخه يبكي على الخسائر التي خلت بجيشه وأسطوله[4] . إزاء ما تعرض إليه الأعداء من خسائر، انسحبت المفرزة التي يقودها حسن آغا وحجي بشير. وبعد أن تنفس شارلكان الصعداء جمع جنوده ، لكن العاصفة لا تزال مستمرة ولم يبق لدى جنوده أي طعام. وعلى الرغم من أن الطعام الذي أحضره الأسطول منح العساكر بعض الأمل ، لكن القوات الإسبانية فقدت الأمل وتحطمت معنوياتها بسبب الخسائر الفادحة التي تعرضت لها سابقاً ، وكان الأهالي في المناطق المجاورة له ينتظرون انسحابه ، بقصد مهاجمته وسلب ما تبقى لديه .

وكما فُهم من ذلك فإن شارلكان لم يتخذ أية تدابير احتياطية ، ولو أنه أقام مقراً رئيسياً لقيادة جيشه ، ونصب الخيام اللازمة وأحضر إليها الأرزاق

(١) هاممر: يذكر في كتابه أنه غرق للإسباد أربع عشرة سفينة فقط.
(٢) هاممر: يذكر أن ثمانمائة أسير مسلم نجوا من الأسر أثناء ذلك .
(٣) فرناند دي كورتيز فاتح المكسيك اشترك بهذه الحرب ويقول هاممر أنه تمكن من النجاة بصعوبة بالغة على الرغم من أن العرب قاموا بمحاولتين للإيقاع به .
(٤) ألكسندر دي لابوردة.

والمعدات، وترك جيشه يستريح أثناء هبوب العاصفة، لما تمكنت العاصفة من القضاء على جيشه.

وفي ٢٥ تشرين الأول، وصل إلى شارلكان خطاب من أندريا دوريا يحمله أحد سباحيه الماهرين، يعلمه فيه أن الأرزاق قد تلفت، وأن الأسطول لا يستطيع البقاء في البحر أكثر من ذلك، فإن رغب بالمحافظة على الجيش وضمان سلامته، فمن الضروري ترك الأماكن التي احتلها والتوجه إلى رأس ماتيڤو.

قرر شارلكان العودة، وبما أن العاصفة ظلت مستمرة حتى صباح ٢٦ تشرين الأول، ولهذا أمر القوات بالتوقف للاستراحة بعد الإنهاك والتعب الشديدين التي عانته خلال الأيام الماضية، وبقيَ على شارلكان مهمة تأمين الطعام لها، فأمر بذبح الخيول الموجودة لديه، ولتشجيع المتطوعين قام بذبح حصانه أولاً.

بدأ الجيش بالانسحاب محاذياً لساحل البحر، وما أن قطع مسافة حتى أدركه الليل، لكن قيادة الجيش تمكنت من العبور إلى ما وراء وادي كنيس Knis وبلغوا ضفة نهر الحراش في يوم الخميس الواقع في ٢٧ تشرين الثاني، إلا أنهم وجدوا النهر فائضاً، وتخوفوا من عبور النهر ليلاً، فاستراحوا حتى صباح يوم الجمعة فاستجمعوا قواهم، ونصبوا فوقه جسراً من قطع السفن المتناثرة على الساحل، أما الخيالة فقد عثروا على ممر فوق الجسر عبروا منه، في حين عبر الأمبراطور بالقرب من مصب النهر فوق الرمال، وبغية جمع القوات اضطر للبقاء هذا اليوم في ساقية خميس وبات مع قواته فيها.

وفي يوم السبت الواقع في ٢٩ تشرين الأول، تمكنوا من عبور الساقية الفائضة بالمياه، ووصلوا إلى رأس ماتيفو في مساء ذلك اليوم، حيث كانت بقية قطع الأسطول ملتجئة هناك[1].

لقد تعرضت قوات شارلكان خلال مسارها الذي استغرق أربعة أيام إلى هجمات الأهالي من كل طرف، فقُتل كل من تخلّف عن الجيش، ونتيجة للهجوم الذي تعرضت له المؤخرة، اضطر الجنود للغطس في الماء هرباً من

---

(١) دي غراممونت.

هجماتهم، وسبب جهلهم بالسباحة وغزارة المياه غرق قسم منهم في تلك السواقي[1].

وكان شارلكان قد أمر أثناء مسير الجيش بوضع الجرحى والمرضى في الوسط، وكلف الجنود الإيطاليين بالسير على اليمين، في حين ترأس الأمبراطور فرسان مالطة للإشراف على المؤخرة. وخلال التراجع، أحاطت بهم القبائل المجاورة بغرض السلب، والنهب، ولكنهم تمكنوا من ردهم، فضمنوا بذلك المحافظة على العديد من الجنود المبعثرين في المؤخرة، ورغم ذلك فقد قُتل عدد لا بأس به.

سئم جنود شارلكان من الوضع الذي هم فيه، ففي النهار جوع وتعب، وفي الليل برد وخوف وبدون نوم ووسط الطين، وهم مجبرون على البقاء في أماكنهم. لأنه لم يعد لديهم قدرة أو طاقة على المسير[2]. فألقت العساكر المنهكة أسلحتها حتى في الطريق، وكانت مؤخرتهم غنيمة رابحة وموضع انتقام وصيداً ثميناً وسهلاً على الأهالي المجاورين والجزائريين المؤمنين بفكرة الجهاد. ومن نجا منهم كان مديناً بحياته لحامية المؤخرة.

ولدى وصول ما تبقى من جيش الأعداء إلى رأس ماتيفو، أقيم مقر لقيادة الجيش في خرابة راسكينة القديمة (Rasguina)، وجمع شارلكان القادة للبحث في أمر الهجوم من جديد أو تأجيل الإصرار على الهجوم لوقت آخر، وكانت غالبيتهم تؤيد فكرة التأجيل مستندين على قرائن ودلائل ثابتة، والبعض منهم كان نتيجة لقناعة شخصية بما هو واقع، ومنهم من أيَّد ذلك لأن الأمبراطور صاحب الفكرة، في حين رفض فكرة التأجيل شخصان هما: فرناند كورتيز ووالي وهران الكونت دالكودت، فالكونت د الكودت منذ شبابه يعيش في إفريقيا، وهو شجاع ومحارب قوي، وكان رأيه شن الهجوم من جديد، وطلب من الأمبراطور أن يعهد له قيادة الجيش وقد أيده بذلك فرناند دي كورتيز[3].

---

(١) تحفة الكبار.

(٢) دي عراممونت.

(٣) مارمول: الكتاب الخامس ص ٢٢٠، سان دوفال ج ٢ ص ٣٠٦.

اختار فرناند دي كورتيز مجموعة من أشجع وأقوى الجنود، بعد أن حصل على موافقة القيادة، وتعهد أمام الجميع باحتلال الجزائر، إذا زُود بالمهمات والمعدات اللازمة، وإثر ذلك غدا كل قائد يجمع حفنة من العساكر ويتباهى أمام الأمبراطور باحتلال الجزائر أما أندريا دوريا وأنصاره. فقد صرحوا برأيهم علانية، وأصرّوا عليه، لأنهم أكثر خبرة ومعرفة بأمور البحر، وأكدوا أن هبوب العاصفة سيستمر مدة من الزمن، وقد اقتنع الأمبراطور برأيهم وأعطى قراره بالانسحاب والعودة(١).

وفي الأول من تشرين الثاني باشر الجنود بالصعود إلى السفن، وكان أندريا دوريا قد بدأ بإصلاح السفن منذ مجيئه إلى رأس ماتيڤو(٢).

قرر المجلس الحربي بعد صعود جميع العساكر إلى السفن التحرك بشكل جماعي، لكن البحر عاد إلى الهيجان ثانية مع مساء ذلك اليوم بعد أن كان هادئاً قليلاً خلال النهار، إزاء ذلك اضطر المجلس الحربي، إلى إصدار قرار يخول قادة السفن حرية التحرك كيفياً لكل سفينة انتهت من التحميل. وكلفت **القاليوطات بحسب** سفن النقل الإضافية، لكن العاصفة اشتدت عما كانت عليه وهاج البحر كثيراً، وخاصة عندما كانت السفن تدور حول رأس ماتيڤو، فاصطدمت بالصخور فغرق قسم منها، بينما سقط من فيها أسرى بيد الأهالي.

أما شارلكان فقد ركب سفينته في ١ تشرين الثاني(*)، وحالما وضع

---

(١) غومارا ص ١٠٥.

(٢) هامر.

(*) ولد شارلكان عام ١٥٠٠م وقد توج ملكاً على إسبانيا وفى سنة ١٥٢٠م توج إمبراطوراً على إلمانيا كوريت شرعي للأسرة الهابسبورغية بعد وفاة جده مكسميليان، وكان والده قد توفي فى ٢٣ كانون الثاني سنة ١٥١٥م وترك له حكومات أمريكا وقشتالة وأراغون، ونافارا، ونابولي وصقلية ومملكة هولندا، وغدت فرنسا محاصرة بين أملاكه الواسعة، إزاء ذلك نشبت الحرب بينه وبين فرانسوا الأول وأسفرت الحرب عند سقوط فرانسوا الأول أسيراً بيد الإسبان سنة ١٥٢٦م وبعد نجاته من الأسر عاد ثانية إلى إعلان الحرب واستمر الحرب حتى سنة ١٥٤٧م ثم تجددت ثانية في عهد هنري الثاني ابن فرانسوا الأول وانتهت بصلح عقد سنة ١٥٥٢م. وقد اعتبرت فرنسا الهزيمة التي حلت بشارلكان سنة ١٥٤١م من قبل الجزائريين نصراً سياسياً لها والتى نتج عنها إلقاء شارلكان لتاجه في البحر وإرسال جبته للبابا والانزواء في معبد الرهبان =

رجله في السفينة سقط التاج من على رأسه، فالتقطه، وبما أنه لم يعد لائقاً لمثله حمله، انتزعه عن رأسه ورماه في البحر[1]. وعقب هذه الهزيمة ترك تاجه وعرشه وتستر في معابد الرهبان متأثراً بما حل به[2].

ظل شارلكان منتظراً بسفينته حتى تحركت جميع سفنه، ولم تقلع سفينته حتى الثالث من تشرين الثاني، وبما أن العاصفة ازدادت عما قبل، اضطر الأسطول للالتجاء إلى ميناء بجاية، لكن البحارة لم يحصلوا على الراحة هنا أيضاً[3]. وغدوا عرضة للخطر، فقد عجزوا عن تأمين احتياجاتهم الغذائية، وتوقعوا نهايتهم غرقاً، إضافة إلى ما يعانونه من البرد والتعب.

إزاء ذلك لجأ الإسبان إلى أمير بجاية، ملتمسين منه تأمين الأرزاق لهم، وكان أمير بجاية وسلطان كوكو قد تعهدا للإسبان بمساعدتهم والانضمام إليهم حالما يصلون الجزائر، لكنهما ظلا في قمة الجبل إثر الخسارة التي تعرض لها الإسبان، واكتفى أمير بجاية بأرسال كمية من الأرزاق إليهم مقابل دفع قيمتها ذهباً[4].

ظل الأسطول الإسباني في بجاية حتى ١٦ تشرين الثاني، وفي نفس اليوم تحرك متوجهاً إلى صقلية ومالطة، وفي ١٧ تشرين الثاني تحرك الأمبراطور مع من تبقى من جيشه، لكنه عاد مرتين إلى ميناء بجاية بسبب هياج البحر وهبوب العواصف، ولم يستطع التحرك حتى مساء ٢٣ تشرين الثاني، ولم يصل إلى جزيرة ميورقة حتى ٢٦ تشرين الثاني، ودخل قرطاجة في ١ كانون الأول.

حقيقة الأمر، لقد استطاع شارلكان النجاة من خطر كبير، كان يهدده، ولم يدرك هذا إلا بعد عدة شهور. فالسلطان سليمان القانوني كان قد أمر خير

= في أستراما دوره. وظل فيها إلى أن توفي سنة ١٥٥٨م بعد أن ترك لابنه حكم إسبانيا وأمريكا وصقلية وأيطاليا وهولندا وتنازل لأخيه عن ألمانيا.

(١) ألكسندر دي لا بورده.

(٢) تحفة الكبار.

(٣) المذكرات الفرنسية في الشرق ج ٢ ص ٥٢٢.

(٤) يذكر فور بيكه وغرامونت: أن أحمد بن القاضي قتل من قبل جنوده سنة ١٥٢٥ م وأحمد هذا أحد خلفائه، ولكنه تسمى بنفس الإسم وإن تحفة الكبار تؤيد ما ذهبا إليه.

الدين باشا بالتحرك من فيليبه إلى الجزائر لمساعدتها ضد الهجوم المتوقع عليها من الإسبان. فالأسطول العثماني ازداد أضعاف عما كان عليه سابقاً بفضل الجهود التي بذلها خير الدين باشا وأصبح يمتلك ١٠٠ قادرغة علاوة على السفن الأخرى، ولهذا فقد وجه خير الدين باشا خمسين قادرغة إلى السواحل الإسبانية، أما الخمسون الأخرى فقد كلفها بالتوجه إلى صقلية، لأنه كان يفكر في ضرب قطع الأسطول الإسباني أثناء تسليحها وتجهيزها في موانئها، لكنه لم يتمكن من الخروج حتى أوائل تشرين الأول[١].

وكان خير الدين قد التجأ إلى مكان أمين متقياً العاصفة التي قضت على الأسطول الإسباني، وحالما بلغ السواحل الإفريقية، علم بأن الأسطول الإسباني عاد منسحباً إلى بلاده، فرجع خير الدين باشا إلى إستانبول في منتصف كانون الأول[٢].

ولو لم يتأخر خير الدين باشا في تحركه، وتواجهه العاصفة لتمكن من الوصول في الوقت المحدد، ولتمكن من القضاء على أسطول العدو، وغدت حياة الأمبراطور مهددة بالخطر.

أصيبت أوربا والعالم المسيحي بخيبة أمل نتيجة لدمار الجيش والأسطول الإسباني، وتكونت لديهم قناعة بأن الجزائر مدينة لا تقهر، كما أن معنويات المسلمين ازدادت إلى حد درجة الغرور، والجزائريون حصلوا على غنائم لا حصر لها.

بعد مغادرة الأسطول الإسباني لمياه الجزائر وهدوء العاصفة بدأ الجزائريون بإخراج السفن الغارقة، فعثروا على مائة وخمسين مدفعاً من البرونز، كما حصلوا على معدات وأسلحة قيمة، أكملوا بها تحصين مدينتهم وتسليحها، أما الأسرى فقد كانت أعدادهم كبيرة جداً، واستناداً إلى بعض الروايات فقد بُيع الأسير ببصلة. كذلك فقد ازداد نفوذ أوجاق الجزائر، واعتباراً من هذا التاريخ غدا أوجاق الجزائر كابوساً على الأوربيين، وتزايدت أعمال القرصنة بشكل أوقع العالم المسيحي بإرباك شديد، وحصل

---

(١) هامر الكتاب رقم ٣٠ ص ٢٣٣.

(٢) فور بيكه Forbige.

حسن آغا على لقب باشا مكافأة له[1].

وفي نيسان سنة ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢ توجه حسن باشا على رأس قوة مؤلفة من ستة الآف جندي لمعاقبة سلطان كوكو لاتفاقه مع الأعداء، فخاف سلطان كوكو، وبدأ بالاسترحام وطلب العفو وأرسل ولده رهينة لحسن باشا، فعفا عنه شريطة دفع ضريبة معينة، ثم توجه حسن باشا باتجاه الجنوب إلى مناطق ذاب، وتمكن بسهولة من إخضاع تلك المناطق وألزمهم بالطاعة ومن ثم توجه نحو الغرب.

شعر الإسبان الموجودون في وهران بخيبة أمل كبيرة نتيجة للخسارة التي لحقت بهم في الجزائر.

كان خير الدين باشا قد عين في سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م أبا محمد عبدالله السرحاني حاكماً على تلمسان وترك لديه مائة وخمسين إنكشارياً، وعندما هزم خير الدين باشا في تونس أمام شارلكان، أعلن أبو محمد عبدالله طاعته للإسبان وأرسل لهم الضريبة[2].

قبل الإسبان طاعته والضرائب التي أرسلها، لكنهم لم يعقدوا معه أي اتفاق، فبقي وحيداً بدون سند وعرضة لنقمة الطرفين إلى أن توفي سنة ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م.

اختلف أبو محمد عبدالله وأبو زيان ولدا أبي محمد عبدالله على حكم تلمسان، وبعد انتهاء حسن باشا من تأديب قبائل زاب اتجه نحو الغرب، وذهب إلى تلمسان ولم يكن لدى سكانها أي فكرة بمقاومته أو التصدي له، ولهذا دخل المدينة دون أي مقاومة وعين أبا زيان أحمد أميراً على تلمسان.

أعطى أبو زيان أحمد وعداً بعدم السماح للإسبان بدخول تلمسان وتعهد بعدم تقديم الأرزاق والضرائب لهم، وأنه مستعد لإقامة صداقة دائمة مع الأتراك، وأنه سيقدم لهم الخدمات اللازمة، فعاد حسن باشا بعد أن ترك في قلعة المشور أربعمائة حارس من الإنكشاريين، وأثناء قدومه أخذ فكرة

---

(١) دي غرامموت.

(٢) دي غرامونت.

جيدة عن مدينة وهران التي تهدد مستغانم والمتواجد فيها حراس من الإنكشاريين.

في سنة ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م فر أبو عبدالله محمد إلى وهران لأن حياته أصبحت مهددة بالخطر، والتجأ إلى الإسبان طالباً مساعدتهم، وفراره جاء دعماً وحجة لوالي وهران الكونت د الكودت، لأن القبائل الخاضعة له قل عددها، وغدا أبو عبدالله محمد ورقة مقامرة بيد الكونت.

لم يبق أحد من القبائل خاضعاً لوالي وهران سوى قبيلة بني عامر، وبذلك أصبح الإسبان محصورين في الساحل، وبلجوءأبي عبدالله محمد تمكن الإسبان من توسيع دائرة نفوذهم، وبعد مراجعة الكونت لحكومته عدة مرات، أرسلت له في ٢٧ كانون الأول ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م قوات قوامها ١٢,٠٠٠ جندي مسلح، فخرج الجيش من وهران يرافقه أبو عبدالله المدعي بالسلطة.

وكانت قبائل تسالة وبنو موسى بن عبدالله من أنصار أبي عبدالله، وعندما كانوا في الطريق لمحاصرة تلمسان كلفوا أبا زيان أحمد[1]بترك الإمارة مقابل أربعة آلاف دوقة ولكنه رفض ذلك. فتابعوا طريقهم باتجاهه، وفي الثاني من شهر شباط بلغوا نهر إيسر / Isser / لكنهم وجدوه فائضاً، كما أن السواقي التي تجاوره كانت هي الأخرى مليئة بالحياة بسبب هطول الأمطار بغزارة كبيرة.

وكان قائد بني راشد ومنصور بوغانة ومعهما (٢٠) ألف مقاتل قد كمنوا للعدو بالقرب من ممر النهر،وفي الثالث من شباط الساعة العاشرة نشب بين الطرفين قتال مرير، وعندما تمكن الإسبان من عبور النهر أقاموا مركزاً لقيادتهم في استحكام تيبدة القديم.

وفي الخامس من شباط التقى الإسبان بجيش مولاي أحمد، وبدأ مولاي أحمد بجيشه المكون من (٨٠٠٠) مقاتل محلي و (٤٠٠) إنكشاري يناوشهم، واستمر القتال بين الطرفين حتى المساء، فاضطر مولاي أحمد مع جنوده ومقاتليه للانسحاب إلى القلعة. في حين اتخذ الإسبان مواقعهم بين

(١) دي غراممونت: يذكر غراممونت أن إسم الشخص مولاي محمد، ولكنه فور بيكه وتاريخ الدولة الإسلامية يؤكد أن إسمه أبو زيان أحمد.

أشجار الزيتون المحيطة بالمدينة ، فقدم رؤساء المدينة وأعيانهم لمبايعة أبي عبدالله . وفي اليوم الثاني فتحوا له أبواب المدينة ، فعمد الإسبان إلى نهب تلمسان نهباً وسلباً[1] . وبعد ذلك قام الكونت بشن هجوم على القبائل المجاورة بغية اخضاعها له ، واستمر هجومه عشرين يوماً ، وفي ٢٦ شباط أخذ من الأمير الجديد يمين الولاء والطاعة ، وفي ١ آذار سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م تحرك الكونت عائداً إلى وهران .

وقبل عودة الكونت بعدة أيام كان الجواسيس يقومون بنقل الأخبار السيئة للإسبان ، وأعلموهم بأن أعداءهم منتشرون في كل مكان ، وأنهم مسيطرون على معظم المناطق ، وأخبروا الكونت أن مولاي أحمد يملك جيشاً ضخماً ، وأنه سيقطع الطريق عليه ، إزاء ذلك عمل الكونت على إعداد جيش ضخم ، وأخذ الحراس الموجودين في القلعة ، وكان عددهم حوالي ألف ومئتي حارس ، وخرج بجميع قواته من تلمسان ، واصطحب جميع الغنائم التي سلبها من المناطق ، إضافة إلى عدد كبير من الأسرى والمدافع التي كان مارتينز قد خسرها سنة ١٥٣٥م ، وامتد خط مسيره مسافة طويلة ، فمقدمة جيشه كانت في وادي الصفصاف ومؤخرته على وشك الخروج من أبواب تلمسان ، وفي هذه الأثناء تعرض خط مساره لهجوم من جميع الأطراف . وخاصة المقدمة والأقسام التي لديها أحمالٌ ثقيلة ، وخلال ساعات من بدء الهجوم أصيب جيشه بالخلل والاضطراب ، وتمكن الأسرى من الهرب وخاصة الذين كلفوا بالأعمال وبدأوا بالفرار يميناً وشمالاً ، والتحقوا بصفوف المهاجمين ، فأسرع الكونت بحصانه حتى بلغ الجسر ، وأخذ يحث جنوده ويشجعهم على الصمود والقتال ، وقد تمكن من إعادة النظام والهدوء فيهم ، وبصعوبة بالغة عبروا الجسر وتسلقوا مرتفعاً عامودياً ، وتم خلاله تدافع وتضارب عنيف ، وقضوا ليلهم قلقين خائفين ، وفي اليوم الثاني تعرضوا لقتال أشد من سابقيه ، أما في اليوم الثالث توقف الطرفان عن القتال بغية الاستراحة . أما في اليوم الرابع فقد اشتد القتال أكثر مما سبق وتسابق الطرفان لعبور نهر إيّسر ، وبعد قتال مرير تمكنوا من العبور . وتقدموا حتى ريوده سلادو

---

(١) فور بيكه Forbige .

تحت مضايقة الأهالي ومهاجمتهم لهم، ووصل الإسبان إلى قلعة وهران في الثامن من آذار منقذين أرواحهم من موت محتم[1].

لكن الأحداث التي واجهها الكونت د الكودت لم تكن كافية لتلقينه درساً قاسياً لأنه مازال مهووساً باحتلال مستغانم، وكان يتوقع بما لديه من قوات أن يحقق نصراً مؤزراً. ففي ٢١ آذار خرج من وهران متجهاً إلى مستغانم يريد احتلالها قبل وصول الامدادات إليها في الجزائر، وكان عدد من الأتراك يقيمون فيها، وقد احتل الكونت مزغان(*)، وبقي فيها ثلاثة أيام، وقبل متابعة طريقه إلى مستغانم علم أن ١٥٠٠ جندي تركي و ٣٠ مدفعاً يقيمون في قلعتها. وأن هجومها عليها من الأمور المستحيلة عليه بهذه القوة التي يملكها، لذلك فضل العودة. إلا أنه لم يدرك أن التراجع أمام الأتراك ليس بالأمر السهل، وما أن أدار ظهره باتجاه وهران، حتى التف حول قواته بضعة آلاف من الأهالي وبدأوا بمهاجمتها، وقد قرر الخيالة المحليون الذين كانوا يشاركون الإسبان على مستغانم. ولكي يكون الهروب سهلاً ويتجنب الهاربون الخسائر، فإن هذا يتطلب اتخاذ تدابير احتياطية جيدة وخطة منظمة، ولكن الكونت لم يحسب أي حساب لذلك، وبنفس الوقت كان يعلم قوة الأتراك. فالإسبان الذين عادوا من مزغان إلى وهران شهدوا في كل خطوة من خطواتهم قتالاً مريراً وتكبدوا خسائر فادحة بالأنفس والعتاد، على الرغم من البسالة والشجاعة التي أبدوها، ولم يصلوا وهران إلا في الأول من شهر نيسان. وكان أهالي تلمسان كارهين لأبي عبدالله محمد الذي عينه الإسبان، فهم ينفرون من رؤيته لأنه كان عميلاً أميناً للإسبان ويدفع الجزية لهم.

استفاد مولاي أحمد من هذا الوضع، فاتجه إلى تلمسان مدعوماً بحب الجميع له، فقد كان قوياً شهماً، وما أن بلغ أبواب المدينة حتى خرج الجميع لاستقباله وعينوه حاكماً عليهم. وما أن علم أبو عبدالله بما فعله أهالي تلمسان، حتى أمر أتباعه بإغلاق أبواب المدينة، فتصدى لهم الأهالي

---

(١) دي غرامونت.

(*) وردت في بعض المصادر العربية والأجنبية (مزغران).

وطردوهم خارج المدينة ، فاستغل أبو عبدالله الليل وتسلـل سـراً من المدينة ، والتجأ ثانية إلى الإسبان . وفي هذه الأثنـاء طلبـت الحكومـة الإسبـانية من الكونت إعادة القوات المؤقتة التي أرسلتها إلى وهران سابقاً . وعلى الرغم من ذلك فقد حاول الكونت القيام بمحاولة أخيرة يائسة ، فاتجه إلى مسكرة ، ولكنه فشل في هذه المحاولة أيضاً . وقفل راجعاً من حيث أتى ، وفي طريق عودته تعرض لهجوم مفاجىء ، ووقع أبو عبدالله محمد بأيدي أعدائه فقتلوه .

وفي سنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م أقلع الكونت نهائياً عن فكرة الهجوم بعدما بذل كافة الجهود بهدف تحقيق نصر ما ، يشفع له عند الأمبراطور ، وأعاد ما تبقى لديه من حملة السيوف إلى إسبانيا .

وفي ربيع ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م قام حجي بشير وكيل حسن باشا بشن هجوم ضخم على المتمردين بجوار مليانة ، وهناك تجمع الأهالي حول قائد يدعى بو ترك Bu Terek ولكن بو ترك تمكن من الانتصار على الحراس الأتراك في مليانة ، وتابع طريقه إلـى متيجـة[1] ونهبهـا ، ومـن ثم اتجـه إلـى مدينـة الجزائـر لمحاصرتها .

لم تستطع القوة الصغيرة المتجهة إليه من إيقافه والتغلب عليه ، في حين هاجم حجي بشير العصاة في منطقة (صوماطة) بقوة قدرهـا خمسمائـة خيال وأربعمائة جندي مسلح بالبنـادق ، وألحق بهم هزيمة نكراء . أما قبيلة القائد بو ترك فقد فرت هاربة باتجاه الغرب ، وعاد حجي بشير إلى الجزائر، ولدى عودته عَلِمَ بأن حسن باشا بن خير الدين باشا قد عين أمير أمراء الجزائر خلفاً للخادم حسن باشا الذي توفي يوم الأربعاء العاشر من رمضان لسنـة ٩٥٢هـ الموافق الثامن عشر من تشرين الأول لسنة ١٥٤٥م[2] .

---

(١) متيجة : وهي تقع في سهل واسع ومنبسط يبدأ من وادى بودان الوافع شرقي الجزائر والمتجه نحو الغرب . وهى تقع ما بين البحر والجبال ، يبلغ طول هذا السهل ٢٠ فرسخاً وعرضـه ٤ فراسخ . يخرق هذا السهل نهر وادي جبير ونهر الحراش ونهر خميسة .

(٢) يدّعي دي غراممونت : بأن الخادم حسن باشا عُزل من إمارة الجزائر مستنـداً علـى ما ذكره مارمولة (Marmolc) وفوق هذا يتهمه بالخيانة أثناء مهاجمة شارلكان للجزائر سنة ١٥٤١م كما أنه اختلف مع حجي بشير فعزله وعين شخص إسمه اليهودى محمد تم عزله وعين مكانه والى تاجورة ، ولكننى لم أتمكن من العثور ما يثبت صحة ما ذكره غراممونـت ، وقـد تأكد لى أن الخادم حسن باشا قدم خدمات جلى وأثبت إخلاصه للدولة العثمانية بكل صدق وأمانة .



- ٣ -
إمرة الأمراء

ولاية حسن باشا ابن خير الدين باشا ـ هجوم الكونت دالكودت وهزيمته ـ وفاة والد حسن باشا ـ بنو مرين والأشراف السعوديون ـ هجوم الفاسيين على تلمسان ـ حروب ريودو سالادو ـ فشله ـ إمارة حسن باشا في الجزائر ـ عودته إلى إستانبول ـ القائد صفا.

قدم حسن باشا إلى الجزائر في عشرين حزيران سنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م وبرفقته إثنتا عشرة غاليوطة (غالية) مع عدد من الجنود المشاة، وتمكن من إستلام منصبه بكل سهولة وأول عمل قام به الباشا في الجزائر تنظيم الجيش وتطبيق الانضباط فيه، وبعد ذلك قضي على تمرد القبائل القاطنة في جنوب مليانة والمناطق الغربية من مدينة الجزائر.

عندما كان حسن باشا منشغلاً بتنظيم ولايته وتأمين الاستقرار فيها، كان الكونت د الكودت يلح على حكومته تزويده بالجنود، ونتيجة لإلحاحه الشديد

= أما غراممونت وفور بيكه فيقولان: بعد عزل حسن باشا الخادم عين حجي بشير ومن بعدها عين ابن خير الدين باشا حسن باشا. وفي الحقيقة إن خير الدين أسند هذه الوكالة إلى خادمه حسن باشا ليقينه ولمعرفته بقدرته على إدارة الجزائر إدارة حسنة، وأن حسن آغا لم يفكر يوماً بأن يصبح باشا أو بك وهذا شيء مؤكد وملموس من خلال الصفات الحميدة المدونة على قبره والكائن بمدينة الجزائر. وقد كتبت العبارة التالية: هذا قبر خليفة المؤمنين بكرم الله أبو محمد حسن آغا مملوك مولانا خير الدين أيده الله ونصره. توفى ليلة الأربعاء العاشر من شهر رمضان ٩٥٢هـ.

وحاجته الضرورية زود بـ ٣ ـ ٤ آلاف جندي ، بعدما اقتنع المجلس الملكي بقلة جنوده ، وخاصة بعد أن أسندت إمارة الجزائر إلى ابن خير الدين باشا حسن باشا .

وبما أن وكيل الكونت لم يكن لديه ما يطعم جنوده ، فقد اضطر إلى مهاجمة المناطق المجاورة له ووصل حتى آرزو (آرزيو Arzo) واستطاع بفضل ما حصل عليه من أرزاق أن يتدارك متطلبات جيشه من المؤن . أما الكونت فقد تحرك إلى مسكرة ، ولضمان إمارة تلمسان عهد إلى أبي عبدالله محمد والقائد منصور بو غاني وحفيده بمهاجمتها ، وأثناء عودتهم فاشلين وقعوا أسرى بيد شيخ كان يطلق على نفسه سلطان دبدو ، فاضطروا إلى دفع فدية للمقربين من الشيخ مقدارها خمسمائة ألف دوبلون (*) . لكن الشيخ رفض إطلاق سبيلهم ، وبعد مدة توفي أبو عبدالله محمد ، بينا تمكن منصور بوغاني من النجاة ، وبقي حفيده أسيراً لدى الشيخ .

توجه منصور بوغاني بعد نجاته من الأسر إلى الإسبان طالباً منهم جنوداً بالأجرة ، فقبل الكونت طلبه بكل سرور ، وقد انضمت إلى منصور بوغاني قبيلتا بني عامر وبني راشد ، وتحرك الجميع في صيف ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م ، وحالما وصلوا إلى موقع عين تيموشنت علموا بأن حسن باشا أقام قيادة لجيشه أمام عربال (Arbal) وبما أن الكونت قد توجه إلى تلمسان فقد تخوف من مهاجمة الأتراك له . لذلك قرر مهاجمة الأتراك ، فغير وجهة سيره إلى مواقع الأتراك ، وبقي الجيشان عدة أيام بدون قتال ، وكل منهما لا يريد البدء بالهجوم ، وفي هذه الأثناء ، نقل المسيو دولانيس (Mösyö Dölanis) إلى حسن باشا خبر وفاة والده خير الدين باشا[١] .

ولدى سماع حسن باشا بذلك عاد مسرعاً إلى الجزائر تحسباً من قيام فتن في المدينة ، أما الكونت د الكودت فبعد أن تتبع حسن باشا طويلاً ، توجه في الحادي والعشرين من شهر آب إلى مزغان ودخلها دون مقاومة ، وبنفس الوقت تابع مسيره إلى مستغانم ، وباشر بقصفها بالمدفعية ، واستمر القصف ثلاثة أيام ، وأخيراً فرغ البارود منه فكلف أحد رجاله بالذهاب إلى وهران

(*) الدوبلون : وهي عملة إسبانية .

(١) تاريخ الدولة الإسلامية .

لاحضار البارود، وفي هذه الأثناء دفع حسن باشا بقوة كبيرة إلى مستغانم[1].

وكان حسن باشا قد أمر القوات الموجودة في تلمسان وتعدادها خمسة وعشرون ألف مقاتل بالتوجه إلى مستغانم ودخلتها بسهولة، لكن الإسبان استمروا بالقصف وحالما فُتحت ثغرة في جدار القلعة، بدأوا بالدخول إليها، وتمكنوا من نصب علمهم على البرج لخمس مرات متتالية، وأخيراً وبعد مقاومة عنيفة من جانب الأتراك تمكنوا من دفع الإسبان وطردهم حتى مقر جيشهم، لكن الكونت فكر بشن هجوم معاكس لإفساد هجمات الإنكشاريين وافشالها، وقد استطاع بشن الهجوم المعاكس من إنقاذ نفسه من خطر محتم، فقداستغل هبوط الليل لنقل جرحاه ومرضاه إلى السفن، وفي الثامن والعشرين من آب وصلت قوة من الجزائر مؤلفة من خمسة عشر ألف جندي وثلاثة آلاف خيال، فاتحدت مع القوة المقاتلة وبدأت بملاحقة الكونت وقواته في الطريق، وحالما علم الإسبان بوصول القوة الجديدة ازدادت مخاوفهم، وأصبحوا لا يفكرون إلا بإنقاذ أرواحهم[2]. فعمل دون مارتين ابن الكونت والكودت واليوزباشي (النقيب) لويس دي رودة (Louis de ruede) ما وسعهما من جهد وتضحية للتخفيف عن الجنود، ولكنهم لم يتمكنوا من التقليل من الخسائر وخاصة المعدات والأسلحة، وباشروا بالسير محاذاة الساحل، ووصلوا إلى وهران بعد ثلاثة أيام، وفي هذه الأثناء وصل أمر تعيين حسن باشا أمير أمراء الجزائر.

في سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٩م كان بنو مرين والأشراف السعديون يتقاسمون حكم المغرب، وكان مولاي أحمد رئيس حكومة بني مرين في فاس، ومولاي محمد المهدي من الأشراف السعديين في مراكش، وكان أخوه الأعرج الذي اتخذ (تافيلالت) مقراً له تابعاً لأخيه في قسم، بينما كان شبه مستقل في القسم الآخر، وقد ظل محمد المهدي لفترة طويلة ساكناً هادئاً، يحاول الحصول على الاستقلال في ملكه، وتجنب خلال تلك الفترة الاعتداء على أي طرف من الأطراف، لكنه كان يطمع لتوسيع أملاكه، فكلف ابنه عبد القادر بقيادة الجيش من أجل احتلال قشتالة الكائنة في سفوح جبال الأطلس على الطريق

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دي غراممونت.

الواصل ما بين فاس ومراكش، فجهز مولاي أحمد جيشه واتجه لملاقاته، والتقى الطرفان بالقرب من قشتالة، وعلى الفور باشرت قوات الشريف محمد المهدي بإطلاق المدفعية، وحالما سمع عسكر مولاي أحمد صوت أول طلقة مدفع ولّوا هاربين دون أن يصابوا بأي أذى، ولم يستفد مولاي أحمد من الأتراك والمهتدين والقادريين وأمير دبدو (Debdu) وابن أخي السلطان بو حسون، وأُجبر مولاي أحمد للإنسحاب تجاه القوة التي تتصدى له، وأثناء الانسحاب تمكنت قوات عبد القادر من إلقاء القبض على مولاي أحمد وابنه أبي بكر في وادي درنة، وأحضروهم إلى مراكش، واعترف مولاي أحمد بتسليم قشتالة بعدما سقطت تاولا بيد عبد القادر سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٤م[١]. عقب ذلك توزعت أملاك بني مرين، ولكي يحرم محمد المهدي بني مرين من العساكر الأتراك الجيدين استأجرهم لصالحه، وأمر بإطلاق سبيل مولاي أحمد مقابل تنازله عن مكناس، وبنفس الوقت توجه إلى فاس، إلا أنه علم بأن حاكم فاس الأسير خلع من عرشه، وحل محله مولاي ناصر القسري، وهو مستعد للدفاع عن فاس، ولخداع وكلاء فاس أرسل رجلاً إلى هناك، وكان وزير مولاي ناصر القسري رجلاً واعياً ومدبراً، استطاع خدع الرجل القادم، ولدى رؤية جيش محمد المهدي يقترب من فاس، باشر باتخاذ ترتيبات تضمن له النصر، وحالما علم محمد المهدي بهذه الترتيبات عاد مع الأسرى إلى مراكش.

طلب الشريف محمد المهدي فدية كبيرة جداً مقابل إطلاق سراح الأسرى، فاجتمعت والدة مولاي أحمد بأولادها وأشراف ووكلاء البلاد، وناقشوا الوضع الذي يعانونه، واتفقوا على مراجعة أشهر سلطان في الدنيا وهو السلطان العثماني سليمان القانوني، وطلبوا منه مساعدته لاسترداد الأسرى، وذلك من خلال توجيه أمر إلى الشريف محمد المهدي لإطلاق سراحهم، وكان هذا العرض معقولاً ومتناسباً مع آمال السلطان سليمان لأنه كان يريد سحق الأشراف، لكونهم يدعون أنهم من سلالة النبي وأن الخلافة من حقهم، وأن السلطان سليمان مغتصب للخلافة، وكان أتراك الجزائر

---

(١) أوغست كور Ogust Kur.

يسعون لذلك أيضاً[1]. لأن قراصنة فاس كانوا ينافسون قراصنة الجزائر في أعمالهم، إضافة إلى ذلك فقد كان قراصنة الجزائر يفرون إلى تلك الجهات عند شعورهم بالخطر ولهذا السبب كانوا يريدون خضوع تلك البلاد لسيطرتهم.

أرسل السلطان سليمان خطاباً إلى أمير أمراء الجزائر نزولاً عند رغبة الجزائر وبني مرين دون أن يكون لديه علم عن قوة سلطان مراكش، فجاء الرسول إلى مراكش بتاريخ ٩٥٤هـ/ ١٥٤٨م[2]. ودخل على المهدي بدون استئذان، فغضب المهدي من تصرف السفير، كذلك فإن ديباجة السلطان سليمان ومضمون الخطاب أزعجا محمد المهدي إزعاجاً كبيراً، وخاصة مناداته له بشيخ العرب، وصيغه الأمر الموجهة إليه، ومطالبته له بدفع التعويضات إلى ابن مولاي محمد، ولشدة غضبه وانزعاجه صمم على قتل السفير، لكنه عدل عن ذلك نتيجة لتوسط مرافقي السفير من قادة أتراك، وتدخل المهتدين بالأمر، ووصل الغرور به إلى حد التفكير بالذهاب إلى مصر لطرد الأتراك منها، وأخذ السلطنة لنفسه، وبعد أن بلغ السفير رفضه الشديد لمطالب السلطان سليمان أمر بطرد السفير التركي من مجلسه فوراً، وطلب إلى ولديه القدوم إليه بما معهما من جنود.

جاء ولده الكبير الحران من تارودانت إلى مراكش، واتحد مع أخيه عبد القادر وقررا التوجه إلى فاس لاحتلالها، مستغلين الخلاف القائم بين حاكم فاس الناصر وقادته، فهاجم جيش الشريف القصر الكبير، وسُلمت العرائش له، وبعدها عمد جيشه إلى نهب وتهديم جميع مناطق فاس.

قرر الناصر تجهيز جيش استعداداً لمواجهة جيش مراكش، ولكنه عدل عن ذلك لاعتقاده بتدخل العثمانيين إلى جانبه ومناصرته، وحينما أدرك الفاسيون أن العثمانيين لن يقدموا لهم يد المساعدة، طالبوا الشريف بالتنازل عن مكناس مقابل إعادة الأسرى، وانتهى الأمر بتنازل الشريف عن مكناس سنة ٩٥٥هـ الموافق ١٥٤٩م، لقاء إعادة الأسرى.

---

(١) أوغست كور Ogust Kur.

(٢) أوغست كور Ogust Kur.

لم يكن الناصر رجل سياسة وتضحية كأبيه ، وسرت شائعة حول تعاون الأشراف مع المسيحيين في الحرب ، مما أدى إلى اتهام الأشراف بالخيانة ، والوقوف إلى جانب الكفار ضد الإسلام[1] .

إزاء ذلك قام محمد المهدي بتحصين مكناس تحصيناً جيداً كما أعد جيشاً ضخماً ، واتجه به لمحاصرة فاس ، وقد استمر بحصارها مدة طويلة ، كذلك فإن هجومه الخارجي وتآمره الداخلي لم يحققا له أي نجاح مباشر ، وبينما كان المهدي يعد نفسه لفك الحصار والرحيل عن فاس ، عَلِمَ أن أحمد الوطاسي تسلم الحكم فيها ، فاستمر في محاصرتها إلى أن أعلنت المدينة استسلامها له .

وفي سنة ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م دخل الشريف محمد المهدي فاس ، وبعد سقوط فاس بيد الأشراف غدا أفراد العائلة من بني مرين محصورين في سوسة ودرعة ، وتافيلالت ، كما أن كبار التلمسانيين كانوا منذ زمن بعيد يعيشون في فاس ، كذلك فقد كان للعائلات الكبيرة من أهالي تلمسان أقارب لهم في فاس وفي تلمسان ، ولهذا فقد شغل التلمسانيون مناصب كبيرة في فاس ، وبغية التقرب من الشريف فقد كثر أنصاره ومؤيدوه في تلمسان والمناطق المجاورة لها ، وأخذوا يتوددون إليه ويتقربون منه .

وعلى ضوء الأحداث التي استجدت في مناطق المغرب ، فقد تطور الخلاف بين الجزائريين والفاسيين ، وقد يتطور الخلاف إلى صدام مباشر بينهما ، فالمهدي يريد التقرب إلى الجزائريين قبل الأتراك ، وكان أن دخل المهدي فاس حتى قدم إليه وفد تلمساني يطلب منه مساعدتهم ضد الأتراك[2] . وهذا ما كان ينتظره المهدي منذ زمن . وعلى الفور كلف المهدي ولديه عبدالله والحران بالتوجه إلى تلمسان . وجهزهما بجيش مؤلف من ثلاثين ألف جندي ، وعندما وصل الجيش إلى تلمسان فتحت له الأبواب ودخلها الفاسيون سنة ٩٥٧هـ/ ١٥٥١م . أما مولاي أحمد فقد ترك المدينة ملتجئاً إلى الجزائر.

---

(١) فوربيكة Forbige .

(٢) يذكر الغفارى أن التلمسانيين هم الذين طلبوا المساعدة من المهدى ، أما بقية المؤرخين فيذكرون أن الطلب جاء نتيجة لازدياد نفوذ السفير التلمسانى فى المغرب .

بعد أن عين الحران قائداً على تلمسان وترك لديه حامية عسكرية صمم على احتلال وادي شليف ومستغانم مدفوعاً بتحريض التلمسانيين له، على الرغم من معارضة والده ومن معه من القادة. إلا أنه تابع طريقه باتجاه وادي الشليف وأثناء سيره شعر بالتعب، فعهد لأخيه قيادة الجيش، في حين توجه عائداً إلى فاس وبعد مدة من مرضه توفي.

تابع عبد القادر طريقه متجهاً إلى الشمال، وتقدم ضمن أراضي قبيلة بني عامر وأمر بنهبها وتخريبها[1].

إزاء تطور الأحداث بين الجزائريين والفاسيين، عمد الإسبان إلى التزام السكون، لأن تحركات الشريف بدت كأنها تنفيذاً لأوامرهم وتناسبت ومصالحهم، ولهذا فقد تم بين الطرفين تحالف ثنائي ضد الأتراك في الجزائر.

بعد سقوط تلمسان بيد الفاسيين، أدرك حسن باشا حقيقة الاستعدادات التي قام بها الفاسيون، لذلك جهز جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف جندي مسلح بالبنادق وألف خيال وثمانية آلاف شخص من القبائل، إضافة إلى الجيش الذي جهزه السلطان عبد العزيز الذي أعلن انضمامه إلى جانب حسن باشا ضد اعتداءات الفاسيين، فعهد قيادة الإنكشاريين إلى حسن قورصو، في حين عهد إلى عبد العزيز قيادة بقية القوات. وما أن بلغ مستغانم[2] حتى انضم إليه بعض المقاتلين من القبائل المؤيدة له. والتقى الجيشان في منطقة ريودي سلادو الواقعة على طريق وهران تلمسان.

بقي الجيشان يومين دون قتال وكل منهما يترصد الآخر، وحينما نفد صبر

---

(١) يذكر دي غراممونت: أن حسن باشا اتفق مع الفاسيين من أجل احتلال وهران وطرد الإسبان منها لكن الفاسيين لم يلتزموا بالوعد فبدلاً من احتلال وهران احتلوا تلمسان، وكان حسن باشا قد أرسل قواته إلى نقطة التقاء الطرفين. أما أوغست كور فيذكر أن سلطان فاس أرسل جيشه لاحتلال تلمسان بناء على طلبهم، ويذكر أن قتالاً مريراً دار بين الفاسيين والأتراك في مستغانم وأن حسن باشا لم يتحرك أثناء احتلال الفاسيين لتلمسان وأن تحركه جاء بعد الاحتلال وأن جميع المصادر تؤكد ذلك. وهناك احتمال أن عبد القادر الذي تسلم قيادة الجيش بعد مرض أخيه الحران تحرك شمالاً وهناك اصطدم مع الجزائريين.

(٢) فوربيكه كتب قائلاً: ظن حسن باشا أن التجهيزات التي كانت تتم في فاس هي من أجل الهجوم على الإسبان في وهران ومن باب الحيطة فإن حسن باشا جهز جيشاً مؤلف من ١٥٠٠ جندي بقيادة حسن قورصو وكلفه بالتوجه إلى مكان الاتفاق.

عبد العزيز بدأ الهجوم، فهجم عبد القادر بعشرين ألف خيال، أما الإنكشاريون فقد باشروا بعد بدء الهجوم بقليل إطلاق نيران بنادقهم بغزارة، حيال ذلك خافت خيول الفرسان الفاسيين من صوت الرصاص، وهربت تجر فرسانها مدبرة، وأعقب ذلك فوضى عامة، فدهش عبد القادر مما حدث، فأسرع بجمع قواته من جديد بغية شن الهجوم، وأثناء ذلك أصيب برصاصة في صدره أردته قتيلاً، وعلى الفور أسرع أحد الإنكشاريين وقطع رأسه، ثم رفعه على رأس رمحه بقصد إظهاره لعساكره، فعمت الفوضى في صفوف الجيش الفاسي، فاستغل الإنكشاريون الإرباك الذي يعانيه الفاسيون، وبدأوا بمهاجمتهم من كل الأطراف، ولم يكن أمام الفاسيين سوى الفرار من ساحة القتال، فلاحقهم الأتراك، أما رأس عبد القادر فقد أرسل إلى الجزائر حيث وُضع في قفص وعُلق في باب عزون.

ولدى هزيمة الجيش الفاسي، تحرك من تلمسان عبدالله وأخوه عبد الرحمن وعدد من المقاتلين لقطع الطريق على الفاسيين[1]. أما عبد العزيز وحسن قورصو فقد ظلا يلاحقان المنهزمين حتى الملوية (Moloya).

عين حسن قورصو على تلمسان شخصاً يدعى سفاح أو صفا، وغدت بذلك تلمسان خاضعة بشكل تام للأتراك، وانتهت بذلك العائلة الزيانية سنة ٩٥٨هـ/ ١٥٥٢م[2]. أما الأهالي العائدون إلى تلمسان فقد أخذوا يدّعون بأن الأموال والأملاك عائدة لهم، في حين صودرت أملاك من غادر تلمسان إلى فاس.

تلقى محمد المهدي هزيمة أولاده بأسى وحزن شديدين، فدس السم لعبدالله لأنه لم يقدم المساعدة لأخيه عبد القادر[3].

شغل محمد المهدي نفسه بمحاربة البربر المتمردين في جبال أطلس،

---

(١) يذكر فور بيكه إن الجيش الفاسي هزم أولاً بجوار مستغانم ثم اتجه إلى تلمسان، وبعد وصول قوة كبيرة من فاس حدثت المعركة الثانية أمام أسوار تلمسان وهناك لقى عبد القادر حتفه.

(٢) فور بيكه. يذكر أنه بقي شخص من بني زيان إسمه حسن، ومن المحتمل أنه قد لجأ إلى الإسبان، ولكن ذلك من باب الاحتمال.

(٣) فور بيكه، وأوعست كور.

لأنهم أعلنوا تمردهم أثناء هزيمة جيشه مع الأتراك في ريودوسلادو، وذلك بتحريض من بقايا عائلة بني مرين، أما أفراد عائلة بني مرين فقد قاموا بقتل عائلة الموقوف أحمد الوطاسي الذي سلم فاس، ولكن هذا الإجراء لم يوفر للمدينة الأمن والاستقرار، وكانت مشكلة النقود من أصعب المشاكل التي واجهوها، ونتيجة لصعوبة الموقف، امتنعوا عن الجدل بهذا الموضوع.

عمل حسن باشا بكل جدٍ ونشاط في الجزائر التي ولد فيها وترعرع في المدينة التي أحبها والده، وظل يشرف على إداراتها إدارة دقيقة ومنتظمة من سنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م وحتى ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م.

اهتم حسن باشا بتنظيم الجيش وتدريبه وإعداده بشكل جيد. ومن ثم التفت إلى تحسين المدينة وتأمين الخدمات الصحية فيها، كما أمر بإنشاء الحمامات العامة المجانية، والمستشفيات والثكنات العسكرية، كما أنشأ برجاً في موقع كدية الصابون، وحصنه تحصيناً جيداً، نظراً لأهميته، لأن موقع كدية الصابون كان باستمرار عرضة للهجوم من الأعداء، وقد سمّي برج مولاي حسن، وفيما بعد أصبح اسمه حصن الأمبراطور، ومن الخطأ الواضح ما تذكره بعض الروايات القائلة بأن شارلكان هو أول من بدأ بإنشاء هذا البرج، كما أطلق عليه أيضاً إسم برج الطاووس، لأنه كان يستخدم مكاناً لإطعام الطواويس فيه[1]. وفي النهاية اشتهر بإسم قلعة السلطان، وعندما كان حسن باشا مشغولاً بهذه الأعمال جاءه فرمان من إسنانبول يأمره بالحضور فوراً إلى إستانبول وتجنباً من عدم إضاعة الوقت تحرك إلى إستانبول في ٢٢ أيلول سنة ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م[2].

فُسر تبديل حسن باشا بعدة تفسيرات، فالشائعات التي أشيعت بحق حسن باشا كان نتيجة للدسائس الفرنسية في إستانبول، وقد وجّه الديوان الهمايوني النقد للسفير الفرنسي، وحذره من عمله وخاصة حول علاقة حكومته بالفاسيين وتحريضهم لمحاربة الأتراك كما حدث سنة ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م[3].

---

(١) جوان. وقد ورد في بعض من مواطن الكتاب دلبل جوان.

(٢) دي غراممونت.

(٣) اوغست كور.

لم يكن حسن باشا محبوباً من قبل الفرنسيين، وقد قدموا شكاوى ضده إلى الديوان الهمايوني، وبما أن الدولة العثمانية كانت تعتبر فرنسا صديقة حميمة لها، فقد طلبت من حسن باشا معاملة الفرنسيين بلطف، كما أنها وضعت الريس طرغوت تحت تصرف هنري الثاني، وقد تمكن الريس طرغوت عندما كان يحارب الإسبان إلى جانب الفرنسيين من شن هجمات موفقة وناجحة، وقدم جميع الغنائم التي غنمها من إسبانيا هدية للملك الفرنسي، كما شن هجوماً على جزيرة ألبا حيناً وعلى نابولي وكورسيكا حيناً آخر. وقد تعرض أندريا دوريا نتيجة لهجمات الريس طرغوت إلى خسائر فادحة بعتاده ورجاله.

طلب الملك الفرنسي من حسن باشا قبل وفاته بثلاث سنوات المساعدة البحرية ضد إسبانيا، فتجاهل حسن باشا طلب الملك الفرنسي تجاهلاً تاماً، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الفرنسيون يكنون الحقد والكراهية له. وأخذ السفير الفرنسي دأرمون D'Armon بالتوسل إلى الديوان لعزل حسن باشا من إمارة الجزائر[١].

يرى بعض المؤرخين بأن الفرنسيين لعبوا دوراً بارزاً في عزل حسن باشا[٢]. فالسفير الفرنسي جاء إلى الجزائر لطلب المساعدة العسكرية منها ضد إسبانيا أو مساعدتها للأسطول الفرنسي أو شن هجوم جزائري على الإسبان في وهران لإشغال حكومة إسبانيا وإرباكها. لكن حسن باشا أدرك بأن القيام بمثل هذه الهجمات لن يعود على الجزائر إلا بالخراب والدمار فاعتذر له[٣]. ولدى عودة السفير الفرنسي دأرمون إلى إستانبول أبلغ الديوان الهمايوني بما حدث معه في الجزائر بإسلوب ذكي وماهر، وأوضح للديوان الهمايوني بأن حسن باشا إذا بقي في إمارة الجزائر فإنه سيشكل خطراً كبيراً على الدولة العثمانية، وأنه يسعى لتثبيت وجوده هناك، لأنه يعتبر نفسه

---

(١) العلاقات الفرنسية في الشرق ج ٢ ص ٧٢، ١٨١، ٢١٤، ٢٥٩.

(٢) فوربيكة: يقول أن سبب العزل سقوط الدولة المهدية فى المغرب الأقصى.

(٣) دى غراممونت.

جزائرياً ، إضافة إلى تهم أخرى ، فاستدعاه الديوان الهمايوني بناء على التّهم التي وجهها السفير الفرنسي وبقي في إستانبول ثمانية أشهر معزولاً من إمرة أمراء الجزائر ، وكلف بك تلمسان القائد صفا بإدارة الجزائر بصفة مؤقتة[1] .

(١) دي غراممونت .

- ٤ -
إمرة الأمراء

صالح باشا ـ اخضاع تقرت وورقلة لطاعته ـ اختلافه مع عبد العزيز ـ مساعدة صالح باشا وطرغوت لفرنسا ـ بوحسونة ـ التوجه إلى فاس ـ دخوله إلى مدينة فاس ـ عودته ـ مساعدة الأسطول لفرنسا ـ انتهاء عائلة بني مرين ـ المباحثات الإسبانية الفاسية ـ احتلال بجاية ـ الاستعداد لغزو وهران ـ وفاة صالح باشا ـ حسن قورصو ـ تحرك الجيش ـ الإيعاز للقادرغات بالعودة إلى إستانبول.

يعود أصل صالح باشا إلى القازدغلية، مارس منذ شبابه التجول في البحار إلى جانب آل بربا روس، وكان من خيرة أصدقائهم الأوفياء، ولهذا فقد كان الريس عروج ومن بعده خير الدين يعهد إليه قيادة العمليات البحرية المهمة، وفي إحدى الغزوات أسر، وبعد ذلك تم إنقاذه[١].

قدم صالح باشا إلى الجزائر في أواخر نيسان من سنة ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م ويقال أن السفير الفرنسي كان يثنى عليه لدى الديوان الهمايوني، وأنه طلب مساعدة السفير الفرنسي له وأن السفير الفرنسي التزم بوعده لصالح وبدأ يثني عليه وقد نجح في مساعيه[٢].

---

(١) لا يُعرف تماما متى وقع صالح باشا في الأسر ولا متى أُنقذ، ولكن تحفة الكبار تقول: إنه أسر عندما كان الريس طرغوت أسيراً، أما هامر فيذكر: أنه ولد في صحراء طراوة (Trava) أما غرامونت فيذكر أن السلطان أسند إليه قيادة الأسطول بعد وفاة خير الدين باشا وخلال هذه المدة القصيرة قدم خدمات جلى للدولة مكافأة السلطان بتعيينه على الجزائر.

(٢) المفاوضات الفرنسية فى الشرق ج ١ ص ٦٢٤.

عندما قدم صالح باشا إلى الجزائر واجه تمرد رؤوساء تقرت وورقلة الذين رفضوا دفع الضريبة المفروضة عليهم منذ خمس وعشرين سنة، واعتقدوا أن صالح باشا لن يقامر بأوجاقه في صحراء يجهلها جهلاً تاماً.

جهز صالح باشا جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف جندي مسلح بالبنادق وألف خيال وثمانية آلاف شخص من البربر وعهد إلى عبد العزيز بقيادة الجيش، تحرك عبد العزيز بقواته إلى تقرت واستولى عليها بعد حصار استمر أربعة أيام، كما استولى على ورقلة دون مقاومة، وأوقع بأهالي المدينتين عقوبة صارمة، وبعد أن حصل على ضمانات من رؤوساء المدينتين، فرض عليهما ضريبة جديدة، ومنذ ذلك التاريخ اقتنع سكانهما بدفع الضرائب والتزموا الطاعة التامة. وعاد إلى الجزائر محملاً بغنائم كثيرة تشتمل على خمسة عشر ألف جمل محمل بالذهب وأكثر من خمسة آلاف أسير من العبيد، وأثناء العودة حدث خلاف بين الريس صالح وعبد العزيز لأن عبد العزيز شعر بأن حصته من الغنائم قليلة جداً. كما أن حسن قورصوكان يتغامز على عبد العزيز عدم إطاعته وتجاهل صالح له، وحينما أدرك الريس صالح أن عبد العزيز ينوي إعلان العصيان عليه استلطفه وطيب من خاطره إلى أن استقدمه معه إلى الجزائر، وبعد أن أمنه رماه في قصر الجنينة، ولكن عبد العزيز تمكن من الهروب مستغلاً ظلام الليل واتجه مباشرة إلى الجبال. وبدأ بين الطرفين عداء شديد، عانى الجزائريون من جرائه مصاعب جمة، وشهدوا حرباً داخلية في تاريخهم. وعلى الرغم من صعوبة الموقف الذي يواجهه الريس صالح فقد قرر ملاحقة عبد العزيز وإلقاء القبض عليه، والتقى الطرفان في جبال بوني، وأسفر القتال عن هزيمة عبد العزيز وقُتل أخوه في هذه المعركة، لكن الانتصار الذي حققه صالح لم يكن نهائياً، لأن عبد العزيز عمل على تحصين قلاعه وطلب المساعدة من الأطراف، ومع أوائل الربيع وجه صالح باشا جيشاً مؤلفاً من ألف جندي مسلحاً بالبنادق وخمسمائة خيال (سباهي) وستة آلاف فارس محلي وعهد إلى محمد بك بقيادة الجيش والتوجه إلى قلاع عبد العزيز، وأسفر اللقاء بالقرب من القلاع عن هزيمة الجزائريين هزيمة نكراء، ولم يتمكن الجزائريون من العودة إلا بصعوبة بالغة وفقدوا خلال ذلك الكثير من خيرة مقاتليهم، وبغية الانتقام من الهزيمة التي واجهها

الجزائريون، أعد الريس صالح باشا قوة مؤلفة من ٣ ـ ٤ آلاف جندي وعهد إلى الريس سنان والريس رمضان بقيادتها، لكنهما هزما مع قواتهم في وادي اللحم[١]. ولم ينجُ من الجزائريين إلا بعض الأشخاص الذين استطاعوا الفرار إلى مسيله، وفي نفس السنة من ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م، أرسل هنري الثاني ملك فرنسا ممثله دالبيسي D'albisi إلى باشا الجزائر من أجل مضايقة إسبانيا بصورة مستمرة، فكلف صالح باشا أسطوله بالتوجه إلى جزيرة ألبا لضربها وضرب السواحل الإسبانية الأخرى، وقد شارك الريس طرغوت الأسطول الجزائري أعماله البحرية إضافة إلى مشاركة البحار الفرنسي دولاغارد (Dölagard). واستمرت الأعمال البحرية ضد الإسبان فترة طويلة، تكبد خلالها الإسبان خسائر فادحة.

كان صالح باشا قبل الدعوة الفرنسية قد خرج بغزوة بحرية في أوائل حزيران على رأس أربعين سفينة حربية إلى جزيرة ميورقة وأنزل عساكره فيها، وأمرهم بسلبها ونهبها، وقد تمكن خلالها من أسر عشر سفن إسبانية وبرتغالية من تلك السواحل ومن بعدها عاد إلى حجر باريس (بنون دي فليس)[٢]. وفي ٥ تموز سنة ١٥٥٣م اشتبك الريس صالح مع ستة سفن برتغالية في معركة استمرت فترة طويلة وتمكن في النهاية من التغلب عليها وأسرها، ووجد في إحدى السفن بوحسونة أخو مولاي أحمد آخر حكام العائلة المرينية، وبو حسونة هذا كان قد فر إلى إسبانيا عندما سُلمت فاس للشريف محمد المهدي.

توجه بوحسونة إلى إسبانيا ومنها إلى أوغسبورغ لمقابلة شارلكان، وقد شارك في الحملات التي قادها شارلكان وقدم له خدمات جلى، وعلى الرغم من أن شارلكان لم يوله أي اهتمام ولم يعده بالمساعدة، فإن بوحسونة ظل يتردد إلى إسبانيا آملاً بالحصول على مساعدتهم، وحينما فشل توجه إلى البرتغال.

---

(١) دي غرامموت.

(٢) بنون دي فليس (فلز): وهي جزيرة تقع مقابل مساء باريس غرب مدينه ملبله وقد أطلق عليها إسم بنون لأنها تشبه جورة الصنوبر، أما بعض المصادر العربية فتطلق عليها إسم (حجر باريس).

رحب البرتغاليون به ترحيباً شديداً، ووعدوه بتقديم المساعدة له، فجهزوه بستة سفن مع بضع مئات من الجند واتجهوا مباشرة إلى باديس، وحالما وصل إليها رفض الأهالي السماح لهذا الأمير الطريد بالنزول إلى البر، وفي هذه الأثناء وصل الريس صالح باشا إلى هناك، وعلى الفور هاجمهم، وألقى القبض على جميع السفن، فأخذهم أسرى واتجه بهم عائداً إلى الجزائر، فوضع أولاً بوحسونة تحت حراسة مشددة، وبوحسونة هذا إسمه الحقيقي (الشيخ الوطاسي أبو الحسن علي بن محمد) وهو من السلالة الوطاسية ومن أبناء مؤسسي هذه السلالة[1].

أعلن بوحسونة نفسه حاكماً على فاس بعد وفاة أخيه الأكبر محمد البرتغالي سنة ٩٣١هـ/ ١٥٢٤م، ولكن ابن أخيه أحمد، رفض الاعتراف به، وجهز العساكر واتجه إلى فاس لمحاربة عمه، ولكن المدينة لم تقاومه فألقى القبض على عمه وسجنه، وبعد مدة أطلق سبيله، وسمح له العيش في باديس، ولكونه عاش فيها فقد لقب بالباديسلي أو (الباديسلي). وعندما كان الخطر يهدد فاس من قبل محمد المهدي، استدعاه الفاسيون للاستفادة من سياسته وخبرته العسكرية، لكن ابن أخيه لم يلتزم بنصائحه.

اعتبر صالح باشا أن بوحسونة هذا وسيلة كبرى يمكنه استخدامها تحقيق أطماعه ومآربه بتوسيع حدود مملكته باتجاه فاس، لذلك بدأ الاهتمام به وأخذ يقربه إليه، وأخيراً توصلا إلى إقامة علاقة ودية فيما بينهما.

وفي هذه الأثناء كانت الجزائر محاطة بخطرين كبيرين، فمن الشرق ابن القاضي سلطان كوكو[2]. ومن الغرب عبد العزيز، ونتيجة لهذا العداء القائم بين عبد العزيز وابن القاضي، فقد فضل ابن القاضي التفاهم مع الباشا تحدياً لعبد العزيز، وقد تعهد ابن القاضي بمساعدة الباشا، لذلك قرر صالح باشا غزو فاس، وقد انضم إلى تلك الحملة جميع القبائل بما فيها القبائل

---

(١) لم يرد ذكر أثناء الصراع ما بين الاشراف السعديين والوطاسيين إلى المدعو بوحسونه ولكن بعض المصادر أشارت إلى هروب شخص من العائله الوطاسيه قبل بدء الصراع. وقد أشار فور بيكة إلى احتمال وجود شخص.

(٢) ابن القاضي. هو غير أحمد بن القاضي القديم الذي ثار في عهد خير الدين باشا وإنما هو أحد الأشخاص الذين خلفوه فيما بعد.

المتمردة طمعاً بالحصول على الغنائم ، وقد جمع الباشا قوة كبيرة من الخيالة والفرسان[1]. وكان جيشه يتألف من ستة **آلاف** جندي مسلح بالبنادق وألف خيال ، وعدد من المدافع الثقيلة والخفيفة ، إضافة إلى تكليفه اثنتين وعشرين سفينة بمساعدته من جهة البحر[2] .

وحالما علم عبد العزيز **بتوجه الباشا** لغزو فاس ، بدأ بتهديد مسيلة ، وخشية من إصراره على الهجوم عقب سفر القوات لغزو فاس ، التف الأتراك الباقون في الجزائر مع بعض الأمناء المخلصين من زعماء القبائل المحلية حول الريس سنان استعداداً للتصدي له إذا فكر بالهجوم فعلاً .

غادر الريس صالح باشا الجزائر في أوائل تشرين الأول سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م ، ولدى سماع محمد المهدي بذلك ، عاد فوراً من محاربة المتمردين في جبال أطلس ، لأنه يدرك جيداً أن نصف سكان المدينة يكنون له العداوة والبغضاء ، وحالما وصل إلى فاس دعا إلى عقد مجلس عام مع أعيان البلد تدارس معهم الوضع ، ثم باشر بجمع أكبر قوة ممكنة .

كان قسم من أعضاء المجلس يرون حرق وهدم المناطق التى سيعبر منها الجيش التركي ، بغية تعرضه للعطش والجوع والتعب ، أو القسم الآخر فقد طالب الشريف باتخاذ موقف صارم تجاه الأهالي الذين يحبون بوحسونة وفى حال عدم اتخاذه موقف متشدد فأنهم سيعلنون العصيان فتقع البلاد آنذاك بين نارين .

كان جيش الشريف يتألف من ثلاثين ألف خيال ومن اثني عشر ألف جندي مشاة وعشرين مدفعاً مخصصاً للصحراء[3] . وقد منع الأتراك الذين يحوزنه من الانضمام إلى الجيش وأبقاهم في فاس[4] . وبعد الانتهاء من إعداد الجيش خرج من المدينة مع غروب الشمس واتجه مباشرة إلى تازه ، وعلى الرغم من أن طقسها كان سيئاً ، فقد اتخذها مقراً لجيشه ، وبدأ بإقامة

---

(١) يذكر دي عرامموت أن تعدادها ٤٠٠٠ خيالة

(٢) أوعست كور .

(٣) يذكر أوعست كور وعراممونت أن عدد الجيش بلغ ٨٠,٠٠٠ جندي مسلح تسليحاً جيداً ، أما فوربيكه فيذكر عدد / ٤٠/ ألف جندي .

(٤) أوعست كور .

التحصينات والاستحكامات اللازمة، وفي الرابع من كانون الأول أعلمته فرقة الاستطلاع بقدوم الأتراك[1].

وقبل أن يتحرك صالح باشا من الجزائر كان بوحسونة قد وعده بأنه سيجمع قوة من أنصاره، ويلتقي معه قرب تلمسان، ولهذا فقد توجه الباشا إلى تلمسان، وبعد قضاء عدة أيام فيها ينتظر وصول بوحسونة مع أنصاره، أدرك أن بوحسونة لن يتمكن من تنفيذ وعده، فقرر متابعة مسيره، سالكاً طريق أوجده ـ تازة. ولدى وصوله إلى تازة، كان الشريف مشغولاً بإقامة التحصينات، وهناك قضى صالح باشا بقصد الاستراحة واستطلاع المنطقة، وحينما لمس الفرق الشاسع بين القوتين، لجأ إلى طريقة تمكنه من الانتصار على الشريف دون أن يتعرض لخسائر شديدة، فانتخب قوة تتألف من ألف وخمسمائة شخص، وأسند قيادتهم إلى شخص يثق به وكلفه بمهاجمة جيش الشريف ليلاً.

أحدث الهجوم الذي شنته القوة الجزائرية تأثيراً كبيراً في صفوف جيش الشريف وخاصة أن جيش الشريف لم يكن معتاداً على القتال الليلي، وتكبد خسائر فادحة، وفي الصباح قام الباشا بشن هجوم مركز على قوات الشريف، ولدى أول لقاء هربت خيول الفاسيين من أصوات المدافع والبنادق، ولو أن الشريف استمر بالقتال لفنيَ جيشه، لكنه انسحب عائداً إلى فاس، وظن الباشا أن الانسحاب حيلة دبرها له الشريف، لذلك توقف الباشا عن ملاحقته، وبعد أن تأكد من انسحابه، بدأ بملاحقته حتى فاس.

وفي هذه الأثناء وصل بوحسونة مع ستمائة شخص من أنصاره، كما اتحد أمير دبدو الصغير مع الأتراك، ودخل محمد المهدي فاس وسط استهزاء مشين، كما لو أنه عائد من نصر مؤزر، وفور وصوله جمع الأرزاق وغيرها من الأشياء التي تساعد الأتراك في تقدمهم، وعلل رجوعه إلى المدينة بأنه يبغي رسم خطة للقضاء على الأتراك قضاءً مبرماً، انتقاماً لمقتل ابنه عبد القادر، وأعلن المقاومة الداخلية علماً بأن اليأس والخوف بادٍ على الجميع، وقد اقترح بعض الوكلاء ـ فيما إذا اشتدت المقاومة ـ إطلاق سراح الأسرى

---

(١) يقول دي غرامونت أن تحركه كان في بداية كانون الثاني سنة ١٥٥٤م.

المسيحيين وتسليحهم ، ولو تم ذلك فأن عدم ثقتهم بصدق الأسرى لن تعود عليهم بالفائدة المرجوة من ذلك . لأنه كان يعامل الأسرى المسيحيين معاملة قاسية[1] .

وفي ٣ شعبان ٩٦١هـ/ ٣ كانون الثاني ١٥٥٤م وصل جيش الجزائر إلى نهر سبو الذي يبعد عن مدينة فاس حوالي ستة كيلو مترات ، وقد رحب بالجيش الجزائري جمع أهالي القرى التي مر بها ووعدوه بالوقوف إلى جانبه[2] .

وفي الرابع من هذا الشهر حدث صدام بين الجيش الفاسي والجزائري ، فاستغل بعض الأهالي انشغال الشريف محمد المهدي بالمعركة ، وأرسلوا ممثلين عنهم إلى بوحسونة لمبايعته والتبريك له بالحكم ، واستمرت المعركة حتى مساء اليوم الخامس وعلى الرغم من الشجاعة والمهارة التي أبداها الشريف وابنه عبد المؤمن ، إلا أنهما لم يستطيعا تبديل أي شيء من سير المعركة ، وهرب مقاتلو الشريف وتفرقوا عنه ، وفي اليوم السادس فُتح للأتراك أبواب فاس القديمة ، مستغلين انشغال الشريف بعقد مجلس في فاس الجديدة بعدما أغلق أبوابها ووضع عليها حراسة مشددة ، وقرر المجلس بالإجماع الإنسحاب وجمع القوات ، وفي الصباح الباكر كان الشريف ومن سَمِعَ بالقرار قد فروا تاركين المدينة بدون أي حماية .

وفي صباح اليوم السابع من كانون الثاني لسنة ١٥٥٤م دخل صالح باشا بوحسونة وسلطان دبدو مدينة فاس الجديدة وسط تصفيق الأهالي وترحيبهم بهم ، لكن ترحيب أهالي فاس بالفاتحين الجدد لم ينقذها من سلب القبائل والأتراك لها ، وكان بوحسونة يريد التخلص من الأتراك وإعلان استقلاله بأقرب فرصة سانحة ، ولكن صالح باشا هو الآخر يفكر بضم فاس إلى أملاك الدولة العثمانية[3] . ولحل هذه المسألة فإن الأمر يقتضي إيجاد تفاهم بين

---

(١) يقول أوغست كور عن لسان Diyego Tore أنه كان من بين الأعضاء ، أثناء انعقاد المجلس وأنه هو الذي طرح فكرة تسليح الأسرى .

(٢) تتألف مدينه فاس من قسمين . القسم القديم ويضم الاندلسيين والقرويين وتفصلها عن القسم الجديد سور ، أما القسم الجديد فيضم القصور والثكنات ويسكن إلى جانب الاغنياء قسم من الأجانب واليهود .

(٣) أوغست كور Ogusr Kur .

صالح باشا وبوحسونة ، كما أن صالح باشا كان يفكر بتعيين أحد الأشراف حاكماً عليها بدلاً عن بوحسونة . وحينما لمس صالح باشا بأن هذا الإجراء غير مرغوب به من قبل الجميع ، عدل عن فكرته هذه ، إزاء ذلك طلب من بوحسونة دفع مبلغ وقدره أربعمائة ألف مثقال من الذهب كتعويض لجيش الجزائر(*) . وعلى الفور لجأ بو حسونة إلى استدانة هذا المبلغ من سكان فاس القديمة ، وبهذا القرض الذي استدانه من الأهالي يكون ضمن لنفسه البقاء في الحكم لمدة طويلة ، وقد دفع اليهود من هذا القرض خمسة وعشرين ألف مثقال ، وقدر عدد الأسرى الذين وقعوا بأيدي الأتراك أكثر من سبعمائة شخص ، بُيع الأسير الواحد بمائة دوقة(*) .

وبما أن الشريف محمد المهدي قد هرب من فاس تاركاً عياله فيها ، لذلك فإن صالح باشا أحاطهم بكل عناية ورعاية وأرسلهم إليه وسط حراسة مشددة ، وقد فُسر عمل صالح باشا بأنه محاولة لإقامة تفاهم مع الشريف ، وهناك بعض الروايات تذكر بأن خصاماً حدث بين صالح باشا وبوحسونة نتيجة لذلك .

أرسل صالح باشا الغنائم التي حصل عليها إلى مصاصة ، بينما هو بقي هناك حتى أوائل شهر أيار سنة ١٥٥٤م . وأثناء عودته احتل حجر باريس ، ونظم إداراتها تنظيماً جيداً ، وأمر بزيادة التحصينات والاستحكامات بشكل يمكنها من المقاومة والتصدي لدى حدوث أي هجوم مفاجىء عليها من قبل الأعداء .

بدأت الأسرة المرينية تمارس نشاطها من جديد ، وتعهد بو حسونة بإعلان تبعيته للأتراك وقطعْ صلاته مع الإسبان نهائياً ، وفي هذه الأثناء أرسل صالح باشا أسطوله إلى توسكانيه لمساعدة أربعة آلاف شخص من الفرنسيين .

عمل أمير الجزائر على طرد الإسبان من جميع السواحل الإفريقية ، وإذا كان صالح باشا قد أعاد الحياة لأسرة بني مرين ، لكن هذه الحياة لن تستمر طويلاً ، لأن بوحسونة عندما أصبح حاكماً على فاس وجد خزانتها

(*) المثقال : وهو وحدة وزنيه تساوي خمس غرامات أو واحد ونصف درهم .

(*) وهي عمله متداولة لدى بعض الجزر الإيطالية وكانت الدوقة الواحدة تساوي درهمين .

فارغة ، ولهذا فقد لجأ إلى سجن المنافقين من أنصاره وأنصار الشريف وجمع الأتراك الذين بقوا في فاس . كذلك فقد استدعى المهتدين ، وجعل منهم قطعة عسكرية بالمال ، وكلف الأسرى بصنع السلاح والبارود بعدما وعدهم بإطلاق سبيلهم ، كما سلم الإدارة إلى الخدم من عائلة بني مرين ممن عانوا الظلم والقهر أيام الشريف .

اتفق بوحسونة مع الأعرج أخو الشريف على اقتسام المغرب الأقصى فيما بينهما ، وقد قصد بوحسونة من اتفاقه قطع الطريق على الشريف والقضاء على أمله بالعودة ، كما عمل على كسب ود الجميع وقرب علية القوم وأعيان البلاد أليه ، لكن الأعرج تمرد عليه بعد مدة من الزمن واحتل تافيللت ، ومن ثم تابع طريقه إلى فاس ، وكان المهدي قد أعد جيشاً كبيراً وقسمه إلى قسمين .

عهد الشريف إلى ابنه عبد المؤمن بإدارة مراكش وعهد إلى ابنه عبدالله بمحاربة بوحسونة ، في حين قاد قسماً من الجيش وتوجه لمحاربة أخيه الأعرج وتمكن من محاصرته ، أما ابنه عبدالله فقد هزمه بوحسونة شر هزيمة ، وبعد ذلك قرر بوحسونة التوجه لمساعدة الأعرج ، وبغية رفع معنوياته أرسل إليه رسالة يبشره بانتصاره وبأنه في الطريق إليه .

وقعت رسالة بوحسونة بيد المهدي ، وبعد قراءتها استبدلها برسالة مزورة ، وكتب له فيها عن لسان بوحسونة ، لقد هُزمت بالحرب ، وعليك الاعتماد على نفسك ، وأمر بإيصالها إلى أخيه الأعرج ، وحالما استلم الأعرج الرسالة فترت همته ، فسلم نفسه إلى المهدي ، فعاد المهدي من هناك لمحاربة بوحسونة ، والتقى الطرفان بجوار تادلا في مسلمة (Messelma) وكانت المعركة تسير لصالح بوحسونة ، إلا أن أحد أنصار الشريف تسلل سراً إلى مقر قيادة جيش بوحسبونة ورماه بالرمح ، فقتله وقطع رأسه ، ثم رفعه على رأس رمحه مشهِّراً به ، فتشتت جيش بوحسونة ، وعلى الفور أصدر الشريف عفواً عن كل من يلتحق بجيشه من أفراد الجيش المشتت ، وعادا ولدا بوحسونة إلى فاس ، ومن هناك ذهبا إلى أصيلا حيث ركبا سفينة ملتجئين إلى الجزائر ، لكن السفينة وقعت بأيد القراصنة ، ونتيجة للمعركة التي حدثت بين الطرفين ، قتل الإثنان ، وبمقتلهما انتهت العائلة المرينية .

وفي ٣ شوال ٩٦١هـ الموافق ٢٣ أيلول ١٥٥٤م دخل الشريف فاس ثانية ، وبعد إقناعه للأتراك والمهتدين الذين كانوا يعملون في خدمة بني مرين بالانضمام إليه ، شكل منهم قطعة إنكشارية ، مهمتها المحافظة عليه ومرافقته بصورة دائمة ومستمرة ليل نهار(١) .

لم يعد الشريف يخاف من بني مرين ، لكن أنصارهم في فاس كثر ، وكان هؤلاء أنصاراً للأتراك حسب زعم المرابطين وأرباب التفرقة ، فبدأ الشريف بمضايفتهم(٢) .

وفي عهد بني مرين ،كان قاضي فاس الكبير أبو محمد عبد الوهاب عدواً لدوداً للأشراف بشكل علني ، لذلك عزله محمد المهدي وضربه جلداً بالكرباج ، كما قتل مئتي شخص من أغنيائهم وصادر أموالهم ، ولاحق محبيهم ومؤيديهم ملاحقة شديدة وقاسية ، ورغم ذلك لم يشعر بالأمان لنفسه ، فترك ولده عبدالله والياً على فاس ، وغادرها متوجهاً للاستقرار في مراكش ، ولكن خوفه الرئيسي كان من الأتراك أعدائه الحقيقيين ، وبما أنه لا يملك القوة التي تمكنه من التصدي للأتراك ، فلم يجد وسيلة تمكنه من مجابهتهم سوى الاتفاق مع الإسبان ، وبالفعل بدأ الاتصال بهم(٣) .

اكتسب صالح باشا شهرة عظيمة من جراء انتصاره في فاس ، وبغية تتويج انتصاره بانتصار أكثر شهرة وعظمة ، عمد فور عودته إلى دراسة المواقع الإسبانية دراسة دقيقة ، وقد تبين له صدق تصوراته وخاصة بشأن بجاية وأهميتها ، وأدرك الأسباب التي دفعت الإسبان لاتخاذ تدابير جيدة .

واعتباراً من ربيع سنة ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م بدأ الكونت دالكودت يرتبط مع الشريف بعلاقات ودية وسرية ، فعندما توجه منصور بوغاني إلى وهران لإنقاذ ابنه من الأسر ، وأثناء المباحثات كلف والي وهران رجلاً يُدعى ميكل دولا ذيانو بمهمة إلى فاس ، بشأن عقد اتفاق فيما بينهما يهدف إلى طرد الأتراك من شمال إفريقية نهائياً .

---

(١) أوغست كور .

(٢) أوغست كور .

(٣) يقول أوغست كور : لم يُعرف تماماً من الذي بدأ بالاتصال أولاً ، ولكن الوثائق الإسبانية تذكر بأن الشريف أو الحكومة التي شكلها ابنه هي التي قامت بالاتصال .

وافق الشريف على ذلك ، لكنه طلب من إسبانيا تزويده بعشرة **آلاف** جندي مسلح بالبنادق . وأن تتحمل إسبانيا رواتبهم ، بحجة أن الإسبان والمسيحيين **سيستفيدون** أكثر من الفاسيين إذا طُرد الأتراك من شمال **إفريقيا** ، **ولم يتم خلال هذه المباحثات اشتراك أي يهودي ، لأن الشريف كان أعلم من** الإسبان بالعلاقة القائمة بين اليهود الفاسيين ويهود الجزائر.

على الرغم من أن المباحثات تمت بسرية تامة ، لكن الريس صالح عَلِمَ بهذه الدسيسة ، وكان يدرك تماماً عداء الشريف للأتراك ، ولهذا قرر أولاً تصفية حسابه معه قبل الأعداء ، وقرر ضرب كل من الفاسيين والإسبان كل على حدة ، قبل أن يتحدوا مع بعضهم البعض ، ولكي يتمكن من احتلال وهران ، فإن الأمر يتطلب منه الاستعداد بشكل جيد وضخم ، فما لديه من قوات يمكنه من احتلال **بجاية** بسهولة . لذلك جهز قوة صغيرة من الإنكشاريين مع ثلاثة **آلاف** مقاتل من القبائل لمحاصرة بجاية واحتلالها ، فأرسل أولاً قوة برية ، وكلف الأسطول بنقل المدفعية بحراً ، وتمكنت السفن من دخول نهر صمام لأنه كان فائضاً[1] .

وفي ١٦ أيلول سنة **١٥٥٥م** تمركزت قواته أمام بجاية ، ونصب الجزائريون بطاريات المدفعية والمؤلفة من ثمانية مدافع ذات قطر كبير أمام القلعة وباشروا قصفها بشدة ، وبعد قصف **مركّز** تمكنوا من هدم قصر الأمبراطور في حصن موسى ، أما قصر البحر في حصن عبد القادر ، فلم يتمكنوا من ضربه ، وفي اليوم السادس من الهجوم سقطت القلعة الداخلية ، وبعد سقوط كافة الاستحكامات بيد صالح باشا ، سمح للأهالي من المسيحيين بأخذ أموالهم شريطة تسليم ما لديهم من أسلحة وذخائر والرحيل عن البلاد .

أدرك دون الونزو دي بيرالتا **قائد قوات حرس** بجاية عدم جدوى من المقاومة ، ولكنه لم يعلن استسلامه قبل أن يطلب صالح باشا منه التسليم ، إزاء ذلك بدأ صالح باشا يشدد قصفه على المواقع الإسبانية والمقاومة المحلية

---

(١) بشأن الوثائق التى تعرض للاحتلال الإسبانى لشمال إفريقيه . انظر قسم الوثائق فى دليل إفريقيه لسنه ١٨٧٧م ص ٢٨٠ ، ورسالة الكونت د الكودت ورسالة دون الونزو بيرالتا لسنة ١٨٧٧م ص ٢٨٢ . وهذه الرسائل توضح الاستعدادات الإسبانية التى تمت بشأن ذلك .

على حد سواء، مما دفع الإسبانيين والأهالي على الاستسلام، أما دون الونزو فقد تمكن مع مائة وعشرين شخصاً من النجاة، بعدما رموا بأنفسهم على سطح سفينة من نوع قرافل (Karavel) (*) نقلتهم إلى ألقنت (إحدى المدن الإسبانية).

وفي ٢٨ أيلول دخل صالح باشا بجاية، وألقى القبض على ستمائة شخص، كما غنم الأسلحة والذخائر الإسبانية، وتبريراً لما حدث أعدم الإسبان دون الونزو ككبش فداء، مع أنه أبدى مقاومة شديدة. وقد نُفذ فيه حكم الإعدام في ساحة فالا دو ليدين (Vola do Lidin).

لدى خروج الإسبان من بجاية سيطر عليهم الأسى والحزن، وشاركهم الأمبراطور وجميع قادته هذا المصاب، وليؤكد الأمبراطور حزنه قدم دون ألونز قرباناً بريئاً. مع العلم أنه قدم أثناء محاكمته الوثائق والأدلة التي تؤكد إضطراره لتسليم القلعة، وبخروج الإسبان من بجاية لم يبق بأيديهم سوى وهران والمرسى الكبير ومليلة وسبته.

ترك صالح باشا في بجاية علي صاردو مع ستمائة إنكشاري وكلفهم بالمحافظة عليها بصورة دائمة ومستمرة، ومن ثم عاد إلى الجزائر، وقد قام علي ياردو بترميم ميناء المدينة وزاد من الاستحكامات[1].

تلقى الإسبان من جراء فقدانهم لبجاية ضربة قاسية، وأدركوا أن الضربة الثانية ستكون على وهران وفاس، وبغية تحقيق ذلك فعلاً أرسل صالح باشا ابنه محمد بك إلى إستانبول محملاً بالهدايا والتحف الثمينة مع رسالة يطلب فيها تأمين مساعدة عسكرية له، ليتمكن من توجيه ضربة محكمة وقاسية ضد الإسبان والفاسيين المتحدين مع بعضهم ضد ممتلكات الأتراك في تلك الديار البعيدة، وتلقينهم درساً لا يُنسى[2].

قبل السلطان عرض صالح باشا بكل تقدير واستحسان، فأمر بتجهيز

(*) قرافل: وهي نوع من السفن الشراعيه العريضه. سعها من ١٠٠ - ١٥٠ مع طاقمها وهى سريعه.

(١) دي غرامونت.

(٢) أوغست كور.

أربعين قادرغة مع ستمائة إنكشاري مدججين بالسلاح والعتاد، وإرسالها فوراً إلى باشا الجزائر، ولدى وصول الأسطول من إستانبول، أمره الباشا بالتوجه إلى رأس ماتيفو للرسو هناك، وبعد مدة وجيزة التحق الباشا به مصطحباً معه ثلاثين قادرغة وثلاثة آلاف جندي مسلح بالبنادق، وقد اتخذ الباشا هذا الإجراء لأن المدينة كانت تتعرض لوباء شديد، وتجنباً من انتقال العدوى إلى بحارته، ولكي لا يعلم الإسبان بوصول الامدادات إليه من إستانبول، فيعمدون بدورهم إلى طلب النجدة والمساعدة من الحكومة الإسبانية.

جهز الباشا القوات الجزائرية بكل ما يلزمها من أرزاق ومعدات حربية، ووجه باتجاه الغرب جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف خيال عربي وثلاثين ألف مقاتل محلي، وحالما وصل صالح باشا إلى الأسطول، كان على وشك إعطاء الأمر للجيش والأسطول بالتحرك، لكنه أصيب بالوباء وتوفي على أثره في شعبان سنة ٩٦٣هـ/ حزيران ١٥٥٦م.

تزوج صالح باشا من ابنة سلطان كوكو، وانجبت له طفلاً سماه محمد، وفيما بعد أصبح أمير أمراء الجزائر، وقد توفي صالح باشا عن عمر يناهز السبعين عاماً.

سيطر على الجيش والجزائريين حزن شديد وأسى عميق على وفاة أمير أمراء الجزائر الشهير، وقد رفض الجيش وقادته التراجع، وعهدوا القيادة إلى حسن قورصو، فأمر الأسطول بنقل الأرزاق والذخيرة إلى مستغانم[1].

وأثناء توجه الجيش إلى وهران التحق به الكثير من المحاربين، وفور وصوله إلى وهران قام بمحاصرتها، ثم باشر بفتح الخنادق حول المدينة، ونصبت بطاريتان للمدافع، الأولى أمام باب تلمسان، والثانية على الجبل الواقع غرب المدينة، ثم بدأ الهجوم، فاحتل أولاً برج القديسين، كما وضعت القلعة ضمن محاصرة قوية ومحكمة، وفي هذه الأثناء قَدِمَ قلج علي

---

(١) دي غرامونت كان حسن قورصو وكيل صالح باشا، اما الدفتر الهمايوني رقم /٢/ فيذكر ان وكيل صالح باشا كان حيدر، وبما أن حيدر أصيب بجروح أعفي من منصبه في ٩ جمادى الاخر سنة ٩٦٣هـ، وأن حسن باشا لم يكن وكيلا لصالح باشا.

باشا من إستانبول يحمل فرماناً سلطانياً بإعادة الأربعين **قادرغة** التي أُرسلت من إستانبول[١] ، نظراً لقيام أندريا دوريا بضرب الجزر العثمانية في مضيق الدردنيل (تشناق قلعة) وأن الأمر يتطلب الرد عليه فوراً[٢] .

ولدى عودة القوات إلى إستانبول ، أصبحت قوات الجزائر غير قادرة على متابعة الحصار ، لذلك أُجبرت على رفع الحصار والعودة إلى الجزائر ، وأثناء العودة بدأت القوات **بملاحقتها** حتى مزغان ، وتمكنت من الاستيلاء على بعض المدافع والمعدات الثقيلة .

---

(١) أوغست كور .

(٢) قبل المورخون الإسبان والإيطاليون هذا السبب . ولكن دي غرامون ، يذكر بأن الديوان الهمايوني أصدر أمره بإعادة القادرغات مع جنودهم . لأن حسن قورصو تسلم قيادة الجيش دون الحصول على إذن من إستانبول ، وقد اعتبر عمله أشبه بانتصاب للسلطة في الجزائر ، لذلك فإن الديوان الهمايوني لم يستحسن تصرفه ، وتخوف من تسلمه القيادة . لأنه شكك بأمانه وقدرته بالمحافظة على تلك القوة العسكرية .

- ٥ -

إمرة الأمراء

محمد باشا - أمنية حسن قورصو البقاء في باشوية الجزائر - خروج الباشا إلى اليابسة - القضاء على المشاغبين - مقتل محمد باشا - إمارة يوسف المؤقتة - محاولة محمد المهدى اغتنام الفرصة - مقتل محمد المهدى - الإصرار القوى والشجاع - الهجوم على فاس والعودة منها - التجاء عبد المالك وعبد المؤمن إلى الجزائر - هجوم الإسبان على مستغانم - القضاء على الجيش الإسباني بكامله - زواج حسن باشا - عصيان عبد العزيز.

عقب وفاة صالح عُين محمد باشا أمير أمراء الجزائر[1]، وحالما وصل خبر تعيينه إلى الجزائر حدث هيجان شديد، لأن الإنكشارية غاضبة من انسحاب الأسطول العثماني أثناء محاصرة وهران، وما أصابهم من متاعب بسبب عودتهم الفجائية، إثر انسحاب الأسطول العثماني.

كان حسن قورصو محبوباً جداً من قبل الجميع، كما أنه يتمتع بشهرة عسكرية عظيمة، ولهذا فقد انزعج الجميع من تعيين محمد باشا أميراً على الجزائر، فقرر حسن قورصو منع الباشا الجديد من دخول الجزائر معتمداً على تأييد الجميع له والوقوف إلى جانبه، وحينما وصل الباشا الجديد مُنع من النزول إلى البر أو الدخول في أي ميناء، كما وجد المدافع موجهة إلى

---

(١) بعض المصادر تؤكد أن هذا الشخص هو محمد باشا، والبعض الاخر تذكر أن إسمه كورت أوغلو، أما أوليا چلبي فيذكر أن إسمه محمد باشا الترك.

سفينته، لأن حسن قورصو أعطى تعليماته بذلك، والجميع يلتزمون بتنفيذ أوامره ورغباته. وتنقل الباشا الجديد من الجزائر إلى بون إلى عنابة، ولكنه وجد مدافعها موجهة عليه، فاضطر للذهاب إلى رأس ماتيفو والرسو هناك، ومن هناك أرسل خبراً إلى الرياس يطلب منهم القدوم إليه والتباحث بالأمر سوية.

لم يكن الرياس والبحارة راضين عما يحدث، إضافة إلى ذلك فإن غالبيتهم كانت تفضل اختيار أحد أصدقاء بربا روس، فالاختيار كان يتم من بين القادة والبكوات، ولكن هؤلاء غدوا أغنياء، لأنهم يأخذون النصيب الأكبر من الغنائم، وهذا ما لم يكونوا معتادين عليه، وفوق ذلك لم يكونوا يدفعون للإنكشارية إلا ضريبة نسبية، يضاف إلى ذلك كله، تصور البحارة أن تولي أحد الإنكشاريين إدارة البلاد، يجلب مصاعب جمة ستقع على رؤوسهم، وأن الإنكشارية سوف تتعالى عليهم لأن أمير الأمراء منهم. ولهذا قرروا التفاهم مع الباشا الجديد مستغلين المرحلة التي يواجهها ووقوف الإنكشاريين ضده، فاتفقوا وتعهدوا له بضمان دخوله إلى المدينة، وتسليمه الإدارة، لأن حراس الميناء وباب البحر كانوا يعيينون بصورة دائمة ومستمرة من البحارة، فاستغلوا ظلام الليل وهاجموا المناوبين على الحصون ودوائر البريد وقصر الجنينة واعتقلوهم، ووضعوا مكانهم حراساً من البحارة، ثم أخرجوا الباشا الجديد من الميناء، وأدخلوه قصر الجنينة، وعلى الفور أصدر الباشا أوامره باعتقال المعارضين له، كما اعتقل عدداً من الرياس وأمر بقتلهم، كما ألقى القبض على حسن قورصو وقائد بجاية علي صاردو وقائد بون (عنابه) مصطفى، وقتلهم، إزاء ذلك خاف الإنكشاريون على أنفسهم، وأعلنوا الخضوع والطاعة له، لكنهم لم يعترفوا بهزيمتهم.

وبما أن الباشا الجديد أكثر من أحكام الإعدام، فقد عم الخوف وسادت لدى الجميع فكرة الانتقام، فقائد تلمسان سابقاً والمسمى يوسف، كان صديقاً وفياً لحسن قورصو، وقد أقسم يميناً بالانتقام له، وتنفيذاً لأيمانه أخذ بالتحضير والاستعداد لذلك، وكان الثائرون يرتقبون الفرصة المناسبة للتحرك، وفي هذه الأثناء كان الوباء لا يزال مستمراً، وأن الباشا هرب من المدينة خوفاً من إصابته بالمرض، وأقام خيمة له تبعد عن مدينة الجزائر ثلاثة

أميال في موقع جاب جاكسينا (Cap Caxine) ، كذلك فإن البحـارة خرجـوا للغزو بعد هدوء البحر، فتحرك يوسف والرجال الذين معه مغتنمين الفرصة، فاستولوا على المدينة واستحكاماتها وأغلقوا أبوابها، ومن ثم توجهوا إلى مقر الباشا، ولدى سماع محمد باشا الضجيج والضوضاء، ركب فرسه واتجه إلى المدينة، فلاحقه أربعة من العصاة على بغالهم، لكن محمد باشا وجد أبواب المدينة مغلقة، وحينما أيقن بعدم الحصول على المساعـدة من أي جهـة، اضطر للعودة إلى الوراء، فالتجأ إلى تربة سيدي يعقوب طالباً شفاعته، لكن المتمردين ما زالوا يلاحقونه، وما أن نزل عن فرسه وبدأ بالسير على قدميه، حتى فاجأه المتمردون وعلى رأسهم يوسف فضربه برمحه فأرداه قتيلاً ثم قطع رأسه، وعمت إثر ذلك فوضى مدهشة ومخيفة، وقبل الجميع إمـارة يوسف باشا على الجزائر[1].

حالمـا تسلـم يوسف الإدارة، فتـح خزانـة الجزائـر ووزعهـا علـى أصدقائه، لكن هذا الحكم والحكومة لم يستمرا طويلاً، وبعد ٥ ـ ٦ أيام مات يوسف باشا، ويقال: أن موته كان بسبب إصابته بالوباء، فعين على إمـارة الجزائر يحيى وكيل صالح باشا، وتذكر بعض المصادر أن صالح باشا أوصى له بالوكالة قبل موته بقليل، عمل يحيى بالاتفاق مع الرياس على حفظ الأمن، وتوطيد الهدوء والاستقرار منتظراً قدوم أمير من إستانبول[2].

إمارة حسن باشا الثانية:

جرت الأحداث بعكس ما كان متوقعاً، إزاء ذلك لم يكن لدى الديوان الهمايوني شغل سوى فرض عقوبة بحق الإنكشاريين المتمردين، لأن مقتل محمد باشا أيقظ لديه تساؤلات كثيرة، وترك أثراً سيئاً عنهم لدى إستانبـول، لهـذا أمـر بمعاقبة العصاة، وكان الشخص المناسـب آنـذاك لإرسالـه إلـى

(١) دفتر مهماب الديواں الهمايونى فى ٢ ربيع الآخر سنة ٩٦٤هـ واستناداً إلى رسالة جاءت من محمد باشا أمير امراء الجزائر بأنه كان على رأس الحكومه وأنه كان سالما.

(٢) وجد بين الوثائق الإسبانية فيما يتعلق بالأحداث الإفريقيه لسنه ١٣٧٧هـ ص ٢٨٧ وأن هناك وثيقة تذكر بأن فيليب الثاني أرسل رسالة فى ٢١ تموز ١٥٥٧م إلى والـي الجزائـر وقائدهـا مصطفى، ولم يذكر أحد من المؤرخين شيئا عن الشخص وربما يكون المذكور جعل نفسه بكاً على الجزائر لعدة أيام بعد وفاة يوسف.

الجزائر هو ابن خير الدين باشا باعتباره الوارث الوحيد لأبيه وأمه، وأكثر قدرة على مخاطبة أهالي الجزائر، كما أنه صديق لجميع الرياس هناك[1].

جاء حسن باشا إلى الجزائر للمرة الثانية ووصلها في شوال ٩٦٤هـ الموافق حزيران ١٥٥٧م ومعه عشرون سفينة حربية، وبهذه القوة، إضافة إلى بحرية الجزائر سيتمكن من محاربة العصاة وإنزال القصاص العادل فيهم، إلا أن حسن باشا دخل الجزائر دون إحداث أي ضجة وأعلن الجميع عن ترحيبهم به.

بعد وفاة صالح باشا وما نتج عنها من اضطراب أحوال الجزائر وخاصة في فترة حكم محمد الباشا القصيرة التي انتشرت فيها أعمال القتل والسلب والنهب، كل هذه الأحداث لم تغب عن أعين محمد المهدي الذي استغلها لصالحه حيث أرسل قوة بقيادة منصور بوغاني إلى تلمسان لاحتلالها سنة ١٥٥٧م، وكانت الحامية التركية المرابطة في تلمسان والبالغ عددها خمسمائة جندي تركي مكلفة بحمايتها والدفاع عنها، لكنها لا تملك الأسلحة التي تمكنها من مقاومة منصور بوغاني، فلجأت إلى إغلاق أبوابها، وقد بذل منصور جهوداً كبيرة لإخراج الحامية التركية والاستيلاء عليها، لكن جهوده لم تكلل بالنجاح.

أعلن حفيد بوغاني نفسه سلطاناً على تلمسان، لكنه فشل في السيطرة على قلعة المشور وعندما قدم حسن باشا إلى إمارة الجزائر أدرك الحوادث الجارية هناك، فعمل أولاً على إنقاذ الإنكشاريين المحاصرين في تلمسان، فتحرك على رأس قوة مؤلفة من ستة آلاف إنكشاري وسبعة عشر ألف جندي محلي، وبنفس الوقت كان يفكر بحيلة لخدع عدد الأتراك الرئيسي الشريف محمد المهدي، فأرسل قوة صغيرة إلى مراكش بقيادة الكخيا (الكاهية) صالح، وكلفه بقتل الشريف بعدما أفهمه ومن معه بأن ذهابهم إلى الشريف كان بسبب الظلم والإرهاب الذي يمارسه حسن باشا.

عندما كان حسن باشا يتجه إلى تلمسان، كانت المفرزة الصغيرة قد

---

(١) دى غراممونت: يذكر أن السفير الفرنسي كان لا يرغب بتعيين حسن باشا أمير أمراء الجزائر، لكن رستم باشا وعده بأن حسن باشا سيعامل الفرنسيين معاملة حسنة.

التقت مع الشريف الذي استقبلها الشريف أحسن استقبال وتأكيداً لهم اتخذهم حرساً له، فقد أضافهم إلى حراسه الأتراك السابقين، ففرح هؤلاء بأصدقائهم الجدد.

لم يمض زمنٌ طويل حتى أصبح الكخيا صالح رئيساً على الجميع[1]، وفي هذه الأثناء تحرك الشريف إلى سوسة لتهدئة البربر الثائرين ضده، واصطحب معه جميع حراسه، وبما أن الكخيا صالح ينتهز الفرصة المناسبة، فقد وافته عندما خرج الشريف إلى درنة وتمركز في موقع يسمى أقلاكل (Aklakel).

وفي نهاية سنة ٩٦٤هـ الموافق ٢٣ تشرين الأول ١٥٥٧م خرج الشريف من خيمته باكراً لمشاهدة مناورة عسكرية، وكان الحراس يحيطون به، وبعد فترة من الزمن انسحب عائداً إلى خيمته، وبينما كان يهم بدخول الخيمة، اصطدمت قدماه بحبال الخيمة فوقع على الأرض، فأسرع الكخيا صالح الرجل المسن والبالغ من العمر سبعين عاماً، وضرب الشريف على عنقه ببلطة كان قد أعدها لمثل هذه اللحظة، وفصل رأسه عن جسده، ثم وضع رأسه في كيس، وأمر من معه بقتل الأشخاص الذين كانوا مع الشريف من غير الأتراك، وصادروا خيولهم وركبوها متجهين إلى مدينة أغادير، ومن هناك كانوا يأملون الحصول على سفينة لتنقلهم بحراً إلى الجزائر، لكنهم لم يستطيعوا العثور على طلبهم، فاضطروا للذهاب إلى تارودان (تارودانت) فاحتلوها، وبعد أن أغلقوا أبوابها، قرروا الانتظار فيها.

عندما كان هذا الشجاع الجسور يتخذ قراره، كانت الفوضى والاضطرابات تسود فاس بسبب مقتل محمد المهدي، وأصبح ابنه أبو محمد عبدالله الغالب حاكماً على فاس. وقبلت مراكش هذا الاختيار، إزاء ذلك قام أيضاً أنصار الشريف بقتل كافة أفراد عائلة الأعرج. أما حسن باشا فقد اتجه

---

(١) بشأن شجاعة الكخيا صالح انظر تورس /Tores/ الصفحة ٣٩٧ وما بعد.

وهايدو ص ١١٤، الغفاري ص ٧٨ وما بعد، أوغست كور الصفحة ١٢٨.

هنرى كاستير، رحلة السفير الفاسي إلى تركيا، وهذا الأثر يعطي تفصيلات كاملة عن شجاعة وجرأة الكخيا صالح.

إلى تلمسان. وما أن علم القائد صفا ومن معه بقدوم حسن باشا حتى فروا هاربين باتجاه فاس.

أرسل محمد الغالب قوة عسكرية لضرب الأتراك المستقرين في تارودانت، وكان إلى جانب الأتراك بعض يهود الدونما، فقام أحدهم بخيانة الأتراك وفتح أبواب المدينة، فدخلها الفاسيون، لكن الأتراك تمكنوا من الفرار باتجاه تلمسان سالكين طريق درعة ـ سجلماسة، وما أن وصلوا حتى فُقد الكثير منهم.

أرسل رأس الشريف إلى إستانبول حيث علق على أحد أسوارها، وظل معلقاً حتى تعفن[1]. أما الكخيا صالح فقد قطع المسافة ما بين أغادير وتلمسان والتي تُقدر بحوالي / ٢٦٠٠/ كم، وإن قطع هذه المسافة المحفوفة بالمصاعب والأخطار ليست بالأمر السهل وخاصة بالنسبة لرجل مسن مثل الكخيا صالح، في الحقيقة أن عمله يعتبر قمة الرجولة والمفخرة، ومدعاة للفخر والإقدام.

أراد حسن باشا استغلال الفوضى السائدة في فاس إثر مقتل محمد المهدي، فلاحق الهاربين من تلمسان حتى وادي لبنة[2]. وهناك اصطدم مع قوات محمد الغالب والمؤلفة من أربعة آلاف مسلح بالبنادق وعشرة آلاف جندي مشاة وثلاثين ألف خيال، وكان القتال خلال اليوم الأول شديداً وضارياً، ولم يتبين خلاله المنتصر من المنهزم، ومع حلول الليل قام حسن باشا بتحصين مواقعه وتحكيمها جيداً، لكنه كان يعلم أن قوته ضعيفة، كما علم أثناء ذلك بأن القوات الإسبانية ستقطع عليه خط العودة عليه في حال هزيمته، وتحسباً من وقوعه في مصيدة كبيرة، قرر إيقاف القتال والعودة، ولأجل خداع الإسبان، أشعل النار في مقر قيادته موهماً الإسبان باستمرار القتال، في حين باشر الانسحاب مع حلول الظلام، وأرسل الخيالة مع المقاتلين المحليين براً إلى تلمسان، وأنزل الإنكشارية مع المدفعية بحراً بجوار مليلة في فصاصة[3]. حيث كان الأسطول ينتظرهم هناك، وعاد إلى

(١) أوعست كور. ص ١٣٠.
(٢) أوعست كور.
(٣) فور ببكه.

الجزائر مجنباً قواته التعرض لأي كمين كان الإسبان يعدونه له.

وقد تبين لحسن باشا على ضوء غزوه لفاس أنها كانت مهمة صعبة ويجهلها تماماً وأنه من المستحيل عليه القيام بأي مهمة ناجحة إلى فاس أو التوغل في مناطقها، طالما ظلت وهران بأيدي الإسبان لذلك قرر العمل بجد على طرد الإسبان من وهران قبل مهاجمة الأطراف الغربية أو أي منطقة أخرى[1].

تأثر الكونت د الكودت كثيراً، لأنه لم يتمكن من مهاجمة حسن باشا أثناء عودته علماً بأن قوات حسن باشا ضعيفة وقليلة، ولدى مراجعته للملك، أخذ يتوسل إليه لمده بعدد من الفوات[2]. فعرض الملك طلبه على مجلسه الحربي، وبعد ظهور مشاكل عديدة، وافق المجلس بالأغلبية على تزويده بعدة فرق حربية شريطة احتلال مستغانم فقط.

كان من أشجع أولاد الشريف محمد المهدي، عبد المؤمن، فكان يعمل على استغلال جميع الفرص بكل ما يملكه من همة وعزيمة، ونشاطه هذا أيقظ لدى أخيه المتسلم لزمام السلطة الحذر والحيطة منه، فناداه إلى جانبه.

قام عبدالله أبو الغالب بقتل أولاد عمه الأعرج، وخنق أولاد عمه أبو سعيد عثمان الثلاثة، فخاف عبد المؤمن من ظلم وجبروت أخيه عبدالله، ففر مع أخيه عبد الملك إلى الجزائر.

أدرك الكونت د الكودت أن ولاية وهران ستخرج من يديه، بعدما سيطر حسن باشا على تلمسان ثانية، وأنه لن يتوجه إلى مهاجمة الفاسيين، لذلك أصر الكونت على احتلال مستغانم بالقوات التي جاءته من إسبانيا، وأن الفاسيين سيقدمون له المساعدة بعد اتفاقهم معه، وفعلاً فقد جاء ابن بوغاني بما لديه من الفرسان لمساعدته، أما الشريف محمد الغالب فهو يعد قواته لمهاجمة الجزائر، لدى أول إشارة مساعدة يطلبها الإسبان.

لقد أعد الأتراك خطة واضحة تمكنهم من مواجهة الجيش الفاسي الذي

---

(١) دي عراممونت.

(٢) دفتر مهماب الديواد الهمايوني. سره / ٦/ ص ٤١٥ أوعسب كور.

سيقوم بمهاجمة استحكامات مسكرة ومليانة ، لدى تقدم قواتهم باتجاه مستغانم .

لم يتمكن الفاسيون من الاستعداد والتهيؤ آنذاك ، كما أن الكونت د الكودت اندفع ثانية إلى التهور باتباعه للطريق الذي سلكه قبل اثنتي عشرة سنة ، وكأن الخطر الذي واجهه آنذاك لم يكن كافياً[1] .

تحرك الكونت دالكودت من وهران في ٢٢ آب ١٥٥٨م ، بكل قواته وعتاده مع أعداد كبيرة من مؤيديه من القوات المحلية ، وفي الوقت نفسه كانت أربع سفن كبيرة محملة بالأرزاق والمعدات تسير بمحاذاته بحراً .

علم حسن باشا بذلك ، فاتخذ احتياطاته اللازمة ، فتحرك من البر والبحر ، وكان يراقب تحركات الأعداء من المناطق المحاذية لأرزو ، كما كلف سفنه بمهاجمة السفن الإسبانية المحملة بالأرزاق والمعدات ، وتمكنت من الاستيلاء عليها أمام أعين القوات الإسبانيه ، فأصيبت القوات الإسبانية من جراء ذلك بخيبة أمل كبيرة ، وتحطمت معنوياتها منذ اللحظة الأولى ، فبدأت علائم المجاعة تظهر على وجوههم .

قام بك تلمسان ومحافظوها بملاحقة القوات الإسبانية ، ونصبوا لهم كميناً لمهاجمة جناحهم الأيمن[2] . وتمكنوا بهذا الهجوم المفاجيء من إحداث خلل وإرباك شديدين في صفوف القوات الإسبانية ، وما أن علم الجزائريون بالوضعية السيئة للإسبانيين حتى استغلوها بذكاء ، فبدأوا بشن هجمات خاطفة عليهم وتمكنوا من خلالها من نهب ما لديهم من أرزاق .

دُهش الإسبان وسيطر عليهم الخوف والجوع ، فاندفعوا إلى مزغان والحقد على قلوبهم فحرقوا أبوابها ، محاولين جعل أحجارها قذائف يقذفون بها المدينة وسكانها ، انتقاماً لما تعرضوا له من قتل وجوع وتعب .

أصر الكونت دالكودت على مهاجمة مستغانم ، بالرغم من فقدانه للمهمات والأرزاق ، ولم يبق أمامه سوى حل واحد ، وهو احتلال المواقع

---

(١) دي غرامونت .

(٢) دي عرامونت : كتب ان قائد تلمسان كان قلح على .

التركية بغية الحصول على بعض احتياجاته، فهاجمها بسرعة قبل وصول الإمدادات إليها، وما إن اقترب منها حتى باشر قصفها بالمدفعية قصفاً وحشياً، ومع حلول الليل اقترب الإسبان من المدينة، وفي الصباح تمكنوا من فتح ثغرة في سورها، فاندفعوا إلى داخل المدينة، ولكن الأهالي دافعوا عن مدينتهم دفاعاً مستميتاً، وكان القتال يدور في كل بيت وكل شارع، وكان الأهالي يدافعون عن مدينتهم منطلقين من إيمانهم، ومعتقدين بأن المساعدات ستأتيهم من الجزائر.

وبالفعل فقد أرسل حسن باشا قوة لمساعدتهم مؤلفة من خمسة آلاف رجل مسلح بالبنادق وألف خيال محلي، ووصلت القوة إلى مستغانم بعد الظهر، وعلى الفور بدأت بمهاجمة القوات الإسبانية، ودار قتال مرير، أسفر في النهاية عن قذف الأعداء من القلعة إلى الصحراء مباشرة، ومع حلول الليل افترق الطرفان، ولم يُبق الجوع والتعب وقلة النوم أي أمل للقوات الإسبانية، فتركوا جرحاهم ملقاة في الطرقات والأماكن المهدمة طالبين الاستغاثة والنجدة.

ومع شروق الشمس، أضيئت اللوحة الحزينة، ورأى الإسبان أنفسهم محاطين من جميع الجهات، فالتلمسانيون على جناحهم الأيمن، والبحارة على الجناح الأيسر، أما قسم المدفعية من البحارة فقد سلط نيران مدفعيته عليهم وبدأ بقذفهم بكثافة. إزاء ذلك لم يجد الإسبان وسيلة أمامهم سوى الفرار والنجاة بأرواحهم، فباشروا الفرار بسرعة، فقام حسن باشا بمهاجمة مزغان لقطع الطريق عليهم واصطيادهم واحداً واحداً.

أما خيالة ابن بوغاني حليف الكونت فقد فروا متجهين إلى القرى المجاورة، نتيجة لانقلاب المتحالفين معهم عليهم.

تعرض الإسبان للهجوم من جميع الأطراف، وعلى الرغم من الشجاعة التي أبداها الكونت وضباطه، إلا أن علائم الهزيمة بدت ظاهرة عليهم، وبدافع اليأس والقنوط اتجه الكونت وابنه دون مارتين إلى مزغان محاولين الاستيلاء عليها، إلا أن الأهالي وبعض القوات التركية تصدت لهم ودار القتال بالسلاح الأبيض، فسقط القائد العجوز قتيلاً بين الأقدام، ومع وصول القوات الجزائرية زاد خوف الإسبان فمنهم من مات خوفاً، ومنهم من فر

محاولاً النجاة بنفسه، أما الباقون فقد وقعوا أسرى بأيدي القوات الجزائرية، وكان من جملة الأسرى ابن الكونت دون مارتين، ولكنه أُنقذ من الأسر بعد سنتين لقاء فدية كبيرة[1]. وأصبح الجيش بغالبيته إما أسرى وأما قتلى، ولم ينج منه فرد واحد، وتعتبر هذه الهزيمة من أكبر وأقسى الهزائم التي تعرض لها الإسبان خلال قرنين من حكمهم لوهران، وتعرض جيشهم للفناء بجوار مقته[2].

وفي التاسع من أيلول سنة ١٥٥٩م وصل خبر القضاء على الجيش الإسباني إلى سان جوست وأخفى خبر الهزيمة عن شارلكان لأنه كان على فراش الموت[3]، وأسفرت هذه الهزيمة بالقضاء على أفضل القادة والضباط الإسبان في شمال إفريقية. واقتنع الإسبان بضرورة البقاء في وهران والمحافظة عليها، ومع ذلك غدا واليها يتلقى المضايقة من جميع الأطراف.

عندما عاد حسن باشا إلى الجزائر، رغب بإيجاد قطعة عسكرية ليوازن بها الإنكشارية سعياً لإخضاعهم لسلطته، ولتحقيق أمنيته، عقب انتصاره في مستغانم، جمع أعداداً من المهتدين الإسبان وزودهم بالبنادق، وعين عليهم قائداً من أصدقاء والده الأمناء وممن يثق بهم، ولتأمين دعم داخلي تزوج ابنة ابن القاضي شيخ قبيلة زواوه[4].

قصد حسن باشا من هذا الزواج منع عبد العزيز رئيس قبيلة بني العباس من إعلان استقلاله في بجاية، وكان عبد العزيز يستعد لتحقيق فكرته، فأحضر المدفعية والذخيرة وشكل قطعة عسكرية من أسرى الإسبان الفارين، واستأجر منهم ألف شخص.

حقق حسن باشا بزواجه صداقة دائمة مع الداخل، وأزال العداء المستحكم بين الأتراك وسلطان كوكو، ولدى سماع عبد العزيز بالاتحاد

---

(١) دى غرامموت.

(٢) فور بيكه.

(٣) دى غرامموت.

(٤) اتفق فور بيكه ودى غرامموت حول زواج حسن باشا. أما هامر فذكر بأن حسن باشا تزوج من ابنة الريس طرغوت، وإذا كان هذا الزواج صحيحاً، فإن حسن باشا يكون تزوج للمرة الثانية.

الذي تم ما بين حسن باشا وسلطان كوكو، أعلن عداءه العلني لحسن باشا، **وتحدياً لحسن باشا قام باحتلال أبراج مجانة وآذمور وقتل حراسها**[1]. واستمرت تلك المواقع بيده مدة سنتين، وقد واجه الإنكشاريون في بداية تصديهم له مصاعب كبيرة، وهزموا لفترتين متتاليتين، وفي شهر أيلول في سنة **١٥٥٩ م خرج حسن باشا على رأس جيش مؤلف من ستة آلاف جندي** مسلح بالبنادق وستمائة خيال، وانضم إليه من القبائل قرابة أربعة آلاف مقاتل، أما ابن القاضي حليف حسن باشا فقد قام مع عناصره باحتلال أراضي بني العباس أثناء القتال.

تمكن رئيس بني العباس من جمع ١٦ ـ ١٨ ألف جندي[2]. وبهذه القوة هاجم الأتراك ودارت بين الطرفين حرب طاحنة، واجه الأتراك خلالها إرباكاً شديداً ومع أن القتال استمر ساعات طوال إلا أن نتائجه ظلت غير معروفة، ومع أواخر النهار تعرض عبد العزيز لإصابة أردته قتيلاً، وحالما علم جنوده بذلك فروا منهزمين في مختلف الجهات، فاحتل الأتراك مواقعهم[3]. وفي اليوم الثاني تمكن أخو عبد العزيز المفراني من جمع قواته، وعاود الهجوم من جديد على الأتراك، وقد تمكن تحويل المعركة إلى حرب عصابات مستفيداً من طبيعة المنطقة، فعرض الأتراك من جراء ذلك إلى إنهاك وتعب شديدين، وزادت خسائرهم بسبب عدم قدرتهم على مقاومة برد الجبال وما رافق ذلك من شتاء مثلج وعاصفة قوية.

علم حاكم فاس بالمواقف الحرجة التي يعانيها الأتراك، فاستعد لمهاجمة الحدود الغربية للجزائر، كما أن ملك إسبانيا كان هو الآخر يجهز أسطولاً بحرياً لنفس الغرض، ولدى موت الكونت دالكودت فترت العلاقة

---

(١) أرمورة. وهى تقع على بعد عشرين كيلو متر من الجنوب الشرقى من زلداته على طريق ساره ـ محانه. وهى فى القسم العربى من سهل سسف.

(٢) فور بيكه.

(٣) تبعد قلاع بنى العباس عن برج أبو عريريج قرابة ٦ كم من الجهة الشمالية الشرقية. وان الطريق الواقع فى الطرف الشمالى الشرقى كثير الوعورة، وهو يعرف الآن بطريق الداعر. وكلمه بنى العباس تُلفظ من قبل المؤرخين الأوروبيين ـ (لابر).

الإسبانية الفاسية ، لكن الملك فيليب الثاني قام باحيائها وتجديدها ، لقاء ذلك اضطر حسن باشا إلى اللجوء إلى اتباع سياسة اللين والمهادنة تجاه المقراني ، وأقام الصلح معه ، فقبل المقراني إعلان تبعيته للأتراك مع دفع ضريبة نسبية[1] . وقال حسن باشا لنفسه : إن خير الدين أفضل مني[2] . فآل بربار وس عندما كانوا حفنة صغيرة ، استطاعوا السيطرة على الجزائر، وأنه خطط لإمارة في المهدية ، لكن الإسبان اختطفوها منه .

لقد شن الريس طرغوت على جربة وقدر الجميع له هذا الهجوم الموفق الناجح ، وبفضل حكمته وتدبيره تمكن من أخذ طرابلس الغرب فى ١٥ آب ١٥٥١م / ٩٥٨هـ[3] . ومُنحت الولاية إلى أمير تاجوراء مراد آغا ، وهي من حق سيف طرغوت ، وبالنهاية وجهت الإمارة إليه بعد وفاة مراد باشا ، وسيطر الأتراك بذلك على شمال إفريقية . وأوقعوا الهزائم الكثيرة بالإسبان . وخضعت لهم تونس والجزائر، وطرابلس الغرب ، وخلال ذلك دفع من بقي من الحكام الضريبة للإسبان ، وبقي نفوذهم منحصراً داخل أسوار مدينة تونس فقط.

أخذ البابا بيو الرابع يدعو بحماس شديد إلى تشكيل جيش صليبي لمواجهة الأتراك ، وقد أعدت الاستعدادات لهذا الهجوم من موانىء إسبانيا وإيطاليا وصقلية ، وكان فرسان مالطة في مقدمة الذين أعلنوا استعدادهم للاشتراك في تلك الحرب ، لأنهم شعروا بأن مصالحهم بدأت تتعرض للخطر من جراء ازدياد النفوذ التركي في تلك المناطق ، وقد استغل المسيحيون شكوى بعض شيوخ جربة وطرابلس وطلبوا منهم مناصرتهم ومساعدتهم لإنقاذهم من الاستبداد التركي[4] .

علم أمير أمراء الجزائر والقبطان باشا بخبر استعداد المسيحيين ،

---

(١) فور بيكة .

(٢) بحثه الكبار .

(٣) انظر الأحداث المتعلقة بالريس طرغوت فى قسم طرابلس الغرب . الجزء الثانى ترجمه الحاج عبد السلام أدهم .

(٤) دفتر مهمات الديوان الهمايونى .

فأعلموا إستانبول في ٢٢ ذي القعدة من سنة ٩٦٦هـ بما عزم عليه المسيحيون[1].

اتخذ الريس طرغوت حيال معرفته وخبرته كافة التدابير اللازمة، فقام أولاً بتحصين ولايته، كما قام ببناء عدة مواقع دفاعية أخرى من باب الحيطة والحذر ومن بعد ذلك التفت إلى إعداد قواته إعداداً سليماً. وقد كتب حاكم تونس إلى الديوان الهمايوني يعلن انضمامه إلى الريس طرغوت، لأنه يرغب بمؤازرة المسلمين ضد المسيحيين. فجهز جيشه وأسطوله.

وفي رجب المبارك سنة ٩٦٧هـ[2]. كُلف يبالي بالتحرك لمنع المسيحيين من الاعتداء على الشمال الإفريقي، لكن الأعداء لم يقوموا بعدوانهم صيفاً، فاضطر الأسطول للعودة إلى إستانبول مع أوائل الشتاء. فاغتنم الأعداء ذهاب الأسطول وتحركوا بأسطولهم في ١٢ شباط ١٥٦٠م، وتمكنوا من احتلال جربة واتخذوها قاعدة لهم لمهاجمة طرابلس، وبدأوا بتحصينها وترميم أسوارها.

وحالما علمت إستانبول بذلك ـ كان موسم الإبحار قد آن أوانه! أمر يبالي باشا بالتحرك، وبلغ جربه في ١٥ آذار، وبعد خمسة أيام لحق به الريس طرغوت ـ وبدأ بين الطرفين قتال حامي الوطيس، ومع أوائل نيسان أجبر جيش العدو وأسطوله على الفرار بعدما تكبد هزيمة كبرى، فقد من جرائها معظم قواته، وإن الهرم الذي صنع من رؤوس الأعداء ظلت آثاره قائمة حتى منتصف القرن التاسع عشر(*)، وقد أمر بك تونس فيما بعد بنقل الجماجم والهياكل من برج الروس إلى مقبرة المسيحيين في حومة السوق[3].

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني.

(٢) مهمه دفتري.

(*) إن الحمله التي قادها مدينا كويلي، وأسفرت عن فشل ذريع، أقام الاتراك على أثرها نصباً تذكارياً قرب جربه. وهو نصب أقيم من جماجم المسيحيين، وقد بلغ ارتفاع هذا الهرم من ٢٠ ـ ٣٠ قدماً وقاعدته ١٣٠ قدماً، وقد سُمي برج الجماجم وظل قائماً حتى سنه ١٨٤٨م حيث سعى أسقف تونس لدى أحمد بك لنقله إلى المقبرة، فوافق باي تونس على ذلك. انظر: طرابلس من ١٥١٠ ـ ١٨٥٠ تأليف كوسانزيو ترجمة خليفة محمد التليسي ص ٧٦.

(٣) جوان دليل تونس والجزائر.

إن فشل الحملة الصليبية أدى إلى ازدياد نفوذ الأتراك لدى سكان الشمال الإفريقي ولدى مشاهدة حاكم فاس هذا النصر العظيم ، ألغى الحملة التي أعدها لمهاجمة الحدود الجزائرية[1] . لكن أمير أمراء الجزائر كان يريد معاقبة الفاسيين لمجرد تفكيرهم بمهاجمة الحدود الجزائرية .

شكل حسن باشا فرقة عسكرية من قبيلة زواوة[2] . وعهد إليها أمر المحافظة على المدينة أثناء غيابه ، بحجة أنه سيذهب إلى غزوة طويلة المدى ، وفي الحقيقة فقد اتخذ هذا الإجراء تحسباً من قيام الإنكشاريين بثورة ضده .

أدرك الإنكشاريون أن هذا الإجراء الذي اتخذه حسن باشا يحد من نفوذهم ، علماً بأن حسن باشا ضعف نفوذه في إستانبول بعد موت حاميه الصدر الأعظم رستم باشا ، لذلك فكروا التخلص منه ، إلا أنهم أدركوا أن قتله سيعرضهم لخطر كبير ، فهو ابن الغازي خير الدين باشا المحبوب من الجميع ، إضافة إلى أنه ابن للسكان الجزائريين وهم يحبونه ويقدرونه .

وفي حزيران سنة ٩٦٩هـ / ١٥٦١م ، بدأ الإنكشاريون بمضايقته أمام قصر الجنينة ، ثم أمسكوا به ووضعوه مع أنصاره في سفينة ، وعهدوا إلى عدد من رؤوساء الأقسام من مرتبة بلوكباشي بإيصاله وأنصاره إلى إستانبول ، وكان رؤوساء الأقسام يرغبون بتقديمه إلى الديوان الهمايوني بتهمة محاولته تشكيل إمبراطورية خاصة به في شمال إفريقية ، وأنه يسعى لإلغاء الإنكشارية ، وإقامة تشكيلات محلية بدلاً عنها ، إضافة إلى إقامته لصلات وطيدة مع القبائل المحلية .

حقيقة الأمر . لقد كان حسن باشا بريئاً من هذه التهم ، وكل ما هدف إليه

---

(١) يذكر أوعست كور بأن جيش فاس عبر حدود تلمسان وتمكن من احتلال بعض المناطق ، ولكن الاهالي بدأوا بالاحتجاج والتمرد . وإثر هزيمة الإسبان اضطر الجيش للتراجع ، وقد لحق به بعض الرياس الجزائريين تاركين أموالهم وهربوا إلى فاس فاستقبلهم الشريف بالترحاب ومنحهم أماكن خاصة بهم وأسند إليهم بعض الوظائف .

(٢) زواوة : وهي قبيلة صديقة للأتراك ، وقدمت لهم خدمات جلى ، لذلك شكل حسن باشا قطعة عسكرية وسماها فرقة زواوة ، وقد وردت في بعض المصادر الأخرى بأسم (زواف) تميزاً لها عن بعض الفرق العسكرية .

إقامة تشكيلات عسكرية برية وبحرية، تكون مستعدة للحرب بصورة دائمة مستمرة، لأنه لاحظ أن الخلل والفوضى بدأت تتسرب إلى صفوف الإنكشارية وهي بذلك غدت عبئاً على النظام، ولا تساعد على إدارة البلاد بشكل سليم، كما أنه لا يمكن لعناصرها ممارسة الأعمال الإدارية، وحسن باشا إذا أظهر اهتماماً بالعنصر المحلي، فهذا يرجع لأنه ولد بينهم، وتربى وسطهم، لقد تمكن حسن باشا من تكذيب الشائعات القائلة بأن القولوغلية لا تصلح لتولي المهام الكبرى والرفيعة في الدولة[1]. وكان آغا الإنكشارية ممن حرض الإنكشارية على التمرد ضده وساعده معاونه كوسه محمود الذى تمكن فيما بعد من أن يصبح وكيلاً للآغا ثم توصل ألى تولي إدارة الجزائر.

بعد مغادرة حسن باشا إلى الجزائر بثلاثة أشهر قدم أحمد باشا إلى الجزائر على رأس أسطول بحري[2].

وقد كلف أحمد باشا بمهمة إلقاء القبض على المتمردين من الإنكشارية ووضع رؤوساءهم في سفينة خاصة وإرسالهم إلى إستانبول، وبالفعل فقد تمكن أحمد باشا من إلقاء القبض على المتمردين وأرسلهم إلى إستانبول، وهناك قطعت رؤوسهم جميعاً. إلا أن البلاد تعرضت عقب ذلك إلى خلل كبير، وقد عمل أحمد باشا على إصلاح الخلل ووفق في ذلك، ولكنه توفي سنة ٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م وهناك شائعات تفيد بأنه مات مسموماً. خلفه في إدارة البلاد العجوز يحيى.

بعد وفاة أحمد باشا بثلاثة أشهر عاد حسن باشا ابن خير الدين باشا أمير أمراء الجزائر للمرة الثالثة يرافقه عشر قادرغات ذات فنار تحسباً من تمرد الإنكشارية عليه مرة أخرى، إضافة إلى ذلك فقد وضع تحت تصرفه جميع

---

(١) إن القاعدة التي تنص على عدم تسلم القولوغلية مرتبة الرئاسة هي صادرة عن ديوان الإنكشارية. وإذا كان تاريخ وضعها غير معروف فليس من الخطأ إذا قلنا أنها وضعت في منتصف القرن السادس عشر ميلادي، وإذا كانت هذه القاعدة قد وضعت من قبل الريس عروج. ففي زمانه لم تكن القولوغلية موجودة، وأن القول بأن السيد عبد الرحمن الثعالبي هو الذي أوصى عروج بهذه الفكرة. فإن ذلك خطأ فادح. لأن المرابط المذكور توفي قبل قدوم الأتراك إلى الجزائر بمدة لا تقل عن أربعين عاماً.

(٢) دي غرامونت يقول انه كان بوابا اما فوريكه فيقول كان بحارا.

قادرغات قبطان باشا ، إلا أن العقاب الذي حل برؤوساء العصيان والتمرد دفع الجميع لتذكره ماثلاً أمام أعينهم ، فخلدوا إلى الهدوء ، ودخل الباشا قصر الجنينة بهدوء وأمان ، وانصرف إلى تنفيذ ما كان يفكر به سابقاً وهو غزو وهران وطرد الإسبان منها ، وبالفعل فقد باشار باتخاذ الاستعدادات والتدابير اللازمة لذلك ، فجمع الأتراك والمهتدين الإسبان وكون فيهم جيشاً قوامه خمسة عشر ألف مقاتل مسلح بالبنادق وجمع من قبيلة زواوه ألف خيال ومن قبيلة بني العباس قرابة اثني عشر آلف مقاتل محلي ، وعهد إلى الأسطول بحمل الأرزاق والمهمات ، وكلفه بالتوجه إلى مستغانم ومنه إلى آرزو للرسو هناك .

تحرك حسن باشا في ٥ شباط ٩٧١هـ / ١٥٦٣م تاركاً خليفته علي شتلي بإدارة البلاد ، كما ترك لقائد تلمسان علي إسكندر رضا عدة طوابير عسكرية بالقرب من مقته ، وعهد إليهما تأمين خط العودة له ، ومنع الإسبان من جمع الأرزاق ، وفي الثالث من نيسان وصل جيش حسن باشا إلى جوار وهران وأقام مقر قيادته في رأس العين[1] .

وفي اليوم الأول أقام بطاريتين للمدفعية أمام برج القديسين ، وكان حاكم وهران آنذاك دون الونزو دي جوردوفا (Cordova) في حين كان أخوه ماركيوس دي كورتس ودون مارتين مكلفين بالدفاع عن المرسى الكبير ،

---

(١) أنشئت وهران في وادي رحى على سفحي الوادي ، ولم يكن منظرها جميلا مثل مدينة الجزائر ، واستنادا إلى ما ذكره المؤرخون العرب ، فقد أنشئت من قبل البحارة الأندلسيين سنة ٩٠٢هـ واحتلها الإسبان في السابع عشر من شهر آيار لسنة ١٥٠٩ م وعملوا على تحصينها ، كما أحاطوها بسور ضخم وبنوا فيها عدة استحكامات وكان أول والٍ إسباني عُين عليها هو روسال قصار Resal Kasar . وقد أنشىء فيها البرج الأحمر وهو يتألف من بناء عسكري بين وادي رحى ووادي رؤين ، وهو عبارة عن ثلاثة أبراج مرتبطة بالأسوار ويطلق على هذا المكان حالياً القصر الجديد ، وعندما فتحها الأتراك اسمر أمير العرب في هذا القصر ، وكتب على بابه فتح من قبل حسن باشا سنة١٢٠٦هـ/١٧٩٢م ويذكر جواد في دليل تونس والجزائر أن استحكامات القلعة الداخلية هُدمت ، وقد أنشأها سكانها القدماء ، وأقيم مكانها قصر ، ويطلق على القسم الجنوبي من وادي رحى اسم رأس العين ولا يزال الاسم حتى الآن ، وعندما احتلها الإسبان طردوا سكانها البربر منها ، وكان المرسى الكبير مربوطاً بها وهو عبارة عن ميناء كبير وعميق يبعد عن وهران ٨ كم ، ولدى خضوعها للأتراك بنوا فيها جامعا أطلق عليه اسم جامع الباشا ، بلغ عدد المسلمين فيها سنة ١٨٣٢م ٢٥٠ مسلم والأوربيين ٧٥٠ أوربي و٢٨٠٠ يهودي .

وقد وُجد في هذين الموقعين بعض المهمات والذخيرة، وأثناء مهاجمة الجزائريين لوهران، وصلت نجدات لها من إسبانيا، لكن العاصفة بددتها ومنعتها من الوصول، وحتى سفينة الأميرال دون جوان مندوزة قائد الأسطول غرقت بما فيها من أرواح وأموال[1].

بعد تعرض الأسطول الإسباني للعاصفة المدمرة، تعذر على الإسبان الخروج ومهاجمة خط المحاصرة المفروض عليهم، ولم يكن أمامهم سوى الاكتفاء بالدفاع عن الأسوار والتحصينات الموجودة بين أيديهم، ولدى أول هجوم سقط برج القديسين واستولى حسن باشا على المرسى الكبير ووضع **أسطوله فيه، فضمنه من التعرض للعاصفة. إلا أنه كان يرغب بوضع اللوازم والمهمات ضمن المخازن الموجودة فيه.**

طلب حسن باشا من قائد حصن ميشال الاستسلام، ولم ينتظر حسن باشا وصول الأسطول لأخذ المدافع منه، فقام بردم الخندق بقصد احتلال البرج، وخلال يومين قاد بنفسه الصعود إلى الحصن بواسطة السلالم ووفق في ذلك، لكنه وجد مقاومة عنيفة لذلك اضطر إلى الانسحاب وقد اختار لهذه المهمة خمسمائة مقاتل من أشجع جنوده وأمهر ضباطه، وكانت العاصفة التي شتت الأسطول الإسباني قد أعاقت أيضاً وصول أسطوله، ولهذا لم يتمكن من توجيه الضربة القاتلة للإسبان.

اضطر حسن باشا إلى الانتظار ريثما يصل الأسطول ويستخدم المدفعية، وكان المسؤول الإسباني عن المرسى الكبير هو دون مارتين ابن الكونت دالكودت، ودون مارتين هذا يحمل جميلاً لحسن باشا، ولهذا عندما طلب حسن باشا منه الاستسلام أجابه دون مارتين بكل أدب واحترام اعترافاً بفضل حسن باشا عليه إذ سمح له بدفن والده وإقامة المراسيم المعتادة عليه. «بهذا الخصوص نابع لأمركم، لكن مليكي عهد إلي المحافظة على الحصن ولا يمكنني تسليمه» وفي هذه الأثناء وصلت سفن حسن باشا، فأخذ المدافعية منها، واعتباراً من ٤ أيار بدأ الهجوم براً وبحراً، وقد شن الباشا خلال يومين خمس هجومات، لكنه لم يُوفق بها، وفي مساء الليلة السادسة والسابعة من

---

(١) دي غرامونت.

أيار وصلت الامدادات لمحافظي المرسى الكبير من وهران ، وخلال اليوم السابع من أيار شن حسن باشا هجوماً بكامل قواته، وعلى دفعتين متتاليتين من الهجوم المكثف والمركز ، تمكن من فتح ثغرة صغيرة ، لكنها لا تسمح بمرور حيوان صغير ، وبالرغم من ذلك فقد تمكن من الدخول بنفسه وغرس علمه في الداخل ، وأثناء خروجه تعرض لجروح في رأسه ، وبما أنه تعرض لخسائر كبيرة فقد أجبر على الانسحاب .

أما حصن سان ميشال فقدغدا أمام مواجهة ضارية إلى حد شعروا بعجزهم عن المقاومة ، فأُجبر قائد الحصن إلى إصدار أمر بالانسحاب بعد قتال ضارٍ حدث داخل الحصن وخارجه .

استمرت المدفعية الجزائرية تقصف المواقع الإسبانية قصفاً كثيفاً . وتمكنت خلال الأربع والعشرين ساعة من تهديم غالبيتها تهديماً كاملاً ، في حين كان والي وهران يقاتل بقوات جزئية ، وقد شعر باليأس وبغية رفع معنويات جنوده ، قام بترميم المواقع التي هُدمت من جراء القصف الليلي ، وفي التاسع من أيار هُدمت الحصون الغربية تماماً وفُتحت بها عدة ثغرات ، ولكي لا يتعرض الطرفان إلى خسائر أكثر من ذلك ، أرسل وفداً إلى قائد الحصون يطلب منه التسليم دون اللجوء إلى سفك الدماء .

أما قائد القلعة فرد عليه بكل سخرية قائلاً له : «بما أنكم فتحتم هذه الثغرات الجميلة ، لماذا لا تعبرون منها» ، ورداً على هذا الجواب ، كثّف الباشا قصفه للمواقع الإسبانية ، وبنفس الوقت قام بهجوم عام ، ومع بدء الهجوم تقدم اثنتا عشر ألف محارب محلي ثم تبعهم الإنكشاريون وأخيراً القوات الاحتياطية . وحدثت معركة كانت أشبه بحروب الصحراء وقتال الخنادق استمرت أربع ساعات ، احتل الجزائريون خلالها حصن الجنويين (نسبة إلى جنوه) ، ورفعوا العلم الجزائري عليه ، لكنهم بعد ذلك تراجعوا بسبب التعب الشديد ، وأثناء تراجعهم تعرضوا لخسائر فادحة ، وفي الليل تلقوا خبراً بوصول المساعدات الإسبانية ، وغاب عن أعين الأسطول الجزائري ، الذي كان يرصد الميناء وصول السفن الإسبانية إلى وهران بقيادة أندريا دوريا والبالغ عددها خمس وخمسين سفينة محملة بالجنود .

ارتفعت معنويات الإسبان بوصول الإمدادات إليهم ، ولم يتمكن

الجزائريون خلال الهجمات التي شنوها من ١١ أيار حتى ٥ حزيران تحقيق أي نصر يذكر، وخلال ذلك علم حسن باشا بوصول أميرال جنوه، ولكي لا يفقد برج القديسين أشعل النار به، وقبل إنتهاء الحرب بيوم واحد، لاحظ حسن باشا علائم التراجع على الإنكشارية فخاطبهم قائلاً: «أيها السفلة، ألا تخجلون من الهزيمة أمام بضعة أشخاص يحميهم حصن مهلوم» وبهذا الشكل عادت الحرب أكثر إشتداداً وهيجاناً.

فضاعفت القوات الإسبانية عما كانت سابقاً، وتحولت من الدفاع إلى الهجوم، ولكنهم دفعوا ثمناً غالياً لقاء إخراج حسن باشا. وفي السابع من حزيران وصل أندريا دوريا يرافقه قائد الأسطول العام فرانسيسكو دو ماندوزا، وقد تعمد ماندوزا إنزال أشرعة سفنه لكي لا يراه الجزائريون، وحالما اقترب من الساحل أمر برفع الأشرعة معلناً الهجوم، لكن مجرى الرياح تغير فجأة، فقضوا نهارهم يجدّفون بالمجاديف، فتجمع الأسطول الجزائري في مستغانم مستفيداً من تلك الفرصة، وتخلص الأسطول الجزائري من هجوم متوقع عليه، لكن أربع سفن فرنسية تمكنت من خطف غاليوطات للجزائريين، كانت تستخدم في أعمال النقل[١].

لاحظ حسن باشا بأن جيشه قد سُحق وانهارت معنوياته، ولم يعد هناك أي أمل في النصر، كما تخوف من قطع خط العودة عليه، فاضطر للعودة إلى الجزائر رافعاً الحصار وقلبه مملوء بالحزن والأسى، لكن الإسبان لم يتمكنوا من ملاحقته لأنهم هم أيضاً منهكون. وما أن وصل حسن باشا إلى مدينة الجزائر، حتى وجد الوباء مسيطراً عليه، إزاء ذلك ازدادت هموم حسن باشا كثيراً، وفوق هذا كله، بدأ الإنكشاريون يشيعون أن حسن باشا تقصد إلحاق الهزيمة بهم، لكن حسن باشا تجاهل ذلك تجاهلاً تاماً، وعاد من جديد للعمل وتوطيد الأمن والاستقرار استعداداً للهجوم على وهران من جديد، وزيادة في الحيطة والحذر وضمان النصر طلب من إستانبول مدّه بعدد من القوات، وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بحسن باشا، فإن السلطان سليمان كان مطمئناً إلى خبرة آل بربروس وحنكتهم القتالية، لذلك أمر

---

(١) دي غراممونت.

السلطان الريس طرغوت بالتحرك مع ستين قادرغة والذهاب إلى سواحل فاس وضربها للتخفيف عن حسن باشا[1].

استغل الأعداء تحرك الجزائريين وقاموا باحتلال حجر باديس، وبما أن حاكم فاس متفق مع الإسبان على اعطائهم تلك المناطق، لذلك فقد كلف ابنه سنة ۹۲۷ هـ **١٥٦٤** م بالتوجه إلى تلك الجهات وتقديم المساعدة للإسبان لإتمام احتلالها ومنع الأهالي من مقاومة الإسبان، وخلال ذلك ذكر ابن حاكم فاس الإسبان بالاتفاق الذي ساعدهم في احتلالهم لتلك المناطق. هذه الحركة زادت الأمر تعقيداً على الأتراك وأصبح أمر إخراج الإسبان من الأمور المستحيلة، لأن نفوذهم ازداد أكثر من قبل. إزاء ذلك قرر السلطان العثماني توجيه ضربة قوية تجبر الإسبان على الخروج نهائياً من مناطق الشمال الإفريقي، فاجتمع بالوزراء والقباطنة وناقش الأمر معهم، وقد رُفض اقتراح الريس طرغوت وقلج علي باشا بشأن محاصرة حجر باديس واحتلالها، ووافق الجميع على الاقتراح المتعلق بالقضاء على فرسان مالطة أعداء الإسلام، وقد أوضح الريس طرغوت كيف يلجأ هؤلاء القراصنة إلى مهاجمة السفن التجارية والحربية المسلمة، ويقطعون الطريق عليهم في البحر الأبيض المتوسط[2].

منذ زمن بعيد وتطوان وغرانته (Grenata) مأوى للقراصنة، وقد كثر العاملون بالقرصنة وممارسة الأعمال البحرية، لذلك اتسعت دائرة العداء بين الطرفين وبنفس الوقت ازدادت المنافسة بين اللاجئين الأندلسيين إلى تلك المناطق، وغدا الانتقام من الإسبان شغلهم الشاغل على الرغم من ضعف إمكانياتهم الحربية.

كانت تطوان مستقلة إلى حد ما عن سلطنة فاس، وكانت شنشاون أو (إشوان) تؤمن الحماية لتطوان من حكام فاس[3]، إضافة إلى ذلك فقد كان حاكمها يلقب بالأمير، وزيادة في تحدي سلاطين فاس أطلق على نفسه رئيس

---

(١) دي غرامموت، أوغست كور.

(٢) أوغست كور، دي غرامموت.

(٣) أوغست كور.

الجهاد المقدس، وكان في الفترة الأولى يقدم مع أعوانه ومؤيديه مختلف المساعدات المادية والمعنوية للأندلسيين، ولكنه في الفترة الأخيرة لجأ إلى حكام فاس طالباً منهم المساعدة لتكوين حكومة قوية، إلا أن حكام فاس رفضوا مساعدته على الرغم من حبهم وتقديرهم له، وقد كادت حركات أمير شنشاو ن أن تُفسد العلاقة ما بين المسيحيين والفاسيين.

إزاء زيادة تحركات أمير شنشاو ن قام أمير فاس بمحاصرته، لكن أمير شنشاو ن محمد بن علي فر ليلاً باتجاه الشرق، وترك أمير فاس أمر تهديم تطوان للإسبان، وفي سنة ٩٧٢ هـ ١٥٦٥ م أرسل فيليب الثاني ملك إسبانيا أسطولاً بقيادة دون الوار دي باظان Alvre de Bazan إلى تطوان وكلفه بهدمها وتخريبها نهائياً، وبالفعل فقد نفذ باظان المهمة بحذافيرها، فأزال بذلك إمارة شنشاو ن بعد أن دامت مئة عام.

كلف السلطان سليمان أمراء طرابلس الغرب والجزائر بمحاصرة مالطة[١]، وقد لبى هؤلاء الدعوة وأعدوا ما لديهم من قوة، أما الإسبان فقد بدأوا يتفاخرون بأنهم قضوا على كافة القراصنة، ولم يكن هناك وجود لأي سفينة تقف ضدهم أو تتجرأ على الظهور أمامهم.

وفي ١٨ أيار سنة ٩٧٢ هـ ١٥٦٥ م وصل الصدر الأعظم مصطفى باشا قائداً للجيش والقبان باشا آمراً على الأسطول، واتجه الاثنان إلى مالطة، ثم لحق بهم أمراء الشمال الإفريقي، وعلى الفور باشروا بمحاصرة برج سانت آلم (Burc Sent Elm) وأثناء المحاصرة وعلى مقربة من برج سانت آلم أصيب الريس طرغوت بشظية في رأسه توفي على أثرها، ونقل جثمانه مع خمس سفن حربية إلى طرابلس ودفن فيها[٢]. وكان الريس طرغوت قرصاناً شجاعاً لا مثيل له بين القراصنة، كما كان يمتاز بشهرة حربية ونزعة إنسانية لا حدود لهما[٣]. التحق بالجيش المحاصر لمالطة في ٢،٥ أيار ومعه خمس عشرة سفينة وتوفي في ٢٣ حزيران.

---

(١) دفر مهماب الديوان الهمايوبي عرة (٥) ص ٢٦٣ (٢٩ جمادي الاولى ٩٧٢ هـ).

(٢) للمريد بسأن الريس طرغوت انظر: فسم طرابلس الغرب، الجرء الثاني، ترجمة عبد السلام ادهم.

(٣) دي غراممونت.

وفي الخامس من تموز التحق حسن باشا بالصدر الأعظم ومعه ثمان وعشرين سفينة ، وقد اختار حسن باشا ثلاثة آلاف شخص من أشجع وأمهر مقاتليه ، كذلك فقد اصطحب مصطفى باشا ستة آلاف مقاتل ، وأثناء عمليات الهجوم تولى حسن باشا بنفسه مهاجمة قلعة سان ميشال وتمكن من إلحاق خسائر فادحة بالمدافعين عنه ، وقد أكسبته قيادته لعمليات الهجوم شهرة عظيمة ، وحالما رغب الصدر الأعظم بفك الحصار ، قرر حسن باشا وقلج علي الاستمرار بمتابعة الحصار ، لكنهما لم يحققا أي نجاح يذكر ، وبما أن حسن باشا أصيب ببعض الجروح فقد وافقا الصدر الأعظم على طلبه وعاد حسن باشا إلى الجزائر بعد أن فقد نصف جيشه[1] .

ومع مطلع سنة ١٥٦٧ م غادر حسن باشا الجزائر متوجهاً إلى إستانبول تاركاً إمارتها لمحمد باشا بن صالح باشا .

بعد غياب حسن باشا أصبح ميراثه من أبيه نهباً لأعدائه الفرنسيين ، وكان حسن باشا يدرك تماماً أن الفرنسيين يقفون ضده أثناء توليه لإمارة الجزائر ، ولهذا تجنب إجراء أي إتفاق معهم ، مع العلم أن الدولة العثمانية تعتبر فرنسا دولة صديقة ووفية لها ، ولهذا فقد أولتها أهمية كبرى - وشددت في فرماناتها الموجهة إلى أوجاق الغرب بضرورة التعامل بلطف مع الفرنسيين وحذرتهم من التعرض لسفنها أو للسفن التي كانت تحمل الشارة الفرنسية أيضاً . ويعتقد كثير من المؤرخين أن السفير الفرنسي بيتر مول (Peter Moul) لعب دوراً بارزاً في عزل حسن باشا من إمارة الجزائر[2] .

لدى قدوم محمد باشا إلى الجزائر كانت تعاني أوضاعاً سيئة للغاية ، وذلك بسبب الوباء الذي يفتك بأهاليها منذ مدة طويلة ، ولم يقتصر الوباء على منطقة معينة بل شمل مختلف مناطقها ، فعمت من جرائه المجاعة وتُركت الأرض بدون عمل بسبب فقدان الرجال ، أما المناطق الأخرى فقد اصبحت مرتعاً للصوص والأشقياء ، **ووصل نشاطهم حتى مدينة الجزائر نفسها .**

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ٥/ ص ٣١٣.

(٢) كتب ذى غراممونت قائلاً : إن السياسة الفرنسية فى الشرق كانت تظهر عداءً واضحاً ضد حسن باشا .

عمل أمير الجزائر الجديد على إزالة الفوضى القائمة، وبذل جهوداً كبيرة في سبيل القضاء على اللصوص والأشقياء ولاحقهم بنفسه.

وفي منتصف سنة ٩٧٤ هـ ١٥٦٧ م أقنع رجل فالانسي يُدعى (جوان غاسكون) الملك الإسباني بحيلة رسمها لإنقاذ الأسرى المسيحيين الموجودين في الجزائر، وتعهد أمام الملك بإنقاذ الأسرى وإلحاق خسائر فادحة بالجزائريين، ووصل الغرور به إلى حد ادعى به أنه يتمكن من احتلال مدينة الجزائر، فوافقه الملك على خطته، وأعطاه كادرغتين وترك له حرية التصرف كما يرغب[1].

استغل جوان غاسكون الوقت الذي يقوم فيه القراصنة بسحب سفنهم إلى داخل الميناء، ومع بداية تشرين الأول تحرك من إسبانيا، وبعد أربعة أيام وصل إلى ميناء الجزائر فدخله ليلاً، ثم تسلل مع من معه إلى سفن الجزائريين ووضع فيها موادا محرقة، واتفق مع مرافقيه على موعد بدء إشعال النار بالسفن، ثم قسم جنوده وأمرهم بالإنصراف كل إلى المكان المخصص له.

نزل قسم منهم إلى الساحل لمهاجمة الحصن وإنقاذ الأسرى من السجن، في حين ذهب بنفسه إلى باب البحر، وبدأ باصطياد الحراس المناوبين وقتلهم، ومنهم من صعد معه إلى الحصون، وأسرع إلى سفينة القيادة الموجودة في الحوض المخصص لها، لكن مرافقيه لم يبق لديهم الشجاعة، بعدما لاحظوا عدم وجود أي حريق في الميناء، واعتقدوا أن الجزائريين ألقوا القبض على زملائهم، فحاولوا العودة إلى سفنهم وفي هذه الأثناء اكتشف الأهالي أمرهم، فاتجهوا مسرعين إلى الميناء، وبدأوا بمطاردتهم، أما جوان غاسكون، فقد شهر سيفه وأخذ يحضهم على المقاومة، وحينما فقد الأمل من عودة جنوده لحق بهم، وركبوا سفنهم مسرعين إلى إسبانيا، وعلى الرغم من قيامه بهذه المهمة الجنونية، فأنه لم يتمكن من تحقيق وعده، وكل ما تمكن من تحقيقه أسره لعشرين شخصاً.

لاحقت القادرغات الجزائرية المناوبة القادرغات الإسبانيتين،

---

(١) دي عرامموت.

وتمكنوا اللحاق بهم بعد قطع مسافة تعادل ثمانين ميلاً ، وألقوا القبض عليهم وأعادوهم إلى الجزائر، وسلموا جوان غاسكون للأهالي لينتقموا منه ، فقطعوه إرباً إرباً .

إن الخلاف القائم بين البحارة والإنكشاريين قديم جداً ، وقد ازداد في الفترة الأخيرة لأن البحارة على الدوام يأخذون الغنائم ويعيشون حياة هادئة مليئة بالهدوء والاستقرار في حين لا يتقاضى الإنكشاريون سوى معاشاتهم ، وبغية إزالة هذا الخلاف وإحلال الوئام بينهم فإن الأمر يتطلب حلاً عادلاً للطرفين ، ولهذا فقد اقترح محمد باشا على البحارة ، وضع رئيس في كل سفينة يساعده عدد من الإنكشاريين المسلمين ، فقبل الطرفان هذا الحل ، لكن البحارة اعتبروه حلاً مؤقتاً ، لكن الحقد ازداد والعداء اتسع أكثر من السابق لأن الرياس رفضوا إعطاء الإنكشاريين حصصاً مثل حصصهم[1] .

عمل محمد باشا خلال فترة إمارته على إصلاح القلاع[2] ، وباشر أولاً بتحصين وتحكيم أسوار المدينة ـ كذلك فقد أنشأ برجين من الجهة المفتوحة مقابل مدينة الجزائر، وسمى واحداً باسمه والثاني سُمي برج حجي علي .

عندما كان محمد باشا يقوم بهذه الأعمال ، بدأ التونسيون يتحرشون بالجزائريين ، فعمدوا أولاً إلى تحريض سكان قسنطينة على رفع راية التمرد والعصيان ضد الأتراك ، فقام أهاليها بقتل الحراس الأتراك وبصعوبة بالغة استطاع القائد التركي إنقاذ نفسه ، وحالما علم محمد باشا بذلك أعد قوة واتجه إلى العصاة ، وألقى القبض عليهم ، وقطع رؤوس قسم منهم ، وبُيع القسم الآخر منهم على شكل أسرى . وبهذه الوسيلة تمكن من إخماد العصيان[3] .

---

(١) دى عرامموت .

(٢) محموعه الناريخ العثمانى ، الوثائق الناريخية مأخوذة من دفتر مهمات الديوان الهمايونى وفي الحكم الموجه إلى أمير أمراء الجزائر كنب ما يلى : حكم إلى أمير أمراء جزائر العرب محمد باشا عليكم فى هذا المجال أن تقوموا بصيانة القلاع فى الظلام وتصلحوها بشكل كامل ، ونريد منكم المباشرة بها فورا ، أرسلنا إليكم خلعة همايونية مقابل عملكم ، ارتدوا الخلعة فور وصولها إليكم كما هو معتاد من اتخاذ إجراءات . ٢٢ جمادى الأولى ٩٧٦ هـ .

(٣) سمى برج حجى علي عدة أسماء أيضاً منها : برج شيدي تكليلت ، برج باب الواد ، برج الأربع والعشرين ساعه ، ومن المحتمل أن يكون قد سمى حجي على أثناء فترة حكم فلج =

عين محمد باشا على قسنطينة رمضان بن الأعسر (جولاق رمضان بك) وعاد إلى الجزائر، وبعد مدة صدر فرمان عزله، ومن المحتمل أن يكون سبب عزله المظالم التي ارتكبها والشكاوي التي قدمها سكان قسنطينة[1].

استمر محمد باشا في إمارة الجزائر من كانون الثاني سنة ١٥٦٧ م وحتى آذار سنة ١٥٦٨ م[2].

= علي باشا للمنطقه. وإذا كان اسمه يدل على أنه قد بني من قبل فلج علي باشا فإن الكتابه الموجودة عليه تثبت أنه بني في زمن محمد باشا وأن الكتابه المأخوذة من باب الواد موجودة الآن في متحف الجزائر وهي تتضمن مدحاً وشعراً شيد بمحمد باشا الذي بناه سنة ٩٧٦ هـ وهي مدونه في كتاب الجزائر للمؤرخ غابرييل كولين ح ص ٢٢ نمره ١٣.

(١) الشكاوي الواردة بحق محمد باشا، كلف فلج علي باشا بالتحقيق فيها، وهذا مدون في دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره / ٥/ ص ٩١٧. وفي ٢٥ جمادى الاول ٩٧٦ هـ وبعد رحيل محمد باشا عين كأمير الامراء على آغريبوز سنة ٩٧٩ هـ. كذلك فقد وقع في الاسر أثناء معركة ليبانتو سنة ٩٨٢ هـ ١٥٧٤ م وتمت مبادلته مع الكونت غابيرو سربلنو.

(٢) غابرييل كولين.

- ٦ -
إمرة الأمــراء

أمير الأمراء قلج على باشا ـ تاريخ قلج على باشا ـ مسلمو إسبانيا ـ الاستعداد للثورة ـ مساعدات الباشا ـ أوضاع تونس ـ مراجعة التونسيين للسلطان ـ إحتلال تونس ـ معركة ليبانتو ـ الاستغناء عن حسن باشا ابن خير الدين باشا من إمرة الأمراء ـ تسلم قلج على باشا لقيادة الأسطول العثماني ـ قدوم عرب أحمد باشا إلى إمرة أمراء الجزائر ـ محاولة البابا خدع قلج على باشا .

في ٢٠ محرم سنة ٩٧٦ هـ ١٥٦٨ م صدر فرمان سلطاني بنقل قلج علي باشا من إمارة طرابلس الغرب إلى إمارة الجزائر[١] . ويعتبر قلج علي باشا من خيرة الأمراء الذين تولوا أمرة الجزائر.

ولد قلج علي في **كالابريا**. . . قد أسر في إحدى غزوات خير الـدين باشا لجنوب إيطاليا ، وكان أثناء ذلك لا يزال صبياً ، ولدى اقتسام الغنائم كان من حصة الريس علي أحمد ، ومنذ سنة ٩٣١ ـ ٩٣٥ هـ/ ١٥٢٤ م ظل يربى في داره ، وقد اعتنى به عناية خاصة ، إلا أن زملاءه **كانوا يسخرون منه** ، فلقبوه (بالفرطاس) نتيجة لمرض أصابه .

كان منذ طفولته مولعاً بالبحار وحب المغامرات ، بعد إسلامـه أطلـق

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره / ٥/ صفحه ٤٧٨ ، يذكر ما يلي (حـالياً أمير أمـراء طرابلس الغرب على دام إقباله يُنقل إلى أمره أمراء الجزائر في ٢٠ محرم ٩٧٦ هـ) .

عليه أولوج علي[1]. وخلال فترة وجيزة ارتقى مناصب رفيعة وعلت مكانته، عمل قبل ذلك في سفينة الريس علي أحمد وعهد إليه رئاسة البحارة، فازدادت حصته من الغنائم، ولم يعمد كغيره إلى تبذير أمواله بل جمعها واشترى بها سفينة وأصبح يعمل لحسابه الخاص، وقد ساعده جده وانتظامه على جمع ثروة ضخمة، فأصبح بذلك من كبار الأغنياء، وقد استغلها للذهاب إلى الشمال الإفريقي وعمل لدى حسن باشا وكان من أصدق وأشجع قباطنته، وقد عُيّن قلج علي باشا أميراً على مدينة تلمسان وقاد عدة حروب ضد الإسبان[2].

وأثناء حرب جربه أظهر بيالي باشا بعض التردد، وعلى الفور قام قلج علي باشا بشن هجوم حقق من جرائه نصراً عظيماً تكبد الإسبان خلاله خسائر فادحة وسيطر عليهم الرعب والخوف، فدهُش الجميع من شجاعة قلج علي باشا، فكافأه السلطان العثماني على هذه الشجاعة والجرأة وعينه أمير أمراء

---

(١) هايدو. يقول أن أولوج على حسب تاريخنا عُرف واشتُهر بهذا الاسم، وفيما بعد أطلق عليه قلج، وكلمة أولوج وألوج وأولج وهي كلمه تطلق على المسيحيين الذين أسلموا.

(٢) يذكر بعض المؤرخين **الأوربيين** أن قلج علي باشا أسُر من قبل الجزائريين أثناء قيادته لسفينه عائدة كانت متجهة إلى نابولي. أما السجلات العثمانيه فتذكر أنه كان يعمل خادماً عند طرغوت باشا. أما قاموس الأعلام فيذكر أنه تركي الأصل، وكان سابقاً يطلق عليه ابن المؤذن وكذلك فإنه يذكر في القاموس الجغرافي بابن المؤذن.

لكن ابن المؤذن هو شخص آخر. وقد عمل قائدا للأسطول قبل قلج علي باشا واستشهد في سنة ٩٧٩ هـ، ولذلك قمت بتثبيت مقارنة حيال الوظائف التي تولاها قلج علي باشا، فلم أجد أي رابطة تربطه بابن المؤذن. وها هي المعلومات المخالفة التي وجدتها في مجموعه المجمع التاريخي العثماني لصفا بك ص ٥٤ يذكر بأن أولج علي بك في سنه ٩٦٤ هـ كان قائد بون (عنابه) ولسوء إدارته ألقى صالح باشا القبض عليه وارسله مع الريس، لكنه هرب من السفينة واتجه إلى إسنابول وهناك تولى منصب رئيس الحاجبكية (الطواشيه) وفي ٢ رجب ٩٦٧ هـ أصبح آمراً على البحر الاسود وذلك إسناداً إلى ما هو مذكور في الصفحه رقم ٢٥. أما دي غرامونت فيقول في سنه ٩٦٦ هـ ١٥٥٣ م كان أولوج علي باشا قائداً على تلمسان واشترك في الحرب ضد الإسبان وإن ما كتب بشأن سوء إدارته وعزل صالح باشا له غير صحيح لأن صالح باشا توفي سنة ٩٦٣ هـ واولوج علي باشا كان خلال السنوات التاليه ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م اشترك في الحرب مع پيالي باشا، وقد خلف طرغوت باشا في إماره طرابلس الغرب، ومن المحتمل بعد حرب جربه ذهب إلى طرابلس الغرب وبعد وفاه طرغوت باشا أصبح أمير أمراء طرابلس الغرب.

طرابلس الغرب إثر استشهاد الريس طرغوت، وبقي فيها مدة سنتين ونُقل بعدها إلى إمرة الجزائر[1].

عمل قلج علي باشا خلال نوليه إمارة الجزائر على فرض النظام وتطبيق القانون فأمن الهدوء والاستقرار للجميع، كما قام بترميم القلاع والحصون المهدمة مستغلاً فترة إنشغال إسبانيا بأمورها الداخلية. فقد كانت الحكومة الإسبانية تواجه ثورات احتجاج وعصيان بسبب الإرهاب الشديد الذي مارسته على الأهالي وخاصة المسلمين متذرعة بأن مسلمي الأندلس يشجعون القراصنة على مهاجمة سواحلها التي أصبحت شبه خالية من السكان، كذلك فقد لجأت الحكومة إلى فرض التجنيد الإجباري على الشبان تحسباً من ثورة داخلية قد تواجهها في أقرب فرصة.

ضاق المسلمون الموجودون في إسبانيا من الظلم والإرهاب الذي يمارسه الإسبان عليهم، ولم يجدوا وسيلة سوى الإعداد لمواجهة ذلك الظلم بالقوة، فعمدوا إلى إعداد جيش بمنتهى السرية والدقة، فاشتروا السلاح ونقلوه إلى إسبانيا ووضعوهَ في أماكن سرية منتظرين الإشارة التي تُعطى إليهم في يوم الأربعاء من الأسبوع المقدس[2] وكان من جملة قادة الثورة محمد المنصور[3].

لم يتلق مسلمو الأندلس أي مساعدة من الحكومة العثمانية على الرغم من معرفتها بالظلم الذي يعانونه، وكانت الجزائر من أكثر المناطق تحمساً لمساعدتهم، كما أن قلج علي باشا عمل بكل ما يستطيع لمساعدتهم، فقد خصص لهم سفن تنقل لهم حاجتهم من السلاح ومدهم ببعض القادة، وطلب من إستانبول وباسترحام شديد مساعدة المسلمين الأندلسيين وأيد الرسائل التي أرسلها مسلمو الأندلس إلى السلطان العثماني فعلى الرغم من السلاح الذي اشتروه بقي لديهم أكثر من مائة ألف شخص بدون سلاح، وتسليح هؤلاء يتطلب تكاليف مالية عالية وهم لا يملكون شيئاً من ذلك[4].

---

(١) دي عراموت.

(٢) دي عراموت.

(٣) مجموعة محمع التاريخ العثماني ص ٢١٧.

(٤) مجموعة محمع التاريخ العثماني ص ٢٢٢، دفتر مهمات الديوان الهمايوني.

اكتفى الديوان الهمايوني بإرسال أمرين إلى قلج علي باشا بتاريخ ١٠ ذي القعدة ٩٧٧هـ ١٥٦٩م يطلب منه تقديم السلاح وإرسال الجنود لهم بقدر المستطاع، وذلك لأن الديوان الهمايوني كان قد قرر مهاجمة جزيرة قبرص في ربيع ذلك العام. فالقبارصة بدأوا يتصرفون مثل فرسان مالطة. فقد أخذوا يهاجمون السفن المسلمة ويتعرضون للحجاج والتجار، وقد تعهد الديوان الهمايوني بالعمل على مساعدة الأندلسيين بعد الانتهاء من احتلال قبرص. ولكن العثمانيين لن يتمكنوا من تقديم المساعدة لأنهم تعرضوا إلى هزيمة نكراء، كذلك فإن أسطولهم البحري دُمر في معركة لبيانتو.

طلب قلج علي باشا من الأندلسيين توحيد جهودهم والعمل يداً واحدة ضد الإسبان، وبغية تشتيت جهود الإسبان وإرباك قواتهم، قرر مهاجمة وهران. ومن بعدها سيتحرك إلى السواحل الإسباني، وبالفعل فقد أرسل جيشاً يتألف من أربعة عشر ألف جندي مسلح بالبنادق وستين ألف جندي محلي مع أعداد كبيرة من المدفعية وزودها بألف وأربعمائة جمل محمل بالبارود، وقد اتجه الجيش مباشرة إلى مزغان ومستغانم، كما أمر أربعين كادرغة بالرسو أمام السواحل الإسبانية بالقرب من المرية وكلفها بحماية الثوار ومساعدتهم. ولكن أحد رؤوساء الثوار وقع بخطأ أدى إلى كشف أماكن الأسلحة قبل إعلان الثورة بيوم واحد، وتمكن الإسبان من كشف مخازن الأسلحة الواحد تلو الآخر، كما ألقوا القبض على بعض الثوار، ولم يكن المسلمون لا غالبين ولا مغلوبين، كذلك فإن الأسطول الجزائري لم ينزل قواته إلى البر، ولهذا لم يتمكن من تقديم المساعدة لهم.

وفي كانون الثاني من نفس العام توجه الأسطول الجزائري ثانية إلى السواحل الإسبانية، وقد تفاخر جنوده على مسلمي الأندلس إثر ما حل بهم، وإن الجنود الذين تفاخروا على مسلمي الأندلس، هم أنفسهم الذين أداروا ظهورهم لهم، إضافة إلى ذلك فأن هذه المساعدة الجديدة والمؤلفة من ثلاثين سفينة تعرضت لعاصفة هوجاء شتّتها، وحُرم الأندلسيون من تلك المساعدة القيمة، ولم يستفيدوا إلا من ست سفن، حيث تمكن المتطوعون من إخراج المدافع والسلاح والبارود من السفن.

وفي أيلول من سنة٩٧٧هـ / ١٥٦٩م أرسلت ولاية الجزائر إلى ثوار

الأندلس أربعة **آلاف** بندقية بكامل ذخيرتها مع جنود إنكشاريين قدامى بصفة ضباط وكلفوهم بقيادة مئات من الجنود، وجدت تلك المساعدة في سنة ٩٧٨هـ ١٥٧١م. واعتباراً من سنة ١٥٦٩م فكر قلج علي باشا بإدارة الثورة في إسبانيا وقيادة الثوار، لكنه اضطر إلى تأخير هذه الحركة لدى سماعه بأن دون جوان دوتريش (Don Juon Dotris) يقوم بجمع واعداد قوة كبيرة لمهاجمة بون، كذلك فقد كان الأسطول الجزائري بقيادة قرة علي ينتهز الفرصة للانتقام من هذا المسيحي، بعد أن تلقى هزيمة كبيرة على يد الأمير بيوم بينويو Prens Piom Binoyu.

كانت مدافع صقلية ومالطة وجالطة تشكل مثلثاً تفصل غرب البحر الأبيض المتوسط عن شرقه، **ولضمانة** سلامة المرور في هذا المثلث، كان لا بد من احتلال جالطة، وكان قلج علي باشا يعرف جيداً ذلك ويدركه، لذلك أعد جيشاً وقرر التوجه به إلى تونس لاحتلالها وطرد الإسبان منها.

كانت تونس خلال ذلك تعاني حالة مضطربة، فالأهالي لا يحبون مولاي حسن المعين عليهم من قبل شارلكان، وقد ازدادت المعارضة ضده، وكان على رأس المعارضين ابنه حميدة، كذلك فقد أعلن أحد علماء القيروان استقلاله وانفصاله عن تونس[١].

لم تكن سلطة حاكم تونس العجوز تتعدى نطاق مدينة تونس، ومنذ سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م كتب إلى شارلكان يلتمس منه تسليمه الحصون ومساعدته، وفي حال عدم مساعدته فإنه سيطرد من تونس، وقد استشار شارلكان دون بوناردينو مندوزة (Don Bernardino Mendoza) فأجابه قائلاً **«حاكم ضعيف كهذا وإن الجميع ينفرون منه، فالأفضل احتلال تونس مباشرة»**[٢].

وفي سنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م قام حميدة ابن مولاي حسن بمهاجمة تونس وتمكن من احتلالها، **ففرّ** والده **إلى** جالطة، ومنها ذهب إلى صقلية بعد أن ترك خزينته أمانة لدى قائد جالطة، وبعد إلحاح واسترحام شديدين أرسل معه

---

(١) دي غراممونت.

(٢) المجلة الإفريقية لسنه ١٨٧٧م ص ٢١ و ٢١١ وهي مجلة تتعلق وثائقها بصورة خاصه بالاحتلال الإسباني لتونس.

ألفي جندي إيطالي بقيادة ج ب لاجردو (J. B. Lecrodo) وعاد **إلى** تونس للاقتتال مع ابنه ، لكن لاجردو قتل في هذا القتال ووقع مولاى حسن أسيراً بيد إبنه ، فقلع حميدة **عيني والده واستلم حكم تونس** .

استغل مولاي حسن الفوضى القائمة في تونس ، ففر **إلى** طبرقة ومنها إلى سردينا فنابولي ومن هناك ذهب إلى روما .

قابل مولاي حسن شارلكان في **أوغسبورغ** ، بشأن استرداد خزينته من قائد جالطة توڤار (Tovar) الذي رفض تسليمه إياها بعدما تركها أمانة لديه وهي تعادل أكثر من ثلاثين مليون[1] .

تجاهله الأمبراطور تجاهلاً تاماً وبدلاً عن خزينته الضائعة قرر منحه **راتباً شهرياً** وأمر بإعادته إلى **إيطاليا**[2] ، وكان الجميع يكرهون حميدة مثل أبيه لأن وجود المسيحيين كان يجرح كبرياء التونسيين ، فالضرائب الكثيرة والثقيلة المفروضة عليهم سحقتهم سحقاً ، فأخذ الجميع يتطلعون إلى الأتراك لإنقاذهم من هذا الوضع الصعب .

وفي سنة ٩٧١هـ / ١٥٦٣م ذهبت هيئة من تونس إلى إستانبول طالبة الرحمة من السلطان لاحتلال حلق الواد من جديد[3] . وفي أيلول عام ٩٧٩هـ / ١٥٦٩م ترك قلج علي باشا خليفته **مامي** قورصو وكيلاً على الجزائر . واتجه إلى تونس بجيش يتألف من خمسة **آلاف** جندي مسلح بالبنادق وستة **آلاف** جندي من القبائل،ولدى وصوله إلى باجة تقابل مع **قوات حميدة** البالغ عددها ثلاثين ألف شخص ، وكان قلج علي يعلم بأن العساكر والضباط التوسيين منذ شهور سيترحمونه للقدوم إليهم وإنقاذهم ، ولهذا دخل المعركة فوراً ، ومنذ

---

(١) تذكر الوثائق الإسبانية لسنة ١٨٧٧م ص ٢٦٥ بأن الخزينة كانت تحتوي على أربع أحجار من الماس قيمتها ٢٢٥٠٠ دوقه و ٢٦ قطعه من الماس **قيمتها لا تحصى و١٠٠ ياقوتة و٤٠٠ ياقوتة** زرقاء وزمرد ولؤلؤ بقيمه ملون دوقة و ٨٠٠,٠٠٠ دوبله ذهب وأشياء مختلفه بقيمه ٩٠٠,٠٠٠ دوقه .

(٢) يذكر دي غراممونت أن مولاي حسن مات في إيطاليا على شكل فسيس ، أما هامر فذكر في كتابه رقم ٣٣ ص ١١٥ أنه ذهب إلى إسبانيا أثناء حصار المهدية وبعد مدة توفي ودفن في القيروان .

(٣) هامر التاريخ العثماني رقم ٣٣ ص ١٠٨ .

اللحظات الأولى للقتال تخلت العساكر عن حميدة والتحقت بالجزائريين.

حيال ذلك لم يبق أمام حاكم تونس إلا الفرار، ففر إلى تونس لكنه وجد أبوابها مغلقة، فالتجأ إلى الإسبان في جالطة، ودخل الأتراك مدينة تونس مع نهاية سنة ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م دون أي مقاومة، وبعد أن تم لقلج علي إخضاع المدن الداخلية والساحلية، وقضاء فترة تجاوزت أربعة أشهر ترك ثلاثة آلاف جندي بقيادة القائد رمضان وكلفه بالمحافظة على الأمن ومعاملة الأهالي باللين[1]. ثم عاد الباشا مسرعاً إلى الجزائر استعداداً لمواجهة عملية التسليح التي يعدها الإسبان ضده. وكان قلج علي باشا قد طلب إلى مامي قورصو تجهيز الأسطول والاستعداد قبل وصوله، لأنه سيقوم بالإبحار فور وصوله الجزائر، وأعلمه أن القصد من ذلك احتلال جالطة، كذلك فقد كتب قلج علي رسالة إلى إستانبول يعلمها أن مدخل تونس بيد الإسبان وأنه لا يمكن إخراج قواتنا لتهديد أمن تونس ما لم يتم الاستيلاء على جالطة، فطلب المساعدة لتحقيق الهدف، وبينما كان ينتظر الرد من إستانبول قام بمهاجمة السفن التي تتجول في البحر الأبيض المتوسط، فانتشرت القرصنة بشكل مدهش، وكان قلج علي باشا قد ربى عدداً من القراصنة المشهورين أمثال فندقلي حسن (فنزيانو) والريس مراد والريس مامي والأرناؤوطي مصطفى وولي مامي (المجنون مامي) والريس جعفر، وكان هؤلاء من أشهر الأبطال وممن زرعوا الرعب والخوف في السواحل الإسبانية طوال نصف قرن من الزمن[2].

عاد قلج علي باشا إلى الجزائر بعد عدة شهور من غزوته، وقد تمكن خلالها من إلحاق خسائر كبيرة بالأعداء، فقد استولى على أربعة سفن مالطية وقتل القائد الكمندور دي صاينت كلمونة (Komendör desaint Kleman) وكان يأمل لدى عودته إلى الجزائر وصول المساعدة التي طلبها من

---

(١) دي غراممونت.

(٢) إسم مامي استخدمه الجزائريون أكثر من الأتراك، وفي شرق الأناضول كان تحفيفاً لاسم محمد، وكان يُلفظ مامي، مامو، ومامي أيضاً ليس اشتقاقاً لاسم محمد، والكتابة الموجودة على جامع الهدى تقول بأن هذا الجامع بناه الريس مامي بتاريخ ٩١٠هـ وهذا الشخص يجب أن يكون قد تجول بين أسوار الجزائر قبل مجيء آل برباروس وهو تركي الأصل.

إستانبول ، لكنه وجد فرماناً سلطانياً يأمره **بالإبحار** فوراً بغية التصدي لأسطول دون جوان دوتريش فشق البحر مع ربيع سنة ٩٧٩هـ / ١٥٧١م مصطحباً ثلاثين سفينة لرياس الجزائر مع السفن التابعة له .

علم أمير أمراء طرابلس الغرب بأن روابط الكفار قد اتحدت مع المسيحيين ، بقصد شن هجوم مفاجىء على الأسطول الهمايوني ، كذلك فأنهم سيوجهون ضربة قوية على سائر القلاع التونسية ، وعلم أن أخا الملك الإسباني سيتولى القيادة العامة لهذا الأسطول ، فأخبر قلج علي باشا إستانبول بذلك[١] .

وجه الديوان الهمايوني أمراً إلى أمير أمراء طرابلس الغرب يأمره بالاستعداد وبتعمير القلاع والحصون ، وطلب إليه إعلامه بما يعلمه عن تحركات الأعداء بأقصى سرعة ممكنة ، وفي هذه الأثناء كان قائد الأسطول العثماني پرتف باشا مع قبطان البحر ابن المؤذن علي باشا يبحرون من قبرص إلى رودس . ومنها اتجهوا إلى كريت لتدمير قلاعها وتخريب سواحلها ، وأثناء ذلك لحق بهم قلج علي باشا وأخبرهم بأن الأعداء يستعدون لمهاجمة الجزائر، وفي الوقت نفسه أعلمهم أمير أمراء دوبرفينيك (Dobrovnik) بأن الإسبان على وشك شن هجوم على تونس والجزائر، وكان هذا أمراً مهماً جداً ، يتطلب اتخاذ قرار حكيم ، فاجتمع الوزراء وناقشوا الأمر بدقة ودار في الاجتماع الحديث التالي : هي يكفي إرسال الأسطول الجزائري فقط، أم أن الأمر يستدعي ذهاب برتف باشا؟ وتُرك الأمر للمشاورة ، وبنتيجة التشاور ، وجه أمر إلى قبطان باشا (قائد الأسطول) بالاستعداد والتهيؤ، وبنفس الوقت أُعلم أمير أمراء الجزائر بذلك[٢] .

كان قلج علي باشا يتابع بدقة أخبار وتجهيزات العدو بكل دقة ويرسلها إلى إستانبول ، وعلم مؤخراً بأن الأسطول يتألف من مائتين وثلاثين **قادرغة** وسبعين فرقاطة وثمان وعشرين قطعة متنوعة ، وعُهد إلى أخي الملك غير

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٠/ ص ١٩ .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ١٠/ ص ١٦ .

الشرعي جوفاني (جوان دوتريش) وكان على وشك مهاجمة كورفو باعتبارها نقطة رئيسية[1] .

وفي السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٩٧٩هـ الموافق يوم الأحد سنة ١٥٧١م اصطدم الأسطول العثماني مع الأسطول المسيحي في مضيق لبيانتو بالقرب من رأس الدم في أطراف هلومش (Halamec) وأسفر الاصطدام عن تخريب الأسطول العثماني وهزيمته[2] .

وفي الثالث من جمادى الآخرة نقل الخبر إلى السلطان العثماني الموجود في أدرنة أحد الرجال يقال له أولوج علي باشا ، وفي هذه الأثناء كان قلج علي باشا لا يزال يخوض القتال في حرب الأسطول الخاسرة (معركة لبيانتو) وقد كُلف بالقتال من الجناح الأيمن ، وظل يقاوم بمن معه حتى منتصف النهار ، وبعدها تولى قيادة الأسطول إثر كسر الجناح الأيسر واستشهاد قبطان البحر ، فشن قلج علي هجوماً مكثفاً تمكن من خلاله قتل قبطان مالطة .

كذلك فقد استولى على سفينة زعيم الطريقة المالطية وأخذ علمها[3] . وقام بعد انفصاله عن الأعداء بإطفاء بعض السفن العائدة للأعداء وضمها إلى السفن الجزائرية ، ، ومن ثم اتجه إلى مودون (Medon)[4] .

إثر هذه الكارثة أسندت قيادة الأسطول إلى قلج علي باشا ، وأسندت إمارة الجزائر إلى ابن الغازي خير الدين حسن باشا[5] .

وفي الثامن من جمادي الآخر سنة ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م صدر الفرمان الثاني «يُرى من المناسب والأفضل تعيين حسن باشا أمير أمراء الجزائر كون والده احتلها تحت تأثير السيف والنار وأعطاها كل اهتمامه وحافظ عليها **وحماها**»

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٦/ ص ٢٤ (كورفو وهي إحدى الجزر اليونانية وكانت الدولة العثمانية تتخذها قاعدة بحرية مهمة) .

(٢) تحفة الكبار : حرب الأسطول الخاسرة ، ص ٩٤ .

(٣) دي عرامونت .

(٤) تحفة الكبار .

(٥) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٦/ ص ٣١٩ .

وفي الوقت نفسه وجه فرمان إلى قبطان باشا[1]. بخصوص الاستفسار عن الشخص المناسب للولاية بعد حسن باشا، وتضمن الفرمان ما يلي (بما أن حسن باشا عزل من إمارة الجزائر فمن المحتمل ألا يقبل حسن باشا هذا التعيين، فمن هو القادر على ضبطها وصيانتها[2].

لم يعد قلج علي باشا إلى إستانبول بعد المعركة الخاسرة، كما أن الفرمان الصادر في الثامن من جمادى **الآخرة ٩٧٩ هـ/ ١٥٧١ م** الأنف الذكر تضمن توجيه أمر إلى قلج علي باشا بالانضمام إلى الوزير برتف باشا وإعداد أسطوله بشكل جيد ومن بعدها عليها بالإبحار ما بين آغربوز وصقز Sakiz وحماية المنطقة والمحافظة عليها[3].

لاحظ قلج علي باشا ضرورة تقوية الجيش الجزائري، لذلك طلب من السلطان العثماني تزويد الجزائر بألف متطوع آخر، فأمر السلطان بتأمين المتطوعين، وكلف برتف باشا بنقلهم على سفينتين، والاتحاد مع الأسطول العثماني في ميناء قوطور (Kotur) بغية قضاء فصل الشتاء هناك، والتصدي لأي خطر يواجه الجزائر سواء من الداخل أو الخارج[4].

بعد تعيين أولوج علي باشا قيادة الأسطول أصبح اسمه قلج (السيف) ومنذ ذلك التاريخ غدت الفرمانات السلطانية تخاطبه باسم قلج علي باشا[5].

تقبل حسن باشا تعيينه أمير أمراء الجزائر، فكتب في الرابع عشر من شعبان من نفس السنة يستأذن السلطان عن زمن سفره إلى الجزائر، فأمر السلطان قبطان باشا بتجهيز حسن باشا بكل ما يلزم بأقصى سرعة[6]. لكن أمر الإسراع لم يحقق أي فائدة، لأن المنية وافته قبل سفره ودفن إلى جانب والده في الثالث والعشرين من شوال من سنة ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م وأسندت إمارة

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني: نمره / ١٦/ ص ٣١٣.
(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني. نمره / ١٦/ ص ٣١٩
(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني: نمره / ١٦/ ص ٣٥٧
(٤) دفتر مهمات الديوان الهمايوني. نمره / ١٦/ ص ٣٥٧.
(٥) تحفة الكبار.
(٦) دفتر مهمات الديوان الهمايوني: نمره / ١٠/ ص ١٠٢، ١٠٦.

الجزائر بعد ذلك إلى كوجلي عرب أحمد باشا[1] .

كان قلج علي باشا أثناء ولايته إمرة أمراء الجزائر يعامل الإنكشاريين معاملة قاسية جداً ، كما أنه عاش طوال فترة توليه مع البحارة المهتدين ، بعد أن شكل منها قطعة عسكرية استخدمها للحراسة والمرافقة ، تاركاً قصر الجنينة ، واتخذ برج علي مقراً له ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الأمن مستتباً وعم مختلف مناطق الجزائر، كما أظهر الباشا خلال قيادته للأسطول مقدرة قيادية اكسبته شهرة عظيمة وخاصة في معركة ليبانتو وتجلى ذلك في تجنب الأسطول من خسارة محققة ، كذلك فقد أحضر معه إلى إستانبول كافة الرياس الذين تربو علي يديه . وكلفهم بإدارة دار السفن ، وعهد إليهم إنشاء سفن جديدة ، وأمر بإلغاء السهام من الأسطول واستبدلها بالأسلحة والبنادق[2] .

قام قلج باشا مع رفاقه بمؤازرة صوقولو محمد باشا بتجهيز أسطول مؤلف من مائتين وأربعين قادرغة في مدة لا تتجاوز سنتين ، كما تمكن من تسليمه بكافة لوازمه وعرضه على السلطان .

وهكذا استطاع قلج علي باشا بفضل الجهود التى بذلها من إعادة الحيوية والنشاط إلى الأسطول بعد تعرضه لنكسة كبيرة ، وقد تنبه السفراء الأجانب إلى ذلك ، وأدركوا الخطر الذي يكمن من جراء تقوية الأسطول ، كما ازدادت شهرة قلج علي باشا أكثر من ذي قبل ، وقد حاول البابا كسب قلج علي باشا إلى جانبه وعرض عليه إغراءات خيالية حيث كلف الكاردينال الكسندر ، وعرض عليه تسلم حكومة إسبانيا أو صقلية ، كما أوصى البابا ملك إسبانيا فيليب الثاني قائلاً له «إذا لم نوفق بهذه الخطة ، فعلى الأقل فأنها ستخلق الشك لدى السلطان سليم الثاني وتعرقل العمل لدى الأميرال المشهور والمكلف بإدارة وتسيير الأسطول العثماني»[3] .

بدأ الملك الإسباني العمل بنصيحة البابا ، ولكن دون أي فائدة ، وكل

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ١٠/ ص ١٧٩ .

(٢) دي غراممونت .

(٣) التاريخ العمومي ج ٤ ص ٢٥٤ .

ما حققه من نتائج ، قلج علي باشا وزيادة كرهه ونقمته عليه ، كذالك فقد طلب الديوان الهمايوني من السفير ماريغلاني (Mariglani) شرح الرسائل الموجه إلى قلج علي باشا من المسيو دي نوئيلس ، ووجه الديوان تنبيهاً شديداً وحذره من الاستمرار بهذا العمل[1] .

(١) المفاوضات الفرنسية في الشرق ج٣ ص ٧٠٠٧ و ٧١٢ و ٧٤٨ و ٨٧٦ و ص ٨٧٧ .

- ٧ -

إمارة أحمد باشا

أوضاع فاس - إخوة عبدالله الغالب - هيئة دبلوماسية فاسية في إستانبول - قصة عبد المالك وعبد المؤمن - ربط إدارة تونس بالجزائر - أصل أحمد باشا - اليأس فى الجزائر - تمرد قسنطينة - استتباب الأمن وإصلاح القلاع - التخطيط الإسبانى والبرتغالى لاحتلال الجزائر - الوباء - محاولة الملك الفرنسى إرسال ملك على الجزائر - تمرد القراصنة على أوامر السلطان - الشكاوى الفرنسية ضد القراصنة - هجوم دون جوان على تونس واحتلالها - عزل أحمد باشا - استرداد تونس .

تسلم مولاي عبدالله الأول الغالب حكم فاس سنة ٩٦٤هـ / ١٥٥٧م ، فقام بقتل عائلة عمه ، وتمكن من إلقاء القبض على أولاد عمه أبي سعيد عثمان الثلاثة وقتلهم إزاء ذلك خاف أخوته منه ، ففر أخواه عبد المؤمن وعبد الملك إلى الجزائر سنة ٩٦٥هـ ١٥٥٨م[١] .

تدخل العلماء والمصلحون لحل النزاع القائم بين الإخوة ، وقد أظهر عبدالله الغالب تقبلاً لذلك ، وتعهد لهم بإعطاء أخوته كامل حقوقهم ، فأيقن إخوته وعادا إلى فاس ، لكنهما فرا ثانية إلى الجزائر بسبب عدم التزامه بالوعد سنة ٩٧٢هـ أثناء إمارة حسن باشا الثانية[٢] .

---

(١) يذكر أوغست كور أن هناك أخاً اخر عير عبد المؤمن وعبد المالك أسمه احمد وفد التجأ هو الآخر إلى الجزائر أيضا . ولكن وتائق الديوان الهمايونى لم تذكر لنا .

(٢) دفتر مهمات الهمايونى نمرة / ٦/ ص ٤٥١ . حكم إلى أمير امراء الحرائر (أخبرنا عما حل =

رحب حسن باشا بالأخوين ترحيباً حاراً، ومنحهما مناطق تقدر وارداتها شهرياً بألف ليرة ذهبية، لكن عبدالله الغالب لم يكف عن ملاحقتهما، فسعى لإلحاق الأذى بهما، كما شدّد الخناق على مجيء الأتراك من المرابطين وأصحاب الطرق الصوفية المؤيدين للأتراك، وأجرى اتفاقاً مع الإسبان بغية تحقيق أهدافه[1].

وعندما لمس عبدالله الغالب كره الأهالي له وابتعادهم عنه، اضطر إلى التقرب من أصحاب الطرق الصوفية وأكرمهم أكثر من القضاة، هذا التسامح الذي أظهره عبدالله الغالب، ساعد أصحاب الطرق الصوفية على إقامة زوايا مستقلة بهم تركزت غالبيتها في المركز.

استغل عبدالله الغالب انشغال الأتراك بالاضطرابات القائمة بين الرياس والبحارة، فقام بملاحقة أصحاب الطرق الصوفية المؤيدة لهم، وتمكن من القضاء على أصحاب الطريقة الشرقية أو اليوسفية.

فكر عبدالله الغالب بالانتقام من الأشخاص الذين قاموا بمضايقة أنصاره أثناء احتلال تونس، كذلك فقد عمل على مضايقة أخويه، ولتحقيق ذلك عمل على التقرب من السلطان العثماني، فأرسل سنة ٩٨٠هـ / ١٥٧٢ - ١٥٧٣م هيئة إلى إستانبول بهدف إقامة سفارة له في إستانبول[2].

توجه الوفد إلى أستانبول برئاسة المرابط محمد بن علي الدرائي محملاً بالهدايا الثمينة، وحالما انتهى الوفد من مهمته عاد إلى فاس، وفي هذه الأثناء توفي عبدالله الغالب وحل مكانه عبدالله محمد المتوكل على الله[3].

في سنة ٩٧٦هـ توجه عبد المالك إلى إستانبول، وبعد أن أعلن خضوعه للسلطان العثماني، التمس منه التوسط لحل الخلاف القائم بينه وبين إخوته للسماح له الإقامة في فاس، وإذا لم يقبل فلتكن تازا أو أي منطقة أخرى.

= بالخلاف القائم بين حاكم فاس عبدالله وأخوته، وعلمنا ان العلماء تدخلوا وأصلحوا ذات البين. وعلمنا أن الخلاف عاد ثانية فعاد الأخوان إلى الجزائر).

(١) أوغست كور صفحة / ١٣٨/ .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني: نمرة / ٢٤/ صفحة ١٠٢.

(٣) أوغست كور.

إزاء ذلك أرسل السلطان العثماني في ١٢ جمادى الأولى ٩٧٦هـ - ١٥٦٨م فرماناً إلى أمير أمراء الجزائر يأمره بتشكيل هيئة من العلماء والمصلحين أمثال سيدي أبو لطيف وسيدي أحمد وسيدي سعيد المصري وسيد بن عاشور من أجل التوسط لحل الخلاف القائم بين الأخوة، وللاطلاع على رغبات الفاسيين وما الذي يرغبونه ومن يفضلون في حكمهم. كما تضمن الزمان تقديم المخصصات السابقة لعبد المؤمن وعبد المالك لدى قدومهما إلى الجزائر[1].

لم تثمر المفاوضات عن أي نتائج إيجابية، فاضطر الأخوان للبقاء في الجزائر، وقد أقام عبد المالك في مدينة الجزائر، بينما فضّل عبد المؤمن العيش في تلمسان، وأخذ الاثنان يعملان على تحريض أهالي فاس ضد أخيهما المتوكل على الله، فقدم حاكم فاس شكوى إلى إستانبول يتهم أخويه بتحريض الأهالي ضده، وخلق المشاكل والدسائس، لكونهما لم يقبلا الصلح ولم يعودا إلى البلاد منذ أربع عشرة سنة، واسترحم السلطان لوضع حد لتصرفاتهما.

أرسل السلطان العثماني خبراً إلى أمير أمراء الجزائر علي باشا سنة ٩٧٩هـ يعلمه فيه عن شكوى حاكم فاس، وفي هذه الأثناء، توفي عبد المؤمن، فذهب عبد المالك إلى إستانبول يسترحمه بشأن منحه راتب أخيه وضمان الهدوء والاستقرار له[2]. فزوده السلطان بأمر إلى أمير أمراء الجزائر يأمره فيه بإعطاء عبد المالك حاجته من المال، كما يأمره بتأمين الابن الأكبر لعبد المؤمن حتى الحدود، ولكن وجود عبد المالك وأولاد أخيه في الجزائر، كان يشكل وسيلة أساسية في تهديد أمن فاس إضافة إلى محاولة حكام الجزائر استغلالهم للتذرع بذلك بغية احتلال فاس.

وفي سنة ٩٧٨هـ - ١٥٧٠م احتلت تونس مع بعض المناطق الداخلية وربطت إدارتها بالجزائر، وأصبحت تحكم على شكل صنجق، وقد كُلف رمضان بك وكيل قلج علي باشا بالإشراف على إدارتها، أما سوسة والقيروان

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني: نمرة / ١٢/ ص ٥٣٧.
(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة: / ١٧/ ص ٣ و ٥.

ومناستر والمهدية فقد ربطت بطرابلس الغرب ، لأنهم احتُلوا من قبل الأتراك أثناء احتلال طرابلس الغرب . وحينما أمر قلج علي باشا بفصلهم عن إمارة طرابلس الغرب ، كتب أمير أمراء طرابلس الغرب إلى السلطان يتضرع إليه ربطهم بطرابلس الغرب مدعياً أن هذه النواحي كانت تابعة لطرابلس الغرب ، في حين كتب أعيان وأشراف تونس مذكرة إلى السلطان يعرضون فيه عدم رغبتهم بالانضمام إلى طرابلس الغرب وأنهم يرغبون بالبقاء من مرتبات الجزائر وفي محرم ٩٧٩هـ / ١٥٧١م بُلغ جعفر باشا بذلك[١].

لم يفقد جعفر باشا الأمل باستعادتهم إلى إمارته ، فكتب مذكرة إلى إستانبول عن لسان الأهالي يطالبون فيه ضمهم إلى طرابلس لكونهم بعيدين عن تونس وفي ٢٣ جمادى الأولى سنة ٩٧٩هـ طلب الديوان الهمايوني إلى الوزير پرتف باشا التوجه إلى تونس للاطلاع على رغبات الأهالي والتأكد من ذلك[٢] . لكن التحقيق في ذلك لم يعطِ أي فائدة ، لأن أعيان تونس وأشرافها كتبوا مذكرة إلى إستانبول يشيدون فيها بطيب معاملة رمضان بك لهم ، وحسن إدارته ، وفي ٢ شوال ٩٧٩هـ أخبر رمضان بك من قبل وكيل قبطان البحر قلج علي باشا بإلحاق تونس بالجزائر وأنه نُصب ثانية قائمقام تونس[٣] .

وفي السادس من ذي القعدة ٩٧٩هـ أرسل رمضان الأمر إلى آغا الإنكشارية والكخيا وأفراد الإنكشارية في جزائر الغرب يخبرهم بالأمر الجديد[٤] . وحينما علم أهالي تونس بذلك رفعوا مذكرات إلى إستانبول ، فاضطرت إستانبول إلى إجراء مطالعات جديدة حول رغبات أهالي تونس ، وكلف أحمد باشا بالذهاب إلى هناك يصحبه عرب أحمد وبرفقته ستة قادرغات وقد أمر قبطان باشا بالعودة فور انتهاء مهمته ، ولكن أحمد باشا استدعي للعودة بالقادرغات فوراً[٥] . لأنه عين أمير أمراء الجزائر بتوصية من قبطان البحر ، بعدما كان والياً على صنجق قوجة إيلي (Kocaeli) [٦] .

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره / ٥/ ص ٨٨٩ . ٨٩٨ لسنه ٩٧٦هـ.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره / ١٦/ ص ٣٦٢ .

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره ١٨ ص ١٣٤ .

(٤) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره ١٢ ص ٥٧١

(٥) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره ١٢ ص ٥٢٣

(٦) دى غراممونت يذكر أن أحمد باشا من أب تركي وأم إسكندريه الأصل ، وقد تدرج إلى =

قدم أحمد باشا أمير أمراء الجزائر في الوقت الذي كان الحزن واليأس يعم البلاد نتيجة للخسائر التي فقدها أهالي الجزائر في معركة ليبانتو، وقد استغل قسم منهم الفوضى، وامتنعوا عن دفع الضرائب، وكانت قسنطينة أولى المدن الجزائرية التي أعلنت التمرد والثورة[1].

كان أحمد باشا **قاسياً في إدارته وميالاً** لاستخدام العنف حيال أي عصيان أو ثورة تحدث، ولهذا اتصف حكمه بالظلم والإرهاب[2]. كما أن شدة ظلمه دفعت المدن الثائرة إلى إعلان الطاعة والالتزام بأوامره.

عمل أحمد باشا خلال ولايته على الجزائر بترميم القلاع والحصون، ونظف نوافذ الرماة في الأسوار والقلاع، وأقام الأبراج ونصب المدافع فيها[3]. فضمن بذلك الأمن والهدوء للأهالي.

أخبر ملك فرنسا شارل التاسع أحمد باشا بواسطة والي مرسيليا دي مميلون De Memillon عن أطماع الإسبان ومخططاتهم، وكذلك فإن السفير الفرنسي فرانسوا دي **نوايل** (Francois de Noaille) أخبر السلطان عن أسماء بعض شيوخ العرب المتفقين مع إسبانيا والبرتغال بقصد إلحاق الضرر بأتراك الجزائر[4].

عمل أحمد باشا على تقوية حصونه وأعد قواته لصد أي هجوم يحدث ضده، كذلك فقد قام بحفر خندق ما بين باب عزون والباب **الجديد، وأنشأ** على طرفيه جدراناً عالية ومتينة، وجمع التراب على طرفي الخندق، كما أنشأ جسراً بأربعة قناطر وجعل من أعلاه باباً، وللمحافظة عليه بنى برجاً، وبعد ذلك انصرف إلى زيادة تحكيمات الميناء وتقويتها[5].

= المناصب بتصل قلج علي باشا. أما هامر فيذكر بأن محمد صوقولو محمد باشا زوجه من خادمه تعمل في دائره الحرم لديه وتحول من آدان إلى رئيس للوكلاء.

(1) فور نيكه.

(2) دي غراممونت.

(3) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٢٣/ **ص ٢٧٣ (حكم صادر إلى أمير** أمراء الجزائر بتاريخ ١٨ ذي الحجة ٩٨ هـ.

(4) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة: / ٢٢/ ص ٤٩ (المذكرة الفرنسيه المرسله إلى السلطان العثماني بتاريخ ١٢ صفر ٩٨١ هـ).

(5) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٢١/ ص ١٣٠ (حكم موجه إلى أمير أمراء الجزائر =

وبما أن مدينة الجزائر محاطة بالحدائق والأبنية العالية، وهي تشكل حاجزاً في وجه الجزائر وتحول دون رؤية العدو، وعدم إمكانية التصدي له، لذلك صدر فرمان من إستانبول يأمره برفعها.

وفي دفتر مهمات الديوان الهمايوني (مجموعة كلية الآداب نمرة: ١ ـ ٢ المجلد الخامس. صدر الفرمان التالي: إلى أمير أمراء الجزائر وإلى قاضيها حكم. علم بأن الأبنية العالية والحدائق الموجودة حول قلاع دارالجهاد، تمكن العدو منها، وتغدو كأنها متاريس له يستخدمها أثناء هجومه غفلة على الولاية. ولتكن أنت مستعداً لذلك، لأنها من ممالكنا المحروسة وهي أيضاً دار جهاد. عليك إيصال المدافع إلى القلاع، كما يجب عليك تنظيف وتطهير المناطق المجاورة لها من كل عائق على طول مرمى المدفعية، كما يجب عليك إزالة الكروم والحدائق الموجودة حول القلعة كائناً من يكون صاحبها. ونظف المنطقة جداً بحيث لا تترك بها أي شيء يمكن للعدو الاستفادة منه، وكلف بهذا العمل جميع التابعين لسلطاننا من آغوات الإنكشارية والإنكشاريين وكافة عبيدنا ووجهاء الدولة ورجال الدين، وليعمل الجميع على خدمة الدولة بأرواحهم، وأعلمنا عن الجهود المبذولة في حفر الخندق وسائر التحصينات وعما يلزمك من خدمات. والتزم بما صدر إليك، بارك الله بك، وأملنا من هؤلاء أن يكونوا عند حسن ظننا بهم، ولتكن أنت مثلاً لكافة عبيدنا في بذل الجهد، وعلى كل الأحوال قم بحفظ الولاية واحرص عليها، وكن مؤمّناً بجميع الخدمات اللازمة، وكن من أصحاب الرأي الصائب، ولا تضع دقيقة واحدة» (٥ ربيع الآخر ٩٨١هـ).

وقد نفذ هذا الأمر بشكل تام، حيث عمل الجميع من عساكر وأهالٍ بكل حزم وعزم، كما استطاع أحمد باشا بعدالته من إسكات الجميع، لكنه لم يستطع إخضاعهم بشكل تام، وعمت البلاد مجاعة قاتلة، وانتشرت الأوبئة، فالوباء الذي حدث قبل سنتين قضى على ثلث الأهالي[1].

وقد أرسل الأهالي رسالة إلى ملك فرنسا يسترحمونه فيه بتعيين ملك

= بتاريخ ٣ ربيع الأول ٩٨١هـ والكتابة تثبت بأن أحمد باشا أقام خندقاً حول السور وأن هناك كتابة موجودة في متحف الجزائر تثبت ذلك. غابريل كولن ج ١ ص ٥٤.

(١) دي غراممونت.

عليهم من قبله، ورأى شارل التاسع أن هذا التكليف **مقبول جداً**، فسعى جاهداً لإرسال أخيه الدوق **دانجويو** ملكاً على الجزائر، وفي الرابع عشر من نيسان ٩٧٩هـ الموافق ١٥٧٢م أعلم سفيره فرانسوا دي نوايل برغبته، وطلب منه العمل لإقناع الديوان الهمايوني من أجل تحقيق رغبته، وقد أوقعت رغبة الملك الفرنسي رجال السلك الدبلوماسي بحيرة ودهشة كبيرتين، لأن السلطان العثماني والديوان الهمايوني كانوا يعلمون أكثر من شارل التاسع بأن الجزائريين لا يقبلون تنصيب أمير مسيحي عليهم بسبب تمسكهم بالإسلام وكرههم الشديد للمسيحيين وخاصة الفرنسيين وعلى الملك الفرنسي تقدير ذلك(*).

كرر الملك محاولته أكثر من مرة، لذلك أصبح السفير مجبراً على بحث هذا الوضع مع الصدر الأعظم، لكنه كان خائفاً من بحث هذا الموضوع، وتردد كثيراً في تجنب التحدث بهذا الموضوع، وبما أن مليكه أمره بذلك، فقد غدا مجبراً على التنفيذ ولكنه لم يتحدث مع الصدر الأعظم وجهاً لوجه بل من خلال المراسلة، وأوضح للصدر الأعظم أنها رغبة الملك الفرنسي، وأن هذا الموضوع لا **يمثّل** رغبته ولا رأيه، وكان السفير الفرنسي يعمل على إطالة المباحثات، وكونه على علم مسبق باستحالة هذا الأمر، ولكثرة ما كتب السفير للدوق وأنجويو محاولاً إقناعه بأن الأمر ولو تم فلن يكون محظوظاً بحكم مثل تلك البلاد.

لكن الملك الفرنسي اتهم السفير بالإهمال والتراضي، وبوفاة الملك الفرنسي تخلص السفير من هذه المهمة الصعبة[1]. ومن يعلم من الثرثري الذي قام بترتيب هذه الحيلة، وأخذ يحرض الملك الفرنسي على ذلك. وقد كان القصد من تدبير هذه الحيلة خلق تباعد بين فرنسا والدولة العثمانية، لأن

(*) إن ما أورده المؤلف حول طلب **الجزائريين** تعيين أمير عليهم من ملك فرنسا، أمر مشكوك بصحته، لأنه من غير المعقول أن يلجأ الجزائريون إلى طلب مثل ذلك، **فهم** يرفضون الوجود التركي في بلادهم فكيف سيقبلون حاكماً فرنسياً، وهم مسلمون ومن عشاق الحرية، وربما يطلبون مساعدته للتخلص من الأتراك وحتى لو توقعنا مثل ذلك فهو أمر مستبعد جداً (المترجم).

(١) المفاوضات الفرنسية في الشرق ج ٣ ص ٢٣١، ٢٩١، ٣٨٩

السلطان العثماني كان يظن أن الملك الفرنسي من أفضل أصدقائه وأكثرهم إخلاصاً له، **خاصة وقد** أقيم بين الطرفين معاهدة، وطلب السلطان العثماني التساهل بشروطها ومنح فرنسا امتيازات خاصة بهم، إضافة إلى ذلك فقد كتب فرمانات كثيرة إلى أوجاق الغرب يحذرهم من التعرض للسفن الفرنسية وعدم مضايقة الرعايا الفرنسيين في ممالكه، ومهما كانت الصورة **فلتكن**، فالقراصنة لم يقتربوا من السواحل الفرنسية، ولكن القراصنة على الرغم من **فرمانات التحذير** الصادرة إليهم كانوا يعلمون مدى التأثير الفرنسي على السلطان، لذلك فإن تجارة البروفانس والمراكز الفرنسية الأخرى منذ شهور لم تتعرض لأذى القراصنة باستثناء بعض الهجمات الثانوية والنادرة، إضافة إلى التأكيدات الهمايونية التي أرسلت إلى أمير أمراء الجزائر أحمد باشا بعدم مهاجمة الولايات الفرنسية[1]. وقد عمل أحمد باشا على الالتزام بذلك، لكن مامي أرناؤوط ومن معه من البحارة، تمردوا على ذلك ورفضوا الالتزام بذلك. وكان أحمد باشا يرسل الهدايا إلى الملك الفرنسي للتخفيف من الشكاوى الفرنسية كما تعهد له بأخذ جزيرة طبرقة من **أيدي الجنويين**، وإعطاء الفرنسيين **أحقية** صيد المرجان بها، محاولاً تهدئة الوضع وكسب ود الفرنسيين.

كان الأندلسيون الذين هجروا من إسبانيا قد قدموا إلى الجزائر تاركين أموالهم وأملاكهم، وعملوا في الجزائر كعمال في الحقول والمزارع، وإن ما **يكسبونه يؤخذ** منهم كرسوم وضرائب، فتردت أوضاعهم سوءاً، ونتيجة لذلك قدموا شكوى إلى مقام السلطنة، يعرضون حالتهم، فأمر السلطان لمنحهم وظائف الأوقاف مع إعطائهم مواردها، وإعفائهم من الرسوم والضرائب لمدة ثلاث سنوات[2].

وفي هذه الأثناء توجهت أنظار الحكومات المسيحية إلى مسينا (Misina) وبدأ دون جوان تحركاته، **في** حين كان قلج علي باشا بأسطوله الجديد مستعداً لمساعدة **أمراء** الشمال الإفريقي، فبعد خروجه إلى مياه الأبيض المتوسط، طُلب من أمراء تونس والجزائر وطرابلس الغرب

---

(١) دي غرامونت.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٢٣/ ص ١٣٩. لسنة ٩٨١هـ.

الاستعداد لمواجهة تحركات العدو.

كان قلج علي باشا يتوقع مهاجمة الأعداء لتونس بمائة وخمسين سفينة قبل نهاية موسم **الإبحار**، لكنه لم يلاحظ أي تحركات للعدو وخلال تلك الفترة، وفي الوقت **الذي كان** أسطولنا يتجول في البحر، يراقب تحركات العدو، وجه السلطان أمراً خاصاً يخبرهم فيه بأن رئيس بن العباس والشريف **اتحدا** فيما بينهما بغية احتلال مواقعنا، وبهذا الخصوص وقعت بأيدينا وثيقة تثبت ذلك، ووصل بيالي باشا بأسطوله إلى رأس **بنفشه** (Benefse) فأرسل صيغاجك بك وأحمد بك إلى الجزائر للحصول على الأخبار، وبعد مدة عاد أحمد بك حاملاً رسالة من أمير أمراء الجزائر، وقد أرسلت هذه الرسالة إلى إستانبول، وإن رد إستانبول على هذه **الرسالة يظهر** بالتفصيل أحوال فاس والجزائر.

إلى أمير أمراء الجزائر حكم: يؤمر أمير أمراء الجزائر بأن «**أرسل** حالاً رسالة إلى قبطان البحر دام إقباله، بأن المعروف بالعباس قد أعلن عصيانه وتمرده من تلك الديار، وعليك في هذه المرة **هزيمته** وكسره مع جنوده، ومن أجل ذلك أرسل أعداداً وفيرة من العساكر، **واستول** على خزائنه، وإن شاء الله توفق بأسره، وتدارك احتمال هجوم الشريف على تلمسان، وللوقوف على صحة الخبر **أرسل** رجلاً من طرفك للتأكد من صحة ذلك، ولا تذهب إلى هناك قبل وصول الأسطول الهمايوني، وأعلم قبطان البحر عما تحتاجه، وبهذا الخصوص أنت أدرى بما ستفعله، لأنك في الرسالة السابقة أعلمتنا بأن الشريف قدم الطاعة وأعلن خضوعه وعبوديته لنا، والآن ما هو سبب تمرده، نأمركم بالتيقظ والانتباه، ولا تجعل عساكرنا **المنصورة في موضع** غفلة، واستعد دوماً للصلاة وذكر الله، وقم بالتجسس على الأعداء ولا تعطِ أي فرصة للتمرد والعصيان، وكن يقظاً بحيث لا تسمح بإزاحتك والانتصار عليك، وإن شاء الله سيعود أسطولنا ظافراً، وتصبح سفن الكفار نادمة، وإذا كان المقصود تونس وطرابلس الغرب فلا تكن في غفلة من هذا، وكن صاحب بصيرة وإدراك، وقم بمساعدة أمراء طرابلس الغرب وتونس قدر المستطاع، وإن المعلومات التي حصلنا عليها عن الكفار، تدل على أن القبطان الإسباني الملعون سيقوم بمهاجمة تونس، وكن على اتصال دائم مع أمراء تونس

وطرابلس الغرب، ولتكن عساكرنا المنصورة مستعدة على الدوام، وإذا استولى الأعداء على مكان ما، فكن متعاوناً مع **أمير** تونس ومتفقاً ومتحداً معه، وهاجمهم بالوقت المناسب، وقم بما استطعت إلى دفع الأعداء والتنكيل بهم، وبهذا الخصوص أرسل أمرنا الشريف إلى أمير الأمراء، ١٣ ربيع الآخر ٩٨١هـ (من قيودات دفتر مهمات الديوان الهمايوني مجموعة دار الفنون في كلية الآداب، المجلد الخامس العدد ١ ـ ٢ من شهري حزيران وكانون الثاني ١٩٢٦م).

أثناء ترقب الأسطول العثماني لتحركات العدو، تعرض لعاصفتين قويتين، أدتا إلى **تشتيته**، وأصيب بخسارة كبيرة، ومع نهاية موسم **الإبحار** عاد الأسطول إلى إستانبول.

اعتبر دون جوان هذا الوقت فرصة مناسبة، ففي السابع من أيلول سنة ١٥٧٣م الموافق جمادى الأولى سنة ٩٨١هـ، تحرك من صقلية، بأسطول يتألف من مائة وسبع سفن من غالية وواحد وثلاثين سفينة حربية وسبعة وعشرين ألف جندي متجهاً إلى تونس لمهاجمتها، ولم يستطع رمضان باشا الصمود، فانسحب إلى القيروان أما قبطان البحر فقد حمّل مسؤولية ذلك على السلطان، وعلى الرغم من أن الباشا ألقى نفسه في التهلكة، فإن العاصفة دافعت عنه[1].

لم **يقصِّر** قلج علي باشا في إداء مهمته وواجبه، ولو أن السلطان استمع إلى توصيات قلج علي باشا بشأن طرد الإسبان من جالطة (Galet) لما تعرضوا لهذه الخسائر، لأن قلج علي باشا خطط لطردهم منها منذ ثلاث سنوات.

أصيب دون جوان بالغرور من جراء انتصاره في معركة ليبانتو الجديدة، ووصل غروره إلى حد السكر، بحيث عزم على إقامة مكان لائق بمقامه على السواحل الإفريقية مدفوعاً بتحريض البابا وتشجيعه.

وعلى كل حال فإن ملك إسبانيا أمر دون جوان بالعودة بعد تهديمه للتحصينات الموجودة في جالطة، وفعلاً فقد أحالها إلى خرابة مملوءة

---

(١) المفاوضات الفرنسية في الشرق ج ١ ص ٤٥٢.

بالدماء ، وهجرها من السكان بحيث لم يكن هناك أي ضرورة لمقاتلة الأتراك زيادة عما حدث ، لأنه أقنع بني حفص في تونس والأشراف في فاس وبقية الأعداء برمي الأتراك في البحر[١].

رفض دون جوان تعليمات مليكه ، وباشر بإقامة التحصينات ، إضافة إلى جالطة ، كذلك فقد سيطر الإسبان على جزيرة سان جاك أو جزيرة **شكلي** (Sekli) الواقعة في بحيرة تونس ، كذلك فقد أقام دون جوان بين المدينة والبحيرة حصناً سماه **(باب البحر)**.

أمر الملك الإسباني بإحياء عائلة بني حفص وتقويتها ، لكن الحاكم السابق حميدة أراد الاستقلال ، فعزله دون جوان وعين مكانه مولاي محمد شريطة دفعه الخراج لإسبانيا[٢].

ولدى سماع الملك الإسباني بأن دون جوان يريد أن يقيم مملكة خاصة به في تونس غضب غضباً شديداً ، فأمره بالعودة فوراً وبأقصى سرعة ، فعاد دون جوان إلى إسبانيا بعد أن ترك ثمانية الآف جندي وعهد إلى غابيرو وسربلينو بقيادتها وأمره بالمحافظة على المواقع التي احتلها.

كان حاكم فاس وشيخ بني العباس يشجعان الملك الإسباني على مهاجمة الأتراك وطردهم من الشمال الإفريقي ، لأن الإدارة التركية في تونس لم تكن تناسب الشيوخ . فاندفعوا للوقوف إلى جانب العائلة الحفصية وأعلنوا تأييدهم لها . كذلك فقد أعلن شيخ بني العباس عصيانه وتمرده ، فحاول احتلال الجزائر ، أما حاكم فاس فقد استعد لمهاجمة تلمسان هرباً من الهجوم والمشاكل التي تواجهه ، وهذا ما دفع فاقدو الدين والوطن من أهالي تونس للاتفاق مع الإسبان ، محاولين تعريض البلاد لسيطرة أعداء الدين.

ونتيجة لتآمر هؤلاء فقد خرجت تونس من اليد[١] ، كذلك فإن موسم **الإبحار** قد انتهى وحل الشتاء ، وأصبح إنزال الأسطول إلى البحر **والإبحار** أمراً مستحيلاً وبناء على ذلك فقد تُرك أمر التحرك بالأسطول حتى أوائل محرم

---

(١) فور بيكه For bige .

(٢) فور بيكه For bige .

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة : / ٢٤/ ص ٥٩ .

سنة ٩٨٢هـ بغية استرجاع تونس من الأعداء[1].

كانت الأوامر الصادرة عن إستانبول إلى أمراء الشمال الإفريقي، تطالبهم دوماً بالاستعداد والتهيؤ للحرب بصورة دائمة، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها أحمد باشا خلال ذلك، فقد عُزل وعُين مكانه **أمير صنجق** تونس السابق رمضان باشا في الرابع من ذي الحجة سنة ٩٨١هـ [2]. كذلك فقد أمر أحمد باشا الاشتراك في حرب تونس مع أوائل الربيع القادم. فاضطر للبقاء مع قلج علي باشا حيث عاد برفقته إلى إستانبول. ثم صدر أمر بتعيينه **أمير أمراء قبرص**.

وفي ٢٣ محرم سنة ٩٨٢هـ استعد **لمرافقة** الجيش الذي تحرك إلى تونس بقيادة سنان باشا والأسطول بإدارة قلج علي باشا ووصلوا تونس في بداية ربيع الأول، وفي الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ٩٨٢هـ الموافق ١٣ أيلول سنة ١٥٧٤م احتلت تونس من جديد بعد حصار اشترك فيه أمير أمراء الجزائر رمضان باشا وأمير أمراء طرابلس الغرب مصطفى باشا وأمير أمراء تونس حيدر باشا وأمير أمراء الجزائر السابق أحمد باشا[3].

---

(١) دفر مهماب الديوان الهمايونى نمرة: / ٢٤/ ص ٧٢.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة: ٢٤/ ص ٧٢.

(٣) تفصيلات احتلال تونس في قسم تونس (الجزء المترجم من قبل الحاج عبد السلام أدهم).

- ٨ -
إمارة رمضان باشا

أمير الأمراء رمضان باشا - السياسة الإسبانية الفاسية والهجوم على جزيرة قرقنة - غزو فاس - فندقلي حسن باشا - التعريف بحسن باشا من قبل الأديب سيرفانتيس في مؤلفه المشهور (دون كيشوت - ضرب جزر البليار - سياسة فرنسا وفاس - مكتوب حسن باشا عن أوضاع فاس، البرتغال وأسبانيا - الحروب الفاسية البرتغالية - حرب القصر الكبير (وادى سيل) - موت الملوك الثلاثة (معركة وادي المخازن) - أبو العباس أحمد المنصور - نذالة حسن باشا - تعيين قنصل فرنسي في الجزائر - القحط عزل آغا الإنكشارية - الفساد يسود فاس وتونس - سفير فاس إلى إستانبول - هيبة أسطول قلج علي باشا - الريس مراد - القرصان حسن باشا - الاجراءات - التحويل إلى طرابلس الشام - عودة أمير الأمراء رمضان باشا للمرة الثانية - أمير الأمراء جعفر باشا - تعيين قائد للأسطول.

اتبع حاكم فاس أبو عبدالله المتوكل على الله سياسة والده تجاه جيرانه، كذلك فقد اتبع سياسة الموازنة بين إسبانيا والبرتغال، لأن إسبانيا غيرت سياستها الداخلية، لأن الحروب التي خاضتها في أوربا أضعفت جيشها، إضافة إلى ذلك فإن الأزمة الداخلية التي تعانيها أجبرتها على مواراة الثوار لمسلمين الأندلسيين، أما الأتراك فقد انشغلوا في تونس، أما الفاسيون فبدلاً من تقديم المساعدة للأندلسيين عملوا على ملاحقة مؤيديهم من المرابطين بغية القضاء عليهم قضاء تاماً[١].

---

(١) أوغست كور.

فشلت إسبانيا بالتوصل إلى اتفاق مع فاس لمحاربة الأتراك معاً، لأن الإسبان عمدوا خلال هذه الفترة على إخماد تمرد مسلمي الأندلس بالحديد والنار مستغلين انشغال الأتراك بإزالة الصعوبات التي واجهتهم لدى استعادتهم لتونس، وهذا ما ساعد الإسبان بالقضاء على ثوار الأندلس بسرعة وسهولة.

فمظلمو الأندلس الذين طالبوا بحريتهم، كان الإسبان قد قضوا على قسم منهم قضاء نهائياً، أما القسم الآخر فقد فر باتجاه الشمال الإفريقي منقذاً حياته من موت محتم، لذلك عمدت إسبانيا إلى إتباع سياسة اللين تجاه الأتراك محاولة تحسين علاقتها بالدولة العثمانية، لكن السفير الفرنسي بدأ يحرض قلج علي باشا لإقناع الديوان الهمايوني بعدم إقامة صلح مع إسبانيا، إلا بعد رحيلها نهائياً من جميع سواحل الشمال الإفريقي، ولم تحقق إسبانيا أي فائدة من الأموال التي أنفقتها لهذا الغرض، ولا من الوعود التي حصلت عليها، فتوقفت المباحثات[1].

وفي ربيع الأول لسنة ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م قام الأسطول الإسباني بقيادة الوفرو باظان ماركيو دي سانت كروسا Alvar Bozan Marguis de sent ، بمهاجمة جزيرة قرقنة، وألحق بها أضراراً خفيفة، وكان الأسطول يتألف من خمس فرقيطات وخمس وثلاثين سفينة حربية، كذلك فقد تمكن من أسر ثلاثمائة شخص، كما قام بتهديد سكان سواحل الشمال الإفريقي[1]. فغضب السلطان مراد الثالث من تصرف الإسبان إلى حد دفعه إلى التفكير بالرد عليهم والانتقام منهم.

ولم يكن بإمكان الأتراك توجيه ضربة قاسية للإسبان في وهران والمرسى الكبير لأنهم قرروا أولاً تسليم عرش فاس لمؤيديهم.

استمر الفرنسيون يحيكون الدسائس ضد الإسبان محاولين منعهم من إقامة علاقات جيدة مع الدولة العثمانية، وقد تحقق لهم الأمر لدى مهاجمة الإسبان جالطة، فبدأ الفرنسيون يحرضون قلج علي باشا على الانتقام منهم،

---

(١) المفاوضات الفرنسية في الشرق ج ٣ ص ٧٠٧ و ٧١٢.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة: / ٢٨/ ص ١٢٩ (٢٣ جمادى الأولى ٩٨٤هـ).

أما عبد المالك فقد توجه إلى إستانبول لاسترحام السلطان لتعينه حاكماً على فاس، خاصة بعد أن أثبت حسن صداقته له، وذلك من خلال مشاركته في حرب تونس، وبما أن السلطان العثماني كان ناقماً على الإسبان لسوء تصرفهم، لذلك أصدر فرماناً إلى أميراء الجزائر رمضان باشا يأمر بغزو فاس وتنصيب عبد المالك حاكماً عليها.

تحرك رمضان باشا على رأس جيش مؤلف من سبعة آلاف جندي مسلح بالبنادق وسبعمائة خيال وألف إنكشاري وستة آلاف خيال محلي، ولدى سماع أبو عبدالله محمد المتوكل على الله بتحرك الجيش الجزائري جهز قواته والتقى الطرفان في موقع يقال له الروكان[1].

استمر القتال بين الطرفين فترة طويلة، وتمكن رمضان باشا بعد انضمام الألشيون إلى صفّه إضافة إلى الأندلسيين وبعض القادة من إلقاء القبض على بعض الضباط والقادة الآخرين من جيش المتوكل على الله، أما القسم المتبقى فقد هرب طالباً النجدة.

دخل مولاي عبد المالك فاس دون إراقة دماء، أما عبدالله المتوكل على الله فقد فر باتجاه مراكش[2]. وقد أطلق عبد المالك على نفسه أبو مروان عبد المالك المعتصم كما لقب نفسه بالغازي، وبعد استلامه حكم فاس جدد بيعته للأتراك. ولتثبيت وجوده في فاس عمد إلى استئجار أعداد كبيرة من الانكشارية لنفسه من الزوحاقية (Zuhaflar) وكلفهم بحراسته، وقدم إلى حكومة الجزائر عشرة مدافع وخمسمائة ألف أونصة ذهبية[3].

وسار مودعاً الجيش الجزائري حتى نهر سلطان، وبنفس الوقت قدم أهالي فاس للجيش الجزائري الهدايا والتحف الفاسية الثمينة[4].

لم يتمكن رمضان باشا من ملاحقة الحاكم المهزوم حتى مراكش، لأنه

---

(١) فور بيكه For bige.

(٢) أوغست كور Ogust Kur.

(٣) الأونصة تساوى ٣٢ غراماً.

(٤) يذكر هاممر فى كتابه رقم ٣٧ ص ٤٤. أن رمضان باشا أرسل إلى الديوان الهمايونى الهدايا التي قدمها له عبد المالك وقد قدرت قيمتها بـ ٢٠٠ ألف دوقة دهبية أما نخبة التواريخ فتذكر فى الصفحة رقم ١٣٤ أن قيمة الهدايا تقدر بـ ٢٠٠ ألف ذهبية عثمانية.

ترك الجزائر خالية من أي قوة منذ زمن طويل، وقد قدم تقريراً مفصلاً عن غزوه لفاس إلى السلطان مراد الثالث، وذكر له أنه ضمن الحماية التامة لعبد المالك، وأنه لم يتجرأ من ملاحقة الحاكم المهزوم بسبب تخوفه على الجزائر وبصورة خاصة من ناحية البحر، وأثناء عودته إلى الجزائر مر بتلمسان ومستغانم، وطلب من قوادها الاستعداد والتيقظ، ثم تابع طريقه عائداً إلى الجزائر[1].

أما عبد المالك (فقد لبس الحلة الهمايونية وتقلد بالسيف المرصع متفاخراً بانتصاره، وأنه تمكن من فتح فاس بمساعدة رمضان باشا، وأن الحاكم القديم فر إلى مراكش، ولكن رمضان باشا أثناء تواجده أهمل ملاحقته) وقد عرض شكواه على السلطان مراد الثالث شفوياً[2].

يُفهم من الإفادة الواردة فيما سبق أن عبد المالك توجه من فاس إلى مراكش لطرد ابن أخيه منها وضمها إليه، وبالفعل فقد تمكن من الانتصار على ابن أخيه وأجبره على الفرار منه إلى سوسة، لكن أبا عبدالله المتوكل جمع أنصاره بقصد شن هجوم قوي على مراكش، إلا أنه لم يوفق، ففعل مثل بقية حكام البربر الذين فقدوا عروشهم، والتجأ إلى المسيحيين، وقبل البرتغاليون استرحامه شريطة إعطائهم القلاع الساحلية[3].

كان الملك البرتغالي سبستيان منذ ثلاث سنوات يجهز قواته للانتقام من شمال إفريقية إثر هزيمته هناك، فأخذ يحض أهل الصليب ويشجعهم للانضمام إليه، ولهذا السبب قبل تكليف أبي عبدالله المتوكل بكل سرور، وكان السلطان مراد الثالث مهتماً جداً بعبد المالك، فأمر أمير أمراء الجزائر بتأييده وتقديم ما يلزمه من الجنود[4]. بحيث يتمكن من التصدي لأي هجوم

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة: /٣٠/ ص ١٤٧. الفرمان الصادر إلى أمير أمراء الجزائر بتاريخ ١٧صفر٩٨٥هـ. أما أوغست كور فيذكر أن الجيش الجزائري تحرك من الجزائر في شوال سنة ٩٨٣هـ وتمكن من احتلال فاس في نهاية ذي الحجة سنة ٩٨٣هـ.

دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة ./٣٠/ ص ٢٠٨ (الحكم المرسل إلى حاكم فاس بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة ٩٨٥هـ.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة: /٣٠/ ص ٢٠٨.

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة: /٣٠/ ص ١٨٠.

يشنه الأعداء عليه، وقد أمرت القوات المرسلة إلى عبد المالك الانصياع لأوامره، لكي لا يقع أهالي فاس تحت وصاية الجزائريين أو غيرهم ولكي لا يتعرض عبد المالك لتمرد الرياس عليه أثناء تحركه وتغدو القوات الجزائرية عبئاً عليه بدلاً من أن تكون عوناً له.

قدم أهالي فاس طاعتهم وتأييدهم للسلطان العثماني، وأعلموه بحصولهم على العدالة والمساواة التامة من حاكمهم عبد المالك، وهم يدعون للسلطان بطول العمر ودوام الإقبال[1].

سُر السلطان مراد الثالث من ارتباطه بعبد المالك والفاسيين، ولم يكن عزل رمضان باشا بسبب عدم ملاحقته للحاكم المخلوع حتى مراكش، وأن السلطان تجنب إبقاء رمضان باشا هناك وبما أن أمير صنجق سلانيك حسن باشا رجل مفيد وشجاع ومن العارفين بأوضاع الولايات الغربية لذلك عين أمير أمراء الجزائر[2].

اتصفت ولاية رمضان باشا على الجزائر والتي استمرت أربع سنوات من ٤ ذي الحجة ٩٨١هـ وحتى ١٣ ربيع الأول ٩٨٥هـ بالشدة، ولكنه بالرغم من ذلك فلم يتمكن من إضعاف نفوذ الإنكشارية أو دفعهم عن مضايقة الأهالي، فمنذ بداية حكمه للجزائر تلقى فرماناً سلطانياً يعلمه بأن سكان الجزائر قدموا للسلطان شكاوى بحقه، وأنه يتبع الظلم أثناء جمعه للأموال[3]. وبأنه يلجأ إلى فرض الضرائب على الأهالي بغير حق، وأنه استولى على أموال من سبقه من الولاة أمثال قلج علي باشا[4].

وبعد صدور فرمان عزله قدم أصحاب الحقوق يطالبون بإعادة الأموال إليهم، فأصدر السلطان أمراً إلى أمير الجزائر الجديد وإلى قاضيها يأمرهم بإعادة الأموال بكاملها إلى أصحابها.

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة: / ٣٠/ ص ١٨٢ (٥ ربيع الأول ٩٨٥هـ).
(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني: نمرة / ٣٠/ ص ١٨٢.
(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني: نمرة / ٣٠/ ص ٢٠٨.
(٤) دفتر مهمات الديوان الهمايوني: نمرة / ٢٤/ ص ٨٧ (١٣ ذي الحجة ٩٨١هـ).
(٥) أخذ رمضان باشا أموال قلج علي باشا من صناديق توس والتي تقدر قيمتها ٣٠٠ فيلوري، كما أخذ ضريبة منصقتين ضريبة الأولى ٣٠,٠٠٠ ليرة ذهبية والثانية ١٥ ألف ليرة ذهبية.

وكان رمضان باشا قد جمع من واحة فغيغ الواقعة جنوب تلمسان ضريبة قدرها ١٤,٠٠٠ فيلوري[١]. ولم يسلم هذه الأموال إلى الخزانة، وحينما علم خلفه بها استعادها منه وأرسلها مختومة إلى إستانبول[٢].

كذلك فإن بعض حاصلات الميري توضع بالأصل تحت تصرف أمير الأمراء بغية تخصيصها لبعض الأعمال الضرورية في الولاية، وقد تصرف بها رمضان باشا وباع بعضها للأهالي واحتفظ بالأموال لنفسه، فصدر فرمان إلى حسن باشا أمير الأمراء يأمره باستعادة تلك المناطق، ودفع التعويضات إلى الأهالي وأخذ كامل الأموال من رمضان باشا وحذره الفرمان من إلحاق الضرر بأي فرد منهم[٣].

كان تبديل آغوات الإنكشارية والأونباشية يشكل عبئاً ثقيلاً على الأهالي، لأن البعض منهم كان يجمع الهدايا بالقوة من الأهالي. ولهذا فقد صدر فرمان يحذر الجميع من القيام بمثل ذلك، وفي الفترة الأخيرة فسد النظام والهدوء الذي كان يسود السفن البحرية، وذلك بسبب مشاركة الإنكشاريين بالأعمال البحرية، فصدر فرمان سلطاني ينظم ذلك تنظيماً واضحاً[٤].

كان حسن باشا أمير أمراء الجزائر شجاعاً وذكياً ونشيطاً وهو لم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره، وقد اتفقت هذه الصفات مع أطماعه، فاندفع إلى اتباع الظلم فخسر سمعته وشهرته التي تمتع بها لسنوات عدة، ويقول سيرفانتيس كاتب رواية دون كيشوت واصفاً حسن باشا بعدما عرفه جيداً من

---

(١) فيلوري عمله فرنسية ضُربت فى فلورسا فى القرن الأولى للميلاد وكانت سابقاً تضرب من الذهب.

(٢) دفر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٣٠/ ص ١٧٩.

(٣) دفر مهمات الديوان الهمايونى نمرة ٠ / ٣٠/ ص ١٨٠، ١٨٢.

(٤) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة: / ٣٠/ ص ١٨٢، ٢١٣ (حكم إلى أمير أمراء الجزائر. بلغنا فى هذا الخصوص بأنك تقوم بارتكاب المحظورات وأنك لا تسمع إلى أقوال المسنين، علك تدارك أخطاءك وعامل المسنين بإسلوب لائق وضعهم فى المراتب اللائقة بهم.

إلى أمير أمراء الجزائر حكم: علمنا أن طائفة المدنيين والمتطوعين فى حاله شنم فيما بينهم وأن العداء يتسع بينهم يوماً عن يوم، وأن الإنكشاريين يهددونهم بالقتل وبقطع الأيدى يحذر الإنكشاريون من التدخل بذلك لأنه هذا يؤدى إلى هدم الأوجاق وشوب اقتتال فيما بينهم، فالأمر يتطلب الحكمة وحسن التصرف. فلتكن متيقظاً (٢٧ صفر ٩٨٥هـ).

خلال وقوعه أسيراً بيديه (أنه ضخم وقاسٍ ذابل المحيا، له لحية صفراء، وله أعين براقة دموية وأطوار عظيمة وظالمة) وقد سماه سيرفانتيس بفندقلي حسن باشا، لأنه أسر حينما كان طفلاً من سواحل البندقية في إحدى الغزوات التي قام بها الريس طرغوت[1]. وبعد ذلك أخذه منه قلج علي باشا فكرمه وأعطاه قادرغة، ثم جعله وكيلاً له إلى أن عُين أميراً على صنجق سلانيك.

بدأ حسن باشا عمله كأمير أمراء الجزائر سنة ٩٨٥هـ الموافق ٢٧ حزيران ١٥٧٧م، وقد عامل الإنكشاريين معاملة قاسية جداً، في حين عامل الرياس معاملة سهلة، واعتمد عليهم اعتماداً كلياً، وذلك لوجود روح القرصنة بدمه وروحه، وبما أنه كان عزيزاً على القبطان قلج علي باشا فقد ترك له حرية التصرف وتجنب التصدي له. وفي سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨ قام حسن باشا يرافقه الرياس بمهاجمة السواحل المجاورة لجزر البليار، وغنم منها غنائم كثيرة جداً، ولدى عودته إلى الجزائر علم بأن الإسبان تجمعوا في منطقة (كادي) استعداداً لشن هجوم على الجزائر، فقام بتحسين المدينة تجنباً من وقوع هجوم مفاجيء، كما جدد برج مولاي حسن وحصّن وسلّح الجبهة الغربية[2].

كلف حسن باشا الأسرى المسيحيين القيام بالتحصينات وسط حراسة مشددة وذلك بناء على أمر من السلطان، كذلك فقد اشترى البارود وكافة اللوازم الحربية من فرنسا وفي الوقت نفسه كان ملك إسبانيا فيليب الثاني يحاول خلق الدسائس بهدف التوصل إلى إقامة علاقة مع حاكم فاس[3].

حصل الفرنسيون على الموافقة بصيد المرجان التي كانت حلمهم منذ زمن بعيد، وأعلم السلطان مراد الثالث أمير أمراء الجزائر بأن الفرنسيين لا يعارضون دفع عشر ما يحصلون عليه من مرجان مثلما كان يدفع أهالي جنوة سابقاً[4]. وكان حسن باشا قد أرسل رسالة يشرح فيها بالتفصيل محاولة حاكم

---

(١) قاموس الأعلام: يذكر مؤلفه شمس الدين سامي أن حسن باشا بوستلي الأصل.

(٢) دي عرامونت.

(٣) دي غرامونت.

(٤) في الفصل الثامن عشر من كتاب الكسندر دو لابورد كُتب ما يلي: سُمح للفرنسيين بالتجارة

فاس المهزوم أبو عبدالله محمد المتوكل على الله تشجيع وتحريض البرتغاليين على احتلال فاس وبما أن هذه الرسالة تتضمن عدة وقائع، لذلك نورد الفرمان الخاص بها، وفيما يلي مضمون الرسالة[1].

تذكر في رسالتك الواردة إلينا: بأن البابا ودوق فرنسا يقومان منذ أكثر من ثلاثة أشهر بجمع الجنود. وإعداد أربع أو خمس سفن وتحميلهم بالمقاتلين والذخيرة بقصد إرسالهم لمساعدة البرتغال، كما أن ملك إسبانيا استجاب لصرخات ملك البرتغال وحدثت فيما بينهما مشاورات ولم نتمكن من النتائج أو الاتفاق الذي تعاهدا عليه، ولكننا علمنا أن ملك إسبانيا كرر ثانية على ملك البرتغال الزواج من ابنته، وأن الملك الإسباني جمع عشرة آلاف جندي لإعطائها إلى ملك البرتغال، كما تعهد له بتقديم ستين كادرغة من أجل نقلهم إلى السواحل العربية، لأن ملك البرتغال لا يملك إلا ثماني قادرغات غير السفن الأخرى. كما أننا لم نتمكن من معرفة المفسدين في المناطق الذين تعهدوا بالوقوف إلى جانبهم، وقد وردت إلينا بعض الأخبار التي تذكر بأن ملك إسبانيا سيتوجه شتاءً إلى فلاندرا، وأن ولايته ستبقى من هذا الجانب خالية، وخوفاً على سعادته ولضمان بلاده، أقام الصلح مع ملك البرتغال بعدما رفض ملك البرتغال الزواج قبل تأديب فاس، وخاصة بعد أن

= وصيد المرجان، وقد حصلوا على هذا الامتيار الذى يخولهم بيع وشراء بعض المواد مثل الصوف، الجلد، الشحم وعيرها من الأمتعة، شريطة أن يدفعوا سنوياً صريبة قدرها سبعة عشر ألف فرنك، مقابل ذلك وكان أول من بدأ بصيد المرحان رجال من البروفانسيين ومن بعد ذلك أنشئت الشركة الملكية الإفريقية، وأصيف على صيد المرجان ممارسة الأعمال التجارية، وكانت أول مؤسسة أقيمت في قاب نقرة سنة ١٤٩٥م. ومن بعدها أقيم على التوالى فى فارو (قابرور) وبستيون، ويقال أن القراصنة الأتراك خربرا البستيون سنة ١٥٢٨م، ولكن بالنسبة لنا فيما يتعلق بهذا الحصوص كانت أول وثيقة تثبت ذلك من دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٣٥/ ص ١٢٢. والحكم موجه إلى أمير أمراء الجزائر (مازال الكفرة الإفرنج يعرضون علينا السماح لهم بصيد المرجان ما بين الجزائر وتونس فى موقع يسمى مراقرز حيث كان سابقاً أهالى جنوة يمارسون صيده بعدما حصلوا على أذن الديوان الهمايوني. عليكم فور وصول أمرنا بمنعهم من إقامة أي مراكز لهم وأن تأخذ منهم عشر الميرى. وليس لدينا أى مانع من ممارسة الفرنسيين من صيد المرجان في ذلك المكان وعليك عدم التدخل بذلك (الأربعاء ٢ جمادى الآخرة ٩٧٦ هـ/ ١٥٧٨).

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني: نمرة / ٣٥/ ص ١٨٩.

تأكد لملك إسبانيا أن ملك البرتغال مصمم على مهاجمة مولاي عبد المالك وخاصة بعدما قام بضرب الكفار المتمركزين في سبته فرد عليه مولاي محمد بالاتصال مع ملك البرتغال وأعلمه بذلك، فأرسل له الملك البرتغالي عدة رسائل مع بعض رجاله، وبعد أن شعر مولاي المتوكل على الله بأن أمر استقراره في سبته صعب جداً، كلف ثلاثة من الأسياد بالتوجه إلى ملك البرتغال لاستعجال قدومه، وأثناء ذهابهم صادفتهم سفن عبد المالك فألقت القبض عليهم وأحضروهم إليه، وبعد الاستفسار عن المهمة المكلفين بها قتل اثنين منهم وسجن الثالث، ومن تلقاء نفسه أدرك مسؤولية تحمل الدفاع عن بلاده والتصدي للغزو الموجه إلى بلاده، فكلف أخاه أحمد بمهمة مع عشرة آلاف جندي، ومن ثم سار خلفه بخمسة وأربعين ألف جندي للاطلاع على الأوضاع وحراسة أطراف الولاية، كما كلف ألفاً وخمسمائة جندي تركي بحماية الحدود، وعين لهم قائداً من الذين تثق بهم (أي حسن باشا). وأنت قم بقيادة عشرين سفينة واتجه فوراً إلى البحر. كما نأمر بأن تكون جاهزاً ومستعداً للغزو والجهاد (٢ رجب ٩٨٦هـ).

وبما أن حاكم فاس السابق أبو عبدالله محمد المتوكل على الله عندما التجأ إلى البرتغال أخبر ملكها بأن له أنصاراً يقفون إلى جانبه، لذلك كلفه ملك البرتغال الذهاب قبله إلى أصيلا لجمع أنصاره ومؤيديه. وقد ثبت لنا أن وقائع هذه الرسالة غالبيتها صحيحة.

كان ملك البرتغال في العشرين من عمره، وهو عصبي المزاج لكنه متدين، وكان يعتقد بأن له أحقية حكم مسلمي شمال إفريقيا والتسلط عليهم، لأن ذلك بالنسبة له وظيفة دينية، ولهذا أخذ يستعد لذلك ويتخذ التدابير اللازمة لذلك وينتظر الفرصة المناسبة، وقد اتخذ التجاء أبو عبدالله محمد سبباً للتدخل بشؤون فاس، لكن سبستيان لم يرلديه القوة الكافية لتحقيق مراميه. فهرع للاتفاق مع ملك إسبانيا فيليب الثاني وفي كانون الأول سنة ١٥٧٦م تقابلا في استرامدورا (Estremadure)، وقرر فيليب الثاني مساعدته شريطة الاكتفاء باحتلال العرائش وألا تستمر الحرب أكثر من سنة، وقرر إعطاءه خمسين سفينة وخمسة الآف شخص ومشاركته بثلث النفقات، وكان من المعلوم أن الملك البرتغالي ينفر من الزواج، وقد تحدث معه فيليب الثاني

بشأن زواجه من ابنته، ولكنهما أجلاّ البحث بهذا الموضوع لبعد انتهاء الحرب، ولم يكن سكان البرتغال موافقين على الحرب، فأخذوا يتضايقون من ذلك، ولكن الملك لم يستمع إلى أحد، وباشر بجمع ثمانية عشر ألف شخص، وقدمت له إسبانيا خمسة آلاف وستمائة شخص، وكان ضمن هذه القوة ثلاثة آلاف خيال.

وفي الرابع من حزيران سنة ١٥٧٨م اتجهت هذه القوة إلى السواحل الإفريقية على متن الأسطول[1]. وحالما وصل الملك البرتغالي إلى أصيلا وجد مولاي محمد بمفرده، ولم يتمكن من جمع فرد واحد لصفه، وكان سبستيان قد استولى على العرائش قبلاً.

قرر سبستيان التحرك من أصيلا براً، ولم يكن يعلم بأن المسير يشكل عليه خطراً كبيراً ويعرضه للضياع، وحالما سمع عبد المالك بذلك جمع قواته وقرر الاتجاه شمالاً، وتقابل الطرفان بجوار العرائش، وبما أن عبد الملك كان مريضاً فقد عهد إلى أخيه أبو العباس بقيادة الجيش، وبنفس الوقت أمر عبد المالك، أن ينقل إلى أرض المعركة على النقالة، وكان عبد المالك قد أرسل رسالة إلى سبستيان من أجل إيقاعه في الكمين وإغضابه قائلاً له (أتيت إلى هنا بعد أن قطعت ستة عشر منزلاً، هل تخاف من المسير فرسخاً واحداً لمقاتلتي) وفي الحقيقة كان بينهما نهر المخازن، ولم يكن على النهر سوى ممر واحد وهو عبارة عن جسر ضيق أقيم بالقرب من القصر الكبير أو (قطاحه)، ووقع سبستيان بالكمين، وعبر الجسر في اليوم الثاني، ولم يفكر نهائياً بوضع قوة على الجسر لضمان خط عودته، وبدأ الجيشان بالقتال ولكنه لم يستمر طويلاً، لأن الجيش البرتغالي اصطدم مع قوة قوية ومتحدة فاضطر إلى التراجع باتجاه الجسر، لكن الفاسيين أرسلوا خيالتهم للسيطرة على الجسر، إزاء ذلك اضطر الجيش البرتغالي المنسحب لإلقاء نفسه في الماء، وكان من جملتهم الملك سبستيان وأبو عبدالله محمد فغرقا بالنهر مع قسم كبير من الجنود لأنهم لا يعرفون السباحة، ومن تبقى منهم وقع في الأسر بيد القوات الفاسية[2]. أما الجنود الذين لم يلقوا أنفسهم في الماء فقد قطعت رؤوسهم

---

(١) تاريخ إسبانيا (م. روسيو M. Resseuw) ج ١٠ ص ١٢، ١٣.

(٢) يقول فور بيكه وأوغست كور. إن نهاية الحرب كانت في أواخر جمادى الأولى سنة ٩٥٦هـ =

بالسيف، وتمكن قسم منهم النجاة بعدما توصلوا ركضاً إلى سفنهم ورموا أنفسهم فيها عائدين إلى بلادهم، وأثناء عودتهم تصدى لهم الريس سنان، وأغرق قسماً من سفنهم في البحر فأسر منهم خمسمائة شخص[1]. وبعد انتهاء الصدام صمم على إخراج سفينتين وتمكن من سحبهما معه.

ومع بداية المعركة توفي مولاي عبد المالك، لكن وزيره ابن رضوان[2]، أخفى خبر وفاته عن العساكر، لكي لا تنهار معنوياتهم[3].

والغريب في الأمر أن هذه المعركة تسببت في موت ثلاثة ملوك، ونُسبت المعركة للموقع الذي حدثت فيه تلك المعركة، فقد سميت بمعركة القصر الكبير أو معركة وادي سيل.

أصيب البرتغال بمصيبة كبيرة إثر موت سبستيان، فبموته لم يبق من العائلة الملكية سوى عم واحد له، وكان هذا أيضاً كاردينالاً، فاستغل ملك إسبانيا الفرصة وأخذ يسعى للحصول على ملكها. وإذا كان الكاردينال قد عمل لاستلام الحكومة فترة من الزمن، لكن الملك الإسباني بدأ باختلاق الفتن والدسائس لإبعاده وقد تمكن من تحقيق نجاح باهر وجمع الدولتين تحت تاجه سنة ١٥٨٠م.

إثر وفاة عبد المالك، أعلن أخوه أبو العباس أحمد نفسه سلطاناً في ميدان المعركة وتلقب بالمنصور، وأرسل رسالة إلى السلطان مراد يعرض فيه تبعيته له، فرد السلطان جواباً على هذه الرسالة بسفارة يعلمه بفرحه وتهنئته له بالنصر المؤزر[4].

أظهر فندقلي حسن باشا أو أولوج حسن باشا الذي كان واحداً من

= / ١٥٧٨م ويبدو لنا في كتبه القائمقام هنرى دي قستري من خلال رحلة أحد سفراء فاس إلى تركيا بأن المعركه انتهت فى ٣ آب ١٥٧٨م.

(١) نحبه التواريخ ص ١٣٤.

(٢) فور بيكه For bigé.

(٣) تعددت الروايات حول وفاة عبد المالك. يقول أوغست كور أن أولوج رضوان دس له السم، هاممر يذكر أن وفاته نتيجة لفرحه بالنصر، نخبة التواريخ تذكر أنه توفي قبل انتهاء المعركة.

(٤) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٣٦/ ص ١١٠، أما القائمقام هنرى دي قستري فيذكر أن السفارة التى أرسلها المنصور استقبلت بفتور من قبل إستانبول.

قباطنة قلج علي باشا نشاطاً وفعالية جيدة خلال ذلك، ولكنه كان مكروهاً من قبل الجميع لطمعه وجشعه.

وفي هذا التاريخ كان هايدو واحداً من جملة الأسرى الموجودين في الجزائر، وهايدو هذا يذكر الطرق والأساليب التي اتبعها حسن باشا للحصول على الأموال حيث يقول «بدأ بجمع فدية الأسرى والتي من الممكن أن تدفع له فعلاً، استولى على الذخائر وباعها، وللحصول على سعر أعلى باعها في البازار، زاد من الضرائب واستخدم القوة في تحصيلها، أخذ النصيب الأكبر من الأسرى المباعين، كما خصص لنفسه نسبة من ضرائب الميراث، فرض على جميع التجار القادمين تقديم الهدايا له، لم يترك مكاناً يضمن له المال إلا وتفقده»[1].

هذه الأعمال وتلك التصرفات أغضبت الأهالي والإنكشارية معاً، لكنهم لم يحركوا ساكناً خوفاً من بطشه وجبروته، وفي هذه الأثناء كانت فرنسا تحاول تعيين قنصل لها في الجزائر، ولم تتمكن من ذلك إلا بعدما وافق الديوان على ذلك ووصل قنصلها إلى الجزائر في نهاية سنة ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م.

تعرضت الجزائر خلال سنتي ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م و ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م إلى فترة جفاف وقحط شديدين. عم الجوع من جرائهما مختلف مناطق الجزائر، ويصف هايدو حالة الجزائر قائلاً «في سنة ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م واعتباراً من ١٧ كانون الثاني وحتى ١٧ شباط توفي في مدينة الجزائر ٥٦٥٦ شخصاً خلال شهر واحد، وخلال تلك الفترة امتنع الأهالي عن دفع الضرائب، وتفرق سكان المدن في كل مكان بحثاً عن الرزق والطعام، وقام الإنكشاريون بنهب المنازل وعمت الفوضى مختلف المناطق»[2].

فشل حسن باشا في إيجاد حل للفوضى القائمة في الجزائر، وخسر مساعدة الرياس لأنه عمل على إزعاجهم فخاصموه، فالرياس كانوا يعطون أمير أمراء الجزائر $\frac{1}{8}$ الغنائم التي يحصلون عليها، لكن حسن باشا طالبهم

---

(١) هايدو المصل / ٢١/ .

(٢) دى غراممونت . .

برفع نسبته ، ولهذا ازدادت علاقته سوءاً بالرياس ، وتجنباً من اتساع دائرة الخلاف بين الطرفين عمد إلى تعيين آغا لتنظيم ذلك ، لكن الرياس لم يستفيدوا شيئاً لأن حسن آغا المعين لذلك اتبع الظليم وغدا هو الآخر يطالب بحصة لنفسه ومارس الرشوة ، فاستدعاه الديوان الهمايوني إلى إستانبول ونصحه وحذره من ذلك ، ولكنه لم يتعظ ولم يأخذ بنصائحه ، فاستدعى ثانية وحُقق معه ثم عزل من منصبه ، وعُين مكانه الكخيا وكيل الجزائر[1] ، لكن حسن آغا عاد ثانية إلى الجزائر وأخذ يشجع الإنكشارية على ارتكاب الفساد والظلم ، فألقى القبض عليه وسُجن ولكنه فر من سجنه ، فصدر فرمان سلطاني يقضي بملاحقته وتسليمه إلى ديوان الجزائر لمحاكمته بمقتضى الشريعة السياسية ، وفي حال عدم استجابته ورضوخه ، قيدوه بيديه ورجليه وأرسلوه إلى إستانبول[2] .

ارتكب أمير أمراء الجزائر حسن باشا خلال ولايته على الجزائر مظالم كثيرة ، ووصلت عدة شكاوى بحقه إلى إستانبول ، وغدا سكان الجزائر يتحدثون بتلك الشكاوى في كل مكان ، وصدر فرمان سلطاني إلى آغوات الإنكشارية والبلوكباشية حول صحة الشكاوى والشائعات الصادرة بحق أمير الأمراء ، كما كلف قلج علي باشا بالتوجه إلى الجزائر للتأكد من صحة ذلك وعن المظالم التي ارتكبت بحق الأهالي[3] .

لم يقف الأعداء صامتين حيال الفوضى التي كانت الجزائر تشهدها ، فأخذوا يخططون لسحق الأتراك وطردهم من تلك المناطق ، إضافة إلى ذلك فقد أخذوا يساهمون في توسيع دائرة الفتن والفساد[4] .

وعلى الرغم من إعلان حاكم فاس تبعيته وعبوديته للسلطان العثماني ، إلا أنه كان يحاول التقرب من الإسبان ، كما علمت إستانبول بوجود بعض الأشقياء يتحركون في تونس وكان أحد أفراد العائلة الحاكمة في تونس سابقاً ،

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٤٢/ ٥٥ (١٩ جمادى الأول ٩٨٩هـ) .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٤٢/ ٢٤٨ (ربيع الاخر ٩٨٩هـ) .

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٤٢/ ١٣٠ ، ١٨٣ (٢٥ ذى الحجة ٩٩٠ هـ) .

(٤) أوعست كور .

قد فر إلى مالطـة ، ومـن هنـاك بدأ بمراسلـة أعيان تونس كمحاولة لاستعادة عرشه[١] . وبناء على ذلك فقد ظلت أحوال تونس وفاس قائمة على التجسس والتآمر.

وبما أن الدولة العثمانية بدأت الاهتمام بشمال إفريقية ، لذلك بدأت الدولة العثمانية بمحاسبة ولاتها محاسبة صارمة ، ولتنفيذ ذلك فقد أرسلت **دفترداراً من** الباب العالي للتدقيق في الأمـور المـالية وزودتـه بصلاحيات واسعة ، وكلفته بتطبيق القانون على الجميع وإعلام إستانبول بالمخالفين[٢] .

جدد الفرنسيون الصلح مع الدولة العثمانية ، وكان السلطان مراد الثالث يفضل صديقه القديم على كافة ملوك أوربا ، ولكي يترك ذكرى حسنة لدى صديقه الفرنسي ، أصدر أمراً إلى أمراء الغرب وجميع الممالك التابعة لها ، بإطلاق سراح جميع الأسرى الفرنسيين ، وإعادة جميع الأموال والسفن التي أخذت منهم ، وقد صدر هذا الفرمان كتقدير خاص للملك الفرنسي[٣] .

وفي سنة ٩٨٩هـ / ١٥٨١م أرسل مولاي أحمد المنصور حاكم فاس هيئة سفارة إلى إستانبول برئاسة علي بن وداد الفرمي والكاتب أبو العباس أحمد بن علي حفظلي ، وحملهم بالهدايا والتحف الثمينة لتقديمها إلى السلطان ، لعلمه بحدوث سخط كبير عليه[٤] .

لم يكن قلج علي راضياً عن إرسال السفارة الفاسية ، وكان قد خرج بأسطوله إلى البحر في سنة ٩٨٩ هـ / ١٥٨١م بقصد تأديب حاكم فاس لأنه ذو وجهين ، وحينما رسا قلج علي بأسطوله في ميناء الجزائر ، كانت سفارة مولاي أحمد المنصور قد وصلت إلى إستانبول[٥] .

إن تطور الأسطول العثماني وتقويته أثارت مخاوف إسبانيا ، كذلك فقد أثار حفيظة مولاي أحمد المنصور ، وكان الملك الإسباني فيليب الثاني قد هيأ

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٤٢/ ص ٨٢.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ٤٣/ ص ٢٣٠ .

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٤٣/ ص ١١٧ .

(٤) القائمقام هنرى دى فسرى (رحلة السفير الفاسى إلى تركيا) .

(٥) أوعست كور .

أسطوله وجيشه تحسباً من هجوم تركي على سواحله أو على فاس، وعلى ما يبدو أن اتفاقاً قد تم بين المنصور والملك الإسباني، وتعهد المنصور بالتخلي عن العرائش مقابل مساعدته ضد الأتراك. ولكن الأمر لم يصل إلى هذه الدرجة[1]. ومما يؤكد ذلك نجاح السفير في مهمته وعودته إلى بلاده معززاً مكرماً إضافة إلى ذلك قبول السلطان العثماني للهدايا قبولاً يدل عن أن أحمد المنصور لا يزال متمسكاً بصداقته مع الدولة العثمانية وعدم إقامته لأي اتفاق مع الإسبان. ولهذا فقد زود السلطان السفارة الفاسية برسائل إلى أمراء تونس وطرابلس الغرب يأمرهم بعدم التعرض للهيئة الفاسية أو مضايقتها، كما أنه أعلم رئيس الهيئة بتفاصيل الفرمان الموجه إلى الجزائر لنفس الغرض[2].

وبتاريخ ٩٩٠هـ وصل سفير حكومة فاس إلى مقام السلطان العثماني، وفي أثناءها كان السلطان يقيم حفلة طهور لابنه محمد، وبما أن فاس أصبحت مضافة لأملاك الدولة العثمانية ولتأكيد ذلك، فقد زود السفير بفرمان سلطاني يخول مولاي أحمد المنصور حق حصر الحكم بعائلته جيلاً بعد جيل، ونظراً لأهمية هذا الفرمان فقد وجدنا ذكره كاملاً: دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة/٤٨/ ص ٣١.

«إلى حاكم فاس مولاي أحمد حكم: بالرسالة التي أرسلتها مع شخص من طرفكم أثبت بها الإخلاص والمودة لسدتنا العلية، لذلك قررنا منحك حق الحكم ولمن سيأتي من نسلك جيلاً بعد جيل بدون انقراض، وعممنا هذا الفرمان على سائر ممالكنا المحروسة وحكامها، وبأنك أصبحت من جملة الممالك المضافة إلى ممالكنا المحروسة وأن تعليماتنا بهذا الخصوص

---

(١) أوعست كور.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٤٢/ ص ٨٣ (مضمون ومختصر الفرمان) إلى أمير أمراء الجزائر حكم. حاكم فاس ومراكش مولاى أحمد... يجب عليك تأمين نقل الرجل السفير الذى قدم إلينا برساله وقبلناها، وحسب الشرع الشريف علينا إيصاله إلى بلاده سالماً، لذلك عليك معاملته بالمعروف وبكل احترام، كما يجب عليك تزويده بعدد كافٍ من العساكر لضمان سلامته وإيصاله. والمشار إليه أحمد سيقوم في دياره بإعلان الخطبة باسمنا وسنضرب النقود أيضا بإسمنا كعربون جيد على صداقتنا الصافية والذكرى الحسنة، وإذا لم يرد دليل يؤكد خيانته لنا ابقيه مكانه، وعليك التأكد من ذلك **وأعلمنا** بالتفاصيل ساعة بساعة ٢ صفر ٩٨٩هـ (اخر جمله وردت فى هذا الفرمان لم تُر فى دفتر المهمات).

شاملة، وما دامت تبعيتكم لمعالينا تعتمد على الصداقة والإخلاص، ولقاء هذا الإخلاص ستحكم البلاد نسلاً نسلاً إلى يوم القيامة. بلغ الفرمان إلى أوجاق الغرب بتاريخ ٢٣ رجب ٩٩٠هـ.

كانت هدايا السفير الفاسي إلى حفلة طهور ابن السلطان عبارة عن صندوق من الصدف وبداخله مسابح و ٦ سجادات قيمة، وسرج مرصع، وطرة مرصعة بالجواهر وأربعة أثواب قماش، وكمية من اللؤلؤ مع أربعة آلاف ليرة ذهبية[١].

وفي أواخر شهر ذي القعدة سنة ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م جاء جعفر باشا إلى الجزائر[٢]. وكان أثناء ذلك قلج علي موجوداً في الجزائر بأسطوله المؤلف من خمسين قادرغة، فخاف حاكم فاس، ووجد نفسه مجبراً على عقد الصلح مع إسبانيا، لكن إسبانيا اشترطت عليه أولاً: التنازل عن بعض المناطق مع دفع ضريبة سنوية، وعدم إقامة أي صلح مع فرنسا.

لم يعلم أحد هدف الأسطول العثماني، ولم يتبين من الأحكام الموجهة إلى أمراء إفريقية (بما أن قبطاننا علي باشا خرج إلى البحر لبعض الخصوصيات) وفي الرسالة الموجهة إلى ملك فرنسا[٣]. «اقتضى الأمر توجيه قبطاننا علي باشا مع عدد من السفن إلى جزائر الغرب» الهدف الذي تحرك بموجبه الأسطول وقد ظل الأمر غامضاً[٤].

وكان قلج علي باشا قد أقنع السلطان بضرورة إزالة الخطر من البلاد المجاورة قبل أن يقوى ويستفحل الأمر، كما أنه حصل على الموافقة بمهاجمة فاس، ويعتقد البعض أنه الاحتمال المرجح، ولكن السفير الفاسي حينما كان في إستانبول تمكن من إقناع السلطان أن قتال دولتين إسلاميتين يمنح الأوروبيين فرصة كبيرة لتحقيق أغراضهم ويعرض المنطقة بكاملها إلى خطر كبير، وقد اقتنع السلطان بوجهة السفير وأعلمه أن حاكمه مصمم على

(١) هاممر التاريخ العثماني رقم ٣٩ ص ١١٠.

(٢) تاريخ الأمر الصادر بحق حسن باشا وعزل من أمره الأمراء، ونعيين جعفر باشا كان في ذي القعدة ٩٩٠هـ.

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٤٢/ ص ٨٢.

(٤) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٤٢/ ص ٧٩ (٤ رجب ٩٨٩ هـ).

ذكر اسم السلطان بالخطبة وصك النقود باسمه، وبذلك انتهى الأمر دون حرب، وغدا الأسطول مجبراً على العودة إلى إستانبول ومغادرة تلك الديار بأقرب فرصة ممكنة.

وبما أن قلج علي باشا كان ينوي التوجه عقب ذلك إلى شبه جزيرة القرم، لكن الأوامر جاءته من إستانبول بتاريخ ٩٨٩هـ تأمره بالعودة إلى إستانبول مباشرة.

كان أمير أمراء الجزائر القادم رجلاً مسناً، لكنه يتمتع بسمعة حسنة لدى السلطان، ونظراً لشجاعته وعدله وحنكته في القضاء على المشاغبين في المجر (هنغاريا حالياً) وظل مواظباً على سمعته استمر في وظيفته ومكافأة له نقل إلى الجزائر، وقد تمكن بادىء الأمر من توطيد الأمن والاستقرار وضمن الأمن للجميع وطبق العدل، ووجه العساكر إلى مختلف المناطق للسهر على راحة الأهالي، فأحبه الجميع، وتعلق الجزائريون به تعلقاً شديداً لأنهم منذ زمن بعيد لم يشهدوا مثل هذا السهر والعناية، وكتأكيد على نجاح عمله عاقب المتمردين ومسببي الشغب ولاحقهم في كل مكان والزمهم بالطاعة واحترام القانون والنظام[1].

إزاء عدالة جعفر باشا وتطبيقه النظام على الجميع بما فيهم الإنكشاريون، بدأ الإنكشاريون بالتآمر عليه، وحاولوا أكثر من مرة قتله وتسليم الحكومة لآغا الإنكشارية، لكنه علم بالخطة المدبرة ضده، فقطع رؤوس المدبرين لها، وأبعد قسماً كبيراً من الإنكشاريين، وفي سنة ٩٩١هـ نقل إلى صنجق طرابلس الشام وعُين مكانه رمضان باشا[2].

على الرغم من أن رمضان باشا تمكن من تغطية فترته الأولى ٩٨١ ـ ٩٨٥هـ التي قضاها في الجزائر بالحيل والنفاق، ولكنها كانت معروفة لدى الجميع، وفي تعيينه ثانية على الجزائر عاد أقوى من السابق، لكن

(١) دى غراممونت.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٤٩/ إلى (أمير أمراء الجزائر السابق جعفر باشا عليكم النواجد فوراً في طرابلس الشام..... (١٦ ذى القعدة ٩٩١هـ) وفى دفتر المهمات نمرة / ٤٤/ ص ١٤٩. سيخرج وزيرنا فرحات باشا فى الربيع للقضاء على الفتنة الشرقية فى الجانب الغربى. وأنت ستكون إلى جانبه، والمقصود بذلك عزل جعفر باشا.

الأوضاع الآن فيها تختلف عن السابق اختلافاً كبيراً، لأن الدولة العثمانية تفرض عقوبات صارمة على القراصنة في حال تعرضهم للسفن الفرنسية، وقد قصدت من ذلك تقييد الريس مراد بالحديد وإرساله إلى إستانبول لأنه كان المسبب الأول في مخالفة أوامرها ومهاجمة السفن الفرنسية، ولكن هذا الأمر أشبه بالمستحيل، ومن الصعب على رمضان باشا تنفيذه بالسهولة التي تريدها الدولة العثمانية، فهو يتمتع بشعبية قوية وجميع الرياس يحبونه وينفذون أوامره ورغباته، وكان الريس مراد يتفاخر علانية بأنه لم يترك ملة إلا وضربها وأخذ منها سفينتين على الأقل، وكان يردد دوماً لو أنه صادف والده في البحر لاعتبره غنيمة ولهاجمه، ولهذا أحبه الرياس حباً شديداً وفوق شجاعته كان يفضل الجميع على نفسه فيعطيهم أولاً ويأخذ ما تبقى والقليل منه فقط.

إن الصادر إلى أمير أمراء الجزائر بإلقاء القبض على الريس مراد، لو علم الجميع به لحدثت ثورة قوية وعارمة، ومن المستحيل أن يتجرأ أمير الأمراء على تطبيقه، لذلك وقع في حيرة من أمره، ولم يجد وسيلة أفضل من ترك منصبه والنجاة بروحه، والتجأ إلى أحد المصايف وظل بداخله حتى يوم تحركه إلى طرابلس الغرب، وفور هروبه قام رئيس الطائفة البحرية مامي أرناؤوط باستلام الإدارة، وفي هذه الأثناء كان فندقلي حسن باشا يقوم بجولة قرصنة في سواحل كورسيكا وسردينيا، وحالما سمع الخبر عاد مسرعاً إلى الجزائر، ودخل قصر الجنينة لاستلام الحكم، واتفق الجميع على تهنئته معتقدين أنه تلقى أمراً سرياً من الديوان الهمايوني يعهد الإدارة إليه بعد رمضان باشا، ولكن الديوان الهمايوني لم يستغرب تصرف حسن باشا.

أولى حسن باشا أهمية كبرى لأعمال القرصنة، وتولى بنفسه الإشراف عليها، فعندما كان الريس مراد يضرب ألقنت Alikont إحدى المدن الإسبانية بسفنه العشر، كان حسن باشا أيضاً يهاجم الجزر الغربية في البحر الأبيض المتوسط، ومع ثلاث وعشرين سفينة من نوع غالية، فدمرها وأغرقها بالدماء، كما نهب مدينة صغيرة تبعد عن جنوة مسافة فرسخين.

ونتيجة لاشتداد أعمال القرصنة، اضطر أندريا دوريا للفرار من الميناء، وأثناء خروجه لم يملك أندريا دوريا الشجاعة للرد عليهم، وتابع حسن باشا مسيره إلى مستعمرة مارك إنطوان الواقعة خلف جزر مرسيليا،

وانتظر بسفنه الاثنتي عشرة الباقية ثمانية أيام ينتظر خروج الأسطول الفرنسي، لكن والي البروفانس أرسل خبراً، ويطلب منه المساعدة والحذر، وعندما علم الباشا بأن الأسطول الفرنسي يمر في عرض البحر هاجمه من الخلف، ولكنه لم يتمكن من اللحاق به لأنه وصل متأخراً، ودخل الأسطول الفرنسي مستعمرة مارك انطوان بأمان، ومن باب الانتقام هاجم القراصنة مناطق برشلونة ونهبوها، وانقذوا خلال ذلك ألفي أسير تركي.

ظل أندريا دوريا ينتهز الفرصة المناسبة للانتقام من القراصنة، وبعد فترة هاجم ثماني عشرة سفينة كانت راسية بالقرب من سواحل كورسيكا للاستراحة، فاستغل وجود الطائفة في البر واستولى عليها كافة[1].

وأثناء تولي مراد الثالث السلطنة، أعلم أحد المهتدين من ميلانو الصدر الأعظم بأن الثروة التي جمعها حسن باشا كانت نتيجة لتعديه على غيره، فأمر الصدر الأعظم صوقولو محمد باشا بمصادرة قسم منها، وبلغ قيمة ما صادره منه بحوالي مائتي ألف دوقية، ولكنه أبقاه في منصبه.

وبما أن حسن باشا عمل عبداً لدى قلج علي ثم توصل إلى قبطان. لذلك فإن قلج علي يعلم كافة الأماكن التي كان يستخدمها لوضع أمواله فيها، وبعد أن أخبر السلطان عن بعض أموال حسن باشا، فإن السلطان أرسل إبراهيم أفندي إلى الجزائر، ووجد في المكان الذي قيل عنه مائة وثلاثين ألف دوقية فصادرها[2].

في سنة ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م حدثت مشكلة صغيرة كادت أن تتحول إلى أزمة كبيرة وينتج عنها حرب. ومفادها التالي:

أزمة فغيغ (Figig) تقع جنوب تلمسان وأراضيها تقع في منطقة الحدود بين تلمسان وفاس، وهي مرتبطة بالجزائر منذ زمن قديم، وكانت الجزائر تأخذ ضريبة، ولكن مولاي أحمد المنصور أرسل شخصاً من قبله إليها واستولى عليها وقتل الشخص المعين عليها من قبل الجزائر وحينما احتج حسن باشا على تصرفه قال مولاي أحمد المنصور أن إستانبول تركتها لي،

(١) دي عراممونت.

(٢) هامر: التاريخ العثماني رقم الكتاب ٣٩ ص ١٤١.

فعرض حسن باشا الأمر على إستانبول تخوفاً من تعرض المفرزة المكلفة بجمع ضريبتها للفناء التام.

وفي الثالث عشر من محرم ٩٩٢هـ صدر الحكم التالي(فغيغ كيف كانت قديماً تدار، الآن يجب أن تدار على نفس المنوال، ولا يحق لحاكم فاس التدخل فيها) إننا نأمرك بتطبيق ذلك، وننبهك لكن لا تنسى (ولكي لا تمتلىء الصدور بالحقد ويعم الفساد وتتحول الأزمة من جزئية إلى كلية، عليك تدارك ذلك جيداً، وإذا استدعى الأمر مما حدث، فكن صاحب بصيرة، واجعل العقل سيد الموقف، لأنه إذا حدث شيء يتعارض وشرف وناموس السلطنة العلية، فإنك تتحمل كامل المسؤولية)[1].

كانت السفن الفرنسية تهاجم من قبل قراصنة بقية مناطق شمال إفريقيا، إلا أن فرنسا كانت تحمل الجزائريين مسؤولية ذلك، وكانت تقدم الشكاوى إلى السلطان وتعلمه بأن الجزائريين الذين هاجموا سفنها، فيأمر السلطان الجزائريين بدفع قيمة الأشياء المأخوذة، وقد دفع الجزائريون قيمة الأشياء الفرنسية أكثر من مرة دون أن يأخذوا منها أي شيء، وتجنباً من دفع المزيد، اضطر الجزائريون إلى حماية السفن الفرنسية، وقد نتج عن تصرفهم، حدوث مجابهة مباشرة مع القراصنة المسلمين، والفرنسيون لم يلتزموا بالامتيازات التي منحتها لهم الدولة العثمانية، لأنهم سمحوا للسفن الإسبانية والجنوية وبقية سفن الأعداء بالتجول تحت راية العلم الفرنسي[2].

انزعج الجزائريون من التصرف الفرنسي، وخاصة بعد أن شاهدوا السفن الإسبانية والجنوية تتجول بحرية أمام أعينهم، على الرغم من أن هؤلاء الأعداء لدى مصادفتهم لسفينة مسلحة ضعيفة، فأنهم يهاجمونها ويأخذون طواقمها كأسرى[3].

أعلم الجزائريون السلطان مراد بما يحدث، وقدموا له لائحة بأسماء السفن التي ترتكب مثل ذلك، فأصدر السلطان في ١٣ ربيع الأول فرماناً

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٥٢/ ص ٣٠٦.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة/ ٥٢٠/ ص ٣٠٥.

(٣) بما أن صوقولو محمد باشا كان يحب الفرنسيين، لذلك منحها حق الحماية للغير.

يقضي بإلقاء القبض على هذه السفن ومصادرة محتوياتها[1].

في الخامس عشر من رجب سنة ٩٩٥هـ الموافق ٢٧ حزيران ١٥٨٧م توفي فجأة القبطان قلج علي باشا في منزله، وذلك بعد عودته من إداء الصلاة في الجامع الذي بناه لنفسه.

ولم يكن قلج علي باشا قد تجاوز التسعين من عمره، ولم يكن متزوجاً، وقد فارق الحياة بين ذراعي جارية شابة، فأخذت ثروته إلى الخزينة العامة للدولة العثمانية وكانت قيمتها أكثر من خمسمائة ألف دوقية.

وبوفاة قلج علي باشا انتهى فصل من ألمع وأدق الفصول في تاريخ الجزائر، فلم يظهر بعده رجل بمستواه الحربي والسياسي، وإن الأشخاص الذين ظهروا بعده وتولوا المناصب العالية، عملوا بمجملهم من خلال منفعتهم الشخصية، واستهدفوا الغنى السريع، وغدت الباشوية منصباً خالياً من إدارة فعالة وحكمة يمكنها التصرف بالذكاء الذي تفرضه المرحلة وتتطلبه الوظيفة المسندة إليهم.

وإذا كان السلطان العثماني مراد قد عين نديمه وصهره إبراهيم باشا قائداً للأسطول إثر وفاة قلج علي باشا، إلا أن مدته لم تتجاوز السنة، ومن بعد ذلك كلف والي قبرص جعفر باشا بقيادة الأسطول، ولكنه رفض القيام بهذه المهمة، فاستدعى أمير أمراء الجزائر السابق فندقلي حسن باشا وعهد إليه قيادة الأسطول.

وفي أيلول ٩٩٦هـ / ١٥٨٨م وصل حسن باشا إلى إستانبول قادماً من غزوة قام بها إلى سيراكوس الواقعة شمال صقلية. كذلك فقد هاجم مدينة أغوستا بخمسين قادرغة خلال ليلة واحدة ونهب ما فيها! ولدى مثوله أمام السلطان قدم له هدايا بقيمة ثلاثمائة ألف دوقية وثلاثين عبداً وأكثر من أربعين جارية.

وعلى الرغم من تولي حسن باشا لقيادة الأسطول الهمايوني، إلا أنه لم يتنازل عن نذالته ودناءته، ووصل الأمر به إلى حد طلب فيه من دوق البندقية أن يمنح أختاً له تقيم في البندقية منزلاً فخماً[2].

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره / ٥٢/ ص ٣٠٥.

(٢) هامر: التاريخ العثماني.

- ٩ -
خلاصة عن الأوضاع العامة
من ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م وحتى ١٠١٢هـ / ١٦٠٣م

تولي السلطان مراد السلطنة - غزو إيران - استشهاد صوقولو - فساد العملة أدى إلى رفضها - تجديد المعاهدة مع البندقية - الإسطول الإسباني - علاقتنا بالإنكليز - البيان الهمايوني لمملكة بريطانيا الزابيت - إعلان الحرب مع النمسا - معاهدة ذيتوطوردك - وفاة السلطان مراد الثالث - تولى السلطان محمد العرش ووفاته.

يُرى من المفيد تقديم خلاصة عن أوضاع الجزائر، نظراً لانتهاء مرحلة مهمة من تاريخها، وبداية مرحلة جديدة، ويمكننا تحديد تلك المرحلة بعد وفاة قلج علي باشا بفترة قصيرة، وما أعقب ذلك من تبديل واضح في الأوضاع السياسية.

ففي سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م اعتلى عرش السلطنة العثمانية مراد الثالث، وكان صوقولو محمد باشا الطويل قد عُين صدراً أعظم منذ سنة ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م. ولم يكن السلطان مراد متفقاً مع الصدر الأعظم في الرأي، وعلى الرغم من ذلك فقد وافقه على غزو إيران سنة ٩٨٥هـ، ولكن مجلس الوكلاء وافقه على ذلك. ولقد استمر غزو إيران إثني عشرة سنة، وتم الصلح في سنة ٩٩٨هـ، وقد كسبت الدولة العثمانية من جرائه بعض الأراضي، لكن صوقولو محمد باشا استشهد سنة ٩٨٦هـ إثر طعنة خنجر، وذلك قبل أن يشهد نتيجة الحرب التي كان متحمساً لها.

تمكن صوقولو محمد باشا خلال حكم ثلاثة سلاطين من إدارة البلاد

إدارة حسنة وعقب وفاته ازداد الحسد بين الوكــلاء ، وعمت الفوضى بسبب تعرض الدولة العثمانية لعدة أزمات مالية خانقة ، كانت الحرب الإيرانية سبباً رئيسياً ومباشراً في إحداثها ، ولتلافي ذلك أجبرت الدولة على تخفيض عيار العملة ، لكن الفساد ازداد عما قبل ، وأعلنت الإنكشارية تمردها ، ورفضت القيام بالخدمات الموكولة إليها .

وحالما تولى مراد الثالث عرش الأمبراطورية ، أصدر فرماناً عاماً ، وأمر بتعميمه على مختلف الولايات العثمانية ، وفي هذه الأثناء قام الشاويش مصطفى بكتابة نسخة من المادة ٥٦ المتعلقة بالامتيازات الأجنبية ضمن أملاك الدولة العثمانية ، وسلمها إلى البندقية لتصديق مجلس شيوخها عليها ، وبعد التصديق عليها أرسلها دوق البندقية إلى إستانبول مع تبريك للسلطان[1] .

في ١٢ كانون الأول تمكن السفير الفرنسي جرمن (Jermin) من تجديد الامتياز مع الدولة العثمانية ، كذلك فقد عقد معاهدة جديدة ، وتضمنت المعاهدة حرية تجول السفن الفرنسية والسفن التي تحمل العلم الفرنسي وهي صقلية ، البرتغال ، أراغون وقشتالة ضمن المياه التركية .

وفي سنة ٩٨٩هـ / ١٥٨١م عقد الفرنسيون معاهدة أخرى مع العثمانيين ، وأمر الترجمان علي بك بترجمة كتاب الدعوة لحضور حفلة طهور ابن السلطان ، كما قام بترجمة عهد نامة (الميثاق) ونقلهما إلى مقام السفير الفرنسي .

فسدت العلاقات الدولية بين الدولة العثمانية ومختلف الدول الأوربية بسبب قيام الدولة العثمانية بغزو إيران ، وقد رغبت الدولة العثمانية بإجراء الصلح معهم خشية حدوث مشاكل جديدة ، وكانت بعض الدول الأوربية أمثال مالطة وصقلية وإيطاليا تسعى إلى عقد الصلح مع الدولة العثمانية بشتى الوسائل ، لأن سواحلها كانت ترتجف خوفاً من هجمات

(١) هامر: التاريخ العثماني .

القراصنة الأتراك، فأخذت وفودها الدبلوماسية تتوافد على تركيا من كل طرف. كذلك فقد حاول ملك إسبانيا فيليب الثاني التقرب من الدولة العثمانية بعدما خرجت تونس من بين يديه. ففي سنة ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م قدم إلى إستانبول ماريغليانو Mariglino ، أحد أقرباء سربلينو Serbellino الذي أسر في جالطة يرافقه بروتي Broti أحد موظفي الأمبراطور الإسباني وإلى جانبهم أمير صنجق أفلونيا Avlonya وبعد محادثات مطولة توصلوا إلى عقد الصلح مع الدولة العثمانية.

ظل هذا الصلح يجدد باستمرار حتى سنة ١٥٧٨م، وفي هذه السنة كان فيليب الثاني قد عرض الزواج على ملكة بريطانيا الزابيت، وحينما رفضت، انزعج كثيراً، واعتبر رفضها إهانة له، فقرر سحب الحماية الدينية عن إنكلترا، وفوق ذلك جهز أسطولاً ضخماً لغزوها، وكان أسطوله سُمي الأسطول الذي لا يقهر، وبنفس الوقت عمل للتقرب من الأتراك، محاولاً تجديد الصلح معهم، تحسباً من مضايقته أثناء حربه الصعبة مع إنكلترا، كذلك فإن السفير الإنكليزي عمل هو الآخر على تجديد الصلح مع الأتراك، وقد تمكن السفير الإنكليزي في سنة ١٥٨٧م من تجديد الصلح لمدة سنتين إضافيتين.

ومنذ سنة ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م كانت شبه الجزيرة الإسبانية تتحرك ضمن البحار بحرية تامة، وأن حكومة فلورنسا كانت قد أقامت معاهدة مع تركيا منذ زمن السلطان سليمان القانوني، وتجدد الصلح بين الطرفين سنة ١٥٨٧م، واتفقتا على ممارسة الأعمال التجارية والملاحة البحرية فيما بينهما بحرية تامة، واتحدت السفن الإسبانية مع السفن البابوية، وأصبحتا تمارسان القرصنة البحرية[١]. كذلك فإن دوقية توسكانيا كانت ترغب بتجديد المعاهدة القديمة مع الدولة العثمانية، فأرسلت هيئة دبلوماسية إلى إستانبول، وحققت الهيئة الدبلوماسية تجديد المعاهدة، ولكن الدولة العثمانية اشترطت عليها عدم إقامة أي إتحاد بين سفنها وسفن الباب.

بعد اعتلاء السلطان مراد الثالث العرش سعت بريطانيا لعقد معاهدة

(١) هاممر. التاريخ العثماني الكتاب رقم ٣٩ ص ١٠٢.

تجارية مع الدول العثمانية، وقبل ذلك التاريخ لم يرتبطا بأي علاقات سياسية، إلا أن بعض المراسلات تمت بينهما خلال ذلك، وفي الثالث والعشرين من آذار سنة ١٥٨٣م قدم وليم هاربون Vilyame Harebon كأول سفير بريطاني إلى إستانبول حاملاً رسالة من الملكة الزابيت مؤرخة بتاريخ ٢٥ كانون الأول ١٥٨٢م. وفي الثامن عشر من أيار عاد السفير البريطاني إلى إنكلترا بعد أن تمتع بنفس الامتيازات التي يتمتع بها السفير الفرنسي، وقد زوده السلطان برسالة جوابية إلى الملكة الزابيت لكن طلبه بشأن تقديم المساعدة التركية ضد إسبانيا رُفض من قبل السلطان بسبب الأزمة المالية الناتجة عن الحرب الإيرانية.

وفي سنة ٩٨٩هـ / ١٥٨١م وصل السفير البرتغالي إلى أستانبول طالباً المساعدة ضد إسبانيا، وقد حصل على وعد بتقديم المساعدة للبرتغال، ولكن بعد انتهاء الصلح المعقود بين الدولة العثمانية وإسبانيا، وفيما إذا استطاع الصمود إلى ذلك الوقت.

وبما أن السلطان كان يحب زوجته صافية البندقية الأصل، فإن العلاقات ستستمر بين البندقية والدولة العثمانية مادام السلطان على قيد الحياة[1].

كان قلج علي باشا طوال حياته خصماً عنيداً للإسبان، ولهذا كان يقف حائلاً قوياً دون إقامة أي صلح معهم[2]. كذلك فإن السفير الفرنسي كان شجعه على ذلك، وعقب وفاته ازداد الإصرار على إقامة الصلح مع إسبانيا، في حين أخذت العلاقات الفرنسية العثمانية تضعف شيئاً فشيئاً، وغدا جرمن ولا نسكوم اللذان خلفا نوئيل ودارمون أشبه بأعداء حقيقيين للأتراك، بعكس سابقيهم حيث كانا أنصاراً للأتراك[2].

لم يبدِ كل من جرمن ولا نسكوم أي أهمية للصداقة التركية، وسحب جرمن تأييده لقلج علي باشا إثر رفض قلج علي باشا تقديم المساعدة لفرنسا

---

(١) هامر. التاريخ العثماني (تزوج السلطان مراد الثالث امرأة أخرى غير البندقية، لكنه ظل يحب صافية البندقية الاصل كثيرا ويفضلها على الجميع).

(٢) دي غراممونت.

عندما بدأ الأسطول الإسباني يهدد السواحل الفرنسية ، أما لانسكوم الذي خلف جرمن فقد كان يكن عداء واضحاً للأتراك ، فسجن في غلطة سراي مدة من الزمن بتهمة التجسس لصالح إسبانيا ، ومن بعدها أرسل إلى مالطة ، وعندما توج هنري الرابع ملكاً على فرنسا أرسل دوبروث بدلاً عنه[1] .

وفي الوقت الذي بدأت العلاقات الفرنسية العثمانية بالتفكك والتباعد ، كان الإنكليز يعملون على تمتين علاقتهم بالعثمانيين مستغلين تلك الفرصة الذهبية وتمكنوا من الحصول على كافة الامتيازات التي كان الفرنسيون يتمتعون بها سابقاً[2] .

إن الرسائل التي تمت بين السلطان مراد الثالث والزابيت أعطت نتائج إيجابية جيدة ، وغدا السلطان يغدق الوعود على الملكة إليزابيث .

وفي الواقع فقد تمكنت الدولة العثمانية هذه الفترة من إقامة علاقات مع جميع الدول الأوربية ، لكن أوجاق الجزائر لم يلتزموا بالاتفاقيات التي أقامها الديوان الهمايوني مع الدول الأوربية ، وقد أدرك الأوجاق أن الديوان الهمايوني يعمل بما ويتناسب ومصالحه الخاصة دون النظر إلى مصالحهم أو فائدتهم ، وفوق هذا فقد تجاهلهم تجاهلاً تاماً .

نشبت الحرب بين النمسا والدولة العثمانية ، وذلك بسبب قيام أمير بوسنة حسن باشا بمهاجمة المجر (هنغاريا) وتخريبه لأحد مواقعها الرئيسية ، وكان قوجه سنان باشا من المشجعين والمحرضين لهذا الحرب ، لأنه متضايق من الانتصارات التي حققها فرحات باشا أثناء الحرب الإيرانية .

بدأت الحرب النمساوية العثمانية سنة ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م وقد استمرت هذه الحرب أكثر من الحرب الإيرانية ، ولم تتوقف بينهما إلا بعد أن توصل الطرفان إلى عقد معاهدة ذيث واطوروك Zit Vatorok وذلك سنة ١٠١٥هـ / ١٦٠٦م .

لقد حققت الدولة العثمانية في هذه الحرب انتصاراً حاسماً ، وتمكنت قواتها من استعادة كافة القلاع التي خسرتها سابقاً ، كذلك فقد احتلت مدينتي

(١) هاممر: التاريخ العثماني .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٧١/ ص ٦٨ ، ٦٩ (٢٩ محرم ١٠٠٢هـ) .

أغرى Egri وقانيجي Kanijey ، ونتيجة لطول هذه الحرب وشدتها ، فقد انتشر الأشقياء في الأناضول ، ونهبوا وسلبوا مختلف مناطقه ، إزاء ذلك توجب على الدولة العثمانية القيام بغزو جديد لإيران بغية ضمان أملاكها من الخراب والدمار.

وفي سنة ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤ن توفي السلطان مراد الثالث قبل أن يشهد نهاية الحرب النمساوية ، وخلفه محمد الثالث ، ولم يعش محمد الثالث طويلاً فقد توفي هو الآخر سنة ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م.

الفَصْلُ الثَّالِث

- ١ -
عهد الباشوات
من ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م حتى ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م

انفصال أوجاق الغرب - خلاصة عن عهد الباشوات - وضع الجزائر خلال هذا العهد.

في سنة ٩٥٨ هـ/ ١٥٥١ م احتُلت طرابلس الغرب، وفي سنة ٩٧٦هـ / ١٥٦٩م احتُلت تونس، ولم يبق بيد الإسبان إلا جالطة، وفي سنة ٩٨١هـ / ١٥٧٣م خضعت تونس نهائياً للإدارة العثمانية.

بتاريخ ٦ ذي العقدة سنة ٩٧٦هـ صدر فرمان همايوني يقضي باسناد إمرة أمراء الجزائر إلى قلج علي باشا إضافة إلى قيادته للأسطول العثماني، كما فُوض بإدارة تونس[1].

ظلت ولاية طرابلس الغرب مرتبطة بالجزائر على الرغم من تعيين أمير أمراء جديد عليها، ولكنها لم تستمر طويلاً، فقد فُصلت عنها، كذلك فقد فُصلت ولاية تونس، وغدت كل واحدة تُدار بشكل مستقل عن الأخرى، وعين على كل منهم أمير أمراء رُبط باستانبول مباشرة.

عُين حيدر باشا أمير أمراء طرابلس الغرب وتونس، وفي سنة ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م فُصلتا بعضهما عن البعض، فعين حسن باشا أمير أمراء طرابلس الغرب، وبقي حيدر باشا أمير أمراء تونس[2].

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٢/ ص ٥٧١.
(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٢/ ص ٥٧١.

تخوف الديوان الهمايوني من ازدياد نفوذ قلج علي باشا وخادمه فندقلي حسن باشا ، لذلك صدر فرمان يقضي بفصل تلك الولايات الثلاث عن بعضها بعض، ونص الفرمان على أن تُدار كل واحدة بشكل مستقل عن الأخرى ، ويكون أمير كل منهم مسؤولاً أمام الديوان الهمايوني ، وحقيقة الأمر، لقد عرض هذا الإجراء أملاك الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي للخطر، وساهم مع مرور الزمن في إقامة دول تصارعت مع بعضها البعض على الرغم من أنها لا تزال خاضعة للإدارة العثمانية.

وهكذا غدت ولايات الشمال الإفريقي مثل بقية الولايات العثمانية ، وطُبقت عليها النظم العثمانية ، القاضية بتبديل باشواتها خلال مدة زمنية معينة[1] .

لقد ارتكب الديوان الهمايوني خطأ كبيراً ، باتباعه التقسيم هناك ، لأن ولايات الشمال الإفريقي لا تُقاس أوضاعها بأوضاع بقية الولايات العثمانية الأخرى ، إضافة إلى ذلك فإن سكان الولايات الثلاث يتمتعون بسمعة حسنة تجاه الولاة الذين عُينوا عليهم ، كما أنهم ظلوا يرتبطون مع الإنكشارية بعلاقات حسنة وفوق ذلك فهم يقدسون الأوامر الصادرة إليهم من حكامهم ، وفوق هذا فإن أي حاكم قوي وعادل يستطيع إداراتهم بشكل منتظم وممتاز.

أما إنكشاريو الجزائر فكانوا مختلفين تماماً عن غيرهم من الإنكشاريين ، لأنهم كانوا يعتقدون أن خضوع تلك المناطق للإدارة العثمانية تم بفضلهم ، ولهذا لم يتصوروا أنه بمقدور أي فرد معاقبتهم أو أن يقلص من نفوذهم . وقد حذت بقية الولايات حذوهم ، على الرغم من التجديدات التي كان الديوان الهمايوني يفرضها عليهم . وذلك ضمن الأسس التي تربوا عليها والنظم المتبعة ، وأخذ الأمر يزداد سوءاً بسبب بيع منصب أمير الأمراء ، دون النظر إلى الصفات التي يتحلى بها ، واستمر الأمر على هذا

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٣٠/ ص ٢٠٧ (إلى أمير أمراء تونس حيدر باشا حكم . عليك حالاً فصل طرابلس الغرب عن تونس اعتباراً من ١٨ ربيع الأول ٩٨٥هـ وقد وجهت إمارتها إلى حسن باشا رئيس الخاصكية في مقر السلطنة ، كما عهدنا إليك ثانية إمارة تونس شريطة أن تلتزم بتأدية الضريبة المفروضة عليك ، وعليك لدى وصوله توجيهه إليها ـ عليك الانتباه والحرص على الولاية المذكورة (٢٥ جمادى الأولى ٩٨٥هـ) .

المنوال حتى استلام صوقولو محمد باشا لمنصب الصدر الأعظم ، وقد منع صوقولو محمد باشا بيع منصب أمير الأمراء ، ولم يعين إلا الشخص الجيد والممتاز ، ولكنه بعد استشهاده عادت الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه في السابق ، وكانت واردات الجزائر وبقية الولايات الغربية الأخرى ، من أكثر الولايات غنى ، ولذلك فقد بُيعت بأسعار غالية ، فالأمراء الجدد القادمون إلى تلك الولايات لم يكن في نيّتهم العمل ولا حتى الاستقامة في العمل ، لأنهم تعمدوا منذ وصولهم جمع الأموال التي دفعوها ، وزيادة على ذلك فلم يفكروا إلا بجمع الثروة والعودة إلى إستانبول ، ولذلك اهملت البلاد ، وأصبح الأهالي وسيلة للابتزاز ، وانهارت الإدارة انهياراً مدهشاً ، وعمتها الفوضى ، وكثر الظلم والإرهاب ، أما الإنكشاريون فعلى العكس منهم ، فقد عملوا على إدارة الدولة ، وبالطبع فقد وُفق أصحاب العزم منهم على تولي الإدارة ، وتمكنوا من نقل الإدارة إلى ديوانهم ، وغدا دور الباشوات مقتصراً على المراسيم وتوقيع الاتفاقيات والجلوس في القصر محاطين بحراسة الجند ، أما المواقع التي تتوجب الاحترام وينال من خلالها الهدايا والنقود ، فقد أصبحت وقفاً على موافقة الديوان ، لكن تعيين القواد والوظائف العالية فقد ظلت من حق الباشا ، وهذا العمل في حد ذاته كان يؤمن له ربحاً وفيراً ، ولو أن الباشوات فكروا باستعادة السلطة من الإنكشارية فإن هذا لن يتم بسهولة ، ومن المؤكد ستقوم ثورة دامية ضحيتها بالتأكيد الباشوات ، وأن مصيرهم إما العزل أو القتل ، لأن إستانبول ستتهمهم بالتقصير والإهمال ، لذلك اضطر الباشوات على مسايرة الإنكشارية والاتفاق معهم رغماً عنهم .

وفي النصف الأول من القرن السابع عشر ازداد عدد اليولداشية (الرفاق) وبلغ عددهم سنة ١٠٤٤هـ / ١٦٣٤م قرابة ثلاثة وعشرين رفيقاً (يولداشياً) وبما أن الإنكشاريين كانوا فخورين بقوتهم ، لذلك فقد انتشرت الفوضى بين صفوفهم وكثرت أعمال السلب والنهب ، ولم يتجرأ أحد من الباشوات على الوقوف بوجههم ، سوى الباشا خضر الذي لجأ إلى تسليح القولوغلية سنة ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م ، فغرقت على أثرها أزقة الجزائر بالدماء ، ومن بعد ذلك اتفقوا فيما بينهم .

لم يتدخل الرياس والقباطنة بالأحداث الجارية ، وابتعدوا عن التمرد

والعصيان، ولأنهم كانوا يعيشون في محيط خاص بهم وبعيد عن محيط الإنكشارية والقولوغلية، ولم يكن للباشوات والإنكشارية أي علاقة بأعمالهم ولا بتشكيلاتهم، وبما أن الإنكشاريين مارسوا الظلم والإرهاب، لذلك هرب التجار والصناع إلى خارج المدينة، وبقي القراصنة المصدر الأساسي والرئيسي للثروة والهدايا، ولهذا فقد ظل سكان المدينة يكنون لهم الود والاحترام والتقدير، لأنهم يعيشون تحت ظلهم ومن خلال الثروات التى يحضرونها، وكانت الطائفة (البحرية) تشكل قوة كبيرة لا يستهان بها، فالجميع ينظرون إلى شجاعة وبطولة الرياس.

ولم يكن الإنكشاريون يريدون التخاصم مع هذه الطائفة (البحرية) لكونهم يتمتعون بتأييد الأهالي، إضافة إلى أنهم مصدر أساسي لمعاشاتهم، فاضطروا إلى مسايرتهم، وتجنبوا إثارة الحقد لديهم.

كان البحارة أذكياء وكرماء، يلقون بأنفسهم في المخاطر، وقد قطنوا في القسم الغربي من المدينة بجوار البحر، ومنذ القديم عُهد إليهم حراسة المرفأ والدفاع عنه، وفي هذا المكان ضمّن البحارة خطر مهاجمة الإنكشارية لهم، كما أن الأحياء التي سكنوها كانت أنيقة ومرتبة ونظيفة، ولم يكن لدى أي فرد منهم قيمة للنقود، فالأموال التي يحصلون عليها كانوا ينفقونها يميناً وشمالاً مثل السواح، أما الإنكشاريون فقد سكنوا في المناطق الفقيرة والقديمة، وهي تختلف اختلافاً كبيراً عن إقامة البحارة، كما أن البحارة كانوا يجتمعون في الميناء ويأخذون قراراتهم فيه بعيداً عن أعين الإنكشارية، وبنفس المكان يناقشون الأوامر الصادرة إليهم من إستانبول، ويحددون الطريقة التي تناسبهم للاشتراك في الغزوات التي كان السلطان يكلفهم بها، وكانوا قبل اشتراكهم في أي معركة يفكرون بالنتائج أو الخطر الذي سيترتب على ذلك، وما هو مصير المفقود منهم، ولم يلبوا للسلطان أي نداء قبل حصولهم على التأمينات اللازمة. ومن جملة الأشخاص الذين تمتعوا بنفوذ قوي في تلك البلاد الريس مراد، والريس سليمان والريس علي بتشين والريس عربجي علي.

في سنة ١٠٥٩هـ / ١٦٤٤م تمكن علي بتشين من الاستيلاء على

الحكم ، وطرد رئيس البوابين إلى إستانبول ، وهكذا فقد ساهم البحارة في إدارة البلاد خلال عهد الباشوات ، وتجلت هذه المساهمة من خلال المهتدين ، ويقول هايدو ، لدى إحصائه للمهتدين وأولادهم في مدينة الجزائر ، تبين له أنهم يشكلون نصف السكان تقريباً ، وقد ازدادت نسبتهم في سنة ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م .

إن هذا الاحتمال الذي افترضه هايدو مبالغ فيه ، في الحقيقة لقد ازداد عدد المهتدين . لأن صناع السفن والمهندسين غالبيتهم من المهتدين ، كما أن قسماً منهم عمل بالقرصنة على حسابه الخاص ، ولدى ازدياد شهرة الجزائر في العالم ، بدأ البحارة يتوافدون إليها من كل طرف للعمل فيها ، وقد ظل هؤلاء مرتدين قيافتهم وزيهم ، وقد لعبوا هؤلاء في إحداث بعض التغيير في أسس تشكيلات القرصنة ، فانحرفوا عن غزو المسيحيين لممارسة السلب والنهب كوسيلة جديدة لهم[1] .

لم تعرف أسس القرصنة ونظمها الظلم والإرهاب حتى زمن الريس رجب وقلفه حسن ، يوم أعلنا أن كل ما هو عائم على سطح البحر يعتبر غنيمة ، لم يسلم صنجق ولا ديار من اعتداءاتهم ، ولم يكترث هؤلاء لا بالقديم ولا الحديث ، ولم يستطع أمير المؤمنين (السلطان العثماني) إيقافهم وخلق الحس والشعور القديم للقرصنة لديهم ، وبناء على ذلك فقد غدا المهتدون يشكلون عنصراً أساسياً ومهماً في الفوضى القائمة في نظم القرصنة ، كذلك فقد ساهموا مساهمة فعالة في إحياء قوة الولاية وخاصة سمعتها البحرية[2] .

كذلك فقد أدخل المهتدون إلى نظم القرصنة وطرائقها الشدة والفعالية والتعصب العرقي[*] ، وبما يملكه بعضٌ منهم من معلومات بحرية ، تمكنوا من إدخال تعديلات مفيدة على السفن البربرية ، وانتشرت القرصنة انتشاراً يكاد لا يُصدق .

وفي سنتي ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م و ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م زادت قيمة

---

(١) براون : يتحدث بردان في كتابه (اليوستر جبتيف) بالتفصيل عن الوحشية التي ارتكبها المهتدون خلال غزواتهم البحرية .

(٢) دي غرامونت .

(*) يقصد المؤلف بذلك ، تعصب المهتدين للعرق الأوربي .

الغنائم ، وبلغت قيمتها السنوية أكثر من ثلاثة ملايين ، واعتباراً من ١٦١٣ وحتى ١٦٢١م بلغ عدد السفن التي أسرت أكثر من تسعمائة وست وثلاثين سفينة ، وقد رست هذه السفن بمجموعها في ميناء الجزائر، والسفن التي أسرت عائدة لدول عديدة[1] .

وقد بلغت خسائر فرنسا اعتباراً من سنة ١٦٢٨ م وحتى منتصف سنة ١٦٣٤ م قرابة ثمانين سفينة مفقودة بما فيها المستولى عليها وأكثر من ١٣٠٠ أسير فرنسي ، علماً بأن فرنسا هي أقل الدول التي تعرضت للخسائر، لأن السلطان العثماني كان باستمرار يحذر القراصنة من التعرض للسفن الفرنسية ، وقد أوقع أشد العقوبات بالمخالفين منهم ، لكن جرأة الرياس كانت تزداد يوماً بعد يوم ، وقد هاجموا السفن الهندية في وسط المحيطات الواسعة وتوصلوا إلى خليج قسقونيا وإلى بحر المانش وتوغلوا في إيرلاندا وضربوا سواحلها وسواحل بريطانيا العظمى ، وبلغوا في بعض هجماتهم إيسلاندا في بحر المتجمد الشمالي ، ولم ينجُ من هجماتهم أي طرف من الأطراف ، وخاصة دول غربي المتوسط، وقد شدد القراصنة هجماتهم على تلك الدول بشكل خاص فدمروا **سواحلها وخربوها، والسبب في ذلك يعود إلى تجاهل حكومات تلك الدول القراصنة وهجماتهم ، وكان سفن القراصنة تشاهد على الأقل مرتين في السنة** في سواحل إيطاليا ونتيجة لتكرار الهجمات على تلك المناطق وما جاورها ، غدت سواحلها وعلى بعد عدة أميال باتجاه الداخل أشبه بصحراء خالية من السكان والعمران ، بعدما كانت في السابق مناطق غنية بخيراتها ، عامرة ببنيانها ، وساكينيها ، فعمها بفعلهم الدمار والفقر والخراب .

لقد مارس سكان الجزائر القرصنة ، فالأغنياء منهم صنعوا سفناً خاصة بهم ، وقادوها بأنفسهم ، والفقراء جمعوا النقود واشتركوا مع التجار في امتلاك السفن البحرية ، وحتى النساء بعن مجوهراتهن ، واشتركن بهذا العمل المربح . وأصبحن مالكات لحصص في بعض السفن ، فنتج عن هذا التوسع فوضى قاتلة ، لأن الأمور تداخلت بعضها مع بعض، إلى حد يصعب فيه على المرء أن يتصور أن سكان هذه المدينة كانوا سعداء وأغنياء ، فالقراصنة يدخلون الميناء فرحين بسفنهم الاحتياطية والمليئة بالغنائم ،

(١) دي غراممونت .

وكانت الغنائم والأسرى تباع في سوق المجوهرات، وعلى الرغم من تعرض البلاد إلى سنوات قحط، وحدوث بعض التمردات فقد كان بإمكانهم العيش فرحين بالأموال التي غنموها من المسيحيين، وكانوا يعتقدون أن ما بأيديهم من أموال تكفيهم مدى الحياة.

ويقول بردان: بلغ عدد سكان مدينة الجزائر سنة ١٦٣٤م أكثر من مائة ألف نسمة، وخمسة عشر ألف منزل ومئة سبيل للماء، وكانت المدينة مزدانة بحدائقها الجميلة الرائعة التي تحيط بالمدينة إحاطة كاملة، وبلغ تعداد هذه الحدائق ثمان عشرة حديقة، كما وجد فيها ستة سجون للمجدّفين بالقرب من منازل الأسياد، كما قدر عدد الأشخاص الذين عملوا بالتجديف في سفن القراصنة قرابة ثلاثين ألف غالبيتهم من الأسرى، ولم يفكر الأهالي في يوم من الأيام أن يحمّلوا القراصنة مسؤولية المصائب التي تتعرض لها المدينة يوماً ما[1].

فتوقف الخدمات العامة كان بسبب النزاع الدائر بين الأهالي والإنكشارية، وبين الإنكشارية والقولوغلية، فالقولوغلية أولاد للأتراك، وهم من نساء محليات، وعلى الرغم من أنهم تربوا تربية تختلف عن تربية آبائهم، لكنهم حرموا من استلام المناصب العالية، وقد أُسندت إليهم بعض المهام العسكرية البسيطة والثانوية.

لقد سعت القولوغلية للحصول على نفس الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها الأتراك، ولكن الإنكشاريين تصدوا لهم ومنعوهم من هذه الحقوق، لذلك لجأت القولوغلية للاتحاد مع السكان المحليين، وإلى بعض القبائل بغية مقاومة الإنكشارية وانتزاع بعض الحقوق والامتيازات منهم، وقد استمر النزاع بينهم طويلاً، لكن لفترات متقطعة، وقد عمد بعض الباشوات إلى جمع الضرائب بكثرة، ففر الأهالي هرباً من الضرائب ومضايقة الإنكشاريين لهم، وقد عمل هؤلاء على إيقاظ الحقد لدى سكان الريف ضد الأتراك.

وفي سنة ٩٩٨هـ / ١٥٨٠م لاحظ الإنكشاريون أن مواجهة ومنافسة

---

(١) دي غراممونت.

جديدة وحادة ستواجههم وذلك من خلال تشكيل جيش من قبيلة زواوة ، أطلق عليها إسم (زواف) وبلغ عددها ألف وخمسمائة شخص.

لم يكن هذا الإجراء إجراءً عسكرياً أو إدارياً ، لأن العسكرية تربية وتعليم ، وفي حال عودة هؤلاء إلى قراهم ، سيكونون غير مسرورين ، وسيعملون على تدريب القروييين والقبليين ، وأنهم سينتصرون في حال إعلانهم الحرب على الإنكشاريين ، لأنهم سيعمدون إلى اتباع حرب العصابات ، إضافة إلى أنهم أعلم بأحوال البلاد من الإنكشاريين.

كان الفرنسيون من سكان البروفانس وبعض المناطق الأخرى يأتون سراً إلى الجزائر ويقومون ببيع السلاح والبارود للأهالي مقابل محصولاتهم الزراعية ، وفيما بعد عمل القبليون على تصنيع السلاح بأنفسهم ، ووقفوا بوجه الإنكشارية.

فالمفارز الإنكشارية التي كلفت بجمع الضرائب تعرضت مراراً لاعتداء القبليين . فاضطروا من جراء ذلك إلى الفرار والتخلي عن مهامهم ، أما سكان الصنجق الشرقي فقد تمردوا عدة مرات عن دفع الضريبة ، وبما أنهم لم يعاقبوا على تمردهم وعصيانهم زادت جرأتهم على التمرد والعصيان ، وقد اتسعت دائرة التمرد في الولاية بسبب انتشار الفوضى التي تشهدها الولاية ، فاتحد المتمردون مع الفوضويين وباشروا بممارسة أعمال السلب والنهب ، وكان الصنجق الشرقي من أولى صناجق الولاية في حمل لواء العصيان والامتناع عن الضرائب ، كذلك فإن المناطق الداخلية امتنعت هي الأخرى عن دفع الضرائب على الرغم من أن ضرائبها قليلة جداً ، ويضاف إلى ذلك فإن الغنائم **التي حصل عليها القراصنة ازدادت أضعافاً عن قبل وخاصة في سنة ١٦٣٤ م ، ولو لم يوفق القراصنة في غزواتهم ، لما تمكنت الولاية من دفع معاشات الإنكشارية. وكان مكسب القراصنة من الغنائم يعادل واردات الولاية في سنة ١٥٨٠ م.**

استغلت إسبانيا الفوضى القائمة في الجزائر ، وحاولت احتلال بعض السواحل وبنفس الوقت بدأت تحرض القبليين على التمرد ضد الأتراك ، فقام المتمردون بمهاجمة مدينة الجزائر ، وفرضوا الحصار على المدينة ، فرد

الإنكشاريون عليهم، ونتيجة لذلك ازداد الحقد والكراهية بينهما.

ازداد عدد الأسرى بسبب ازدياد أعمال القرصنة، ففي منتصف القرن السابع عشر بلغ عدد الأسرى الموجودين في مدينة الجزائر حول ثلاثين ألف أسير من أمم وأجناس مختلفة، ولكن غالبيتهم من الإسبان والإيطاليين، وقد بُيع الأسرى المسيحيون في سوق النخاسة بالمزاد العلني، وأخذ الباشا $\frac{1}{8}$ نصيبه من الأسرى المباعين[1].

فالأسير ملك لصاحبه كائناً من كان، ولم يكن الأسير لدى الجزائريين ذليلاً، كما قيل عن بعض الحاقدين، لأن الدين الإسلامي نظر للأسرى نظرة الأبناء، وحماهم من التعذيب والمعاملة القاسية[2]. فالدين الإسلامي أمر بمعاملة الأسرى بالعدل واللين[3]. ولهذا فإن الجزائريين كلفوا أسراهم بممارسة الأعمال الشاقة لمدة خمسين يوماً، ولمرتين في السنة فقط، في حين عملوا بقية أيام السنة إما بالأعمال المنزلية لدى الأسياد أو في زراعة الحدائق والكروم ومنحوا النقود لقاء ذلك، كما سُمح للراغبين منهم بتحرير أنفسهم وجمع المال اللازم منهم للافتداء من الأسر، كذلك فقد سُمح لهم التجول مساء في أزقة المدينة من تلقاء أنفسهم بعدما حدد لهم وقت العودة إلى المنزل، ووصل الأمر بتسامح الجزائريين مع أسراهم إلى أن البعض منهم استدانوا من أسيادهم المبلغ المطلوب لتحرير أنفسهم، وذهبوا إلى بلادهم وإن قسماً منهم، رد المبلغ الذي استدانه وبعضهم الآخر لم يرده، ووصل الأمر بتسامح الجزائريين إلى أنهم سمحوا لأسراهم بالعمل عند غيرهم من الأسياد ليتمكن الأسير من جمع المبلغ المطلوب لدفعه في الوقت المحدد، وقد لجأ الأسياد إلى السماح لهم العمل بالسفن لأن العمل في السفن يعطي مردوداً أكثر بكثير من بقية الأعمال الأخرى، وعلى الرغم من أن هذه المعاملة هي معاملة تجارية محضة، لكنها تحمل جانباً إنسانياً كبيراً، حُرم منها الأسير المسلم لدى الدول المسيحية، علماً بأن بعض الأسرى تعرضوا للظلم من أسيادهم، وإذا حدث من ذلك فهو ناتج بالتأكيد عن المعاملة بالمثل، لأن

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دي غراممونت.

(٣) دي غراممونت.

هذا السيد تعرض للحرق والموت، عندما هاجمه المسيحيون على حين غفلة، يوم كان يجلس بهدوء واطمئنان مع عائلته وجيرانه، أو يوم شهد ابنه أو ابن جيرانه عائداً من الأسر مشوهاً مهاناً ومقهوراً، وكردٍ على تلك الأعمال وبدافع الانتقام مما تعرض إليه هو وأبناء مدينته أجبر على سفك دماءمَنْ لديه من الأسرى المسيحيين.

إن مثل هذه الأعمال لم تكن وقفاً على الجزائريين فقط، فتاريخ كل بلد في كل زمان ومكان مليء بمثل هذه الأحداث والوقائع، وهي حقيقة ثابتة وليست من العموميات، وإنما هي حالات خاصة، ولكن الأسير المسلم الذي وقع بأيدي المسيحيين لم يشهد أي طيب أو لطف في معاملته، وإذا كان الأسياد قد لجأوا في بعض الأحيان بوضع الأسير في مكان أمين وسري[1]، فهذا كان نتيجة لمحاولة الأوربيين مهاجمة الجزائر وإنقاذ أسراهم، وأن الأوربيين لجأوا إلى تلك المحاولات ونجحوا في بعض المرات، ولكنهم لم يكتفوا بإنقاذ أسراهم بل كانوا يحاولون الحصول على أسر بعض الأهالي الآمنين.

لقد قام رجال الدين المسيحيين بجمع الأموال لافتداء الأسرى كعمل خيري، ولزيادة استدرار العطف، قدموا لوائح قاتمة بالسواد عن الأسرى الموجودين في الجزائر، ولكن إفادة الأسرى بالذات هي أصح وأدق من الدعايات التي قام بها رجال الدين وقد أفاد هؤلاء عن أوضاعهم كما ذكرنا[2].

إن الأسرى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي لم يُمارس عليهم أي ضغط أو إكراه من قبل أسيادهم من أجل اعتناقهم للدين الإسلامي، بل على العكس من ذلك، فإن اعتناق الأسرى للدين الإسلامي ليس من مصلحة سيده، كما أن الأسرى رأوا بأم أعينهم السوء الذي حل بالذين بدّلوا دينهم، وإن معتنقي الدين الإسلامي لم ينجوا من الأسر، كما أن الأسياد أصبحوا مجبرين على معاملتهم بالحسنى، وفقدوا أملهم بالحصول على أي فدية، لذلك حاولوا قدر المستطاع منع الأسير من تبديل دينه.

(١) دي غراممونت.

(٢) عما نوئيل دارون.

أما النساء والأطفال من الأسرى، فقد نقلوا إلى دوائر الحريم، وبقوا فيها إضافة إلى ذلك فقد كانت الحكومة الجزائرية في عهد الباشوات ترتبط مع الحكومة الفرنسية بعلاقات جيدة، انطلاقاً من العلاقة القائمة بين فرنسا والباب العالي، ولهذا فقد سعى الجزائريون قدر المستطاع لمراعة ذلك، ولكن هذه العلاقة لم تمنع القراصنة من توجيه ضربات موجعة للفرنسيين بين الحين والآخر. لأن فرنسا كانت تخل بالعهود والمواثيق المعقودة بينها وبين الحكومة الجزائرية، ومن باب الانتقام ومخالفة لأوامر السلطان عملوا على مضايقة فرنسا، وعندما شكتهم للسلطان أعلموه بما ترتكبه فرنسا بحقهم من مضايقات، فأبدى السلطان انزعاجه لخيانة فرنسا، لكنه رغم معرفته الأكيدة بصحة ذلك فقد ظل يحذرهم من مهاجمتها، وفوق ذلك كله أرسل القابجي باشي (رئيس البوابين) عدة مرات إلى الجزائر محملاً بالفرمانات التي تحذر القراصنة من الاعتداء على السفن الفرنسية وطالبهم بمعاملتها بالحسنى[1].

إن سفراء فرنسا من أمثال (Savoy de Breves) و (Decesy) قدموا شكاوى كثيرة بحق القراصنة، وقد حمّل السلطان الباشوات مسؤولية ذلك، وفرض بحقهم عقوبات صارمة، فاضطر الباشوات إلى اتخاذ تدابير احتياطية لتلافي ذلك، ولكي لا تتسع دائرة الخلافات بين الدولة العثمانية وفرنسا. وواقع الحال فإن ما قام به القراصنة من اعتداءات على فرنسا كان للباشوات دور في ذلك ولأسباب تافهة.

لقد تعرض القراصنة الجزائريون للإهانة من قبل الفرنسيين، فالفرنسيون عمدوا في أحيان كثيرة إلى نهب السفن الجزائرية التي تسقط على سواحلهم أو تقع بين أيديهم، وعقب كل خيانة فرنسية كانت تحدث في الجزائر ضجة كبيرة، وتثور ثائرة الديوان ويضطر لعقد اجتماع طارىء، ويقرر بالإجماع إعلان الحرب على فرنسا، ويأمر بحبس القنصل، ويتجه الرياس إلى سفنهم مخترقين عباب البحر لمهاجمة السفن الفرنسية التي تتجول آنذاك في عرض البحر آمنة من اعتداء الجزائريين عليها، وعندها يبدأ الفرنسيون بالصراخ ويستنجدون بالسلطان، ويطلب السلطان استفساراً عن ذلك، فيجيبه الباشوات بالعرائض، وتطول فترة المراسلة، ولريثما يتخذ

(١) دي غراممونت.

السلطان القرار النهائي ويبلغه للقراصنة، يكون القراصنة قد انتقموا تماماً من الفرنسيين.

إن اقتصار التجارة الفرنسية على السواحل الجزائرية، ساهم في زيادة الاحتكاك ما بين فرنسا والجزائر، إضافة إلى سوء المعاملة التي ترتكبها ضد القراصنة الجزائريين وعدم التزامها بالاتفاقيات المعقودة، علاوة على ذلك فقد كان التجار الفرنسيون يعمدون إلى بيع الذخائر لمحلاتهم التجارية في بون والقالة والباستيون. تجاهل الجزائريون المحلات التجارية الفرنسية تجاهلاً شبه تام، كذلك فقد حمّل الجزائريون تلك المحلات التجارية مسؤولية حدوث القحط والأوبئة في البلاد، وكرد على ذلك، فإن الأوامر تعطى إلى الأسطول الجزائري بالتوجه إلى تلك المحلات لهدمها ونهب وأسر من فيها، ويحضرونهم إلى الجزائر، وعلى الرغم من القيام بذلك فإن الفوائد العائدة منه قليلة جداً. وكان القرويون عقب هدم تلك المحلات التجارية يعلنون عدم قدرتهم على دفع الضرائب، ويباشرون إعلان العصيان والتمرد.

بدأ الإنكليز يعملون على منافسة الفرنسيين في هذه التجارة، وقد تمكنوا من الحصول على إذن بفتح محلات تجارية في استورة والقالة، إلا أنهم تخلو عنها بعد زمنٍ قليل بسبب عدم تمكنهم من إدارتها، ولكن الشركة التجارية التركية لم تواجه أي صعوبات خلال بيعها السلاح والبارود للجزائريين وقد حاولت الطوائف الكاثوليكية منع الإنكليز من بيع السلاح والبارود للجزائريين، إلا أنهم لم يوفقوا بذلك، كذلك فقد أصدر البابا أوامر جدية بمنع الملة الكاثوليكية من بيع أي سلاح للجزائريين وحتى التعامل مع المسلمين، كما كلف القناصل بمتابعة هذا الأمر، والمحافظة على تنفيذه.

لم يواجه الجزائريون مشاكل بتأمين السلاح، لأن الإنكليز عملوا على تأمين كافة اللوازم الحربية لهم، مقابل حصولهم على المواد الغذائية وبعض المواد الأخرى مثل زيت الزيتون والصوف والجلود وشمع العسل، علماً بأن هذه المواد منع من بيعها للأمم الأخرى، وكان على الراغبين بشراء تلك المواد بذل جهود كبيرة للحصول على موافقة السلطان أو ديوان الجزائر بشرائها، كذلك فقد نافس الهولنديون الإنكليز أيضاً في بيع اللوازم الحربية

للجزائريين، وبالرغم من ذلك فلم ينجوا من مهاجمة القراصنة لهم[1]. وقد لجأت تلك الدول الدفاع عن أعلامها، لكنهم لم يستفيدوا شيئاً بالرغم من قوة أساطيلهم وقوة ومتانة تسليح أسطولهم.

الخلاصة لقد سارت الأحداث من ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م وحتى ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م على هذا المنوال الذي عرضنا خطوطه الرئيسية، وأن الجزائر تمكنت خلال تلك الفترة من إذلال جميع دول العالم، وعملت على احتقارها دون أي استثناء، وكانت أكبر شخصية أوربية لدى رؤيتها مدينة الجزائر شامخة، تخفض رأسها خوفاً أو احتراماً لقراصنتها الشجعان[2].

نشاط القراصنة الأتراك في البحار[3]:

كان على الراغبين بالحصول على الشهرة والمجد القدوم إلى الجزائر للانضمام إلى صفوف الأبطال الأتراك، مثلما فعلت قبيلة القزاق التي قدمت من سواحل الأناضول، للانضمام إلى القراصنة للمشاركة بأعمالهم البطولية تاركة بلادها البيضاء والمغطاة بالثلوج، وإن الرياس الذين تحركوا ببطء بادىء الأمر، شاهدوا فيما بعد أن البحار الداخلية ضيقة عليهم، فعبروا جبل طارق بعلمهم السماوي اللون، وقد بدأ علمهم بالتموج عبر بحر المحيط، يوم وقف عقبة بن نافع يطلق آهات الحسرة والألم على تلك المناطق لأنه لم يتمكن من الوصول إليها.

يذكر لين بول بأن الأتراك بدأوا رحلتهم إلى المحيط الأطلسي مع مطلع القرن السابع عشر الميلادي ويقول (في بداية القرن السابع عشر الميلادي، لدى النظر إلى القراصنة ومن اتبعهم، يرى أن تغييراً قد طرأ عليهم، فلقد صنعوا السفن بأنفسهم وتحت إشرافهم، وأولوا أهمية كبرى للسفن الشراعية، وأصبحت ترسانات تونس والجزائر وطرابلس الغرب تضع سفناً ذات أصول حديثة، وقد صنع الفلندي (سيمون دانسرة) هذا النوع الجديد

---

(١) دي غرامونت.

(٢) دي غرامونت.

(٣) أخذ هذا البحث بمجموعة من مجموعة الأسطول العثماني نمره: ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦.

من السفن في الجزائر، أما في تونس فقد تولى الصناعة فيها المهتدي اليوناني مامي، ويرجع سبب تغيير بناء طراز السفن إلى ما يلي:

أولاً: عدم توفر أعداد كبيرة من المسيحيين للقيام بأعمال التجديف.

ثانياً: عدم القدرة على دفع أجور المجدّفين، وتحمل المصاريف الباهظة.

ثالثاً: عدم الحاجة لنقل المسلمين الأندلسيين من إسبانيا إلى السواحل الإفريقية لأن آخر هجرة إسلامية قدمت من إسبانيا كانت سنة ١٦١٠م. لذلك لم يعد هناك حاجة ماسة إلى تلك القادرغات الصغيرة، لكن هذه الأسباب غير كافية، لأن القراصنة بعد ذلك أسروا آلاف الأشخاص، فالقراصنة منذ سنين عديدة وهم يهاجمون سواحل البحر الأبيض المتوسط، ولم يبق فيها ما يغنمونه، لقد كانت السفن الكبيرة والمحملة بالذهب والأشياء الثمينة تمر في البحار الخارجية، ولهذا فقد توجب على القراصنة الذهاب إليها، ولتحقيق أهدافهم فقد اقتضى الأمر الحصول على سفن تتمكن من البقاء في عرض البحر فترة أطول، إضافة إلى قدرتها على المناورة في تلك المحيطات، وهذا السبب هو من أهم الأسباب التي دفعت القراصنة إلى تبديل سفنهم وتطويرها.

فالقراصنة الأتراك لم ينتظروا الزمن ليساعدهم على تبديل سفنهم من أجل الخروج إلى المحيطات البعدية، ولهذا دأبوا على صناعة سفن تتناسب وأمانيهم، وبهذه السفن هاجم السفن الإنكليزية التي تتجول ضمن المياه الإنكليزية والسفن الراسية في بلتيمور، وقد كانت سفنهم بحركتها والتفافها تتموج وسط هذه المياه وكأنها قصيدة شعرية يتغنّى بها الشعراء والعازفون.

ولمعرفة نشاط القراصنة الأتراك وتحركاتهم التي تجاوزت آلاف الأميال في المياه الخارجية، علينا معرفة السفن التي كانوا يستخدمونها. ففي ذلك التاريخ كانت غالبية السفن المستخدمة لديهم من نوع قادرغة، وهي سفن طويلة وعنيفة، قليلة الارتفاع عن سطح الماء، علماً بأنهم استخدموا نوعاً آخر من السفن أكثر ارتفاعاً، ولكن استخدامها كان قليلاً جداً بالنسبة للقادرغات. فالقادرغات كانت أبعادها تتراوح ١٦٥ ـ ١٧٠ قدم طولاً و٢١ ـ

٢٢ قدم عرضاً وعمقها أكثر من ١٧ قدماً، أما ارتفاع كنارها عن سطح الماء فيتراوح من ٥ ـ ٦ أقدام.

ويعرف فورتن باشن السفن التركية ذات الفنار العالي المستخدمة في القرن السابع عشر بقوله (هذه السفن فنارها عالٍ، مليئة بالمسلحين من أعلاها إلى أسفلها، تحتوي على ١٨ ـ ٢٠ مدفعاً، عناصرها مع الطاقم قرابة ٦٠ قرصاناً).

لقد كانت هذه السفن شديدة الخطورة أثناء الهجوم، فحينما تسلط نيران مدافعها إلى السفن المعادية، تجعلها أمام حلين لا ثالث لهما، إما الاستسلام وأما الغرق، وفرضاً إذا نجحت وتمكنت من الاقتراب من سفن الأتراك، فإن المسيحيين في البرج العالي، يقذفونها بالقنابل المحرقة مشعلين النار بها، وفي حال تجرأ العدو الاقتراب منهم، فهذا يعني وقوعه في كمين محكم، لأن مهاجمي السفن التركية من الأعداء في منطقة الوسط يعجزون تماماً من الانتصار على السفن التركية، لأن القراصنة المتمركزين في الأبراج العالية وفي المقدمة والمؤخرة، يمطرون السفن المعادية الفارة بوابل من نيران بنادقهم، وعندما يرون الوقت قد آن لمهاجمتها، يفتحون الأبواب للانقضاض عليها، فيقع المسيحيون بحيرة من أمرهم. وبالنتيجة ماذا سيحدث؟ لا داعي لذكره.

وفي القرن السابع عشر كانت قوة القراصنة تتألف من أربعين قادرغة، مقسمة إلى أسطولين، وكانت قادرغة الواحدة تزن من ٢٠٠ ـ ٤٠٠ طن، في حين تزن سفينة القائد أكثر من ٥٠٠ طن.

يتوقع ليون بول بأن الأتراك خرجوا إلى المحيطات البعيدة مع بداية القرن السابع عشر، ولكن هذا القول غير مقبول، لأن الأتراك خرجوا إلى المحيطات في القرن السادس عشر، وربما في العقد الأخير منه.

وفي خلاصة وقائع نويس لأسعد أفندي، عندما تحدث عن تونس[٢].

(١) السفير الإسباني فى بريطانيا السير فرنسيس كوتيغيتون (Sir Fransis Kotigton) كتب رسالة سنة ١٦١٦م إلى دوق بوكيغام، يعلمه عن قوة القراصنة ويفهم من الرساله ان قوة القراصنة لم تصل إلى هذه الحد من القوة ولم يكن لديهم هذه الأعداد من السفن المتنوعه.

(٢) هذه الرسالة موجودة فى مكتبة دار الفنون فى إستانبول وهى مخطوطه مدونه بخط المؤلف.

عرج في حديثه على خير الدين برباروس، وقدم معلومات جغرافية وفلكية، وقدم معلومات وصفية عن العالم الجديد، وقد استقى معلوماته من خبرته الواسعة، وتجاربه التي اكتسبها من الوظائف التي أسندت إليه والتي شملت مناطق متعددة، ومن جملة ما ذكره، أن الرياس طلبوا من السلطان سليمان السماح له بالسفر إلى المحيطات البعيدة، وذلك قبل تمكن الإفرانج من اكتشاف أمريكا(*). لكن السلطان سليمان استشار بهذا الخصوص إبراهيم باشا المسؤول عن ثكنة حلب، فأجابه إبراهيم باشا بأنه لا يعلم شيئاً عن تلك الممالك البعيدة، وأنه تبين له من خلال مطالعاته بعدم وجود ممالك أخرى، والأصح لا يعلم شيئاً عن الممالك الواقعة خلف البحار، وفي هذه الأثناء كان كريستوف كولومبوس قد تمكن من اكتشاف العالم الجديد، ومنذ ذلك التاريخ بدأ عصر الكشوفات وتمكن الإنسان من الاطلاع على ما وراء المحيطات البعيدة. وأوضح أسعد أفندي أن خير الدين برباروس كانت لديه رغبة المشاركة بهذه الكشوفات، وهذا يعني أنه كان لدى بحارتنا الخبرة الكافية التي تمكنهم من خوض عباب المحيطات، وهم معتادون على ذلك، ودليلنا على ذلك، ما فعله الريس مراد الذي خرج سنة ١٥٨٥م من جبل طارق متجهاً إلى جزر كناريا، وهاجم جزيرة لانزاروت Lonzaret وأسر واليها وعائلته مع ثلاثمائة شخص من سكان الجزيرة، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن وقع اتفاقية معه ودفع الفدية التي طلبها.

ومن الحوادث المشهورة في القرن السادس عشر التي تؤكد خروج القراصنة الأتراك إلى أعماق المحيطات تلك الحادثة، إضافة إلى عدة حوادث أخرى وقعت فيما بعد، وهذه الحوادث بمجملها وقعت في القرن السادس عشر التي تؤكد خروج القراصنة الأتراك إلى أعماق المحيطات تلك الحادثة، إضافة إلى عدة حوادث أخرى وقعت فيما بعد، وهذه الحوادث بمجملها وقعت في القرن السادس عشر، وقد دونت بتواريخها الصحيحة.

(*) على ما يبدو أن الأمر قد اختلط على المؤلف، فكما هو معروف أن أمريكا اكتشفت سنة ١٤٩٢م من قبل أميركو فسيوتشي الإيطالي الأصل (من فلورنسا)، وأثناء ذلك كان بايزيد الثاني على عرش الدولة العثمانية، وهذا يعني أن السلطان سليمان لم يكن قد جاء إلى الدنيا بعد، إضافة إلى ذلك فالدولة العثمانية كانت دولة بريه ولم يكن لديها أسطول يمكنها من عبور المتوسط (المترجم).

احتلال جزيرة لوندي :

تقع جزيرة لوندي Lündy في جنوب بريطانيا العظمى ، وهي تبعد عن رأس لاندزانيد Lendezends حوالي مائة ميل باتجاه الداخل ضمن خليج برستول ، وهي جزيرة صغيرة ، لكنها كانت ذات أهمية كبرى بالنسبة لتجار سكان برستول .

وبرستول تعتبر النافذة الرئيسية للتجارة مع أمريكا ، ففي سنة ١٦٢٥م هاجم الأسطول التركي المدينة واحتلها ، وبقيت بأيدي القراصنة الأتراك عدة سنوات ، ولم تسلم للإنكليز إلا بعد أن وُقع الصلح مع القراصنة الأتراك بالشروط التي فرضها القراصنة ، ومن هذه الشروط السماح للقراصنة الأتراك بالملاحة فيها عندما يتطلب الأمر ذلك[1] .

لقد أعطت الصخور العامودية ، وطرقها الضيقة ، وقلعتها المهدمة ، الجزيرة منظراً بشعاً ومخيفاً ، لذلك نُسجت عنها وعن قراصنتها خرافات وأساطير ، ولهذا فقد تشوق القراصنة لمهاجمتها ، كذلك فإن السواح توجهوا إليها بعدما أعلن الأسطول الإنكليزي عن حمايتهم من القراصنة الأتراك ، فأخذ يتجول ما بين قورق وريجل بصورة دائمة ومستمرة ، تحسباً من مهاجمة القراصنة الأتراك إلى تلك المناطق بصورة مفاجئة ، ولكن الأسطول الإنكليزي لم يتمكن من التصدي للقراصنة الأتراك ، لأن القراصنة تجولوا ضمن المياه الإنكليزية كثيراً ، وتوغلوا حتى المياه الهولاندية والنرويجية والدانماركية ، ولدى التدقيق بتواريخ تلك البلاد ، نجد صفحات مشرفة تدل على بطولات القراصنة علماً بأن مؤرخي تلك البلاد علموا الحقيقة ، وعكسوها لصالحهم[2] .

مهاجمة آيسلاندة :

في سنة ١٦٢٧م تحرك الأسطول التركي بقيادة الريس مراد ، لمهاجمة سواحل الدانمارك ، وبعد أن نهبها ودمرها ، توجه لضرب جزيرة ايسلاندة فهاجم السواحل الجنوبية للجزيرة والمزارع الموجودة فيها ، وخربها وسلب

---

(١) تاريخ دفون شاير (Devon Sayr) ص ١٣٩ .

(٢) مقدمة من فهرس الأوراق الرسمية لايرلاندة .

ما فيها، ثم رسا بأسطوله في ميناء هايمي، فدمرها أيضاً وأحرق كنيستها. وهدم جدرانها[1]، وأسر منها أربعمائة شخص[2].

وفي سنة ١٦٣٦م اضطرت الحكومة الدانماركية لدفع فدية للأسرى الباقين من الأربعمائة أسير[3]، لكنه لم يعد منهم إلى البلاد سوى سبعة وثلاثين شخصاً ويتوقع أن يكون القراصنة الذين هاجموا تلك المناطق قد اتخذوا جزيرة لوندي مركزاً لهم.

الهجوم على السواحل البريطانية:

على الرغم من قيام علاقات ما بين الدولة العثمانية وبريطانيا في نهاية القرن الخامس عشر، لكن القراصنة اصطدموا مع السفن الإنكليزية في سنة ١٥٨٠م وسنة ١٥٨٢م، وتمكنوا من أسر تسع وأربعين سفينة إنكليزية خلال غزواتهم الأخيرة على سواحلها، كذلك فقد تمكنوا من أسر قرابة مائة شخص، وقد شدد قراصنتنا هجماتهم على السواحل الإنكليزية، وفرضوا الحصار على سفنهم، وأقضوا مضاجع الإنكليز بتلك الهجمات المكثفة، وغنموا سفنهم، وهدموا وخربوا سواحلهم، وبلغت جرأتهم إلى حد التوغل ضمن المياه الداخلية وضربوا بجرأتهم مثلاً في الإقدام والشجاعة، لا يزال التاريخ يسجله لهم بصفحات مشرفة ضمن صفحات البطولات البحرية[4].

وبما أن القراصنة كثفوا هجماتهم على تلك المناطق وخاصة خلال سنوات ١٦١٩م و ١٦٢٠ وسنة ١٦٢١م فقد تصور الإنكليز أن هؤلاء القراصنة متواجدون بصورة دائمة ما بين (مارتلند بونينت) و (بليموث هاف)، وقد نتج عن ذلك فقدان الإنكليز لأكثر من أربعمائة سفينة ما بين مأسورة ومفقودة،

---

(١) لين بول (Lcyin Pol) الأثر المتعلق بإيسلاندة لمؤلفه فردريك هوتفل (Fredirik Hotvel) والأثر المسيحي (بربيك Bering ـ أما الأثر كوفلد (Govld) فهو يتحدث عن إثار اسلاندة.

(٢) يؤكد لين بول أنه تم أسر ثمانمائة شخص، وورد في تاريخ نعيما ج ٣ ص ٤٣٩ أن الريس علي بتشين أسر ثمانمائة شخص لدى مهاجمته لتلك المناطق وقد ساعده في ذلك أحد الأولاد الآيسلانديين.

(٣) من جملة الأشخاص الذين وقعوا بالأسر القسيس أوليفر أكلسون، ولكنه فر بعد سنتين.

(٤) تقرير السفير الإنكليزي فى إستانبول السير توماس رد لسنة ١٥٨٢م.

إضافة إلى الخسائر التي نجمت عن تخوف تجار برستول عن الإبحار بسفنهم المملوءة بالمواد القيمة[1].

لم تقتصر هجمات القراصنة الأتراك على هذين الموقعين فقط، بل هاجموا أماكن واسعة من السواحل الإنكليزية، وخربوا القلاع الموجودة فيها، وكانت الجزر الواقعة في جنوب بريطانيا أمثال الدونز، الدرشت، كرفوول وديفون، والمقاطعات الواقعة جنوب ديفون، والمناطق الواقعة في شمال غرب ديفون وكرفوول والسواحل الجنوبية لآيسلاندة، وتعتبر هذه المناطق من أكثر المناطق التي هاجمها القراصنة بكثرة، وقد عانى سكانهم الويلات، وحل الخراب والدمار بمعظم مناطقهم، وقد تجول القراصنة بحرية تامة ضمن القنال الإنكليزية، ومما ساعدهم على تحقيق أهدافهم، انشغال الحكومة البريطانية بالحرب الدائرة ما بين إسبانيا وفرنسا.

وفي سنة ١٦٢٥م طلب سكان پنزانس من الحكومة السماح لهم ببناء قلعة تحميهم من الأتراك، بسبب تخوفهم الشديد من هجماتهم، وبنفس التاريخ، يقال أنه شوهد ثلاثون سفينة تابعة للقراصنة تتجول بجوار جزر (سلي)[2]. لقد أهملت الحكومة البريطانية حماية شؤونها الداخلية ووجهت اهتماماتها البحرية لأغراض خارجية. وقد استغل الجزائريون ذلك فبدأوا بمهاجمة السواحل البريطانية، ولدى ازدياد الشعور لدى سكان السواحل البريطانية، بأن الحكومة لا تواليهم الأهتمام المطلوب، راجعوا الملك، فكلف الملك السير روبر مندل بتأمين الحماية اللازمة لهم، وكان الملك يرغب بتحميل مصاريف الاستعداد للمناطق والموانىء التي تتعرض لهجمات الجزائريين.

وفي شباط سنة ١٦١٩م صدر تعميم عن مجلس وكلاء الإنكليز يوضح الأعمال التي قام بها القراصنة، وذكر أن قراصنة تونس والجزائر تمكنوا خلال وقت قصير من أسر أكثر من ثلاثمائة سفينة ومئات الأسرى[3].

---

(١) لين بول.

(٢) تاريخ مقاطعة كرفوول ج ١ ص ٤٩٥.

(٣) تاريخ مقاطعة كرفوول ج ١ ص ٤٩٦.

وحقيقة الأمر. لقد كان الأسرى بالألوف، والأسطول الإنكليزي الذي قدم إلى الجزائر، لم يحقق أي فائدة تذكر، إلا أنه حصل على بعض التعهدات، ومن ثم عاد إلى بلاده.

وفي شهر آب سنة ١٦٢٥م بقي القراصنة في مدينة بليموث عشرة أيام، واستولوا على سبع وعشرين سفينة، وأسروا ما فيها، كما استولوا على ثمانين سفينة كانت راسية في ميناء ليف، وأسروا منه مائتي شخص. وقد اعلموا مجلس الوكلاء بذلك، وقبل أسبوع من حدوث هذا الهجوم أسروا السيد مواكس Mavakis مع ستين شخصاً من النساء والأطفال، كانوا موجودين في إحدى الكنائس، ولم يمضِ وقت طويل حتى عاد القراصنة من جديد لاحتلال سلي.

وفي سنة ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م شوهد القراصنة يتجولون بالقرب من السواحل بصورة مستمرة، فاحتلوا ليف بعد سلي، وتمكنوا خلال شهر من القضاء على خمس عشرة سفينة ما بين ليف وهرت فورت (Hert Fort).

وفي سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م كتب أحد وكلاء الإنكليز ما يلي «لم تمتلىء لاندزانيد في أي وقت من الأوقات بالقراصنة مثل هذا الوقت، فقد غدت سفن القراصنة ملاصقة بعضها لبعض مثل حبات الذرة».

وبعد فترة تمكن قراصنة سلي (Sali) من الاستيلاء على سفينة عائدة لميناء ليف، وقتلوا طواقمها باستثناء سبعة وثلاثين شخصاً، ووضعوهم في العنبر، عادوا بهم إلى سانت أي فيس (Sent ay Ves) ونتيجة لذلك فقد توجب على القراصنة الإحاطة بكافة موانىء كرفوول، إزاء ذلك، غدا صيادو الأسماك لا يجرؤون على الخروج إلى البحر، ولم تستطع شخصية تشالز وحكومته من إيجاد حلٍ لما فيه[1].

مهاجمة آيرلاندة:

لم تنجُ إيرلاندة أيضاً من هجمات القراصنة، وبما أن جزيرة إيرلاندة في الأصل غنية، وذات قصور فخمة، فقدهاجمها القراصنة بكثرة. يعمل سكانها بصيد الأسماك والمرجان، كما أن تجارتها اقتصرت على الاتجار ما بين

(١) تاريخ مقاطعة كرفوول ص ٤٩٥.

إنكلترا واسكوتلنـدا ، ولذلك عمد القراصنة على تركيز نشاطهم البحري على السواحل الإنكليزية ، بقصد مهاجمة السفن المحملة بحمولات تجارية قيمة ، وتجنبوا قدر الإمكان الاصطدام مع سكان المدن الساحلية ، وبما أنهم لم يصادفوا سفناً محملة بالبضائع النفيسة والقيمة ، لذلك لجأوا إلـى مهاجمة السفن الغنية في ايرلاندة ، كما هاجمـوا المـدن ، ولـم يبـق موضع قـديم من المناطق المسكونـة في الجنـوب والجنـوب الغربـي لجـزيرة آيرلانـدا ، إلا وهاجمـه القراصنة ونهبوا ما فيه ومن ثم دمروه .

الهجوم على بلتيمور :

في ١٩ ـ ٢٠ حزيران سنة ١٠٤١هـ / ١٦٣١م تحركت سفينتان حربيتان للأتراك ليلاً من لاندزانيد باتجاه بلتيمور ، وفي الطريق اصطدمتا مع سفينتين فرنسيتين ، وتمكنتا من إغراقهما ، وأسرتا سفينة إنـكليزية ، ونهبـوا ما فيهـا ، وتابعتا طريقهما إلى بلتيمور ، وكان دليلهما إليهـا الصياد دان غروان (Dan Garuan) وحالما وصلوا هاجموها ونهبوا المدينة وأسروا فيهـا مائـة وثمـانية أشخاص ، ومن ثم عادتا إلـى الجزائـر ، ونتيجـة لكثـرة ما قتلـوا من سكان المدينة ، نظم الشاعر الآيرلاندي المشهور توماس أوزبون دي فيس (Tomas Uzborn Deyves) قصيدة خلّد فيها هذه الحادثة[1] .

كذلك فقد استولى القراصنة على عدة سفن محملة بالخمور عائدة لفوتر فورت (Voter Fort) . إزاء ذلك اضطـر الإنـكليز لتـوزيع قواتهـم علـى السواحل تحسباً من قيام القراصنة بمهاجمة سواحلهم ثانية ، ومن باب الحيطة والحذر أفرغوا السواحل من ساكنيهـا ، وهجروهم إلى الداخل ، ورغم ذلك كان الخوف والفزع مسيطراً عليهم ، واعتقدوا أن القراصنة سيهاجمون قلعتي قورق Kork وكنيزبل Kinzebl [2] .

الأتراك في مياه نيوفوندلاند :

ومن مناقب القراصنـة وبطولاتهـم ، وصولهـم حتـى شمـال أمـريكا ، فذهاب القراصنة الأتراك إلى جزيرة نيوفوندلاند New Foundland الواقعة في

---

(١) مجموعة الأسطول العثمانى رقم ١١٥ .

(٢) الوثائق الرسميـة المحفوظـة فى إنكلترا ، وهي تتعلق بتاريخ مقاطعة قورق نمرة / ١٠١ .

شمال أمريكا (حالياً إحدى الجزر الكندية) تدل على جرأة لا مثيل لها في تاريخ الأعمال البحرية، وقد غنم القراصنة من هناك أموالاً وتحفاً قيمة جداً، ومن جملة السفن التي غنموها سفينة كانت تتجه إلى فيرجينا، فوجدوا على متنها فتاة إنكليزية في غاية الجمال والحسن، فأسروها وقدموها هدية للسلطان، وحينما دخلت القصر قدم الجميع لرؤيتها[1].

ومن نشاط القراصنة الأتراك في البحار الخارجية حادثة تعتبر الفردية من نوعها، حدثت بالقرب من جزر كناريا، فبينما كانت سفن الأسطول تتجول في تلك المناطق، صادفها قراصنة كناريا، فأحاطوا بتلك السفن ودار بينهما قتال مرير أسفر في النهاية عن وقع سفن القراصنة بالأسر، فأسروهم وقتلوا ما فيهم من الأتراك، وأخذوا الباقين أسرى، ولدى سماع سكان بوكناري بأن الأتراك يعدون أسطولاً ضخماً للانتقام منهم، حتى ولو وصلو إلى أمريكا، وتجنباً من تعرض جزرهم للخراب والدمار وتهجيرهم، قرروا تقديم الهدايا ودفع قيمة السفن التي أغرقوها وإعادة السفن الأخرى، وقد قبل القراصنة العرض الذي قدمه سكان بوكناري، وأقلعوا عن مهاجمتهم.

وكان تخوف سكان بوكناري من الأتراك كبيراً، لأنهم اعتقدوا بأن مجيء الأتراك إلى جزرهم ومهاجمتها يعني طردهم منها، واستيطان الأتراك فيها بدلاً منهم.

استمر نشاط القراصنة الأتراك في المياه الإنكليزية حتى سنة ١٧٠٠م، وقد تعرض الإنكليز خلال ذلك إلى خسائر فادحة بالمال والرجال، وكان أكثر الأضرار التي واجهتهم توقف تجارتهم، ونتج عن ذلك فقر عام، وأصيب ميزانهم التجاري بالإفلاس[2].

ولدى مشاهدة سكان بنزانس لسفينة جزائرية بالقرب من سواحلهم، تطوع السكان لحمل السلاح ومهاجمة السفينة، لكن السفينة مرت دون أن يعترض سبيلها أحد.

---

(١) هناك كتاب يتحدث عن تاريخ الأمبراطورية العثمانية. وقد طبع في لندن سنة ١٦٦٣م (لكن المؤلف لم يذكر لنا إسم الكتاب، فهناك كتب كثيرة تتحدث عن تاريخ الدولة العثمانية، وكان بجدر بالمؤلف ذكر أسم الكتاب على الأقل) (المترجم).

(٢) تاريخ مقاطعة كرفوول ج ١ ص ٤٩٦.

- ٢ -

عهد الباشوات[١]

محمد باشا ـ دلي أحمد باشا ـ خضر باشا ـ شعبان باشا ـ الوكيل مصطفى بك ـ خضر باشا للمرة الثانية ـ مصطفى باشا ـ حسن باشا ـ (بوريشة) ـ سليمان باشا ـ خضر باشا للمرة الثالثة .

في سنة ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م عُزل فندقلي أو أولوج حسن باشا أمير أمراء الجزائر، وعين مكانه أمير أمراء طرابلس الغرب محمد باشا، وكما ذُكر سابقاً فإن حسن باشا تولى الإمارة من تلقاء نفسه وأبقاه الديوان لعدة أسباب، ولم يتمكن حسن باشا من التفاهم مع الإنكشارية، فتوجه رؤوساء الأقسام إلى إستانبول لتقديم شكوى ضده، وعرضوا للديوان الهمايوني الأعمال التي يرتكبها ضدهم، والأموال التي يصادرها من الأهالي، وممارسته التعدي على السفن الفرنسية، وعدم التزامه بالأوامر الموجهة إليه في إستانبول. وكان رؤوساء الأقسام يرغبون بالحصول على إرادة سلطانية تقضي بعزله، لكن السلطان العثماني كان متردداً، لأنه اعتقد بأن حسن باشا لن يتخلى بسهولة عن منصبه[٢]، لكن حسن باشا لم يصر على البقاء في الحكم، فانسحب

(١) لن تترك إمارة الجزائر كما كانت سابقاً، وإن الأمر يتطلب احضاعها مثل بقية الولايات الأخرى، واعتباراً من هذا التاريخ، فإن القادمين إلى الجزائر، يسمون بكلربكي (أمير الأمراء) وللتمييز عن الولاة السابقين فقد سميت هذه المرحلة. بمرحلة الباشوات.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٥٨/ ص ٧٤.

إلى باشية إنكشارية الجزائر القادمين من جزائر الغرب حكم: أمرت بتوجيه إماره الجزائر إلى أمير أمراء طرابلس الغرب محمد باشا، ولدى تواجده في الجرائر، يؤمر سلبمان بك أمير =

خارجاً بسفنه إلى ممارسة الأعمال البحرية[1] .

كان الإسبان الموجودون في وهران ، قد تمكنوا في هذه السنة من جمع الأنصار والمؤيدين من حولهم ، وانضم إليهم بعض شيوخ القبائل ، فجمع المتفقون مع الشيوخ مع ما جمعوه من أنصار ومؤيدين ، وتوجهوا إلى تلمسان ، وقاموا بنهبها وحرقها ، ومن ثم نهبوا ماشية الأهالي .

وقبل أن يُعزل حسن باشا ، كان أعيان تلمسان وأشرافها ، وقاضي الجزائر قد وجهوا عريضة إلى إستانبول ، يطلبون المساعدة من أجل احتلال وهران ، وإنقاذهم من ظلم الإسبان ، وبعد عزل المشار إليه ، جاء الرد من إستانبول بما يلي! بما أن الجيش بقيادة الوزير عثمان باشا ، قد أرسل بغزوة عسكرية إلى الشرق ، فإن المساعدة سترسل إليكم حالما يعود من مهمته ، نطلب إليكم الاهتمام بما لديكم من قوة[2] .

= قابس بالتوجه إلى طرابلس الغرب حالما يغادر حسن باشا الجزائر ، وبما أن حسن باشا ركب سفينته مع من معه في اليولداشيه ، فإن محمد باشا سيتوجه إلى الجزائر ، وعليكم تأمينه سالماً والاهتمام به ، وعليكم عدم الإهمال ، وكونوا بغاية الحذر والحيطه ، وإن شاء الله لن يدخر جهداً فى خدمتكم ، وإن عمله مقروناً بالخدمة والرعاية ، وهذا بالنسبة لنا سيلفت أنظارنا إلى جهده وجده (٢ جمادى الاول ٩٩٣هـ) .

(١) طلب حسن باشا لقيادة الأسطول فى سنة ٩٩٦هـ وظل بوظيفته حتى ٩٩٨هـ وقد توفى خلال هذا التاريخ ، ودفن فى مقبرة قلج على باشا فى مقبرة المدفع (طوبنجانـة) ويذكر السجل العثماني أن حسن باشا نقل من الأناضول إلى الجزائر ، ومن بعدها حصل على رتبة عالية وفى سنة ٩٩٦هـ أصبح قبطان باشا وفى سنة ٩٩٨هـ أو سنه ٩٩٩هـ توفى ، وإذا كتب بأن حسن باشا دفن إلى جانب زوجته مريم ، أو أنه يملك مكاتب فى صاري ير (المكان الاصفر) أو فى اق ميدانى (الميدان الأبيض) أو بهو سناد باشا فهذا غير صحيح .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٥٨/ ص ٨١ .

بما أن هذا الفرمان مثل بقية الفرمانات الأخرى ، ويحتوى على عبارات التضخيم والتبجيل ولا ضرورة لها ، إضافة إلى وجودها مكررة ، لذلك قمنا بانتقاء الجمل المفيده والمهمة .

إلى أعيان وأشراف تلمسان وجزائر الغرب حكم · علمنا من كتابكم الذي أرسلتموه في عهد أمير الأمراء السابق حسن باشا دام إقباله ، وكتاب قاضى الجزائر ، أن بعض شيوخ العرب أصبحوا أنصاراً للإسبان الموجودين فى وهران بجوار تلمسان ، وأن هؤلاء الشيوخ أصبحوا أدلاء للمسيحيين ، وهم الذين أحضروهم إلى تلمسان وقاموا بحرق وهدم جدرانها وما جاورها من الأماكن الأخرى ، كما قاموا بأسر المسلمين ، وعذّبوهم ، وقد بدأ الفساد بالانتشار وارتكاب الأعمال الشنيعة بحقهم إضافة إلى انتشار الفوضى فى البلاد يوما بعد يوم . . . . وبما =

وفي سنة ٩٩٣هـ قدم بك قابس سليمان وسفير مولاي أحمد حاكم فاس إلى إستانبول، وبعد انتهاء عمل السفير الفاسي من إستانبول عاد إلى بلاده برفقة سليمان بك ومعهما أمير أمراء طرابلس الغرب محمد باشا الذي عُين أمير أمراء الجزائر، وبما أن السفير تابع طريقه إلى فاس للاستفسار عن بعض المعلومات، فمن المحتمل عودته ثانية إلى إستانبول، وإذا أعلم أمير أمراء الجزائر بالأمر المرسل إليه، فإن موضوع المباحثات ونتائجها، فإن الأمر يقتضي منه المحافظة عليها لتظل مجهولة[1]. ولكن الصداقة والعلاقة مع حاكم فاس استمرت علي ما هي عليه[2]. وصدر إلى أمير أمراء الجزائر بعض الأوامر من قبل السلطان[3].

قام حاكم فاس المطرود والمنحدر من سلالة مليئة بالخيانة والغدر بالاتصال بالإسبان وبالمفسدين في الداخل من أجل إعادة حكم البلاد إليه ثانية، وقد صدرت إلى أمير أمراء الجزائر وطرابلس الغرب وتونس أوامر تطالبهم بالتيقظ والاستعداد بصورة دائمة من أجل التصدي لأي اعتداء محتمل، مع ضرورة الاتحاد فيما بينهم، وترصد حركات الأعداء وإخبارهم بكل دقة وانتباه[4].

= أنكم تلمسون منا إرسال الاسطول إليكم لتحرير وهران وإلحاقها بممالكنا المحروسة، وقد أصبحنا على علم بماأحيط بكم ،ولكن في هذه الأثناء تم إرسال عساكرنا المظفرة بقيادة الوزير الأعظم عثمان باشا إلى الشرق، وإن شاء الله بعد حل خلافنا مع القزل باش (الرؤوس الحمر)، سنرسل الجيش والاسطول لفتح القلعة وتسخيرها، لذلك نأمركم العمل بما لديكم من قوة بغية الحفاظ على الولاية وحراستها، وعلى أمير أمراء الجزائر التصرف بما يراه مناسباً لصمان الدين والدولة باذلا ما لديه من جهد وجد لخدمتنا (٢١ جمادى الأخر ٩٩٣هـ).

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة ٦٣١/ ص ١٦٩ (١٠ صفر ٩٩٦هـ).

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٥٨/ ص ٥١. إلى أمير أمراء الجزائر حكم:

بالفعل قدم إلينا أمير صنجق قابس سليمان بك مع سفير حاكم فاس السلطان أحمد، وحدث اتفاق مع المشار إليه، وسيعود ثانية. وعليكم لدى وصوله تأمينه بكل ما يلزمه، فتدبر ذلك واحرص على تلبية كافة احتياجاته، وزوده بما يلزمه من الرجال، وأسرع بإرسالهم، واعلم أنه عائد من طرفنا، ولدى وصوله إلى الجزائر وضع في سفينته عدداً كافياً من الرجال، وأرسله بسرعة إلى سعادتنا فى الآستانة، واضمن تنفيذ جميع أوامرنا (٢١ جمادي الآخرة ٩٩٦ هـ).

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٦٧/ ص ١٣٤ (٧ رمضان ٩٩٧هـ).

(٤) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٦١/ ص ٩ (رجب ٩٩٤هـ).

لم يلتزم قراصنة الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بالأوامر الصادرة إليهم من الباب العالي بشأن عدم التعرض لسفن الدول المرتبطة مع الدول العلية بعهود واتفاقيات، بل على العكس من ذلك فقد ازدادوا نشاطاً أكثر من قبل، فبدأوا بضرب سفن تلك الدول والاستيلاء عليها. إزاء ذلك عمدت فرنسا وإنكلترا إلى تقديم شكاوي إلى السلطان العثماني عن اعتداءات قراصنة أوجاقات الغرب. وعلى الفور كلف السلطان العثماني الشاويش محمد من قصر السلطنة بإجراء تحقيق بالأمر، وإطلاق سراح الأسرى وزوده بفرمان يتضمن دفع قيمة الخسائر والأضرار التي لحقت بهم، وقد نقل الشاويش محمد إلى الجزائر على متن سفينة إنكليزية، ولدى اقتراب السفينة الإنكليزية من مدينة الجزائر، هاجمتها السفن الجزائرية، لكن الشاويش محمد أمر السفينة بمتابعة طريقها إلى المدينة، فأمر القراصنة سفنهم بإطلاق النيران عليها، وأشرفت السفينة على الغرق، فاستغاث الشاويش محمد، وأعلن لهم أنه مندوب السلطان إليهم، وأنه يحمل فرماناً سلطانياً، وبهذه الوسيلة أنقذ نفسه والسفينة من الغرق، وحالما بلغ الميناء نزل إلى البر، أبلغ أمير الأمراء مضمون الفرمان الهمايوني، لكنه لم يلق لا هو ولا الفرمان أي أهمية وأجابه أمير الأمراء «إذا كنت معزولاً، فإنني لن أهتم بأحد، ولن أتوقف عن مهاجمة السفن وأسرها»[1].

وعندما كان الشاويش محمد في الجزائر، حاولت سفينة إنكليزية أخرى دخول الميناء مغرورة بالفرمان السلطاني الموجه للقراصنة، فأسروا قائدها وضربوه بالحديد، وأخذوا منها ستة أكياس مخمل ذهبي مع أمتعة أخرى، وبعض الأرزاق والسلاح، وباعوها خارج مدينة الجزائر بقيمة كيسين وخمسمائة ليرة ذهبية.

وإثر هذا الحادث أرسل السلطان العثماني فرماناً سلطانياً آخر، يأمر أمير أمراء الجزائر بإجراء تحقيق عن المسبب الأول لتلك الأعمال، وأمر بعزل الفاعل، كما طالب بالاستفسار، هل السفينة عائدة لأمير الأمراء؟ أم هل عائدة للأشقياء من القراصنة، وأصدر أمراً يقضي بإعادة جميع الأشياء

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٦١/ ص ٩ (رجب ٩٩٤هـ).

المأخوذة مع دفع كامل التعويضات اللازمة، وأمره في حال تكرار مثل ذلك، فإن الأمر لن يقتصر على العقاب والعزل بل يجب أن تقدم لائحة بأسماء المخالفين إلى الباب العالي.

لم يستجب محمد باشا للأوامر الصادرة إليه، لذلك عزل من منصبه بعد مدة قصيرة، وعُين مكانه إستانكولي أحمد باشا، وكان أحمد باشا مجبراً على مجاراة الأحداث والارتباط بها، فخرج بنفسه في سنتي ٩٩٥هـ و ٩٩٧هـ إلى القرصنة، وهاجم مملكة نابولي وصقلية وكورسيكا وسواحل البابا والسواحل الإسبانية[١].

لم يلتزم أحمد باشا وقراصنته بالاتفاقيات المعقودة بين الدولة العثمانية والدول الأخرى، فقد ظل القراصنة يعلنون تمردهم وعصيانهم على أوامر إستانبول باستمرار، وبما أن الأوامر سمحت بوضع المحكوم عليهم بالإعدام كمجدفين على السفن الحكومية العائدة للجزائر وتونس وطرابلس الغرب، لكن أمراء الأوجاقات الثلاث، عمدوا على أخذ هؤلاء المحكومين من السفن وأطلقوا سبيلهم[٢].

لقد تعرض الفرنسيون إلى خسائر كبيرة، ولهذا طلبوا من الدولة العثمانية استرجاع الأشياء التي أخذت منهم، وكان الديوان الهمايوني قد وجه فرماناً مع الشاويش محمد أحد بوابي الباب العالي، وكلفه بنقله إلى الجزائر، ومن باب الاستهزاء بالأوامر الصادرة، قام أمير الأمراء بإنزال البواب من السفينة المتوجهة إلى إستانبول واحتجزه لديه، إزاء هذه الحادثة ارتفعت معنويات القراصنة، وكل ما تصرفه السلطان تجاه أمير الأمراء ومنعه للشاويش محمد من السفر، هو إصدار أمر يأمره بإعلامه عمن قام بأعمال الاعتداء على السفن الفرنسية، وإرسال البواب فوراً[٤].

رفض أمير أمراء الجزائر إعلام السلطان عن أي شيء، لأنه من غير

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٦١/ ص ١٤ (١٥ ذي القعدة ٩٩٥هـ).

(٣) القائمقام هنرى قستري.

المعقول أن يسلم نفسه ورقبته للجلاد بهذه السهولة، ولا حتى طائفة الرياس، لأنه لو فعل ذلك فإنه لن تقوم قائمة للقراصنة، لأن السلطان كان حريصاً على المحافظة على الاتفاقيات المعقودة مع الدول الأخرى.

كان القراصنة يتحكمون بالمنطقة الغربية والوسطى من البحر الأبيض المتوسط عندما كانت سفن المسيحيين تعمل في القسم الشرقي، وتلقي القبض على السفن المتوجهة إلى إستانبول، إضافة إلى مهاجمتها للسواحل العثمانية وإلحاق الخراب والدمار فيها، ولمنع الأعداء من ممارسة تلك الاعتداءات، ولكي تكون قوات الأوجاق الغربي يداً واحدة سواء البحرية منها أو البرية، عمد السلطان وبعد تفكير طويل إلى تعيين حسن باشا أمير أمراء تونس كأشجع وأمهر أمراء البحر قائداً على القوات البرية والبحرية الموجودة في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب. مستغلاً حب الرياس والإنكشارية وإطاعتهم له إطاعة عمياء، ولإزالة الخلافات بينه وبين فرنسا وإنكلترا والبندقية وعدم مهاجمة سفنهم، أعلم أوجاقات الولايات الثلاث بالفرمان الذي أصدره في ١٠ صفر ٩٩٦هـ / ١٥٨٨م، وفي هذه الأثناء أمر فندقلي حسن باشا أمير أمراء الجزائر السابق بالقدوم إلى إستانبول لتعيينه قائداً على الأسطول العثماني.

وفي سنة ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م قدمت من إستانبول إلى فاس هيئة دبلوماسية، ومن بعد ذلك غدا سفراء البلدين يتبادلون الزيارات فيما بينهما باستمرار وقد أخذت هذه المبادلات الدبلوماسية شكلها المنتظم، ففي كل سنة تقوم هيئة دبلوماسية تركية بزيارة فاس وبعد انتهاء مهمتها تعود إلى إستانبول وبرفقتها الهيئة الفاسية. وبالرغم من هذا العمل المشترك، فإن هناك نوعاً من عدم التفاهم لا يزال قائماً بين الحكومتين، فالهدايا التي كان المنصور يرسلها كان السلطان العثماني يعتبرها ضريبة مستحقة، وكما ذكرت الوثائق الإنكليزية، فإن المنصور لم يرسل سفيره إلى إستانبول خلال سنتي ١٥٨٧م و ١٥٨٩م، موحياً للسلطان العثماني أنه يرسل السفراء بناء على رغبته الخاصة، وأنه غير مجبر على فعل ذلك، وفي سنة ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م أرسل السلطان مراد سفيره إلى فاس لمطالبة حاكم فاس بإرسال الضرائب وسفيره كالمعتاد ولكي لا تعتقد الدولة الأجنبية أن العلاقات

بين دولتين مسلمتين بدأت بالتوتر، وكان الأسطول العثماني قد غادر إستانبول مبحراً إلى جهة غير معلومة.

كان المنصور ذكياً جداً، فقد استمر بربط علاقته مع العثمانيين، وبنفس الوقت لم يكن راغباً بتقويتها، كما أنه تخوف من قدوم الأسطول العثماني إلى جهات البحر الأبيض المتوسط. وبناء على ذلك فقد أرسل سفيره إلى إستانبول محملاً بالهدايا الثمينة وكانت سفارته تتألف من أبي الحسان علي بن محمد التمغروشي والسيد محمد بن علي الغشتالي وقد تحركت السفارة الفاسية برفقة السفير التركي في عشرين جمادى الآخرة ٩٩٧ هـ الموافق السادس من أيار سنة ١٥٨٩م[١].

مرت السفارة الفاسية أثناء توجهها إلى إستانبول على طرابلس الغرب للذهاب من هناك برفقة قائد الأسطول فندقلي حسن باشا الذي كان ينتظرها هناك، ووصلوا إلى إستانبول في السادس عشر من محرم ٩٩٨هـ / تشرين ١٥٨٩م.

قدم السفير الفاسي الهدايا والرسالة إلى السلطان العثماني، وفي السابع من شعبان ٩٩٨هـ الموافق ١١ حزيران ١٥٩٠م غادرت سفارة تركية إستانبول متوجهة إلى فاس حاملة هدايا السلطان مراد الثالث إلى مولاي أحمد، ووصلت مراكش في ١ صفر ٩٩٩هـ الموافق ٢٩ تشرين الثاني ١٥٩٠م[٢].

عانى أهالي طرابلس الغرب الظلم والإرهاب الذي مارسه عليهم أمير الإنكشارية وبلغ حداً لم يعد بمقدورهم تحمله، فاندفعوا في ذي القعدة سنة ٩٩٦هـ للالتفاف حول شخص إسمه يحيى، وقد أدعى يحيى أنه المهدي المنتظر، فخافت الإنكشارية والتجأت إلى القلعة وأغلقت أبوابها.

علمت إستانبول بما يجري في طرابلس الغرب، فكلفت القبطان باشا

---

(١) رئيس هذه السفارة أبو الحسان علي بن محمد قدم إلى إستانبول وعاد، وهذا مدون في النفحة المسكية للسفارة التركية؛ والكتاب المذكور ترجم إلى الفرنسية من قبل هنري قستري وطبع سنة ١٩٢٩م.

(٢) نفحة المسكية: لم يتحدث مؤلفها عن نفسه بالرغم من أنه كان واحداً من أعضائها.

بالتحرك إلى طرابلس الغرب للقضاء على الثورة والتحقيق بالأسباب التي جعلت الأهالي يلتفون حول هذا الشخص، لكن قبطان باشا لم يتحرك حتى سنة ٩٩٧هـ بسبب حلول الشتاء، وحالما انتهى فصل الشتاء تحرك باتجاه طرابلس، وبما أن الثورة اتسعت أكثر من قبل فإنه لم يتمكن من القضاء عليها[١].

وفي هذه السنة عيّن أمير أمراء الجزائر أحمد باشا على طرابلس الغرب، وأمر بالالتحاق بالقوات المرسلة للقضاء على الثورة[٢].

فشل أحمد باشا في القضاء على العصاة[٣]. وقُتل في إحدى المعارك التي خاضها مع يحيى[٤] أما خضر باشا فقد عين أمير أمراء الجزائر، وفي عهده ازدادت أعمال السلب والنهب وبرز في تلك المرحلة عدد من الرياس المهتدين، فمن عملوا على الاغتناء وجمع الثروة أمثال مامي قورصو، ومامي نابوليتانو، وأرناؤوط مامي.

وبما أن السلطان مراد الثالث كان يعتبر مدينة مرسيليا وتوابعها غير تابعة للملك الفرنسي لذلك سمح للقراصنة بمهاجمتها، فاندفع القراصنة يهاجمون تلك المناطق دون مبالاة أو تحسباً لأي خطر.

أما في الجزائر فقد تمنعت قبيلة بني العباس عن دفع الضرائب، وأعلنت تمردها على الأتراك، وكانت ثورة بني العباس هي أول ثورة حدثت أثناء تمرد القبليين، وقد استمرت سنوات طوال، تكبد الأتراك خلالها خسائر فادحة.

لم يكترث رياس الجزائر ولا إنكشارتها بالفرمانات الموجهة إليهم.

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٦٣/ ص ١٧٠.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٦٣/ ١٧٢.

(٣) يقول فور بيكه: أنه فى سنة ١٥٨٩م قدم رمضان باشا من تونس، والتحق بالقوات الذاهبة إلى طرابلس الغرب لاخماد العصيان وقد قتل هو الآخر، وكان السلطان مراد قد أرسل مفرزتين من الجزائر وقسنطينة إلى طرابلس الغرب وتمكنت من إلقاء القبض على العصاة وحشبت جلودهم بالتبن.

(٤) يذكر السجل العثمانى بأن أحمد باشا كان أمير تونس سنة ٩٩٨هـ، وتقابل مع المهدي ونتيجة لتفجير الخائن مخازن البارود سنة ٩٩٨هـ قتل الباشا ومن معه وتقديراً له عين ابنه مكانه.

فلدى اغتنام القراصنة لأي سفينـة أجنبية ، كان أصحابهـا يقومـون بمراجعـة السلطان ، ولم يكن السلطان يملك أكثر من الفرمانات الهمايونية ، ولضمان تنفيذها ، كان يكلف شاويشاً من الباب العالي بالتوجه إلى الجزائر، لإعادة الأشياء المأخوذة إلى أصحابها ، وقد استمرت الأحوال على ما هي عليه حتى سنة ٩٩٩ هـ ، حيث قام الريسان مامي وحيدر بمهاجمة سفينة فرنسية عائـدة إلى توماس بن إنطوان، فأخذا أموالها، إزاء ذلك كله كلف السلطان الشـاويش إبراهيم بإعادة السفينة مع أموالها من بين سفن الريس دلي محمد، وإحضارها إلى إستانبول[١] .

وقد صدرت أوامر إلى الرياس وقباطنة الأوجاق الثلاث بالاشتراك مع القبطان سنان بالتحركات الهمايونية التي ستقام في الربيع ضد قورون وميتون والمناطق المجاورة لهما[٢] .

استمرت العلاقة بين حاكم فاسا وإستانبول بالتحسن أكثر من ذي قبل ، لأنه لم يعد هناك أمراء كبار يطالبون إستانبول بمساعدتهم لاستلام الحكم ، كذلك فإن أمير أمراء الجزائر لم يعد يفكر بأمور فاس ، ويعود السبب في ذلك لانشغاله بالقرصنة ، والاهنمام بمجريات الأحداث الداخلية في ولايته .

تمتع الإنكليز بنفوذ قوي لدى الديوان الهمايوني ، وبنـاء علـى رغبـة الإنكليز في إزالة سوء الفهم الحاصل بينهـم وبين حاكم فاس ، فقـد وجـه السلطان رسالة إلى حاكم فاس[٣] .

نعلمكم بأننا نرتبط مع ملـكة بريطـانية بصداقـة قديمـة ، ولـم نتدخـل بالصراع الدائر بينها وبين ملك إسبانيا ، كذلك فإن ملك البرتغال هو الآخر لم يتدخل بهذا الصراع ، وكما تعلمون فإن ملك إسبـانيا حاول السيطـرة علـى بلادها السعيدة ، واختلق أسباباً واهية لتحقيق أطماعه ، وقـد علمنـا بذلك ، وقبل ذلك التاريخ كان ملك البرتغال دون إنطوان قد وضع ابنه رهينة لديكم ، لقاء مساعدته ، ورجوناكم بتقديم المساعدة ، ولكن المساعدة لم تتم ولم يترك

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٦٧/ ص ١٣٥ ، ١٣٧ .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٦٨/ ص ١١ .

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٦٧/ ص ١٣٤ .

ابنه أيضاً واعلمتنا ملكة بريطانيا بوجود قوات إسبانية لديكم ، ورجتنا بكل إخلاص من أجل إطلاق سراح ابن ملك البرتغال ، فأرسلنا إليكم سفينة من ترساتنا العامرة مع رسالة يحملها أحد شاويشات الباب العالي . . . . ولدى استلام الرسالة سلم ابن حاكم البرتغال إلى الشاويش ، وزوده بعدد كاف من الرجال وأرسلهم إلينا بأسرع وقت ممكن ، لأنه يلزم تواجد ابن حاكم البرتغال بقربنا في الآستانة ، والمشار إليها ملكة بريطانيا تذكر بأنكم قمتم بحبس تجارها الموجودين في ولايتكم ، ولم تطلقوا سراحهم بناء على رغبة ملك إسبانيا بذلك ، إن سجنكم لتجار أصدقائنا وتلبية لرغبة ملك إسبانيا ليس عملاً لائقاً بمقامنا ، نطلب إليكم إطلاق سراح التجار مع إعادة أموالهم بشكل تام وسريع ومهما كانت الأسباب الداعية لذلك (السبت ٧ رمضان ٩٩٩هـ) .

وفي سنة ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م عاد خضر باشا إلى إستانبول وعُين مكانه شعبان باشا ، وفي هذه المرة عم على الولاية الوباء المسمى (وباء تونس) وأعقبته فترة طويلة من القحط والمجاعة ، كذلك فقد هبت عاصفة هوجاء حطمت مكسر الأمواج (الفنار) وغرقت سفينة في الميناء[1] .

أعلن القبليون عصيانهم للمرة الثانية ، فاضطرت الحكومة لمحاصرة مدية وكان الإنكشاريون يطالبون بالترقية وزيادة المعاشات لدى قدوم كل أمير أمراء جديد للبلاد ، ونتيجة لزيادة الرواتب باستمرار ، تراكمت الرواتب المستحق دفعها لهم ، ولم يكن بمقدور الحكومة التحكم بالموازنة ما بين الواردات والصرفيات ، ولسد هذا النقص ، بدأ الإنكشاريون بالتعدي على الأهالي من خلال جباية الضرائب الباهظة المفروضة عليهم ، وعلمت إستانبول بذلك .

لم يوافق أمير الأمراء على ترقياتهم ولا حتى على مطالبتهم أياه بدفع الرواتب المستحقة وأعلم آغا الإنكشارية بأنه سيعاقب كل من يتجرأ على المطالبة بزيادة المعاشات والترقي إلى رتبة أعلى[2] .

وبما أن الجزائريين غدوا سادة البحر وحكامه ، لذلك لجأت

---

(١) دي غراممونت .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة . / ٧٠/ ص ٢١٠ .

الشخصيات الأوربية المهمة أثناء ترحالها من مكان إلى آخر إلى استخدام المراكب الصغيرة بدلاً من السفن الكبيرة، لأن المراكب الصغيرة تعتبر أقل خطورة من السفن الكبيرة، كما أن القراصنة كانوا يعتقدون أن مثل هذه السفن الصغيرة، غالباً تكون خالية من أي شخصية كبيرة ومهمة، وفي حال إلقاء القبض عليهم، فإن القراصنة مجبرون على تسليمهم لاستانبول، ولهذا فإنهم يلجأون إلى بيعهم بأسعار رخيصة جداً في السواحل المسيحية، إضافة إلى ذلك فإن الديوان الهمايوني أصدر فرماناً بمنع بيع مثل تلك الشخصيات، وأمرهم بتنفيذ ذلك[1].

لم يتفق شعبان مع الإنكشاريين، وكان شعبان باشا يأخذ خمس الغنائم من القراصنة، إزاء ذلك جرت مناقشات حادة بين الإنكشارية والبحارة (الرياس) حول تسديد بعض الواردات، وكان شعبان يسعى للحصول على إذن من السلطان يخوله حق الاشتراك مع القراصنة، وبالفعل فقد صدر فرمان همايوني إلى آغا الإنكشارية والرياس في الجزائر، يعطي شعبان باشا أحقية مشاركة القراصنة أعمالهم البحرية، وقيادة سفينة قوية تمكنه من توجيه القراصنة أثناء الغزو والقرصنة باعتباره أمير الأمراء[2].

وبما أن الرياس منذ زمن وهم معتادون على تقديم خمس الغنائم مع عدد من العبيد إلى أمير الأمراء، ولهذا فإن هذا الأمر أصبح مع مرور الزمن حقاً مكتسباً، وإن الرياس مجبرون على الالتزام والتنفيذ، لكن هذا الحق حُول إلى الإنكشارية، بعد حصول أمير الأمراء على أحقية قيادة الغزوات البحرية، وإن قيادته هذه تخوله الحصول على حصة الأسد من الغنائم[3].

ظل شعبان باشا أمير أمراء الجزائر حتى سنة ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م، وفي هذه السنة عاد إلى أستانبول[4]. وحل مكانه خليفته وقريبه مصطفى بك، وقد استمر مصطفى وكيلاً على الجزائر مدة أربعة أشهر فقط، وقد قام مصطفى بك

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٧٠/ ص ٢١١ (١٠٠١هـ ربيع الأول).

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٧٠/ ص ٢١٢.

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٧٠/ ص ٢١٢.

(٤) هناك فرمان همايوني رداً على جواب خضر باشا بتاريخ ١٨ شوال سنة ١٠٠٣هـ.

خلال فترته القصيرة ببناء القلعة المسماة (بسور الغزلان)[1]. كذلك فقد أنشأ قلعة على طريق قسنطينة لتكون محطة استراحة للقوات التي تُكلف بجمع الضرائب والتي تهاجم بكثرة من قبل بعض القبائل المتمردة أو اللصوص والأشقياء.

وفي سنة ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م عين خضر باشا أمير أمراء الجزائر للمرة الثانية، ولم يكون محبوباً من الإنكشاريين، فقد شكوه لاستانبول بواسطة أرناؤوط مامي، ونتيجة لشهرة الجزائريين بالتمرد والعصيان والفوضى وعدم الطاعة، لذلك فإن عيوبه وأخطاءه لم تُعرف، ولهذا عُين ثانية أمير أمراء الجزائر.

وحالما وصل خضر باشا إلى الجزائر، قام بالاستيلاء على خمس عشرة ألف قطعة ذهبية من سابقه مصطفى بك بحجة إصلاح مكسر الأمواج ولكنه أخذها لنفسه.

أقام الفرنسيون مركزهم التجاري الباستيون بجوار مدينة لاقال، وقد استغلوا ذلك لتعبئة بعض السفن بالمواد المحرم بيعها للمسيحيين وأرسلوها إلى فرنسا[2].

كذلك فقد أقاموا في الموقع المذكور برجاً وقلعة، وبدأ بعض رعايا فرنسا يتوافدون إليه، فاصبحوا بذلك يشكلون خطراً كبيراً على الجزائريين، وأن الأمر تفاقم إلى حدٍ غدا الجزائريون بموجبه مجبرين على أخذ الحيطة والحذر، وعندما كثر فسادهم ودسائسهم، اضطر خضر باشا إلى عرض الموضوع على إستانبول، وطلب الأذن بأخذ الحق منهم وإيقافهم عند حدهم. وبالفعل فقد أذن له الباب العالي بهدم الأماكن المحدثة، لأنهم خالفوا شروط الإتفاق[3].

---

(١) دى غراممونت.

(٢) من جملة المواد المحرم بيعها للمسيحيين منتوجات الميراث والأوقاف والرصاص وشمع العسل والجلود والشمع والجلود المدبوغة والأصواف والزفت).

وقد تأكدنا من ذلك من خلال الفرمانات الهمايونية المثبتة فى دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٦٦/ ص ٢.

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ٧٢/ ص ٥٧٤. إلى أمير أمراء الجزائر خضر باشا حكم! ذكرت فى مكتوبك المرسل إلينا بأن المكان الذى أعطى للكفار الفرنسيين والمسمى بالباستيون والذى كان سابقاً محرماً عليهم أخذ بعض المواد الممنوع بيعها لهم، وإن الكفرة =

اعتمد أمير الأمراء خضر باشا على الرياس ضد الإنكشارية ، كذلك فإن الخلاف القائم بين القولوغلية والإنكشارية ازداد أكثر من قبل ، ونتج عنه حدوث فوضى واضطرابات غرقت المدينة من جرائها بالدماء لعدة شهور ، وأظهر الأهالي خلالها تصرفات استحقوا عليها اللقب الذي أطلق عليهم وهو الجبناء[1] .

لم يتدخل الأهالي كثيراً بالأحداث الجارية ، لكن سكان الضواحي (البرانيين) اتحدوا مع القولوغية ، ولو أن خضر باشا تصرف بعزم قوي ، لتمكن من حل أوجاقات الإنكشارية ، وتشكيل جيش وطني ، لكنه لم يفعل ذلك .

عندما كانت الواردات تزيد على مصاريف الصناجق ، كانت الأموال الزائدة ترسل إلى المراكز لتضم إلى ممتلكات الخزينة بالجزائر ، ولكن فيما بعد بدأ أصحاب التيمار والزعامت بالاستيلاء على الواردات الزائدة في صناجقهم ، وشيئاً فشيئاً بدأت أطماعهم تكبر وتتسع حتى اصبحوا يستولون على واردات الأهالي ، فقلت الواردات ولم يعد بإمكان خزينة الجزائر أن تغطي جزءاً يسيراً من مصاريف العساكر ، ولهذا فقد كتب خضر باشا إلى السلطان يستأذنه بإعادة الأموال إلى خزينة الجزائر كما كان الوضع سابقاً ، وإرجاع الواردات إلى خزينة مركز الولاية ، فهدده الجميع بالعصيان والتمرد إذا تم ذلك[2] .

لقد أصبح الإنكشاريون موفقين بدسائسهم وفتنتهم ، وحققوا من جرائها

= قاموا بملء سفنه بتلك المواد وأرسلوها إلى فرنسا ، وقد ذكرت أنهم خالفوا الشرع الشريف لذلك نأمركم بهدمها فى الحال ، وامنعهم من إحداث أى بناء جديد (١٨ شوال ١٠٠٣ هـ) .

(١) سبب تسمية الأهالى بالجبناء جاء ما يلى : بما أن قبيلة (بو ذرعة) هاجمت المدينة ، وتخوفاً من تكرار هجومها ونهب المنازل فقد طلبوا من الباشا السماح لهم بتشكيل جماعة لحراسة المدينة ، وفى إحدى الليالي المظلمة بالقرب من وادى المرسى كمنوا اللصوص والأشقياء ، وأثناء ذلك نبح كلب وهجم عليهم ، فخاف الجميع ورمـوا أسلحتهم هاربين ، فضحك الجميع منهم وغدوا مضرباً للمثل من الخوف حيث يقال (نبح الكلب فهرب الأهالى) نحن لا نوافق ما ذكره المؤلف عن الجزائريين ، فهم معرفون بالشجاعة والإقدام وركوب الأخطار . والتاريخ قديمه وحديثه يشهد برجولة الجزائريين وإقدامهم . (المترجم) .

(٢) دي غرامونت .

ما عجزوا عنه بالقوة، فقد اختلقوا فتنة بحق خضر باشا، وأعلموا إستانبول بأنه يريد القضاء على الإنكشارية وتشكيل جيش من الأهالي لإعلان استقلاله بالجزائر. وبنفس الوقت كان سفير فرنسا ناقماً على خضر باشا، فاستغل نقمة الإنكشارية عليه، وقدم هو الآخر شكوى ضده، فعزل من منصبه وعُين مكانه الوكيل السابق مصطفى بك ورُفع إلى مرتبة باشا سنة ١٠٠٥ هـ ١٥٩٦ م فأصبح بذلك أمير أمراء الجزائر، وكان أول عمل له هو استرداد الأموال التي أخذها منه خضر باشا، فأخذ منه ثلاثين ألف ليرة ذهبية بدلاً من خمس عشرة ألف ليرة ذهبية.

استمر القبليون في تمردهم وعصيانهم، ففي سنة ١٠٠٧ هـ ١٥٩٨ م قام القبليون المقيمون في جرجورة بتخريب ميتجة، وتمركزوا في حدائق باب عزون، وحاصروا المدينة مدة أحد عشر يوماً، فاضطر الإنكشاريون للتصدي لهم، وتمكنوا من إبعادهم قليلاً عن المدينة، وفي سنة ١٠٠٨ هـ ١٥٩٩ م عين مكان مصطفى باشا دلي حسن باشا أو (حسن بوريشه)، وبما أن مصطفى باشا لم يستطع القضاء على التمرد والعصيان الذي حدث في الولاية فقد سُجن في إستانبول[١].

عينت الحكومة الفرنسية دي فياس (de Vias) قنصلاً لها في الجزائر، وذلك من أجل إقامة الصلح مع الجزائريين، واسترداد بعض البحارة الفرنسيين الذين أسرهم الجزائريون. وكان حسن باشا من أنصار إقامة الصلح، وبما أنه لم يعد للباشوات أهميتهم السابقة. فإن الرياس أخذوا يختلقون حججاً وأسباباً عديدة كي لا ينفذوا رغبته. ولكي لا يصبح هو صاحب الكلمة الأولى في الجزائر[٢].

لقد سمح للفرنسيين بموجب العهود القديمة التجول في المياه الشرقية

(١) يقول غابرييل كولين فى كتابه رقم / ١٠/ صفحة ٢٩. أن الثكنة الموجودة فى شارع مده (Mede) مكتوب على بابها ثلاثة أسطر تتحدث عن مصطفى باشا، وذكر في كتابه رقم ١٧ الصفحة ٣١: أن مصطفى باشا انشأ ثكنتين، فكتب على الباب الأول تاريخ الإنشاء هو ١٠٠٥ هـ، وهذه الكتابة تؤكد أنها أنشئت في زمنه، في حين كتب على باب القلعة الداخلية فى الثكنة الثانية أن البانى هو مصطفى باشا.

(٢) دي غرامونت.

فقط، لكن الملك الفرنسي منح بعض الدول الصديقة له حق استخدام العلم الفرنسي وممارسة أعمالهم البحرية، فأرسل الجزائريون هيئة إلى فرنسا للاستفسار عن سبب إخلال الفرنسيين بذلك، لكن الفرنسيين لم يعطوا هذه الهيئة أي أهمية ولم يستمع أحد لأقوالها أو استفساراتها، ولدى عودة الهيئة إلى الجزائر شعر القراصنة بالإهانة، فقرروا الإنتقام من الفرنسيين، وأسروا السفن التابعة لولايتي بروفانس ولانغودك، وعندما اشتكاهم القنصل الفرنسي، انذروه بالسجن والموت.

تملك الفرنسيين قلق شديد من أمير أمراء الجزائر، فبدأ سفيرهم بالتوسل لدى الديوان الهايموني من أجل عزل حسن باشا، ونظراً لاضطراب أحوال الجزائر وكثرة الشكاوى المقدمة بحقه، عُزل وعين مكانه سليمان باشا سنة ١٠٠٩ هـ ـ ١٦٠٠ م وكان حسن باشا يلقب هو الآخر بالفندقلي.

عمل سليمان باشا على إرضاء الفرنسيين فأعاد إليهم بعض السفن والبحارة، وبعد فترة قصيرة، قدم شكوى ضدهم لأنهم أخلوا بالعهود والمواثيق المعقودة بينهم، كما استولوا على سفينة تركية سقطت بالقرب من سواحل عنتاب.

عانت الولاية الشيء الكثير بسبب الفوضى القائمة، ومما زاد الوضع تعقيداً الاضطرابات والقتال الدائرة في المناطق الداخلية، في حين تمتعت بعض المناطق الأخرى بالهدوء والاستقرار بسبب وجود إدارة محلية ناجحة تمكنت من حمايتها من الفوضى، وأبعدتها عن التحريضات الخارجية، فالإسبان في وهران كانوا على الدوام يعملون على تحريض القبليين ضد الحكومة الجزائرية، مستغلين القلق والاضطراب الذي يعانيه القبليون أنفسهم، إزاء ذلك قام سليمان باشا بإعداد حملة كبيرة لتأديبهم، لكنه هزم أمامهم سنة ١٠٠٩ هـ/ ١٦٠٠ م وتعرض في سنة ١٠١٠ هـ/ ١٦٠١ م إلى هزيمة أخرى في موقع جمعة الصهريج، فقد خلالها الكثير من قواته.

استغل أحد القباطنة الفرنسيين ويدعى روكسن، قيام غالبية الجيش الجزائري بمهمة جمع الضرائب، وخروج القراصِنة إلى الغزو، وقام بإجراء دراسة سرية لتحصينات الجزائر، وبعد أن أتم إعداد خطة للهجوم على الجزائر، عرضها على الملك الإسباني، وكانت الخطة على النحو التالي:

بعد تمكنه من دخول المدينة ليلاً سيوجه قوة لمهاجمة الميناء وقوة أخرى لمهاجمة باب البحر، ونظراً لقلة الحراس سيتمكن من السيطرة على القسم السفلي للمدينة، وخلال ذلك يتمكن من إطلاق سراح الأسرى المسيحيين والبالغ عددهم خمسة وعشرين ألف أسير، وبعد تسليح هؤلاء جميعاً، يوجه قسماً منهم إلى المخازن والعنابر لإشعال النار بها، فيحدث في المدينة اضطراب وإرباك شديدين، وفي هذه الأثناء تقوم السفن الإسبانية بالانقضاض على المدينة وتباشر بقصفها، ومع بزوغ الشمس تغدو مدينة الجزائر خالية من أي قوة.

درس الإسبان هذه الخطة، وعهد المجلس الملكي إلى أندريا دوريا تنفيذ الخطة، لكنه اختلق أسباباً عديدة بقصد التهرب وعدم تنفيذ الخطة، وبدأ يدخل عليها التعديلات إلى أن حولها إلى خطة هجومية، ووافقه المجلس الملكي على ذلك، فباشر بتجهيز قوة كبيرة، وقد اشتركت في هذه القوة جزر البليار، ونابولي وجنوه وصقلية وسردينيا[1].

لم يتمكن الإسبان من تجهيز الحملة في الوقت المحدد، بسبب تخوفهم من النتائج، وخاصة بعد أن علم الجزائريون بالخطة، واتخاذهم الاحتياطات اللازمة، وفي تموز تحركت السفن المعدة لمهاجمة الجزائر، ولكنها لم تصل حتى أيلول سنة ١٠١٠ هـ/ ١٦٠١ م وكانت القوة المكلفة بجمع الضرائب قد انتهت من مهمتها وعادت إلى الجزائر، وفي هذا الوقت يكون بداية موسم العواصف، لأنه من الصعب على الأسطول الإسباني إنزال قواته إلى البر، فعاد الأسطول الإسباني دون أن يحقق أي شيء، وتحملت إسبانيا مصاريف باهظة نتيجة لقيامها بحملة فاشلة. وعقب عودة الأسطول الإسباني، قامت خمسون سفينة جزائرية بضرب السواحل الإيطالية، فدمرتها بما فيها.

وبعد سنتين من فشل الحملة أي في سنة ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م قام أحد القساوسة بدفع أحد الثرثريين إلى والي جزيرة ميورقة لإقناعه بإعداد حملة ضد الجزائر وكان أحد الرهبان الفرنسيسكان ويدعى بير ماثيو قد بقي أسيراً

---

(١) كتاب التاريخ العمومي ج ٨ ص ٦٢٧، وهناك كتاب طبع في جنوه يتحدث بالتفصيل عن الحملة الفاشلة التي حدثت في نهاية سنة ١٦٠١ م.

لدى سلطان كوكو فترة طويلة، تعرف خلالها على الرياس، وغدا كأنه واحد منهم، وبعد إنقاذه من الأسر ادعى أنه فهم من الرياس ميولاً بتخليهم عن مرسى الفحم، كما أن عبدالله حفيد سلطان كوكو قبل التنازل عن الاستحكام المذكور مقابل ٥٠,٠٠٠ إيكو*، واتفق عبدالله مع المدافعين عن الاستحكام على اتخاذ (زيفون Zeffoun) نقطة تجمع لهم[1]. وأنه سيرسل ابنه رهينة كدليل على حسن نيته، وما أن علم والي ميورقة العام بهذه الأحداث التي نقلها إليه الثرثري حتى أظهر استعداده بتقديم كافة ما يلزم لذلك.

علم سليمان باشا بهذه الحيلة المدبرة، وتأكد من صحتها عندما لاحظ تودد القسيس للقراصنة وتقربه منهم، فاستدعاه إليه وهدده بالقتل والإعدام، فتظاهر القسيس أنه منسحب من ترتيب الخطة، ولكنه اتصل سراً بوالي ميورقة وحصل منه على خمسين ألف إيكو وأربع غاليات تحمل مائة جندي، وحالما وصلته القوة اتجه بها إلى المكان المتفق عليه، فوجد عبدالله بانتظاره، وحسب الاتفاق كان على القسيس تسليم النقود أولاً ومن ثم يقوم عبدالله بتسليمه ابنه رهينة وإخلاء الاستحكام المذكور، وحالما نزل القسيس إلى البر، سأل عبدالله عن ابنه فأجابه أنه موجود في الاستحكام، إلا أن القسيس شك بالأمر، فحاول الإنسحاب بمن معه، ولكسب الوقت أخذ يماطل بالحديث، ففهم القبليون مقصده، بعدما سئموا من المماطلة والانتظار، فانقضوا على القسيس ورجاله وقطعوا رؤوسهم، وأرسلوها إلى باشا الجزائر، وقد لاحظ قادة السفن أنهم انتظروا أكثر من الوقت المتفق عليه، اعتقدوا أنها حيلة مدبرة للإيقاع بهم فانسحبوا عائدين إلى ميورقة[2].

إذا كان خضر باشا قد حصل سنة ١٠٠٣ هـ ١٥٩٤ م على موافقة السلطان بهدم الباستيون والبرج والفنار مع البناء الذي أحدثه الفرنسيون

(* إيكو: Ecu ـ وقد أطلق هذا الإسم على الترس الفرنسي خلال العصور الوسطى. ثم استخدم اسم لنوع من العملة القديمة وكان يحمل على أحد الوجوه صورة ترس يمثل شعار فرنسا، وقد ضربت أول عملة منه بالذهب في عهد القديس لويس ملك فرنسا وذلك زمن الحروب الصليبية.

(١) تبعد عن دلسن ٤٧ كم باتجاه الشرق من ناحية البحر.

(٢) دي غرامونت.

هناك ، فإن سليمان باشا قرر اقتلاعه من جذوره ، لأنه أصبح مركزاً للفساد والجاسوسية ، فشن هجوماً على تلك المؤسسة ونهبها وخربها تماماً ، وقتل قسماً من الموجودين فيها ، ونقل الباقين أسرى إلى الجزائر ، وعندما احتج القنصل الفرنسي على تصرفه ، استدعاه إليه ووبخه توبيخاً قاسياً ، وكان سليمان باشا على علم بمطامع الفرنسيين ودسائسهم ، وقد لمس ذلك بوضوح تام ، ولهذا قرر التصدي لهم ، مع العلم أن إستانبول تقدس الفرنسيين وتعبدهم .

بعد وفاة السلطان محمد الثالث خلفه السلطان أحمد الأول ، فاستغل السفير الفرنسي هذه الفرصة ، وأعلم السلطان الجديد بما فعله الجزائريون ، وأنهم هدموا الباستيون واستولوا على بعض السفن الفرنسية ، وأهانوا القنصل واحتقروا الرعايا الفرنسيين ، وقد زاد السفير الفرنسي على الأحداث وأظهر للسلطان خطر الجزائريين إذا استمروا في ممارسة أعمالهم ، فقرر السلطان أحمد معاقبة الجزائريين وإرغامهم على دفع التعويضات ، وكلف الأرناؤوط مامي بذلك ، والغريب في الأمر أن السلطان أحمد الأول هدد بسحب كافة الأتراك من صنجق الجزائر ، وهذا خطأ فادح ارتكبه السلطان العثماني[1] .

علم الجميع بمقصد أرناؤوط مامي ، لذلك عملوا جميعاً على إفشال مهمته ، ولم يكن للإرادة السلطانية أي دور أو تأثير على سكان الولاية ، وبما أن سليمان باشا لم ينفذ رغبات السلطان عزله وعين مكانه خضر باشا للمرة الثالثة .

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره / ٧٧/ ص ١٦ . وقد تتضمن الرد السلطاني الموجه إلى الملك الفرنسي رداً على تبرير الملك الفرنسي له . التالي :

وصل تبريكم الشفهى مع سفيركم ، وأبلغنا مجمل مواد وصاياكم بالتفصيل ، وإن صداقتكم مع عتبتنا العلية دائمة ومستمرة ، وقد أمرنا بإعادة الباستيون كما كان قديماً وذلك تصديقاً على عهدنا السابق معكم ، وأشرنا إلى أتباعنا بإجراء ذلك بالسرعة القصوى ، وكنا قد كلفنا أرناؤوط مامى بذلك ، وأرسلنا سفينة إلى الجزائر للتحقيق بما حدث وما فعله سليمان باشا برعاياكم ، وما لحق بقنصلكم ، وفي حال إلتزامهم بأوامرنا فقد قررنا سحب حمايتنا منه ، وسنكلف عساكرنا بتأديبه ، كما طلبنا من مامي بك بذل ما لديه من همة لدفع ما لحق بكم من خسائر وأضرار ، وزودناه بفرمان خاص بهذا الشأن ، وإذا لم يتوصل إلى حل ذلك ، عليكم تنبيه رعاياكم بعدم الاختلاط والانقياد=

ازدادت أعمال القراصنة في تلك الآونة، وبلغت أقصى ازدهارها ونشاطها البحري، حتى لم تعد حكومة الجزائر ولا حكومة إستانبول بقادرتين على إيقاف سكان الجزائر عن ممارسة القرصنة بهذا العنف وهذه القوة، وكان خضر باشا أكثر طمعاً وجرأة على ممارستها خلال فترته الثالثة.

أمر الديوان الهايموني بدفع التأمينات عن الأضرار التي لحقت بالسفن الفرنسية من الخزينة العامرة، بعدما فشل في إجبار سليمان باشا أمير أمراء الجزائر السابق عن تحصيلها منه ومن القراصنة، وأرسل ستمائة قطعة نقدية إلى فرنسا كتعويض عن خسائرهم في الجزائر، لكن القراصنة هاجموا السفينة التي تنقل النقود إلى فرنسا، واستولوا عليها، فازداد غضب السلطان من عدم إطاعة سليمان باشا والرياس المنضمين إليه لأوامره وتجرأهم علانية على السفينة المتجهة إلى فرنسا، كذلك فإن هنري الرابع ملك فرنسا أعلم السلطان باعتداءات خضر باشا على الفرنسيين، فأمر السلطان مصطفى باشا بإعدام خضر باشا وعهد إلى كوسه محمد باشا بإمارة الجزائر[1].

قدم مصطفى باشا مأموراً إلى تونس، ومنها اتجه إلى الجزائر، وألقى القبض على خضر باشا وبعد خنقه صادر أمواله وأعادها إلى الخزينة العامرة في إستانبول، وتسلم كوسه محمد باشا إمارة الجزائر، وقد كتب على قبر خضر باشا (توفي في نهاية ذي الحجة سنة ١٠١٣ هـ)[2].

استمر الفرنسيون بتحريض البقية الباقية من الأندلسيين على الثورة ضد إسبانيا، وذلك بهدف اشغالها داخلياً، وفي نفس الوقت عمل الإسبان على وضع الخطط والتآمر لإضعاف الجزائريين وإشغالهم عن مساعدة الفرنسيين ولمنعهم من مهاجمة سواحلهم. كذلك فقد سعوا لإقامة العوائق كي لا يتمكن

= لمن يعصون أوامرنا من الرياس والطائفة. . . . وفى نهاية الفرمان تعرض السلطان إلى الخدمات التي قدمها سفيره القديم وحول الصلح مع البرتغال وعن غزو إيران (١٤ ذي الحجة ١٠١٣ هـ).

(١) كتاب العرب والأتراك في الجزائر ج ١ ص ٣ (هناك كتب كثيرة لم يذكر المؤلف أسماء مؤلفيها، فاضطررنا إلى الإلتزام بحرفية الترجمة كما ورد) (المترجم).

(٢) كتب على القبر الموجود في جامع سيدي عبد الرحمن: هذا قبر المرحوم بكرم الله المغفور برحمته خضر باشا غفر الله له توفى في آخر ذى الحجة سنة ١٠١٣ هـ. غابرييل كولين ج ١ ص ٣٢. (الكتاب رقم ١٨).

الفرنسيون من إقامة مؤسسات تجارية لهم في الجزائر، كما عملوا على إزالة ما تبقى للفرنسيين من مراكز تجارية في شمال إفريقية، وكان هنري الرابع يخجل من طلب مساعدة الجزائريين له لأنهم احتقروا قنصله، مع العلم أن المسألة مرت بسلام.

وكان الدوق دي كومون لا فورس (Dük Gemon de La Fors) قد كلف قبل أربع أو خمس سنوات بإقامة إتفاق مع الأندلسيين الموجودين في إسبانيا، وبعدما رسم خطة واتفق مع الأندلسيين عرض خطته على الملك الفرنسي ما اتفق عليه مع الأندلسيين لإثارة الشغب والفوضى داخل إسبانيا بالرغم من عدم رغبة أهالي فرنسا بذلك، ووافقه الملك الفرنسي على خطته، وأصدر أوامره بالعمل لتحقيق ذلك، في حين انصرف الدوق لإتمام الموضوع وإعداده للتنفيذ، وكان كبار الأندلسيين قد حددوا معه الوقت النهائي لإعلان الثورة، ولكن أحد الرجال الذين أرسلهم الدوق وقع بخطأ ما، فألقى الإسبان القبض عليه، وعلى الرغم من العذاب الذي أودى بحياته، فإن الإسبان لم يتمكنوا من معرفة أي شيء سوى أنهم شددوا المراقبة أكثر على الأندلسيين.

كان الأندلسيون بحاجة ماسة إلى السلاح وأصحاب الخبرات القيادية، وأعلنوا أنهم مستعدون للاستيلاء على مملكة فالانس فور تأمين ذلك لهم، كما أنهم سيتمكنون من إعلان التمرد والعصيان في بقية المناطق الأخرى، لأنهم يملكون طاقة بشريَة تقدر بثمانين ألف رجل، وهذا يؤكد قدرتهم على تسليم الفرنسيين ثلاث مدن بكل سهولة، وقد قرروا اتخاذ موقع دانية Denia نقطة لإنزال القوات وتجمعها، وكان المسيو بانيسولت (Panissault) قد أظهر على الخارطة التي أحضرها مخازن الأسلحة والأرزاق ونقاط الاستحكام، وحالما قدمها للملك الفرنسي سُر بذلك كثيراً، وفي سنة ١٠١٣ هـ/ ١٦٠٤ م قدمت هيئة من الأندلسيين إلى فرنسا لتأجيل هذا العمل، لأنهم سيطلبون من الأسطول الجزائري تأمين الحماية لهم من جهة الساحل، إضافة إلى منع الإسبان من نقل الإمدادات إلى سكان المنطقة عن طريق البحر، وإعادة أولادهم الذين هاجروا قبلاً إلى إفريقية، لتكليفهم ببعض المهام.

وقبل أن يقسم المارشال دو فرانس dö Frans اليمين بصفته قائداً للأسطول بيوم واحد فقط، قُتل هنري الرابع مطعوناً بخنجر في رافياك (Ravaillac) وتخلصت إسبانيا من خراب كبير ومحتم، ومع ذلك فقد كان فيليب الثاني على علم بتلك المباحثات، وبناءً على ذلك فقد أصدر أمراً بتهجير الأندلسيين نهائياً من إسبانيا، ولم يجد الأندلسيون وسيلة سوى الاستعداد والتهيؤ لمغادرة إسبانيا.

- ٣ -
عهد الباشوات

كوسه محمد باشا ـ هجوم التوسكانيين على الجزائر ـ الباستيون والأسرى ـ مصطفى باشا ـ هجوم فرسان القديس يوحنا ـ تشتت الفرنسيين بمرسال الفحم ـ حادثة سيمون دانسا ـ قطع العلاقات مع الفرنسيين ـ كوسه مصطفى باشا ـ تمرد القبليين ـ احتلال كوكو ـ فرسان القديس يوحنا مرة ثانية ـ الجفاف ـ إخراج المهجرين الأندلسيين ـ الشيخ حسين باشا ـ كوسه مصطفى باشا ـ قطانلي سليمان باشا.

قبل قدوم كوسه محمد باشا إلى الجزائر بعدة شهور، كان دوق توسكانيا (توسقانية) قد أعد هجوماً بحرياً بغية إحراق السفن الموجودة في ميناء الجزائر، وبما أن اليهود كانوا يشترون من القراصنة الأشياء التي كانوا يغتنمونها بأسعار رخيصة، ويحققون من ورائها أرباحاً طائلة، لذلك ارتبطوا مع القراصنة بمصلحة المنفعة والفائدة، وكان يهود ليفورن على علم بهذا الإجراء المعدّ والمهيّأ من قبل التوسكانيين، لذلك أخبروا القراصنة، فاستعد الرياس لمواجهة الهجوم، وأخذوا كافة الترتيبات اللازمة، ولم يتمكنوا إلا من إحراق بعض السفن الخفيفة[١].

كان محمد باشا صاحب نية حسنة، لكن المسيو كاستلان M - dö Kastellan الذي قدم إلى الجزائر من أجل إعادة بناء الباستيون واسترجاع الأسرى كان متعجرفاً، ولهذا فشل في مهمته، كما أن الإنكشاريين كانوا قد

(١) دي غرامونت.

تعاهدوا فيما بينهم على قتل كل من يحاول إعادة بناء الباستيون ثانية، وعندما لم يتمكن الفرنسيون من الحصول على أي فائدة، فلجأوا إلى تقديم الشكاوى إلى إستانبول، فأرسلت إستانبول السفير الفرنسي دو بريف dö Breve إلى الجزائر برفقة رئيس البوابين مصطفى آغا ومعه فرمان همايوني، يأمر الجزائريين بالتقييد بأحكام الإتفاقيات وإعادة الأموال وجميع ما يرغبه الفرنسيون.

وكان المسيو دو بريف مع القابجي باشي (رئيس البوابين) قد ذهبا أولاً إلى تونس، وحلا فيها بعض المشاكل، وأنقذا عدداً من الأسرى الفرنسيين ولدى قدومهما إلى الجزائر قُرىء الفرمان في الديوان، ولدى معرفة مضمونه قامت الثورة، وعزل الديوان الآغوات الذين أبدوا طاعتهم للفرمان، وطردوا مصطفى آغا خارج المدينة نزولاً عند رغبة الجميع، ووجهوا المدافع على سفينة السفير الفرنسي، وأخذ مصطفى آغا يتوسل للسفير للإسراع بالفرار والعودة، وكان وراء هذه الأعمال المفتي وصهر خضر باشا محمد باشا، لأن كلاهما يرغبان بالإنتقام من الفرنسيين، ولم يكن محمد باشا من أنصار طرد القابجي باشي والسفير، ولدى إفصاحه عن رغبته هذه، تحول غضب الإنكشارية عليه، فحاصروا قصره وكان كوسه محمد باشا رجلاً مسناً يبلغ من العمر ثمانين عاماً، لكنه كان عاقلاً وحكيماً يعالج الأحداث بصلابة وقوة، وإن تجربته في الحياة دفعته للمقامرة بحياته إكراماً للسلطان، وأخبرهم بأنه لن يفعل شيئاً مخالفاً لأوامر السلطان(١).

وفي هذه الأثناء وصل الريس مراد، وكان القراصنة والرياس يحترمون ويقدرون هذا القرصان المسن الذي قضى ستين سنة يتجول في البحار، ولم تنجُ ملـه من الملل من غزواته، وتمكن الريس مراد من إخماد العصيان وإيقاف الثورة، لكنه لم يتدخل بشأن إعادة الباستيون من جديد، وقد اشترط الجزائريون على السفير الفرنسي إطلاق سراح الأسرى الأتراك الموجودين في مرسيليا أولاً ومن ثم إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين، وعاد السفير الفرنسي دون أن يحقق شيئاً من رحلته إلى الجزائر.

---

(١) دي غرامونت.

عقب هذا الهيجان والانفعال الكبير بفترة قصيرة توفي الباشا المسن سنة ١٠١٤ هـ الموافق ١٦٠٥ م وخلفه على الولاية الوزير مصطفى باشا بصفة محافظ عليها .

عمل مصطفى باشا على تقوية الحصون وزاد في بناء الاستحكامات تحسباً من شن هجوم مفاجىء من قبل الإسبان ، وفي سنة ١٠١٥ هـ/ ١٦٠٦ م توجه إلى وهران محاطاً بالجنود والأهالي ، لأن الجزائريين منذ سنوات لم يتعرضوا لوهران ، وكان الإسبان خلال هذه السنة قد قاموا بمهاجمة المناطق المجاورة لوهران ونهبوها ، كما وفقوا في إخضاع قبيلة بني عامر لسيطرتهم ، وكان والي وهران د. را ميرسذ (D, Ra Miresz) قد توغل في المنطقة توغلاً رهيباً ، فاندفع الأهالي إلى قمم الجبال هاربين من بطشه وفتكه ، ومنعهم من القدوم حتى إلى الجوامع لأداء الصلاة ، ولم يتمكن الأهالي من النوم إلا بعد أن وضعوا مناوبين في الطرف المواجه لمدينة وهران ، ومراقبة خروج الإسبان بحملاتهم ، كذلك فقد لجأ الإسبان لتكليف اليهود بجمع الضرائب من القبائل المجاورة ، ولتذليل العرب وإحتقارهم سمحوا لليهود باستخدام الأسرى المسلمين كعبيد لديهم* .

لم يوفق مصطفى باشا في هجومه ، فعاد منسحباً ، وقد واظب باستمرار على مهاجمة القبائل المتمردة ، وأجرى مباحثات مع الأهالي المدافعين عن موقع جمعة الصهريج ، وتمكن من كسبهم إلى صفه بعدما وعدهم بالمال وإعفائهم من الضرائب ،فانضموا إليه وتمركز مع قواته في جمعة الصهريج ، واتخذ كافة الترتيبات التي تضمن بقاءه هناك .

منذ ثلاث سنوات والوباء يفتك بمدينة الجزائر، ومن ثم انتقل إلى جنوب فرنسا ، وقد نتج من جرائه تعرض الولاية إلى الجوع والفقر، وازدادت

(*) يؤسفنى جداً تعصب المؤلف هذا التعصب ، ولا شك فإن القارىء سيلمس ذلك بوضوح . فقد نسب كل الانتصارات التي حققها أبطال الشمال الإفريقى إلى ابناء جلدته الأتراك ، وأحياناً إلى البربر ، وتجاهل عن قصد دور الجزائريين والتونسيين والطرابلسيين ، وهو يعلم جيداً أن العنصر القومى لم يكن له اى دور او وجود وكان الرباط الدينى هو الرباط الحقيقى لسكان الشمال الإفريقى ، فالذل والاحتقار ينسبه للعرب والشجاعه والشهامه للأتراك ، وهو يعلم أن الإسبان يكنون الحقد والكراهية للأتراك ، ولو التزم سمة العنصر لكان أفضل بكثير . (المترجم) .

شكاوى الجزائريين ، فاستُدعى مصطفى باشا إلى إستانبول وعُيّن مكانه رضوان باشا .

وفي ۳۰ تموز سنة ۱۰۱۷ هـ ـ ۱٦۰۷ م شن فرسان القديس يوحنا هجوماً على الجزائر بقيادة سيليو بيكو لوميني (Silivo Pico Lomini) وكانت حملته تتألف من تسع قاليوطات وخمس سفن نقل مع مائتي جندي من المشاة إضافة إلى عدد من المتطوعين ، وقد باشر تحركه من مدينة ليفورن (Livorn) واتجه بقواته إلى مدينة بون (عنابه) ، ولم يكن حراسها يتجاوزون مئتين وخمسين جندياً .

وصل لوميني بون في السادس عشر من آب وعلى الفور هاجمها ، وتمكن من دخول المدينة بدون قتال ، لأن الحراس والأهالي هربوا إلى القلعة وأغلقوا الأبواب عليهم . وأخذ الطرفان يتبادلان إطلاق النيران ، وفي هذه الأثناء قدم الإستانبولي محمد بك بن فرحات لمساعدة الأهالي ، لكنه هُزم وقُتل أثناء الهزيمة ، وتمكن فرسان إيتان (القديس يوحنا) من أسر ألف وخمسمائة شخص مع مصادرة أموالهم ، وبعدما نهبوا المدينة ، أضرموا النار فيها ، وتركوها عائدين إلى بلادهم .

كان الإنكليز يحاولون إنشاء مراكز تجارة لهم في إستورة والقال إسوة بالمراكز التجارية الفرنسية ، وحصلوا على الموافقة سنة ۱۰۱٦ هـ/ ۱٦۰۷ م ، لكنهم فشلوا في كسب الأهالي لصفهم بغية ضرب المراكز التجارية الفرنسية وشلها .

وفي سنة ۱۰۱۷ هـ/ ۱٦۰۸ م اتفق الفرنسيون مع القبليين من أجل ضم مرسال الفحم إليهم ، وبما أن الأتراك هم حكام البلاد ، وإن هذا الأمر مرتبط مباشرة بهم ، ولدى سماعهم بهذا الإتفاق أرسلوا قوة إلى هناك ، وتصدوا للفرنسيين وخاب أمل الفرنسيين من ذلك .

وعندما علم الفرنسيون بأن الجزائريون بدأوا باستخدام أسراهم كمجدفين في سفنهم ، فقدوا الأمل باستعادتهم ، ولم يجدوا وسيلة تضمن لهم إعادة أسراهم إلا بإطلاق سراح الأتراك الموجودين في مرسيليا . وبهذه الوسيلة تمكنوا من إنقاذ أسراهم ، وتلى ذلك فترة هدوء واستقرار بين الطرفين .

بقي عدد من الإنكشاريين لم يتقاضوا رواتبهم ، واعتقد هؤلاء أن مصطفى باشا المعزول سيذهب دون أن يدفع لهم معاشاتهم ، فاندفعوا لنهب ما لديه من أموال وأشياء[1] ، وعندما قدم رضوان باشا ولطمأنة الإنكشارية ، كلف الكاخيا بدفع عشرة آلاف قرش ، كما اتُفق على أن يدفع مصطفى باشا الرواتب المتبقية .

وافق السلطان أحمد على الإجراء المتخذ ، وأمر مصطفى باشا بدفع عشرة آلاف فقط ، شريطة أن تُعاد إليه كافة الأموال والأشياء التي أخذها الإنكشاريون ، فأمر الباشا بحفظها ، وأرسل الكاخيا مع الآغوات سوية إلى إستانبول[2] .

لم يعد مصطفى باشا إلى إستانبول ، وانشغل بالدعاوى التي قدمها بهدف إعادة أمواله المنهوبة ، فالإنكشاريون العاملون بالزراعة كانوا يدفعون العشر مثل بقية الأهالي ، وقد صدرت أوامر بوضع إشارة على قيود الإنكشاريين الذين تمنعوا عن الدفع ، وأن تحسم الضريبة من رواتبهم ، وقدم مصطفى باشا شكوى إلى السلطان بحق رضوان باشا لأنه دفع الرواتب للإنكشاريين دون أن يحسم العشر منهم ، وبما أن رضوان باشا مجبر على تسديد ذلك ، لذلك فقد لحقه ضرر كبير من جراء ذلك ، فعشر الواردات مختلط مع رواتب الإنكشارية التي دفع رضوان باشا قسماً كبيراً منها كرواتب للإنكشارية ، وعلاوة على ذلك فإن رضوان باشا استولى على عشر المأكولات أيضاً ، وقد أعلم مصطفى باشا إستانبول بكافة الإجراءات التي اتخذها رضوان باشا ، فكلف السلطان قاضي الجزائر بحل هذه المسألة ، وطلب منه إعادة الرواتب التي دفعت زيادة إلى الإنكشارية وإعطائها إلى مصطفى باشا[3] .

لجأ رضوان باشا إلى اتباع طريق الرشاوي ، وتطاول كثيراً على أموال الميري ، لذلك عُزل من أمرة أمراء الجزائر في منتصف سنة ١٠١٩ هـ؛ وأمر السلطان قاضي الجزائر بمحاسبة رضوان باشا وإجباره على دفع المعاشات

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ٧٨/ ص ٨٢٠ (٣، صفر ١٠١٨ هـ).

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ٧٨/ ص ٨٢٠ (٢٣ صفر ١٠١٨ هـ).

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ٧٨/ ص ٨٢٠ (٢٣ صفر ١٠١٨ هـ).

للعساكر مع أخذ جميع حقوق الرعايا التي بذمة رضوان باشا وعين خلفاً له كوسه مصطفى باشا أمير للأمراء للمرة الثانية[1].

انضم هواة الأحداث والأعمال البحرية والأجانب الباحثون عن الغنى السريع إلى صفوف البحارة الجزائريين، ونتيجة للشهرة التي كسبوها في مجال البحار والقرصنة وكان أكثر من حصل على شهرة كبيرة من بين هؤلاء الهواة (إدوارد) و(أوفرت) و(يشيلو صوليمان) و(سامسون) و(سيمون دانسا)[2].

كان سيمسون دانسا فلندي الأصل، قدم إلى الجزائر سنة ١٠١٥ هـ ١٦٠٦ م لممارسة أعمال القرصنة، وقد حالفه حظ كبير، فقد تمكن بأقل من ثلاث سنوات من الاستيلاء على خمسين سفينة، علاوة عن الأشياء والتحف التي غنمها، فكسب شهرة عظيمة، وقد استفاد الجزائريون من الأجانب، فقد تعلموا كيفية المناورة مع السفن ذات الأبراج العالية والتي تسمى السفن المدورة.

عمل سيمسون دانسا جنباً إلى جنب مع قراصنة الجزائر، وكانت طائفة الرياس تريده أن يعلن إسلامه، لكنه رفض ذلك، وأصر الاحتفاظ بدينه، علماً بأن قسماً كبيراً من أمثاله قد تخلو عن دينهم، ويعود سبب ذلك إما لإيمانه القوي، وأما تحسباً لعودته في يوم من الأيام إلى زوجته الموجودة في مرسيليا، ومهما كان الأمر فقد تأكد للرياس بأن سيمسون دانسا قام بمراجعة الملك الفرنسي سنة ١٠١٨ هـ/ ١٦٠٩ م واستفسر خلالها عن كيفية حصوله على العفو نظراً للأعمال البحرية التي قام بها، وحصلت معه حادثة ضمنت له تأمين العفو بسهولة.

ففي كانون الثاني سنة ١٠١٧ هـ/ ١٦٠٨ م استولى دانسا على سفينة إسبانية، كان يداخلها عشرة قساوسة يسوعيين، وقد باع هؤلاء بالمزاد العلني، وكان القسيس هنري الرابع قد استرحم الملك كثيراً لإنقاذهم، وبما أن دانسا قد راجع الملك من أجل العفو، لذلك فقد أعطاه الملك وعداً بالعفو إذا أعاد

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ٧٩/ ص ٢٤ (٢٦ صفر ١٠١٩ هـ).

(٢) فور بيكه ص ٣٣١.

القساوسة العشرة، فأسرع سيمسون دانسا لاسترجاع القساوسة من أصحابهم الجدد، وقال للرياس بأنه ذاهب إلى كورسيكا، لكنه توجه إلى مرسيليا، وسلم نفسه للحكومة الفرنسية فعفا عنه الملك بعدما سلم القساوسة العشرة، كذلك فقد سلم إلى والي مرسيليا الدوق ذي غيز Dük dö Gize مدفعين من البرونز بغية ضمان حماية قوية له[1]. هذان المدفعان استعارهما من الجزائريين بحجة إكمال تسليح سفينته.

أيقظ فرار دانسا الجزائريين من غفوة الثقة بالأجانب المنضمين إليهم، كذلك فقد أثارت سرقته للمدفعين الغضب لدى سكان الجزائر قاطبة، وعلى الفور طلب الديوان من الملك الفرنسي إعادة المدفعين ومعاقبة المجرم، لكن القصر الملكي لم يعطِ أي أهمية لهذه المسألة بحجة أنها حادثة عادية، لكنها بالنسبة للجزائريين حادثة كبيرة وخطيرة، وقد نتج عنها قطع العلاقات مع فرنسا نهائياً، واشتد العداء بين الطرفين، وتعرضت المراكز التجارية الفرنسية في الجزائر والتجارة الفرنسية الرئيسية إلى خسائر فادحة تقدر بملايين الليرات.

استغل الرياس هذه القطيعة، واعتبروها فرصة ذهبية لتحقيق أحلامهم وأمانيهم، فباشروا بممارسة نشاط بحري واسع ضد فرنسا، وأصبح لدى الجميع هوس كبير لقيادة السفن وممارسة الغزو، وحتى النساء بعن مجوهراتهن للمشاركة بحصة من الغنائم، وانتشرت سفن القراصنة في البحر إلى حد يصعب فيه تحديدها، وتعتبر هذه المرحلة من أغنى وأنشط المراحل البحرية التي شهدتها الجزائر، ففي اليوم الواحد كان يدخل إلى ميناء الجزائر أربع أو خمس سفن كغنائم.

وفي الوقت نفسه قلما شهدت الجزائر الفوضى التي سببها الإنكشاريون، وغدت الفوضى وعدم النظام وكأنها شرط أساسي من شروط الأوجاق، ولم يكن سفراء وقناصل الدول الأوربية وحدهم الذين تعرضوا لهذه الفوضى، وحتى السلطان العثماني في إستانبول غدا في حيرة من ذلك. وأصبح الممثلون الذين أرسلهم السلطان إلى ا' جزائر لإنقاذها من الفوضى

---

(١) فور بيكه.

عاجزين عن إنقاذ أنفسهم منها[1].

وكان مصطفى باشا من أنصار فكرة مواجهة فرنسا والتصدي لها، علماً بأنه كان قد قدم الشكر للملك الفرنسي هنري الرابع بسبب تقديمه المساعدة لإنقاذ المسلمين في إسبانيا، لكنه كان صاحب نية حسنة وضعيف الشخصية.

في سنة ١٠١٩ هـ/ ١٦٠٩ م كان خروج الدفعة الأخيرة للمسلمين الأندلسيين من إسبانيا، وحينما بلغ هؤلاء السواحل البربرية، كانوا بحالة سيئة جداً، وأصبح الأندلسيون الذين نزلوا بجوار وهران ضحية للأشرار من قبيلة هبره، حيث قام أشرار هذه القبيلة ببقر بطون هؤلاء المساكين بحثاً عن المجوهرات[*].

أما الذين قدموا الجزائر فقد رحب بهم السكان ترحيباً عظيماً، وكذلك فإن الأندلسيين الذين اتجهوا إلى تونس، استقروا فيها وأمنّوا لأنفسهم السعادة والهدوء، لأنهم كانوا مزارعين جيدين، ويمتلكون مهناً جيدة كسبوا من ورائها حق التوطن والجنسية[2].

وفي هذه السنة بدأ الزواويون بالتمرد والعصيان، فاستولوا على متيجه وخربوها، فأجهز الباشا عليهم وتمكن من تفريقهم وطردهم، ومنذ سنة ١٠١٦ هـ/ ١٦٠٦ م انتشر الأتراك في كل منطقة من مناطق القبليين الجبلية، واحتلوا كوكو مركز القبليين، وقد سر الأهالي من ذلك، لأن الأمن والاستقرار استتب في كافة مناطق الجزائر.

وفي ١٦ آب ١٠١٩ هـ/ ١٦٠٩ م هاجم فرسان سان إيتان (Sen Etiyen) (القديس يوحنا) مدينة الجزائر واستولوا على سفينة جزائرية بالقرب من الحصن، وفي مساء اليوم التالي انزلوا بحارتهم إلى برسك Bresk وقتلوا حراسه، وقاموا بنهب وإحراق البلدة، ولم ينجُ من هذا الخراب والدمار أي قسم من الأقسام حتى المناطق المهدمة منها وبنفس الوقت قام التوسكانيون

---

(١) دي غرامونت.

(*) إن ما ذكره المؤلف بحق قبيلة هبره، مشكوك بصحته، إضافة إلى ذلك فلم يذكر أي ساحل تقطن هذه القبيلة، وقد راجعنا عدة مصادر، إلا أننا لم نعثر على مصدر يتعرض لذكر هذه القبيلة بتلك الصفات التي ذكرها المؤلف. (المترجم).

(٢) فور بيكه.

بمهاجمة جيجل واستولوا على ثلاثة سفن، وانسحبوا إلى بلادهم دون أن يتعرضوا لأي مقاومة تذكر.

استمر الجفاف على البلاد خلال سنتي ١٠٢٠ هـ/ ١٦١١م و١٠٢١ هـ ١٦١٢ م ونتج عن ذلك قحط شديد، ومجاعة مدهشة إلى حد غدا السكان لا يجدون ما يأكلونه، ولهذا فقد طلب من الأندلسيين مغادرة البلاد، فخرج قسم منها، أما القسم الآخر فلم يستطع الذهاب بسبب فقره وضيق حاله، وأصبحت حالة الأهالي سيئة جداً.

وفي سنة ١٠٢٢ هـ ١٦١٣ م أسندت أمرة الأمراء إلى الشيخ حسين الشيخ، وتذكر بعض الروايات أنه قام بجر المياه إلى المدينة من التلال القريبة من المدينة، وعلى الرغم مما تعرضت إليه البلاد من قحط ومجاعة، فقد استمر الصراع بين الجزائريين والفرنسيين، وبما أن سكان مرسيليا كانوا أكثر المتعرضين لهجمات القراصنة، وخاصة من الناحية التجارية، وحينما اشتد الخناق عليهم، قرروا التخلص من هذا الوضع، بعدما لمسوا أن حكومتهم لن تفعل شيئاً، فجمعوا الأموال من الضرائب الجديدة التي فرضوها على أنفسهم، وجهزوا عدة سفن وأسندوا قيادتها إلى بيوليه (Beaulie) وفينجغورا (Vinciguerra) وأمثالهم من القباطنة، وكلفوهم بالتصدي لقراصنة الجزائر.

كذلك فقد تحرك الجنويون لنفس الغرض، وتمكن الطرفان من تحقيق بعض النجاحات البسيطة، لكن قوة الجزائريين كانت أكبر منهما، بحيث عجز هؤلاء حتى عن إعاقة الجزائريين في ممارستهم للنشاط البحري أو حتى التأثير على الأسطول الذي انطلق فاتحاً أشرعته وسط البحار، وبحارته يرددون الأناشيد.

وفي سنة ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦ م بلغت خسائر السفن الفرنسية المجهزة ما يعادل ثلاثة ملايين ليرة ذهبية[١].

رد باشا الجزائر على الشكاوى الفرنسية، بأنه من غير الممكن إقامة صلح إلا بعد إعادة المدافع التي أخذها دانسا والأسرى الأتراك الموجودين في مرسيليا، فالأسرى المطالب بهم كانوا من طواقم سفينتين سقطتا في

(١) دى غرامونت.

سواحل لانكود، ولم يوفق الحاج الشاويش المرسل من قبل إستانبول في التوصل إلى حل يرضي الطرفين.

إذا كان كوسه مصطفى باشا قد عين سنة ١٠٢٦ هـ/ ١٦٠٧ م أميراً على الجزائر للمرة الثانية فإن مدته كانت قصيرة، وخلفه قطانلي سليمان باشا[١].

أظهر سليمان باشا منذ الوهلة الأولى رغبته بعدم التعامل مع الإنكشاريين أو تقديم أي خدمة أو تعاون معهم، ولهذا رفضوا السماح له بدخول الديوان، وفي هذه الأثناء كان أخو القنصل الفرنسي فياس (Vias) قد أحضر أربعين أسيراً تركياً، كانوا أسرى في فرنسا، وبما أن هؤلاء الأسرى لم يكن بمقدورهم تحرير أنفسهم، فقد اضطرت بلدية مرسيليا لشرائهم من أصحابهم، وأرسلتهم إلى الجزائر.

وفي سنة ١٠٢٦ هـ/ ١٦١٧ م أطلق الفرنسيون سراح الأسرى الأتراك، فعاملهم الجزائريون بالمثل، فأطلقوا سراح أسراهم، لكن الإنكشاريين كانوا مصّرين على عدم إنشاء الباستيون ثانية، فلجأ الفرنسيون لاحتلاله مرة ثانية باسم الدوق دي غيز، ولدى سماع الإنكشاريين بذلك، قرروا شن هجوم مفاجىء عليهم، وفعلاً هاجموا الفرنسيين الموجودين في الباستيون وقتلوا كل من عثروا عليه، ولكنهم أحضروا الرياس الفرنسيين وقيدوهم بالحديد، وأبقوهم مدة سنتين مقيدين بالحديد، ولم يستطع سليمان باشا أن يفعل شيئاً، لأنه كان يرتجف خوفاً ورعباً من الإنكشاريين.

قام الرياس بمهاجمة جزر المدار وأسروا منها ألف ومائتي شخص وغنموا أشياء كثيرة، وحتى قاموا بفك أجراس الكنائس وأحضروها معهم إلى الجزائر، وعلى أثر ذلك أقيمت الأعراس في مدينة الجزائر، أما القنصل الفرنسي فياس فقد قدم شكوى إلى إستانبول بواسطة سفيرهم، وبناءً على إلحاح السفير الفرنسي عزل سليمان باشا سنة ١٦١٧ م وعين مكانه الشيخ حسين باشا أمير أمراء الجزائر للمرة الثانية[٢].

---

(١) إذا كان بعض الباحثين يذكرون بأن هذا الشخص هو قطانلي مصطفى باشا، فإن القنصل الفرنسي أنذاك فياس أكد في رسائله أنه سليمان باشا، وإثبات ذلك موجود في الغرفة التجارية الفرنسية في مرسيليا ـ مخزن الأوراق تحت الرقم (A. A. Art. 460).

(٢) دي غرامونت.

- ٤ -

عهد الباشـوات

الشيخ حسين أمير أمراء الجزائر للمرة الثانية ـ تمرد القولوغلية ـ فرنسا تعرض الصلح ـ توقيع الصلح ـ الخوجة شرف باشا ـ مدفعا دانسا ـ الريس رجب ـ استشهاد الهيئة التركية ـ الغليان فى الجزائر ـ الانقلاب ـ الحرب مع فرنسا ثانية ـ الإنكليز والهولنديون ـ خضر باشا ـ الوباء ـ وحشية القبطان لامبرت ـ تعيين ثلاثة أمراء خلال خمس سنوات ـ قضاء خسرو باشا على العصيان ـ سانسون نابلون ـ حسين باشا ـ توقيع الصلح ـ إنشاء الباستيون من جديد ـ الحركات الوحشية للفرنسيين ـ مقابلة الرياس ـ يوسف باشا.

عندما قدم حسين باشا للمرة الثانية إلى الجزائر، كانت غارقة بالفوضى والاضطراب فالعداء كان سائداً ما بين البحارة والإنكشارية والقولوغلية، فقبل عدة شهور توفي رئيس كوكو السيد عامر القاضي، وحل مكانه أخوه أحمد بن كتوش، وقد بدأ عهده بإقامة الدسائس مع الإسبان[1].

لم يكن ابن أخ أحمد بن كتوش راضياً عما يفعله عمه، ولهذا فقد أفسد عليه خطته، فاتصل بالأتراك وأرسل الهدايا والرهائن لهم ودخل بحمايتهم، وبعد مدة قصيرة أتُهم القبليون بالاستعداد على التمرد والعصيان وبالإتفاق مع القولوغلية، وقدموا إلى محكمة المدينة وأعُدم زعماؤهم، وعندما تأكد الأهالي بأن القولوغلية اشتركت فعلاً بهذا العمل، قاموا بنهب أموالهم

(١) دي غرامونت.

وطردوهم من المدينة ، وحُذر القولوغلية من دخول المدينة[1] .

وعندما شاهدت الحكومة الفرنسية أن تجارتها بدأت تتعرض للخطر والإنهيار ، أخذت تسعى لإعادة علاقتها مع الجزائر التي انقطعت منذ سنة ١٦١٠ م ، ومن أجل ذلك كلف قنصلها شو (Se) بالتفاوض مع الجزائريين ، في حين كان الدوق دي غيز في مرسيليا وطولون يستعد لتسليم عين الجبل ، وكان الرياس قد أرسلوا كنان آغا ، ورضوان باشا إلى فرنسا للإتفاق ووضع شروط المصالحة بينهما[2] . وبعد الإتفاق على شروط الصلح ، ذهبوا مع الدوق دي غيز لمقابلة الملك الفرنسي الموجود في مدينة تور (Tur) ووقعت المصالحة سنة ١٠٢٩ هـ/ ١٦١٩ م ، وكتبريك على هذا الصلح قدمت الدولة العثمانية بعض الامتيازات للفرنسيين ، وكان من أولى شروط المصالحة : إطلاق سراح الأسرى من قبل الطرفين .

وفي الثامن والعشرين من تموز سنة ١٠٢٩ هـ/ ١٦١٩ م وصل إلى الجزائر أمير الأمراء الجديد الخوجه شرف باشا[3] . وكان شرف باشا من أنصار إقامة الصلح مع الفرنسيين ، لأن تعيينه كان بتأثير السفير الفرنسي جيسي (Cesy) وعادت الهيئة الجزائرية الموجودة في مدينة تور إلى مرسيليا محملة بالهدايا ، وأمر المسيو موستير (Moustier) بنقل الإتفاقية إلى ديوان الجزائر للتوقيع عليها . وكان سيجمع الأسرى الأتراك الموجودين في مرسيليا لنقلهم إلى الجزائر ، ولكن جمع الأسرى ليس بالأمر السهل ، لأن قسماً منهم يعمل بالغاليات الفرنسية الموزعة على عدة موانىء ، وإن قسماً من هذه الغاليات لا تزال في البحر ، والقسم الآخر يقضي شتاءه في الموانىء البعيدة ، وبغية جمعهم فإن الأمر يتطلب إرسال الخبر إليهم وانتظار الغاليات المبحرة ، إضافة إلى ذلك فإن الفرنسيين إذا سلموا الأسرى الجزائريين فإنهم سيواجهون نقصاً كبيراً بالمجدفين ، وهناك نقطة مهمة لم تذكر بالمعاهدة ،

(١) تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٤ . يذكر بأن قبيلة ولدز ينون الموجودة فى شرق الجزائر اتفقت مع القولوغلية .

(٢) دي غرامونت .

(٣) لم يرد فى لوائح الحوادث التاريخية ذكر لشرف حوجه ، لكن المشار إليه قدم إلى الجزائر وهذا ثابت فى رسائل الفناصل الفرنسيين أمثال (شو وفياس) وهناك مصدر فرنسى يتعرض إلى ذلك حسب ما ذكره دى غرامونت .

وهي تتعلق بمدفعي دانسا، وكانت الهيئة الجزائرية تقول لا يمكنها دخول الديوان بدون أخذ المدفعين، ولم يتجرأ أحد على أخذ المعاهدة إلى الملك من أجل إضافة المدفعين عليها، كما أن الدوق غيز يرفض تسليم المدفعين، وبهذا الشكل تعقدت المسألة ومرت سنة كاملة دون إتخاذ أي قرار، وبما أن مرسيليا من أكثر المتضررين من قطع العلاقات مع الجزائر، لذلك عمدوا إلى شراء المدفعين من الدوق دي غيز، وقدموهم هدية للهيئة الجزائرية، وذلك كحل يرضي الطرفين، وعندما كانت المباحثات بين الطرفين مستمرة، والجميع يأمل بالتوصل إلى نتيجة مرضية ونهائية، وفجأة تجددت الحرب بين الطرفين.

ففي نهاية شباط سنة ١٠٣٠ هـ/ ١٦٢٠ م كانت سفينة مرسيليا بقيادة القبطان دريفت (Drivet) تحمل أموالاً بقيمة ٣٠٠, ١٠٠ إيكو، قادمة من إسكندرونة، وكانت تسير وعلائم الاطمئنان مخيمة على بحارتها، وفجأة التقى الريس رجب بها في خليج ليون (Liyon) فهاجمها واستولى على السفينة بما فيها دون أي مقاومة، والريس رجب كان من أنشط وأمهر وأظلم قراصنة الجزائر.

ولكي لا يعلم أحد بعمله، فقد توجب عليه القضاء على جميع طاقم السفينة وبحارتها وحالما استولى عليها قام بثقب السفينة من الأسفل بعدما قتل طاقمها، تركها تغرق واتجه عائداً إلى الجزائر، ولكن شخصين من بحارتها تمكنا من النجاة بعدما اختبئا في السفينة، وبعد ذهاب القراصنة أغلقا المكان المثقوب، وبدأ الإبحار باتجاه الريح إلى أن وقعا على سواحل سردينيا، ومن هناك عادا إلى مرسيليا ووصلا إليها في الرابع عشر من آذار، وبعد دخولهما بساعات إلى مرسيليا علم الجميع بهذه الفاجعة المدهشة ونتيجة لصراخ عائلات القتلى وأقربائهم، تجمع الصيادون وأصحاب المراكب الصغيرة، وأعلنوا العصيان والتمرد، واندلعت ثورة مسلحة قوية، وكانت الهيئة الجزائرية مع السفارة وخمسين مسلماً يستعدون للسفر إلى الجزائر، وكانوا أثناء ذلك في فندق ميوالين (Meoilhon) فهاجم الأهالي الفندق[1].

(١) دى غرامونت.

إزاء ذلك لم يجد الجزائريون وسيلة أفضل من التصدي للهجوم المفاجىء عليهن، وحينما عجز الثوار عن دخول الفندق أضرموا النار فيه، وبدأوا بقتل الخارجين من الفندق المحترق.

وفي هذه الأثناء كان رئيس بلدية مرسيليا وقنصل فرنسا في الجزائر يحاولان إنقاذ الضيوف الجزائريين، لكنهم لم يوفقوا إلى ذلك لأنهم بمن معهم من المسلحين لم يتمكنوا من الوصول إلى الفندق، وقتل من الجزائريين ثمانية وأربعون شخصاً في حين تمكن اثنا عشر شخصاً من النجاة بصعوبة.

وفي اليوم الثاني وصل الخبر إلى الملك الفرنسي، فأصدر حكماً في مقر نواب ولاية (Aix) في ٢ أيار سنة ١٠٣٠ هـ/ ١٦٢٠ م بإعدام أربعة عشر شخصاً من الثوار، وعلى البعض بالأعمال الشاقة في السفن، وعاقب البعض الآخر بعقوبات مختلفة، ولدى سماع الجزائر بالخبر حدث غليان شديد، وطلب الباشا والديوان من الحكومة الفرنسية توضيحاً لما جرى، وقد شكوا في رسائلهم خطورة ما حدث، وذكّروا الحكومة الفرنسية بقدسية الهيئة الدبلوماسية، وفي ٢٣ تموز وصلت الهيئة الفرنسية إلى الجزائر، تحمل جواب الملك الفرنسي، وقد أظهر الملك الفرنسي في رسالته حقوق الضيف واعتذر عما حدث، وأخبرهم بالعقوبات التي أنزلها بالمجرمين، ومحاولته الصادقة لمنع حدوث ذلك، ويأمل ألا تؤثر هذه الحوادث على العلاقات الطيبة التي تربط الطرفين بعضهما ببعض. وعقب وقوع الحادث على الهيئة الجزائرية كلف الديوان كنان آغا وأخاه الأكبر محمد شريف بالتوجه إلى مرسيليا والتحقيق بالحادث[1].

لم يطلّع الجزائريون على نتيجة التحقيق والرد الفرنسي، لأن محمد الشريف اعُتقل من قبل السفن التوسكانية أثناء عودته إلى الجزائر، ولهذا ازدادت النقمة على الفرنسيين، ولو أن الرد الفرنسي المرسل مع هيئة التحقيق الجزائرية وصل في الوقت المناسب لما تفاقمت الأزمة إلى هذا الحد ولما وصلت الأحداث بينهما إلى هذه الدرجة التي وصلتها، لأن الجزائريين لم يطلّعوا على حقيقة الأحداث إلا بعد إستعادة محمد الشريف والرسالة التي

يحملها، وقد مر زمن طويل على ذلك، وخلال غياب محمد شريف، خرجت عائلات القتلى في الشوارع تطالب بالثأر من الفرنسيين والانتقام منهم، وفي الثامن من أب حدث انقلاب في الجزائر، فقد اعتقل القنصل الفرنسي مع كافة الرعايا الفرنسيين، واحُضروا جراً إلى الديوان، وجرت مشاورات عنيفة في الديوان، لأن قسماً من أهالي القتلى طالبوا بإحراق الرعايا الفرنسيين أحياء انتقاماً لما حدث في مرسيليا[1]. كذلك فقد أصدر الديوان قراراً بالإجماع يقضي بتوجيه ضربة فجائية ضد التجارة الفرنسية، وعلى الفور أعد الرياس سفنهم وخرجوا من الميناء بحثاً عن السفن الفرنسية، أما السفن الفرنسية المبحرة فقد كانت تبحر باطمئنان وبدون خوف لاعتقاد قباطنتها أن الصلح مع الجزائريين مضمون، أما الملك الفرنسي لويس الثالث عشر فقد كلف الجنرال عمانوئيل عوندي Emanuel Gondi بالخروج إلى البحر والتصدي للسفن الجزائرية، وقد تحرك الأسطول الفرنسي في نهاية تموز سنة ١٦٢٠ م، ولكن تحركه لم يؤثر على تحركات الجزائريين، وبنفس الوقت فقد كلف الدوق دي غيز بعض السفن باحتلال الباستيون ثانية، ولكن الهجوم فشل لأن الجزائريين واجهوا القوة الفرنسية مواجهة عنيفة وأجبروها على الانسحاب.

لم تقتصر مهاجمة القراصنة على السفن الفرنسية فقط، بل هاجموا السفن الإنكليزية والهولندية، وكان هؤلاء أيضاً يسعون إلى إقامة سلام بينهم وبين الجزائريين، لذلك كلف الأميرال مانسل (Mansel) والقبطان لامبرت (Lambrct) بقيادة السفن الحربية والتوجه إلى البحر لحماية السفن التجارية، وفي سنة ١٠٣١ هـ/ ١٦٢١ م قدم الأميرال مانسل إلى المياه الجزائرية وباشر فوراً بقصف المدينة بمدافعه، وتمكن خلال ذلك من أسر وحرق خمس عشرة سفينة جزائرية، ومن ثم أنزل عساكره بالقرب من المدينة، لكن الجزائريين لم يكترثوا بتلك القوة ولم يتنازلوا لمواجهتها.

وفي سنة ١٠٣١ هـ/ ١٦٢١ م عين خضر باشا أمير أمراء الجزائر بدلاً من شرف باشا، ولم يكن خضر باشا يحب إجراء أي تفاهم مع الإنكليز، علاوة على ذلك فإن الوباء لا يزال مستمراً في البلاد، وإن القنصل الفرنسي شو

(١) دي غرامدوب.

(Se) توفي نتيجة لإصابته بالوباء، وبما أن أحداً من الفرنسيين لم يقبل القيام بمهمة قنصل فرنسا في الجزائر، لذلك عهد الفرنسيون إلى التجار القيام بهذه الوظيفة.

ظل القبطان لامبرت يتجول في البحر لمدة سنتين، كبد الجزائريين خلالها خسائر فادحة، وفي سنة ١٦٢٤ م جاء إلى شواطىء مدينة الجزائر وهدد بإعدام من لديه من الأسرى الأتراك ما لم يُسلم إليه أسرى أبناء أمته مع أموالهم، وظن الجميع بأن تهديده فارغ، لذلك لم يصدقوه، ولم يأخذوا كلامه محمل الجد، لكنهم شاهدوا بأعينهم جثث أسراهم تتأرجح على أعمدة المشانق، وفي اليوم التالي رحل عن المدينة، وبعد عدة أيام عاد إثر أسره لسفينتين جزائريتين، وأخبر الجزائريين بأنه إذا لم يستجب لرغباته فإنه سيقوم بإعدام ما بداخلهما، فثار الأهالي هذه المرة، فأمر الديوان بتسليمه الأسرى الهولنديين، لكنهم لم يعطوه إلا قسماً من الأموال المأخوذة من السفن الهولندية، لأنهم أنفقوا قسماً منه، واعتذروا له على ذلك، فاقتنع القبطان منهم وانسحب عائداً إلى بلاده[1].

ومن سنة ١٠٣١ هـ ـ ١٦٢١ م إلى سنة ١٠٣٦ هـ ـ ١٦٢٦ م وخلال هذه السنوات الخمس تولى إدارة ولاية الجزائر كل من كوسه مصطفى باشا ومراد باشا وخسرو باشا وغادروها. وتُعتبر فترة مصطفى باشا ومراد باشا فترة مظلمة[2]، أما خسروا باشا الذي تولى الإدارة سنة ١٠٣٤ هـ ـ ١٦٢٤ م فقد كان نشيطاً وحذراً في معاملاته وتصرفاته، وعامل الإنكشارية معاملة قاسية، كما أنه جهز حملة واتجه بها إلى مناطق قسنطينة واستخدم العنف تجاه القبائل والأهالي والزمهم بدفع ما عليهم من ضرائب، وقد تمكن من خلال جولته من تعميق النفوذ التركي في تلك المناطق، بعدما كاد أن يتلاشى نهائياً.

حاول القبليون قطع الطريق على خسرو باشا بقصد عدم تقدمه، لكن الباشا انتصر عليهم ودخل مركزهم كوكو، وفي بداية الأمر اخضع الرياس لطاعته، وأثناء عودته أعلن التلمسانيون العصيان بتحريض من أحد

(١) فور بيكه: هذا القبطان أصبح قنصل فرنسا فى تونس سنة ١٦٢٥ م.

(٢) دى عرامونت وفور بيكه: يذكران بأن خضر باشا حكم فى سنة ١٦٢٠ ـ ١٦٢٣ م وخسرو باشا من سنة ١٦٢٣ ـ ١٦٢٧ م وفى سنة ١٦٢٧ م قدم حسن باشا إلى الجزائر.

المرابطين، فأرسل ضدهم قوة مؤلفة من ألف ومائتي إنكشاري مع قسم من المحليين، وتمكن من إخماد عصيان التلمسانيين، وألقى القبض على رؤسائهم فعلقهم بالشناكل وملأ جلودهم بالتبن، وأرسلهم إلى الجزائر للتمثيل بهم.

وفي سنة ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧ م أيقظ الخلاف ما بينه وبين تونس بشأن مسألة الحدود[١]، بحجة أن التونسيين يحرضون قبائل قسنطينة على التمرد والعصيان[٢]. ولم يتدخل الباب العالي في الخلاف، لأنه أدرك عدم جدوى تدخله في ذلك[٣]، وحينما اشتد القتال بين الطرفين، قرر الديوان الهمايوني تكليف الأسطول بالتوجه إلى مناطق الشمال الإفريقي لإيقاف القتال الدائر بين تونس والجزائر، لكن ظهور مسألة القرم أحال دون إرساله، وكلف بالتوجه إلى مناطق البلقان لمنع قبائل القزاق من مهاجمة سواحل البحر الأحمر، في حين استمرت الحروب الشرقية للجزائر مدة أربع سنوات، كان الأتراك خلالها ينتصرون حيناً وينهزمون حيناً آخر، وعلى الرغم من الصراع الدائر على الحدود، وما نتج عنه من فوضى واضطرابات، إلا أنه لم يترك أي آثار سلبية على نشاط القراصنة، فالنهب والسلب والغنائم كانت بازدياد مستمر، وكانت خسائر التجار المسيحيين كبيرة جداً، فخلال ثماني سنوات أسر القراصنة أكثر من تسعمائة وست وثلاثين سفينة[٤].

وفي الحقيقة فإن الغنائم المأخوذة من المسيحيين كانت أكثر من ذلك، لأنه في تلك المرحلة كانت السفن المأسورة تعتبر عائدة للباشا، وله حصة من الغنائم، لذلك فإن القراصنة بعد استيلائهم على السفينة، كانوا يأخذون ما فيها من أموال وغنائم، ومن ثم يحرقونها أو يغرقونها، لأن إحضارها إلى الجزائر يسبب لهم مصاعب جمة، والمستفيد الأول منها هو الباشا.

تخوفت السفن الفرنسية من الخروج وغدت راسية في موانئها، فتعطلت التجارة وتكدست البضائع في المخازن، فتضايق تجار البروفانس

---

(١) فور بيكه.

(٢) دى غرامونت.

(٣) يذكر فور بيكه أن الحرب التونسية حدثت فى زمن حسين باشا.

(٤) فور بيكه.

وقرروا مراجعة البرلمان، فقدم البرلمان مذكرة إلى الملك يعرضون عليه الوضع بكامله وذكروا في مذكراتهم: (إذا لم تخصص سفن لمنع تعديات قراصنة البربر فإن تجارة الشرق سيقضى عليها نهائياً).

إزاء ذلك قرر الملك لويس الثالث عشر الاستفادة من مهارة القبطان سانسون نابلون، على الرغم من أن حياته لم تكن معروفه قبل عشر سنوات ولكي يستطيع سانسون القيام بمهمته الصعبة والخطيرة التي أسندها الملك إليه، فإن الأمر يتطلب منه فهم الأوضاع الداخلية للجزائر، فرسم لذلك خطة تساعده على إنجاح مهمته بشكل جيد، وقد أدرك منذ اللحظة الأولى أن الباشوات لا يملكون أي قوة بالرغم من حسن نواياهم، وإن القوة الحقيقية بيد الرياس البحريين، فارتبط معهم بعلاقة متينة، وغدا صديقاً لأصحاب النفوذ ممن تسمع كلمتهم بين البحارة والأهالي والإنكشاريين، وفتح موائده لكل شخص وجمع حوله أشهر قباطنة الجزائر أمثال الريس مراد وحسن قلفه وعربجي علي والريس سليمان، ومع ذلك لم يتجاهل الباشا، فقد أغرقه بالهدايا والتحف الثمينة، وتمكن بكرمه وقوة أحاديثه من نيل حب الجميع وأصبح موضع ثقتهم، وبهذه الصورة استطاع حل أصعب المشاكل بسهولة، ولكن نجاحه وتحقيق كافة رغباته وأمانيه، أيقظ نار الحسد لدى أقرانه من الفرنسيين بسبب ما حققه من مكاسب، ووصل الأمر بهم إلى حد اتهامه بالخيانة وارتداده عن دينه، لكنه لم يكترث بتلك الشائعات لأنه يستند على ثقة الملك به، لذلك ظل مواظباً على سياسته وخطته بكسب الجميع، وفي ٢٦ حزيران سنة ١٠٣٦ هـ ١٦٢٦ م جاء سانسون إلى الجزائر كمبعوث شخصي للملك وكممثل للدوق غيز أيضاً، وفور وصوله قدم للباشا ورؤوساء الإنكشارية هدايا بقيمة ثماني عشرة ألف ليرة، وكانت أولى مهامه إقامة الصلح وعقد اتفاقية مع الجزائريين، وبالفعل فقد نالت مباحثاته قبولاً حسناً لدى الجميع، كذلك فإن الحكومة الفرنسية كانت قد حصلت من إستانبول على فرمان يطالب الجزائريين بالتصالح مع فرنسا[1].

كان المستفيد الأول من عدم إقامة الصلح وفتح المؤسسات التجارية الفرنسية، الإنكليز والهولنديون، وأشاع التجار المرسيليون أن الفرمان

(١) Les Monuscrifs de Pegiese [Carpentras Kutu Phanes] Citt. 6 Saypa. 64 - 62.

مزور، وقد كادت هذه الشائعة أن تعرض حياة الهيئة الفرنسية للخطر، فقرر الديوان قبل القيام بأي عمل، إرسال وفد إلى إستانبول للتأكد من صحة الفرمان، فبُلغ الوفد المرسل بإطاعة ما ورد بالفرمان والالتزام به.

وفي ربيع ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧ م عاد الوفد من إستانبول، وبُلغ الديوان بإصرار السلطان العثماني والديوان الهمايوني على ضرورة إقامة الصلح مع فرنسا[١]. وفي هذه الأثناء أصيب خسرو باشا بالوباء وتوفي على أثرها، فعُين حسين باشا خلفاً له، وجاء مع الوفد الجزائري القادم من إستانبول[٢].

اجتمع ديوان الإنكشارية، وكانت أولى شروطه إطلاق سراح الأسرى الأتراك الموجودين في السفن المرسيلية وإعادة المدفعين الذين سرقهما دانسا، وفي أيار عاد سانسون نابلون إلى فرنسا وشرح للملك أوضاعه في الجزائر، فقرر الملك شراء الأسرى الأتراك من أصحابهم وإرسالهم إلى الجزائر، كما فرض ضريبة على أهالي مرسيليا لشراء المدفعين[٣].

وفي هذه الأثناء كان سانسون يراسل الجزائريين ويتباحث معهم، وحينما عاد إلى الجزائر في ١٧ أيلول ١٠٣٨ هـ/ ١٦٢٨ م كان قد رتب أموره بشكل جيد، فوزع الهدايا إلى الرياس، وقدم للباشا وأصحاب النفوذ خمسين ألف ليرة، وفي ١٩ أيلول توجه إلى الديوان الكبير لتوقيع معاهدة أبدية بين فرنسا والجزائر، وقد تعهد الديوان بإعدام كل من يحاول فسخ الصلح[٤].

وفي اليوم التالي وقعت إتفاقية بشأن امتيازات المؤسسات التجارية الفرنسية وصدق الباشا عليها، ثم نقلت إلى الديوان للتصديق عليها من قبل رؤساء الإنكشارية فضمن الجزائريون إقامة الصلح والسلام مع فرنسا بصورة دائمه.

وبموجب هذه المعاهدة امتنع القراصنة عن مهاجمة السواحل

---

(١) دي غراممونت.

(٢) يذكر دي غرامونت بأن حسين باشا هو حسين بن الياس باشا، أما غابرييل كولين فيقول في كتابه (العرب والأتراك في الجزائر) أنه حسين الشيخ.

(٣) فيما يتعلق بالضريبة التي فرضها الملك الفرنسي نسختها الأصلية موجودة حالياً في المكتبة الوطنية الفرنسية تحت الرقم (A. F. 7095) وهي بخط اليد.

(٤) إن بنود الصلح نشرت لأول مرة من قبل مارجروس فرانسيس سنة ١٦٢٨ م.

الفرنسية، كما مُنع بيع الأشخاص والأشياء المأخوذة من السفن الفرنسية في ميناء الجزائر، ومارس التجار الفرنسيون أعمالهم التجارية بحرية تامة، كما أنهم مارسوا شعائرهم الدينية في الجزائر كالمعتاد، وقد نصت المعاهدة تقديم المساعدة للسفن الفرنسية وحمايتها عند لجوئها إلى ميناء الجزائر بسبب رداءة الأحوال الجوية القاسية.

قام الفرنسيون بعد التصديق والموافقة على إعادة الباستيون، بفتح مراكز تجارية في مناطق متعددة من الجزائر، وسُمح للجزائريين بيع الجلود والشمع والعسل للفرنسيين وبنفس الوقت فقد مارس الفرنسيون صيد المرجان في مختلف السواحل الجزائرية.

لقد حقق نابلون نجاحاً كبيراً في مهمته، لأن الإنكشاريين من الآن فصاعداً لن يعترضوا على إنشاء الباستيون، وإن السلطان العثماني لن يحذر بفرماناته الإنكشارية والرياس من الاعتداء على السفن الفرنسية.

أضاف ديوان الجزائر على المعاهدة بنداً جديداً ينص على أحقية سانسون نابلون (نابللون) بإدارة الباستيون طوال حياته، وذلك تقديراً لجهوده وخدماته وبعد وفاته يحق للملك الفرنسي تعيين من يشاء، وعلاوة على ما تقدم ذكره فقد تعهدت المؤسسات الفرنسية بدفع ضريبة سنوية مقدارها ستة وعشرين ألف دوبلة. على أن يخصص منها ستة عشر ألف دوبلة لمعاشات الإنكشارية وما تبقى منها يوضع في الخزينة الداخليه للجزائر.

سُرّ الجميع بهذه المعاهدة، وضمنت مرسيليا التجارة الشرقية، وأصبح الإنكشاريون آمنين على رواتبهم بصوره دائمة، وتخلص الباشا من قيام الثورة والإنقلاب عليه، واستفاد القراصنة من حق الالتجاء إلى الموانىء الفرنسية في الحالات الجوية الصعبة، وعند نشوب الحرب مع الدول الأخرى.

تخلصت السفن الفرنسية من أيدي القراصنة، لكن قسماً كبيراً من البحر ظلت الملاحة فيه حرة لا تخضع للقوانين، كما أن السفن الإسبانية والهولندية كانت بحد ذاتها صيداً كافياً لهم.

باشر سانسون نابلون ببناء المراكز التجارية، وبخلاف ما نصت عليه

المعاهدة فقد أقام تحصينات في بون (عنابة) والقاله والباستيون، ووضع فيها أربعة ضباط ومائة جندي وأربعمائة بحار وقسيسين وطبيب، وممرضين وصيدلي وأربعة مترجمين وأربعة عشر مقاول ومائة عامل يومي، وأمّن لهم العيش والاستقرار في تلك المراكز، وأحضر ثلاثة قبانات عائدة لواحد وعشرين سفينة صيد مرجان، كذلك فقد وضع في تلك المراكز خمسة مدافع برونزية ومدفعين إسبانيين مع كامل مهماتهم الحربية[1].

لقد فهم الإنكشاريون منذ البداية خطورة إقامة مثل تلك المواقع العسكرية، وكانوا محقين عندما قاموا بتدميره، وعلى الرغم من خطورته فقد سمحوا بإقامته من جديد، بناء على نصوص المعاهدة الجديدة، وفي سنة ١٠٣٩ هـ/ ١٦٢٩ م غدا هذا الموقع يحتل أهمية كبرى بالنسبة للتجارة الفرنسية بصورة عامة، فمن خلاله تمكنوا من تأمين جميع متطلبات مرسيليا من القمح.

التزم الجزائريون بجميع شروط المعاهدة، فأطلقوا سبيل الأسرى الفرنسيين واحتفظوا فقط باثنين، كانا قد هربا منفصلين عن هؤلاء، وإن الجزائريين سيسلمونهم للفرنسيين حينما يتم العثور عليهما، وكانت مرسيليا قد أرسلت إلى الجزائر شخصاً باسمها يُدعى نيفولن ريكو (Nikollin Riku)، وعلى الرغم من استمرار شروط المعاهدة كما هي، إلا أن العلاقات بين الطرفين قُطعت نتيجة لوحشية بعض الفرنسيين تجاه الجزائريين، وكان الفرنسيون هم السبب المباشر في قطع العلاقات مع الجزائريين، فحينما انفصل زورق جزائري عن الأسطول عند هبوب عاصفة بحرية، وقد التقى الزورق بسفن فرنسية كانت في طريقها إلى سردينيا، واستناداً إلى المعاهدة طلب الزورق المساعدة من السفن الفرنسية ولكن الفرنسيين بدلاً من مساعدته قتلوا طاقمه وعدده ستة عشر تركياً، وضموا الزورق إلى سفنهم، فخالفوا بعملهم المعاهدة وحتى المبادىء الإنسانية.

وبعد عدة أيام صادف الجزائريون بالقرب من السواحل الإسبانية السفينة الفرنسية (سان جان دا رلس) فاقترب منها الجزائريون معتمدين على

(١) دي غرامونت تحدث بشكل واضح عن التحصينات والعساكر والمدافع والباستيون الفرنسي يبعد عن لقال عشرة كلو مترات (ناليل حوان)

الصداقة القائمة بينهما، ومع أنه سُمح لهم بالاقتراب منها، لكن طاقم السفينة عاملهم بوحشية شديدة، فاستولوا على السفينة الجزائرية، وباعوا طاقمها للسفن الإسبانية، هذه الأحداث أيقظت لدى سكان الجزائر الشعور بالغضب، ونتج عن ذلك هيجان شديد[1]. ولولا وجود القنصل الجديد ومدير الباستيون لنشبت الحرب على الفور، لكنهما تمكنا من إخماد غضب وهيجان الجزائريين لدى تعهدهما بمعاقبة المجرمين الذين ارتكبوا ذلك.

وكان للجزائريين رجل في مرسيليا يدعى حمزة، وحالما سمع بالأحداث الجارية خاف أن يحدث معه مثلما حدث لكنان ورضوان باشا ضحية لتمرد الفرنسيين، لذلك عاد مباشرة إلى الجزائر، وقال أنه عاد نتيجة للمعاملة السيئة التي كان يواجهها هناك، فأضاف بذلك سبباً آخر ضد الفرنسيين، وكان سانسون بهداياه وصداقاته الشخصية ومشاوراته مع البعض الآخر يحاول إغلاق الموضوع وإنهائه، وحتى الديوان كان قد قرر إرسال رجل كرهينة بدلاً عن حمزة، إلا أن مسألة أخرى أطلت برأسها من جديد.

في نهاية تشرين الأول سنة ١٠٣٩ هـ/ ١٦٢٩ م كانت الحكومة الفرنسية قد أرسلت سفيراً إلى المغرب يدعى إساج لوين (Isac de Launay)، وأثناء عودته صادف سفينة جزائرية في مياه سلا يقودها الريس محمد خوجه، فألقى القبض على السفينة الجزائرية دون أن تبدي أي مقاومة، ووضع بحارتها كمجدفين وأسر ريسها، وأحضرهم معه إلى فرنسا، وقد علم الجزائريون بهذه الحادثة أيضاً.

إزاء ما حدث ذهبت جهود سانسون سدى ودون أي فائدة تذكر، فصاحب السفينة محمد خوجه وهو من كبار الشخصيات الجزائرية وممن يتمتع بنفوذ قوي وشعبية كبيرة، وبما أن سفن الملك هي التي ارتكبت الحادث، فإن الديوان كان محقاً في تضخيم المسألة[2].

وعلى الفور قام الرياس بالرد على الفرنسيين بالمثل، ولم يمض زمن طويل حتى كان الرياس قد استولوا على عدة سفن فرنسية، عندئذ حاول القنصل

---

(١) يذكر دي غرامونت أن الجزائريين كانوا محقين تماماً بهذه المسألة.

(٢) دي غرامونت.

الفرنسي الاحتجاج على ما فعله الرياس، ألقى القبض عليه، وقُيد بالحديد، ورُمي به في السجن، فأسرع سانسون مدير الباستيون ودفع ٢٣٣٥٠ فرنكاً فرنسياً لقاء إنقاذه، ولكن القنصل ريكو Riku بدلاً من تقديم الشكر لسانسون وتمتين علاقته وصداقته به، أصبح عدواً له، وبغية التخلص من عمله في الجزائر، قدم استقالته، وكان بلانشار (Blansar) حريصاً على حماية القنصلية، ولكي يحل محل القنصل ريكو Riku حرضه على الفرار، وهيأ له كافة السبل التي تساعده على الفرار، وفي آذار سنة ١٦٣١ م كان ريكو في مرسيليا يدافع عن سبب قدومه، وغدا بلانشار قنصلاً مكانه، وقد قدم الهدايا الكثيرة إلى ديوان الإنكشارية، لكن الفرنسيين لم يقبلوا قيامه بهذه المهمة بسهولة.

وفي سنة ١٠٤١ هـ-١٦٣٢ م عزل حسين باشا وعُيّن مكانه يوسف باشا، وكان حسين باشا قد أنشأ في الجزائر عدة إمارات، وأتم بناء القشله (الثكنة) العسكرية في شارع مده (Medo)[١]. كما قام بإنشاء بعض الأبنية في باب البحر والمسمى بالباب الجديد[٢]، وأحدث تغييراً كبيراً في بناء قصر الجينية[٣].

(١) الكتب الموجودة في المقر العسكرى فى الجزائر لسنة ١٠٣٧ هـ غابرييل كولبن ج ١ ص ٣٥ نمره / ٢٠/.

(٢) الكتابة التي نزعت عن الباب الجديد ووضعت فى المتحف الجزائري لعام ١٠٣٩ هـ تؤكد ذلك. غابرييل كولين ج ١ ص ٣٧ نمره / ٢١/.

(٣) الكتابة التي نزعت عن قصر الجينية ووضعت فى المتحف الجزائرى لسنة ١٠٤٢ هـ غابرييل كولين ج ١ ص ٤٠ نمره / ٢٢/.

- ٥ -

أوضاع فاس

حكومة مولاي أحمد، غزو توات ونمبكتو ـ المأمون ولي للعهد ـ وفاة مولاي أحمد ـ حكومة فاس ومراكش ـ تنازع الأخويين ـ إعطاء العرائش للإسبان ـ ازدياد نفوذ المرابطين ـ أبو محالي قرصان سلا ـ زيدان يرسل سفيراً إلى إستانبول ـ عبدالله والمأمون في فاس ـ الشيخ محرز في مراكش انتهاء السلالة السعدية .

بعد إعلان مولاي أحمد تبعيته للأتراك ، أصبح أكثر اطمئناناً ، لذلك بدأ بملاحقة أعدائه في مختلف مناطق البلاد ، وأظهر قوته ونفوذه للجميع ، ولكن أخاه الناصر رفض الخضوع لطاعته ، ففر إلى الإسبان ، فأرسله الإسبان إلى مليلة ، وهناك جمع الناصر أنصاره ، وأعلن الثورة ، لكنه لم يتمكن من تحقيق أي شيء ، وكان ابن مولاي أحمد قد أصبح شاباً ، ولكي يقطع مولاي أحمد أمل أخيه الناصر بالسلطة ويضمن الهدوء والاستقرار في البلاد جمع أشراف المدينة وأعيانها وأخبرهم بأنه يرغب بتعيين ابنه المأمون ولياً للعهد، فوافقه الجميع على ذلك ، فأعلن مولاي أحمد في سنة ٩٩١هـ / ١٥٨٣م بأن ابنه المأمون أصبح ولياً للعهد، وحالما ضمن مولاي أحمد الاستقرار للبلاد ، قام بغزو توات وتمبكتو، ونتيجة لبعدهما وصعوبة أراضيهما ، فإن هذا سيعرضه لمشاكل ومصاعب جمة ، قد تجعل عمله شبه مستحيل .

كان أهالي توات يدفعون الضرائب للمرابطين ، وأحياناً يدفعونها لحكومة بني مرين ، لكنهم منذ زمن بعيد لم يدفعوا شيئاً لأي جهة .

في سنة ٩٩٤هـ / ١٥٨٥م وجه مولاي أحمد جيشاً ضخماً إلى توات، وبعد سبعين يوماً وصل إليها، فاصطدم بمقاومة محلية عنيفة، ولكنه تمكن في النهاية من القضاء عليها فأبادها إبادة كاملة، واحتل البلاد.

وكان مولاي أحمد قد لفت أنظار الإسبان إليه قبل تحركه للجنوب، فبعد مقتل ملك البرتغال سبستيان، عمل فيليب الثاني ملك إسبانيا للسيطرة على المملكة البرتغالية سعياً لضمها إليه، وبهذه الصورة أصبحت الممتلكات البرتغالية في شمال إفريقيا من نصيب الإسبان.

لم يكن الملك فرديناند من أنصار البقاء في شمال إفريقيا، ولهذا أمر بإخلاء أصيلا، ولم يبق في يديه سوى طنجة وسبتة، وعندما توضحت الحركات الإسبانية، ضمن مولاي أحمد الأمن والاستقرار في بلاده، تحرك للاستيلاء على تمبكتو.

كان حاكم تمبكتو يدعى إسحاق بن داوُود، وقد حكمتها عائلته بموجب فرمان صادر عن حكام تونس، ولهذا فقد اعتقد إسحاق بن داوُود أنه من خلفاء بني حفص حتى الآن.

أرسل مولاي أحمد خبراً إلى أسحاق يطالبه بتقديم الطاعة والولاء له، ولكن إسحاق رفض ذلك بشدة، معتمداً في رفضه على بعد المسافة والصحراء وولاء الأهالي له، وفي سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩٠م انتهى مولاي أحمد من إعداد وتجهيز جيشه، وتحرك الجيش باتجاه تمبكتو بعدما كلف جؤذر باشا بقيادته.

عمد الفاسيون منذ مدة إلى إدخال التشكيلات العسكرية التركية في تنظيم قواتهم، ووصل الجيش إلى تمبكتو بعد أربعة شهور ونصف، وفور وصوله هاجم قوات إسحاق وانتصر عليها انتصاراً ساحقاً، وفر إسحاق إلى الصحراء ومات فيها، وأعلن أهاليها الولاء لهم، كما أعلن حاكم برنو الطاعة أيضاً. وقد استغرقت هذه الحملة مدة ثلاث سنوات، ومن بعدها عاد الجيش من حملته محملاً بالغنائم، وغرقت فاس بالذهب والمجوهرات، ولهذا لُقب مولاي أحمد بالذهبي.

(١) أوغست كور.

وفي سنة ٩٩٨هـ / ١٥٨٩م أرسل مولاي أحمد هيئة دبلوماسية إلى إستانبول، وحملها بالهدايا الثمينة، وحالما انتهت من مهمتها عاد إلى فاس سنة ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م[١].

بعد أن أصبح المأمون ولياً للعهد وحاكماً على فاس، أعطى نفسه حق ممارسة السفاهة والدناءة، فاضطر مولاي أحمد إلى تنبيهه وتحذيره عدة مرات، وحينما لم يتراجع عن طيشه، توجه إليه بنفسه لتأديبه وإيقافه عن طيشه وخاصة بعدما أعلن تحديه العلني لوالده، وما أن وصل مولاي أحمد إلى فاس حتى فر المأمون منها مع بعض أنصاره، فكلف الجيش بملاحقته، وعندما ألقى القبض عليه، سجنه والده في مكناس، وكان والده من أنصار العفو عنه، لكنه توفي في ١١ ربيع الأول / الموافق ١٩ آب سنة ١٦٠٣م[٢].

لقد اتسمت إدارة مولاي أحمد خلال الخمس والعشرين سنة من حكمه بالعدل والإنصاف، كما ارتبط مع الحكومة العثمانية بصداقة جيدة وحسنة، وأثبت حسن نيته للعثمانيين من خلال إرساله للسفراء بصورة دائمة ومستمرة وتزويدهم بالهدايا الثمينة والقيمة[٣].

بقي لمولاي أحمد ثلاثة أولاد، أبو عبدالله الشيخ مأمون (في السجن) وزيدان والياً على فاس، وأبو فارس والياً على مراكش، ولدى وفاة والدهم أعلن زيدان حكمه على فاس، وأبو فارس حكم مراكش، أما المأمون فقد أطلق سراحه من السجن لدى توسط أحد القادة والمسمى (منصور أولوج).

لم يكتف كل من زيدان وأبو فارس بمناطق حكمهما، وأخذ كل منهما يعمل على إزالة الآخر، فجهز أبو فارس جيشاً وعهد لابنه بقيادته، وكلفه بطرد أخيه من فاس، وقد أسفرت المعركة التي نشبت بالقرب من أسوار فاس عن هزيمة زيدان بعدما تخلى أنصاره عنه، ففر زيدان إلى وجدة التابعة لولاية الجزائر، والتجأ إلى الأتراك ملتمساً منهم التدخل.

---

(١) كان من أعضاء هذه الهيئة أبو الحسن علي بن محمد، وكتب أثناء هذه الرحلة كتاب أسماه (النفحة المسكية في زيارة تركيا).

(٢) فور بيكه.

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٦٢/ ص ٦٩ (١٠ صفر ٩٩٦هـ).

ما دامت هذه البلاد تعيش مرحلة صراع وقتال بين أولاد مولاي أحمد عقب وفاته بأربعة شهور، فلا يستبعد نهائياً استنجاد الطرف الآخر بالإسبان وطلب مساعدتهم. كذلك فإنْ انتصار جيش أبو فارس على زيدان أثار غيرة المأمون وحسده، علاوة على ذلك فإن أنصار أبو فارس يرغبون بإزالة مأمون من الوسط، وعندما أدرك ذلك تحدياً لهم ولأخيه أعلن سلطته على فاس في شعبان سنة ١٠١٢هـ/ الموافق كانون الثاني ١٦٠٤م.

بعد التجاء زيدان إلى الجزائر قدم عريضة إلى إستانبول يلتمس فيها حمايته وانصافه، وأعلن عن استعداده لعقد معاهدة صداقة حالما يصبح حاكماً، فأرسل الديوان الهمايوني فرماناً بهذا الخصوص إلى أمير أمراء الجزائر، لكن باشا الجزائر لم يكن لديه القوة التي تمكنه من تنفيذ مضمون الفرمان، لأن الإنكشارية والقولوغلية كانت في حالة شجار وصراع عنيف فيما بينهما، يضاف إلى ذلك أن إخراج جيش قوي من الجزائر، سيعرض البلاد إلى خطر كبير جداً.

تمكن زيدان من جمع جيش من الأتراك والمتطوعين، وعهد إلى شخص يدعى مصطفى باشا، وقد اشترك مع هؤلاء، أيضاً أولوج مامي، وسار الجميع مباشرة باتجاه الجنوب، فدخلوا منطقة سوسة، وعندما كان زيدان في سوسة، قدم إليه من قبل السلطان مراد رسول برتبة بلوكباشي يدعى مصطفى صلحي باشا، فأعاد زيدان الرسول إلى السلطان محملاً بالهدايا والتحف الثمينة، وفي هذه الأثناء عُلم بأن ابن المأمون كان يتصارع مع عمه أبو فارس، وإن ابن المأمون عبدالله تمكن من التغلب على عمه أبو فارس وتمكن من دخول مراكش، ولكن الأهالي استنجدوا بزيدان بسبب الظلم والاضطهاد الذي مارسه عليهم، فقدم زيدان إلى مراكش في ٢٥ شعبان ١٠١٥ هـ/ كانون الأول ١٦٠٦ م، والتقى الطرفان في وادي تافيللت الواقعة على طريق سلا، لكن زيدان انهزم في هذه المعركة وانسحب إلى جبال درنة، أما عبدالله فبعد أن نهب مراكش ترك عليها والياً من قبله وانسحب عائداً. وغدت مراكش عقب ذلك شبه خاوية من الأهالي لكثرة ما سفكه عبدالله من مظالم. ولكن زيدان استغل انسحاب ابن أخيه إلى مراكش، واستطاع بمساعدة الأهالي والأتراك من إعادتها لسيطرته! في حين سارع قائد قوات زيدان مصطفى باشا بجيشه إلى فاس واصطدم مع قوات عبدالله وانتصر عليها

بالقرب من نهر بو رقراق (بو رغراغ) ودخل فاس دون مقاومة[1].

لدى تسليم زيدان الحكم، اتحد أبو فارس مع المأمون وابنه في القصر الكبير، ولكن مصطفى باشا باغتهم من تلقاء نفسه بهجوم صاعق شتتهم على أثره فانسحب أبو فارس وابن أخيه عبدالله إلى مصايف بني وارتسن Beni varetsen أما المأمون فقد توجه أولاً إلى العرائش، وفي سنة ١٠١٧هـ/ ١٦٠٩م التجأ إلى إسبانيا لطلب المساعدة.

نقل زيدان مقر حكمه إلى فاس بعد طرد أخويه منها، وفي نفس الوقت قرر ملاحقة ابن أخيه بعدما أصبح لديه قوة محلية تمكنه من ذلك، لأنه أدرك أنه لن يتمكن من الاستمرار في حكم البلاد ما لم يقضِ على خصمه الرئيسي، وفعلاً بدأ بملاحقته، ولكنه اضطر للعودة مسرعاً إلى مراكش لعلمه بأن ثورة قامت ضده.

استفاد عبدالله من غياب عمه عن فاس، وبعد الانتهاء من إعداد جيشه قام بمهاجمتها، ولكنه اصطدم مع قائد قوات زيدان مصطفى باشا وجرت بين الطرفين معركة شديدة بالقرب من أسوارها، أسفرت عن مقتل القائد مصطفى باشا وهزيمة قواته، ودخل أبو عبدالله بن المأمون فاس يرافقه عمه أبو فارس ثانية إلى فاس، وفي ربيع الأول سنة ١٠١٨هـ/ تموز ١٦٠٩م قام عبدالله بالذهاب إلى منزل عمه أبو فارس وخنقه ليلاً، لأنه علم بنيته من استلام الحكم فيها من دونه.

حصل المأمون الذي التجأ إلى الإسبان على وعد من الملك فيليب الثاني بتقديم المساعدة له شريطة تسليمه العرائش، وبعد موافقته على ذلك، جُهز بجيش وتقدم به حتى وصل إلى باديس، وهناك استقبله الأهالي بكل فرح وسرور، ودخل فاس محاطاً بالأهالي.

وبغية إيفاء وعده للإسبان أمر بإخراج الأهالي من منازلهم، وسلمها بالقوة إلى القائد الإسبان ماركي سن جومن (Marki sen Jermen ونتج عن ذلك هيجان شديد بين الأهالي، ولمطابقة عمله مع الشرع، جمع العلماء واستصدر منهم فتوى تبيح له تصرفه، وقد وافق البعض ورفض البعض الآخر

---

(١) أوغست كور.

بشدة بعد تركهم البلاد، وبما أنه حقق في هذه السنوات عدة انتصارات، عمد إلى إظهار بعض المسامحة تجاه بعض الشيوخ والمرابطين بقصد كسبهم لجانبه، ومما ساعده على توسيع دائرة نفوذه، منحه العرائش للمسيحيين حيث عمل من خلالهم وما قدموه له من دعم على تثبيت حكمه بالقوة، وبنفس الوقت حارب الشخصيات الكبيرة وأصحاب الطرق الصوفية المستقلة وشيوخ الزوايا المستقرين في الجبال وأخضعهم لسيطرته، وكان من الصعب الإمساك بهم إلا من خلال المراقبة الموجودة بينهم وبين حكومة مراكش، وبما أن حاكم فاس ارتبط مع الإسبان بمعاهدة[1] ود وصداقة لذلك وقف الشيوخ وأصحاب الطرق ضده، وبدأوا بشن حرب العصابات ضده، وتولت قيادتهم زعامتهم الدينية، وتمكن أحد القادة ويدعى (مقدم) بجرأته من إلحاق الإزعاج والإرباك لحكومة فاس، كذلك فإن قراصنة (تطوان) نشطوا من جديد، أما القسم الجنوبي من فاس فقد أعلن تمرده بقيادة أبو محلى بعدما شجعه الأتراك على ذلك.

كان سلاطين بني عثمان منذ مئات السنين يدققون النظر حول العهود الخاصة التي عهد بها حكام فاس، لذلك بدأوا بدراسة أحوال فاس من جديد[2]. كما أن حكام فاس كانوا يسعون لإعلاء مركزهم فادعوا الخلافة لأنفسهم ورئاسة العالم الإسلامي، لكن جميع الدول الإسلامية ترفض ادعاءات حكام فاس.

لقد راجع حكام فاس سلاطين بني عثمان أكثر من مرة، طالبين مساعدتهم. ولبى بنو عثمان طلباتهم، لكن هؤلاء الحكام حالما يصلون إلى الحكم أو يتخلصون من أعدائهم، ويشعرون بقوتهم، على الفور يتناسون علاقتهم بالسلطان العثماني ويندفعون للتقرب من الإسبان.

وبما أنه لم يبق لدى باشا الجزائر قوة لمهاجمة فاس بعد قلج علي باشا، لذلك اقتصر عملهم على الدفاع عن ولايتهم وأنفسهم تجاه مكر وخداع فاس ومراكش، ومما ساعد الجزائر على التدخل بشؤون حكام فاس مرور الحجاج المتجهين إلى مكة في الجزائر، كذلك فإن المرابطين الذين كانوا

---

(١) أوغست كور.

(٢) أوغست كور.

يأتون إلى الجزائر، ساهموا مساهمة فعالة في تحقيق بعض الأعمال، فالمدعو (أبو العباس أحمد بن عبدالله) الذي أعلن تمرده في جنوب فاس، ولد في سلجماسة، وكان أجداده يسمون (قضاة الزوايا) كما كانوا فقهاء فيها، وقد ذهب إلى مكة عدة مرات وعاد منها، ولم يأمن على نفسه من الاستقرار في سلجماسة، فأخذ عائلته واستقر في وادي الساور وتلقب (بأبي محلي) وهناك أعلن أنه جاء لإصلاح النفوس الإسلامية وتنقيتها من الشرور والخطايا ومحاربة البدع والخزعبلات التي تفشت بين المسلمين، فأظهر لهم المعجزات وأدعى أنه المهدي المنتظر، وفي هذه الأثناء سُلمت العرائش للإسبان فاستغل هذه الفرصة معلناً الجهاد سنة ١٠١٩هـ / ١٦١٠م، فاجتمع حوله أربعمائة شخص اتجه بهم إلى سجلماسة، وبهذه القوة الصغيرة تمكن من إحداث ضجة كبيرة، أخافت واليها الذي ترك المدينة هارباً، فدخلها أبو محلي سنة ١٠٢٠هـ / ١٦١١م وحقق من جراء انتصاره شهرة عظيمة ونفوذاً كبيراً وعم صيته مختلف الأرجاء.

أرسل أهالي سلجماسة وقبيلة بني راشد وفوداً لتهنئته، وعقب ذلك سار أبو محلي متجهاً إلى مراكش، فهرب زيدان إلى آسفي، فدخلها أبو محلي مع مؤيديه دون قتال، ولكن زيدان وجد منافساً لأبي محلي وهو الشيخ يحيى، واصطدم الشيخان بعصهما مع بعض. وأسفر الصدام عن هزيمة أبي محلي، وقتل خلال المعركة، فتفرق أنصاره، ودخل الشيخ يحيى مراكش وأعاد حكمها إلى زيدان سنة ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م[1].

اتجهت الهجرة الأخيرة من مسلمي الأندلس إلى مدينة سلا، واستقروا بها، وهناك أعدوا السفن وبدأوا بممارسة أعمال القراصنة، وكان اهتمامهم الأول موجهاً إلى الإسبان للانتقام منهم، وفي سنة ١٦١١ م تضاعف عددهم كثيراً، واستفادوا من انشغال حكام فاس بأمورهم الداخلية، وشكلوا ديوناً خاصاً بهم مقلدين بذلك التشكيلات التركبة.

لم يكن زيدان راغباً في التدخل بشؤونهم أو الاصطدام معهم، وتجنباً من حدوث مثل ذلك عين مختاراً وإداريين من بينهم، وغدا أهالي سلا يمارسون القرصنة

(١) أوغست كور.

بدون قيود، ولدى وفاة الشيخ مؤسس المختارية في سلا، طلبوا من زيدان تعيين العياشي كشيخ عليهم، لكن المسيحيين لا يريدون العياشي، ومارسوا نفوذاً قوياً على زيدان لطرد العياشي، وتلبية لرغبة المسيحيين أرسل زيدان جيشاً بقيادة عجيب وكلفه بإلقاء القبض على العياشي وفي هذه الأثناء كان موقع (الحق) الواقع في منطقة مصب نهر سبو بيد المسيحيين، لكن السلاويين (نسبة إلى مدينة سلا) تصدوا لجيش عجيب وهزموه وقتلوا قائده، وانهزم الجيش بالرغم من مساعدة المسيحيين له، ثم هاجموا موقع الحق وأجبروا المسيحيين على الهروب إلى التلال، وأسروا عدداً كبيراً منهم، وأرسلوهم مع رئيسهم إلى باشا الجزائر، وكان العياشي آنذاك على علاقة جيدة بالجزائريين.

لقد تصادف وقوع هذه الحادثة أثناء تصارع أبو محلي ويحيى، وحصل العياشي من خلالها على شهرة عظيمة لدى كافة سكان المنطقة الغربية، لذلك كلف كبار رجال الدين بالسيطرة على المواقع الممتدة من تازا حتى تلمسان وكان شيوخ الطريقة الشاذلية، قد عرضوا عليه التكليف نفسه.

كان شيخ زاوية تامغروت (سيدي محمد بن ناصر) قد مُنح العياشي لقب سلطان المغرب، واستناداً على ذلك فقد أعلن العياشي نفسه سلطاناً، ولم يعارضه الأتراك في اتخاذ هذا اللقب، لأن حكام المغرب الأقصى لا يلتزمون بوعودهم وعهودهم، فالديوان الهمايوني كان يرسل في كل سنة سفيراً إلى حكام المغرب للتأكد من تبعيتهم، لأنهم عندما يكونون ضعفاء يرسلون الهدايا والسفراء ويعلنون عبوديتهم للسلطان العثماني، وحالما يشعرون بالقوة، يتمنعون عن إرسال أي شيء.

اضطر زيدان لمسايرة الديوان الهمايوني، ففي سنة ١٠٢٦هـ ١٦١٧م أرسل إلى إستانبول مع كاتبه عبد العزيز صلابي هدايا من القماش الثمين والنفيس، وسلاح وغيرها من الأشياء الأخرى مع عشرة قناطير من الذهب[١].

(١) أوغست كور ص ١٦٧. منشآت السلاطين ص ٢٤٥.
يتحدث المصدران عن وجود رسالة من الصدر الأعظم خليل باشا، وعن رسالة باللغة العربية من السلطان موجهتين إلى حاكم فارس، والرسالتان أرسلتا إليه في نهاية صفر ١٠٢٩هـ =

وفي هذه الأثناء تشاجر زيدان مع جميع جيرانه، والآن جاء الدور على الترك، فالأتراك يرتبطون مع المرابطين بعلاقة جيدة وحسنة، كذلك فإن علاقة الجزائريين بقراصنة سلا جيدة لأنهم يرتبطون بعضهم مع البعض بمصالح مشتركة، وقد بدأت العلاقات فيما بينهم تزداد تقارباً والتصاقاً أكثر من ذي قبل بسبب تعاونهم بحراً بمهاجمة الدول الأوربية، باستثناء الدول التي تقيم علاقات حسنة مع الجزائر، وقد التزم قراصنة سلا بالمحافظة على الاتفاقيات الجزائرية، إضافة إلى ذلك فقد كان الجزائريون يبيعون غنائمهم في سلا[1]. وإذا حاول سلطان فاس ممانعة قراصنة سلا من بيع ما لديهم من غنائم، فإنهم كانوا يبيعونها في أسواق الجزائر.

اتحد قراصنة سلا مع قراصنة الجزائر، وأخذوا يشنون سوية هجمات عديدة على السواحل البريطانية[2].

بعد أن أسس زيدان حكومته في مراكش، أدار البلاد إدارة سيئة للغاية، فالمناطق الشمالية من فاس كانت تعيش حالة فوضى واضطراب لم يعرف لها مثيل، وبنفس الوقت كان مأمون يواجه ثورة الأهالي، لأنه تسلم الحكم بمساعدة الإسبان ولهذا أعلن الأهالي زيادة تحديهم لهم، فأعلنوا الجهاد المقدس ضده، لكنه توفي في الخامس من رجب سنة ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م، فخلفه ابنه عبدالله، وبدلاً من أن يلجأ عبدالله إلى كسب ود الأهالي ومعالجة الوضع السيء لبلاده، وصرف الأهالي عن الانشغال بالحروب

= ومضمونها ما يلي: «إن ما أرسلته مع الشيخ عبد العزيز من تحف وهدايا وأسلحة مرصعة وأقمشة مذهبة مع الرسالتين قُدموا إلى السلطان، وإن الكفار الأشرار الموجودين في بصرى وهي في فاس بالقرب من سوسة قاموا بالاعتداء على المناطق المجاورة لهم، وقد سفكوا دماء المسلمين، وأنت تطلب منا المساعدة من أجل التصدي لهم، لذلك قمت بإرسال سفير محمل بالهدايا إلى السلطان».

(١) أوغست كور: منشآت السلاطين ص ٢٤٨ مختصر الحكم الهمايوني إلى حاكم فاس حكم: إن البحارة تقوم ببيع الأسرى الفرنسيين في فاس خوفاً من بيعها في الجزائر، لذلك يطلب إليك منعهم من ذلك، وإلحاق جميع الأسرى بالفرنسيين مع زيادة الاهتمام، والعناية بالرعية النصرانية الموجودة لديهم، ومن إرسالهم إلى الجزائر، وقد علم السلطان بذلك بواسطة فرنسا كما يطلب إليكم إرسال الشخص الموجود لديكم وإرساله إلى فرنسا.

(٢) أوغست كور ص ١٦٤ نقلاً عن هايدو.

الداخلية أغلق أبواب فاس وقبع في داخلها مغلقاً أذنيه عن صرخات الأهالي، واستمر يتجاهل الواقع المر والسيء الذي تعانيه بلاده حتى وفاته سنة ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م، وخلال هذه الفترة لم يشمل حكمه حتى القسم القديم من فاس، وخلفه في إدارة البلاد ابنه عبد المالك، وقد سار عبد المالك على نهج والده، وفي سنة ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م تعرضت فاس لوباء شديد توفي على أثره عبد المالك ولم يكن لعبد المالك وريث، فأسرع أحمد بن زيدان إلى فاس من أجل استلام الحكم فيها، ولكن الأهالي ألقوا القبض عليه وسجنوه، وفي هذه الأثناء توفي زيدان وبقيت البلاد بدون حاكم، وكان لزيدان ثلاثة أولاد غير أحمد هم: الوليد وعبد المالك والشيخ محمد، وقد استلم اثنان منهما الحكم طوال فترة حياة والدهما، ولكنهما قُتلا.

وفي الخامس عشر من رمضان سنة ١٠٤٥هـ / ١٦٣٦م تسلم الشيخ محمد حكم فاس وتلقب بسلطان مراكش ـ علماً بأن سلطته انحصرت على مراكش فقط، كانت سوسة تخضع لحكم مجموعة من المرابطين، وكانت المنطقة الغربية باستثناء فاس وهيبت خاضعة للشيخ العياشي، أما تادلا وجبال أطلس فقد خضعت لسلطه ابن أبو بكر من مرابطي الطريقة الدلائية.

كان الأشراف يستقرون في تافيللت وسلجماسة، وكان الشيخ محمد يرغب بتوجيه ضربة شديدة ضد الشيخ العياشي، ولكنه كان يخاف من تدخل الأتراك والتصدي له، ولهذا انصرف إلى محاربة مرابطي الدلائية، لكنه انهزم، فعاد إلى مراكش واستقر بها مغلقاً أبوابها عليه، في حين بدأ نفوذ العياشي يتسع ويقوى، لكن اتساع نفوذه أفسد العلاقة الحسنة التي كان يرتبط بها مع الأندلسيين في سلا، وانتهى الأمر بالعياشي إلى مهاجمتهم، وتشتيتهم، لكنه اضطر إلى مصالحتهم لأن الإنكليز كانوا يحاولون التفاهم مع قراصنة سلا والجزائر.

وفي العشرين ذي القعدة سنة ١٠٤٦هـ / الموافق ٥ نيسان ١٦٣٧م أقام الإنكليز اتفاقاً مع العياشي، وبهذه الاتفاقية تساوي مع ملك انكلترا.

وقد نصت المادة السابقة من الاتفاقية على تعهد العياشي بإطلاق سراح الأسرى الإنكليز الموجودين بيد قراصنة سلا، وشراء الأسرى الموجودين

لدى التونسيين والجزائريين وإعادتهم إلى إنكلترا، لكن القراصنة رفضوا بيع الأسرى، لأنهم لا ينتفعون من هذه الاتفاقية، فلجأ الإنكليز في العاشر من نيسان إلى مهاجمة سفن القراصنة واغرقوا عدة سفن كانت راسية في الميناء، فقدم من مراكش أحد القادة القدامى لحلّ هذه المسألة، ونجح في إعادة جميع الأسرى الموجودين في الجزائر، ما عدا أسرى إنكلترا، وبهذه الحالة اعتبر الإنكليز الاتفاقية المعقودة بينهم وبين العياشي ملغاة فساءت علاقته مع القراصنة، لذلك اتحد أهالي سلا مع مرابطي الدلائية وقتلوا العياشي[1].

قوي الأندلسيون في سلا بعد ذلك واتسع نفوذهم، وأقاموا مع القراصنة الأتراك علاقات جيدة، واتفقوا سوية على مهاجمة المسيحيين والتصدي لهم، وغدا الجميع يعملون في ظل العلم التركي، وبذلك اختاروا إقامة شركة مع أقوى الأتراك وأشجعهم.

وبعد مقتل العياشي حكم مرابطو الدلائية فاس، وغدت الخطبة منذ سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م تُقرأ باسم السلطان العثماني[2].

كان الشيخ محمد يحكم مدينة مراكش والمناطق المجاورة لها، لكنه اصطدم بالمرابطين وأصحاب الزوايا الدينية، وكان الشيخ محمد يقول في خطبه وأحاديثه «إن الكذب والنفاق والخيانة منبعها الزوايا والرباط أصلها». وفي سنة ١٠٦٤هـ/ ١٦٤٣ توفي الشيخ محمد وخلفه ابنه أبو العباس، وهذا أيضاً قتله وصيه عبدالكريم سنة ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م وحل مكانه.

لم يكن عبد الكريم من الأشراف، لذلك فلم يتمكن من تأسيس سلالة حاكمة، كذلك فإن سلالة السعديين انتهت أيضاً.

حكام فاس من مرابطي الدلائية وسعوا نفوذهم في المغرب، وفي هذه الأثناء ظهرت قوة جديدة في سلجماسة، ولو أن الأتراك رغبوا بالسيطرة على فاس لتمكنوا من السيطرة عليها بكل سهولة، لأن الفوضى والاضطرابات كانت،

---

(١) أوغست كور.

(٢) يذكر أوغسست كور. أن الخطبه كانت تقرأ بإسم السلطان العثمانى اعتبارا من ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م لكنه ذكر قبل ذلك أن الفاسيين أعلنوا تعينهم للسلطان العثمانى. وهذا يعنى أنهم قبلوا ذكر إسم السلطان فى الخطبة قبل ذلك التاريخ بكثير.

مسيطرة عليها، لكن الجزائريين كانوا أيضا يعيشون حالة من الفوضى والاضطرابات.

تمكن الفوضويون من إنقاذ فاس، لكن هؤلاء كانوا بعيدين عن سلاطين إستانبول، لذلك لم يتمكنوا من توجيه ضربة قاسية ضدهم. وفي الوقت الذي كان الجزائريون يشجعون على استمرار العصيان والتمرد، كان الجنوب هادئاً وساكناً، لكن التمرد القائم في تافيللت وجبال أطلس والمناطق الشمالية مازال مستمراً وكان يشتد يوماً بعد يوم. وليس مستبعداً على الأتراك أن يعكسوا هذه الصورة، ويشنوا هجوماً على أشراف سجلماسة، مستغلين الفوضى السائدة في تلك المناطق[1].

---

(١) أوغست كور.

- ٦ -
عهد الباشوات

يونس باشا ـ تمرد القبليين سنة ١٠٤١هـ ـ الخصام مع تونس ـ حسين باشا ـ العلاقات مع الفرنسيين ـ قصة سانسون نابلون ـ وفاته ـ العصر الذهبي للقرصنة ـ عصيان القولوغلية ـ القدوم لأخذ الأسير بردان ـ قطع المباحثات بين يونس باشا والفرنسيين ـ أعمال القرصنة ـ علي باشا ـ العداء مع الفرنسيين ـ تخريب الباستيون ـ كارثة أفلونيا ـ عصيان القبليين ـ إعادة تأسيس الباستيون ـ حسن باشا للمرة الثانية ـ أبو جمال يوسف باشا ـ تصديق المعاهدة الفرنسية ـ إخماد عصيان القبليين ـ بورصلي محمد باشا ـ أعمال علي بتشين ـ أحمد باشا ـ القناصلة القسيسيون.

في الوقت الذي جاء فيه يونس باشا إلى إمارة الجزائر، كان القبليون يعلنون تمردهم ثانية، ونتيجة للنزاع على الحدود بين الجزائر وتونس فقد نشب صدام مسلح بين الطرفين، أسفر عنه سفك دماء كثيرة، وكان هذا أول صدام بين الأخوة المسلمين.

أدرك يونس باشا خطورة ذلك، فعمل على إيقافه وحل الخلاف بينهما[١]. في حين استمر القراصنة بممارسة أعمالهم البحرية كالمعتاد، وقاموا بضرب السواحل الإسبانية والإيطالية والبرتغالية، ووصلوا بغزواتهم إلى سواحل انكلترا وإيسلاندة[٢].

---

(١) انظر قسم تونس. ترجمة الحاج عبد السلام أدهم.

(٢) انظر نشاط القراصنة الأتراك في البحار الخارجية فيما سبق من الكتاب.

تمكن القنصل الفرنسي بلانشار (Blansar) من كسب ود وصداقة يونس باشا من خلال الهدايا التي قدمها له، لكن اعتماد القنصل الفرنسي على الباشا وتقربه منه، دفع الرياس والقراصنة للوقوف ضده، فحينما أهين القنصل في الديوان، لم يتمكن الباشا من الدفاع عنه وإنقاذه، وعندما قال بلانشار لن أستمر في عملي ما لم يتم الاعتذار عن إهانتي وتحقيري قيدوه بالحديد، ورموه في السجن لمدة أربع وعشرين ساعة وبعدها أطلق سبيله، وتابع العمل في وظيفته، وفي هذه الأثناء تم عزل يونس باشا وحل مكانه حسين باشا[1].

أصر الديوان الجزائري على إعادة الأسرى الأتراك الذين وقعوا بأيدي السفن الفرنسية، وحينما أدرك أعضاء الديوان بأن طلبهم لن ينفذ، صدرت أوامر بمصادرة الأموال الفرنسية في الجزائر، كما فُرضت مقاطعة شديدة على الرعايا الفرنسين، فكتب سانسون نابللون إلى الملك الفرنسي بشأن إعادة أسرى ريشليو (Risliyö)[2]. لكن إعادة الأسرى الأتراك ليس بالأمر السهل، لأن أصحابهم كانوا يريدون عن كل أسير مائة أيكو (Egü)، لذلك لم يتجاسر أحد على القيام بمثل ذلك، وكان من بين الأسرى خمسة أو ستة مهتدين. ولكن ديوان الجزائر أصر على إعادتهم، وبما أن الفرنسيين عاملوا الأسرى الأتراك معاملة قاسية، لذلك عمد الجزائريون على معاملة الأسرى والتجار الفرنسيين بالمثل، وحرموهم من الطعام وحتى الخروج من سجونهم، وعندما حاول القنصل بلانشار مساعدتهم على الهرب، أُلقي القبض عليه، ووضع في سجن المجدفين، وبنفس الوقت تطوع الأهالي من تلقاء أنفسهم لمراقبة الفرنسيين في خارج وداخل المدينة، وبدأوا بضربهم بالحديد بشدة ودون رحمة أو شفقة، وفرضوا على من وقعت أيديهم عليه ممارسة الأعمال الشاقة القاسية، ونظراً لعدم وجود معاهدة يُعمل بها بخصوص الأسرى، فقد أصدر الجزائريون حكماً يبيح اغتنام السفن الفرنسية وبيع طواقمها، فاندفع

---

(١) توجد كتابة لحسين باشا فى النوريخ التالية ١٠٣٧هـ و ١٠٣٩هـ ومن بعد ذلك برد كتابة له فى سنة ١٠٤٢هـ وبناء على ذلك فإن مرحلة يونس باشا تكون فى السنوات التالية ١٠٤٠هـ و ١٠٤١هـ و ١٠٤٢هـ أو خلال تلك السنوات، ويذكر غابرييل كولين أن حسين باشا عين ثانية على الجزائر.

(٢) ورد اسمه سانسون نابلون، أما جولياد فيذكره سانسود نابليون (أما المؤلف فكتبه سانسون نابللون فقمنا بترجمته كما كتبه المؤلف) (المترجم).

القراصنة إلى سواحل البروفانس وبدأوا بجمع الأسرى من هناك، وقد أدت عملية تهريب اثني عشر أسيراً فرنسياً إلى وقوع مئتي شخص فرنسي في الأسر بدلاً منهم، وقد حمّل القنصل مسؤولية ما حدث لسانسون نابلون لكونه يرتبط مع الجزائريين بعلاقة جيدة، أما سانسون نابلون فقد كتب إلى فرنسا من أجل تهدئة الأفكار، وأكد لهم إعادة الأسرى الفرنسيين بأقصى فرصة ممكنة، لكن الملك كتب إليه يأمره بالعودة إلى فرنسا للبحث في اتفاقية سنة ١٦٢٨م وللعمل على تعديل بعض بنودها.

لكن سانسون نابلون تأخر لسببين أولهما: إدراكه بأن الوقت غير ملائم لإدخال أي تعديل على بنود المعاهدة القديمة بسبب الخلاف القائم بين الطرفين، وثانيهما محاولته الحصول على الامتياز الممنوح للجنويين في طبرقة، ولكن هذا يتطلب منه إزالة الخلاف القائم وتسوية الأوضاع، وهذا الأمر يستغرق زمناً طويلاً، وبغية الحصول عليه بأقصر وقت، اعتقد أن شن هجوم مفاجيء علي طبرقة لطرد عائلة لومليني منها يحقق غايته ومقصده، ولهذا اتفق مع بائع الخبز الجنوي على فتح أبواب المخازن أمام الفرنسيين مقابل مبالغ كبيرة من المال.

جمع سانسون عساكره من لاقال والباستيون وأضاف إليهم بعض الحراس الموجودين في طبرقة، وبعد أن أركبهم بالسفن كلف فرانسيو دارفيو بمساعدته، وفي اليوم المحدد استغل ظلام الليل واتجه إلى طبرقة، وعندما بلغها أعطى الإشارة المتفق عليها مع الخبّاز[1].

تقدم سانسون بعساكره حتى الحصن، وحالما بلغوا الخندق أدركوا أنهم وقعوا في الكمين، وأن الخبّاز خدعهم، وانهالت عليهم نيران غزيرة وكثيفة، فاضطر السالمون منهم للعودة إلى السفن بسرعة مع بعض الذين أصيبوا بجروح طفيفة، أما سانسون فقد قتل نتيجة إصابته في رأسه.

وفي السنوات التي أعقبت موت سانسون، شهد تاريخ الجزائر البحري تطوراً بحرياً مزدهراً، وقد اعتبرت تلك الفترة بالعصر الذهبي للقرصنة الجزائرية، ففي هذا الدور بلغت القرصنة الجزائرية قمة مجدها وتفوقها

---

(١) دي غراممونت.

البحري، كذلك فقد بلغت مدينة الجزائر درجة كبيرة من الغنى لم يُعرف لها مثيل، ويحكي بردان عن ذلك قائلاً: من سنة ١٦٢٩م وحتى سنة ١٦٣٢م أوقع الجزائريون خسائر فادحة بالتجارة الفرنسية تقدر بقيمة ٤,٧٥٠,٠٠٠ ليرة، وأسروا ثمانين سفينة من اثنتي وخمسون ميناء في بحر المحيط، كما أسروا من البحارة والمسافرين / ١٣٣١/ شخصاً، ما عدا ما غنموه من الإنكليز والفلنديين والإسبان وما جمعوه من سواحل البحر الأبيض، ولو أنهم جمعوا ما غنموه من مال وأسرى ووضع أمام العين لفهم آنذاك مدى غنى الجزائر.

أصبحت مدينة الجزائر في حالة ثورة دائمة بسبب الغنى وامتلاء خزائن الرياس والأهالي بالمال والمجوهرات، هذا الغنى أسفر عن حدوث مرحلة من الفوضى بلغت ذروتها سنة ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م، وقد طالب الإنكشاريون بانتزاع إدارة الخزينة من الباشا، وتحميله مسؤولية دفع رواتب العساكر.

قبل حسين باشا هذا العرض مكرهاً، لأن الدخل الخاص المخصص للباشا لا يكفي لدفع المعاشات للعساكر، فغضب الإنكشاريون منه، وألقوا القبض عليه ورموه بالسجن، وبعد معاملة قاسية أطلقوا سراحه، فاستغلت القولوغلية الفوضى السائدة وتمرد الإنكشارية، وقررت القضاء على الإنكشارية واستلام الحكم بدلاً منها.

وفي تموز سنة ١٦٢٣ ارتدى القولوغليون زي الفلاحين، وبعد أن أخفوا السلاح تحت ملابسهم دخلوا المدينة على شكل جماعات صغيرة، وحالما توزعوا في أحياء المدينة، قاموا بمهاجمة الإنكشاريين، واستولوا على بعض المخافر، وكان القولوغليون يعتقدون بأن الأهالي ستهب لمساعدتهم، لكن الأهالي جبناء، فلو كان النصر حليف القولوغلية لكانوا لهم آنذاك، ومع بدء الهجوم دهش الإنكشاريون، فعمدوا إلى إغلاق الأبواب، وبدأوا بمهاجمة العصاة بشدة متجهين إلى القسم العلوي من المدينة، ودافع القولوغليون عن أنفسهم، وحينما شدد الإنكشاريون الهجوم عليهم، أسرعوا إلى القلعة الداخلية محاولين الخروج إلى خارج السور، وفي هذه الأثناء اشتعل البارود الموجود في المخازن، وأدى تفجيره إلى تخريب القلعة الداخلية وهدم وتخريب خمسمائة منزل مجاور لها، وقُتل على أثرها ستمائة

شخص، ولـم يبـق من القولـوغليين إلا القليل منهـم، فألقـى القبض علـى الموجودين في الأزقة وبعض المنازل واعدموافيما فر قسم منهم إلى القبليين، فاستقبلوهم بكل ترحاب وتقدير[1].

إزاء ما فعله القولوغليون، وما أسفر عن ذلك من سحق كامل لهم، فلم يعد هناك أي ضرورة لمسألة التوازن التي شغلت غالبية عظمـى من الـولاة الذين عينوا على الجزائر، ولا حتى بين الإنكشارية والرياس، لأن الأمـور توضحت إثر ذلك، وغدت الرياس وطائفة البحارة هي القوة الفعالة والأقوى في ولاية الجزائر، وكان علـى بتشين من أقـوى الـرياس وأكثرهـم نفـوذاً وشعبية[2].

تسلم علي بتشين قيادة السفن البحرية، وغدا حكمه سارياً على جميع الرياس وطائفة البحر مع الطوائف الأخرى بما فيها الإنكشارية والقولوغلية، وكان يملك قصراً على شاطىء البحر ومضافة فخمة في القسم العلـوي من المدينة، ولديه ثروة لا تعد ولا تحصى، إضافة إلى خمسمائـة أسير من غير العاملين بسفنه وحقوله ومزارعه، كما أنشىء جامعـاً بالقـرب من السجـن، وأصبح يحكم الجزائر بما يملكه من قوات سرية وعلنية وكان هدفه الاستيلاء على البلاد بشكل رسمي، ولهذا بدأ برسم الخطط واتخاذ التدابير التي تساعده على التخلص من سلطة السلطان العثماني، والقضاء على الإنكشارية نهائياً باعتبارها تشكل عقبة رئيسية في وجهه، وبدونها يتمكن من حكم البلاد دون رقيب أو حسيب، ولكسب أنصار له تزوج من ابنة سلطان كوكو.

حيال العداء القائم بين الجزائر وفرنسا، غدت فرنسا في حيرة من أمرها ماذا تفعل؟ فالمجلس الملكي انقسم على نفسه، قسم يرى مهاجمة الجزائر

(١) إن معظم المؤرخين يتحدثون عن هذه الحادثة بشكل مغالط للحقيقة، والصحيح هو ما كتبناه. أما ما نشر فى كتاب عاريت دى فراس ص ٤٥٢ فهو مأخوذ عن رسالة إليه نشرت في الجزائر سنه ١٦٣٣م وإن باشا الجزائر أكد صحة ما ذهبنا إليه من خلال التقرير الذى قدمه إلى الديوان الهمايونى.

(٢) بذكر دى غراممونت، بأن كنيته على بتشة وأنه من المهتدين، والأصح هو على بجين تركى الأصل، أما بشأن الأعمال التى قام بها على بجين (بتشين في الجزائر ما بين سنـة ١٦٣٠ - ١٦٤٦م فهى مسجلة فى رسائل الأسرى إلى ذويهم وأصدقائهم).

فجأة وتكليف الأسطول بتدمير قلاعها وتمزيق قراصنتها، مستغلين حالة الفوضى القائمة في الجزائر، لأنه في تلك الحالة لن يتمكن قراصنة الجزائر استجماع قواهم وإن أسطولهم يصاب بالإرباك لدى أول طلقة توجه عليه، وخاصة لدى تكليف الأسطول التجول في البحر بصورة دائمة أما القسم الآخر فقد نظر إلى الأمور بمنطقية أكثر، وأدركوا أن تجول الأسطول بصورة دائمة، سيؤدي إلى زيادة النفقات، وإيقاع الخزينة بعجز كبير، إضافة إلى صعوبة تأمين الأطعمة والأرزاق له، كما أن دخول فرنسا في حرب غير متوقعة مع دولة ما، سيلزمها بسحب الأسطول من الشواطىء البربرية، وتكون بحارته مرهقة، وعلى كلتا الحالتين فلن تحقق أي نصر، كما أننا سنخسر صداقة الدولة العثمانية، ولن نستطيع طلب المساعدة منها في حالة الخطر، وبنتيجة المناقشة فاز أنصار الصلح وتقرر إقامة علاقة جيدة بعد أن يتم التوقيع على معاهدة جديدة، فأرسل صمسون لوباج مديراً للباستيون بدلاً من سانسون نابللون، وكُلف بتعديل معاهدة ١٦٢٨م، ليتم من خلالها إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين، ولكن الحكومة الفرنسية كانت تعلم بأن الجزائريين لن يتركوا الأسرى دون مقابل، فكلف القسيس بردان بمرافقة لوباج، وزودته بالمال اللازم لشراء الأسرى.

وصل الوفد الفرنسي إلى الجزائر في الخامس عشر من تموز سنة ١٦٢٤م وقد انزعج القراصنة لدى مشاهدتهم سفينة ترفع العلم الفرنسي، وعم الغضب وجوه الجميع، ولكن الغضب خف حدته، حالما أعلمتهم إستانبول بأن الأصول والأعراف تقتضي ذلك.

نزل الوفد إلى البر يوم السبت أثناء اجتماع الديوان. فاستدعاهم الديوان، واستمع إليهم وعن سبب زيارتهم، ووعدهم بأنه سيطلق سراح جميع الأسرى، وسُر الجميع بهذا الوعد، وأعلن الديوان عن قتل كل من يتعرض للسفير ومرافقيه.

وكخطوة أولى أمر الديوان بإعفاء الأسرى الفرنسيين من الأعمال الشاقة، ولكن القرار الرسمي لم يصدر بعد، لأن حسين باشا كان معزولاً،

---

(١) كتب برودان هذه الرحلة بشكل مفصل.

وأمير الأمراء المعين مكانه كان على وشك الوصول، وحقيقة الأمر وصل يوسف باشا بعد يومين من وصول الوفد الفرنسي[1]، وأقام في قصر الجنينة، وبعد ذلك استقبل السفير، وبعد أن فهم الأوضاع اعترض على ذلك بعدما كان على وشك الموافقة، فطالت برفضه المسألة ثلاثة أسابيع وخلال هذه المدة تقابل الباشا مع السفير الفرنسي، واستأذن الديوان بعقد معاهدة جديدة معه، وكان يوسف باشا طماعاً ومحتالاً، ولم يفكر إلا باسترداد الأموال التي دفعها للحصول على منصب أمير الأمراء وجمع مبالغ إضافية عليها، فانصرف لتحقيق أهدافه ومراميه الشخصية.

أدرك يوسف باشا أن مباحثاته مع فرنسا فرصة سانحة ومريحة، وبما أن الفرنسيين هم أول من بدأ العداء، وأن السفن والأسرى الموجودين في الجزائر أخذوا بنتيجة الحرب، إذن فهم غنائم ومن حق الجزائريين بيعهم في البازار (السوق)، وتمكن بدهائه من إقناع الديوان بعدم استرداد الأسرى دون مقابل، وبما أن بردان كان ينتظر صدور قرار بذلك، ولهذا باشر على الفور بشراء الأسرى، وعرض صمسون لوباج على الجزائريين تكليفاً يتضمن استبدال ٣٤٢ أسير فرنسي بـ ٦٨ أسير تركي من الموجودين في مرسيليا، وكان من المحتمل جداً قبول الديوان هذا العرض. لكن الباشا اعترض على هذا التكليف، وأشاع بأن الثمانية والستين أسيراً قد بُيع قسم منهم في مالطة منذ زمن بعيد، وكان يأمل من ذلك قيام ثورة من تحت يده، وطلب من الديوان السماح له ببيع جميع الأسرى الفرنسيين بغية إنقاذ الأسرى الأتراك، ولكن الديوان لم يصدقه.

أراد الباشا إعطاء الفرنسيين من أسراهم بعدد أسرى الأتراك الذين سيتم التبادل عليهم، لكن عائلات الأسرى أرادوا الانتهاء من هذا العمل وعودة رجالهم بأقصى سرعة، لذلك أخذوا يمارسون الضغط على الباشا، وقال هؤلاء للباشا إذا أطلقتم سراح الأسرى الفرنسيين أولاً، فإن الفرنسيين سيطلقون الأسرى الأتراك، فاشترط الباشا عودة الأسرى الأتراك أولاً وأراد صمسون لوباج (Lopaj) وضع نفسه رهينة، لكن

(١) توجد أخطاء كثيرة فى تاريخ يوسف باشا. أولا تاريخ تعيينه خطأ وبعد ذلك يوجد تطابق بينه وبين يوسف باشا آخر، ففى سنة ١٦٤٠ عين بوسف أبو جمال الذي قاد الحرب ضد القبليين.

الباشا رفض ذلك ، وبناء على ذلك فإن شيئاً لم يحدث ، وقرر صمسون لوباج العودة ، وتأسف الباشا لعدم حدوث تفاهم ، ووصل لوباج إلى مرسيليا في التاسع من تشرين الأول ، وبعد أن زار المؤسسات التجارية ، وبما أنه عجز عن إقامة معاهدة بين الطرفين ، فقد بقي تطبيق الشق الذي يتعلق بتجول الأسطول في السواحل البربرية ، والبحر الأبيض المتوسط، وأمر الملك بإنشاء أسطول في البحر الأبيض المتوسط، ولكن إكمال صنعه يحتاج إلى سرعة في العمل ، لذلك اتخذت كافة القرارات اللازمة لذلك ، وفي السابع من أيار قاموا بجمع المتسولين والمشاغبين للقيام بأعمال التجديف في الأسطول بعدما قيدوهم بالحديد ، وأمر سكان السواحل بتجهيز قوة محلية من أهالي السواحل بقصد الدفاع والتصدي للقراصنة أثناء قدومهم .

وفي هذه الأثناء ، زاد نشاط قراصنة مالطة ، ويمكن القول بأن سواحل فرنسا أصبحت أكثر أمناً من ذي قبل ، لكن إيطاليا كانت تتعرض سواحلها للسلب والنهب ، وكان القراصنة يذهبون إلى المناطق الواقعة ما بين مسينا وجنوة في حال عدم حصولهم على غنائم ، لأنهم لم يعتادوا العودة إلى الجزائر بدون غنائم ، ولهذا ظلت تلك المناطق عرضة لهجماتهم .

اعتاد القراصنة على مهاجمة المعرض الذي يقيمه أهالي مسينا كل سنة ، فيأخذون منه الأموال والأشياء التي يجدونها فيه ، كما كانوا يأسرون من كالابريا سنوياً أكثر من سبعمائة شخص ، ولدى قدوم القراصنة يفر أهالي ڤيكو إلى الجبال ، ويبقون فيها حتى خروج القراصنة وعودتهم من هناك ، إزاء ذلك اضطر حاكم نابولي في ٩ آب سنة ١٦٣٦م على طلب النجدة والمساعدة من غراند ميترين Grand Maitrin حاكم مالطة .

وفي ربيع سنة ١٦٣٧م قام القراصنة بنهب سردينيا وحرقوا سريالة Servialc وبوريغهتة (Borighette) وأسروا منهما خمسمائة شخص ، كما هدموا وأحرقوا سواحل ومصايف صقلية وكورسيكا ، وفي خريف سنة ١٦٣٨م عاد القراصنة ثانية لمهاجمة جاتة (Gaete) وخربوا المناطق المجاورة لها ، كذلك فقد هاجموا كروتون (Kroton) وخربوها ، وأسروا منها ألف وخمسمائة شخص ، وفي هذه السنة غنموا من الإسبان ما قيمة ثمانية ملايين دوكة .

وفي سنة ١٦٣٩م لولا هبوب العاصفة ، لما نجت الخزينة الموجودة في

(نوتردام دي لورت Notredem de Loret) من أيدي علي بتشين ، كذلك فقد هاجم كالابريا وصقلية وأسر منها عدة الآف من أطفال ونساء غيرهم .

وفي سنة ١٦٤٤م هاجم الجزائريون موندراغون (Mondragon) وبويلة Pouille ، وكالابريا وأسروا منهم أربعة آلاف شخص ، وبذلك غدت سفن نابولي وتوسقانيا (توسكانيا) لا تجرؤ على الخروج ، وقد استمر الوضع على هذه الحالة قرابة سنتين[1] .

وحينما فرغت مناطق البحر الأبيض المتوسط وسواحله من الغنائم ، عبر القراصنة مضيق جبل طارق ووصلوا حتى المناطق القطبية[2] .

غدت السفن الجزائرية مشهورة ويحسب حسابها ، وبهذا الصدد يقول بردان: في هذه المرحلة أصبحت كل سفينة جزائرية تزود من ٢٥ إلى ٤٠ مدفعاً، كما أن الطواقم البحرية سلحت هي الأخرى تسليحاً جيداً، وقد بلغ عدد أسطولهم أكثر من سبعين سفينة ، يضاف إلى ذلك فقد وجد مثل هذا العدد من السفن ذات المجاديف ، وبهذا يكون بردان قد قدم لنا فكرة عن القوات البحرية الجزائرية آنذاك ، وبالرغم من معرفة فرنسا بما يتمتع به القراصنة من قوة وما يتصفون به من شجاعة ومهارة بحرية إلا أنها كانت مصممة على التصدي لهم ومواجهتهم .

وفي الثاني من أيار ١٦٣٩م تولى كل من دوسور ديس (Desourdis) وهاركوت (Horcourt) قيادة الأسطول الفرنسي في البحر الأبيض المتوسط، وبعد أن جهزا الأسطول تجهيزاً كاملاً ، تحركا مع بداية حزيران ، وعاد إلى مرسيليا في التاسع والعشرين من تموز ، وقد غنما أثناء رحلتهما خمس سفن جزائرية ، ولكن الجزائريين لم يفكروا بمهاجمة المناطق الفرنسية ، فاستغل يوسف باشا هذه الفرصة وفرض على سكان مدينة الجزائر ضريبة قدرها مئتا ألف قرش ، وعلى القبائل ثلاثمائة ألف قرش بحجة تعمير الحصون ، لكنه أخذها لجيبه ولم يفعل أي شيء . وفي سنة ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م عزل وعين مكانه علي باشا ، وعاد يوسف باشا إلى

(١) دي غراممونت .

(٢) دي غراممونت .

إستانبول بجميع أمواله ، وهناك رواية تقول بأن يوسف باشا أسر في الطريق[1] .

كان علي باشا ضعيفاً ، وبالطبع ففي مثل هذه الحالة لن يتمكن من إدارة البلاد لأن مثل هذه البلاد لا تنفذ إلا كلمات الجبابرة الأقوياء ، فبعد استلامه البلاد بعدة أيام ، قام أمير صنجق قسنطينة مراد بك بإلقاء القبض على رئيس قبيلة الداوودية وعلى شيخ العرب محمد بن الصخري بتهمة الخيانة ، كما ألقى القبض على ابنه أحمد وعشرة من الرؤساء الآخرين ، وقطع رؤوسهم ، وكان مراد بك يهدف من ذلك تقوية نفوذه بغية الحلول مكانهم ، إلا أن النتيجة أسفرت عن ردة فعل عكسية أودت بحياته وحياة العشرات من العساكر .

وفي السابع من تشرين الثاني ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م تحرك الكومندور مانتين (Komondör Mantin) باثنتي عشرة سفينة حربية كبيرة ، وقد رافق صمسون الوباج (Samson Löpaj) الأسطول بهدف تعديل معاهدة ١٦٢٨م وتصديقها من ديوان الجزائر ، وإعادة الأسرى المحتجزين في الجزائر ، كما أن الأسرى الجزائريين كانوا موجودين في الأسطول الفرنسي ، وحينما تحرك الأسطول نحو الجزائر اعتقد الفرنسيون أن الجزائريين سيخضعون فوراً ، نظراً للهيبة التي سيفرضها الأسطول عليهم ، لكن فصل العواصف البحرية اقترب ، وأنه لا يمكن الثقة بهواء البحر الأبيض المتوسط ، وهناك احتمال كبير من تعرض الأسطول للغرق إثر عاصفة بحرية غير متوقعة .

وفي السابع عشر من تشرين الثاني ، ساقت العاصفة سفينتين إلى السواحل الجزائرية ، فرفعتا العلم الأبيض ، وبعدما ألقيتا التحية المعتادة ، دخلتا الميناء ، وبعد يومين وصل الكومندور مانتين وصمسون لوباج ، أسرع لوباج لمقابلة الباشا وأعلمه عن سبب قدومهما ، وجرت بين الطرفين مباحثات مطولة استمرت حتى التاسع والعشرين من تشرين الثاني ، ولكنهما لم يتوصلا إلى نتيجة مرضية ، وعلى الرغم من رداءة الطقس ، فقد فتح القائد الفرنسي الأشرعة ورفع علم الحرب ، وكان بنيته الانسحاب بعد قصف الميناء

(١) دي غراممونت نقلا عن جريده دو فراس لسنة ١٦٣٨ ص ١٥٧ يقول أن السفن التوسكانية قامت بأسر الباشا البربري .

وتدميره، لكن القنصل الفرنسي ڤياس (Vias) أعلمه، بأنه في حال إطلاقه طلقة واحدة، فإن الجزائريين سيقومون بقتل جميع الأسرى الفرنسيين الموجودين لديهم، فعدل عن فكرة إطلاق النار وانسحب عائداً إلى بلاده.

وفي الثاني من كانون الأول دخل الكومندور شاستيلوز K. Sastelus ميناء الجزائر، واستولى على سفينتين محملتين بالقمح، وأسر طواقمهما وعددهم سبعون بحاراً، كما أنقذ خمسة وسبعين أسيراً مسيحياً كانوا يعملون بالتجديف، ولم يبق شاستيلوز طويلاً في الميناء، وعلى الفور فتح أشرعة سفنه وانسحب عائداً إلى بلاده، وقد قصد من ذلك إهانة الجزائريين.

طالب أصدقاء وأقرباء الأسرى الأتراك الموجودين في الأسطول الفرنسي الباشا والديوان بقبول الشروط الفرنسية، لكن الأغنياء وقفوا في وجه إقامة أي معاهدة جديدة مع الفرنسيين، لأنها ستلحق بأعمالهم ضرراً كبيراً.

وكان القنصل الفرنسي ڤياس يرتعد خوفاً من غضب الرياس، وأخذ يردد قائلاً: إن هذه الأعمال من تدبير صمسون لوباج، وفي الثامن من كانون الأول اجتمع الديوان على عجل وقرر نقض الصلح مع الفرنسيين، كما أمر بسجن القنصل الفرنسي فياس، ولكن أصدقاءه تدخلوا بالأمر محاولين إطلاق سبيله، كما كلف الديوان علي بتشين بهدم المؤسسات التجارية الفرنسية، ومنع الفرنسين من إنشاء مؤسسات تجارية في الجزائر، وعلى الفور توجه الريس علي بتشين إلى الباستيون وألقى القبض على المستخدمين فيه، وقد دهشوا من ذلك لأنهم لم يكن لديه أي علم بما حدث ولهذا لم يتمكنوا من فعل أي شيء يدل على الرفض أو المقاومة، ومع نهاية كانون الأول عاد الريس علي إلى الجزائر ومعه ثلاثمائة وسبعة عشر أسيراً فرنسياً، أما الفرنسيون فلم يتمكنوا من تكليف أسطولهم بالانتقام من الجزائريين، لأنهم كانوا منشغلين بالحرب مع إسبانيا، ومن غير الممكن فصل أي سفينة منه، لأن ذلك سيؤدي إلى إضعاف قوة أسطولهم، وكانت الشروط الثابتة للأسطول تحذر تحريك أي سفينة منه بصورة فردية.

تعتبر سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م من السنوات السيئة على الجزائريين، لأن

الأهالي لم يتمكنوا من بيع ما لديهم من محاصيل بسبب هدم الباستيون، ولهذا فلم يتمكنوا من دفع الضرائب المفروضة عليهم، وفي الوقت نفسه فقد حرموا من الضريبة التي كانوا يأخذونها من الباستيون، فأدى هذا إلى وقوع الحكومة بعجز مالي كبير.

وفي الوقت نفسه فقد تمنع القبليون في صنجق قسنطينة عن دفع الضريبة، وأعلنوا تمردهم بقيادة خالد الصغير، وبما أن مراد بك قتل خلال تلك الأحداث، لذلك فقد قام شقيق شيخ العرب أحمد بن الصخري بوعكازي بجمع سكان الجنوب حوله، واتحد مع خالد الصغير، وتوجه الطرفان سوية إلى قسنطينة، وقاما بنهبها وتخريب أطرافها[1]. وبغية منعهما من دخول قسنطينة، طلب مراد بك مده بقوة فأرسل إليه قوة قوامها أربعمائة إنكشاري، وغدا مجموع قواته ستة آلاف إنكشاري، وتحرك بهم لمحاربة العصاة، لكنه انهزم بالقرب من صطيف، وعاد الإنكشاريون إلى الجزائر بعدما فقدوا قسماً كبيراً منهم ومن جملتهم مراد بك، وبنفس الوقت فقد تعرض العصاة إلى خسائر كبيرة أيضاً.

أعلنت قبائل جرجورة (Curcura) بقيادة سلطان كولو (ابن علي) العصيان لمدة سنتين، وبما أنها قامت بقطع الطريق فقد اضطر الإنكشاريون للتجول بعيدين عنها، وحالما عادوا إلى الجزائر وجدوها غارقة بالحزن والأسى.

كان السلطان العثماني قد طلب المساعدة من الرياس، لأنه كان في حالةحرب مع البندقية، وإذا كان الرياس يريدون التماطل وعدم الذهاب، فإن الهدايا التي وزعها عليهم ممثل السلطان القادم من إستانبول، جعلهم يلبون نداء السلطان.

تحرك الأسطول الجزائري بسرعة، وأثناء سيره في الطريق تعرض لعاصفة هوجاء أجبرته على الالتجاء إلى أفلونيا (Avlunya) وأثناء استراحتهم هناك، هاجمهم أسطول البندقية بقادة الأميرال قابللو (Kapello) بعشرين سفينة ونتيجة لقرب سفن الجزائر من بعضها البعض، لم تتمكن من الالتفاف

---

(١) دي غرامونت.

والمناورة، واستخدام مدفعيتها.

استولى الأعداء على اثنتي عشرة غاليوطة، وغرق أربع غاليوطات، كما فقدوا سفينتين من نوع برغانطة، وخسروا ثلاثة الآف وستمائة وأربعة وثلاثين أسيراً مسيحياً من العاملين بالتجديف في سفنهم، كذلك فقد فقدوا خلالها ألف ومائة شخص، ولم ينج من الرياس إلا القليل، في حين تمكن علي بتشين من الخروج بسلام، لكنه تعرض إلى أضرار كبيرة، لأن المجدفين والسفن كانوا من ملكه الخاص[1].

تأثرت البحرية الجزائرية تأثيراً كبيراً من هذه الحادثة، وخاصة بعدما فقد القراصنة العمل على الغاليوطات الكبيرة، وإذا كان صنع الغاليوطة سهلاً، فإن تجهيزها واستكمال لوازمها من أصعب الأمور وأكثرها تعقيداً على الرياس، وقد تسببت حادثة أفلونيا في إضعاف العلاقة ما بين الديوان الهمايوني وقراصنة الجزائر.

ولدى سماع السلطان بالمصيبة التي حلت بالجزائريين، أمر بسجن سفير البندقية لوغى قونتاري Luigi kontari . كما أمر بحجز ومصادرة أموال رعايا البندقية وكرد على عمل البندقية، أمر بإنشاء عشرين سفينة لضرب وحرق مملكة البندقية، ووعد الرياس بإعطائهم هذه السفن كتعويض لهم.

قدم البندقيون إلى السلطان مراد مائتي ألف سغين (Segin)، كما قدموا هدايا أخرى لبقية الوزراء، فتم الصلح إثر ذلك بين الطرفين، ولم يبحث خلال ذلك الصلح مسألة إعادة السفن إلى الجزائريين، ولا حتى السفن المأخوذة من قبل الجزائريين.

نتيجة لذلك كان من السهل تقدير ومعرفة غضب الجزائريين، فالرياس عندما شاهدوا وتأكدوا من أن غيرهم المستفيد، وأنهم وحدهم دفعوا الثمن غالياً وضحوا بدمائهم وأموالهم، ولهذا فقد قطعوا وعداً على أنفسهم بعدم القيام بمثل ذلك والتزموا بوعدهم.

---

(١) ذهب علي بتشين بالأشياء التي أنقذها إلى سلانيك ومن هناك عاد إلى الجزائر، بعدما صنع هناك سفينة جديدة مع بعض أصدقائه، ولم يكن وقتها يملك اي شيء تاريخ نعيما ج ٣ ص ٤٣٩.

ظل التمرد مستمراً في ولاية الجزائر الشرقية، ففي سنة ١٠٤٩هـ / ١٦٣٩م أرسلت قوة عسكرية لتأديب القبليين، لكن هذه القوة بقيت محاصرة في الجبال إلى أن توسط لها أحد المرابطين، وقبل القبليون الصلح مع الجزائر شريطة اعفائهم من الضرائب والعفو عن القولوغلية، والسماح للفرنسيين بإنشاء الباستيون من جديد، فقبل الجزائريون بذلك. ولكنهم لم يلتزموا بوعدهم تجاه العفو عن القولوغلية، فاضطرت القولوغلية إلى إقامة مستعمرة خاصة بها بجوار نهر إيسّر في وادي الزيتون.

علاوة عن الفشل التي تعرض لها الجزائريون، فقد عم البلاد وباء شديد، كما تعرضت البلاد إلى زلازل كبيرة، نتج عنه مجاعة وقحط قلما شهدت البلاد لهما مثيلاً. فاستغل الإنكشاريون ذلك، وأعلنوا تمردهم، كما قاموا بخنق حمزة خوجة انتقاماً لهزيمتهم.

ولدى سماع الملك الفرنسي بموافقة الجزائريين على إعادة بناء الباستيون، كلف أحد مقربيه ويدعى جان باتيست Jan Batist بالتوجه إلى الجزائر سنة ١٦٣٩ م بمهمة التباحث مع الجزائريين للتوصل إلى نتيجة مرضية، وكانت المعاهدة التي يحملها جان باتيست إلى الجزائريين لا تختلف كثيراً عن معاهدة سنة ١٦٢٨ م، وبما أنه كان لدى الطرفين رغبة صادقة بإعادة العلاقات فيما بينهما، لذلك وقعت معاهدة من قبل الطرفين وصُدق عليها، وعلى الفور بدأ أصحاب المتاجر في الباستيون بإنشاء محلاتهم التجارية وأسرعوا باستكمال رجالهم وكافة لوازمهم الأخرى.

تتألف المعاهدة من ثلاث وعشرين مادة، وكان من أهم موادها (إذا وقع حرب بين فرنسا والجزائر، فإن الباستيون يبقى على وضعه، وإن كل من يخل بهذه الشروط يتكفل بمعاشات الإنكشارية، أما دفع الضريبة والبالغ مقدارها أربعة وثلاثين ألف دوبلة ذهبية، فإن دفعها يتم سنوياً شريط أن تحفظ في الخزينة الداخلية للجزائر لدفع رواتب الإنكشارية).

وفي سنة ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠اتسع عصيان وتمرد القبليين وتقدموا حتى متيجه ونهبوها بعد أن حاصروها فترة طويلة، فلجأ الجزائريون إلى طلب المساعدة من إستانبول، لكنهم لم يستطيعوا الحصول على أي مساعدة.

خلف علي باشا في إمارة الجزائر حسين باشا، وكان علي باشا قد أنشأ ثكنة في شارع مده (Mede)[1]. ولكن حسين باشا لم يبق فترة طويلة في الولاية فبعد عدة أشهر من مجيئه توفي نتيجة لإصابته بالوباء الذي تعرضت إليه الولاية سنة ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م وعين مكانه أبو جمال يوسف.

وفي السابع من تموز سنة ١٠٥٠ هـ/ ١٦٤٠ م وقع دي كوكئيل De Kokiel) المعاهدة من ديوان الجزائر بشأن إعادة الباستيون، وقد التزم الديوان بنصوص المعاهدة، لكن المجلس الملكي الفرنسي لم يصدق عليها، لأن المعاهدة التي عقدها مع الحكومة العثمانية اعتبرها أكثر فائدة من معاهدة ديوان الجزائر فالمجلس الملكي يتصور أن الجزائر هي من ممتلكات الدولة العثمانية، ولهذا أمل الحصول على فوائد أكثر مما ستقدمها الجزائر لفرنسا، كذلك فإن الاتفاقيات التي عقدتها فرنسا مع الحكومة العثمانية كانت تنص على عدم عقد معاهدة مع الولايات التابعة للدولة العثمانية أو التفاوض معهم وبصورة خاصة الجزائر لأنها ملك للسلطان العثماني.

ساءت العلاقات بين فرنسا والجزائر أكثر من السابق، لذلك كلفت الحكومة الفرنسية المسيو دي سوردي (Mösyö de Soudri) بقيادة الأسطول ومهاجمة الجزائر، لكن الفرنسيين لم يتمكنوا من فصل بعض القطع البحرية عن أسطولهم المكلف بمحاصرة السواحل الإيطالية بهدف منع وصول الإمدادات منها إلى إسبانيا، وبالرغم من ذلك فقد زودت الكومندور مونتني K. Montigny ببعض السفن البحرية وكلفته بالتوجه إلى الجزائر، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً، واضطر للانسحاب والعودة إلى بلاده، لأن موسم العواصف اقترب وتخوف من البقاء أكثر، وكان الباشا يتماطل بالمباحثات بقصد وضع القبطان الفرنسي وجهاً لوجه مع سوء الطقس البحري، وقد أدرك القبطان الفرنسي مقصد باشا الجزائر، لذلك قطع المباحثات وأسرع بالعودة قبل نهاية تشرين الأول.

وفي سنة ١٠٥١هـ / ١٦٤١م جاء المسيو دي مونتمليون M. de Montmeillon إلى الجزائر لنفس العرض، ولكنه عاد من حيث أتى دون أن

(١) هذه القشلة استخدمها الفرنسيون فيما بعد، وإن الكتابة الموجودة عليها تثبت بأن الذي بناها علي باشا. غابرييل كولين ج ١ ص ٤٢ نمرة: ٢٣.

يحقق أي نجاح في مهمته، وفي ربيع سنة ١٦٤٢م توفي ريشليو (Risliyo) ولهذا فإن الأسطول الجزائري لم يبحر، وخلال السنوات الثلاث كان الوباء يفتك بالجزائر، وقد بلغ عدد ضحاياه أكثر من ثلاثين ألف شخص، كما أن تمرد القبليين ظل مستمراً ونتج عن ذلك حدوث أعمال فوضى واضطرابات عمت مختلف مناطق الجزائر بسبب عدم دفع الرواتب للإنشكاريين.

وفي سنة ١٠٥١هـ/ ١٦٤١م قرر الديوان إرسال قوة ضد سلطان كوكو، وقرر يوسف باشا أبو جمال قيادة هذه القوة بنفسه، بهدف إنهاء هذه المشكلة والقضاء عليها. ولكنه فيما بعد اعتذر من الديوان عن قيادة القوة خوفاً من فشله وتعرضه لخسائر كبيرة، سيتحمل هو مسؤوليتها فقط، لكن عذره رُفض، فأرسل الباشا قسماً من قواته بحراً تحسباً من تعرضها للتعب والإنهاك، وأرسل القسم الثاني براً بقصد عبور الممر الذي بيد العصاة، وقد وفق الباشا في عمله وحقق نصراً كبيراً على المتمردين في كافة المعارك التي خاضها، وكان من أهم الأعمال التي ساعدت الباشا على تحقيق النصر، نشوب خلاف بين الأهالي وسلطان كوكو، فاستغل تمزق قوتهم، وتمكن من إخضاع سلطان كوكو لطاعته، ومن بعدها تابع سيره حتى قسنطينة.

إثر هذه الحملة التي قادها يوسف باشا، لم يعد لكوكو أي سلطان، وإن عصيانات القبليين لو حدثت ثانية، فإنها لم تعد تقلق الإدارة لأنها لا تمتلك القوة والبأس التي كانت لها سابقاً[1].

بعد عودة يوسف باشا من حملته حدث عصيان في المدينة، فألقى الإنكشاريون القبض عليه وسجنوه في قلعة السلطان (حصن الأمبراطور) وحل مكانه بورصلي محمد باشا أميراً للأمراء[2]. وقد بحث محمد باشا عن وسيلة تمكنه من إخراج يوسف باشا من السجن، ولكن يوسف باشا توفي في سجنه سنة ١٠٥٢هـ[3].

(١) دي غراممونت.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٨٩/ ص ١٩ (حكم إلى امير أمراء الجزائر ٢٨ ربيع الأول سنة ١٠٥٢هـ).

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٨٩/ ص ٦٩. إن وفاة يوسف باشا كانت ١ صفر ١٠٥٣هـ.

بما أن فرسان مالطة كانوا يهاجمون السفن العثمانية باستمرار لذلك قرر السلطان إبراهيم التصدي لهم والقضاء على هذا الأوجاق نهائياً، فأمر أوجاق الغرب بالاستعداد للاتحاد مع الأسطول الهمايوني في نافارين، وعندما كان الأسطول العثماني في نافارين قدمت ثمانية قطع بحرية من تونس وطرابلس الغرب، وكان أمراء المغرب يرتدون الحلل المغربية[1]. أما الأسطول الجزائري فلم يلتحق بالأسطول العثماني بسبب كارثة أفلونيا (Avlonya).

أصيب فرسان مالطة بالدهشة نتيجة للحوادث والتجهيزات التي شاهدوها، فقام المعلم الأكبر غراند ميترة بول لاسكاريس Grand Maitre Pol Laskaris بترميم الحصون والاستحكامات وتقوية نفسه استعداداً للمقاومة، كما استدعى الفرسان الموجودين في أوتيدة بري (Öted Beri) لكن الأسطول العثماني قام بعملية إنزال بسيطة في جزيرة غوزة (Goze) ومن بعدها هاجم جزيرة كريت (Girit)[2].

صمم السلطان إبراهيم على معاقبة أوجاق الجزائر بسبب عدم إطاعتهم لأوامره. فأمر شاويشين بالذهاب إلى الجزائر لإحضار رأس علي بتشين ومن تمرد معه من الرياس، وما أن نزل الشاويشان إلى البر وعُلم عن سبب مجيئهما حتى نشبت ثورة عارمة، وظن الثوار أن الباشا هو الذي دبر ذلك، فهجموا عليه، فاضطر الباشا للهرب والالتجاء إلى أحد الجوامع، ولكي ينقذ الشاويشان أنفسهما ادعوا بأنهما يريدان الباشا، ولتأكد صحة ذلك طلبا من علي بتشين مساعدته، فاستقبلهما علي بتشين وأكرمهما، وبعد أن زودهما بالهدايا والتحف الثمينة، أرسلهما إلى إستانبول، وبما أن الباشا أغلق الجامع عليه، لذلك تسلم علي بتشين إدارة البلاد منه، وقالت الإنكشارية، بما أن علي بتشين استولى على الحكم فليدفع لنا نقودنا، وهرعوا إلى الديوان، فقرر الديوان تلبية رغباتهم، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الريس علي، فإن معاشاتهم ظلت ناقصة أربعين ألف قرش، ولتأمين المبلغ منح مهلة ثلاثة أيام، ولكن المهلة مددت إلى خمسة أيام أخرى بسبب مرضه، وخلال هذه المدة جمع علي بتشين أمواله وذهب إلى عمه والد زوجته

(١) تحفة الكبار.

(٢) دي غراممونت.

في كوكو، وقد قاتل عمه إلى جانب صهره ، وحينما علم الإنكشاريون بما فعله علي بتشين ، ازداد غضبهم ، وأكثر ما أغضبهم سماعهم بأنه جمع القبليين حوله وتوجه بهم لمحاربتهم . وكرد على تصرفه وضعوا السفن تحت المراقبة الشديدة ، وزادوا من تحصين المدينة والاستحكامات ، وبنوا الأسوار وحفروا الخنادق ، وبعد أن أعدوا قواتهم بشكل جيد وقوي ، اتخذوا الاحتياطات الضرورية استعداداً لمواجهته ، وفي هذه الأثناء وصل كتاب فخر وتقدير من السلطان إلى علي بتشين ، وكرد على إكرام علي بتشين لممثلي السلطان أرسل له السلطان مبلغاً من المال[١] . إزاء ذلك لم يظهر الإنكشاريون أي قلق أو انزعاج لدى عودة علي بتشين ، وذلك بسبب حدوث تبدل كلي في مجرى الأحداث ، وتمتع الريس علي بتشين بنفوذه السابق ، ولكنه مازال يتطلع إلى منصب الباشوية .

تولى إمرة الجزائر بعد هروب بورصلي محمد باشا أحمد باشا ، وبعد مجيئه بزمن قصير توفي الريس علي بتشين ، واعتقد الجميع أن الباشا الجديد دس السم له بغية التخلص منه ، ولهذا أقيمت له جنازة رهيبة اشترك فيها الجميع ، وانتقلت ثروته إلى أخيه رمضان ، واستناداً إلى روايات ذلك العصر ، يقال أن رمضان بك الذي ورث ثروة أخيه تشبه بالأمراء والسلاطين ، وأخذ يتفاخر بماله وثروته وكان عندما يخرج من قصره كان يحيط به مئة خيال ، وحتى ذلك الوقت لم يكن أحد يتجرأ على القيام بمثل هذه الأبهة والعظمة التي قام بها رمضان بك[٢] .

وبين سنتي ١٦٠٥ ـ ١٦٠٧م كان المسيو فنسان(Mosyo Vensan) أسيراً لدى قراصنة تونس ، وقد ذاق خلالها لوعة ومرارة الأسى والحرمان ، وقد ادعى بأنه على علم بنقاط الضعف لدى الحكومات البربرية ، فبعد تخلصه من

---

(١) دى غراممونت .

(٢) إذا كان صفوة بك يقول فى كتابه أن مزمورتو حسين باشا هو على بتشين ، وبالتأكيد أخذها من اسم بجتين ، وبجتين قرية تبعد عن ميلاسة مسافة عدة ساعات ، وكان بادىء الأمر مركز لإيفاء منتشة وميلاسة مدينة تابعة لها ، وتوجد تفصيلات في كتاب مبعوث بالق كسير (Balk Kesir) انظر إسماعيل عثمان حقى بك ص ١٦٠ ، ويقول صفوت بك بأن على بتشين هاجم ايسلاندة بمساعدة رجل آيسلاندي وغنم منها أشياء كثيرة .

الأسر تفرغ للعمل ضد الأتراك والمسلمين في الجزائر، وانحصر عمله على تحريض الفرنسيين ضدهم، وكان قد أوجد طريقة سماها (إيفرديسكلاف (Oeuvre d'esclave) وتسلم رعاية وحراسة الجمعيات الخيرية، وكان يعمل بالسياسة بغية مضايقة الأتراك من جهة، ومن جهة أخرى كان يجمع الأموال ويرسل القساوسة إلى شمال إفريقية، وكان هؤلاء القساوسة يقيمون بالقنصليات بصفة قناصل، كما أن الأموال التي كانت من الجمعيات الأوربية، كانت ترسل إلى تلك القساوسة لشراء الأسرى، وقد اعتبر القساوسة مسألة شراء الأسرى عملية تسلي وملء فراغ لهم، إضافة إلى أنها مهمة دينية، وبثهم روح الأمل في الأسرى تعتبر عملية إنسانية لديهم. لكن هؤلاء القساوسة غدوا مع مرور الزمن قناصل سيئين، وبما أن فرنسا صديقة لأوجاق الجزائر، وكلاهما يلتقيان في نقطة واحدة وهي الحقد والكراهية لإسبانيا.

كانت تجارة الجزائر بمعظمها مع فرنسا، ففي فرنسا يبيعون محاصيلهم، ومنها يشترون السفن والمدافع والذخيرة وما شابهها من لوازم ومعدات حربية، لكن الدول المسيحية التي كانت تبيع السلاح إلى المسلحين طُردت من رحمة البابا والكنيسة، لكن ملوك فرنسا تحركوا بعكس الأمر الديني، ولم يبلغوا ذلك إلى قناصلهم، لكن الإكليروس لم يسمح للقساوسة الفرنسيين بتقديم أي مساعدة للمسلمين وبصورة خاصة الجزائريين، وبما أن فرنسا عمدت مؤخراً إلى عدم بيع السلاح والذخيرة للجزائريين، لذلك بدأ الأتراك والجزائريون يظهرون العداء العلني للفرنسيين، واتسعت دائرة الجفاء بين الطرفين[1].

لقد كانت التجارة الفرنسية بمجملها وقفاً على مرسيليا، ولهذا احتج تجار مرسيليا على الجزائريين وبدأوا يقدمون الشكاوى لحكومتهم عن ذلك، وقد اعتبر الجزائريون تلك التحركات بداية لعمل عدواني يعده الفرنسيون ضدهم، كما أن القساوسة بدأوا بالغضب بسبب المضايقات التي شهدوها مؤخراً من الجزائريين، وغدت مهمتهم الدينية ووظيفتهم المدنية فاشلة نظراً للمراقبة الشديدة التي فرضت عليهم.

---

(١) دي غراممونت

لكن بالرغم من المعاملة القاسية والمضايقات الكثيرة التي شهدها هؤلاء القساوسة إلا أنهم كانوا صبورين، وعدا عن الخداع والإهانات والتحقير، فقد تحملوا الضرب والسجن من الباشوات والدايات، وفوق هذا فقد تعرضوا للسجن من قبل حكوماتهم، وفي نهاية الأمر أصبح القناصل من القساوسة أنصاراً لجمعية المسيو فنسان سان دبول (Senvensan de Pol) ولكنه أدرك مؤخراً أنه خُدع، فكتب إلى مرسيليا مطالباً بمعاشات القناصل المدنيين متذرعاً بأنهم خصصوا أوقاتهم لخدمة مرسيليا أكثرمما خدموا الجمعية.

- ٧ -
عهد الباشوات

يوسف باشا ـ الأتراك هم الحكام الحقيقيون للبحر الأبيض المتوسط ـ ديون القساوسة ـ الوباء ـ مجيء القولوغلية ـ القراصنة يهاجمون المناطق المجاورة لروما ـ سماسرة أموال الغنائم ـ قراصنة أوربا الجدد ـ محمد باشا ـ العلم الأخضر يرفرف منتصراً في كل مكان ـ مواجهة الأوربيين ـ الوباء الكبير ـ أحمد باشا ـ إبراهيم باشا.

في سنة ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م عين يوسف باشا أمير أمراء الجزائر بدلاً من أحمد باشا، وبقدومه منح القراصنة دفعاً جديداً، وتعرضت إيطاليا لخسائر كبيرة جداً، ولم ينسوا البروفانس بهجماتهم، وألحقوا أضراراً كبيرة بسفينة القيادة العائدة لأميرال البحر الفرنسي، كذلك فإن أميرال مالطة فقد حياته على أيدي الجزائريين.

وفي بداية شهر آذار ألقى القبطان حسين باشا القبض على موروزيني في قنال أغربوز وقتله، ولكن المسيحيين بقيادة غريماني (Grimani) أجبر الأسطول العثماني على التراجع إلى قندية (Kandiye) كما استولى على القافلة البحرية الموجودة في جزيرة مديلي، وبهذا الخبر ازداد حزن الجزائريين، إضافة إلى حزنهم بسبب الوباء الذي تتعرض له البلاد.

تراكمت الديون على القسيسيين من أنصار طريقة مرسي (Mersey) وبنفس الوقت بدأ البابا يمارس ضغطه على القنصل الفرنسي بارو (Baro) ولكن بارو لا يستطيع أن يشرح للبابا بأنه ليس من أنصار طريقة

مرسى، لأنه لو صرح بذلك فإن أحد لم يصدقه أو يستمع إليه، فآغوات الجزائر كانوا يقولون للقناصل ألستم من القساوسة، هيا ادفعوا لنا نقودنا.

إن انشغال فرنسا بحروبها مع بعض الدول الأوربية، إضافة إلى بعض مشاكلها الداخلية، أعطى الجزائريين فرصة أكبر لممارسة أعمالهم البحرية تامة، فاندفعوا يمارسون القرصنة متجاهلين بذلك حتى مشاكلهم الداخلية، ولم يجد قراصنة الجزائر خلال هذه الفترة أي قوة بحرية أوربية تتصدى لهم سوى المالطيين والبندقيين[1]. وعلى الرغم من تصدي هؤلاء لهم بكل مالديهم من قوة، فقد ظلت السواحل الإيطالية عرضة لهجمات القراصنة بصورة منتظمة، وعم على أثرها الدمار والخراب في تلك المناطق قاطبة.

استمر الوباء بفتك بأهالي الجزائر لمدة سنتين متتاليتين ١٦٤٨ ـ ١٦٥٠ م وقد أعقبه هدوء وأخذت أحوالها تتحسن شيئاً فشيئاً، كذلك فقد شهدت الأطراف المجاورة لقسنطينة هدوءاً واستقراراً لم تعرفه منذ سنوات عديدة، وتمكن فرحات بك أمير الصنجق من إدارة الأمور إدارة جيدة وحسنة، ولهذا فقد سمح للقولوغلية الدخول إلى المدينة شريطة دفع التأمينات اللازمة.

وفي سنة ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م أرسل السلطان العثماني فرماناً إلى أوجاق الجزائر يأمرهم الالتحاق بالأسطول الهمايوني، لكن الرياس لم يلبوا أمره، ولم يوافقوا على الالتحاق، ولكنه حينما أرسل لهم ٦٠ ألف ليرة ذهبية تعويضاً لهم على المصاريف قبلوا الالتحاق بالأسطول الهمايوني.

وفي الأشهر الأولى من سنة ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م اتحد الأسطول الجزائري مع الأسطول العثماني في فوجه (Foga)، وفي سنة ١٦٥٠م ألقى القبض على القنصل الفرنسي بارو (Baro) ورُمي بالسجن بسبب ديون قسيسي طريقة مرسى (Mersey) ووصل القراصنة بهجماتهم حتى المياه المرسيلية وبصعوبة بالغة استطاعت الغاليوطات الفرنسية إبعادهم من هناك، وفي شهر أيلول سنة ١٦٥٠م هاجم القراصنة سواحل نابولي وكورسيكا وضربوها، وأسروا كل من وجدوه هناك.

(١) دي عراممونت.

وفي موسم الحصاد لسنة ١٠٦١هـ / ١٦٥١م هاجم القراصنة المناطق المجاورة لميناء حيفتا فيكا (Civitaveyka) وأنزلوا قواتهم فيها، وألقوا القبض على الأهالي الذين لم يتمكنوا من الهرب إلى الصحراء، وأحضروهم إلى الجزائر[1].

لقد كانت القرصنة عملاً مربحاً، لأن الذين مارسوها أو اشتركوا بها حققوا من ورائها غنى واسع، إزاء ذلك أصبح كل شخص يهتم بها ويوليها اهتمامه، كما أن الجميع ارتبطوا مع القراصنة بعلاقة جيدة وحسنة، فتجار نوتردام وامستردام وجنوة وليفورن كانوا يقومون بالسمسرة على الغنائم التي يحصل عليها القراصنة، فالمخازن مملوءة بالغنائم الوفيرة، والسماسرة كانوا يأخذون سمسرة عن كل عمل يقومون به، ولهذا فإن الشخص الذي يشنق من هؤلاء السماسرة لم يكن له أي أهمية أو تأثير مهما كان ومن أي جهة كان، لأن شخصيات كبيرة مارست ذلك، كما قُدمت شكاوى كثيرة بحق حاكم توسكانيا لكونه غدا مرجعاً رئيسياً لتلك الشخصيات ومركزاً لتلك الغنائم[2].

كذلك فقد شوهد قراصنة إنكلترا وهولندا تعمل سوية مع قراصنة تونس والجزائر، فقدم حاكم البندقية شكوى ضدهم، كما سمحت حكومتا إنكلترا وهولندا لقراصنتهما بمهاجمة السفن الفرنسية، وغدا هؤلاء يسرقون وينهبون كل من يصادفونه، فالسواح كانوا يخافون كثيراً من هؤلاء القراصنة الأوربيين، لأن قراصنة البربر عندما يلقون القبض على أحد يأخذونه أسيراً ويبيعونه، أما القراصنة الأوربيين كانوا يقتلون جميع من بالسفينة لإزالة آثار جريمتهم وبعبارة أخرى يمكن القول: إن البحر الأبيض المتوسط أصبح بكامله مقراً للقراصنة، وبما أن إسبانيا عجزت تماماً عن حماية سواحلها ولهذا تركت القراصنة أحراراً ينهبون ويسرقون دون حارس أورقيب[3]. كما عجزت صقلية وإيطاليا بكاملها عن مقاومة هذه الآفة البحرية، فأعلنتا صراحة عن عجزهما وامتنعتا عن مقاومتهم، وخصصت فرنسا فرقاً بحرية خاصة لمقاومتهم والتصدي لهم، كما أن إستانبول كانت تشهد فترة صراع كبيرة ما بين الفرسان

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دي غراممونت.

(٣) دي غراممونت.

(السباهية) والإنكشارية، وبلغت الخلافات أقصى درجاتها، وفي النصف الأخير من القرن السابع عشر، تمكنت البندقية من جعل قسم من الجزر الموجودة في خليج الأدرياتيكي مناطق آمنة.

وقد تمكن كل من موروزين (Morozin) وغريماني (Grimani) وكورنارو (Kornaro) من حصر بعض المناطق، فأخذوا يتجولون بأسطولهم ضمنها، وفي سنة ١٠٦٢ هـ/ ١٦٥١ م هُزم الأسطول العثماني أمام مونجنيتو قانديا(Monceniko Kandiya)، وفي هذه الفترة بدأ الرياس في تونس والجزائر يسلكون سلوكاً ضعيفاً ومتفككاً. وكان قبطان باشا يرغب بقطع رؤوسهم جميعاً، ولكن هؤلاء الرياس انفصلوا عن الأسطول العثماني، وانطلقوا ينهبون ويدمرون الأطراف التي توصلوا إليها، واستمروا بهذا العمل إلى أن وصلوا بلادهم، فلاحقهم فوسكولو (Foskolo) واستولى على بعض سفنهم.

وفي سنة ١٠٦٢هـ/ ١٦٥١م عين محمد باشا أمير أمراء الجزائر بدلاً من أمير الأمراء السابق يوسف باشا[1]. وكان هذا التغيير لصالح القنصل الفرنسي، لأن يوسف باشا قبل مغادرته الجزائر أمر بإطلاق سراح القنصل الفرنسي من السجن وأخذ يوسف باشا منه بدلاً ٣٥٠ قرشاً ٧٠٠٠ قرش، وفي هذه الأثناء، كانت هولندا ترغب بإقامة معاهدة مع الجزائر، وتمكنت من توقيع معاهدة بعدما كلفتها الشيء الكثير، ولكن سفنها لم تنجُ ثانية من هجمات القراصنة. وفي سنة ١٠٦٣هـ ١٦٥٢م صادف شقيق موروزين المتوفى قافلة بحرية لرياس الجزائر بالقرب من رأس متابان Mataban في آغربوز، وكان هؤلاء يحملون في سفنهم مجدفين ولوازم للأسطول العثماني مقابل حصولهم على خمسين ألف ليرة، فهاجمهم واستولى على اثنتي عشرة سفينة من سفنهم. ولكن رياس الجزائر على الرغم مما تعرضوا له فقد استمروا يخربون وينهبون الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وكان

---

(١) بالنظر إلى سلسلة نامة نلاحظ وجود مراد باشا ومحرم باشا بين فترة ولاية يوسف باشا ومحمد باشا، وإذا كان هؤلاء قد كلفوا فعلاً بوظيفة باشا الجزائر، فمن المؤكد كانت قصيرة جداً، علماً بأن المراسلات الكثيرة للقناصل والقساوسة آنذاك لم تتحدث عنهما، أما فور بيكه فيضع عثمان باشا بين فترتي محمد باشا ويوسف باشا.

القراصنة ينزلون عساكرهم في المناطق الإيطالية، وقد أنزلوا سبعة الآف جندي في سواحل كالابريا واحتلوا بهذه القوة استحكامين، فاضطر الأهالي للهرب تاركين ديارهم.

وفي سنة ١٠٦٤ هـ/ ١٦٥٣ م ترك الكاردينال أنطوان Kardinal) (Antoin لقراصنة البربر أشياءه الخاصة مع سفينته وطاقمها المؤلف من سبعين شخصاً، والتجأ إلى موناكو Monako وتمكن من إنقاذ نفسه أنزل الأبطال الأتراك العلم البريطاني من على بلدية بليموث، وأمسكوا بسفينة فرنسية بالقرب من سان مالون، كما هاجموا ثلاث سفن حربية كانت راسية بالقرب من جزر البليار في منطقة سان جوان دوتريش (Sen Juan Dotris) [1]. وبذلك غدا العلم الأخضر يرفرف عزيزاً في كل مكان.

إزاء ما تعرضت إليه الحكومات الأوربية من خسائر وسحق لجيوشها، وفرقها العسكرية الموزعة بغية مواجهة القراصنة والتصدي لهم، أعلنت مجتمعة تصديها لقراصنة الشمال الإفريقي، وكلف كل شخص أوربي بحمل السلاح ضد القراصنة، وشوهد الأميرال الإنكليزي بلاكه (Blake) أمام تونس، وحين لم تنفذ مطالبيه، وجه مدفعيته على سفنها وأغرق منها ثماني سفن كبيرة وجديدة، أما الأسطول الفرنسي الشرقي فقد تمكن من إنقاذ خليج ليون من هجمات القراصنة، أما الهولنديون فقد تمكنوا من الاستيلاء على ثماني عشرة سفينة حربية صادفوها في جبل طارق، وحصلوا من جراء ذلك على ثأرهم القديم، كذلك فإن فرسان مالطة حاصروا غاليوطات الغرب أمام كاتالونيا (Katalonya) وساندتهم جنوة في هذه الحرب، وكانت نابولي قد كلفت أسطولها بالاشتراك بهذه الحرب بقيادة البرنسس مونتساريثو Prens) (Montesariso [2]. وعلى الرغم من اتحاد الدول المسيحية وقوتها، فلم تتمكن من التأثير على قوة القراصنة والحد من نشاطهم.

عاد الوباء إلى الجزائر ثانية في سنة ١٦٥٤م، ويقال أن هذا الوباء نقله بحارة الأسطول العثماني ولهذا سمي بالوباء الكبير أو وباء قونية، وقد استمر

---

(١) هذا الشخص هو ابن فيليب الرابع من زوجته اكتريس ماريا كالدرون Aktris Maria Kalderon.

(٢) دي غراممونت.

مدة ثلاث سنوات وذهب ضحيته ثلث سكان الجزائر، وغدا الرياس لا يتحركون من الميناء، كما مات من جرائه الكثير من الأسرى المسيحيين وكانت السفن التي تأتي إلى ميناء الجزائر لا تعود، وفي هذه الأثناء عين أحمد باشا بدلاً من محمد باشا، وفي سنة ١٦٥٥م عين إبراهيم باشا بدلاً من أحمد باشا، ووصل الجزائر في سنة ١٦٥٦م حاملاً فرمان تعيينه[1].

لم يعرف سبب هذا التغيير في ذلك التاريخ، وقد نتج عن الخلاف الذي نشب ما بين الباشوات والبحارة والانكشارية حدوث ثورة سنة ١٦٥٩م وقد عانى الأهالي الشيء الكثير من الخلاف والثورة بآن واحد.

انزعجت الحكومة الفرنسية كثيراً من المضايقات التي يتعرض لها قناصلها والأحاديث التي تدور بشأن الأموال المرسلة إلى القساوسة، والدسائس التي ارتكبوها هؤلاء القساوسة بحجة شراء الأسرى، واستخدامهم للأموال بشكل سيء جداً فالفرنسيون يعلمون جيداً أن الجزائريين يكنون لهم الحقد والكراهية، وعلى الرغم من معرفتهم حقيقة الجزائريين إلا أنهم كانوا مجبرين على مسامحتهم بسبب انشغالهم بحربهم مع الإسبان، ومع ذلك ومن أجل المستقبل بدأوا يخططون للإنتقام من الجزائريين، فباشروا بمهاجمة جيجل، كما أن الكاردينال مازاران (K. Mazarin) يهدف للاستيلاء على السواحل الجزائرية، ولهذا فقد كلف فرسان دي كلرفيلة Sovalye de Klervıle بمهمة تقصي أحوال الجزائر وكشف نقاط الضعف فيها، وبناء على التقارير المقدمة إليه اختيرت بون (عنابة) وستورا والقالو،كنقاط للمهاجمة وإنزال القوات.

وكان الكومندور بول (K. Pol) قد ولد سنة ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٧م وفي سنة ١٦٥٤م أصبح قائمقاماً، وحصل خلال قيادته للأسطول على شهرة بحرية عظيمة، وكان قد تسلم قيادة السفن المالطية.

وفي هذه الأثناء أعلن سكان مدينة مرسيليا وأصحاب الطرق الرهبانية تبرعهم بالأموال للبطل الذي يتمكن من تخريب مقر القراصنة في الجزائر

---

(١) يذكر غابرييل كولين في كتابه ص ٦٢، بأن أحمد باشا عين للمرة الثانيه، وبقي امير أمراء الجزائر من سنة ١٦٥٦ حتى ١٦٥٨م.

تخريباً كاملاً، وكان الكومندور بول هو الشخص الوحيد آنذاك المهيّأ لهذه الرواية، فهو سيحصل على النقود من جهة وعلى الشهرة والمجد من جهة أخرى، ولكنه لا يملك نقوداً تمكنه من إعداد نفسه إعداداً تاماً وكاملاً، فقبل سان فنسان دي بول (Senvensan de pol) إعطاءه عشرين ألف، كما أعلنت مدينة مرسيليا تقديم المهمات والذخائر له، وعندما كان بول في مدينة طولون، طلب من أصحاب الوعود اللطيفة منحه فترة كافية، لكنه فشل هذه المرة من خداع أي منهم، وكان وكيل القنصل الفرنسي بيكاني Pikeni ، قد عين مديراً للباستيون، وقد أصيب بالذعر والخوف لدى سماعه بأن سفيرهم في إستانبول يعامل معاملة سيئة، كما أشيع بأن إبراهيم باشا سيرسل العساكر لهدم الباستيون وقتل من فيه من الفرنسيين، فقام من فوره بهدمه، ومن ثم أسر خمسة وسبعين تركياً كانوا يعملون هناك، وهرب إلى ليفورن وهناك باع الأتراك كأسرى حرب.

أيقظ هذا الخبر الحقد لدى الجزائريين، ولم يكن هذا جديداً على الجزائريين فهم يعلمون حيل ودسائس الفرنسيين، وكرد على تصرف بيكاني قاموا بالقاء القبض على القنصل الفرنسي ورموه بالسجن، وصادروا الأموال الفرنسية واحتجزوها على شكل تأمينات، فأعلن القسيسون تمردهم في مرسيليا لدى سماعهم بأن الأموال التي أرسلوها خصيصاً لشراء الأسرى، استخدمها القنصل لأغراض أخرى، فقدم أهالي مرسيليا شكاوى عاجلة إلى الملك الفرنسي، ولم يجد الملك الفرنسي وسيلة سوى مخاطبة باشا الجزائر كتهدئة للأوضاع وقد أعلمه في رسالته أنه عزل بيكاني وعين مكانه المستر لوي قبلان M. Lui Kaplan مديراً للباستيون، وقبل ديوان الجزائر رسالة الملك، لكن إنشاء الباستيون ثانية تأخر بسبب اضطراب الأوضاع الداخلية في الجزائر.

وفي سنة ١٦٥٨م قدم مولاي محمد من الأشراف الحسينيين إلى تلمسان بغية القتال، لكن قائد تلمسان چلبي (Gelebi) قاومه بشدة وتمكن من قهره وطرده منها[١].

(١) أوغست كور.

منذ زمن بعيد والخلافات قائمة بين الباشوات والرياس والقولوغلية والأهالي أيضاً، ولم تكن الأطراف ممنونة من بعضها البعض، لأن أياً منهم لا يستطيع فرض سيطرته على الآخر، ولكن بالرغم من هاتين الإساءتين، فإن الإدارة استمرت ونتيجة لطمع إبراهيم باشا قامت ثورة أطاحت بإدارة الباشوات.

حالما سمع إبراهيم باشا بأن شخصاً اسمه علي قدعين مكانه على الفور قام بإرسال خمسمائة ألف قرش إلى إستانبول لابقائه في منصبه، وقد علم الجميع بذلك، لكن أحداً منهم لم يتجرأ على رفع صوته أو التكلم بكلمة واحدة، وكان من أهم أسباب حدوث الثورة محاولة الباشا أخذ حصته من الأموال المرسلة من إستانبول إلى الرياس كمكافأة لهم لالتحاقهم بالأسطول العثماني، وادعى الباشا بأن أخذه لهذه الحصة كتعويض عن الغنائم التي سيحصل عليها الرياس بصورة مستمرة، فألقى الثوار القبض عليه ورموه في السجن.

وهكذا نرى أن غضب الإنكشارية في الأوجاق الغربي وعصبية البحارة وفساد الإدارة وعدم تنفيذ أوامر الإدارة المركزية، كل هذا تسبب في حدوث أحداث ووقائع مهمة في التاريخ العثماني، كما أن التمرد الذي كان يحدث في إستانبول والعصيانات والخلل العام في إدارة الدولة انعكس بشكل مباشر على الأوجاق الغربي بكامله.

وبما أن هذه العساكر وهذه الأوجاق تلتزم بعادات وتقاليد واحدة وتختلط مع بعضها البعض في الحرب والسلم، فمن الطبيعي أن تقلد بعضها البعض في جميع حركاتها وأفعالها وتصرفاتها.

وإذا قورنت أحداث الأوجاق الغربي بما حدث في مركز السلطنة العثمانية، ينظر إليها على أنها أمور عادية وواضحة الرؤية.

- ٨ -
وقائع فاس

تأسيس حكومة الأشراف (الحسنيين) في فاس ـ وقائع فاس حتى سنة ١٠٨٣ هـ.

كان من بين الأشراف الذين قدموا من المشرق إلى المغرب سنة ٦٦٤هـ أشراف تافيللت وأشراف سجلماسة وأشراف فلالي والأشراف العلويون وقد لعب هؤلاء دوراً بارزاً وهاماً على الساحة السياسية في البلاد.

ففي الزمن الذي أسس به الأشراف السعديون حكومتهم، كانت منطقة سلجماسة بأيدي الأشراف الحسينيين، وكان المنصور من السلاطين السعديين، وقد بذل جهوداً كبيرة إلى أن تمكن من إخضاعهم لسلطانه، وألزمهم بطاعته، وعندما توفي استغل هؤلاء الفوضى التي حدثت عقب وفاته، وبدأوا يطالبون بالزعامة والاستقلال ثانية[١].

فعندما كان كل من العياشي وأولاد زيدان يتصارعون في جبال أطلس بهدف السيطرة على حكومة مرابطي الدلائية، قام مولاي الشريف بالاستيلاء على الإدارة في حكومة الأشراف الحسينيين سنة ١٠٢٤هـ/ ١٦٣٣م.

ترك مولاي الشريف الحكومة لابنه محمد، فعمد مولاي محمد فور توليه السلطة إلى اخضاع القبائل القريبة منه ومن ثم القبائل الشرقية، فاتحد هؤلاء مع بعضهم البعض واتجهوا إلى أوجده، وكانت وجدة أثناءها منقسمة على

---

(١) أوغست كور.

نفسها، قسم يؤيد الأتراك والقسم الآخر عدو للأتراك، وفي هذه الأثناء، قام أحد المرابطين بتحريض تلمسان على إعلان عصيانها بقصد إشغال الأتراك، لكن القوات التركية تمكنت من سحق المتمردين، ولكي لا يجرؤ أحد من الأهالي على القيام بإعلان تمرده وعصيانه، قطع الأتراك رأس المرابط المتمرد مع اثنين وثلاثين رجلاً من زعماء الحركة، خلال تلك الحركة كان مولاي محمد قد تمكن من الاستيلاء على وجدة.

وفي سنة ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م كانت قبيلة بني أسناسن تستقر بالقرب من وجدة، وهي في الأصل تابعة للجزائر، فهاجمها مولاي محمد وشتت أفرادها ونهب ما لديها، ومن ثم عاد إلى وجدة، ومن هناك بدأ بمهاجمة جميع الأطراف، وقد استمر في تقدمه حتى جوار تلمسان لأنه لم يجد من يتصدى له أو يقاومه، وقد اغتصب خلال تحركاته الشيء الكثير من أرزاق الأهالي وحيواناتهم، وأظهر خلالها شجاعته وجسارته، لكن الأتراك والأهالي في تلمسان تصدوا له وتمكنوا من طرده منها سنة ١٦٤٨م، ولكنه كان قد ألحق بالمنطقة خسائر كبيرة وفادحة.

قضى مولاي محمد شتاءه في أوجده، وخرج منها مع بداية الربيع، وقبل تحركه جمع القبائل حوله وتحرك بها لغزو المناطق المجاورة، وفي مسكرة قام بك الغرب بتحصين وتحكيم المدينة وحفر الخنادق في أطرافها، ثم طلب قوة من الجزائر، تقدم مولاي محمد إلى أن وصل عين المهدي ولاغوت (Laguat) ، وإذا كان الجيش الذي قدم من الجزائر قد وصل إلى تلمسان، فقد عاد هذا الجيش لأنه لم يجد مولاي محمد الذي عاد هو الآخر قبل تحرك الجيش من الجزائر.

عندما علم أمير أمراء الجزائر بعودة مولاي محمد إلى أوجده ثانية، أرسل قائدين واثنين من علماء الجزائر مع رسالة إلى وجدة، وكانت الرسالة تحمل تحذيراً وتهديداً قاسياً لمولاي محمد، وبعد أن قبل مولاي محمد الشريف ما ذكره أمير أمراء الجزائر بأن نهر تافنا هو الحد الفاصل، تعهد في سنة ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م بعدم العبور إلى المناطق التابعة للأتراك.

أعلن أهالي فاس تمردهم ضد أبو بكر تافيلي المعين عليها من قبل

مرابطي الطريقة الدلائية، وبما أنهم لا يملكون القوة الكافية، طلبوا المساعدة من مولاي محمد، فأسرع مولاي محمد بقواته مباشرة إلى فاس وألقى القبض على الوالي ووضعه في السجن، فعينه الأهالي سلطاناً عليهم، ولكن حينما قدم رئيس الطريقة الدلائية بقواته إلى فاس وحاصر أسوارها تخلى الأهالي عن مولاي محمد، فاضطر للانسحاب إلى سلجماسة، وبقي فيها منشغلاً بنهب المناطق المجاورة لها، وفي سنة ١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م عاد من جديد إلى مناطق تلمسان، ولكن قائد تلمسان جلبي بك تصدى له بقوة وحزم وتمكن من إفساد هجومه وطرده منها، فعاد ثانية إلى سجلماسة.

كان لمولاي محمد أخ اسمه الرشيد، وكان هو الآخر يبحث عن المجد والشهرة، ففر خائفاً من أخيه، وغدا كل من الشريفين يبحث عن عرش، وكان الرشيد قد صادف قصراً لأحد اليهود بالقرب من تازا وبني أسناسن فنهبه، وقد ساعدته تلك الأموال التي حصل عليها على الشهرة، وبما أن مولاي محمد الشريف قد تجول في تلك المناطق سابقاً، لذلك اعتبر عمل أخيه اعتداءاً على أراضيه وممتلكاته، فجهز جيشاً واتجه نحو الرشيد، وتقابل الطرفان في سهل الأنجاد، وفي أثناء القتال أصُيب مولاي محمد بطعنة مات على أثرها، فقرر مولاي الرشيد الإقامة في وجده، وأخضع القبائل المجاورة لطاعته، وأخذ تافيللت من ابن أخيه، واعترف بالمعاهدة التي أقامها أخوه مع الجزائريين سنة ١٠٥٩ هـ ١٦٤٩ م.

وإذا كان الفاسيون قد شنوا هجوماً على الرشيد الذي أنشأ حكومته في تازا، فإن هجومهم مني بالفشل الذريع وعادوا منهزمين.

تزوج الرشيد من ابنة شيخ الريف ليحصل على المساعدة أو على الأقل لضمان وقوفهم على الحياد، ولم يمض وقت طويل حتى قدمت هيئة فرنسية برئاسة فرجوس Frejus بهدف إقامة أماكن تجارية في قصاصة، فتباحث الرشيد مع الهيئة الفرنسية، وتوصل الطرفان إلى عقد معاهدة تجارية تخول الفرنسيين حق إقامة مراكز تجارية لهم، ومن ثم عقد مولاي الرشيد معاهدة مع الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، وبهذه المعاهدة تمكن رئيس عصابة نهب وسلب من الإرتقاء إلى مصاف الحكام وجالس الملوك وغدا يعقد العهود والاتفاقيات مع ملوك أوربا وحكامها.

من هذه النقطة بدأ الرشيد العمل على إخضاع فاس لسيطرته، وحاصر المدينة عدة مرات، ولكنه كان في كل مرة ينهزم ويعود من حيث أتى، وعلى الرغم من ذلك فلم ييأس. وفي نهاية سنة ١٠٧٧ هـ-١٦٦٧ م تمكن من تحقيق مراده، ودخل المدينة وأعلن نفسه سلطاناً عليها، وهكذا تمكن الرشيد من تأسيس سلطنة أشراف الأسرة الحسينية.

بقي علينا أن نلاحظ أن المرابطين لم يتدخلوا في تأسيس هذه الحكومة، كما أنهم لم يرتبطوا معها بمعاهدات، وإذا كان الحسينيون قد ادعوا أنهم ينحدرون من سلالة الرسول (ﷺ) وأنهم أصحاب فكرة مثالية، فإن السعيديين ادعوا نفس الادعاء.

عندما كان سكان المغرب يتصدون للاعتداءات المسيحية على بلادهم ويقاومونها بكل قوة وحزم، كان الأشراف الحسينيون يسعون لتعميق نفوذهم وتقوية حكومتهم مستغلين حالة الفوضى والاضطراب التي تواجهها المنطقة، فأقاموا لأنفسهم أولاً زعامة ثم إمارة ومن ثم حكومة قوية ومتينة، وقد اعتمد مولاي الرشيد على جميع الأشراف، وانتقى موظفيه من بين الأشراف، وبما أن منافع الأشراف ومصالحهم تتناقض مع منافع ومصالح المرابطين، لذلك تخوف المرابطون من ازدياد نفوذ الأشراف، وقبل أن يقوى نفوذهم ويشتد طلبوا من الأتراك المساعدة والعون للقضاء على هذا الخصم الجديد.

وفي أثناء إعلان الرشيد عن سلطانه وسلطته على فاس، كان مرابطو الدلائية يحكمون المناطق الواقعة ما بين سلا والملوية العليا، وبعد مقتل العياش ادعوا بأنهم أصحاب تلك الأراضي، وهكذا ظهرت رواية جديدة على الساحة المغربية.

فبينما كان الصراع على أشده ما بين المرابطين والأشراف والفاسيين والمراكشيين، كان جماعة العياشي يجمعون صفوفهم معلنين الجهاد بعدما عينوا غيلان قائداً عليهم، وتمكنوا وسط هذا الصراع المتعدد الجوانب من الاستيلاء على المناطق الغربية واخضعوها لسيطرتهم، وبالأصل فإن هذه الأراضي بعد موت العياشي استقل بها الأندلسيون الشجعان وأصحاب الثقافة والخبرة، وكما هو معروف فقد ارتبط هؤلاء مع قراصنة الجزائر بعلاقة ود وصداقة، وقاموا بمرافقة الأمراء الأتراك خلال معارك عدة. فمركز الحركة

أولاً كانت تطوان، وبعد فساد العلاقة ما بين قراصنة سلا وقراصنة الجزائر، غدت تطوان مركزاً لبيع الغنائم والأسرى الأتراك.

فالإسبان والبرتغاليون وغيرهم من الأمم الأخرى، كانت تحضر البارود والذخيرة إلى تطوان وهناك تقوم بمبادلتها بالغنائم الموجودة، وكان غيلان يجري مبادلات تجارية ومصرفية مع مرسيليا، كذلك فإن أصيلا والقصر الكبير أقامتا علاقات تجارية مع الأوربيين أيضاً، وكانت سلا مركز مبادلات الدلائية. فالمحتاجون إلى السلاح والعاملون ببيعه كانوا يأتون إلى ميناء سلا، كذلك فإن بيع وشراء الأسرى كان يتم من هذا الميناء وحتى الأمر وصل إلى حد السماح للمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية أيضاً. وبهذه الصورة اصبحت سلا مركزاً رئيسياً لعقد المعاهدات والاتفاقيات وقبول القناصل وفيما بعد انتقلت تلك الأهمية إلى تطوان، فالهولنديون والفرنسيون كانوا يحضرون السلاح إلى غيلان، والإنكليز يحضرون إلى مرابطي الدلائية، وتمكن غيلان من احتلال المناطق المجاورة لطنجة، وفي سنة ١٠٦٣ هـ/ ١٦٥٣ م تمكن من احتلال القصر الكبير واتخذه مركزاً له. لكن مولاي الرشيد وفق الانتصار على غيلان في الشمال وعلى الدلائية في الجنوب، ووجد بين جثث القتلى جثثاً لبعض القادة والأمراء الأتراك. وطرد مولاي الرشيد الغيلانيين حتى أصيلا، إلا أنه لم يقم بمحاصرتها، لأن الإنكليز حموا الغيلانيين بمدافعهم، ولهذا فلم يستطع مولاي الرشيد من الاقتراب، واضطر للعودة إلى فاس بعدما أدرك مدى أهمية تقديم الإنكليز المساعدة للغيلانيين، وبغية إفساد هذه الصداقة وتمزيقها عرض على الغيلانيين الدخول في طاعته، ووعدهم بترك كافة الأراضي التي بين أيديهم لهم، ولكن غيلان تجاهل هذا التكليف، ووجه نظره إلى الدولة العثمانية، فأرسل السفراء إلى إستانبول معلناً لها التبعية والمساعدة[1].

كان الرشيد في نزاع مع ابن أخيه ومرابطي الدلائية، فضرب أولاً مرابطي الدلائية، واستولى على زواياهم، وألقى القبض على المرابطين ونقلهم إلى فاس ووضعوهم في السجن، ومن ثم اتجه إلى مراكش المحكومة من قبل (كرم الحاج) و(الشعابين) وحطم نفوذهم، ثم عاد ثانية إلى فاس.

(١) أوغست كور.

لم يتلق غيلان أي جواب من إستانبول، وبما أن قواته كانت ضعيفة فقد قام بنهب المنطقة الغربية وحولها إلى خراب تام وانسحب إلى الجزائر ومن ثم ركب سفينته وباشر العمل بالقرصنة.

ظل الرشيد يجادل بالشرق والغرب إلى أن تمكن من حكم البلاد، ومن بعد ذلك ضمن الهدوء والاستقرار لحكومته. ولكنه كان متخوفاً من مرابطي الطريقة الدلائية، وبغية التخلص من مكائدهم ونفوذهم، جمعهم ونفاهم خارج البلاد، فالتجأ هؤلاء بادىء الأمر إلى الأتراك إلى تلمسان.

ذهب الرشيد إلى مراكش، وأثناء ركوبه لحصانه قفز الحصان مسرعاً وأثناء الجري اصطدم بشجرة برتقال ووقع من على ظهره، ومات على أثرها في ذي الحجة ١٠٨٢ هـ ـ ١٦٧٢ م.

عندما كانت فاس تتعرض لأحداث واضطرابات داخلية، كان الساحل أيضاً يشهد تبدلاً في أوضاعه العامة.

ففي سنة ١٦٤٢ م انفصل البرتغاليون عن الإسبان، وحصلوا على استقلالهم وباشروا العمل على احتلال سبته وطنجة، إلا أنهم تركوا تلك المناطق بسبب زيادة تكاليفها وتعرض قواتهم لخسائر فادحة. فقام الإنكليز في سنة ١٦٦١ م باحتلال طنجة، وفي سنة ١٦٦٨ م أعطيت سبته والعرائش للإسبان، وفي سنة ١٦٨٤ م عمد الإنكليز إلى تخريب مواقعهم في طنجة وتركوها ذاهبين عنها، فعمد الفاسيون إلى الاستيلاء عليها وإلحاقها بهم.

ففي الوقت الذي كانت الجزائر تشهد بروز مرحلة الآغوات، كانت جارتها فاس تتعرض هي الأخرى إلى مرحلة جديدة وحالة مستجدة في أوضاعها الداخلية والخارجية.

الفصل الرابع
عهـد الآغـوات

عندما قدم علي باشا إلى الجزائر كانت البلاد تشهد حالة من التمرد والعصيان لا مثيل لها، ثم تحولت إلى ثورة استمرت عدة أيام عقب مجيئه إلى الجزائر سنة ١٠٧٠ هـ ١٦٥٩ م.

فعقد الإنكشاريون اجتماعاً في الديوان، بحثوا فيه مسألة ضعف إدارة الباشوات، وما نجم عنها من ويلات ومصائب بسبب تدخلهم في كل شيء وتخليهم عن المهام الإدارية المخصصة لهم. فقرروا إلقاء القبض على الباشا وأتباعه، ثم وضعوهم في غاليوطة وأرسلوهم إلى إزمير. وحالما وصل الباشا إلى إزمير كتب تقريراً بالأحداث التي تعرض لها وطلب الإذن من قاضيها بشأن إعلام إستانبول بذلك.

غضب الصدر الأعظم كوبرلو محمد باشا من مقلب الجزائريين، وبسبب غضبه الشديد استدعى الباشا المسكين من إزمير وأمر بقتله، كما أرسل فرماناً إلى الجزائريين يخبرهم فيه «أخيراً لن نرسل إليكم والياً، بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم، لدينا آلاف الممالك مثل الجزائر، فالجزائر إن كانت وإن لم تكن شيء واحد، ومن بعد ذلك إن اقتربتم من الممالك العثمانية فلن تكونوا راضين».

كما أرسل فرماناً آخر إلى البحارة في جميع السواحل العثمانية، وإلى والي مصر وشريف مكة، يطلب منهم منع الجزائريين من الذهاب إلى الحج وعدم بيع السلاح لهم، وعدم السماح لهم بالاقتراب من السواحل العثمانية.

ندم الجزائريون كثيراً، وظل وفدهم عاماً كاملاً في إزمير دون أن يسمح له مقابلة الصدر الأعظم، كما أرسلوا وفداً آخر لطلب الشفاعة من السلطان، وقد اعترفوا بذنبهم وقالوا للسلطان لو أرسلت لنا كلباً لقبلناه باشا علينا، وبالرغم من ذلك فإن الصدر الأعظم كوبرلو محمد باشا لم يستمع لهم ولم يغفر لهم ولن يقبل شفاعتهم.

عقب وفاة كوبرلو محمد باشا عُين ابنه فاضل أحمد باشا صدراً أعظم مكانه، فكلف الجزائريون القبطان قره مصطفى باشا بالذهاب إلى إستانبول وحملوه الهدايا الثمينة والتحف الجميلة، فعفا عنهم بعد أن تعهد القبطان له بأن الجزائريين يلتزمون بأوامره، وبناء على ذلك أرسل السلطان القابجي بوشناق إسماعيل باشا آغا بطوخين أمير أمراء الجزائر سنة ١٠٧٢ هـ ١٦٦١ م[1].

قبل الجزائريون الباشا الجديد ممثلاً للسلطان، وسلموه إدارة خاصة به، وقد خرج الجميع لاستقباله، لكنهم قرروا أنَّ الأحداث الأساسية والإدارة الفعلية بيد آغاهم، كما أنهم قرروا انتخاب آغا الإنكشارية كل شهرين، لكي لا ينفرد بحكم البلاد ويستبد بالأمر، وبهذه الصورة يمكن القول: إن العساكر أسسوا جمهورية عسكرية، لكن تبديل الآغا كل شهرين كان أمراً مستحيلاً، ونتيجة لتمرد الإنكشاريين واستلامهم زمام الأمور، انتخب خليل آغا كأول آغا على الجزائر. لكن العصيانات التي حدثت والتي أسفر عنها قيام حكومة الآغوات، جعلت الأمر أقل اضطراباً من ذي قبل بسبب الخوف، وكان إسماعيل باشا ينظر إلى الأحداث التي تمر بها الجزائر كمتفرج، لكنه كان يقوم سراً بالتآمر مع الدول الأوربية[2].

اعتقد الأجانب بأن القوة الحقيقية أصبحت بيد الإنكشارية، وإن نفوذ الرياس تضاءل وضعف، ولن يتمكنوا من التحرك متى رغبوا، وأن القرصنة ستواجه ضربة قاسية جداً، وبهذا الشكل سيعم الأمن والاستقرار على البحار.

وفي الحقيقة فإن استمرار القرصنة كانت ضرورية للأوجاق، لتأمين الغذاء والطعام لجيش كبير في بلد تجارتها وصناعتها وزراعتها قليلة

(١) تاريخ السلحدار محمد اغا. ج ١. ص ٢٢٢.

(٢) رسالة إسماعيل باشا إلى لويس الرابع عشر (المعرض الإفريقي ١٨٨٤ م).

ومحدودة ، لذلك اندفعوا بكل قواهم إلى البحار ملحقين الأضرار الجسيمة بالحكومات المجاورة ، وكان من الطبيعي أن تعتمد الجزائر على البحر لضمان وارداتها .

عندما رأى الديوان بأن أموال الجمرك قليلة ، اضطر إلى تخفيض الرسوم الجمركية ، ومنع التدخل بالأعمال الجمركية ، ولكن هذا التدبير العقلاني لم يدم طويلاً لأن الفوضى التي حدثت بدلت كل شيء بسرعة . واعتقد الأجانب وخاصة الفرنسيون بأن هذه الأصول ستستمر في البلاد ، ففرسان مالطة يتصارعون مع الرياس بحراً ، والكموندور بول يهيء نفسه ويعد التجهيزات اللازمة استعداداً لاحتلال الجزائر .

انتهت مدة الشهرين لخليل آغا ولكنه لم يترك الحكومة ، فتمردت الإنكشارية ثانية ، فهجموا عليه وقتلوه وعينوا رمضان آغا ، وفي سنة ١٠٧١ هـ ١٦٦٠ م وكانت علاقة رمضان باشا بالإنكشارية جيدة ، فقد عمل على زيادة الأعمال البحرية ، ووفق بذلك ، فمدد له الإنكشاريون مدة حكمه .

وبما أن الباستيون قد هُدِّم ، فإن الأهالي تمنعوا عن دفع الضريبة ، وأصبح نفوذ الشيخ أحمد بن أحمد القاطن في منطقة تامغروت يمتد من مصب نهر سبو حتى بجاية .

وفي سنة ١٦٦٦ م توفي سان فنسان دي بول ، ولكن القسيسيين إلى الآن مازالوا يعملون كقناصل في الجزائر ، وإذا كان الإنكشاريون قد أحبوا رمضان لسبب ما فإنهم قتلوه في ١٠ آب سنة ١٦٦١ م واستطاع المهتدي البرتغالي شعبان آغا الوصول إلى الحكم[1] .

كان شعبان آغا رجلاً مدبراً ، لكنه كان أسير شهواته ، وبما أنه أراد أخذ أكبر حصة من الغنائم التي يكسبها القراصنة لنفسه ، فقد تمرد الجميع ضده ، وأخرج الإنكشاريون إبراهيم باشا من السجن ، واتحد الباشا مع الإنكشارية ، وأمر بقتل شعبان باشا وثمانية وعشرين شخصاً من أنصاره . وأعطيت الأغوية إلى شخص يُدعى علي ، ولم يحصل إبراهيم باشا على شيء سوى أنه حصل على حريته .

---

(١) Memoire de La Charite Chretienne (Aix 1660 Petin 8)

استمرت أعمال القرصنة بكل شدتها وعنفوانها، وقدرت الخسائر التي تعرضت لها مرسيليا بحوالي مليون وأربعمائة ألف إيكو، وإن تجوال الدوق دي مارسكور (Dök dö Merkosur) والكومندور بول لم تحقق أي فائدة، لأن الرياس أيضاً غدوا يتجولون متحدين مثلما اتحد الأعداء أيضاً.

زار الأميرال الإنكليزي كلا من الجزائر وتونس بقصد إنقاذ أسرى بلاده، لكنهم طلبوا فدية عن كل شخص ١٠٠ ريكسدال[1]، إلا أنه رفض دفع هذا المبلغ وانسحب عائداً إلى بلاده دون أي فائدة.

وكان الدوق دي تورسي (Dük dö Tursi) وغريماني (Grimani) ورويتر (Ruyler) وماركي دي كريكي (Marki de Cerqui) يتجولون في البحار محاولين التقليل من أضرار القراصنة لهم، كما قام فرسان مالطة بمهاجمة السواحل البربرية، وتمكنوا من أسر خمسمائة أسير، ووضعوهم كمجدفين على سفنهم، أما كرمت دي فرو (C. de Verue) فقد اختبأ في إحدى الخلجان الصغيرة القريبة من ميناء الجزائر، وحالما خرجت أولى سفنهم قام بالاستيلاء عليها، وفي هذه المدة قام الجزائريون بإنشاء برج (رأس الطاغورة) واستحكام مرسى الذباب.

وكان قائد الأسطول الإنكليزي مونتاغو (Mentague) وقائد الأسطول الجنوي سنترون (Centurion) يتجولان في المياه البربرية، ولكن قوة المسيحيين لن تخيف الرياس[2].

وفي خريف سنة ١٦٦١ م تمكن الأسطول الجزائري والمؤلف من ثلاثين سفينة من الاستيلاء على اثنتي عشرة سفينة إنكليزية وتسع سفن هولندية واثنتي عشرة سفينة إيطالية وفرنسية.

قرر الإنكشاريون بعد مقتل رمضان آغا عدم إقامة أي معاهدة مع الدول المسيحية، ولكنهم حينما رأوا أن جميع الدول الأوربية تقف ضدهم اجبروا لطلب المساعدة من إستانبول.

---

(١) وهي عملة فضية كانت تستخدم لدى بعض الدول الأوربية، لكن قيمتها كانت تختلف من دولة لدولة أخرى.

(٢) دي غرامونت.

وفي ربيع سنة ١٦٦٢ م تمكن الدوق دي **بوفور** (Duk de Bofor) من السيطرة على عشرين سفينة للقراصنة ، وبنفس السنة أيضاً حدثت عاصفة قوية أدت إلى تخريب ميناء الجزائر، وغرقت تسع سفن ، وكانت هذه السفن من جملة الغنائم التي غنمها القراصنة . فاستغل الأميرال الهولندي رويتر فترة الإرباك والاضطراب الذي يعانيه القراصنة وأقام معهم معاهدة لمدة ثمانية أشهر.

استفاد الإنكليز من الضائقة التي تعرض لها الجزائريون ، وفي أوائل نيسان قام قائدا الأسطول الإنكليزي فونتاغو وساندوفيش(Sanduvis)بقصف ميناء بجاية بالمدفعية ، وخلال ثلاثة أيام ألقوا القبض على أربع سفن ، ومن بعدها قاموا بملاحقة أسطول الرياس يوم كان البحر يشهد هبوب عاصفة قوية ، وعندما شاهد الإنكليز رويتر قائد الأسطول الهولندي أمام ميناء الجزائر اعتقدوا بأنه سيكمل على من بقي من الأسطول الجزائري وفرحوا كثيراً لأنه سيُقضى نهائياً على أسطول الرياس ، لكن رويتر كان يرتبط مع الجزائريين بمعاهدة ود وصداقة مدتها ثمانية أشهر، لذلك تمكن الأسطول الجزائري من دخول الميناء بسلام بعد إلقاء التحية المعتاد تأديتها ، فاندهش الإنكليز من ذلك إلى حد تساوت فيه دهشتهم مع غضبهم .

لم يوفق الإنكليز بتحقيق هدفهم من القوة التي استخدموها تجاه الجزائريين ، فاضطروا إلى إتباع سياسة اللين بهدف إقامة مباحثات جديدة مع الجزائريين بغية التوصل إلى عقد معاهدة بين الطرفين ، وبالفعل فقد توصل الطرفان إلى عقد معاهدة لكن المعاهدة التي أقامها مونتاغو كانت فائدتها محدودة جداً بالنسبة لبلاده ، حتى أن المسيو دو لاغوته (M. dr Laguette) كتب في التاسع والعشرين من نيسان سنة ١٦٦٢ م إلى كولبير (Kolbere) يصف له هذه المعاهدة بقوله (لا تكفي إلى درجة ستر العورة) .

وفي تشرين الأول سنة ١٦٦٢ م خرج الأسرى المسيحيون والأهالي معاً خارج المدينة بقصد القيام بثورة مسلحة ، لكن محاولة أحد عصاة الدومنيكان من القسيسيين أخذ القلعة الداخلية واستولى عليها ، إلا أن تصرفه آنذاك دفع السلطات إلى اتخاذ إجراءات شديدة وقاسية عرضت الجميع إلى عقوبات شديدة لا تتناسب وتصرفهم هذا.

قررت فرنسا احتلال بعض السواحل الجزائرية كخطة منظمة ضد الجزائريين، وبغية تحديد المكان، كلف المجلس الملكي تعيين أحد المهندسين ويدعى دو كليرڤيل (de Klervil) بمهمة سرية إلى الجزائر لتحديد المكان المناسب.

وفي ٢٢ حزيران سنة ١٦٦٢ م قدم دو كليرڤيل تقريراً إلى كولبير يحدد فيه بون (عنابه) واستوره والقالو كمناطق صالحة لإنزال القوات الفرنسية.

وفي ربيع سنة ١٦٦٣م عندما كان الكومندور بول يتجول بأسطوله، استولى على عشرين سفينة جزائرية، وفي هذه الأثناء كان سينزل عساكره في القالو، لكن أحد ضباطه أشار عليه بعدم إنزال العساكر من باب الحيطة والحذر، إضافة إلى ذلك فإن زمن العواصف البحرية السيئة اقترب وحان زمانها، فعمل بنصيحته وقفل راجعاً إلى بلاده والتحق ببقية الأسطول.

وفي الثاني من آب رسا أسطول الدوق دو بوفور أمام استوره، وبعد أن أخذ الدوق الأرزاق من القبليين بالقوة، تابع طريقه إلى دلس فالجزائر، وذلك بهدف قصف مدينة الجزائر ومينائها وإغراق السفن الراسية فيه، لكن الأشخاص الذين اصطحبهم معه كأدلاء أخذوه من طريق مكشوفة، لأنهم كانوا يريدون إيصاله إلى الجزائر في منتصف الليل، لكنهم لم يصلوا إلى غرب مدينة الجزائر حتى الصباح، وبما أنه شوهد من قبل الجزائريين فإن هجومه المفاجىء انتهى ولم يبق لزوم له، وتجنباً للعاصفة اضطر الدوق دو بوفور إلى اللجوء إلى جزيرة (إفيسا (Ivisa) وأثناء سيره في الطريق استولى على خمس سفن للقراصنة، أما الوباء الذي كان يعصف بمدينة الجزائر فقد انتقل إلى طولون، في حين كان الأسطول الهولندي بقيادة كورنيل دي ترومب Corneille de tromp والأسطول الإنكليزي بقيادة الأميرال لافسون (Amiral Lavson) يتجولان في البحار محاولين تأمين الحماية لسفنهم التجارية، وبما أن الأميرال لافسون قام بمهاجمة السفن الجزائرية، لذلك قام الجزائريون بإلقاء القبض على القنصل الإنكليزي فنتر (Venter) ووضعوه بالسجن وقيدوه بالحديد، كما طلبوا منه دفع مليون إيكو ذهبي كتأمين للسفن التي أخذها للقراصنة.

أما المجلس الملكي الفرنسي فقد قرر احتلال جيجل، وفي ربيع

١٦٦٤م أخذت الاستعدادات اللازمة لذلك ، وفي التاسع عشر من تموز سنة ١٦٦٤م كان الدوق دي بوفور بأسطوله الضخم والمؤلف من تسع وعشرين ناقلة وست عشرة سفينة حربية واثنتي عشرة سفينة مختلفة تنقل أعداداً كبيرة من القوات العسكرية يرسو بالقرب من السواحل الجزائرية استعداداً لشن هجوم عليها ، وقد أنزل سبعة آلاف جندي إلى البر وعهد قيادتهم للكونت دي كادان K. de Gadogan ، وفي الحادي والعشرين من تموز وصل الأسطول الفرنسي إلى بجاية ، وكان الوقت مناسباً جداً لإنزال القوات فاحتلتها دون مقاومة بسبب خلو المدينة من الحراس ، لكن دي بوفور خالف دو كليرڤيل بذلك .

وفي الثاني والعشرين من تموز اتجه الفرنسيون إلى جيجل ، وقد أجروا خلال هذا اليوم استطلاعاً شاملاً للساحل ، وفي الثالث والعشرين من تموز بوشر بإنزال العساكر إلى البر ، وبعد مقاومة عنيفة تمكن الفرنسيون من احتلال المدينة ، وبعد يومين من احتلال المدينة ، بدأ القبليون بشن هجمات قوية ومكثفة ضد القوات الفرنسية ، وكانت الهجمات التي شنها القبليون بصفة عامة تتصف بالقوة والعنف ، وخلال هذه الأشهر قام الجزائريون بإعداد قوة عسكرية ، لكن العصاة ممن ارتبط مع الفرنسيين أفسدوا قيام مثل هذه القوة محاولين منع الأهالي من التطوع بهذه الفرقة ، ولم يكتب لها النجاح .

كانت القوات الفرنسية في حالة فوضى وعدم انتظام ، فاضطراب الآراء لدى القادة جعلهم يقضون معظم أوقاتهم بالمناقشات والمنازعات التافهة ، وبما أن القصر الملكي لم يحدد بوضوح صلاحية ووظيفة قادة الجيش ، لذلك أصبح كل شخص منهم يعتبر نفسه هو الآمر الناهي ويتصرف بشكل مستقل عن زميله ، فقائد الإنزال كادان كان على خلاف واضح وعلني مع الدوق دي بوفور ، وزيادة في تحديه أعلن استنكافه عن العمل وكان الماريشال دوكنالا غويللوتير (Marsel Dökanal Goillotiere) يتحرك كيفياً ويتصرف وكأنه الوحيد هناك ، وكان دي كليرفيل هو الذي يقوي هذا الخلاف ويساهم في زيادة الفوضى ويكيد الدسائس للطرفين بغية إفشالهم كقادة عسكريين ، فانشغل الجميع عن إقامة التحصينات والاستحكامات وقضوا وقتهم بالمناقشات والمنازعات . بعد إنزال القوات إلى البر واعتباراً من أوائل تشرين الأول بدأت عائلات الجنود والقادة بالمجيء إليهم ، إزاء

تصرف الفرنسيين ومحاولتهم إثبات وجودهم في الجزائر، قام الجزائريون باستلطاف القبليين وتقديم الهدايا لهم لضمان الائتلاف والتعاون معهم، وحالما كسبوهم لجانبهم، بدأ الجيش الجزائري بالوصول إلى جوار جيجل، ومع بداية الأيام الأولى من تشرين الأول أقام الجزائريون ما يلزم من نقاط الاستحكام، وفي الخامس منه باشروا بشن هجومهم على القوات الفرنسية، وخلال الطلقات الأولى تهدمت المتاريس الفرنسية وانهارت تماماً وغدت القوات الفرنسية عرضة لنيران الجزائريين المباشرة، فعرض دي كليرفيل جهوده ووساطته لضمان انسحاب القوات دون قتال.

استمر الهجوم الأول للإنكشاريين قرابة خمس ساعات متواصلة، كبدوا خلالها الفرنسيين خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات وفقدوا خلاله سبعمائة شهيد، ومن ثم انسحبوا، وكان الدوق دي بوفور قد تعرض لجروح، ولم يستفد الفرنسيون من الهجوم الذي شنوه عقب انسحاب الإنكشاريين، لأنهم كانوا في حالة سيئة جداً، ونتيجة لقلة الطعام والشراب والملبس، وحتى العتاد كان ينقصهم منه الشيء الكثير، إضافة إلى أن الضربة التي تلقوها من الإنكشاريين كانت قاسية جداً، كما أن الأمراض انتشرت بين صفوفهم كالحمى والديزانتريا.

وفي الثاني والعشرين من تشرين الأول وصلت قوات فرنسية بقيادة ماركي دومارتل والمسيو دوكاستلان، وكان هناك خلاف ما بين المسيو دوكاستلان وبقية القادة، لكن الملك الفرنسي كلفه بالقيادة، فاسند إلى كادان قيادة القوات البحرية، وأمر دي بوفور القيام بدوريات بحرية بعدما عهد إليه قيادة الأسطول، لكن دي بوفور قبل مغادرته المنطقة بأسطوله كان قد كُلف بشن هجوم عام على الجزائريين، لكن دي كليرفيل استخدم نفوذه لدى المجلس الملكي ومنع تنفيذ مثل هذا الهجوم، وبعد خمسة أيام ركب دي بوفور سفنه وتحرك باتجاه الشرق.

وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول فتحت المدفعية الجزائرية نيرانها ثانية على الفرنسيين، وفي اليوم الثاني لم يبق أي أثر للمواقع الفرنسية، وغدت القطعات الفرنسية تحاول الالتجاء إلى أي طرف تراه مناسباً لحمايتها، وبعد عدة ساعات انهارت معنويات القوات الفرنسية بسبب عدم

تمكنها من الرد على نيران الجزائريين، وأخذوا يصرخون بصوت واضح ومفهوم سننضم إلى القوات التركية ونصبح أتراكاً(*).

وعلى الرغم من عدم قبول القائد العام على الانسحاب، فإن بقية القادة أعطوا أوامرهم إلى عساكرهم بالانسحاب، وفعلاً نفذوا الانسحاب بالرغم عنه، وانسحبوا في الحادي والثلاثين من تشرين الأول مساء تحت نيران المدفعية الجزائرية وكان الانسحاب الفرنسي أشبه بالفرار، لأنهم تركوا مدفعيتهم وأدواتهم الثقيلة إضافة إلى الجرحى والمرضى منهم، كما فقدوا قرابة ألف وأربعمائة شخص[1]. أما الباقون فقد تمكنوا وبصعوبة بالغة من انقاذ أنفسهم في السفن، وهكذا انتهى هذا الهجوم الذي هيّأ له الفرنسيون بكل قوتهم وأسلحتهم بالذل والهزيمة.

أقلع الإنكليز والهولنديون عن التجول بأساطيلهم في البحار، ففي السابع عشر من شباط سنة ١٦٦٥م خرج دي بوفور من ميناء طولون بست سفن، وتمكن خلال رحلته من إلقاء القبض على ثلاث سفن للقراصنة فأحرقها وأسر من فيها، وفي اليوم الثاني والسابع من شهر أيار قصف ميناء الجزائر بالمدفعية، لكن هذا القصف لم يترك أي أثر على الميناء ولا الرياس، ولهذا لم يكلفوا أنفسهم عبء الرد عليه، وفي الخامس والعشرين من آب سنة ١٦٦٥م تحرك دي بوفور إلى شرشال، وأسر منها ثلاث سفن للقراصنة وأحرق سفينتين، ونقل السفن ومائة وثلاثة عشر مدفعاً وعلم الأميرالية إلى نوتردام، وفي هذه الأثناء تمرد الإنكشاريون وقتلوا شعبان آغا، وأعطوا الآغوية إلى علي آغا، وكان علي آغا وإسماعيل باشا المعين من قبل إستانبول لمنصب إمرة الأمراء يتمتعان بنفوذ قوي ومن أصحاب السلطة الفعلية في الجزائر.

كان علي آغا من أكثر آغوات الجزائر قوة واقتداراً، فقد استمر في منصب الآغوية من ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م حتى ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م وكان يرتبط مع

(*) في الحقيقة أن الفرسيين عندما شعروا بالضيق وأن الموت أحاط بهم صاحوا أنهم سيدخلون الإسلام، لأن أصوات القوات الجزائرية من عرب وأتراك كانت تردد بصوت واحد الله أكبر، لكن المؤلف حرف العباره بسبب تعصبه لقوميته التركيه ومما يؤكد لنا صدق تخميننا للموقف ما لمسناه خلال الترجمة (المترجم).

(١) دي غراممونت.

فرنسا بصداقة متينة ويعتبر من أكبر الأنصار البارزين والمؤيدين لفرنسا.

وفي السابع عشر من أيار سنة ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م عُقدت معاهدة بين فرنسا والجزائر، واشترط في هذه المعاهدة إزالة تذاكر المرور للسفن، وفي حال عدم وجود سفن في عرض البحر يتطلب من الطرفين إرسال زورق استطلاع للمعاينة والتأكد، كما نصت المعاهدة على تبادل الأسرى بين الطرفين، وإعطاء القنصل الفرنسي أحقية التفضيل على القناصل الآخرين[١].

بذل الإنكليز جهوداً كبيرة لإفساد تلك المباحثات ما بين الفرنسيين والجزائريين وكان الإنكليز قد عرضوا على الجزائريين تقديم ثلاثين سفينة حربية لاستخدامها في الدفاع عن بلادهم ضد الفرنسيين، وبموجب المعاهدة أعيد للفرنسيين ألف ومائة وستة وعشرون أسيراً، وأسس الباستيون من جديد، وعين الجنرال جان آرنو (Jan Arno) مديراً جديداً للباستيون، وتم الصلح بين الطرفين. وعلى الرغم من ذلك فإن أعمال الرياس استمرت كما كانت سابقاً، لكن الفرنسيين لم يتعرضوا لخسائر تستوجب تقديم الشكاوى ضدهم حتى سنة ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م[٢].

وفي سنة ١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧هـ كانت سفن الأوجاق الغربي تتحرك متجولة في مختلف مناطق البحر الأبيض وجزيرة كريت بحجة حماية السفن الناقلة للعساكر والذخيرة، أما بشأن الأوجاق الجزائري فقد قدم خصكي محمد آغا إلى الجزائر في عشرين ذي القعدة سنة ١٠٧٨م حاملاً جواب إسماعيل باشا حول المسألة المذكورة، وبعد أن جمع إسماعيل الأوجاق والأعيان والعلماء قرأ عليهم الفرمان والمتضمن ما يلي: جهزوا أنفسكم من أجل الجهاد، فالعربان الأشقياء في البر والمسيحيون في البحر، وقد كبدتم الفرنسيين خسائر كبيرة أثناء هجومهم على جيجل، وفي الطرف الغربي كانت ثلاث دول تستعد للهجوم على الجزائر، وهي مازالت تنتظر الفرصة المناسبة، وفي هذه السنة غرقت معظم سفننا الهمايونية بسبب الرياح الشديدة التي هبت

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دي غراممونت.

فجأة، وليس لدينا سفن كافية لمواجهة أعدائنا، وكل ما لدينا من السفن لا يتجاوز أربعين سفينة معظمها غير صالحة للإبحار، فقد تحطمت بسبب اصطدامها مع بعضها البعض داخل الميناء، إضافة إلى بعض السفن الأخرى وهي قليلة العدد، وهذه السفن تستخدم فقط لنقل المؤن والقيام بأعمال الدوريات ضمن نطاق محدود، وفي بعض الأحيان نستخدمها لنقل العساكر والعبيد لتحصيل الالتزامات من بعض الممالك الأخرى، وإن شاء الله سنقود السفن ونأتي إليكم عندما تعود سفننا من البحر، وإذا أصبحت كثيرة ووفيرة، تكون عساكرنا قد عادت من التحصيل[1].

وفي سنة ١٠٧٨هـ لم يذهب الرياس إلى كريت، وفي سنة ١٠٧٩م تحركت عشر غاليوطات من الجزائر وتونس للالتحاق بالأسطول الهمايوني، وفي نفس السنة تعرض أحد قباطنة الجزائر لهجوم من تجار البندقية أثناء نقله المهمات والأرزاق إلى قانديا (Kandiye)، وكان هؤلاء يحاولون الانتقام من الرياس[2]. وكانوا لدى مصادفتهم أي سفينة عائدة لهم يضربونها ويستولون عليها، وفي هذه الأثناء كان الرياس قد استولوا على عدة سفن عائدة للتجار الفرنسيين، وفي الرابع عشر من حزيران قدم ماركي دي مارتل إلى الجزائر مطالباً بتلك السفن وبحارتها، فوافق الديوان على طلبه، وسلمه السفن مع بحارتها.

وفي التاسع من تشرين الأول جاء فرسان ألن (Sovalye Allen) برفقة الأسطول الإنكليزي إلى الجزائر، ومن خلال التهديد والوعيد تمكنوا من إنقاذ عدد من الأسرى، وفي سنة ١٦٦٩م عاد فرسان ألن ثانية إلى الجزائر، ونتيجة للمعاملة الحسنة التي أظهرها الجزائريون، اعتقد فرسان ألن أن الجزائريين يخافون منهم، ولكن الجزائريين هذه المرة أظهروا تصلباً أكثر، ومضت خمس أيام من المباحثات دون أن يحققوا أي شيء يذكر، ففتح فرسان ألن النار على الجزائريين، فرد عليهم الرياس بالمثل، وجرت أمام الميناء، معركة ضارية، اضطر الإنكليز على أثر إطلاق نيران المدفعية

(١) تاريخ السلحدار محمد اغا ج ١ ص ٤٨٠.

(٢) تاريخ السلحدار محمد اغا ج ١ ص ٤٨٠.

عليهم وهبوب العاصفة للهرب إلى ميناء ماهون (Mahon) ، وقد تكبدوا خلالها خسائر فادحة .

وفي سنة ١٦٧٠م تحرك الفرنسيون والهولنديون والمالطيون والصقليون والإنكليز وسفن البابا بسفنهم إلى عرض البحر فجأة ، وقد هدفت تلك الدول من تحركاتها مهاجمة الأتراك في شمال إفريقية ، وتدمير سفن الرياس وإلقاء القبض عليهم، وعندما أنزلوا قواتهم إلى البر أصيب الأهالي بإرباك شديد وعم الخوف ، فأسرع علي آغا بأقامة التحصينات والمتاريس على نهر الحراش .

وفي آذار ١٦٧١م هاجم الأسطول الإنكليزي بقيادة إدوار سبراغة E. Spragge مدينة بجاية ، وأشعل النار باثنتي عشرة سفينة كانت قد التجأت إلى إحدى المواقع تجنباً من قصف المدفعية عليها ، إزاء ذلك قام الجزائريون بمهاجمة القنصلية الإنكليزية فنهبوها ، وألقوا القبض على القنصل وجميع العاملين في القنصلية ، ووضعوهم في السجن .

وفي تموز من نفس السنة عاد إدوار سبراغة ثانية إلى الجزائر ، وهاجم الميناء ، وبعد أن كسر الجنزير الحديدي المستخدم لاغلاق الميناء ، أحرق تسع سفن ، أما السفن الأخرى فقد أغرقها الجزائريون بأنفسهم .

حمل الرياس والأهالي مسؤولية ما حدث على عاتق علي آغا ، وكان علي آغا من أنصار الفرنسيين ، فعندما قدمت له فرنسا شكاوي عن موقف الرياس تجاهها ، قام بمعاقبتهم ، فقدموا شكاوى بحقه إلى إستانبول واتهموه بإهمال البحرية ، لكن علي آغا بمساعدة الفرنسيين تمكن من الدفاع عن نفسه ، وفي أيلول رتب الإنكشاريون تمرداً ضده ، فألقى القبض على رؤوساء المتمردين والعصاة منهم وأعدمهم لكنه هُزم أمام الأكثرية ، وقطع العصاة رأسه ، وألقوا القبض على زوجته وعذبوها بغية إخبارهم عن مكان الخزينة[1] .

وهكذا وقع علي آغا ضحية حبه للفرنسيين ومواقفه المتطرفة تجاههم ، ولكن الفرنسيين قاموا بمهاجمة جيجل فجأة وبدون أي سبب ، كما دُمرت

(١) دي غراممونت .

السفن الجزائرية وبقيت سفن الأوجاق الغربي في حرب كريت، وأسرت السفن الباقية.

تضايق الفرنسيون الموجودون في الجزائر من المعاملة القاسية التي عوملوا بها فقدموا الشكاوى إلى حكومتهم، لذلك عمد الفرنسيون إلى مهاجمة السفن الجزائرية واستولى على كل سفينة وقعت بأيديهم، وقد استغرب الرياس تصرف الفرنسيين علماً بأنهم منذ مدة طويلة لم يهاجموا السفن الفرنسية[1].

عقب مقتل علي آغا شهدت مدينة الجزائر فوضى واضطراباً في أوضاعها الداخلية فقد هاجم العساكر القلعة الداخلية، واستولوا على ما فيها من أموال وأرزاق، وخلال ثلاثة أيام تبدل خمسة أو ستة آغوات، وغدا الجميع يرفض تسلم منصب الآغوية، ووسط هذه الفوضى القائمة، قام الرياس بإعلان تمردهم وعصيانهم مستغلين حالة التخبط التي تشهدها المدينة، وقد جاء عصيانهم على شكل انقلاب، وتقرر إثر ذلك استبدال الآغوات بالدايات، مما أفسح المجال أمام البحارة لتسلم زمام الأمور في البلاد، فقوي نفوذهم وضعف نفوذ الإنكشارية.

وفي سنة ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م كان الإنكشاريون قد عمدوا إلى إثارة الفوضى وقدموا الشكاوى عن إدارة الباشوات السيئة، وحاولوا الاستيلاء على الإدارة لسببين: السبب الأول: الوصول إلى إيجاد إدارة جيدة وسليمة، والسبب الثاني: قطع الطريق على الرياس ومنعهم من تولي زمام الإدارة في البلاد. إلا أن الرياس لم يقنطوا من ذلك وحاولوا أكثر من مرة لتولي زمام الأمور، لكن آغوات الإنكشارية تمكنوا من استلام الإدارة وأبعادهم عنها، وعلى الرغم من استلام الآغوات لإدارة البلاد، إلا أنهم لم يتمكنوا من تأسيس إدارة قوية تضمن لهم الاستمرار في الحكم لفترة طويلة.

في الواقع لقد وضع الآغوات نظاماً يقوم على أساس المساواة، بحيث فسحوا المجال أمام اليولداشية تولي منصب الآغاوية بالتسلسل ولمدة شهرين، ولكن الآغوات الذين تم انتخابهم، حاولوا منذ اللحظات الأولى الإخلال

---

(١) دى غراممونت.

بهذا النظام، مخالفين الشروط المتفق عليها، وقد نتج عن هذا الإخلال قتل جميع الآغوات المنتخبين خلال اثنتي عشرة سنة، واضطروا أخيراً للبحث عن نظام جديد في الإدارة، وقد أطلقوا على هذا النظام الذي اختاروه لأنفسهم ولإدارة البلاد إسم إدارة الدايات.

فخلال عهد الآغوات مارس القراصنة نشاطهم البحري ممارسة شديدة وعنيفة ولقد وجهوا ضربات قوية ومنظمة للسواحل الإيطالية والإسبانية، وحققوا من جرائها نصراً كبيراً، وغنموا الشيء الكثير، وفي سنة ١٦٦١م هاجموا سواحل صقلية وسواحل البحر الأدرياتيكي، وغنموا ما قيمته مليوني ليرة، وفي سنة ١٦٦٣ م أنزلوا قواتهم بجوار نابولي وقادش، كما هاجموا قبلها السواحل الإسبانية وجزر ليفورن وجزر البليار وغنموا أشياء لا حصر لها.

وفي سنة ١٦٦٤م حاصروا البندقية، وفي سنة ١٦٦٥م هاجموا الأسطول الهندي واستولوا على بعض سفنه، كما حصلوا على غنائم بقيمة مليوني ليرة، وفي سنة ١٦٦٦م أسروا أعداداً كبيرة من نابولي واوترانتو (Otranta) وكروتون (Kroton)، وفي سنة ١٦٦٧م ألقوا القبض على سفينة هندية، كما نهبوا المناطق المجاورة لنابولي وجزر كابري (Kapri) وجزر بويلله (Pouilleyi) كذلك فقد هاجموا تارني (Tarni) وكورديليه (Kordilic)، وأسروا غالبية سكانها، وفي سنة ١٦٦٨م هاجموا البندقية ومن ثم بوليه (Polye) وكالابريا (Kolabare) وأسروا العديد منهم[١].

وفي سنة ١٦٦٩م عادوا ثانية لزيارة جنوة ومونـاكو وكورسيكا، وأحضروا منهم آلاف الأشخاص، وفي سنة ١٦٧٠م نزلوا في فوغيا (Foggia) وأسروا موظفاً جمركياً واستولوا على الأشياء الموجودة في المبنى، كما لاحقوا قافلة بحرية في بحر المحيط وهاجموا مملكة نابولي والأدرياتيكي، وفي سنة ١٦٧٥م، تواجدوا في ميناء مالاغا (Malaga) ومروا على مناطق البابا وكالابريا والبرتغال وضربوا وخربوا معظم مناطقهم[٢].

تجنب قراصنة الجزائر التعرض للسفن الفرنسية خلال تلك السنوات

(١) دي غرامونت.

(٢) دي غرامونت.

علماً بأن الفرنسيين كانوا من أكثر الدول التي اعتدت على الجزائر.

لقد كان الفرنسيون يعتبرون أنفسهم من أكثر الدول المسيحية صداقة للدولة العثمانية، وكانت الدولة العثمانية تعاملهم معاملة حسنة منطلقة من أن الفرنسيين يكنون لها الصداقة والوفاء.

وفي عهد علي آغا شُيد برج سمي برج سردين (Sardin) [1]. كذلك فقد أنشأ مخزناً للذخيرة[2]. وأنشأ برجاً سمي برج الإنكليز[3].

(١) فيما يتعلق ببرج سردين، هناك كتابة مدونة عليه تؤكد أن الذى أنشأ هذا البرج هو علي آغا. غابرييل كولين ج ١ ص ٦٠ نمرة / ٣٨/.

(٢) بالنسبة للكتابة الموجودة على المخزن فإنها تؤكد أنه بنى فى سنه ١٠٧٧هـ وفى هذه الفترة كان والى الجزائر احمد باشا وهذا يعني أنه هو الذى بناه، اما غابرييل كولين فيقول أن ولاية أحمد باشا كانت فى الفترة الواقعة بين ١٦٥٦ و ١٦٥٨م وأن المخزن بنى بعده بكثير، أما العنبر فبناه على آغا، غابرييل كولين ج ١ ص ٧٦ نمرة / ٣٩.

(٣) برج الإنكليز أو (طمات الفول). إن التاريخ المذكور على الحجر هو سنه ١٠٨٠هـ وهذا يعنى أنه بنى فى زمن إسماعيل باشا كما تدل القصيدة التركية المكتوبة عليه، اما غابرييل كولين فينفى ذلك، ولكن ما يفهم من القصيدة يؤكد أن بانيه على آغا، وأن العبارة مكررة بحجي على والأصح إسماعيل باشا، وربما يوجد التباس لأنه حسب التاريخ المرحلة مرحلة البدايات وليست مرحلة الأغوات.

الجُزءُ الثَّاني

الفصل الأول

- ١ -
عصر الدايـات

معلومات عامة عن عهد الدايات :

انتخاب الداي وتبديله ـ حياة الداي ـ فتح الخزينة ـ اليهود في الجزائر ـ بيع الغنائم ـ ازدياد نفوذ اليهود ـ ضرائب فاس وتونس ـ انهيار القرصنة ـ الاهتمام بالإنشاءات من جديد ـ فرمانات الديوان الهمايوني ـ وضع الجزائر مؤخراً.

قرر الجزائريون قبول تطبيق نظام الدايات الذي أعطى نتائج جيدة في تونس، واشترطوا أن يقضي الداي المنتخب طوال حياته رئيساً للحكومة، ويساعده الديوان في عمله، وأن يبقى أمير الأمراء من الباشوات ولكن بدون أي عمل.

لعب الرياس دوراً بارزاً في تأسيس حكم الدايات، فالدايات الأربعة الأوائل كانوا من أفراد البحرية، لأن البحرية كانت أعلى وأقوى من الإنكشارية، فأخذت الحكم منها، لكن ديوان الإنكشارية ما زال يمارس اجتماعاته كالمعتاد، ولكن بدون صلاحية، وسواء أكان الداي من البحرية أو الإنكشارية فهو مجبر على غض الطرف عن القرصنة، لأن القراصنة مكلفين بقتال الدول المسيحية، ولتكن هذه الدولة من تكون، يكفي أن تكون مسيحية.

إن تجول الأساطيل الأوربية في عرض البحار، وتهديداتهم المستمرة بقصف الجزائر أخاف الأهالي، مستغلين الضعف الذي وصلت إليه البحرية

الجزائرية والاضطرابات الداخلية أيضاً، وبما أن قوة الرياس غدت ضعيفة ومتفكفكة، فقد نشأت قوة جديدة هي قوة اليولداشية(*). وقد أخذت اليولداشية تنمو شيئاً فشيئاً على حساب الإنكشارية التي انهارت هي الأخرى، وغدا من الصعب وجود عناصر جديدة لأن الأناضول لم تعد توفد إلى الجزائر الأبطال الشجعان، وغدت العناصر الوافدة إلى الجزائر معظمها من القتلة والمشاغبين والمشعوذين ممن هربوا من الوطن الأم، لأنهم أصبحوا عناصر منبوذة محتقرة هناك، فاندفعت إلى الجزائر باحثة عن مجد واحترام فقدته في أرض الوطن الأم.

وكان من أهم الأسباب التي أدت لضعف الإنكشارية وانحلالها، جريها وراء الامتيازات التي حصلت إليها العناصر التي قدمت إلى الجزائر سابقاً، ولهذا فقد استمر أفرادها يطالبون لدى حدوث أي تغيير أو تبديل في الإدارة بالمكافآت والهدايا، وغدا شغلهم الشاغل زيادة معاشاتهم وترقية رتبهم، إضافة لانصرافهم إلى إعداد المؤامرات، وإحداث الفوضى والاضطرابات بصورة دائمة ومستمرة.

لقد تغيّرت أخلاق الإنكشاريين أيضاً، فالفرمانات السلطانية لم يعد لها أي قيمة أو احترام لديهم، وانقلبت حياة الداي إلى الانصراف بالبحث عن ملذاته الشخصية، مثل شرب الخمرة والإدمان على شرب الأفيون والمخدرات، وأصبح الشيوخ يعملون على إسعاد الداي السكير المستهتر(١)، فمنذ أن تأسست إمرة الأمراء في الجزائر وحتى سنة ١٦٥٩ م ١٠٧٠ هـ حكم البلاد حوالي ثلاثين باشا، لم يقتل إلا واحد منهم، وكان ذلك بفعل الانتقام الشخصي، في حين قُتل من فئة الآغوات والدايات قرابة خمسين بالمئة منهم.

وتذكر الروايات أنه قتل في يوم واحد سبعة باشوات. ومن الممكن أن تكون هذه الرواية خرافة أكثر مما هي حقيقة واقعة.

(*) اليولداشية: ومعناها الحرفي الرفاقية او الرفاق. وهذه الكلمة مؤلفة من يول ومعناه (الطريق) وداش (المرافق أو المحدث). (المترجم).

(١) دي غرامونت.

نص القرار المتخذ بشأن اعتماد النظام الجديد، على أن ينتخب الداي من قبل مجلس العموم، لكن العساكر لن يلتزموا بذلك ولن يطيعوه، فإذا استقال الداي أو قضى نحبه، فمن أصل ٢٨ عضواً سيعارض ١٢ عضواً إن لم يكن أكثر، وبهذه الحالة فالشخص الفائز يكون قد أخذ القرار مسبقاً، لذلك يحدث شيء جديد عدا عن الانقسامات التي غالباً تنتهي بالقتال ما بين الرياس والإنكشارية أو ما بين الإنكشاريين أنفسهم، أما إذا عُين الداي بالقوة فإن القتلة يذهبون مباشرة إلى قصر الجينية، ويدّعون بأنهم غير راضين عن تصرفات الداي، ويعلنون عن تعيين داي جديد، وفي مثل هذه الحالة يحدث سفك دماء، وفوضى واقتتال قد يستمر عدة أيام، ثم يأتون بعد ذلك رافعين العلم الأخضر علامة من علائم اللجوء إلى التفاهم والدخول بمفاوضات، وأثناء فترة التفاهم والتفاوض تستمر الفوضى، بالرغم من إطلاق المدفعية لنيرانها معلنة عن إنتهاء الخلافات، فأنصار الداي الجديد (المنتخب) يقومون بحمايته حاملين سيوفهم بأيديهم، وبعدها تبدأ عملية تقبيل الأيادي، ومن ثم يُعلن عن إنتهاء وإتمام عملية انتخاب الداي، ثم يمسح الصالون بأجساد الأسرى المقتولين من قبل الداي. ومن بعدها يقوم الداي الجديد بإرسال المحافظين إلى مختلف أطراف الولاية، وهؤلاء يقومون بدورهم بإعادة الأمن والاستقرار.

إن الداي مجبر على العيش والإقامة في قصر الجينيه تحت حماية عناصر الصولاقية* والشواش، لا يغيب عن أنظارهم لحظة واحدة، ومنذ اليوم الأول لانتخاب الداي ينفصل عن عائلته، لأن دخول النساء إلى القصر ممنوع منعاً باتاً، ولا يحق للنساء الدخول إلى القصر إلا في يوم المحكمة، وبعد صلاة ظهر يوم الخميس يذهب الداي إلى منزله، فيلتقي بعائلته ويقضي ليلته في منزله، وقبل ظهر يوم الجمعة يأتي المحافظون لأخذه إلى صلاة الجمعة في

(*) الصولافيه: مفردها صولاق ومعناها الأعسر، وكانت الصولافيه تسنكل من الفرقة الوسطى من الإنكشاريه أي الفرقة ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣ وهى فرفه تتصف بالشجاعه والقوه. وتربى وتعد إعداداً خاصاً، ومنها ينتخب محافظو السلطان، سلاحها القوس والسهم ويحمل السهم باليد اليسرى، ولا تعرف التراجع نهائيا وكانت الأورطه منها تتألف من ١٠٠ شخص للمزيد. انظر التاريخ العثمانى المصور ص ٢٩٧.

الجامع ، ومن الجامع يأخذونه إلى القصر، ومعاشه هو نفس معاش الإنكشارية ، لأن الحكومة تقوم بتأمين طعامه وطعام عائلته ، أما الهدايا والأموال التي تأتيه عن طريق تعيين الوظائف والمساعدات ، وغرامة العقوبات ، ومن القراصنة وفدية الأسرى وعائدات السفراء وهدايا القناصل وأمراء الصناجق ، تعتبر مكافأة له مقابل تحمله العمل ، وإذا قتل الداي تصادر الحكومة أمواله وممتلكاته ، وإذا تمكنت عائلته وورثته من النجاة فيعّدون من السعداء[1] . وقد وصف جوان كانو حياة الداي بأنه (رجل غني ولكنه ليس سيد خزينته ، أب بدون أولاد ، زوج بدون زوجة ، مستبد بدون حرية ، سيد للعبيد وعبد لرعاياه) .

لقد قسمت الجزائر إلى ثلاثة صناجق ، ولم تكن واردات تلك الصناجق تكفي لمخصصات الإنكشاريين ، وكان من الممكن سد هذا النقص بفرض الضرائب على حكومات السويد والدانمارك وهولندا وتوسكانيا والبندقية ، لكن زمن الحصول على هذه النقود لم يكن منتظماً ، والإنكشاريون لا يريدون الانتظار ليوم واحد لأخذ معاشاتهم ، ولهذا اجبر الدايات على مراجعة اليهود والاستدانة منهم ، وبذلك غدا اليهود يمثلون البنك بالنسبة للداي ، ثم أصبحوا فيما بعد وسطاء سياسيين ثم مستشارين له ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ النفوذ اليهودي في الجزائر يزداد ، وقد لعبوا دوراً رئيسياً في تسيير الأحداث ولكن بشكل سري[2] .

توجه اليهود إلى إفريقية الشمالية منذ الاحتلال الأول للقدس ، وقد بدأوا يتوافدون إليها من كل مكان ، وكانت أولى الموجات اليهودية التي قدمت إليها من إسبانيا ، وعُرف هؤلاء المهاجرون باسم دوران (راشباط) وفاريات (ريباش) وهم ينضوون تحت اسم السفارديم ، وكانوا بإدارة الخاخام الثاني ، وقد حصلوا على إذن الهجرة من خير الدين باشا الذي سمح لهم بالإقامة بالمدينة .

كُلف اليهود بدفع ضريبة عن كل شخص منهم ، كما سُمح لهم بفتح الحوانيت في أماكن معينة من المدينة ، ولا يمكنهم الانتقال منها .

---

(١) دي غرامونت .

(٢) دي عرامونت .

بعد احتلال القدس من قبل الرومان إنقسم اليهود إلى ثلاث فئات، وهم يهود هايدو، ويهود إسبانيا، ويهود جزر البليار، وقد بلغ عدد هؤلاء اليهود في الجزائر سنة ١٥٨٠ م مائة وخمسين عائلة، وعملوا بالصياغة والصرافة وصك النقود وكبائعين متجولين، الأغنياء منهم بدأوا بشراء الغنائم من القراصنة، وكانوا يبيعونها في تونس وإستانبول، وكان لليهود معبد خاص بهم يحلون به مشاكلهم ونزاعاتهم، وكان يترأسهم زعيم أو قسيس، وقد أجبر اليهود في الجزائر على ارتداء الملابس السوداء باعتبارهم أدنى طبقات الشعب، وفوق هذا كان يحق للمسيحيين والأسرى تحقيرهم، وضربهم أيضاً، ولدى ارتكاب أي شخص منهم جنحة أو خطأ يعاقب عليه بأشد العقوبات، ويقول بردان: إن عدد اليهود أصبح في سنة ١٦٣٤ م قرابة عشرة آلاف يهودي، أما ليجو دي تاسه فيقول بإن عددهم أصبح في سنة ١٧٢٥ م خمسة عشر ألف يهودي، وقد قسمهم سكان الجزائر إلى فئتين فئة يهود إسبانيا وفئة يهود جزر البليار، ومع هذا فقد اعتبروا من تعداد السكان المحليين، أما يهود الإفرنج (الأوربيين) فكانوا قلة بالنسبة للفئة الأولى، وكان معظم يهود الإفرنج قد جاؤوا من إيطاليا وبصورة خاصة من مدينة ليفورون.

سمح دوق توسكانيا ليهود ليفورن بفتح المخازن لشراء الغنائم والأسرى، فقدم رئيس طريقة (سان إيتان) شكاوى إلى جميع حكام وملوك أوربا ضد دوق توسكانيا، لأنه سمح لليهود بممارسة مثل هذه التجارة، لكن ملوك أوربا لم تصغ لندائه وشكاويه[1].

إن الغنائم التي لا تباع في الدول الإسلامية أو لا يوجد من يشتريها كان اليهود يأخذونها ويبيعونها في البلاد المسيحية، ويحققون من ورائها أرباحاً طائلة، ونتيجة لممارستهم الأعمال التجارية، قويت صلاتهم بالدول المسيحية وخاصة بعد عملهم كوسطاء بين الطرفين.

قدم بعض يهود ليفورن إلى الجزائر واستقروا بها، وخلال فترة قصيرة أصبحوا من كبار الأغنياء، وبما أن الدايات والأمراء تعرضوا لأزمات مالية فقد حصل اليهود على امتيازات تخولهم ممارسة تجارة الصوف والجلود

---

(١) دي غراموت.

وشمع العسل بعدما كانت محرمة عليهم تحريماً نهائياً، أما يهود بقية الدول الأخرى، فلم يُعترف بهم، فدخلوا تحت حماية القنصل الفرنسي، وغدوا بذلك يتمتعون بنفس ما يتمتع به الأوربيون، ويقطنون في المكان الذي يحلو لهم. وقد تضايق يهود الجزائر من هذه المعاملة، لكن هؤلاء اليهود دفعوا الضرائب مثلهم مثل الرعايا الفرنسيين، ومع مرور الزمن ازداد نفوذهم كثيراً وأصبحوا لا يدفعون ما يترتب عليهم من ضرائب، ووصل بهم إلى حد غدا بعضهم صديقاً حميماً للداي وشريكاً له، ولم يقتصر على ذلك بل غدا بمقدورهم تبديل القنصل الفرنسي الذي لا يرغبونه. وحينما تطور الخلاف بين اليهود والقناصل الفرنسيين، هدد الداي هؤلاء القناصل بالطرد والسجن، أما الإنكليز والهولنديون فقد عرفوا كيف يسيطرون على تجارة الشرق، فقد أقاموا علاقات جيدة مع اليهود، وأمروا قناصلهم بتقديم الهدايا لهم بدلاً من الداي.

وهكذا بدأ نفوذ اليهود يقوى ويزداد، فقد لعبوا دور الوسيط بين الجزائر والدول الأوربية، وأقاموا المقاولات والاتفاقيات التجارية التي تناسبهم دون الرجوع إلى الداي، وإذا دعت الحاجة كانوا يهددون الدول الأوربية التي لا تلبي رغباتهم بإعلان الحرب أيضاً. وفي القرن الثامن عشر تعاظم نفوذهم كثيراً، حتى غدا بكري وبوشناق لا يتركان الداي يتحدث مع القناصل على إنفراد وأصبحا يتدخلان بشؤون الداي الخاصة، ويعزلان ويعينان الأمراء في الصناجق ويحددان أسعار المواد التجارية، ويرتبان ويخططان الأعمال للقراصنة، فأصبحا بشكل أوضح كأنهم حكام الجزائر الحقيقيون، وقد تضايقت العناصر الأخرى سواء المحلية أو الأجنبية، لأنهم وجدوا أنفسهم تابعين وخاضعين لقانون مشؤوم، فاتخذوا لأنفسهم موقفاً جباراً وظالماً، وعم الحقد جميع الناس، وأخيراً أسفر الموقف المتشدد للجميع عن قطع رؤوس عدد من اليهود.

ويعتبر اليهودي (سالامون جاكيت) المؤسس الحقيقي للنفوذ اليهودي في الجزائر، وهو من يهود ليفورن، عاش عمراً طويلاً ومات سنة ١٧٢٤ م ويقول لوغيه دتياس بحقه: «أنه مخادع ماهر، يعلم مختلف طرق الإجرام، ويملك مهارة فائقة تساعده على السيطرة على كبار المجرمين ويتمكن من

تمييزهم ، ويتمكن من ضبطهم ، وقد أقنع الداي أن مصلحته مرتبطة به ، وأقتنع الداي بذلك وانقاد إليه بسهولة وغدا الداى كأنه واحد من اليهود».

خضعت سياسة الداي الداخلية والخارجية وحتى المسائل المالية لسيطرة سالامون جاكيت ، وبما أن القرصنة تعتبر المورد الرئيسي للأوجاق ولا يتجرأ أحد من الناس على طرح حتى فكرة التقليل منها ، لذلك استمرت ولكن على نطاق محدود بسبب ضعفها ، وحينما لمس الداي أن واردات القرصنة لا تكفي لتأمين المعاشات ، بحث عن مصدر آخر يضمن له تأمين النقص الذي يواجهه ، فلجأ إلى فرض الضرائب على فاس وتونس ، إلا أن الفاسيين تمكنوا من إيجاد مخرج يعفيهم من هذه الظرائب وبدون أن يطوروا الخلاف مع الداي ، أما تونس فلم تكن إمرة الأمراء فيها منتظمة وتعاني تخبطاً في إدارتها ، ولهذا فلم تستجب لرغبات داي الجزائر ، وتطور الأمر إلى حد إعلان الحرب فيما بينهما ، وكانت الحرب المطلب الرئيسي للجزائريين ، لأنها عمل يساعدهم على الخروج مما هم فيه ، بالرغم من أن الحرب عمل غير مربح ، وبذلك غدا الالتفاف إلى مهاجمة الدول الأوربية يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية ، علاوة على ذلك فهناك عدة أسباب جعل التوجه إلى مهاجمة الدول الأوربية يأتي في المرتبة الثانية ، منها أن الرياس لا يملكون قوة وجبروت الرياس القدماء ، إضافة إلى ذلك لم يكن لديهم الرغبة بممارستها كما كان سابقاً ، لأن القادرغات أصبحت أكثر قدرة على مواجهة الصعاب البحرية ، وهي المتحكمة بالبحار ، فعهد السفن الصغيرة مضى وولى ، ولهذا تلاشت شجاعتهم وملت نفوسهم ممارسة الأعمال البحرية ، لأن خسائرها ومتاعبها أكثر بكثير من الربح والمتعة الشخصية التي تعمر صدور الرياس ، فالرياس الشجعان ماتوا ، وأصبح ممارستها يُقاس على أساس المكسب والربح ، كما أن قادة السفن لا يلتزمون بالنظام المتبع سابقاً ، وفوق هذا فإن الهدف الأساسي لمشجعي الأعمال البحرية هو الربح ، فماتت الرغبة عن ممارستها ، وإذا كان لا بد من ممارستها ، فإن الأمر يتطلب إيجاد أسطول قوي تابع للجزائر ، كي يتمكن القراصنة من مهاجمة السفن التجارية العملاقة المسلحة بتسليح قوي وقيادة واعية ومدربة تملك قدرة للدفاع عن أي خطر يواجهها ، ولهذا فقد أسس الدايات مركزاً لإنشاء السفن (ترسانة) وأقاموا إدارة

خاصة بالغابات، وسُمي المسؤول عن الغابات (موكراني) وسميت إدارة الغابات (كرسته) وأحضروا المهندسين والمعلمين لصب المدفعية أو اشتروا ذلك.

بالرغم من الشكاوى التي كانت تقدمها فرنسا، إلا أن حكومات السويد وهولندا والنرويج ظلوا يقدمون المدافع والمهمات واللوازم الحربية للداي، وبناء عليه فقد استمر القراصنة المتعاونون والملتفون بعصهم حول البعض يهاجمون الحكومات الصغيرة وإذا طلبت إحدى الحكومات الصلح مع الجزائر، كانت الجزائر تفرض عليها ضرائب بقيمة ما سيحصل عليه القراصنة من غنائم طيلة أيام السنة، وكانت كل من فرنسا وإنكلترا والنمسا وروسيا وإسبانيا معفية من هذه الضرائب، وكانت كل دول البحار مجبرة على قبول الشروط الموضوعة من قبل الجزائر، كما أن الحكومات الصغيرة أيضاً مجبرة على إقامة معاهدة أولاً مع الدولة العثمانية، معتقدة أنها تخلصت من الجزائر باعتبارها إحدى الولايات التابعة للدولة العثمانية، وعلى الرغم من موقف الجزائر المتشددة في عقد المعاهدات معها بالذات، وتجاهلت أكثر من مرة أوامر الدولة العثمانية إلا أن السلطان لم يعترف بعدم نفاذ كلمته في ذاك الأوجاق.

ووصل الأمر بالدول العثمانية إلى توجيه فرمانات إلى الجزائر بالشكل الذي ترغبه تلك الدول، وترسل تلك الفرمانات مع أحد كبار البوابين وبسفينة الدولة المحرر الفرمان لأجلها، ولكن الجزائر كانت تتجاهل مضمونه تجاهلاً تاماً، وحتى مسألة قبول الفرمان تتغير من زمن لزمن، فإذا كانت البلاد بحالة رخاء، كان الجزائريون وحكومتهم يستقبلون البوابين بالمراسيم الرسمية المعتادة ويحترمونه، ومن ثم يبلغون البواب المرسل بأن السلطان خُدع، وهو لا يريد مطلقاً أن يبقى أولاده الصادقين جياعاً. ويقولون له ليس لدينا أي دخل سوى القرصنة، فإذا كان بإمكانه إرسال معاشات للإنكشارية، فإننا سنقوم بتنفيذ ما ورد بالفرمان، وبهذه الصورة يبدأون السخرية منه، ثم يرسلونه دون أن يحقق شيئاً. أما إذا جاءت الهيئة من إستانبول في زمن الجوع والقحط، فيقولون عنها إنها نذير شؤم، ويتصرف معها الجزائريون بقساوة، ويهددونها بتوجيه نيران مدفعية الاستحكامات عليها، فتضطر الهيئة

للعودة مباشرة، كذلك فإن شكل الهدايا كانت من جملة الضرائب المفروضة على تلك الحكومات.

كانت إنكلترا من أولى الدول التي وضعت أصول هذه الهدايا، وقد أمطرت الداي بوابل من الهدايا الثمينة من أجل الحصول على إقامة مراكز تجارية لها في المناطق الساحلية بقصد منافسة التجارة الفرنسية، وبعد ذلك أصبحت الهدايا عادة متبعة، واستمرت حتى سنة ١٨١٦ م، ومع أوائل القرن الثامن عشر سقط أوجاق الجزائر، لأن القوات الإنكشارية بدأت تضعف يوماً عن يوم، ويقول بردان: في سنة ١٦٣٤ م كان تعداد الجيش الإنكشاري ٢٢ ألف جندي، وفي سنة ١٧٦٩ م انخفض إلى خمسة آلاف جندي، وأصبح في سنة ١٨١٧ م ٣٢٠٠ جندي منهم حوالي ألف جندي من المعلولين والشيوخ.

بعد سنة ١٧٥٠ م أصبح الداي مجبراً على إضافة القولوغلية إلى قواته التي كانت تتركب من ٥٠٠ قبلي وطابورين من (الذوحاف). كما أن الوباء والقحط الذي حل بالجزائر ساهم في خفض عدد السكان إلى ٢/ ٣،ويقول هايدو: إن عدد سكان الجزائر يتجاوز ٦٠ ألف نسمة، أما بردان فيقول: إن عدد سكان الجزائر يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ نسمة، وإن هذه الزيادة جاءت من تدفق المهاجرين الأندلسيين إلى الجزائر، أما جوان فيقول: بلغ عدد سكان الجزائر في منتصف القرن الثامن عشر خمسين ألف نسمة، وفي سنة ١٨٣٠ م أثناء الاحتلال الفرنسي تناقص إلى ثلاثين ألف نسمة.

كذلك فقد وجدت قوة أخرى وهي قوة المهتدين الذين تمركزوا في الإمارات الأخرى، ولكنها انتهت وتلاشت هي الأخرى، كما نقص عدد الأسرى كثيراً، وذلك بسبب ضعف البحرية الجزائرية، ويقول بردان: أنه شاهد ٢٥ ألف أسير مسيحي في الجزائر، أما غراماي (Grmay) فيذكر: أنه شاهد / ٣٠/ ألف أسير في أواسط القرن الثامن عشر، وبعد عدة سنوات تناقص العدد إلى ٣٠٠٠ أسير.

لقد أغلقت أبواب السجون التي كانت تضم أعداداً هائلة من الأسرى الذين لا يحسب حسابهم، وكان قسم منهم تابعاً للرياس، والقسم الآخر للأغنياء، وكبار الشخصيات، كذلك فقد فرغت سجون الحكومة، ولم يكن

في كل من سجن عامورات وسجن البيك وسجن غالورا سوى ١٨٠٠ أسير.

لقد أصبح الميناء فارغاً بعدما كان يحتوي على ثمانين سفينة سنة ١٦٢٠ م يقودها أكثر من ٣٠٠ ريس أثناء موسم القرصنة، ويقول لوغيه ديتاسن: في سنة ١٧٢٥ م كان في ميناء الجزائر أربع وعشرون سفينة تحتوي كل واحدة من ١٠ ـ ٥٢ مدفعاً، وبعض أربع وعشرين سنة انخفض عددهم إلى سبع عشرة سفينة فقط تحتوي الواحدة من ٣ ـ ٢٦ مدفعاً. وهذه السفن تسع سفن منها للحكومة وثمانية سفن ملك شخصي لبعض الأفراد، وأصبح السوق المغطى مهجوراً، ولم يعد يسمع صوت الدلالين الذين كانوا يبيعون الغنائم والأسرى، وفي السابق كانت مدينة ذات عز وبهاء ونشاط وحيوية، فقد كان ذهب المسيحيين يتدفق عليها بكميات لا تحصى، والآن أصبحت خزينة كئيبة وهجرتها البهجة وعمتها الكآبة.

إن القوافل التي كانت مهووسة بالربح السهل والسريع التي كانت تحمل الحلى والذوق أضاعت طريقها وتحطم حلمها[1].

---

(١) دى غرامونت.

- ٢ -

عهد الدايـات

الـداي الأول محمـد ـ مسألـة الخمس والعشـرين أسيراً فرنسياً ـ تقدم الإسبان نحو تلمسـان ـ تظاهـرات نار بورغـون ـ الصلح مع الهولنديين ـ هيئة هايت وفيرل ـ إعلان الحرب على فرنسا ـ استقالة الداي محمد وتعيين بابا حسن مكانه ـ هجوم دو غوسنه سنة ١٦٨٢ م ١٠٩٤ هـ.

في سنة ١٠٨٢ هـ/ ١٦٧١ م تم انتخاب أول داي في الجزائر وهو حجي محمد وكان حجي محمد رجلاً مسناً ، قدم إلى الجزائر بشكل اعتيادي ، وكان أثناء ذلك لا يزال شاباً ، ثم تطوع في الإنكشارية ، وتدرج إلى أن وصل إلى رتبة داي ، عمل كداي مدة إحدى عشرة سنة[1] ، لكن صهره بابا حسن كان يدير معظم أعماله .

وكان بابا حسن صعباً وظالماً وخبيثاً وله صفات وطباع سيئة جداً ، ولم يرتبط الداي العجوز مع فرنسا بأي علاقات حسنة ، لأن صهره أفسد عليه إقامة أي علاقات معها ، لأنه استولى على سفينتين جميلتين لكل من الدوق بوفور (Bofor) والكومندور بول (K. Pol) ورفض إعادتهما رفضاً قاطعاً ، ولم يحاول الداي إزعاج صهره فرضخ لرغبته .

استغل الإنكليز هذه الفرصة وأقاموا معه معاهدة سنة ١٦٧١ م وبعد سنة من عقد المعاهدة تعرضت الجزائر لوباء استمر سنة كاملة من ١٦٧٢ م حتى

(١) فور بيكه . For Bige

١٤ آب ١٦٧٤ م وبنفس السنة وفي نهاية آب قدم إلى الجزائر الأميرال ميراس ومعه ثماني سفن لأخذ بعض الأسرى، فطلب منه الديوان إحضار الأسرى الأتراك الموجودين في مرسيليا، وفي هذه الأثناء أي في الرابع عشر من أيلول هرب عشرون أسيراً إلى الأسطول الفرنسي، وكان ذلك مفاجأة للجزائر لأنه لم يسبق مثل ذلك، وقد اعتاد الجزائريون على السماح للأسرى التجول ضمن المدينة أو يكلفونهم ببعض الأعمال والخدمات، لأن الأسرى الذين سيهربون عن طريق البر فمن المؤكد سيقعون بأيدي القبائل ويتعرضون لمعاملة قاسية جداً، وعن طريق البحر إذا نجو من الحراس فمسألة تأمين مركب وسلاح وغذاء أمر مستحيل وصعب للغاية، وحسب القانون، الأسير الهارب عقوبته الموت.

كان الأسرى لدى قدوم أسطول أجنبي يختبئون نهاراً، وحالما يحل الظلام يخاطرون بأرواحهم بغية الوصول إلى السفن، وكانت هذه السفن تستقبل الهاربين ولا تسلمهم أبداً، وهذا ما حدث هذه المرة.

كلف الداي القنصل الفرنسي بإحضار الأسرى الأتراك، وتوجه القنصل إلى سفن الأسطول، وحالما وصل فتح الأسطول أشرعته وغادر الجزائر إلى بلاده، وقد أدرك حجي محمد أن هذا الرحيل لا يبشر بالخير وهو علامة من علائم إعلان الحرب.

طلب الداي من القسيس (لوفاشي) القيام بإدارة القنصلية، وبنفس الوقت كتب رسالة إلى القنصل الفرنسي شارحاً له الوضع، ويخبره بأنه يريد الصلح مع الفرنسيين، وقد اضطر الداي إلى إسكات مالكي الأسرى بأمواله الخاصة وبهذه الوسيلة تمكن من تهدئة الموقف، وقد حاول الداي التفاهم مع الفرنسيين ولكنه فشل لأن المجلس الملكي الفرنسي اتخذ قراراً بشن هجوم جديد على الجزائر والانتقام من جيجل، وفي هذه الأثناء كان المكلف بإدارة القنصلية الفرنسية بير لوفاشي يعمل قسيساً في الجزائر منذ خمس وعشرين سنة، وفي العاشر من أيلول سنة ١٦٧٤ م جاء الفارس (أفريوكس) إلى الجزائر ليعمل فيها قنصلاً بدلاً من بير لوفاشي، وكان أفريوكس أشبه بممثلي المسارح مغروراً بنفسه كثيراً. لكن الداي لم يتقبله لغروره وعظمته، وفور استلامه العمل طلب إطلاق سراح الأسرى الموجودين عند موزمورتو حسن

آغا وعددهم خمسة وعشرون أسراً فرنسياً، حصل عليهم من سفينة تابعة لسكان ليفورن، وكان هؤلاء الأسرى من أرباب الذوق والنزاهة، كانوا ذاهبين إلى روما.

كان الجزائريون يأملون الحصول على الأموال الكثيرة من وراء هؤلاء، لكن الداي طلب من الفرنسيين تسليم طاقم سفينة (بورت ڤندرة) التي كانت هاربة من الإسبان وسقطت في سواحل برقة، وقد كلفهم الفرنسيون العمل في سفن مرسيليا مخالفين بذلك جميع الأسس والقوانين المتبعة، حاول بير لوفاشي إقناع المجلس الملكي بأنه مخطىء في تصرفه، وليس من العدل القبض على الأتراك فأمر المجلس الملكي بإطلاق سراح الأسرى الأتراك، ولكن بسبب سوء أصحاب الغاليات الفرنسية التي يعمل بها هؤلاء الأسرى الأتراك تأخرت عملية إطلاق سراحهم.

تمكن بير لوفاشي من إنقاذ أحد الأسرى الفرنسيين، ولدى عودته إلى بلاده حمّله الداي رسالة إلى الملك لويس الرابع عشر، وقد عبر الداي في رسالته عن اهتمامه باستمرار الصلح بين الدولتين، وطلب منه الإسراع بإرسال الأسرى الأتراك كتأكيد على نية الملك الفرنسي بدوام الصلح، ورجاه بشأن تعيين دي بورديو قنصلاً بدلاً من القنصل الحالي، وحالما علم القنصل أڤريوكس بأنه سيطرد من الديوان غادر البلاد في ٣٠ نيسان سنة ١٦٧٥ م، وكان في وداعه إسماعيل باشا. وعاد من جديد بير لوفاش (ببر لافاش) لاستلام وظيفته كقنصل.

بدأ الأسطول الإسباني يتجول في البحار بقيادة ماغلانيز (Magellenez) لكنه لم يتمكن من منع الرياس من مهاجمة المناطق المجاورة لليزبون (Lizbon) خلال سنتي ١٦٧٥ م و١٦٧٦ م فانسحب عائداً إلى بلاده.

وبما أن الإسبان ظلوا لسنوات طويلة محصورين ضمن وهران، فقد حاول بعد هذا الحصار التوسع فجهزوا قوة كبيرة وهاجموا الأطراف المجاورة لوهران وقد تمكنوا الوصول إلى جوار تلمسان، وهناك واجهتهم قوة جزائرية ضخمة فاضطروا للعودة إلى وهران بعدما تكبدوا خسائر فادحة، وعاد الأهالي

من جديد لمحاصرتهم ضمن مدينة وهران ، إزاء تحرك الإسبان المفاجىء أرسل الداي قوة من الإنكشاريين لمساعدة الأهالي ، وقد استمر الحصار ثلاث سنوات ، تعرض الطرفان لخسائر كبيرة بسبب تفشي الوباء فيهما ، وإذا كان الإسبان قد شنوا هجوماً في كانون الثاني سنة ١٦٧٨ م وألحقوا خسائر فادحة بالعرب ، إلا أنهم تعرضوا في نفس العام لحصار خانق فرضه العرب عليهم ، وأجبروهم على الاحتماء بالقلاع بعدما حوصروا من جهة البحر أيضاً .

في سنة ١٦٧٨ م قدم الأسطول الإنكليزى إلى مدينة الجزائر بقيادة (نبورغ) وأقام استعراضاً حربياً بقصد إخافة الجزائر ، لكن بطاريات المدفعية الموجودة في الاستحكامات الجديدة التي يبلغ قطرها ١٥ سم ردت عليه ببعض القذائف فابتعد الأسطول عن المدينة .

أطلق الجزائريون سراح الأسرى الفرنسيين والبالغ عددهم أربعة وعشرين أسيراً ، بعدما تعهد القنصل بير لوفاشي بإعادة الأسرى الأتراك بنفسه إلا أن الفرنسيين لم يلتزموا وأرسلوا بدلاً عنهم عدداً من الأندلسيين العميان والمعلولين ، وفعلاً كان الديوان محقاً في غضبه ، واعتذر القنصل الفرنسي عما حدث ، وحاول جاهداً تهدئة الغضب الذي عم الجزائر ، وأعلن أمام الجميع بأن الملك خدعه وأنه لا يزال على وعده بإعادة الأسرى الأتراك ، وفي تلك الأثناء ظهرت مشكلة أخرى ، وهي أن عدداً من الأسرى الأتراك الموجودين في الغاليات الإسبانية تمكنوا من الهرب بواسطة زورق صغير ، فألقى الفرنسيون القبض عليهم ، ووضعوهم على سفنهم كمجدفين ، وقد حاول القنصل إقناع المجلس الملكي الفرنسي بخطورة العمل الفرنسي ، ولكن القصر الفرنسي قال لبير لوفاشي : «إقامة معاهدة مع هؤلاء اللصوص لا تليق بملك فرنسا» . فطلب بير لوفاشي إعفاءه من مصبه ، وظل فترة ينتظر بديله ، ولكن بدون فائدة .

عندما كانت الأوضاع على أشدها بين فرنسا والجزائر جاء دو تورڤيله إلى الجزائر طالباً الأسرى الفرنسيين الذين أسروا من السفن الأجنبية ، فاستقبله الجزائريون بكل احترام ، وقال له الداي بالرغم من عدم وجود معاهدة تلزمني بذلك ، فأنني سأنفذ رغبتك ، ولكن الداي علم في اليوم الثاني

بهروب أسيرين إلى الأسطول ، فحمّل القنصل مسؤولية ذلك ، وأمر بسجنه ، ولكنه أطلق سراحه فيما بعد ، وبهذا التصرف أثبت الرياس أصالتهم وعلو شأنهم تجاه الفرنسيين الذين يصفونهم باللصوص ، وأوضحوا لهم بأنهم مخطئون ، وهم الذين يستخدمون طرقاً ملتوية .

وفي أول أيار من سنة ١٦٧٨ م توصل الهولنديون إلى عقد معاهدة مع الجزائريين ، وكان الهولنديون منذ ست سنوات يقدمون الهدايا إلى الجزائر باستمرار بهدف إقامة معاهدة صلح معهم ، وعلى الرغم من ذلك فإنهم سيدفعون الضرائب المترتبة عليهم على شكل معدات ولوازم حربية وبحرية مثل الحبال وأعمدة الصواري والبارود والقذائف ، ولكن السفير الفرنسي الكونت دافوكس المقيم في لاهاي احتج على ذلك ، وأعلن عن مهاجمة فرنسا للسفن الناقلة لتلك المواد والاستيلاء عليها ، ومع أن المعاهدة عقدت بين الطرفين ، لكن القراصنة لن يكفوا عن المهاجمة ، وفعلاً استمر القراصنة بمهاجمة جميع السفن المعادة لهم وامتلأت سجون الجزائر بالأسرى ، وفي سنة ١٦٧٩ م هاجموا آسور Asor . وفي سنة ١٦٨١ هاجموا نابولي والمناطق المجاورة لها مثل كورسيكا وصقلية ، وأطلعوا حكومات البابا على أنفسهم في موقعة جيفيتا (Civita Vekayal) واستولوا على عشرة مراكب أمام مدفعيتها[١] .

وفي سنة ١٦٧٩ م أمر حاكم فاس مولاي إسماعيل جيشه بالتوجه إلى المرتفعات الجنوبية ، ووصل بقواته إلى مرتفعات الشليف ، وهناك اصطدم مع قوة تركية صغيرة ، ولم يتمكن جيشه المؤلف من العرب الصمود أمام الأبطال الأتراك الذين شكلوا جيشاً نظامياً بقوتهم وتنظيمهم ، فهرب جيشه بكامله فاضطر حاكم فاس إلى عقد الصلح وظل الوضع قائماً على ما هو عليه وقفل عائداً إلى بلاده .

وفي الحادي عشر من أيلول من سنة ١٦٨٠ م ١٠٩١ هـ ، جاء دو غوسنه D. Gusne إلى الجزائر ، وقابل الداي وقدم له الشكاوى ، فأجابه الداي لا جواب قبل إعادة الأسرى الأتراك الموجودين في مرسيليا ، فعاد إلى بلاده يحمل جواب الجزائريين .

---

(١) دي غرامونت .

في شهر شباط من سنة ١٦٨١ م ١٠٩٢ هـ انفجر مستودع البارود في باب الوعد، فانهدم من جرائه أربعمائة منزل، وقُتل العديد من الأهالي، وفي هذه الأثناء قدمت إلى الجزائر هيئة فرنسية مؤلفة من هايت وفيرل بهدف إتمام المعاهدة المعقودة بين فرنسا والجزائر التي تنص بعدم أسر الفرنسيين مهما كان الأمر وكان هدفهم من ذلك إقناع الجزائريين بقبول شروطهم، وقد قبل الديوان شروطهم، شريطة إعادة الأسرى الأتراك الموجودين في مرسيليا، ووافقت الهيئة الفرنسية على شروط الديوان وعقدت المعاهدة، واعتقد الجزائريون بأن الأسرى سيطلق سراحهم، لكن رسائل عديدة وصلت إلى الجزائر تفيد بأن الأسرى وضعوا في الغاليات الفرنسية العائدة لأسطول الشرق، وقد أظهر الفرنسيون سوء نيتهم تجاه الجزائريين بكل وضوح وصراحة.

وفي الثامن عشر من تشرين الأول سنة ١٦٨١ م ١٠٩٢ هـ قرر الديوان إعلان الحرب على فرنسا، وكان قراصنة الجزائر قبل قطع العلاقات مع فرنسا بشهر واحد قد استولوا على تسع وعشرين سفينة وأسروا منهم ثلاثمائة شخص، كما أنهم استولوا خلال الأربع سنوات الماضية على ثلاثمائة وخمسين سفينة إنكليزية وأسروا منهم ستة آلاف بحار[١].

اغتنم الإنكليز فرصة قيام الحرب بين الجزائر وفرنسا وأبرموا مع الجزائر معاهدة وصفها أحد الفرنسيين قائلاً: «إن هذه المعاهدة أظهرت الجزائر بأنها سيدة البحار وإن بريطانيا لم تحصل على أسير إنكليزي واحد، وفوق هذا كله فقد خولت المعاهدة الجزائريين حق مراقبة السفن الإنكليزية»[٢].

كلف الملك الفرنسي دوكين بالتوجه إلى الجزائر لتدميرها وإحراقها، وحالما سمع الداي العجوز بذلك أدرك أن الموقف يحتاج إلى مواجهة قوية، وأن الحكم بيد صهره فهرب سراً على متن سفينة وتوجه بها إلى طرابلس الغرب واستقر فيها تاركاً لصهره الحكم ومواجهة الفرنسيين، وكان آخر عمل

---

(١) أوغست كور وفور بيكه.

(٢) دي غرامونت.

قام به الداي الحاج محمد قبل هروبه تعيينه ابن سيد محمد المقراني بن السيد عبد القادر أمير على صنجق قسنطينة.

استلم بابا حسن منصب الداي بشكل رسمي في نهاية سنة ١٦٨١ م ١٠٩٢ هـ، وفي هذه الأثناء كان الفاسيون يحاصرون مدينة تلمسان، فشن بابا حسن عليهم هجوماً صاعقاً تمكن به من طردهم إلى بلادهم، ولولا هجوم الفرنسيين المتوقع على الجزائر لظل يلاحقهم وينزل بهم وبديارهم الخراب والدمار، وكان مدير الباستيون يرسل الرسائل تلو الرسائل إلى فرنسا محاولاً إقناع حكومته بإيقاف هذه الحرب لأنها ستلحق بالفرنسيين خسائر أكثر مما ستلحقه بالجزائريين وإن قبول الجزائريين بعدم أسر الفرنسيين في السفن الأجنبية مكسب فرنسي جيد، ويطلب منها إعادة الأسرى الأتراك، وإقامة الصلح مع الجزائر والعمل على عدم إشعال نار الحرب مع الجزائر، بل عليها العمل على نقل هذه الحرب ما بين الجزائر وإنكلترا وهولندا، لأن ذلك لو تم سيجعل تجارة الشرق وشمال إفريقية بيد الفرنسيين، ويصبح الفرنسيون هم الوحيدون والمستفيدون الأوائل من هذه السياسة، وأن الضرر سيلحق بالدول الأخرى، وفشل في إقناع أي شخصية فرنسية بأن فرنسا إذا سلكت ذلك ستكون دولة غنية وصاحبة نفوذ وشأن في شمال إفريقية، لأن صوت الغرور والعظمة كانا مسيطرين على أذهان الساسة الفرنسيين.

وفي الثاني عشر من تموز سنة ١٦٨٢ م ١٠٩٣ هـ تحرك دوغوسنه بأسطوله، ووصل شرشال في الخامس والعشرين من تموز، وفور وصوله قصف المدينة بمدفعيته وهدم الفنار الساحلي، وأحرق سفينتين، وفي التاسع والعشرين من تموز كان أمام مدينة الجزائر بأسطوله المؤلف من خمس عشرة غالية كبيرة وإحدى عشرة سفينة حربية وسفينتين للحريق وخمس قاليونات تفجير.

وقد استمرت المناورات ضمن الميناء لمدة خمس عشر يوماً، وفي الخامس عشر من آب عادت السفن الفرنسية ثانية، وفي العشرين من آب اتخذت تلك السفن وضعية القتال، وكانت الجبهة المطلة على البحر لمدينة الجزائر تحتوي على خمسين مدفعاً، والجزيرة الصغيرة على خمسين مدفعاً أيضاً، كما وجد في برج الفنار سبعة وعشرون مدفعاً، أما بطارية الإنكليز

فتحتوي من عشرة إلى اثنـي عشر مدفعاً. كذلك فقد وضع في استحكـامات باب الوعد وباب فرون خمسة عشر مدفعاً.

أطلق الفرنسيون نيران مدفعيتهم في ليل ٢٠ و٢١ آب، ولكن مدفعيتهم لم تترك أي أثر بسبب بعدها، فاقتربوا أكثر، وفي ٢٩ آب باشـروا بإطـلاق النيران وقد أطلقوا خلالها قرابة ست وثمانين قذيفة، ولكنهم لم يحققوا هذه المرة أي نجاح، وفي ٣٠ آب أطلقوا ١١٤ قذيفة هاون، وإذا كان الأسطول الجزائري قد خرج للتصدي للأسطول الفرنسي، لكنه عاد مباشرة لأن السفن الجزائرية لا يمكنها مواجهة سفن الأسطـول الفرنسـي الضخمـة والمسلحـة تسليحاً جيداً، وفي ١٤ أيلول طلب الديوان الجزائري من القنصل الفرنسي بير لوفاشي إخبار الأميرال بطلب الصلح، لكن الأميرال استمر في إطلاق النار مستغلاً مساعدة الأحوال الجوية له، وعلى الرغم من فداحة الخسائـر التـي تعرض لها الجزائريون، لكنهم لم يحاولوا طلب الصلح ثانية.

شدد بابا حسن الحراسة على المدينة، وكان يقطع رأس كل من يحاول التسلل إليهـا، وفي ١٦ أيلول ساءت الأحوال الجوية، فرحل دوكين بعدما هدم أكثر من خمسين منزلاً، واستشهد من الأهالي حوالي أربعمائة شخص.

لقد صنعت فرنسـا بعملهـا مدالية في هذا الواقعـة، واعتبـرت حقدهـا انتصاراً لها، وبعد عودة دوكين إلى فرنسا قام بتعديل القاليونات والمدافع، لأن قذائف مدافعه كانت تنفجر قبل بلوغها الهدف بوقت. كمـا أن فوهـات بعض المدافع قد انفجرت وغدت مشلولة عن العمل، ولهذا السبب رجع إلى بلاده، وبعد أن جمع ذخيرته ونظم أسطولـه بشـكل جيد قرر القيام بحـرب أخرى في سنة ١٦٨٣ م.

- ٣ -
عهد الدايــات

الهجوم الفرنسي سنة ١٦٨٣ م/ ١٠٩٥ هـ - موزمورتو حسين آغا داي وأمير أمراء الجزائر - هجوم ديستري - الداي شعبان.

مع بداية سنة ١٦٨٣ م ١٠٩٥ هـ بدأ الوباء بالانتشار في الجزائر، وأعقبه مباشرة قحط شديد، فارتفعت الأسعار ثلاثة أضعاف، فاشترى الهولنديون أسراهم بمبلغ / ٥٣٠٠٠/ إيكو، وفي السادس من أيار سنة ١٦٨٣ م تحرك دوكين من طولون بأسطول مؤلف من عشرين سفينة حربية وسبع غاليوطات وسفينتبن حريق وثلاثين سفينة من نوع فلوت، إضافة إلى ست عشرة سفينة ستلحق به أيضاً، ولدى خروجه من الميناء تعرض لعاصفة بحرية شديدة ابتلعت عدداً من الزوارق، وتعرضت بعض سفنه إلى أضرار كبيرة، وقد استغرقت السفن المصابة بالأضرار زمناً طويلاً، ولم يصل الأسطول إلى مياه الجزائر حتى الثامن عشر من حزيران، وفي الثالث والعشرين من حزيران بدأ الأميرال بالقصف المفاجىء، واستمر يقصف بصورة متواصلة مدة سبعة وعشرين يوماً، ورد الجزائريون على القصف الفرنسي، لكن الفرنسيين استمروا بقصفهم لأن الجزائريين لم يحسنوا عملية القصف.

وفي الثامن والعشرين من حزيران أرسل الداي القنصل بير لوفاشي يرافقه موظف من قبله بغية إجراء مباحثات وإقامة الصلح، إلا أن الأميرال

دوكين لم يبال حتى بقنصل بلاده ولا بالشخص المرافق له ورفض مقابلتهما، وبعد يومين ذهبا ثانية، وفي هذه المرة تصرف دوكين تصرفاً أكثر سوءاً من المرة الأولى، فلم يسمح للقنصل المسن حتى بالجلوس، وقال للقنصل أنت تركي أكثر من الأتراك، ثم خرج وقال عند خروجه: لن أدخل معهم في مباحثات ما لم يتم إرسال الأسرى الفرنسيين أولاً، إزاء ذلك اضطر الجزائريون للخضوع لرغبات الأميرال فبدأوا بجمع الأسرى، ففي ٢٩ حزيران جمعوا / ٤١/ أسيراً وفي ٣٠ حزيران جمعوا / ٢٤/ أسيراً وفي ١ تموز جمعوا / ١٥٢/ أسير، وفي ٢ تموز جمعوا / ٨٣/ أسيراً، وهكذا لم يبق للفرنسيين أي أسير فرنسي على أرض الجزائر، وبعد أن تم جمع الأسرى خرج إلى المدينة هايت وكومبس لإجراء مفاوضات مع الجزائريين.

وكان الأميرال الفرنسي قد اشترط للدخول في مباحثات إرسال عدد من الرياس كرهائن، فاستجاب الداي وأرسل عدداً من الرياس ومن بينهم الريس موز مورتو حسين، وقد أرسله الداي خوفاً من أن يتسبب في قيام ثورة في الجزائر، وبهذه الوسيلة يتخلص منه[1].

استمرت المباحثات بين الطرفين مدة خمسة عشر يوماً، وكان بابا حسن راضياً عن كل شيء، وقبل جميع الشروط التي فرضها دوكين بما فيها تقديم الجزائر مبلغ مليون ونصف فرنك كغرامة وتعويض عن الخسائر التي تعرضت لها فرنسا، ولكن هذا الشرط كان مستحيل التنفيذ، لأنه من غير الممكن أن تقدر الجزائر بكاملها على جمع هذا المبلغ، فازدادت المشكلة تعقيداً.

انقسمت المدينة إلى قسمين: الأهالي والإنكشاريون من أنصار الصلح، أما الرياس فكانوا من أنصار الحرب.

رئيس البحرية الجزائرية موجود في سفن العدو كرهينة، وكان يحصل على الأخبار من القادمين والمغادرين للسفينة، وحينما علم أن دوكين نفذ صبره ويرغب بحل المسألة بأقصى سرعة، طلب مقابلته، فاستدعاه الأميرال على الفور وسأله عما يريده، فأجابه موزمورتو حسين بأنه إذا أرسله إلى

---

(١) موز مورتو. ومعناها بالإيطالية نصف ميت، وقد لقب بذلك لأنه أصيب أثناء شبابه بثمانية عشر جرحاً حتى ظنوه ميتاً، فرموه بالبحر، ومن ثم تمكن من إنقاذ نفسه.

الجزائر فأنه سيفعل خلال ساعة من الزمن ما عجز الداي عن فعله خلال خمسة عشر يوماً(*)، وقد دهش الجميع من قوله، ولم يعرف أحد سبباً أو مبرراً لهذا الوعد، فأطلق سراحه، وفور وصوله إلى قصر الجينية اجتمع الرياس من جميع الأطراف وذهبوا إلى القصر لمقابلته وفي هذه الأثناء كانت الفوضى والاضطرابات تعصف بمختلف مناطق الجزائر، فاغتنم موزمورتو حسين الفرصة، وكلف أحد أتباعه المخلصين ويدعى إبراهيم خوجه بقتل الداي بابا حسن، وبعد أن تم قتله رفع العلم الأحمر، ومن ثم بدأت جميع بطاريات المدفعية الجزائرية تطلق نيرانها باتجاه الأسطول الفرنسي، ثم أرسل موزمورتو حسين وفداً إلى الأسطول الفرنسي لإنذار الأميرال دوكين بأن استمرار الحرب سيعرض المسيحيين الموجودين في الجزائر للموت، وأنه سيضعهم في فوهات المدافع ويقصفهم لتصل أجسادهم إليه ممزقة، لكن الفرنسيين استمروا بالقصف فرد عليهم الجزائريون، ومع بداية شهر تشرين الأول بدأت القطع الفرنسية بالاقلاع خوفاً من العواصف التي تهب خلال هذا الشهر، واستمر الأسطول ينسحب قطعة قطعة إلى أن غادرت جميع السفن الفرنسية، وهكذا رحل دوكين دون أن يتمكن من اخضاع الجزائر لرغباته أو أن ينال من صمودها وثباتها.

بلغت تكاليف الحملة الفرنسية التي قادها دوكين خلال سنتي ١٦٨٢م و ١٦٨٣م أكثر من خمسة وعشرين مليون فرنكاً فرنسياً، وكانت خسائر الجزائريين تهديم مئة منزل وجامعين وإحراق ثلاث سفن واستشهاد ألف شخص.

كان الملك الفرنسي قد أمر دوكين بإنزال الجنود على البر الجزائري بعد عمليه القصف، وذلك لاستغلال حالة الفوضى والاضطراب التي تصيب الأهالي عقب القصف الشديد، وكان الغرض من إنزال الجنود الفرنسيين تدمير منارة الميناء والفنار (مكسر الأمواج) وإشعال النار بالميناء، وإحراق المنازل وتدميرها وتحويليها إلى أنقاض لحرمان السكان من الاستفادة منها نهائياً، لكن دوكين لم يلتزم بتعليمات مليكه، وفي الواقع فقد نجم عن عدم تنفيذ تعليمات الملك خسائر أكثر بكثير مما خطط الملك الفرنسي لفائده علاوة

(*) المؤلف أورده في مؤلفه حسين موزمورتو. وفضلنا استخدام لقبه أولاً (المرجم).

على ذلك فإن هيجان الاهالي وانفعالهم تسبّب في خلق مشاكل كثيرة تسببت هي الأخرى في زيادة الخسائر.

عندما كان القصف على أشده وخاصة في التاسع والعشرين من تموز، هاجم الأهالي بناء القنصلية الفرنسية، وألقوا القبض على القنصل المريض بير لوفاشي، واقتاده إلى موزمورتو حسين بتهمة إرساله بعض الإشارات لأسطوله، فربطه موزمورتو حسين على كرسي ووضعه أمام المدفع ثم قذفه مع الطلقة، وقد نفذ موزمورتو حسين الإعدام بأكثر من عشرين فرنسياً بهذه الطريقة.

تلقب موزمورتو حسين بعد تنصيبه داي الجزائر بالداي حجي حسين، وعقب الحرب اضطر الفرنسيون لتكليف أسطولهم الحربي بمرافقة سفنهم التجارية بغية حمايتها من قراصنة الجزائر، وقد تأثرت تجارتهم تأثراً كبيراً، ولهذا بدأ مدير الباستيون درس العمل لإبرام الصلح، وأعلن أنه لا يمكن الثقة بقول الداي مالم يتم بينه وبين الأميرال تفاهم وصلح.

شهدت الجزائر خلال تلك الفترة ثورات عديدة، وكانت تزداد يوماً عن يوم وكان الداي يرد عليها بسفك الدماء وقطع الرؤوس، وقد أصيب من جرائها بعدة جروح نتيجة لحروب الشوارع التي كانت تحدث بين الحين والآخر، وبنفس الوقت كانت الأوضاع ما بين الجزائر وتونس على أشدها، وقد سفكت دماء كثيرة بين الطرفين، وكان هذا الصراع ينعكس بصورة مباشرة على الأوضاع الداخلية للجزائر، وعمت الفوضى مختلف المناطق، فاستغل محمد وعلي بك الفوضى القائمة وازدياد النقمة على الداي وهربا إلى الجزائر وكانا من أشد خصوم الداي، وكرد على هروبهما كلف الداي سنة ١٦٨٤م إبراهيم خوجه بقيادة الجيش ومهاجمة تونس، وظل إبراهيم خوجه يحارب التونسيين مدة سنتين[1].

وفي الثاني من نيسان سنة ١٦٨٤م / ١٠٩٦هـ قدم من استانبول المسيو دي توفيل يرافقه كبير بوابي الباب العالي إلى الجزائر، وكان يرافقهما أسطول ضخم، فاستقبل بكل احترام، وبعد عشرين يوماً من المباحثات تم

---

(١) للاطلاع على أسباب الخلاف وأحداث الحرب بالتفصيل انظر جرء توس ترجمه الحاج عبد السلام أدهم.

الاتفاق على عقد معاهدة مع فرنسا مدتها مائة عام، وبموجب هذه المعاهدة سيتم إطلاق جميع الأسرى من قبل الطرفين، ولن يطالب القراصنة بعدها بديون أتباعهم، كما أرسلت هيئة جزائرية إلى باريس برئاسة الحاج جعفر آغا، وفي الرابع من تموز سنة ١٦٨٤م استقبل الملك الفرنسي الهيئة الجزائرية.

وفي ربيع سنة ١٦٨٥م أرسل الداي هيئة أخرى إلى باريس لتقديم الشكر إلى الملك الفرنسي على إعادته الأسرى، وقد قدمت الهيئة إلى الملك عشرة خيول أصيلة كهدية له.

وفي الثالث والعشرين من أيار عاد دي توفيل من جديد إلى الجزائر، وأثناء عودته اصطحب معه خمسة وسبعين أسيراً جمعوا من المناطق الداخلية من الجزائر.

وفي سنة ١٦٨٤م أعلنت إنكلترا وهولندا الحرب على الجزائر بحجة أنهما يلاقيان معاملة قاسية من الديوان، وكانت هاتان الدولتان تحرضان الجزائر على عدم إجراء أي تفاهم أو إتفاق مع فرنسا، فرد الرياس عليهما وبدأوا بمهاجمة سفنهما مهاجمة عنيفة، كذلك فقد هاجم الرياس أيضاً السواحل الإيطالية والإسبانية وحصلوا على غنائم لا حصر لها.

في سنة ١٦٨٧م / ١٠٩٩هـ اعتلى سليمان الثاني عرش العثمانية، وفور استلامه دعا المجاهدين في الجزائر للاشتراك بالحرب ضد الذين يلحقون الأضرار بالمسلمين في شبه جزيرة مورة[1].

إلى أمير أمراء جزائر الغرب إسماعيل دام إقباله وإلى جميع ضباط الأوجاق وإلى الاحتياطين فيه حكم:

إن النصارى الموجودين في أطراف ممالكنا المحروسة يقومون بالإعتداء على أتباع نبينا محمد، عندما كانوا يخافون من المجاهدين المسلمين الشجعان من الموحدين الذين كانوا يدكون حصونهم وقلاعهم في البر والبحر، كان كل مسيحي يدفع الضرائب والرسوم. فمنذ عدة سنوات

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٩٨/ صحفة ٨٥.

اتحدوا فيما بينهم وأصبحوا يساعدون بعضهم بعضاً. ويعتدون ويستولون على أطراف الممالك الإسلامية، فبأمر الله نقوم بتوعية المسلمين وتحذيرهم من مكرهم واتباعهم الدسائس في مختلف الممالك السعيدة، وقد ألحقوا أضراراً كثيرة بالمسلمين وخاصة بمسلمي جزيرة مورة.

بموجب الفتوى الشريفة نأمر جزائر الغرب الالتحاق بالأسطول العثماني الهمايوني، ونأمل ألا تخفف كثرة المصاريف من اشتياقهم للجهاد، ففي هذه المرة سيكون الجهاد لوجه الله تعالى وسنكون بالأسطول الهمايوني من أجل الخروج سوية، إن شاء الله تخرجون عندما يصل المبعوث القادم من الترسانة العامرة، وتحصلون على رضاء الله تعالى ورضاء رسول الله، وتقومون بتأدية الخدمة الدينية، أوائل ربيع الأول سنة ١١٠٠هـ.

ولقد كتب نسخة عن هذا الفرمان إلى أمير أمراء طرابلس الغرب وداي تونس، وفي سنة ١٦٨٣م أصبح حسين بك داياً، وفي سنة ١٦٨٤ أصبح أمير أمراء الجزائر(١).

التحق مجاهدوا الجزائر بالأسطول العثماني سنة ١١٠٠هـ. والخطاب المرسل والمؤرخ بالسنة المذكورة في أوائل ربيع الأول كُتب بإسم أمير الأمراء إسماعيل باشا، لأنه في هذه السنة يكون موزمورتو حسين قد عُزل من منصبه وعُين مكانه إسماعيل باشا، وبموجب هذا الفرمان المرسل إليه يكون قد كلف منذ استلامه بمهمة جديدة، وطلب منه تسليم الولاية لغيره، ولم يكن الجزائريون راضين عن تعيين باشا وأرادوا إبقاء حسين باشا من جديد، فقبل السلطان طلبهم وأبقى حسين باشا في منصبه كداي على الجزائر، وصدر فرمان همايوني بتثبيت حسين باشا في إمرة الجزائر، وكان الجزائريون يطمئنون لقيادة حسين باشا فقد تمكن من زيادة أعمال القراصنة، ونعمت الجزائر بالرخاء والرفاهية ولهذا فرح الجزائريون بالفرمان السلطاني فرحاً عظيماً(٢). أما إسماعيل باشا فقد كلف بإمرة طرابلس الغرب، وبتوسط من

(١) لم أجد تاريخ تعيين موزمورتو حسين باشا أمير أمراء الجزائر.

(٢) دفتر مهمات الديواد الهمايونى نمرة / ٩٨/ صفحة ١١٧. إلى أمير أمراء جزائر الغرب موزمورتو حسن باشا دام إقباله حكم. انت الان مكلف بخدمتنا العلية، فقد أجلنا استبدالك، وسوف نقدم لك حدمة أخرى لأنك من أولاد الكرام الذين حموا البلاد وخاصة الآن، وأنك =

حسين باشا أسند منصب الداي في تونس إلى إبراهيم خوجه[1].

لم يكن الحجي حسين متفرغاً للحكم فقط، بل قضى معظم أوقاته محاولاً طرد الإسبان من وهران، فكان ينتصر حيناً وينهزم حيناً آخر، كذلك فإن الرياس لم يبقوا بدون عمل، واعتباراً من ١٦٨٩م / ١١٠١هـ بدأوا بمهاجمة السفن الفرنسية والاستيلاء عليها، فحرك الفرنسيون أسطولهم الحربي واستولى على عشرين سفينة جزائرية. ثم لجأت فرنسا بعد زيادة مصاريفها الحربية إلى تسليح سفنها التجارية، وقررت تقديم مكافأة لكل سفينة تحارب أو تغرق سفينة للقراصنة.

لم يَضْعِ الجزائريون وقتهم بالرد على الترتيبات الفرنسية، فقبضوا على القنصل الفرنسي، وحكموا عليه بالأشغال الشاقة في مقلع الحجارة، وباعوا حمولة إحدى عشرة سفينة فرنسية كانت راسية في الميناء مع بحارتها، ولم يجدِ تدخل مدير الباستيون نفعاً.

اعترف الفرنسيون بأن سبب هذه الأعمال التي تحدث باستمرار هي الهدايا التي قدمها أعداؤهم، وكان قائد الأسطول الفرنسي ديستري (دسترة) يقوم بتجهيز الأسطول، وكان تحرشه بالجزائريين بناء على نصيحة مسبقة.

وتحسباً لمثل تلك المفاجآت، عمل موزمورتو على تدعيم بطاريات الميناء وتقوية الاستحكامات وزودوا الأطراف بكميات كبيرة من الذخيرة، وأغرق السفن الجديدة بالميناء، لكي لا تتأثر بقصف العدو، وبعد انتهاء الباشا من الترتيبات كتب إلى قائد البحريّة في طولون يعرض عليه الصلح والاتفاق، لكن الفرنسيين كانوا مصممين على الهجوم، ولم يدرك أحد من الفرنسيين قيمة ومضمون الرسالة.

وصل المارشال ديستري إلى الجزائر في ٢٦ حزيران سنة ١٦٨٩م

= رجل مفيد وماهر وشجاع بالبحر، وبعون الله تعالى تقدم كامل الخدمات وتحصل على مرتبة جديدة كتقدير لك من الديوان الهمايونى، ومن أجل التماس الأهالى ورعايتهم وحمايتهم من الأعداء نترك لك ولايتنا المكرمة وبموجب الفتاوى الشريفة نبارك لك هذا العمل... وقد جاء فى الفرمان جمع ما لديه من سفن وسفن تونس وطرابلس الغرب بغية الاشتراك بالغزو والالتقاء بالقبطان أحمد باشا. صدر بتاريخ أواخر ربيع الاخر ١١٠٠هـ.

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٩٩/ ص ٣٥ (أوائل جمادى الآخر ١١٠٠هـ).

/ ١١٠١هـ ومعه أسطول مؤلف من خمس عشرة سفينة وست غاليات وعشر قاليونات تفجير، وأول عمل قام به المارشال إرسال رسالة يقول فيها: إذا أنكرت مأساة سنة ١٦٨٣م / ١٠٩٥هـ فأنه سيعامل الأسرى الأتراك الموجودين معه بنفس المعاملة، فرد عليه حجي حسين باشا قائلاً «سيكون أول ضحية قصف هو قنصلكم، فأجابه الماريشال ديستري قائلاً: حتى لو كان والدي من بين الأسرى الموجودين لديكم سأقوم بنفس العمل السابق أيضاً» وإذا كان الأميرال يريد إنزال قواته ويحاول خوض حرب، وهي حرب غير شريفة، وأن الأسرى سيكونون تحت الحماية وطلب حسين باشا بجوابه عدم قصف الأهالي الأبرياء.

وفي ١ تموز بدأ الماريشال ديستري بالقصف، واستمر القصف حتى ١٦ تموز وقد أطلقت سفن العدو خلال ذلك حوالي ١٠٤٢٠ طلقة (قذيفة)، وأسفر عنها إغراق خمس سفن بالميناء، وهدم استحكام ماتيڤو، وأصيب بعض الجوامع والمنازل بأضرار كبيرة، كما تهدمت الترسانة والفنار ورصيف الميناء، وأصيب موزمورتو بجرحين، ولم يتأثر الأهالي بالقصف لأنهم خرجوا من المدينة، وكان الباشا قد سجن القنصل القسيس وخمسة وعشرين بحاراً فرنسياً، وبما أن الأسطول قام بقصف المدينة، فقد التزم موزمورتو بوعده، فربط هؤلاء الأسرى بفوهات المدفعية ثم قذف بهم، ورد عليه ديستري بنفس الشيء وقذف الأسرى الأتراك بفوهات مدفعيته، وكانت الإجراءات المتخذة من قبل الأسطول الفرنسي يقصد فيها تلقين الجزائر درساً قاسياً، ولكن الماريشال اضطر مؤخراً على الرحيل دون أن يحقق من تصرفه أي نتيجة تذكر، لأن موزمورتو لم يحاول تقديم أي طرح بأنه يرغب بالاتفاق والصلح، بل العكس من ذلك فقد كان يرد على كل قذيفة بقذيفة، وكان دوماً تحت القصف، يقوي ويزيد من حماس وشجاعة المقاتلين[1].

بعد رحيل الأسطول بيوم واحد، جاء دور القراصنة لأخذ الثأر والانتقام فشن البحارة الأبطال هجمات مكثفة ودمروا ونهبوا ما لم تشهد سواحل المتوسط له مثيلاً حتى ذلك التاريخ، وبدأت صرخات الاستغاثة من تلك السواحل، وخاف المجلس الملكي الفرنسي من فقدان تجارة الشرق

---

(١) دي غراممونت.

وضياعها من أيديهم وانتقالها إلىٰ أيدي الإنكليز الذين يحيكون الحيل والمؤتمرات، وبواسطة الترجمان القديم (مرجادير) الذي كان يعمل قنصلاً بالجزائر، عرض الفرنسيون الصلح على الداي، وأخبر مرجادير حكومته بأن الداي يميل إلى عقد الصلح.

وفي بداية شهر أيلول جاء مساعد البحرية الفرنسية مارسيل إلى الجزائر، وعدّل بعض البنود التي ليس لها أي أهمية على المعاهدة القديمة، ووقعت المعاهدة في ٢٥ أيلول سنة ١٦٨٩م / ١١٠١هـ وأرسل الداي مبعوثه محمد أمين خوجه إلى فرنسا لإحضار النسخة المصدقة من قبل المجلس الملكي الفرنسي.

فر إبراهيم خوجه إلى مدينة سوسة بتونس سنة ١٦٨٩م / ١١٠١هـ بسبب الخلاف الذي نشب بين الداي والإنكشارية، وبعدها بمدة قصيرة كلف المفارز بجمع الضرائب، وبعد عودتها وقبل دخولها المدينة اجتمعت في مقر قيادة الجيش معلنة تمردها وعصيانها، وبدأت تهتف قائلة نريد رأس حسين باشا.

إذا كان موزمورتو حسين قد حاول مع أنصاره التصدي للمتمردين، لكنه أدرك عدم مقدرته، فانسحب إلى تونس ومنها توجه إلى إستانبول[1].

بعد رحيل موزمورتو انتخب المتمردون شعبان آغا داياً عليهم، وعلمت إستانبول بأنهم لم يتخاصموا مع حسين باشا.

الفرمان الصادر عن الديوان الهمايوني سنة ١١٠٠هـ، وكان قد طلب من أوجاقات الغرب الالتحاق مع سفنهم بالأسطول الهمايوني دون أن يرسل كالمعتاد نقوداً للرياس أو هدايا، وفي هذه السنة يريد الديوان الهمايوني منهم تجهيز سفنهم في هذه المرة أكثر بكثير من السنوات السابقة[2].

---

(١) موزمورتو حسين باشا هو آخر كبار بحارة الامبراطورية العثمانية، فقد هزم أسطول البندقية أمام جزيرة سقيز (Sakiz) وفي سنة ١٦٩٤م أصبح قائد للأسطول العثماني. وقد تعرض له صفوت بك في أثره التاريخي، فقد ورد في مقدمة كتابه بأن موزمورتو حسين باشا أصبح قبطان باشا سنة ١١٠٧هـ.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٩٩/ صفحه ١٩٨. أمر إلى داي دار الجهاد جزائر الغرب الداي شعبان وإلى آغا الإنكشارية ومساعده الحاج محمد وإلى رؤساء المشاة والأقسام =

استجاب رياس الجزائر لدعوة الديوان الهمايوني، والتحقوا بالأسطول الهمايوني سنة ١١٠٠هـ، وقدموا خدمات جيدة، وبعد انسحاب موزمورتو حسين باشا وتعيين شعبان آغا داياً على الجزائر، لم يُعرف من أصبح أمير الأمراء فيها.

لقد أدت الخلافات الناشبة بين أوجاقات الغرب، لفت انتباه إستانبول، فأمرتهم بترك هذه المنازعات والالتفاف إلى الوفاق والتحابب[١].

لم تكن أساطيل أوجاقات الغرب تُعطي نقوداً مقابل مشاركتها الأسطول العثماني، وقد جرت هذه العادة حديثاً، ولهذا فإن الديوان الهمايوني قدم لهم بعد اشتراكهم وعودتهم إلى بلادهم سبعة آلاف قطعة ذهبية لكل من أوجاق تونس وطرابلس الغرب، وثلاثون ألف قطعة ذهبية لأوجاق الجزائر، وأرسل خلعاً فخرية للرياس[٢].

وافق الداي شعبان على معاهدة الصلح مع فرنسا التي صُدقت في ١٥ كانون الأول وبعد تصديقها أرسل من طرفه سفيراً إلى فرنسا[٣].

زود وزير الخارجية الفرنسية قنصله (لومير) المعين لدى الجزائر بضرورة التحرك وفقاً لرغبات الداي، وإن الأدب الدبلوماسي يقضي على كل

= والشيوخ والأوباشية وإلى جميع الموحدين زيد قدرهم:

علمنا في كتابكم بحدوث خلاف بين الأهالي وأمير الأمراء السابق حسين دام إقباله.

نحن نعلم أنكم تجاهدون وتبذلون أرواحكم فى سبيل الإسلام، إن صلاحيات الأوجاق ومسؤولياته وما يتعلق بها سمح لكم بها ونضعها تحت تصرف الداى الحامى وولايتنا المرقومة تكون بالجملة تحت طوعكم، وبناء عليه يجب الأخذ برأي الشيوخ والنماسهم وبهذا الخصوص قبلت هذه الحالة فى مجلسنا وفد تنعم عليكم بقصعنين من الطوب خانه، وليكن لديكم علم أن الكفار يتفقون فيما بينهم من أجل الاستيلاء على ممالكنا المحروسة، وليكن فيما بينكم طرق للتعاون والمساعدة وبموجب الفتنة سيتم تخريب وتدمير البلاد، وفى هذه السنه سيرسل أوجاق الجزائر قالبوناتهم بعد تجهيز كبقية السنوات السابقة. فى أوائل جمادى الاحره ١١٠١ هـ سجل مورمورتو إلى إستانبول وهو تاريخ وصول القاليونات وتعينه قائداً للأسطول. دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٠٤/ ص ١٧٠.

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ٩٩/ ص ٩٣.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٩٩/ صفحة ٩٤ (أواسط جمادى الآخر ١١٠١هـ).

(٣) دى غرامسونت.

قنصل أن يفهم ذلك ويلتزم به ، لأن ذلك حقيقة واقعة ، فالقنصل المعين في الجزائر إما أن يعيش مع الجزائريين بتفاهـم وسـلام أو يـسحقـوه ، وعلـى الفرنسيين إدراك ذلك جيداً ، لأن الحرق والتدمير لا يؤذيان إلا الأبـرياء من الأهالي المساكين ، أما الرياس فلن يتأثروا بذلك ، لأن الرياس إذا تعرضوا لبعض الأذى والخسائر ، فأنهم خلال فترة قليلة يعوضونها عن طريق الغنائم ، وأيضاً الداي لن يتأثر من تلك المضايقات .

وبناء على هذه الحقيقة التي أدركها الفرنسيون مؤخراً ، أصدرت وزارة الخارجية تعليماتها إلـى قنصلهـا في الجزائـر طالبـة منـه تحسين العلاقـات وإحلال الصلح ، وعليه عدم المطالبة بأي مساعدات ، بل عليه الاعتماد على نفوذه وقوة الشخصية فقط[1] .

ورد فرمان إلى أوجاقات الجزائر وتـونس وطـرابلس الغـرب بتـاريخ جمادى الأولى سنة ١١٠٣هـ من أجـل الاشتـراك بأساطيلهـم مع الأسطـول العثماني بقياد قبطان داريا يوسف باشا ، وكان الديوان الهمايوني قد أرسل مع الفرمان الخلع إلى كل أمير أمراء وداي وآغا الإنكشارية وكبار الشخصيات في الأوجاق[2] .

علم الداي شعبان باتفاق أمير أمراء تونس مع الفاسيين سنـة ١١٠٤هـ مستغلين وضع الجزائر ، وحالة الاضطراب الداخلي ، وقد اتفق الطرفان على ولاية الشرق ، لكن الداي شعبان لم ينـاقش هذه المسألـة ، وإن التخـطيط بدأ منذ هروب إبراهيم خوجه إلى تونس سنة ١١٠١ هـ ، ولاتخـاذ المبـادرة أولاً ادعى شعبان بحجة مصادرة أموال وأرزاق إبراهيم خوجه ، فجهز قواته لشن هجوم مفاجيء على تونس ، وحالما علم التونسيون بذلك عرضوا هذه التحركات علـى إستانبول مباشرة .

رد الديوان الهمايوني علـى شكوى تونس بتـوجيه خطـاب في آواخـر رجب سنة ١١٠٤هـ إلى أمير أمراء تونس وطرابلس الغرب والجزائـر وإلـى دايات الأوجاقات وآغواتها ورؤسـاء الفـروع والأقسـام وإلـى الإنكشـارية

---

(١) دى غراممونت .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٠٢/ ص ١٣٣ .

واليولداشية يطالبهم برفع وإزالة المنازعات والخلافات فيما بينهم ولينتخب كل طرف منهم وفداً ويرسله إلى إستانبول، لكي يناقش هذا الموضوع أمام قاضي العسكر، كما أن السلطان سيعمل من جانبه على إزالة وإنهاء كل خلاف[١].

غادر كبير البوابين عثمان إستانبول حاملاً الفرمان الشريف إلى أوجاقات الغرب، ووصل عثمان إلى تونس وبعد تبليغهم نص الفرمان وأخذ الضرائب المستحقة منها، توجه إلى الجزائر، وفي الطريق هاجمته سفن نابولي واستولوا على سفينته، وبعد أسره نقل على متن إحدى السفن إلى إحدى مدنهم[٢]. ولهذا لم يطلع الجزائريون على الفرمان.

اتفق الداي شعبان مع طرابلس الغرب رداً على إتفاق التونسيين مع الفاسيين، وفي هذه الأثناء التجأ محمد شقير إلى الجزائر، وبتحريض الداي شعبان بدأ محمد شقير بمهاجمة تونس، وكان شعبان قد أعد قواته واتجه إلى تونس، ومر قبل ذلك إلى طرابلس الغرب فانضمت إليه قوة من المتطوعين، فاستولوا على بعض القلاع التونسية، وبعد استيلائهم على قسم من المدفعية وذخيرتها بدأوا بمحاصرة قلعة تونس، وأخذوا يشددون الخناق على الموجودين فيها، ولم تنجُ المدارس والجوامع والمكاتب من قصف مدفعيتهم، ووقعت من جراء ذلك خسائر كبيرة بالأرواح ومنعوا وصول المؤن والأرزاق إلى المدينة، فاضطرت المدينة للاستسلام[٣]. فعين الداي شعبان محمد شقير أميراً على تونس وعاد إلى الجزائر سنة ١٦٩٣ م ١١٠٤ هـ، وقد نتج عن ذلك خلاف بين الأسطول الجزائري والتونسي كاد أن يتحول إلى صدام، ولم يكن ذلك الأمر سهلاً على الديوان الهمايوني، لأنه كان يخطط

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرو / ١٠٤/ ص ٢٠٨ (أواخر رجب ١١٠٤هـ).
(٢) كان الشاويش عثمان يقوم بمهمة كلفه بها السلطان وبعد أن أنهى عمله من تونس توجه إلى الجزائر فأسر من قبل سفن نابولي، فطلب الديوان الهمايوني من قبطان داريا حسين باشا في أواخر شعبان سنة ١١٠٧هـ إنقاذه من الاسر وفي سنة ١١١٠هـ تبين أن الشاويش المسكين مازال أسيراً في مدينة برشلونه حيث نقل إليها مؤخراً. ولم نتمكن من الحصول على معلومات أكثر من ذلك. (دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٠٨/ ص ٢٢٨ ودفتر مهمات نمرة / ١١١/ ص ٢٩٥. ذي القعده سنه ١١١١هـ).
(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره / ١٠٥/ ص ٧٥ (جمادى الأولى ١١٠٦ هـ).

لمهاجمة البندقية، فالجيش العثماني وقسم من الأسطول يشنان هجوماً على جزيرة سقيز وقد تمكنا من احتلالها من اليوم الأول، ولاسترجاع هذه الجزيرة من البندقية، فإن الأمر يتطلب توحيد الجهود، ولكن كيف سينم ذلك، وأوجاقات تتصارع بعضها مع البعض. وقد قام السلطان من جانبه بإرسال الشاويش عثمان إلى تونس والجزائر بغية حل هذه الخلافات حسب الشريعة الإسلامية ولكن السلطان لم ييأس من ذلك، فعلى الرغم من القتال الدائر بين الطرفين وما أسفر عنه من خسائر لكلا الطرفين، فإن الأمر يتطلب من الطرفين التحلي بالهدوء، ولو أنهم تمسكوا بالوصايا التي تحثهم على التفاهم والإتفاق لما وصل أي منهم إلى ما وصل إليه الآن[1].

لم يجد السلطان وسيلة أفضل من عزل داي الجزائر وتونس للوصول إلى نتيجة إيجابية تنهي الخلاف القائم، فعين محمد باشا على الجزائر وعمر باشا على تونس، وأرسل إليهم فرمان يأمرهم (إذا كنتم إلى الآن لم ترسلوا أساطيلكم للاشتراك بتحرير جزيرة سقيز، فعليكم إرسالها فوراً (دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٠٥/ صفحة ٧٥ أواخر جمادى الأولى سنة ١١٠٦ هـ). ولكن الأسطول الجزائري لن يتمكن من الذهاب في سنة ١١٠٦ هـ، وفي أواسط شهر شعبان سنة ١١٠٦ هـ أرسل السلطان فرماناً آخر يحث الأطراف المتصارعة على إيقاف القتال، ويحثهم لتحرير جزيرة سقيز، وإذا كانت الجزائر لن تشترك في حرب التحرير فعليها إرسال الجيش والأسطول من أجل تحرير جزيرة موره عن طريق البر والبحر ويجب على سفن الأوجاق الالتحاق بالأسطول الهمايونى فى جزيرة سقير[2]. وذكر فى الفرمان تعيين موسى باشا أمير أمراء الجزائر بعدما صُرف النظر عن تعيين محمد باشا، وعمر باشا على تونس. وقد استغرق هذا الأمر قرابة أربعة أشهر، ومن بعد ذلك فإن جميع الفرمانات التى وردت إلى الجزائر جاءت باسم موسى باشا.

وفي أواسط جمادى الأولى سنة ١١٠٦ هـ كُتب فرمان جديد يخاطب أمير

---

(١) يقول دى غرامونت. التقى الطرفان فى بلدة الكاف فى ٢٤ حريران سنه ١٦٩٤ م وانهزم النوسيود، ودخل الداى شعبان تونس وعين محمد شقير فى ١٦ شباط ١٦٩٥ م.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ١٠٦/ ص ١٣.

أمراء الجزائر وتونس وبعد أن أكدت الشائعات بأن تونس سبب الفتنة ، وتأكد الديوان من صحة ما قيل استدعى أمير أمراء تونس محمد إلى إستانبول ، ووجه فرمان إلى الجزائر حول ذلك ويأمرهم بضبط النفس والالتزام بالهدوء ، وأنه تم القبض على المخالفين ومسببي الفتنة[1] . ولم نجد أي فرمان واضح يدل على إثبات خطأ رمضان باشا ومحمد بك ، ومن المحتمل أن يكون الجزائريون هم الذين دبروا ذلك .

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ١٠٥/ ص ٧٦ ـ ٧٧. كذلك فإن تاريخ رشيد يذكر فى مجلد ٢ صفحة ٢٩٠ أنه تم تعيين دسترى محمد باشا على طرابلس العرب وأن عمر باشا عزل من الموصل وعُين على الجزائر، والصحيح ما جاء فى الفرمان أعلاه.

- ٤ -
أحداث فــاس

منذ سنة ١٦٧٢ م وحتى ١٧٢٧ م

مـولاي إسمـاعيل - التمـرد في الداخـل - الهجـوم علـى الجزائر سنة ١٠٨٩ هـ - الهجوم والهزيمة سنة ١١٠٣ هـ - هجوم زيدان سنـة ١١١٢ هـ - ابـن محمـد الرابـع - وفـاة مولاي إسماعيل.

بعـد وفـاة مولاي الـرشيد حاكم فاس سنـة ١٠٨٢ هـ خلفـه مولاي إسماعيل، عمل مولاي إسماعيل على تأسيس الحكومة وتقويتها.

عندما أعلن مولاي إسماعيل نفسه ملكاً على فاس، عين المـراكشيون ابن أخيه أحمد بن محرز بن الشريف حاكماً على مراكش، فهاجـم مولاي إسماعيل مراكش واحتلها وأعلن حاكميته عليها، وبينما مولاي إسماعيل يفكر بإخضاع كل المناطـق لسلطتـه، علـم بحـدوث تمـرد في شمـال فاس سنـة ١٠٨٣ هـ ١٦٧٢ م فرجع عائداً إلى فاس وقضى على التمرد في شهر رجب في نفس العام.

في فصول سابقة تحدثنا عن غيلان الذي جاء بالسفن الجزائـرية إلـى تطوان، وتمكن من السيطرة على المنطقة الغربية، وبدأ يهدد فاس، إلا أن الجيش الذي أرسله مولاي إسماعيل تمكن من قتل غيلان وأنصاره[١].

خـلال حروب سنـة ١٦٧٣ م ١٠٨٤ هـ تمـردت مراكش من جديد، واستلم أحمد بن محرز الحكم فيها، وفي هذه الأثناء أرسل مولاي إسماعيل

(١) كتب أحد المؤرخين الإنكليز، بأن غيلان لم يقتل وأنه فر إلى الجزائر.

بعض المرابطين إلى تلمسان لإثارة الشغب والعصيان فيها، وبنفس الوقت كان يتابع أحداث تازه، لأنه قام بنفسه بتقديم المساعدة للمتمردين، لكن القوات الجزائرية هزمت المتمردين وفر قسم منهم إلى مقبرة (سيد بو مدين) فاستولى عساكر الأتراك على المنطقة وهدموا المقبرة وقتلوا العصاة بسيوفهم، عندها أدرك مولاي أن أعماله لن تجديه نفعاً، فاتجه إلى مراكش عن طريق تادلا، وهزم ابن أخيه أحمد محرز وحاصر المدينة إلى أن استسلمت له.

رداً على تحركات مولاي إسماعيل في المناطق التي يحكمها الأتراك، قام الجزائريون بمساعدة المطالبين بالحكم ببعض التحركات، فقد أرسلوا قطاع الطرق إلى تلك المناطق، كما نجح أحمد بن عبدالله الدلائي بتحريض البربر على التمرد ضمن مناطق مراكش، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالجيشين اللذين أرسلهما مولاي إسماعيل، وكان تعدادهما ثلاثة آلاف جندي.

بعد فشل مولاي إسماعيل بتطبيق سياسة القوة، جمع كافة الدلائين الموجودين في مراكش، وأسند لكل فرد منهم منصباً مهماً، وبهذه الوسيلة تمكن من إسكاتهم والقضاء على محاولات الخداع والدسائس التي كانت تحاك ضده.

لم تستسلم مدينة مراكش للحصار الذي فرضه مولاي إسماعيل إلا بعد سنتين، وفر أحمد بن محرز إلى السوس في ربيع الأول ١٠٨٨ هـ حزيران ١٦٧٧ م، وفي هذه المرة تمرد بربر تادلا، فأسرع مولاي إسماعيل بجيشه وتمكن من تمزيق التادليين، ومنها عاد إلى فاس، وتبين له بوضوح أن الجزائريين وراء كل هذه الأحداث، فقرر إعلان الحرب على الجزائر، وفي سنة ١٦٧٩ م ١٠٩٠ هـ زحف باتجاه الشرق، وفي الطريق انضمت إليه القبائل القاطنة هناك، ووصل بجشيه حتى (الغوه (El Gouea) على نهر الشليف، فتصدى الأتراك له[1]. وكانت المدفعية والهاونات التركية منظمة تنظيماً جيداً، فباشرت بإطلاق نيرانها عليه، ووسط هذا الضجيج هرب الجميع، وفي اليوم الثاني شاهد مولاي إسماعيل غياب قوة القبائل، ولم يبق

---

(١) الترجمان المريب عن دول مراكش والمغرب. أبو القاسم أحمد بن الزياني. أوغست كور.

لديه سوى قواته الخاصة إزاء ذلك اضطر إلى عقد الصلح لإنقاذ نفسه، وانسحب للحدود القديمة المتعارف عليها، وخلال غيابه تمرد أخواته الثلاثة، فزحف نحوهم وانتصر عليهم وطردهم إلى الجبال.

أقام مولاي إسماعيل في المناطق القريبة والمجاورة لحدود الجزائر وقلاعها واستحكاماتها، فبنى هناك ووسط كل قبيلة قلاع ضخمة وزود كل منها بمائة عسكري من العبيد، ثم أصلح استحكامات تازه، ووضع فيها حوالي ألفين وخمسمائة جندي، وكانت الوظيفة الأساسية لتلك القلاع مراقبة تحركات المشاغبين وكقواعد أساسية له ونقاط دفاعية ضد أي هجمات خارجية تشن فجأة على مناطقة. في حين كانت ظاهرياً إظهاراً لقوته ومقدرته على حفظ الأمن والاستقرار على كافة المناطق التابعة لسلطانه.

ظهر في مناطق المغرب بعض المدّعين بالحكم، أمثال العياش من المرابطين، فلجأ مولاي إسماعيل إلى إدخال هؤلاء بجيشه كي يستغلهم لصالحه، كما وضع إلى جانبه قائداً ومعه مائة جندي من العبيد، وبهذه الطريقة ضمن إسكاتهم، ووطد سلطانه وضمن الأمن والاستقرار لبلاده[1].

بعدما ضمن مولاي إسماعيل إسكات المرابطين، وحصن حدوده تحصيناً متيناً، التفت إلى محاربة ابن أخيه أحمد بن محرز، وكرس جهوده للتخلص منه ومن حكومته في منطقة السوس حيث ارتبط مع الجزائريين ببعض العهود والمواثيق، وكان تهديد الأتراك له في منطقة الشرق يمنعه من عمل أي شيء فعال في هذا الموضوع. وبغية التخلص من كابوس الأتراك، قرر مهاجمة الجزائر ثانية، وأسند لقائد جيشه مسؤولية التصدي لأحمد بن محرز في حال إظهاره أي مقاومة، وقاد الجيش المهاجم للجزائر بنفسه، فاجتاز الحدود مدعياً بأن قبيلة بني عامر الموالية للأتراك تعدت على حدود فاس، وكان قبل تحركه إلى الجزائر قد اتصل بالعلماء وكسبهم لجانبه، وهاجم قبيلة بني عامر، ثم عاد إلى مكناس، وبالمقابل اجتاز الجزائريون

---

(١) جمع مولاي إسماعيل كافة الزنوج (العبيد) الموجودين فى البلاد وشكل منهم جيشاً ثم زوج الزنوج من بعضهم البعض، وبدأ بتربية أولادهم وأعدهم إعداداً جيداً، وبهذه الوسيلة تمكن من إكمال جيشه من أولادهم، وكان يسمى هذا الجيش (بجيش العبيد) وارتفع عددهم إلى مائة وخمسين ألف جندى.

الحدود وسلبوا ونهبوا قبيلة بني يزناسن، واستولوا على دار ابن مشعل.

استغل أحمد بن محرز تحركات مولاي إسماعيل، وبدأ يمارس نشاطه وتحركه في السوس. فأرسل مولاي إسماعيل أنصاره وأصدقاءه الأقوياء إلى السوس، في حين قاد جيشه باتجاه تلمسان، وحالما اقترب من أسوار تلمسان، علم بأن الأتراك منشغلين بهجوم دوكين على شرشال والجزائر، كذلك فقد أدرك بأن الأتراك غير قادرين على التصدي له أو شن هجوم ضده، وحينما علم ديوان الجزائر بتحركات مولاي إسماعيل أرسل إليه رسالة يطلب منه الانسحاب والرحيل عن الأراضي الجزائرية[١].

فك مولاي إسماعيل الحصار عن تلمسان، واتجه إلى السوس عن طريق مراكش للقضاء على أحمد بن محرز مستغل فرصة إنشغال الأتراك بالتصدي للفرنسيين، لكن ابن أخيه حاربه محاربة عجيبة، واضطر الطرفان لإيقاف القتال بمناسبة حلول شهر رمضان.

استفاد مولاي إسماعيل من هذه الهدنة، فأعلن ترقيته إلى مرتبة مولاي العالية، فجمع من القبائل خيولها وسلاحها، كما أغلق الاستحكامات القائمة على الطريق الشرقي المؤدية إلى مراكش، ووضع فيها المحافظين، وجعل مراكش محصنة تحصيناً جيداً، خاصة من الجهة الشرقية، وفي هذه الأثناء رحل الإنكليز عن طنجة وقتل أحمد بن محرز في السوس، فحل مكانه (حران) ولكنه قتل هو الآخر في جمادى الأولى سنة ١٠٩٨ هـ ١٦٨٩ م، فعم البلاد الأمن والسكون.

وجد مولاي إسماعيل أن الفرصة الآن مناسبة أكثر للهجوم على الجزائر، واعتقد بأن قواته تستطيع تحقيق النصر، فبحث عن قوة أخرى للاتفاق معها، فعرض على الملك الفرنسي الزواج من إحدى بنات عائلته بغية الاتفاق مع فرنسا[٢]. لكنه أدرك أن عقد اتفاق مع التونسيين أكثر أهمية، وخاصة أن التونسيين ناقمون على الجزائريين كثيراً، فاتفق معهم وحدد الطرفان وقتاً للهجوم على الجزائر.

---

(١) أوغست كور.

(٢) أوغست كور.

علم الجزائريون بالاتفاق، وبغية إفشاله، قرر الداي شعبان مهاجمة التونسيين قبل أن يتخذوا استعداداتهم، وبالفعل تمكن من سحقهم، ومن ثم سار باتجاه الفاسيين، فتحرك مولاي إسماعيل مدعياً بأنه يحاول تأديب قبيلة غويا فزاز (Gûya Fazaz) فأرسل قوة مؤلفة من المدفعية والمشاة، وتحرك هو بكامل جيشه من مكناس باتجاه تلمسان، وكان جيشه يضم أربعة عشر ألف جندي من المشاة وثمانية آلاف خيال[1]، وكمية من الذخيرة مع عدد من المدافع العادية، وكان الأسرى الذين أسرهم من مسيحية العرائش والمهدية يجرون المدفعية[2]. ولدى وصوله إلى بلدة أوجده علم بقدوم الجيش التركي بنحوه، فعاد منسحباً إلى بلاده، وكان الجيش التركي يتألف من عشرة آلاف جندي وثلاثة آلاف خيال، وعدد من طوابير الزحافيين (Zuav) استمر الجيش التركي بملاحقة مولاي إسماعيل، وحينما اقترب منه شن عليه هجوماً مكثفاً، مستغلين إنشغاله بالانسحاب، وحاصروه ضمن حمر (مولويا) فهزم الجيش الفاسي بعد فقدانه خمسة آلاف جندي، واستمروا يطاردون الجيش الفاسي حتى أسوار فاس، ومن ثم انسحبوا عائدين إلى الجزائر سنة ١٦٩٣ م ١١٠٤ هـ[3].

عاد الجيش الجزائري محملاً بالغنائم الكثيرة، وأثناء عودته عاقب كافة القبائل التي التحقت بمولاي إسماعيل معاقبة شديدة.

أرسل مولاي إسماعيل إلى الجزائر هيئة تتألف من ابنه عبد المالك والمرابطي طيب بن محمد الفاسي، لإصلاح ذات البين، وقد رحب الجزائريون بهم وعقدوا الصلح معهم. ولكن القبائل الداخلية أعلنت تمردها لأن مولاي إسماعيل فشل في هزم الجزائر، وبعد صراع طويل معهم، تمكن من إخضاعهم وتوطيد الأمن والاستقرار في تلك المناطق. لكن خسارته أمام الأتراك تركت لديه أسى وحزناً عميقاً، ولكي يغسل عاره، قرر مهاجمة الجزائر من جديد بالرغم من عقد الصلح معها، ففي التاسع من ربيع الأول

(١) أبو القاسم الزياني.

(٢) أبو القاسم الزياني.

(٣) يقول أوغست كور: إن هذه الأحداث وقعت سنة ١١٠٣ هـ، وإذا نظرنا إلى أقوال أبو القاسم الزياني فتكون الاحداث قد وقعت ١١٠٤ هـ وأن الحرب مع تونس بعد هذا التاريخ.

سنة ١١٠٦ هـ الموافق التاسع والعشرين من تشرين الأول سنة ١٦٩٤ م أرسل ابنه زيدان على رأس جيش ضخم لمحاربة الأتراك والهجوم على الأراضي الجزائرية، ولكن كل ما فعله ابنه هاجم بعض القبائل القاطنة على الحدود وعاد إلى بلاده مسرعاً. وخلال هذه الأحداث وصلت من إستانبول هيئة تتألف من عشرة أشخاص، فاستقبلها مولاي إسماعيل استقبالاً عظيماً، وقد طلبت الهيئة منه إقامة الصلح مع الجزائر، وتعهد مولاي إسماعيل بتلبية رغباتها، وأرسلها معززة مكرمة مع هدايا وتحف ثمينة[١].

قسم مولاي إسماعيل الحكم على أولاده سنة ١٦٩٩ م ١١١١ هـ، فأعطى تازه لابنه زيدان فتحرك زيدان لمحاربة الجزائر بإيعاز من والده، كما أن أمير تونس مراد بك هاجم قسنطينة سنة ١٧٠٠ م ١١١٢ هـ.

تقدم زيدان إلى مسكره، ودخلها بسهولة، وأمر عساكره بنهب وسلب المدينة، وكان جملة المنازل التي نهبت منزل أمير كسره، الذي كان ذاهباً للغزو، ولكي يتمكن زيدان من تهريب الغنائم التي حصل عليها، عقد الصلح مع الجزائريين، وبهذه الوسيلة عاد إلى بلاده مطمئناً سليماً.

غضب مولاي إسماعيل من تصرف ابنه زيدان فعزله من ولاية تازه، لأنه لم يستفد من النصر الذي حققه[٢]. وخرج هذه المرة مولاي إسماعيل بنفسه ووصل إلى أفره (Efere)، وكان آنذاك الداي مصطفى قد تسلم حكم الجزائر حديثاً، كما أن مولاي إسماعيل لم يكترث لخطاب التهديد الإسلامي الذي جاءه من السلطان العثماني، وحينما علم الداي بأن التونسيين والفاسيين متفقون فيما بينهما لمهاجمة الجزائر، جهز قواته واتجه إليهما، وتمكن بسهولة من الانتصار عليهما سوية في صحراء عبد النور الواقعة ما بين صطيف وقسنطينة بتاريخ ٣ تشرين الأول ١٧٠٠ م ١١١٢ هـ وعاد باتجاه الغرب مباشرة[٣].

إن ما يتمتع به الداي مصطفى من شجاعة وبطولة وكرم دفعت جميع

(١) أبو القاسم أحمد الزياني

(٢) يقول أبو القاسم أحمد الزياني. غضب مولاي إسماعيل من ابنه لأنه أقام معاهدة مع الأتراك، وعندما نقضها عفا عنه، وقد ترك أبو القاسم عملية عزله دون حكم لأنه خرج معه إلى الغزو.

(٣) أوغست كور.

القبائل للانضمام إليه في كافة المناطق التي مر بها، وكان مولاي إسماعيل قادماً باتجاه صطيف. فالتقى الطرفان في منطقة مضيق (بوغاز إكشي) أي مضيق الحامض في وادي الجديوية[1]. وكانت قوة الفاسيين تقدر بحوالي خمسين ألف جندي، وبدأت المعركة بينهما ظهير عشرين ذو القعدة ١١١٢ هـ الموافق الثامن والعشرين من نيسان سنة ١٧٠٠ م، وفي الساعة الرابعة هُزم جيش فاس، وجُرح مولاي إسماعيل فترك رمحه بيد خصمه، ولولا سرعة جواده لما تمكن من إنقاذ نفسه، وعاد الجيش الجزائري إلى المدينة، يحمل ثلاثمائة رأس عسكري وخمسين قائداً، فأقيمت الأفراح في الجزائر لعدة أيام احتفالاً بهذا النصر العظيم.

بعد فتح الأتراك لمدينة وهران بعث مولاي إسماعيل رسالة تبريك وتهنئة إلى إستانبول مع شخص يدّعي بأنه ابن محمد الرابع، وقد رافقه سفير مولاي إسماعيل، كما أن مولاي إسماعيل كان بوداعه وتمنى له التوفيق والنجاح.

لم يخاطب السلاطين العثمانيون حكام فاس بلقب سلطان، بل كانوا يطلقون عليهم لقب حكام فاس، وقد قصد مولاي إسماعيل من إرسال الشخص الذي يدّعي بأنه من العائلة العثمانية، الاعتراف به سلطاناً، ولدى وصول الشخص المذكور مع سفير فاس إلى جزيرة سقيز، دعاهم محافظ تبردار (Teberdar) إلى مجلسه وفهم الموضوع منهما، فأبقى الشخصين عنده، وعرض على السلطان حديثهما، فغضب السلطان غضباً شديداً، وأمر بقتل الشخص المذكور وإعادة السفير إلى فاس مباشرة.

تأثر مولاي إسماعيل من الحادثة تأثراً عظيماً، فكتب رسالة أخرى، وقبل إرسالها طلب الشخص المكلف بإيصالها للسلطان إلى مجلسه، وتناقش معه، وأفهمه أن الشرع الشريف يحرم قتل المذنب قبل سؤاله، وأن هذا التصرف يولد الخلاف بين الحكام، ويجعلهم يستغيبون بعضهم البعض، وبعد ذلك أمر الشخص المكلف بالتوجه فوراً إلى إستانبول.

رد السلطان العثماني على رسالة مولاي إسماعيل، بأنه لا يوجد أولاد لسلاطين بني عثمان يتجولون في تلك المناطق، وأن الشخص نال جزاء

---

(١) تذكر بعض الروايات أن هذه حدثت في (حصيان تيزازين). دى عراممونت.

كذبه ، وأنه خلص ذمته من سوء الظن ، ورسالة السلطان مؤرخة سنة ١١٢١ هـ[1] .

إن الشخص الذي ادعى بأنه من العائلة العثمانية ، هو ابن السلطان محمد الرابع من جارية له تزوجها ، ولدته أمه أثناء ذهاب السلطان للحج* .

بعدما قسّم مولاي إسماعيل حكم البلاد بين أولاده ، إنتشرت الثورات في كل مكان ، وغدا أولاده يتصارعون فيما بينهم ، كل منهم يحاول توسيع حدود مملكته على حساب الآخر ، فبعد التقسيم اعتدى حاكم فاس على الجزائر، وفي هذه المرة سار من ناحية الجنوب ، وتقدم حتى وصل عين مدحية ، ولكنه اضطر لترك نصف انتصاره بسبب حدوث اقتتال بين أولاده ، ولم يقم الجزائريون بمهاجمة فاس واستغلال حالة الفوضى والاضطراب التي تشهدها فاس ، وفي ٢٧ رجب ١١٣٩ هـ الموافق ٢٠ آذار ١٧٢٧ م توفي مولاي إسماعيل تاركاً البلاد لأولاده الذين يتصارعون فيما بينهم .

يقول أبو القاسم أحمد الزياني نقلاً عن روايات الأهالي : كان لمولاي إسماعيل ٥٢٨ ولداً وبناته بقدر هذا العدد أيضاً ، وأن الجميع كانوا يشاهدونهم أثناء توزيع المعاش عليهم ، وقد كان لأولاده / ١٠٥/ عائلات (خانات) في سجلماسه ، وقد دام حكمه ٥٧ سنة ، وبالرغم من طول فترة حكمه فأنه لم يتمكن من تحقيق أي انتصار على الجزائريين ، كما أنه بذل جهوداً كبيرة لتوطيد الأمن والاستقرار في البلاد ، فلقد أسس جيشاً نظامياً ، وجمع السلاح من الأهالي وبعض القبائل ، وبهذه الوسيلة تمكن من إقرار الأمن والهدوء ، ولكن أهالي فاس كانوا يميلون إلى الأتراك بسبب الضريبة التي فرضها عليهم .

لجأ مولاي إسماعيل في سنة ١٧١٥م / ١١٢٧هـ إلى أيقاف هجرة

---

(١) تاريخ رشيد مجلد ٣ ص ٢٦٧ . سنه ١١٢١ هـ

(*) لم نعثر في كافه المصادر العثمانية على ما يثبت أن أحداً من سلاطين بني عثمان ذهب إلى الحج ، كما أن معظم المصادر القديمة والحديثة تجمع بأن السلاطين عقب فتح القسطنطينية لم يخرجوا خارج إستانبول إلا للقيام بالغزوات وحتى هذه انتهت تقريباً ، باستثناء السلطان عبد العزيز الذى قام بجولة إلى مصر وأوربا ولا ندري من أين للمؤلف هذه المعلومة التاريخية المهمة . . . (المترجم) .

الفاسيين إلى تلمسان بقوة السلاح وأسند المناصب العالية للشرفاء والمرابطين فكسر بذلك نفوذ المرابطين، وجعلهم يميلون إليه، أو على الأقل يخلدون إلى الهدوء بدلاً من الثورة عليه[1].

بعد وفاة مولاي إسماعيل ازداد نفوذ المرابطين والموالين للجزائر، هذا التبدل ساهم في إذكاء روح التمرد والعصيان في كل من تطوان وسلا وطنجة بشكل خاص، وكانت المدن المذكورة تقيم علاقات تجارية مع القراصنة ومع الأجانب بغية تأمين عيشها، وقد حققوا من جرائها أرباحاً طائلة وخاصة من بيع البارود والسلاح للجزائريين، كما تم في موانىء هذه المدن بيع وشراء الغنائم والأسرى التي لا يمكن للجزائريين بيعها في موانىء الجزائر، واعتباراً من سنة ١٧٠٤م بدأت إنكلترا تساهم في تحسين العلاقات ما بين موانىء تلك المدن وقراصنة الجزائر، وذلك تحدياً لفرنسا . . لأن فرنسا كانت من أكثر الدول التي تدرك الغنائم والأرباح التي حصل عليها القراصنة وبصورة خاصة قراصنة الجزائر، فقد كانوا يشترون ما يخصهم من ميناء الجزائر، وبما أنه أصبح لدى قراصنة الجزائر أمكنة أخرى غير مينائهم، فقد غدا بإمكانهم بيع ما يحلو لهم وخاصة الغنائم التي يغنمونها من الفرنسيين، وأصبحت فاس سوقاً رئيسيا لبيع الغنائم وخاصة غنائم الفرنسيين، كذلك فإن قراصنة فاس أثناء تجولهم في البحر الأبيض المتوسط، كانوا يلجأون إلى ميناء الجزائر للاستراحة أو عندما يتعرضون لموقف حرج، وخلال استراحتهم يأخذون معهم الغنائم العائدة للفرنسيين، كما أن قراصنة الجزائر كانوا يهاجمون السفن الفرنسية رافعين علمَ سلا، ومن هنا جاء اهتمام الجزائريين والإنكليز باستقلال تطوان.

---

(١) أوغست كور.

ـ ٥ ـ
الداي شعبان

قرة مصطفى ـ هجوم فاس ـ ضريبة كوتيمو ـ الثورة ـ وفاة الداي شعبان ـ الداي حجي أحمد ـ وباء الشاويش حسن ـ الداي مصطفى ـ هجوم مولاي إسماعيل ـ الأميرال بينغ (Bing) ـ إعلان الحرب على تونس سنة ١٧٠٥م / ١١١٧هـ ـ حسن خوجه ـ محمد بكطاش .

عندما طُلب من الأسطول الجزائري الالتحاق بالأسطول العثماني ، تحرك الرياس بقيادة قرة مصطفى ، ولكنه قتل أثناء عودته من الغزو ، فصادر الداي أمواله ، لأنه كشف الخطة التي كان يعدها قرة مصطفى ضده .

اتفق الفاسيون الذين كانوا يخسرون باستمرار أمام الجزائريين مع التونسيين للهجوم على الجزائر ، ونتيجة لعدم تحركهما معاً ، ولهذا قررت الجزائر مهاجمة تونس أولاً ومن ثم تتجه لمهاجمة فاس ، وقد نتج عن تصرف الجزائر إلحاق خسائر فادحة بالتونسيين والفاسيين[١] .

أثناء إنشغال الجيش العسكري الجزائري بحرب فاس ، حرض التونسيون القبليين على التمرد ، فاتفق القبليون مع الأهالي في المدينة ، وخططوا معاً لعملية خيانة مخيفة ، وقد اعتقد الخونة أن الجيش الجزائري سيعود منهزماً من الحرب ، وأنه سيكون مرهقاً من السفر بعد الهزيمة ، وبهذه الطريقة سيتمكنون من إلقاء القبض على أفراده ، فيقيدونهم بأيديهم

(١) التفصيلات في القسم الرابع الخاص بأحداث فاس ، وأواخر الجزء الخامس .

وأرجلهم ، ولكن الذي حدث كان بعكس ما تخيل تفكيرهم المنحوس تماماً ، فالجيش عاد منتصراً ظافراً ، ورغم ذلك فلم يغيروا قرارهم وإتفاقهم ، فهاجموه ، ودار قتال شوارع رهيب ، واستطاع الجيش سحق المتمردين ، وقطع أكثر من خمسة آلاف رأس متمرد ، وأرغمت القبائل المنسوب إليها العصاة ، بدفع تعويضات كبيرة ، وعقب هذا الحادث مباشرة ، شب حريق في الميناء ، ونتج عنه خسائر عظيمة بالسفن المرابطة داخل الميناء ، فنُسب الحادث إلى الخونة فقطعوا عدداً من رؤوسهم[1] .

بالرغم من التضحيات والهدايا الكثيرة التي كانت هولندا تقدمها للجزائر، فقد أعلنت الجزائر الحرب عليها ، أما بالنسبة للسفن الإنكليزية ، فلم يعترف القراصنة بوثائق السفر الموقعة من قبل جان الثاني ، وكانوا يلقون القبض على السفن التي تحمل تلك الوثائق .

أحضرت سفينة فرنسية ثمانية أسرى أتراك إلى الجزائر ، وعلم الديوان بعد رحيل السفينة بهروب أربعين أسيراً ، فاشتط الجزائريون غيظاً وغضباً ، وحدثت ثورة مباشرة وحاول القنصل الفرنسي تهدئة الوضع وطلب من حكومته أن تأمر السفينة بالوقوف خارج الميناء ، لكي لا تضيع جهوده وأتعابه ، لكن الفرنسيين تصرفوا تصرفاً جعل الجزائريين محقين بغضهم .

عمل سكان سواحل جنوب فرنسا على إقامة التحصينات والاستحكامات اللازمة تحسباً من هجوم القراصنة المفاجىء عليهم . وقد صمموا على الدفاع عن أنفسهم ومناطقهم ، ولهذا استمرت تلك الترتيبات حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وللتعويض عن هذه الخسائر الناجمة عن إقامة التحصينات فرضوا ضريبة على جميع السفن القادمة والمغادرة لسواحل جنوب فرنسا ، وسميت هذه الضريبة بضريبة (كوتيمو (Kotimo) (*) . ولكنها لم تؤخذ من السفن القادمة من موانىء الشمال الإفريقي ، ولم تطبق في موانىء أوجاق الغرب ، أما حكومة مرسيليا فقد اغتنمت هذه الفرصة لأخذ هذه الأموال من القنصلية الجزائرية في مرسيليا ، مستغلة عدم وجود قنصل فرنسي

---

(١) دي غراممونت .

(*) ضريبة كوتيمو التي فرضها الفرنسيون لم نجد لها تفسيراً في المعاجم والمصطلحات العثمانية وسألنا عددا من الاختصاصيين ، فلم نجد لديهم جواباً يمكننا من التعرف عليها (المترجم) .

في الجزائر، ولكي لا تفصل مرسيليا هذه النقود عن وارداتها المحلية أعلنت: إن هذه الأموال تؤخذ من السفن القادمة من موانىء الجزائر وهي عبارة عن ضريبة كوتيمو، وقد سلك الفرنسيون طريقاً ملتوية لأخذ النقود، وهو قزار باطل، فمعظم السفن القادمة إلى الجزر سراً أو جهراً تحمل أموالاً لليهود، ولكي لا يدفع اليهود تلك الضريبة قدموا الشكاوى إلى ديوان الجزائر، فأوصى الديوان قنصله في مرسيليا «على الفرنسيين عدم اختلاق بدع وألاعيب، لأنهم بهذه الوسيلة يحضرون البلاء والمصائب على أنفسهم».

لم تكن الغرفة التجارية في مرسيليا راضية عن هذا العمل، لأنها تسعى إلى تحقيق أهدافاً أكبر مما تفكره الحكومة، ونتج عن ذلك معاداة اليهود للقناصل الفرنسيين وخاصة أن اليهود يتمتعون بنفوذ قوي وأن نفوذهم يزداد يوماً بعد يوم[١]. يضاف إلى ذلك أن الداي بابا حسن كان يتحرك بتوجيه من اليهودي المخبر (بوبيوباز) منذ سنة ١٦٨٠م، وأصبح هذا اليهودي في عهد موزمورتو حسين جاسوساً سرياً له، كما أن الداي شعبان أسند لأحد أقرباء هذا اليهودي حق ممارسة تجارة الشمع والعسل والجلود.

التزمت أوجاقات الغرب بالأمر الهمايوني الصادر بشأن إرسال قاليونات لمشاركة الأسطول العثماني في شعبان سنة ١١٠٦هـ، وكان السلطان يطلب من أوجاق الجزائر تقديم عشر قاليونات ومن أوجاق تونس ثلاث وأوجاق طرابلس الغرب ثلاث، كما أوصى القبطان باشا بإقامة الاتصالات بين السفن وبحسن المعاملة، وفي مطلع ذي الحجة تحرك الأسطول العثماني من جزيرة مديلي باتجاه فوجة (Foga) ولدى وصوله إلى منطقة أندرة (Andra) علم العدو به فتحرك باتجاهه[٢]. وبما أن قبطان باشا تحدث للسلطان عن شجاعة مجاهدي الأوجاقات وبطولاتهم، وتشهد لهم بذلك حرب البندقية وغيرها من الحروب الأخرى، لذلك قدم السلطان للقباطنة وبعض الأشخاص المعروفين ثلاثين حلة، وأخبر القبطان بذلك[٣]. كما أن السلطان كتب إلى أمراء أوجاقات الغرب يطالبهم

---

(١) دي غرامونت.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٠٦/ ص ٢٠٦ (أواسط ذي الحجة ١١٠٦هـ).

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٠٦/ ص ٢٦٩ (أواخر صفر ١١٠٧هـ).

بالاستعداد بصورة دائمة، وأن سفنهم يجب أن تصل إلى جزيرة سقيز قبل خضر الياس بعشرة أيام ليلتقوا مع الأسطول العثماني، وقد كلف الخصكي محمد بإرسال هذا الفرمان بأقصى سرعة ممكنة[1].

عندما كان الداي يؤدي الصلاة في الجامع في الخامس والعشرين من شهر شباط سنة ١٦٩٥م / ١١٠٧ تعرض لمحاولة اغتيال، لكنه نجا منها، وألقى القبض على الفاعل، فاعترف وأقر بالأشخاص الذين شاركوه بهذا الترتيب، فأمر الداي بقطع رؤوسهم جميعاً، ولكن العقوبة زادت الفوضى بين فئة اليولداشية.

عاد إلى تونس أميرها محمد بك بعد هروبه إلى جزيرة سقيز أثناء هجوم الجزائريين على تونس، وطرد محمد شقير، واستلم مكانه كأمير على تونس فقدم الهدايا، وكسب ود محافظين قسنطينة، ولكن شعبان باشا غضب لأن جميع جهوده ذهبت سدى، فاستعد لتنظيم حملة أخرى ضد باي تونس، لكن الضباط كرهوا الحرب المتواصلة على مدار ثلاث سنوات، وأصبح جيش الشرق يفكر بالثورة على الداي، وحالما رجع الجيش من قسنطينة في الخامس من آب إلى الجزائر، هتف مطالباً برأس الداي، فألقى المتمردون القبض على شعبان عندما كان يدافع عن نفسه ثم رموه بالسجن، ووضعوه تحت التعذيب مدة ستة أيام بقصد إخبارهم عن مكان الخزينة، وحينما لم يخبرهم قتلوه في الحادي عشر من آب سنة ١٦٩٥م وعينوا الإسكافي الحجي أحمد داياً على البلاد[2]. وفي المرحلة الأخيرة من حكم شعبان باشا كان أمير الأمراء موسى باشا[3].

كانت نفسية الحجي أحمد قريبة من الجنون وله أطباع غريبة، وكان دوماً يشعر أنه مهدد بقطع رأسه، وبقبوله لمنصب الداي رضي الموت لنفسه، وبعد تعيينه تقدم القناصل له الهدايا والتحف الثمينة كالمعتاد، وقد حاول القنصل الفرنسي الاستفادة من طباع الداي الجديد، فطلب منه السماح

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٠٦/ ص ٢٧٠ (أواخر صفر ١١٠٧هـ).

(٢) دي غراممونت.

(٣) دي غراممونت. دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٦٠/ ص ١٩٩ (أوائل جمادى الآخر ١١٠٩هـ).

للفرنسيين بفتح مركز لتجارة الأغذية في شرشال، فرفض الداي الجديد قائلاً له «يوجد لي رأس واحد فقط، سأعتني بالمحافظة عليه»[1]. ومع ما فيه فقد حاول زيادة أعمال القرصنة لأنها المصدر الوحيد لواردات الولاية.

في هذه الأثناء اتفق الإنكليز والإسبان معاً وأقاموا صلحاً مع الجزائر، وبعد ذلك مباشرة حاولا إشعال النار بين الجزائر وفرنسا، فقدموا للداي حصانين، كما قدم له أحد حكام غرناطة خاتماً من الألماس، وبنفس الوقت قدموا له سراً أربعين ألف قرش، كما دفعوا للديوان ما يترتب عليهم لمدة سبع سنوات وفوقها أربعين ألف قرش أيضاً، وهذه النقود مساعدات سنوية، وبهذه الوسيلة أصبح الداي من أنصار رجال المال، ولم يقف القنصل الفرنسي مكتوف الأيدي، فلقد أيقظ لدى الجزائريين شعور الحقد الذي يكنه لهم الإسبان، وتمكن بهذه الوسيلة من إفشال الإسبان في تحقيق هدفهم وغايتهم، وخلال هذه الفترة جاء الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال آمفرفيلة (Amfreville) لزيارة الجزائر، فكلف الداي البلوكباشي سليمان بتقدم عشرة خيول لنقلها إلى الملك الفرنسي كهدية له.

تسلم رياس الجزائر وتونس وطرابلس الغرب النقود من السلطان سنة ١٦٩٦م / ١١٠٨هـ وتحركوا بعدها إلى البحر الأسود، أما الداي أحمد فقد ازدادت أوهامه، فكان يتصور تعرضه لمحاولات اغتيال، وأخذ يشك بكل من حوله، وامتلأت المدينة بالأسرار والخفايا[2] وغدا يخاف من الذهاب إلى صلاة الجمعة وبقي في قصره مختبئاً، فكتب القنصل الفرنسي عنه في إحدى مراسلاته «لقد شاهدت أيام الداي حجي أحمد، والداي بابا حسن والداي موزمورتو حسين والداي شعبان، وكان لكل واحد منهم جانبه الحسن والجيد، أما الداي الحالي فلم أرَ له أي جانب حسن وليس لديه أي ميزة جيدة، فهو ينزعج ويغضب بدون أي شيء، فكان أحياناً يخاطب قائلاً سأطردك وأحياناً يقول أنت الذي سيأكل رأسي، فيقوم من مكانه، ويطلب مني أن أجلس مكانه، ويقول هل أنت الذي سيقوم بإدارة البلاد أم أنا، ألا تخاف على رأسك؟ إنك تبحث عن المصائب التي حلت بأسلافك ثم يبكي ويعتز بنفسه،

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دي غرامموت.

كما كان يقول لي عندما يعاملني بقسوة وعنف، إن عقلي لم يكن في رأسي»[1].

حكم الداي حجي أحمد بهذا الشكل مدة ثلاث سنوات ومات في نهاية سنة ١٦٩٨م / ١١١٠هـ.

في سنة ١١٠٩هـ طلب من أسطول الجزائر الالتحاق بالأسطول العثماني وأرسل إلى أمير أمراء الجزائر موسى باشا والداي أحمد وأميري تونس وطرابلس الغرب حللاً من إستانبول[2].

انتشر الوباء في الجزائر أثناء حكم الداي حجي أحمد، وقتل أكثر من ٢٠ إلى ٢٥ ألف شخص، وقد استمر يفتك بالجزائر مدة أربع سنوات، فمات معظم الأسرى المسيحيين، في حين ظل الرياس يهاجمون السواحل الإيطالية والصقلية، ويأسرون كل من يقع بين أيديهم من الأهالي، وعلى الرغم من أسر هذه الأعداد إلا أنه لم يكن في الجزائر من الأسرى سنة ١٧٠٥م أكثر من ثلاثة آلاف أسير[3].

عقب وفاة الحجي أحمد عين الشاويش حسن (حسن الشاويش) وحصل على لقب حسن باشا[4].

تولى حسن باشا إدارة البلاد من سنة ١٦٩٨م / ١١١٠هـ وحتى سنة ١٧٠٠م / ١١١٢هـ وقد ظل خلال ذلك صديقاً وفياً للفرنسيين بالرغم من الهدايا الكثيرة التي قدمتها بريطانيا وأيضاً هولندا، وقد دأب حسن باشا على زيادة فعالة القرصنة، لكنه منع الرياس من مهاجمة السفن الفرنسية وعاقب الفاعل بقسوة شديدة.

قابل الفرنسيون معاملة الجزائريين الحسنة، بروح عدوانية وقذرة جداً وحتى الحكومة الفرنسية لم تقدر ذلك ولم تحاول ردع قراصنتها[5].

---

(١) دى غراممونت.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١١٠/ ص ١٩٩ (أوائل جمادى الاخر ١١٠٩هـ).

(٣) دى غراممونت.

(٤) وجد إسم حسن باشا فى الكتابة المدونة بالعربية والعثمانية على أحد أبواب الجزائر وذكر دى غراممونت عن فترة تعيينه وتعيين موسى باشا، ولكن فترة عزله لم تعرف تماماً.

(٥) دى غراممونت.

تجاوز بحارة الجزائر أثناء تواجدهم في مناطق الدولة العثمانية حدود المنطق والعقل، فحينما ذهبت سفن الجزائر سنة ١١١٢هـ إلى إزمير وفوجه، خرج بحارتها الأبطال من سفنهم وبدأوا يتجولون في المدينة، وقد ارتكبوا خلال تجوالهم أعمالاً مخلة بالشرف، فاضطر الديوان الهمايوني إلى إصدار أمره إلى قبطان باشا يمنعهم من مغادرة سفنهم[١].

في سنة ١٧٠٠م / ١١١٢هـ تحالف مراد بك أمير تونس مع مولاي إسماعيل وبالتفاهم مع طرابلس الغرب اخترقوا الحدود الجزائرية وهزموا أمير صنجق قسنطينة مرتين، وفرضوا على المدينة حصاراً شديداً، ولدى وصول الأنباء إلى الجزائر ثار الإنكشاريون غاضبين، فخاف الداي حسن باشا من ذلك وأغلق أبواب قصره، ثم قدم استقالته، فحل مكانه أولاً آغا السباهية المعرف بإسم تنشطال صقالي (حجي مصطفى)[٢] ونقل إلى قصر الداي، وهناك أعطى لحسن باشا أربعة الآف قرش مصاريف الطريق وسفينته لتنقله إلى طرابلس الغرب ثم ودعه بالمدفعية أثناء مغادرته للبلاد، وكان ذلك أول مرة في تاريخ الجزائر يحدث مثل ذلك، وهي مثل أعلى للعدل والإنصاف[٣].

توجه الداي مصطفى بقواته إلى أمير تونس الذي عاد إلى بلاده بعد انتصاره على أمير قسنطينة، وكان الإنكشاريون متأثرين جداً لما أصاب أخوانهم وأصدقائهم وكانوا خلال سيرهم يتقدمون بكل شوق وحماس للالتقاء بأمير تونس والانتقام منه، وفي الثالث من تشرين الأول سنة ١٧٠٠م تقابل الطرفان في صحراء عبد النور بجوار شريف، وبعد قتال استمر أربع ساعات هُزم الجيش الفرنسي التونسي، وظل الإنكشاريون يلاحقون فلول الجيش الهارب حتى الحدود، وقد قتلوا خلال ذلك الكثير من التونسيين وأسروا قرابة ألف شخص.

---

(١) دى غراممونت. دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١١١/ ص ٤٩٣ (أواخر شعبان ١١١٢هـ).

(٢) مجموعة التاريخ العثمانى ص ٣٠٨.

(٣) دى غراممونت. توجد كنابة على أبواب القصر الدى سكنه المموضون الساميون الفرنسيون خلال استعمارهم للجزائر.

وصلت أنباء القتال الدائر بين تونس والجزائر إلى إستانبول ، وعلى الفور كلف السلطان كبير البوابين أحمد بالذهاب إلى هناك لإيقاف القتال ، وبعد تمكن كبير البوابين أحمد من إيقاف القتال والوصول إلى إصلاح الخلاف بينهما ، عاد إلى إستانبول وأعلم السلطان بما حدث وما توصل إليه ، وتقديراً لاستجابة حكام الولايتين ، أرسل السلطان مع مبعوثه أبو بكر حللاً فخرية إلى أمير أمراء الجزائر علي باشا ودايها مصطفى باشا وإلى أمير أمراء تونس وبايها مراد بك[1] .

بعد عودة الجيش الجزائري بفترة قصيرة ، قام مصطفى باشا بتجهيزه ثانية ، واتجه به مباشرة لمحاربة الفاسيين[2] . ولم يعد إلى الجزائر إلا بعد أن ألحق بمولاي إسماعيل هزيمة شنعاء وحصل على غنائم كثيرة .

أدرك القنصل الفرنسي دوران (Düran) أن الفرصة مناسبة جداً لتقديم السلاح الجديد الذي أرسلته حكومته للداي تقديراً له على مواقفه الجيدة والحسنة تجاه فرنسا ، وبالمقابل قدم له الداي أحصنة وأسلحة كان قد غنمها من مولاي إسماعيل وطلب منه تقديمها للملك الفرنسي اعترافاً بجميل صنيعه .

قبل إبراهيم بك الذي تولى حكم تونس بعد مقتل مراد بك إعلان تبعيته للجزائر مع دفع الضريبة المفروضة ، ولكن الإنكشاريين أعلنوا تمردهم لدى محاولة محمد شقير صديق الداي شعبان اعتراف الديوان التونسي بحقوقه ، وذلك خشية القيام بغزو جديد لتونس ، ورفضوا أي محاولة تسبب في نشوء قتال مع تونس في الوقت الحالي .

قتل قره علي باشا خلال الثورة التي أعلنها المتمردون عليه[3] . فهاجم الداي الثوار وقضى عليهم ، كما عاقب مسببي الثورة بشدة بالغة وجلد محمد شقير ثلاثمائة جلدة ، ثم طرد من المدينة قائلاً له : إذا عدت ثانية سأقتلك .

مع مطلع سنة ١٧٠٣م / ١١١٥هـ جاء الأسطول الإنكليزي بقيادة بينغ

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١١٢/ ص ١١٢ (أواخر شعبان ١١١٣هـ) .

(٢) أوغست كور .

(٣) أمير أمراء قره على باشا هو نفسه على باشا، وكان المذكور أمير أمراء تونس سنه ١١١٣هـ. وهذا ثابت فى قيودات الهمايوتى .
شقير محمد هو محمد شقير صديق الداى شعبان وقد عينه على تونس ثم عزله السلطان .

(Bing) ، حاملاً الهدايا النفيسة والثمينة إلى الجزائر، أقام مع الداي معاهدة صداقة، وفي هذه الأثناء كان أولاد مولاي إسماعيل يتقاتلون فيما بينهم، ولهذا ظلت حدود الجزائر فترة من الزمن آمنة، لكن قلة النقود كانت تبشر بحدوث عاصفة داخلية في الجزائر، وقد واجه الداي صعوبات جمة أثناء دفع رواتب الجند، فالسواحل الإيطالية لم تعد مربحة للقراصنة، لأنها أصبحت خاوية وفي حالة خراب تام، كذلك فإن السفن التجارية العابرة للمحيطات أصبحت تبحر تحت حماية السفن الحربية، ولهذا نقصت عائدات الأعمال البحرية، فالضرائب المفروضة على الأهالي أصبحت ثقيلة جداً ولم يعد بمقدور الأهالي دفعها، لأن الجفاف مستمر في البلاد، إضافة إلى الأوبئة التي حلت بهم، ففرغت الخزينة من الأموال، ولم يجد الداي مصطفى وسيلة يضمن بها الحصول على النقود سوى مهاجمة تونس.

وفي التاسع من تموز سنة ١٧٠٥م / ١١١٧هـ زحف الداي مصطفى بجيشه باتجاه تونس، وفي الحادي عشر من تموز هُزم وأُسر إبراهيم بك، وفي الثاني عشر استولى على بلدة الكاف وصادر أرزاق البك والمواد الغذائية الموجودة فيها، ثم تقدم باتجاه تونس وحاصرها فخاف التونسيون من نهب المدينة، فقدموا للجزائريين مبلغاً قدره مائة وخمسين ألف قرش مقابل انسحابهم، لكن الداي رفض العرض، إزاء ذلك لم يجد التونسيون وسيلة سوى الدفاع عن أنفسهم والتصدي للجزائريين، وخلال ذلك قام الفرنسيون بشن هجوم مفاجىء على الجزائر وقتلوا أكثر من ثمانمائة شخص، فاضطر الداي مصطفى للدخول مع التونسيين بمفاوضات، فرفض التونسيون دفع النقود، بل طالبوه بدفع التعويضات.

استمر الداي مصطفى في حصاره لمدينة تونس، وفي السادس من تشرين الأول سنة ١١٧٠٥م / ١١١٧هـ، أصبح مجبراً على فك الحصار والرحيل، وأثناء عودته بدأ التونسيون وسكان القبائل بمهاجمة مؤخرة جيشه، وبغية التخلص منهم، قرر مهاجمتهم، ولكنه في هذه المرة تعرض لخسائر كبيرة، وفقد أكثر من خمسمائة شخص، ووصل الداي مصطفى إلى مدينة الجزائر، في حين كان نصف جيشه لا يزال في الطريق[١].

(١) يذكر دى عراممونت. أن الداي مصطفى اضطر لفك حصاره عن تونس فى ١٢ تشرين الأول.

اعتقد الداي مصطفى بأن النقود التي وزعها حفيده على المنتخبين ستؤثر عليهم، وستضمن تأمين عودته الفاشلة دون أي ضجيج أو احتجاج، ولكن الضجة التي كان يخافها الداي ودفع نقوده لعدم حدوثها، حدثت قبل وصوله المدينة، وإن الديوان عين حسن خوجه داياً مكانه، وقد علم الداي بهذا الخبر قبل وصوله المدينة، فعاد مسرعاً، وبدأ يتجول في المناطق حتى وصل القال، وهناك وقع بأيدي الإنكشاريين، فقتلوه بعدما أذاقوه ألف نوع من العذاب والتشهير. أما الداي الجديد حسن خوجه فقد أخذ يعذب زوجته وابنته، وبعد ذلك استولى على أملاكه وثروته، ووزع الداي حسن خوجه الأموال على الجند، ولكن ما صادره من أموال يؤمن إسكات الجند لفترة وجيزة، وحالما انتهت الأموال التي بيده عادت الفوضى كما كانت في عهد الداي مصطفى.

عُزل الداي حسن خوجه في الرابع من آذار ١٧٠٧م / ١١١٩هـ دون إراقة دماء، وحدوث أي فوضى واضطراب داخل المدينة، وعين مكانه محمد بكطاش، والمشار إليه اتهم قبل سنة بتدبير مؤامرة لقتل الداي مع أربعة من أصدقائه، فنفاهم الداي إلى خارج البلاد، لكن أنصاره مع أصدقائه القدامى، ظلوا يدبرون الحيل والدسائس إلى أن تمكنوا من عزل الداي، وسلموا صديقهم محمد بكطاش منصب الداي.

أخذ حسن خوجة حفيده وأمواله وخزائنه معه، ثم ركب سفينته ورحل، لكن السفينة اصطدمت بالساحل بسبب هبوب عاصفة قوية، فوقع بجوار دلس، فأنقذه القبليون، واعتنوا به عناية فائقة ومن ثم نقلوه إلى كوكو، لكنه مات بعد زمن قصير نتيجة لإصابته بمرض خبيث.

الفصل الثاني

- ٦ -
فترة الإزدواجية
عهد الباشوات ـ عهد الدايات

محمد بكطاش ـ أوضاع الإسبان في وهران ـ الهجوم على وهران واحتلالها ـ استلام المرسى الكبير ـ القنصل الإنكليزي يعيين جواسيس له في المدينة ـ مفاتيح وهران ـ مقتل محمد بكطاش ـ دلي إبراهيم ـ سوكلي علي شاويش ـ نهاية الباشوات ـ الدايات يتولون منصب الباشوية أيضاً ـ الزلزال ـ محمد أفندي ـ القحط والجراد ـ الهولنديون يطلبون الصلح مع الجزائر ـ كبير البوابين ـ استمرار القرصنة ـ جزر الرأس الأخضر محطة الجزائريين ـ الوباء ـ الحريق ـ التمرد ـ الداي عبدي الأعمى.

في الرابع من آذار سنة ١٧٠٧م/ ١١١٩هـ، تسلم الداي محمد بكطاش مقاليد الحكم في الجزائر، وكان أمير الأمراء مجهولاً في ذاك التاريخ، ففي سنة ١١٠٩هـ كان أمير الأمراء موسى باشا[١]. وفي سنة ١١١٣هـ كان علي باشا[٢].

ومهما كان الأمر فإنني لم أعثر على أي قيد بحق من جاءوا ورحلوا. بعد هزيمة الإسبان أمام أسوار مستغانم قبلوا البقاء ضمن جدران القلعة، وأقلعوا عن فكرة التوسع ضمن البلاد، ومنذ ذلك التاريخ والقلعة في حصار دائم، كذلك فإن الأهالي شددوا الخناق على الإسبان، وبدت وهران والمرسى الكبير ومليلة وسبتة، وكأنهم في حصار دائم من قبل الجزائريين

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١١٠/ ص ١٩٩. تاريخ ١١٠٩هـ.
(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١١٢/ ص ١١٢. تاريخ ١١١٢ هـ.

والفاسيين ، حتى أن حامية بلدة مازونة مركز الصنجق الغربي غدت تعيش على ما يصلها من الإسبان ، وإذا كانوا يعتمدون على نهب الأطراف وبيع الشوادر لسكان المناطق المجاورة من أجل تأمين احتياجاتهم ، فهذا شيء غير مضمون وهو يخضع لظروف عدة ، وقد تعرض المحليون للعقوبة من قبل جيرانهم لأنهم يتعاونون مع المسيحيين ويبيعون أرزاقهم لهم .

منذ عشرين سنة والهجوم مكثف على وهران ، فقبل عامين نقل أمير صنجق الغرب مصطفى بوشلاغم مركز صنجق من ماوزنه إلى مسكره[1] ، وبذلك أصبح قريباً من وهران ، ووضع المناطق الجنوبية تحت مراقبته ، كما أنه اتخذ موقعاً يساعده على شن العمليات الحربية ضد كافة الأطراف ، فلجأ أول الأمر إلى إخضاع قبيلة بني عامر والقبائل المجاورة لحكمه ، وكانت تلك القبائل تقيم علاقات ود وصداقة مع الإسبان ، وبهذا الشكل يكون قد شدد الحصار على وهران وحرم الإسبان من الإمدادات الضرورية لهم .

أرسل السلطان فرماناً إلى أوجاقات الغرب يعلمهم بالصلح الذي عقده مع البندقية سنة ١١١٩هـ ، وبموجب هذا الصلح تعهد السلطان لأمير البندقية ، السماح لسفن ورعايا وتجار البندقية التحرك ضمن ممتلكات الدولة العثمانية براً وبحراً ، وبعدم مهاجمة وأسر سفن ورعايا البندقية من قبل جميع رعايا الدولة العثمانية[2] .

قرر الداي إخراج الإسبان وطردهم من وهران ، فأرسل إلى أمير صنجق الغرب جيشاً بإمرة والد زوجته حسن الطويل ، وفي آب سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧ اتحد الجيشان معاً ، فحفروا الخنادق وأقاموا التحصينات مقابل استحكام سان فيليب ، وبدأوا الهجوم ، واستمر القصف عدة أيام ، وفي التاسع من آب شنوا هجوماً آخر استولوا به على الإستحكام ، وخلال الليل شن الإسبان هجوماً معاكساً ، استعادوا به الاستحكام ، وبقي في أيديهم حتى الخامس عشر من أيلول ، وفي مساء الخامس عشر من أيلول فتحوا ثغره بالاستحكام ومنها باشروا الهجوم ، وفي هذه الأثناء أشعل قائد الاستحكام

---

(١) المقصود من اسم بوشلاغم أى (الشارب الكبير واسمه الحقيقي مصطفى بن يوسف .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١١٥/ صفحة ٣٣٤.

النار في مخزن البارود بقصد إنقاذه من أيدي الأتراك بعدما شنوا هجومهم، وقد نتج عن إشعال البارود تدمير الاستحكام تدميراً كاملاً، ولم ينجُ منه سوى شخص واحد فقط.

بعدما قُتل قائد الحامية وما معه من أفراد، قام الجزائريون من احتلال استحكام سان فيليب، ومن ثم اتجهوا إلى استحكام سان (غريغوار) الذي يشرف على أطراف المدينة، وهو يقع فوق تلٍ عالٍ يحف به سفح منحدر بشكل عمودي، وبعد مقاومة عنيفة، سقط بأيدي الجزائريين في الثاني من تشرين الثاني، وبذلك تحقق للجزائريين سقوط المدينة بأيديهم خاصة بعدما تمكنوا من احتلال استحكام سانت كروز المتحكم بالمدينة، وغدا أمر الدفاع عن المدينة بالنسبة للإسبان هو كل ما يملكونه لإنقاذ أنفسهم من موت محتم وهزيمة مؤكدة، وبنفس الوقت أصبح الجزائريون أمام أمر بالغ الصعوبة ويتطلب منهم شجاعة مدعومة باتحاد وسرعة تحرك. وفعلاً فقد اندفع الجزائريون دفعة واحدة أضاعت صواب الإسبانيين الذين وقعوا وسط دهشة وإرباك شديدين بسبب قوة الهجوم من جهة وفقدانهم لزملائهم وأنصارهم من جهة أخرى، إضافة إلى تهدم كافة الاستحكامات، ولهذا اضطروا للاستسلام.

أفرغت المدينة مما فيها في كانون الثاني سنة ١٧٠٨م/ ١١٢٠هـ، وانسحبت بقية الحامية، عندها ترك الجيش الحرية للأهالي في البقاء أو الرحيل إلى المرسى الكبير لإستكمال تحرير البلاد من الإسبان، وتوجه حسن الطويل بما لديه من قوات لمحاصرة المرسي الكبير، ونظراً لضيق المكان فقد تعرض الإسبان خلال ثلاث سنوات من الحصار للجوع وقلة المياه، فاضطروا للاستسلام.

وفي السادس والعشرين أسر حسن الطويل ألفي أسير من بينهم مئتا ضابط، وعدداً من فرسان مالطة، فعاد بهم إلى الجزائر، وقد استقبل الجزائريون خبر النصر بالأعراس والأفراح، وأقام القنصل الإنكليزي التنويرات والزينة على مدى ثلاثة أيام بغية التقرب من الديوان الجزائري.

أرسل داي الجزائر مفاتيح وهران الثلاثة والمصنوعة من الذهب إلى استانبول، واسترحم السلطان بمنح لقب الباشا لوالد زوجته حسن بك

الطويل مكافأة له وتقديراً لعمله ، وأدرك السلطان بأنه إذا منحه لقب باشا[1] ، فسيحرم هو منها[2] .

أُعُجب السلطان أحمد الثالث بخبر فتح وهران ، وأثنى على مجاهدي الأوجاق ، فأرسل لهم قاليون وكمية من الذخيرة والبارود[3] .

يذكر تاريخ رشيد المجلد الثالث الصفحة ٢٥٨ ما يلي : ترتفع قمة برج قلعة وهران إلى السماء وكان في القلعة عشرون ألف محافظ من الحامية الإسبانية ، وأما العربان الذين يقيمون في الجوار فهم من المرتدين ، ولم يتم ضبطها حتى ذلك الوقت ، وكان في مينائها ٢٠٠ قليون ، لأن اتساع ميناؤها يستوجب توفر هذا العدد الكبير ، وعلى النهر الذي يمر ضمن المدينة عدد من الطواحين والممالح ، وتمتد أراضيها على ساحة كبيرة تقدر بأربعة عشر فرسخاً وهي أرض خصبة جداً ، فاحتلال هذا المكان يساعد على حفظ الأمن من ناحية ومن ناحية أخرى يساعد على تدارك مصاريف العسكر .

لقد قُرر احتلال القلعة فجهزت المعدات اللازمة لاحتلالها ، وبعد استكمال تلك التجهيزات ، بدأ الزحف في شهر شوال سنة ١١١٩هـ باتجاه وهران بجيش يضم عشرة آلاف تركي وخمسة عشر ألف مقاتل محلي من سكان القبائل ، يصطحبون معهم مائة وخمسين مدفعاً وخمسة عشر مدفعاً قديماً ، وبعد قتال انهزم العدو من خارج القلعة إلى داخلها ، وبعد أربعة شهور من الحصار ، تمكن مجاهدوننا من السيطرة على البرج الأحمر (قزل برج) وهو

(١) يقول دي غرا ممونت ، أعاد محمد بكطاش الفرمان لأن الباشوية منحت له ، ولم تمنح لوالد زوجنه ، ويفهم من القُرمان أدناه بحدوث مثل هذه المعاملة ، ومن المحتمل ألا يكون حسن بك الطويل حصل على الرتبة التي أرادها .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١١٦/ ص ١٠٣. إلى داي جزائر الغرب الداي محمد بكطاش دام إقباله حكم ، فهم من الرسالة التي أرسلها مجاهدو وآغوات وقباطنة أوجاق جزائر الغرب ، بأنه تم تحرير وهران من الكفرة الإسبان الموجودين فيها منذ عهود ، وقد تم نقلهم وطردهم وانتزاعها من أيدى الكفارة ، أما مفاتيح القلعة فقد أرسلت إلى دار الدولة ، وإننا نثنى عليهم جميعاً تقديراً لشجاعتهم وحماسهم ولهذا أرسلنا إليكم قاليونة وكمية من البارود ، وبهذا الخصوص نرى ضرورة الاتحاد والاتفاق بين أوجاقات الغرب فيكون ذلك من أسباب المبادرة إلى التوفيق ٠ صفر ١١٢١هـ

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١١٦/ ص ١٠٣٠

يسمى أيضاً ببرج الماء، وبعد شهرين احتلوا برج (موجاجو) وبعد خمسة عشر يوماً آخر، احتلوا المدينة. وبعدها بخمسة عشر وعلى مدار ثلاثة أيام متتالية احتلوا برج (قسطل نوفا، وقسطل روسون) وهما على ساحل البحر. وبعد ذلك بشهرين ونصف احتلوا ميناء المرسى الكبير. وخلال أحد عشر شهراً أصبحت جميع قلاع المدينة والمدينة بحوزتنا.

استشهد من جيشنا في هذه المعارك قرابة ثمانية آلاف شهيد، وكانت خسائر العدو خمسة عشر ألف قتيل وأربعة آلاف أسير، وقبضنا على أكثر من ألف ومائتي مرتد من العربان، وأثناء الحصار استولت سفننا على قليون وسفينة للإسبان كانا ينقلان البارود إلى وهران، وعثروا في القليون على ثلاثمائة مدفع وكمية لا تحصى من المهمات الحربية.

وفي الرابع من شوال وصل إلى استانبول كل من قائد قباطنة الجزائر بارتنلي علي وقبطان السفينة رياله القبطان فلمنك علي (علي الهولندي) وقبطان السفينة بترونه فلمنك محمد (محمد الهولندي) وكانوا يحملون معهم مفاتيح وهران وبعض الهدايا الثمينة، وقُدم للقباطنة حلل فخرية. كما قدمت لهم التعينات (المصاريف) اليومية أيضاً، وظلوا حتى ذهابهم إلى بلادهم ينعمون في ظل السلطنة العلية مع كافة بحارتهم، وعند ذهابهم منحوا قليوناً طوله ٤٠ ذراعاً و٤٠٠ قنطار حديد و٤٠٠ قنطار بارود و٤٠٠ قنطار قنب و١٠٠ قنطار كعك (بقسمات).

بالرغم من هذه الانتصارات التي حققها الداي محمد بكطاش، لكنه مثل بقية الدايات الذين سبقوه، فالضائقة المالية والعجز المالي من أعقد المشاكل التي هددته، ففي سنة ١٧١٥م/ ١١٢٢هـ هرب أمير قسنطينة حسين شاويش بعدما أخذ ثروته والضرائب التي جمعها عن سنة ١٧٠٩م/ ١١٢١هـ[1]. وكان فرار حسين شاويش سبباً في قتل الداي محمد

---

(١) تركت حادثه هروب حسين شاويش أثراً كبيراً لدى الإنكشارية، فكتبوا لوحتين من المرمر وعلقوهما على قصر الجينية وذلك بحق الأفراد الذين يأخذون الضرائب وحقوق الشهداء وأموال فدية الأسرى ثم يهربون. وكتب على اللوحة الأولى! اللهم احفظنا يا نظير الحق إلهى عظيم الشأن أجملنا بالخير واليسر، إن أموال ورثة شهداء الجزائر وأشياءهم قسم منها يباع من قبل بيت مال المسلمين، ويجب أن توضع الأموال كأنه عند أمين بن عمر أوغلو صاحب =

بكطاش، فتمرد الإنكشاريون وهاجموا الداي وقتلوه، كما أنهم قتلوا والد زوجته حسن بك الطويل الذي هب لنجدته ومساعدته.

أصبح قاتل الداي دلـي إبراهيم (إبراهيم المجنون) داياً على الجزائر في ٢٢ آذار سنة ١٧١٠م/ ١١٢٢هـ، ولكنه لم يستفد كثيراً من حصيلة جريمته، وكان دلـي إبراهيم يشغل منصب آغا العرب، وهو رجل سفيه وظالم ومحب للدماء، فقد أمضى فترة حكمه التي دامت خمسة شهور بالقضاء على محاولات الاغتيالات التي رتبت ضده، وفي ١٢ آب حاول اغتصاب زوجة أحد الإنكشاريين، فأمرت أسيرها بإطلاق النار عليه، فأصيب الداي برصاصتين، ثم فرهارباً، لكن المرأة خرجت تصرخ وتستغيث طالبة النجدة، فهب الإنكشاريون من ثكناتهم ومنازلهم لإغاثة المرأة ونجدتها، وحالما علموا بالحادثة، هجموا على الداي، فدخل دلـي إبراهيم إحدى غرف القصر وأغلقها عليه ووضع خلف الباب بعض الأشياء محاولاً منع المهاجمين من الدخول، وحينما عجزوا عن الدخول، ألقوا عليه قنبلة من نافذة الغرفة، فأردته قتيلاً، ثم جروا جثته في شوارع المدينة[1].

انتخب الديوان سوكلي على شاويش (المعلول علـي شاويش) داياً، وكان رجلاً ذكياً ومنطقياً، ومن أكثر الأشخاص وأقدرهم على جذب الناس إليه، والتعلق به[2].

منذ عشرين سنة والمشاغبون واللصوص يملأون المدينة، ولكي يتمكن الداي علي من توطيد الأمن والاستقرار، فإن الأمر يتطلب منه ملاحقة هؤلاء

= السوق المقبي، وعندما يأتى صاحب السلام يأخذها بيده ويحفظها فى مخزن الأمانات وبعد أربعين سنة تنقل إلى بيت المال، وكل من يخالف ذلك لعنة عليه لعنة ملوكية وعليه لعنة الملائكة والناس أجمعين (أواخر رجب سنة ١١٢٢. غابرييل كولين ص ٧٨٠٧٧نمرة / ٤٨) اللوحة الثانية: إذا كانت النية عند أى أمير من أمراء الجزائر الهروب فإننا نحذره من ارتكاب مثل ذلك. وأن رأسه يسحق سحقاً لدى القبض عليه، ونقرأ اللعنة عليه وعلى أمثاله، ولا يحق له ولأمثاله أن يصبحوا أمراء. سنه ١١٢٢هـ غابرييل كولين مجلد واحد صفحة ٨٠ نمرة/ ٤٩/ .

(١) دى غراممونت.

(٢) مجموعة التاريخ العثمانى ص ٣١١. كان الريس على رجلاً ذا نفوذ، وصاحب شخصيته قوية، هجم على الداى إبراهيم ورمى عليه القنبلة، وقد قتل من جرائها عدا عن الدلي إبراهيم ثلاثمائة من الإنكشارية والقولوغلية، وبأمر من الريس جُرت جثة دلى إبراهيم فى أزقة المدينة.

السفلة ، وقتل منهم حوالي ألف وسبعمائة شخص ، فأنقذ المدينة من جرائمهم ، وبفضل هذا العمل استطاع إدارة البلاد بشكل سليم ومتين.

اعتقد الداي علي شاويش أن سبب ظهور هؤلاء الأشقياء في البلاد يعود إلى سوء استخدام أمير الأمراء لصلاحيته ، فهؤلاء الأشقياء حينما قدموا إلى الجزائر لم يكن نفس الامتيازات التي يتمتع بها زملاؤهم الذين سبقوهم في القدوم إلى الجزائر ولكي يحصلوا على امتيازات لجأوا إلى اتباع القتل والسطو بغية الحصول على نفوذ يضاهي ما يتمتع به الإنكشاريون القدماء ، كما انضموا إلى القتلة والمجرمين الموجودين في المدينة منذ زمن بعيد، ونتيجة لعدم ملاحقتهم وتأديبهم ازداد عددهم كثيراً إلى حد أصبحوا يخيفون الأهالي ويشكلون خطراً كبيراً على أمن البلاد .

عندما قدم شرقان إبراهيم باشا إلى الجزائر سنة ١٧١١م/ ١١٢٣هـ كأمير للأمراء ، لم يسمح له الداي بالنزول إلى البر[١]. وأخبره أنه في حال إصراره بالدخول إلى المدينة فسيقتله ، فانسحب شرقان إبراهيم باشا عائداً إلى استانبول ، وبعد فترة وجيزة من انسحاب شرقان إبراهيم ، أرسل الداي علي شاويش رسولاً محملاً بالهدايا ، إلى السلطان أحمد الثالث ، وقد زود الرسول برسالة يشرح الأسباب التي دفعته لمنع إبراهيم باشا من دخول الجزائر، والخطورة الناجمة عن شخصين للسلطة في آن واحد، واسترحمه بالإحسان عليه بأمرة الأمراء .

إن قوة الحجة لدى علي شاويش مع الهدايا أقنعت السلطان بوجهة نظره ، فمنح علي شاويش إمرة الأمراء إضافة إلى منصبه كداي، ومنذ ذلك التاريخ أصبح اسمه علي باشا[٢] .

أصبح حكام الجزائر يجمعون منصب أمير الأمراء والداي بشخصهم ، غدا يقال في الفرمان القادم من استانبول إلى أمير أمراء الجزائر ودايها .

---

(١) القنصل الفرنسي في الجزائر.

(٢) كنب دى غراممونت. بأن العاصفة نقلت سفينة شرحان إبراهيم إلى القالو ورمتها على الساحل فأصيب بالمرض ومات هناك ، ويذكر تاريخ رشيد مجلد ٣ صفحه ٣١٢ سنة ١١٢١هـ. عين إبراهيم باشا في (يانيه) ، ولا يعرف إذا كانت نفس الشخص أم شخص آخر بنفس الاسم .

وبهذه الصورة اكتسب الدايات لقب الباشوية ، فضعف نفوذ ديوان الجزائر، ولم يعد له أي قوة إجرائية أو تنفيذية ، وإنما أصبح ديوان شكلي فقط.

إلى داي تونس ومفتيها وقاضيها وعلمائها الكرام ، وإلى آغوات الإنكشارية والبلوكباشية ورؤوساء المشاة وإلى جميع الشيوخ والمسنين .
حكم: إن قيام اتحاد بين أوجاقات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب والواقعين في البلاد الإسلامية. ينال رضا رب العباد ، ويمكنهم من صرف أوقاتهم بالغزو والجهاد ، فاتحاد الأوجاقات الثلاث يجلب الاطمئنان إلى قلوب المسلمين ويخيف الكفار ، في الماضي وأثناء حروب الجزائر مع الكفار ، وقعت أعداد منهم أسرى. وهذا ما كان سائداً حسب قانون الحروب ، وفيما مضى أسرت القليونات الجزائرية عدداً من الكفرة ، فوضعوهم في قليونة ، وأرسلت معهم قليونة لحمايتهم وإيصالهم إلى الجزائر، ونزلوا في ميناء الجزائر عند الغروب ، وفي منتصف الليل هبت عاصفة على سواحل الجزائر، أسفر عنها انفصال القليونات عن بعضها البعض ، وفي اليوم الثاني شاهد بحارة القليونة سفينة تونسية ، فذهبوا إليها مطمئنين، ولكن السفينة المذكورة أسرتهم ونقلتهم إلى تونس وساوتهم بالرقيق ، وعندما علمت الجزائر بذلك أرسلت وفداً لاستعادتهم من تونس ، فوجدوهم يعاملون معاملة الرقيق ، هذا النوع من الاسترقاق مخالف لقانون الحدود والجيرة ، ولم يحدث مثله في السابق ، وعندماطالب الوفد بهم ، قالوا له: لقد أصبحوا من غنائمنا ، وعمل تونس عمل مخالف للشرع ولا يليق بالجيران وارتكاب مثل تلك الأعمال والقيام بها يولد الكراهية والحقد بين الأوجاقين كما أن هذه الحادثة تولد العداوة والشقاق والخلاف بين المسلمين ، ومن أجل ذلك ينبغي تلافي الخلاف وحله وليس هناك دواع للشرح والإيضاح. أرسلنا كبير البوابين. . . . دام مجده توجه إليكم حاملاً الأمر الشريف. أما الأسرى الوارد ذكرهم ، يجب إعادتهم إلى الجزائر بالحال ، والعمل على إقامة اتحاد وتفاهم فيما بينكم. . . . على الطرفين ترك النزاع والخلاف ، وعليكما الإتفاق والتفاهم بموجب الأمر الشريف. . . . .
حرر في ذي القعدة سنة ١١٠٤هـ[1] .

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١١٩/ ص ٥٧.

بالنظر للحكم الشريف، لم يحدث في هذه السنة حرب بين تونس والجزائر، كما أن تونس التزمت بمضمون الحكم الشريف وأعادت الأسرى إلى الجزائر، وكان علي باشا يواجه أزمة مالية خانقة، ولتأمين معاشات الإنكشارية، فكر باغتنام الفرص المناسبة.

سعى الداي جاهداً على زيادة أعمال القرصنة، لأن الإنكشاريين اعتادوا على إعلان عصيانهم وتمردهم ضد كل داي قوياً كان أم ضعيفاً، فهم لا يفكرون إلا بتأمين معاشاتهم في الوقت المحدد، لذلك عادوا إلى سابق عهدهم بالتمرد، ففي الثالث والعشرين من حزيران سنة ١٧١٣م/ ١١٢٥هـ تعرض الباشا للاغتيال أثناء خروجه من الجامع، فطارد المجرمين، فاحتشدوا في أحد المنازل، ودافعوا عن أنفسهم بقوة حتى أصابهم اليأس، فاضطروا لحرق المنزل بالبارود، وبعد لك تم شنق ثلاثين متآمراً من الذين تفرقوا في المدينة[١].

عزل علي باشا أمير صنجق قسنطينة علي بن صالح بك، وعين مكانه شخصاً يُعرف بلقب (كلاين) أو أبو لمية أي صاحب الخنجر الجديد، واسمه الحقيقي حسين بك، جاء إلى الجزائر بصفة آمر سنة ١١٢٦ هـ[٢]. يأمرهم بإرسال سفنهم لتحرير جزيرة مورة من البندقية، وطلب وقتها من ١٥٠ إلى ٢٠٠ بحاراً من المسيحيين ليعملوا في الأسطول العثماني[٣]. كما أعلن عن حاجته من ١٥٠ - ٢٠٠ مدفع وربما أكثر، وبلغ الأوجاق بضرورة تأمين ذلك للأسطول العثماني، كما طلب من الجزائر خمس عشرة سفينة ومن تونس وطرابلس ثلاث سفن من كل أوجاق[٤]. كما طالبهم بضرورة اصطحاب الفنيين الاختصاصيين والأخصائيين الماهرين بالمدفعية، ويجب إكرامهم حسب الأصول، كما أن أجور إحضار القليونات وأجور مدفعية البحارة المسيحيين تدفع من الميري (من أموال الحكومة).

---

(١) دي غراممونت.

(٢) يقول غوستاف مرسيه. ولاية قسنطينة مجلد، أن هناك كتابة مدونة بالعربية والتركية فى الجزائر حول حسين بك، لقد عمل ٢٣ سنة أميراً على قسنطينة، ولم يكن سيئاً في إدارته، قاد حروبا كثيرة مع القبائل ومع تونس وقد عين مكانه حسين بوحنك.

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة! ١٢٠ ص ٢٨٤ (أواخر ذى القعدة ١١٢٦هـ

(٤) بحارة مسيحيون يعملون بأجرة شهرية (مجموعة التاريخ العثماني ص ١٣٧٥).

إن تدارك نواقص الأسطول العثماني وما يحتاجه من مدفعية ومدفعيين من الأوجاقات الغربية، أمر محزن ويدعو للأسف والتألم. حاولت جميع الدول الأوربية عقد صلح واتفاق مع علي باشا، لكن الهولنديين الوحيدين الذين تمكنوا من عقد الصلح.

في الساعة الثانية من صباح ٣ شباط سنة ١٧١٢م/ ١١٢٣، تعرضت مدينة الجزائر لزلزال عنيف، وتهدم من جرائه الكثير من المنازل.

خلال هذه المصيبة نشب حريق، ومورست أعمال سلب ونهب لم تعرف مدينة الجزائر له مثيلاً، وأثناء زيارة الداي مع الشواش للأماكن والأزقة المتهدمة، اصطدموا مع جماعة السلب والنهب، وفي اليوم الثاني حدث زلزال آخر، فهرب السكان إلى خارج المدينة فقال أحد الجنود الأتراك، لقد حدث مثل هذا الزلزال منذ أربعين سنة، ولم يكف إلا عند قتل الداي، فتجمع المتضايقون من الحكم، وحاصروا علي باشا في برج يلدز (برج النجمة)، لكن الباشا تمكن من التغلب عليهم، وألحق بهم هزيمة منكرة بمساعدة من كان معه، وفرض عليهم عقوبات صارمة، وفي السادس والعشرين من شباط حدث زلزال آخر، وقد استمر هذا الزلزال مدة تسعة أيام[1].

وجد الرياس أن العمل في البحر هو الحل الوحيد لتغطية أضرار هذا الزلزال الذي أصاب الجزائر وتسبب في إفقارها ومجاعتها عدا عن ضحاياه، فشنوا الهجمات المركزة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط وسواحل البرتغال، وحصلوا على غنائم كثيرة من الإنكليز والهولنديين، فارتفعت أجور التأمينات البحرية كثيراً[2]. وقد أصدرت الحكومات الأوروبية إعلاناً بمعاقبة السفن التجارية التي تغادر الموانىء دون أن تكون مزودة بالمدفعية والرجال الذين يستطيعون الدفاع عن السفينة[3]. وقد تضايقت الجزائر من هذا الإجراء فأمسكوا القنصل الهولندي وصادروا أمواله البالغة من ٤٠ ـ ٥٠ ألف قرش ثم طردوه من البلاد، ورغم ذلك لم ينجُ الهولنديون في سفن نيدر لند (Niderland) من هجمات القراصنة.

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٢٠/ ص ٢٨٥ (أواخر ذى الحجة ١١٢٦هـ.)

(٢) الجريدة الفرنسية. حوادث لندن ٧ تشرين الأول ١٧١٦م.

(٣) دي غراممونت.

وواقع الأمر أن الجزائريين كانوا يؤمنون احتياجات سفنهم من بارود وذخيرة وأشرعة وغيرها من المساعدات من موانىء النيدرلندية[1] .

احتج السفير الهولندي ياكيموكونتكولار (Yakimokontekler) على تصرف الجزائريين وقدم شكوى رسمية للسلطان العثماني طالباً إيقاف مثل هذا العمل الذي يسيء للعلاقات بين دولته والدولة العثمانية، فأرسل السلطان فرماناً هدد بإعدام كل من يهاجم سفن نيدرلند وبعزل أمير الأمراء.

وفي ربيع عام ١٧١٧م/ ١١٣٠هـ قررت الدولة العثمانية إعلان الحرب على النمسا ودعت أوجاقات الغرب للاشتراك بهذه الحرب، فطلب عشرة قليونات من الجزائر وخمسة قليونات من تونس وثلاثة قليونات من طرابلس الغرب، وبغية إرضاء الأوجاقات، أرسلت إلى أوجاق الجزائر خمس وعشرين خلعة (حلة) ولتونس عشرين ولطرابلس الغرب ثلاث عشرة خلعة[2] .

حدثت سرقة في الجزائر خلال سنة ١٧١٧م. علاوة على ذلك فإن الوضع المالي في الجزائر جاء مطابقاً لمضمون الفرمان السلطاني[3] . وخلاصة القيد ما يلي: إلى أمير أمراء مصر حكم: تبين لنا من رسالة أمير أمراء الجزائر علي دام إقباله في الرسالة التي أرسلت إلى الجيش، أن بيت المال في الجزائر يعاني أزمة مالية شديدة، وقد فُقدت منه الأموال التالية: (٣٧ ألف قطعة ذهبية و٤٥ ألف روبية و١٩ قطعة من الخواتم والمجوهرات و٩ مسدسات مزدوجة و٧ بنادق غدارة (بنادق صغيرة) ووقيتين من اللؤلؤ، وقد قام بسرقتها أمين بيت المال الحاج محمد، وأرسل نصف هذه الأموال إلى أخيه الحاج أحمد في استانبول، ثم هرب إلى مصر، ودخل إلى أوجاق الغرب في القاهرة، لذا يطلب منكم تحصيل الأموال المسروقة).

أصيب علي باشا بمرض الملاريا، واستخدم كافة الأدوية التي وُصفت له، لكنه لم يشف من مرضه وتوفى في شباط سنة ١٧١٧م/ ١١٣٠هـ. قام المشار إليه بإدارة الجزائر بشكل جيد، وأسس في المدينة العديد من الأبنية،

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٢٦/ صفحة ٢٥٨ (أواسط محرم ١١٣٠هـ).

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٢٦/ صفحة ٢٥٨ (أواسط محرم ١١٣٠ هـ).

كما أنه تعرض قبل وفاته بعدة شهور لمحاولة اغتيال من قبل الإنكشاريين، فقد حاولوا حرق قصر الجينية، ولكنهم فشلوا بذلك. خلف علي باشا الخزنجي محمد أفندي بن حسن سنة ١٧١٧م/ ١١٣٠ هـ[١].

كان الداي محمد متعصباً وطماعاً ومتعجرفاً. وعقب انتخابه داياً، أرسل الهدايا إلى استانبول، فحصل غلى فرمان تعيينه أمير الأمراء.

عندما استلم الداي محمد الحكم كانت حالة الصناجق سيئة للغاية، وذلك بسبب الزلزال الذي حدث، وما تلاه من قحط استمرت سنوات، تلفت خلالها المحاصيل، وظهر الجراد، وانتشرت المجاعة في جميع المناطق، وحسب أقوال بعض الروايات، أنه تم بيع الإنسان في ذلك الزمن، كما أن القبليين عندما داهمهم الجوع اندفعوا إلى السهول لسلب ونهب ما فيها، فاضطر الداي لاتخاذ إجراءات قاسية وصارمة بغية إعادة الهدوء للمدينة[٢].

لم يترك الرياس علماً من الأعلام التي كانت تحملها السفن إلا هاجموها واستولى عليها.

---

(١) يوجد في متحف الجزائر أربع كتابات تعود إلى على باشا وهى:

أ ـ كتابة مصدرها مجهول ولكنها بخصوص إصلاح ديوان الإنكشارية كتب عليها هذا دار الجهاد في الجزائر المحروسة، أصلح بناء الديوان في زمن السلطان أحمد خان خاقاني ويدل هذا الأثر على قوة الحاكم الداى سوكلى على ثم أكمل البناء في سنة ألف ومائة وثلاث وعشرين / ١١٢٣هـ/ فى شهر مولد نبي الهدى. غابرييل كولين مجلد صفحة ٨٨ نمرة: ٥٠.

ب ـ مكانها مجهول ولكنها بخصوص بناء قصر أو مسجد: الحمد لله بدأ العمل في هذا البناء المبارك فى غاية الإتقان وحسن الصنع بأمر الهمام فخر الأمراء الكرام المؤيد بعناية الملك العلام الداى علي بن حسين سوكلى. كان الله له مؤيداً وذلك بتاريخ ربيع الثاني عام ثلاثة وعشرين ومائة ألف. غابرييل كولين مجلد (١) صفحة ٨٤ نمرة /٥١/.

جـ ـ الكتابة مأخوذة من برج الحاج على أو برج ملمول. حسن البديع قاهر على الأعادى ربى ناصر من جوف من هو قاهر قد تم بناه وساد نجمه طاهر فى دولة المولى الذى لا زال فعله يشكر السيد الباشا علي ين حسين قاهر فى شهر شعبان لا زال فصله ناشرا فى عام أربعة وعشرين ومائة وألف. غابرييل كولين مجلد (١) صفحة ٨٤ نمرة / ٥١/.

د ـ أخذت الكتابة من الكتب الموجودة فى صو ميدانى (ميدان الماء) الحمد لله أمر ببناء هذا المكتب الأمير السيد على باشا نصره الله سنة ١١٢٥هـ (غابرييل كولين مجلد (١) صفحة ٨٨ نمرة /٥٤/.

(٢) غابرييل كولين مجلد (١) ص ٨٩.

عرف اليهود طمع الداي وحاجته للنقود، فأغرقوه بها، واحتلوا لديه مكانة خاصة وكان آنذاك رئيس الجمعية اليهودية يودا كوهين، وهو من الأذكياء، عمل كوسيط لجميع الدول وخاصة هولندا، وكان للفرنسيين قنصل محتال إسمه (بوم) أخذ يتظاهر بالتضحية والتعاطف مع اليهود، فتقرب منهم محاولاً استغلالهم، لكنه فيما بعد كسب عداوتهم، إضافة إلى ذلك فقد كان مكروهاً حتى من قبل أبناء وطنه، ورغم ذلك فقد كان بمقدور الفرنسيين القيام بجميع أعمال التهريب بسهولة، فمنع القنصل رعاياه من تهريب أي شيء مهما كان، قائلاً لهم إن هذا العمل يضر بسمعة فرنسا والملك الفرنسي[1]. فحقد عليه الجميع، وقدموا شكاوى بحقه، فاستبدلته الحكومة الفرنسية وعينت مكانه قنصلاً عجوزاً يسمى ديسولتو (Dessolü) ووصل الجزائر في كانون الأول سنة ١٧١٩م/ ١١٣٢هـ ومعه عدد من الأسرى الأتراك، وقد تمكن ديسولتو من تحسين العلاقة ما بين الجزائر ودولته، فجدد المعاهدة في ٢٣ كانون الأول سنة ١٧١٩م/ ١١٣٢هـ ووقعها من قبل رؤوساء الدولتين.

لقد سعى الفرنسيون للحصول على معاملة خاصة، فهم يريدون الحصول على امتيازات في الجزائر، ويريدون حماية سفنهم من هجمات القراصنة، ولكن القراصنة لم يكترثوا بهداياه التي قدمها للداي والديوان، معتمدين في تصرفهم على تأييد السلطان العثماني لهم.

وفي سنة ١٧٢٠م/ ١١٣٣هـ أرسلت فرنسا كمية قليلة من البنادق والسكاكر والمأكولات، على عكس القنصليات الأخرى التي كانت تصرف سنوياً ما يعادل أربعين ألف ليرة[2].

راجع الهولنديون استانبول بشأن إقامة الصلح مع الجزائر، فكلف السلطان أحد كبار البوابين بالذهاب إلى الجزائر، لكن الداي تصرف مع مبعوث السلطان تصرفاً أشبه بالدور الكوميدي، وقبل إعطائه الجواب، جمع الديوان وقرأ عليهم فرمان السلطان، فوافق الديوان على عقد الصلح مع جميع الدول، شريطة أن تدفع الدولة العثمانية معاشات الإنكشاريين، وأن

---

(١) الغرفة التجارية في مرسيليا مخزن الأوراق. سان جان بوم.

(٢) دي غراممونت.

تدفع بدل الأسرى الموجودين في الجزائر، فشعر كبير البوابين بأنهم يسخرون منه، فهددهم بمنعهم من التسجيل على العساكر في إزمير، فأجابه الداي قائلاً: (العساكر الذين يدخلون من باب عزون في كل يوم يفوق ما تجمعه إزمير من العساكر في سنة). فعاد كبير البوابين دون أن يحقق شيئاً من مهمته[1].

أقامت الحكومة العثمانية الصلح مع حكومتي النمسا والبندقية في سنة ١٧١٧م/ ١١٣٠هـ ونصت المعاهدة على حرية تجول سفن البندقية بأمان، وفي الحقيقة فقد كان الأوجاقات الثلاث في حالة حرب وخصام شديد مع البندقية، وكانت حكومة البندقية تدرك ذلك جيداً، وتعلم عليم اليقين أن الأوجاقات لن يتقيدوا بأوامر السلطان ولن ينفذوا ما يطلبه منهم، ولهذا الحت على سفيرها في استانبول إيجاد حل سريع للمشكلة القائمة ووضع حد لكراهية الأوجاقات لها. لأن جميع الأهالي طالبوا حكومتهم بوضع حد للنزاع الدائر مع الأوجاقات، ووضع حدود لا يحق للقراصنة تجاوزها، وإذا حدث واعتدوا عليهم ضمن الحدود الموضعة يعلمون الدولة العثمانية لتتحمل مسؤوليتها تجاه موافقتها على عقد المعاهدة معهم، وطالب الأهالي بأن تكون الحدود على الشكل التالي: [2]

من سواحل بوليه الواقعة على خليج البندقية، ومن كابو سانتا ماريا[3]، والممر الموجود من جهة الجنوب حتى كارنة الواقعة على بعد ثلاثين ميلاً من زاكلية وثلاثين ميلاً جنوب جزر ميتون، ومن ميتون إلى ممر كوستو (جوستو) وعلى بعد ثلاثين ميلاً من جزيرة كريت وحتى إزبانديد، ومن إزبانديد إلى شوبانلار (منطقة الرعاة) وكيريه[4]. ومن رودس حتى الرؤوس السبعة[5]. وتكون الحدود ضمن موانىء الممالك الإسلامية من قبرص إلى الإسكندرية

---

(١) دى غراممونت.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٢٩ (أواخر ربيع الاخر سنة ١١٣٢هـ)

(٣) وهى جزيرة كابو سانتا ماريا، وإذا كانت هى رأس سانتا ماريا الجديد فتقع إذن جنوب شرق إيطاليا كما هو واصح من خرائط القاموس التاريخى.

(٤) جزيرة كيرية وهى كاربا توس وتقع جنوب غربى رودس. أماتوبانلار فهى كاسوس.

(٥) الرؤوس السبع وتقع على سواحل الأناضول جنوب رأس مكرى (Mekri).

فصيدا فاسكندرونة حتى أنطاكية مروراً بطرابلس الشام وعلى بعد ثلاثين ميلاً من سواحل وقلاع هذه المواقع ، وضمن تلك الحدود يحذر على القراصنة الاعتداء على سفن البندقية .

قبلت الدولة العثمانية الحدود التي وضعتها البندقية دون إبداء أي تعديل ولا حتى تردد ، وعلى الفور أصدر السلطان فرماناً سلطانياً يأمره بالالتزام والتنفيذ ، كذلك فقد فشل الأميرال الهولندي سومرس ديسك بأسطوله الضخم من منع القراصنة من ممارسة غزواتهم ، لقد تجاهل القراصنة الفرمانات السلطانية تجاهلاً تاماً ، وخاصة الفرامان الصادر عن البندقية ومارسوا أعمالهم البحرية كالمعتاد ، فكما هو معروف فقد أسس القراصنة قاعدة لهم في جزر الرأس الأخضر وجعلوها محطة استراحة واقتناص للسفن القادمة من الهند ، ولم يكن عملهم هذا سراً .

تخوفت إنكلترا من اتخاذ القراصنة جزر الرأس الأخضر مركزاً لهم ، فأرسلت عدداً من قطعها الحربية الضخمة ، وطردت هؤلاء الضيوف من هناك بدون أي تكاليف باهظة[1] .

تمكن قائد متيجة من القضاء على التمرد الذي قام به القبليون ، وذلك من خلال استخدامه لأسلوب العنف والقسوة الذي اعتمده منذ ثلاث سنوات ، وطرد المتمردين إلى الطرف الآخر من نهر إيِّسر.

عمل الداي محمد باشا على تدعيم سلطته ، فقد رمم القلاع والحصون ، وبنى استحكامات جديدة ، كما أنشأ برج الحراس ، وخلال تلك الفترة تعرضت الجزائر لوباء شديد ، اعقبه قحط عام ، فمات عدد كبير من الأهالي ، كذلك فقد بدأ الموت ينتشر بين الأسرى ، فارتفعت من جراء ذلك فدية الأسرى ، وكان لدي أصحاب السفن حوالي ٢٠٠ بحار ، طلبوا فدية عن كل شخص ١٢٠٠ إيكو.

تعرضت الجزائر (مدينة الجزائر) لحريق مدهش ، دمر أكثر من ربع المدينة ، وعلاوة على ذلك فقد كانت الولاية الشرقية تعيش وسط حالة من الدمار والاقتتال لم تعرف مثيلاً في تاريخها ، فأمير قسنطينة حارب التونسيين

---

(١) دي غرامونت .

من جهة وقبيلة الحنانشة من جهة أخرى ، بينما كان القحط والفقر يعض الأهالي بدون رحمة .

اعتادت الجزائر على التمرد والعصيان وخاصة في فترة الفوضى والفقر ، لذلك أقسم بعض الرياس على قتل الداي محمد باشا لأنه عاقبهم بشدة ، ففي الثامن عشر من آذار سنة ١٧٢٤م/ ١١٣٧هـ وفي تمام الساعة العاشرة صباحاً ، بينما كان الداي يتجول وسط التحصينات أصابته رصاصة بين كتفيه ، أردته قتيلاً ، واستمر المتمردون يطلقون النار على مرافقيه ، وقتل في حينها عدد من الشواش والخوجات ، وهرع العصاة إلى قصر الجينية مباشرة ، لكن الخزندار بالرغم من إصابته ، كان قد وصل إلى القصر قبلهم ، فأغلق الأبواب في وجوههم ، وأعلن عبدي الأعمى داياً جديداً على البلاد ، وكان عبدي الأعمى يشغل منصب آغا السباهية ، فأصدر الداي الجديد أمراً بإلقاء القبض على قتلة محمد باشا ، وبالفعل فقد تمكن الحراس من إلقاء القبض على جميع المتمردين فقطع رؤوسهم جميعاً[1] .

---

(١) دي غرامموت يقول إنه يوجد كتابتان باسم محمد باشا الأولى عندما كان خازن على باشا وذلك لدى إكماله ثكنة الكرابس ، والكتابة الثانية موجودة فوق باب طابية الماء . الأولى سنة ١١٢٥هـ والثانية سنة ١١٣٥هـ .

- ٧ -

عهد الدايات

عبدي باشا ـ مجيء الأميرال غوده (Gode) ـ على باشا التونسى ـ أصلان محمد باشا (الأسد محمد باشا) ـ قرارات الديوان الهمايوين ـ الهجوم الإسبانى وضياع وهران ـ وفاة عبدى باشا ـ الداي إبراهيم باشا ـ مقاومة الإسبان فى وهران ـ الهجوم على تونس ـ الخلاف مع الفرنسيين ـ مغامرة الملازم صورن (Soren) ـ وفاة إبراهيم باشا .

انتخب الداي عبدي في التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١١٣٦هـ/ ١٧٢٤م وهو ذو شخصية عسكرية قوية ، وطباع جيدة وروح رقيقة ، ولكنه مع الأسف كان مدمناً على الأفيون ، ونتيجة لهذا الإدمان ، كان يُصاب بنوبات جنون مدهشة[١] .

حاول الهولنديون الاستفادة من تغيير أمير الأمراء ، فأرسلوا الأميرال (غوده) مع خمس سفن حربية إلى الجزائر، بغية عقد الصلح ، وفي الثالث من أيار أدى التحية المعتادة لميناء الجزائر، لكنه لم يتلق جواباً ولا استقبالاً حسناً ، فغادر البلاد في التاسع منه ، وفي الخامس من أيار عندما كان الأميرال غوده في الميناء ، وصل سفير هولندة (أنديرزل Anderzel) ومعه شخصان من كبار بوابي الباب العالي يحملون معهما حلة وفرمان تعيين عبدي أمير أمراء الجزائر[١] . وكان قصد السفير من القدوم إلى الجزائر الحصول على أموال

(١) دى غراممونت .

السفن التابعة لجمعية أوستاند التي استولى عليها الرياس.

نفذ مبعوثا السلطان الجزء الأول من مهمتهما، وأثناء اجتماع الديوان قدما للداي الفرمان والحلة والسيف المرصع، وبعد عدة أيام طلب السفير البدء بالمباحثات بحضور مبعوثي السلطان للحصول على طلباته، لكن الإنكشاريين بدأوا يصرخون هاتفين بصوت عالٍ (بماذا سنعيش، لماذا يتدخل السلطان بأمورنا، عندما تعرضنا للقصف ثلاث مرات لم يرسل لنا الإمدادات والمساعدات) واستمروا في صراخهم. وكان الداي خلالها يتظاهر بإسكاتهم، لكنه بالحقيقة كان يشجعهم ويحرضهم على ذلك، وفي النهاية عاد السفير مع البوابين إلى استانبول دون الوصول إلى نتيجة. إزاء ذلك اضطر الهولنديون والسويديون للعودة إلى أسلوب اللين، فقدموا الهدايا الكثيرة من أجل الحصول على الصلح.

قدم السويديون ثلاثين ألف قرش نقداً من غير الهدايا التي قدموها حتى تمكنوا من تحويل الهدنة المؤقتة إلى معاهدة صلح. وبموجب المعاهدة التي عقدها الهولنديون مع الجزائريين، أصبحوا من أكثر الدول التي تتحرك ضمن البحار ولكن بحرية محدودة[1]. إلا أن الجزائريين لم يكونوا ممنونين من تصرف الداي، بحجة أنه خالف أمير المؤمنين (أي السلطان العثماني) فأعلنوا الثورة عليه، وقام بتحريضهم كل من المفتي وآغا الإنكشارية، فألقى الداي القبض عليهم وعلى أنصارهم وأعدمهم جميعاً.

ألقى فرسان مالطة القبض على سفينتين جزائريتين سنة ١٧٢٩م/ ١١٤٢هـ، وكانت بعض الشائعات تقول: بأن بالفرنسيين اشتركوا وساعدوا فرسان مالطة للقبض على السفينتين الجزائريتين، فبادر الداي من

---

(١) مجموعة المعاهدات مجلد (١) صفحه ١٥٦. عقدت الدوله العثمانيه معاهدة مع السويد في منتصف رمضان سنه ١١٤٠هـ/ ١١٢٤م والمادة / ١٧/ من المادة تنص على ما يلي. المادة / ١٧/. من أجل حفظ وصيانه تجار السويد وبموجب هذه المعاهدة التى عقدت ١٧٢٧م/ ١١٤٠هـ، وعلى ضوء المعاهدة التى عقدتها النمسا مع الدولة العثمانيه والمؤلفة من خمسة شروط. تتعهد الدولة العثمانيه بتنفيذ كامل بنودها. كذلك فإن حكومة السويد تطالب بتنفيذ الشروط السالفه الذكر. التى تنص على أن تحرك الأوجاق ضد السفن التابعه للسويد يعتبر مخالفه لكافة الشروط وعلى الدولة العثمانية تحمل ما تنص عليه بقيه المواد. كما أن الدولة العثمانيه تتكفل بتسويه الخلافات مع الأوجاقات والزامهم بتنفيذها.

توه إلى الإستيلاء على قيادة السفن الفرنسية المرابطة في ميناء الجزائر، كما هاجم أيضاً بعض السفن الفرنسية الموجودة في سواحل البروفانس، وألقى القبض على عددٍ منها.

في سنة ١٧٢٩م/ ١١٤٢هـ قرر الديوان تعيين وإرسال أمير الأمراء جديد إلى الجزائر، لأنه تضايق من عصيانات الجزائريين ومؤامراتهم، وكثرة الشكاوى الواردة في بعض الدول الأوربية، وبهذا القرار يكون الديوان الهمايوني قد قلل من نفوذ الداي وكسر شوكته[١].

بالأصل عين محمد باشا أمير أمراء الجزائر، ووصل إلى الجزائر في عشرين حزيران سنة ١٧٢٩م يرافقه كبير البوابين وما يقرب من عشرين موظفاً لتولي المناصب كبديل عن بعض الموظفين مما كان الداي يعتمد عليهم في التمرد على قرارات السلطان، وحينما علم الداي بقرار الديوان الهمايوني ووصول السفينة إلى المياه الجزائرية، أرسل المفتي ليخبر السفينة بالرسو في رأس ماتيفو، وأنه غير مستعد لتنفيذ القرار الهمايوني، وفي حال حدوث عكس ذلك فإنه سيقصف سفينتهم بالمدفعية.

اجتمع ديوان الجزائر بنفس الوقت، وكتب رسالة إلى الديوان الهمايوني معبرين فيها عن رفضهم للباشا المذكور، وسلموا الرسالة إلى كبير البوابين بعدما خصصوا له سفينة أخرى تنقله إلى استانبول لعرض رغبتهم على السلطان[٢].

بدأ تمرد حكومة الداي عبدي الأعمى قبل ذلك، وقد ازداد عما قبل لدى وصول أنباء تبديل حكومة الداي، ومن خلال هذا التغيير الذي تنوي الحكومة العثمانية إحداثه وما يقابله من رفض، فإنها ستُجبر جميع أوجاقات الغرب على قبول الصلح مع النمسا، وبالفعل فقد بلغت الأوجاق عن ذلك بالفرمان الوارد، ويوضح الفرمان نقاط الاتفاق بين الدولة العثمانية والنمسا من جهة وبين النمسا وأوجاقات الغرب من جهة أخرى.

إلى أمير أمراء جزائر الغرب ودايها ومفتيها وقاضيها. . . إلخ. . . حكم

---

(١) دي غراموت.

(٢) دي غرامونت.

تعهدت الدولة العلية لأمبراطورية روما بالإتفاقية المبرمة معها بحرية حركة تجارها عن طريق البر والبحر، وبما أن أوجاقات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، تابعة للدولة العليا، لذلك أدخلها الديوان الهمايوني ضمن تعهده، ونحن نعلمكم مقدماً بالأمر الشريف، ولكي يؤكد الديوان الهمايوني على شروط المعاهدة وتنفيذها بكل دقة، أنتم ستعقدونها حسب قواعد وقوانين الأوجاق، وألا تقيموا مصالحة أخرى مع الأمبراطورية المذكورة إلا عن طريق دار سعادتنا، وقد كلفنا قبطان الجزائر القبطان بكر الموجود بدار سعادتنا بالتوجه إليكم ومعه الفرمان، ومُنح صلاحيات واسعة بهذا الشأن، فعليكم إرسال الوكلاء المشار إليهم إلى دار سعادتنا، وبناءً على طلب الأمبراطورية المشار إليها سيأتيكم من طرفها الوكيل المفوض، ولهذا يستحسن أن تتقيدوا جميعاً بالنظام والأصول المتبعة، والأمبراطورية المشار إليها لا تُقاس بسائر الدول المسيحية، فعليكم مراعاة الشروط الهمايونية كما ينبغي، وإقامة السلام والصداقة بكل تأكيد، وإن قواعد وقوانين أوجاقكم ستكون القدوة بالنسبة للأمبراطورية المشار إليها وعلى أعين كافة مسيحيي العالم. وحتماً ستكون العواقب سليمة والنتائج مرضية، وسوف نعيّن من طرفنا وكيلاً مفوضاً يأتي إلى طرفكم ويرافقه أحد كبار بوابي الباب العالي. . . . كما تم تكليف القبطان الوزير مصطفى باشا بالتوسط لعقد هذا الصلح ووضع بنوده ودساتيره. . . . . وبعد تعيين الوكيل المشار إليه ووصوله إلى طرفكم إن شاء الله ستعينون وكيلاً مفوضاً من قبلكم، وبواسطة كبير البوابين ستتم المباحثات مع وكيل الأمبراطورية ومن المستحسن عقد المعاهدة حسب هذه المفاوضات وعدم الانحراف عما لا يقره الأمر الشريف حرر في أواخر رمضان سنة ١١٣٧هـ[1].

لقد أرسُل الفرمان إلى أوجاقات الغرب الثلاثة، وفي هذه الأثناء استولت سفن تونس وطرابلس الغرب على قليون نمساوي[2]. وبناء على بنود المعاهدة طلبت النمسا من الأوجاقات التقيُّد بالشروط التي نصت عليها المعاهدة، وبخصوص هذا الموضوع أرسل وكيل من طرف حكومة النمسا

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٣٢/ ص ٣٣٨ (أواخر رمضان ١١٣٨هـ)

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٣٢/ ص ٣٣٨ (أواخر رمضان ١١٣٨هـ).

ومعه موظف من طرف الحكومة العثمانية إلى الأوجاقات.

توجهت الهيئة إلى الجزائر أولاً واجتمعت مع ديوان الجزائر، وناقشت طلب السلطان، فرفض الداي عبدي الأعمى هذا الطلب رفضاً باتاً، باعتباره رئيساً لديوان الجزائر، ورفض عرضه حتى على الديوان، فذهبت الهيئة إلى تونس.

في تونس اجتمع كبير البوابين إسماعيل ووكيل أمبراطورية روما وأخذ آغوات القبطان باشا الآغا إسماعيل إلى الديوان واجتمعوا مع الطرف التونسي لثلاث جلسات متتالية، وفي النهاية أسفرت النتيجة عن عقد معاهدة تتألف من ثلاث عشرة مادة، ووقعت المعاهدة في الخامس عشر من محرم سنة ١١٣٨هـ، واشترط ديوان تونس وصول نسخة مصدقة خلال خمسة عشر يوماً، خاف الديوان الهمايوني من تأخر وصول النسخة المصدقة في الوقت المحدد، وإلا فإن ديوان تونس سيلغي هذه الاتفاقية، وفي أواسط ربيع الآخر أرسل فرمان من الديوان الهمايوني إلى تونس[١]، يطلب منها مراعاة التأخير، لأن أحداثاً جرت في ولاية بتش(Peç) الواقعة في الأقاليم الأخرى من النمسا وإن تأخير النسخة المصدقة لا يعني عدم موافقة الأمبراطور على شروط المعاهدة، لقد رأى السلطان العثماني أن إقامة المعاهدة مع النمسا عمل جيد، فأصدر فرماناً بإبقاء أمير أمراء تونس في منصبه، ويؤكد عليه مراعاة الصلح مع النمسا[٢].

بعد انتهاء أعمال كبير البوابين إسماعيل من تونس توجه إلى طرابلس الغرب ونتيجة للعاصفة التي داهمت سفينته، تصدع عمود الميسرة فتسرب إليها الماء وبلغ ارتفاعه في داخلها من ثمانية إلى تسعة أشبار، فغدا أمر الذهاب إلى طرابلس الغرب مستحيلاً، وسارت الهيئة بسفينتها مع اتجاه الريح حتى وصلوا ميتون، وفي ميتون بدأ بإصلاح السفينة، وعرضوا ما حدث لهم إلى استانبول، فجاءهم الجواب بالعودة إلى استانبول بعد إصلاح السفينة بأقصى سرعة ممكنة وإرسال رجل من طرفهم إلى طرابلس الغرب لإبلاغ حكامها بمضمون الفرمان السلطاني، وبناء على هذا الطلب عادت الهيئة مع كبير

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٣٣/ صحيفة ٤٤ (أواسط ربيع الأول ١١٣٨هـ).
(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٣٣/ صحيفه ٨٤ (أواسط جمادى الآخر ١١٣٨هـ)

البوابين ووكيل النمسا إلى استانبول[١].

التزم سكان طرابلس الغرب بأوامر السلطان وقالوا (إن أعمال الأوجاقات نديرها بمعرفة قبطان داريا، ونحن نفوض القبطان مصطفى باشا بذلك)، فأقام مصطفى باشا مع خادم الباب العالي ومندوب النمسا معاهدة بنفس شروط معاهدة تونس[٢].

غضب الديوان الهمايوني من الجزائر؛ لأنها رفضت إقامة الصلح، ولكنه اضطر لاتباع أسلوب المداراة معها علها تعود إلى الطاعة، وحُمل كبير البوابين مسؤولية عدم إفهام الجزائريين كيفية الخضوع والاستجابة لطاعة السلطان، وأُرسل فرمان جديد إليهم يبحث الموضوع السابق وجاء فيه (حسب زيارة الأختصاصي وقبل إطاعة الجميع للفرمان الهمايوني، فإن الفساد والخلاف انتشر وظهر الاستبداد) وكلف القبطان باشا يرافقه كبير البوابين بإيصاله إلى الجزائر[٣]. وفي هذه المرة وافق الجزائريون على عقد الصلح، وأرسلوا كتاباً يفوضون القبطان باشا مصطفى باشا بعقد الصلح مع النمسا.

وبالاستناد إلى هذا التفويض عقد مصطفى باشا اتفاقية مع مندوب النمسا ووكيل الباب العالي بنفس شروط معاهدة تونس، وأرسل القبطان باشا مع آغا السلام خبراً إلى الجزائريين يعلمهم بعقد معاهدة الصلح مع النمسا وضرورة التمسك بتصديق المعاهدة من الأمبراطور النمساوي[٤].

لدى وصول بنود المعاهدة إلى الجزائر، لم يُسر الجزائريون كثيراً بشروطها، فتراجعوا عن تفويضهم مطالبين ببعض الشروط المخالفة لتونس وطرابلس الغرب فأخبرهم الديوان الهمايوني بضرورة قبول شروط تونس وطرابلس الغرب[٥]. لكن الجزائريين أصروا على شروطهم ونتيجة لإصرارهم، ومن أجل الموضوع الذي تم بحثه أعلاه، عين الديوان

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٣٣/ صفحة ٢ (أواسط صفر ١١٣٨هـ).

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٣٣/ صفحة ٢١٧ (أواخر رمضان ١١٣٨هـ).

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٣٣/ صفحة ٢١٦ (أواخر رمضان ١١٣٨هـ).

(٤) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٣٣/ صفحة ٤٨٩ (أوائل جمادى الآخر ١١٣٩هـ).

(٥) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٣٥/ صفحة ٢٨١ (أواخر شعبان ١١٤١هـ).

الهمايوني محمد باشا أمير أمراء على الجزائر، وقبل ذهابه إلى الجزائر لاستلام منصبه وقع المعاهدة، ولكنه ما لبث أن عاد إلى استانبول ثانية دون أن تطأ قدماه تراب الجزائر، وشرح للديوان الهمايوني المعاملة التي لقيها، ثم سلمه الرسالة المرسلة من قبل ديوان الجزائر من عبدي باشا.

طلب الديوان الهمايوني فتوى شرعية بحق معاملة داي الجزائر، وجاءت الفتوى (يؤخذ الإيمان من يديه، واستيلاؤه على الإمارة إدعاء باطل يعاقب عليه) وبناءً عليه فقد أصدر شيخ الإسلام عبد الله أفندي فتوى بحق داي الجزائر جاء فيها «أنه رجل باغٍ ويقوم بالنصب على الولاية عن طريق الدولة، وعليه يجب تطبيق الشرع الشريف بحقه». وبموجب ذلك توجب إعادة بحث المسألة من جديد، وقد عمم الفرمان الوارد أدناه على سائر الممالك العثمانية، والمتضمن عدم إعطاء عساكر الجزائر وبحارتها أي شيء مما يحتاجونه، ومنعهم من الاقتراب من سواحل وجزر المتوسط والممالك العثمانية، كما أن الديوان الهمايوني مصمم على إرسال عساكر لقتال الجزائريين بسبب إصرارهم على العصيان والتمرد وعدم إطاعتهم للأوامر الصادرة.

إلى الوزير عبد الله باشا أمير صناجق عابدين وفتشة وتكه وإلى جميع القادة الموجودين في صنجق تكة وإلى قادة الإنكشارية وضباط الميناء وسائر الضباط والأعيان والشيوخ الكرام حكم:

إن ولايات تونس وطرابلس الغرب والجزائر من فتوحات أجدادنا الأماجد، وكما هو معروف فإنه يتم في كل سنة تعيين أمير أمراء لكل ولاية من طرفنا، ويكون من القادة المسلمين، والمعين عليهم يبذل كل جهوده وإمكانياته في الليل والنهار من أجل حماية ممالكنا المحروسة ومحاربة الكفار، وكان يلفت أنظار الجميع للعناية به، وكان صاحب السعادة وهو السلطان يعتني به أيضاً، ويترحم للفقراء والمظلومين عندهم ويرسل لهم السلاح والسفن والمدفعية والذخيرة ويمدهم بجميع المساعدات والإعانات، ويسمح لهم بالخروج والدخول والذهاب والإياب إلى جميع الموانىء الإسلامية بدون سؤال ومزاحمة، فكانوا يشحمون ويزيتون سفنهم، وإذا دعت الحاجة يأخذون المعدات والآلات اللازمة لسفنهم، ويأخذون

الأغذية، ويحصلون على البحارة والعساكر أيضاً، وكان البـاب العالـي قد سمح لهم بكل هذه الأشياء.

قبل الآن ونتيجة لطلب الدايات فيهـم، تم توجيه إمـرة الأمـراء إلـى الدايات في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، ولكن منصب أمير الأمراء قد انحرف وبانحرافه وجّهنا إلى بعـض الألويـة والولايـات وزراء عظام وبعض الأمراء من ذوي الاحترام ليشغلوا هذا المنصب لمدة معينة من الزمن، وبعد انقضاء هذه المدة يعيـن غيرهم، ولا يوجد في الدولة قاعدة أو قانون يمنحهم هذا المنصب إلى الأبد، وبناءً عليه ولدى انتهاء مدة آخـر أمير للأمراء في كل من تونس وطرابلس الغرب، عيّنا أمراء جدداً وأرسلناهم فتم استقبالهم لدى وصولهم، وأقيمت لهم المراسيم المتبعة، واستلموا مناصبهم كالمعتاد، أما داي الجزائر فقد خرج عن الطاعـة الجـدية، ورفض استقبـال أمير الأمـراء الجديدة، وأعلن الغي والطغيان وأظهر الكفر بدلاً من الشكر والإحسان لما قدمناه له حتى الآن، وحسب القوائم الشريفة. يُعد ذلك إثماً عظيماً وعملاً جسيماً، ولهذا فقد تم الاستفتاء بهذا الخصوص وحسب قول إمام المسلمين (من يخرج عن طاعة الإمام يكون باغياً) وهذا يُعد نصباً واحتيالاً على الولاية المذكورة، فإطاعة الأهالي للوالـي تُعد واجباً ويقول أبو العلماء المتبحرين بفتوى شيخ الإسلام وبموجب الفتوى الشريفة بضرورة الإصرار على قهـره والتنكيل به، وفيما بعد يجب على كل ممالكنا المذبورة والمحروسة ألا تقدم له شيئاً وألا تعطيه البحارة ولا تسمح لسفنه بدخول موانئها وألا تسمح لهم بالانتفاع وألا تقدم لهم المساعدات، وبغية التضييق عليه نرسل هذا الأمر الشريف إلى حكام وضباط سواحل وموانىء الجزر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط، فأنت وزيرنا المشار إليه، وأنتم المقصودون اعتباراً من مينفية وأدرسنده وسهل ككلر وأنطاكية والمرافىء الواقعة في لواء تكة، ألا تسمحوا لسفن الجزائر بدخول موانئكم، وألا تقدموا المساعدة لبحارتها، وحتى الأغذية واللوازم والمعدات حتى ولو بمقدار من المهمات، وإذا أرادوا دخول الميناء بالقوة فاقصفوهم بالمـدفعية، وضيقوا عليهم بقدر ما تستطيعون، وتجنبوا تقديم المساعدات لهم. صدر هذا الفرمان عن عالِ الشأن في أوائل صفر سنة ١١٤٢ هـ[1].

---

(١) دفتر مهمّات الديوان الهمايونى نمرة / ١٣٥/ صفحة ٤٢٣.

أرسل هذا الفرمان إلى كافة الممالك العثمانية، وحتى أرسلت نسخة منه إلى تونس والجزائر أيضاً[1]. لكن الداي كان يثق بأنصاره فقط، ويفهم من ذلك أن الأهالي وكافة العساكر غير متفقين معه على هذا الرأي بشكل تام، ولدى وصول الفرمان إلى الجزائر تناقش به مطولاً وأمام الجميع وتلاه بصوت عالٍ وواضح على مسامع الجميع، وأعلن لهم بكل وضوح، إذا أرادوا الاستمرار بالتمرد والعصيان، فإن الحكومة العثمانية ستقوم بإزالته لدى وصول الداي الجديد، وإذا أرادوا الإستمرار بمتابعة التمرد والعصيان على الحكومة العثمانية فسوف يُحرمون من الإستفادة من الممالك الإسلامية الأخرى، وبموجب فتوى مفتي الاسلام، فإن جنوداً سترسل لمحاربة الداي العاصي لأوامر السلطان، والفرمان كُتب بحق داي جزائر الغرب ومفتيها وقاضيها وآغوات الإنكشارية، ولكن قبل تلاوة الفرمان غير الداي بعض الجمل الشديدة مثل (سوف نرسل العساكر لمحاربته) فكتب مكانها (إذا تسلط عليك المالطيون لا يمكنك التقيد، وإن شاء الله تلقى العقوبة من قبل الحق) ومما فيه فقد كان للدولة العثمانية آلاف المشاكل والهموم الداخلية والخارجية، فرمت تلك المشاكل خلف ظهرها[2]. ورغم ذلك التهديد الذي واجهه عبدي باشا فقد بقي في مكانه، إلا أنه بدأ السعي للحصول على عفو السلطان ووفق بذلك، ويُعلم من الفرمان الوارد إلى عبدي باشا في نهاية جمادى الآخرة سنة ١١٤٤هـ والمتضمن ما يلي (قد تحدث بعض الأخطاء في حساب البشرية والوكلاء وسابقاً كانو يُحملون على العصيان ولا يُعطون شيئاً من الممالك المحروسة) حرر في أوائل صفر سنة ١١٤٤هـ. وفي هذه الحالة تدخل العلماء والمصلحون والمشايخ وجميع المجاهدين والمرابطين معترفين بخطأ أمير الأمراء، وخطأهم قد يأتي عرضاً نتيجة لظروف قهرية فاعترفوا بالذنب الذي ارتكبوه سابقاً، طالبين العفو والسماح ذارفين الدموع على جريمتهم ولهذا فقد تم إلغاء الفرمان السابق وقيد، وعادوا للحصول على المنافع والمساعدات التي كانت تقدم لهم سابقاً من كافة الممالك المحروسة، ووضعت إشارة على القيد الموجود في الديوان[3].

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٣٥/ صفحة ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥.

(٢) مجموعة التاريخ العثمانى صفحه: ٣٨.

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٣٨/ صفحة ١٢٨.

لم تستطع إسبانيا تحمل هزيمتها في وهران وفقدانها لها وللمرسى الكبير، ولهذا ومنذ ثلاث سنوات وهي تستعد لإستعادتها، ففي الخامس عشر من حزيران سنة ١٧٣٢م الموافق ذي الحجة سنة ١١٤٤هـ أعدت ١٢ سفينة حربية وفرقيطتين وقليون و٥٠٠ سفينة نقل يحملون ٢٨ ألف جندي بقيادة مونتامر (Montamer) .

انطلق مونتامر بأسطوله من ألقنت متجهاً إلى الجزائر وبلغها في التاسع والعشرين من حزيران، وفور وصوله أنزل قواته مباشرة في ساحل (سهل الأندلس) وقد تمكن الجنود الذين نزلوا أولاً من هزم المفرزة الجزائرية المرابطة هناك، وأقاموا في الموقع الرئيسي مقراً لقيادة الجيش.

كان أمير صنجق وهران مصطفى بوشلاغم بك، يملك قطعة عسكرية مؤلفة من ثلاثة أو أربعة آلاف جندي من القولوغلية وثلاثين ألف مقاتل محلي من الأهالي والفاسيين، وكانت هذه القطعة بقيادة الجنرال الهولندي ريباردا والمهتدي سرسرى الشريف، كذلك فقد وجد في الموقع ١٣٨ مدفع منها ٧٨ مدفعاً من البرونز و٧ مدافع هاون.

بدأت المعركة في صباح ٣٠ حزيران، وكانت معركة حامية وشديدة، استمرت طويلاً، وتمكن البارون ريباردا من شق صفوف الجيش الإسباني، وغداالجيش الإسباني في وضعية صعبة جداً، ومع الصباح تحولت المعركة لصالح الإسبان لأن القائد الإسباني تمكن تسلق التل الواقع في الجانب الأيسر للمعركة، وحينما شاهد زميله القائد ماركي في خطر عاد مباشرة، وشن هجوماً مركزاً على الأهالي فشتتهم، وحالما باشر الأهالي بالانسحاب لحقت بهم القولوغلية، فخلت الساحة من أي مقاومة، فأخذ الإسبان بالتقدم، وفي ١ تموز سقطت وهران والمرسى الكبير، وبدأ مونتامر بإقامة التحصينات ومن ثم شن هجمات مكثفة على المفارز في الأطراف، وأمّن قسماً من الأرزاق.

ما إن استقر الإسبان حتى عادت بعض القبائل الصديقة للإسبان منذ القديم، لإقامة علاقات معهم، وعلى رأسهم قبيلة بني عامر وبعض القبائل الأخرى، أراد (فلاداريس) بعد احتلاله لوهران الزحف باتجاه مزغان ومستغانم، لكن الملك الإسباني منعه من التحرك، وأمره بالبقاء في وهران

والمرسى الكبير فقط، وعلى الرغم من معرفة الإسبان للأضرار الناجمة عن بقائهم ضمن القلعة، فقد أصروا على البقاء داخل المناطق التي احتلوها، وعادت الأوضاع إلى سابق عهدها من المحاصرة، وقاد عملية حصارها هذه المدة محمد بك ابن داي الجزائر عبدي باشا بفرقة إنكشارية مؤلفة من خمسة عشر ألف جندي، واتحد مع مصطفى بك.

أرسل الداي عبدي باشا مولانا إبراهيم مفتي الجزائر إلى إستانبول لعرض فقدان وهران على السلطان العثماني ويطلب المساعدة من أجل استرجاعها.

قال السلطان العثماني في فرمانه الذي ردّ به على عبدي باشا «أوافق على تقديم المساعدة لما تطلبونه، وقريباً سيعود مولانا إبراهيم إلى الجزائر بعد انتهاء عمله، وسترسل لك الأخبار مفصلة عن الأوضاع، وليتوكل الجميع على الله، ولنعتصم بحبل القوة والثبات، وألا تؤدي شجاعتنا إلى الرخاء والتقصير، وعلى كل حال سيكون حلفنا قوي، ولنعمل بقلب قوي، وخاط جريء، ومن أجل ذلك أرسلنا هذا الأمر الشريف». وهو يشجعهم على ذلك[1].

في الرابع من تشرين الأول أجبر الإسبان على خوض حرب كبيرة، لأن الجزائريين شنوا عليهم هجوماً عنيفاً، عندما حاول الإسبان إدخال الأرزاق إلى استحكام (سانتا كروز)، وقد استمر القتال على مدار السنة في أطراف المدينة، واستمر الحصار حتى صيف سنة ١٧٣٥م/ ١١٤٨هـ، وحدثت خلال هذه المدة معارك عنيفة، ولم يتخلص الإسبان من الحصار التركي لوهران حتى سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م.

تأثر عبدي باشا لفقدان وهران، وشعر بالذنب لأنه اعتبر نفسه قد قصرّ في مد المساعدة لمصطفى بك في الوقت المناسب، وأن الترتيبات كانت ضعيفة، وفقد اعتباره أمام العساكر، وجُرح إحساسه، ولم يتحمل هذا الوضع، فأغلق عليه أبواب القصر وامتنع عن محادثة أو مقابلة أحد من الناس، وحتى امتنع عن الأكل والشرب، وزاد من تناوله للأفيون إلى أن مات يوم الثالث من أيلول سنة ١٧٣٢م عن عمر يناهز الثمانين عاماً[1].

---

(١) دى غراممونت.

(٢) دى غراممونت.

حل مكانه والد زوجته الذي كان يعمل سابقاً خزنداراً له ، دون أن يلقى أي مقاومة[1] . راجع الداي إبراهيم بنفسه السلطان العثماني فمنحه السلطان لقب أمير الأمراء ، فأصبح يلقب إبراهيم باشا[2] .

حكم إبراهيم باشا الجزائر فترة طويلة ، وتعتبر فترة حكمه أطول فترة في حكم الدايات ، وكان إبراهيم باشا إدارياً من الدرجة الأولى ، وخلال فترة حكمه استمرت اثنتا عشرة سنة ونصف ، شهدت الجزائر ظروفاً قاسية وصعبة جداً ، وقد تمكن إبراهيم باشا من معالجة الأوضاع في وهران وفي الجزائر من الناحيتين الداخلية والخارجية بشكل ناجح ، واستطاع بحنكته وحسن تصرفه من توطيد الأمن والاستقرار .

أرسل إبراهيم باشا القوة تلو القوة إلى وهران ، وقدم لأمير صنجق الغرب مساعدات ممتازة ، لكن أمير صنجق الغرب لم يوفق بهجماته ، كذلك فقد فشلت سفنه في إلحاق الهزيمة بالسفن الإسبانية ، كما أن المالطيين الحقوا بالسفن الجزائرية هزائم كبيرة قرب المرسى الكبير ، إضافة إلى أن الريح ساهمت هي الأخرى عند هبوبها في إغراق ست سفن جزائرية أمام جزيرة مديلي ، وفوق ذلك بدأ القراصنة يعودون إلى الجزائر بسفن خالية من الغنائم ، فازداد الضيق على الجزائريين وتألم إبراهيم باشا للحالة التي تعانيها البلاد .

عرف إبراهيم باشا أساليب الخداع والاحتيال ، وكان يدرك جيداً تصرف الفرنسيين حيال الجزائر ، فتظاهر بالميل للإنكليز ، وأخذ يمنح القنصل الإنكليزي امتيازات كلامية واسعة بقصد إغاظة الفرنسيين الذين كانوا يقدمون المساعدات للجيش الإسباني ، لأن عدداً من الضباط الفرنسيين وقعوا أسرى بأيدي الجزائريين ، خلال قيام الجيش الإسباني بهجمات خارج وهران ، كما أن الأسطول الجزائري ضبط بعض السفن الفرنسية تقوم بنقل المؤن والأرزاق إلى وهران واستولى عليها ، وحينما قدم القنصل الفرنسي شكوى للداي بشأن السفن ، قال له الداي (إن ملكك يدّعي بالصداقة لنا ،

((لا يزال حجر قبر عبدى باشا موجوداً حتى الان فى متحف الجزائر ، ومكتوب عليها : هذا قبر المرحوم بكرم الحى القيوم عبدى باشا رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه ١١٤٥ هـ) .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٣٩/ ص ٤ (جمادى الآخرة سنة ١١٤٥ هـ) .

ولكنكم تقومون بمحاربتنا وقد شاهدنا سفنكم بالمقدمة). ورفض طلب القنصل رفضاً باتاً، وواقع الأمر. فقد كان الجزائريون على حق حينما كانوا يقدمون الشكاوى ضد الفرنسيين لأن الفرنسيين كانوا يعتدون عليهم بمساعدة فرسان مالطة[1].

استمرت الغرفة التجارية في مرسيليا تمارس ضغوطها على القنصل من أجل الحصول على الضريبة التي فرضتها والتي عرفت بضريبة (كوتيمو).

عمل اليهودي بنزبيت رئيس الجمعية اليهودية صرافاً لدى الداي إبراهيم باشا، وكان الداي يبيعه عشر حاصلات الجزائر، وبنزبيت هو الذي شجع الداي على عدم دفع ضريبة (كوتيمو)، ونظراً لموقف الداي تجاه الإنكليز، كلف الأسطول الإنكليزي بفرض حصار بحري على وهران لصالح الجزائر، وهدفوا من ذلك إقامة مراكز تجارية لهم في المرسى الكبير.

بدأ القنصل الفرنسي يحيك الحيل والدسائس داخل صفوف الإنكشاريين، وأشاع بين العساكر أن خطر وجود الإنكليز في المرسي الكبير أشد خطراً عليهم من الاحتلال الإسباني له، فأعلن الإنكشاريون صراحة أنهم لا يريدون المساعدة الإنكليزية لهم، ورفض الداي أيضاً المساعدة الإنكليزية الرامية لاسترجاع وهران، فشعر الإنكليز بخيبة أمل كبيرة.

في الثلاثين من أيار سنة ١٧٣٤م/ ١١٤٧هـ جاء الأسطول الفرنسي بقيادة (دو كورت Dökurt) إلى الجزائر مطالباً بالتعويض عن الأضرار التي لحقت بالفرنسيين، وفور وصوله أرسل ثلاثة ضباط، لمقابلة الداي والتباحث معه، فأجابهم الداي قائلاً: إن الفرنسيين يقدمون للإسبان الأرزاق والضباط والمهندسين، ونحن نقدم الشكاوى ضدهم، وإن القنصل خدع الملك بالبيانات التي أرسلها وهي بيانات خاطئة ولا أساس لها من الصحة، ونحن لدينا إثبات صحة ما نقول فعاد الأسطول إلى بلاده في السابع من حزيران دون أن يقوم بأي عمل، أما السفير الفرنسي في استانبول فقد قدم شكوى إلى الديوان الهمايوني عن تصرف الجزائريين، حينما عمدوا إلى منع الفرنسيين

---

(١) يقول دي غراممونت: كان الجزائريون يقدمون الشكاوى باستمرار حول إتفاق الفرنسيين مع فرنسا مالطة وشن الهجوم سوية على الجزائر، وإن الجزائريين محقون في شكواهم.

من ممارسة بعض الأعمال التجارية القديمة، وأعطوا مخصصاتهم من الحبوب لغيرهم، وأن الفرنسيين قاموا ببعض الأعمال ولم يحصلوا على حقوقهم من الجزائريين، ولكن الجزائريين لم يكترثوا بذلك[1]. على الرغم من أن فرماناً سلطانياً وصلهم يستفسر عن ادعاءات السفير الفرنسي.

استمر الجزائريون في مهاجمة سفن البندقية في أي مكان يصادفونها ويستولون عليها. ولم يلتزموا بنصوص المعاهدة التي عقدتها البندقية مع استانبول.

علاوة عن الإفلاس المالي الذي تواجهه الجزائر، فقد تعرضت للقحط والمجاعة، ولهذا اندفع القبليون إلى إعلان تمردهم وعصيانهم، فنصبوا كمائن على الطرق المؤدية إلى المدينة، وبدأ بنهب وسلب الأرزاق المتجه إليها، فحُرمت المدينة من الأرزاق وتعرضت لمجاعة شديدة، كما أن القوة التي وعد الديوان الهمايوني بإرسالها إلى الجزائر لاستعادة وهران لم تصل إلى الآن، فازداد التذمر والغضب بين عامة الجزائريين، وأدركوا أن الديوان الهمايوني لا يزال مستمراً في خداعهم.

في زمن الداي عبدي باشا التجأ التونسي علي باشا، وكان يدفع سنوياً عشرة آلاف سغين كي لا يطرده، ولكنه في السنوات الأخيرة لم يفعل شيئاً، وتمكن من خلال إقامته في الجزائر من إيجاد بعض المؤيدين له من الأمراء والرياس، وتعهد للجميع بأنه عندما يصبح أميراً للأمراء سيسدد الديون المترتبة عليه، وأنه لن ينسى الجزائر، وسيقدم جميع المساعدات التي تحتاجها الجزائر، وسيرفع الضيق عن الخزينة، وصدق إبراهيم باشا تعهده ووعده بالمساعدة.

أرسل الداي إبراهيم باشا ابن أخيه إبراهيم الصغير على رأس جيش مؤلف من سبعة آلاف جندي لإخافة أمير تونس، فقدم أمير تونس خمسين ألف قرش إرضاء لداي الجزائر[2]. وبنفس الوقت كتب أمير تونس رسالة إلى

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٤٠/ صفحة ٣٩٥.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٤٠/ صفحه ١٤٥.

(٣) دى غراممونت.

استانبول حول تصرف أمير الجزائر، ويطالب بإيقاف الجزائريين عن ممارسة مثل هذه الأحمال التي تسيء إلى العلاقات بينهما ، فأرسل الديوان الهمايوني أمراً إلى أوجاقي الجزائر وتونس من أجل إرسال علي باشا وابنه إلى استانبول[1] .

بدأت التحركات الحربية بين تونس والجزائر لدى وصول كبير البوابين حاملاً معه الفرمان الهمايوني[2] . ولدى التقاء الطرفين هُزم حسين باشا فغادر تونس بعدما أخذ أولاده وخزينته معه ، وفي الثالث من أيلول وصل الجيش الجزائري إلى مدينة تونس ففتح المحافظون الأتراك أبوابها ، وكانت القولوغلية تنوي مقاومة الجزائريين والدفاع عن المدينة ، لكن المحافظين الأتراك منعوهم من ذلك .

عُين علي باشا أمير أمراء تونس بعدما رُبطت تونس بالجزائر، واشترط الجزائريون عليه دفع ٢٠٠ ألف إيكو سنوياً مع تأمين الجيش الجزائري بالمواد الغذائية .

لم يجد علي باشا وسيلة للإيفاء بوعده تجاه الجزائريين سوى فرض الضرائب على الأهالي ، لكنهم رفضوا دفعها وأعلنوا تمردهم ، فخابت آمال الجزائريين وخاصة بعدما تنكر علي باشا لوعوده معهم ، وانخفض عدد السفن بسبب عدم إنشاء سفن جديدة متطورة ، وظل القراصنة على سفنهم القديمة ، إزاء ذلك هجر الشباب ممارسة الغزوات البحرية ، وانشغل الجميع بالاستعدادات الإسبانية ، وشعر الداي إبراهيم بالعجز وعدم قدرته على التحرك وسط الصعوبات التي تحيط به ، وكل ما تمكن من فعله هو تقوية الاستحكامات وتعمير الجسور ، وحقق بعض النجاح في توطيد الأمن والاستقرار لدى إتباعه أسلوب الشدة والقسوة تجاه اللصوص والمنحرفين .

تعرضت الجزائر لقحط شديد خلال ثلاثة أعوام متتالية ، ولم يحصل الجزائريون على المحاصيل التي زرعوها ، وأصبح أكثر أغنياء الجزائر لا

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٤٠/ ص ٣٨٨ (أوائل ذي الحجة ١١٤٧هـ)

(٢) كتب دى عرامmونت: إن أمير أمراء الجزائر أرسل مع كبير البوابين فرماناً مزيفاً وحينما علم قادة الجيش بأن الفرمان مزيف قتلوه .

يملك ثمن رغيف خبز كما إن إطعام الأسرى أوقع الجزائريين في حيرة كبيرة، وبغية التخلص منهم لجأوا إلى بيعهم بأرخص الأسعار.

لجأ الداي إلى ربط الأسرى بالقيود الثقيلة، وتشغيلهم بالأعمال الشاقة في مقالع الحجارة، بهدف إرغام الحكومات الأوربية على شراء أسراهم، وحصل مقابل الأسرى الذي باعهم للإسبان على ٢٠٠ ألف قرش وكانت قيمة الأسير ٨٠٠ قرش وقائد اللواء ٤٠٠٠ قرش وذوي الرتب الكبيرة أكثر من ذلك.

حذت حكومات السويد وهولندة وإنكلترا حذو إسبانيا فباشروا أسراهم وقدموا الهدايا، كما أن علي باشا جمع النقود التي وعد بها الجزائر ودفعها لها، فعاد الفرح والرخاء إلى البلاد من جديد، وبدأت الأبنية تظهر في المدينة من جديد.

بما أن الحكومة العثمانية منشغلة بحرب روسيا والنمسا منذ سنة ١١٤٨هـ فقد أهملت الأوجاق ولم توليهم أي عناية، وفي سنة ١١٥١هـ كتب الديوان الهمايوني إلى أوجاقات الغرب يخبرهم بالإنتصارات التي حققها على روسيا والنمسا، ويطلب منهم التعايش مع بعضهم البعض بسلام، كما يطلب منهم رفع العلم الإسلامي عالياً، وإن أوضاعهم كانت تُعرض على السلطان في المقام العالي، ولهذا فإن الشرع يقتضي تناسي الأحقاد وفترة الفساد التي حدثت فيما بين الأخوة، لأن هذا منافٍ للإسلام منافٍ لحماية الدولة العلية التي ترغب بتمسكهم وبتبعيتهم لها، ويخبرهم بإبقاء إبراهيم باشا في إمرة الأمراء[1].

شرح الداي إبراهيم باشا في رسالته التي أرسلها مع قبطان داريا سليمان باشا عن المشاكل التي تحدث بين الأوجاقات وعن الردود والمناقشات، وتكلم بالتفصيل عن منبعها وعن أسباب حضورها، فعرضت رسالته على السلطان، فأرسل الديوان الهمايوني جواباً يتضمن ما يلي: (منذ مدة والدولة منشغلة بحربها مع روسيا والنمسا وبسبب عدم النظر والاهتمام بالأوجاقات، وبواسطة بعض المفسدين حدثت المنافسات بين الأوجاقات وحدث برود وفتور في العلاقات، فوجود الفتور والمنافسة بينكم يعطي فرصة كبيرة وجيدة للعدو من أجل الانقضاض عليكم، وليس ذلك بعيد الاحتمال،

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٤٧/ صفحة ٧١، ٧٢ (أواخر ذي القعدة ١١٤٥هـ).

سنقيم الصلح والسلم مع روسيا والنمسا، وبعد الانتهاء من ذلك يأتي زمن النظر إليكم، لقد كلفنا القبطان باشا بتنظيم أحوال الأوجاقات، وبإنهاء الموضوع المشار إليه، كما سنبقيك في إمرة الأمراء فتحرك للإتفاق مع تونس وطرابلس الغرب، لتأمين احتياجاتك، ثم أخبرنا عن أحوال وهران)[١].

وفي حزيران سنة ١٧٤٠م/ ١١٥١هـ تعرضت سفينة جزائرية أثناء عودتها إلى الوطن من الإسكندرية للاصطدام ببعض الصخور، وكان بحارتها أثناء إقامتهم في الإسكندرية قد تعرضوا لمرض الطاعون، ومات معظمهم في الطريق، وبعد وصولها إلى الجزائر انتشر الوباء في المدينة بسرعة، فمات خلال الأسبوع الأول ألف شخص، وبعد ذلك تناقص العدد كثيراً، لكنه استمر يعصف بالجزائر مدة ثلاث سنوات، ثم إلى تونس وباشر الفتك بها، وفي أيار كلف الملك الصقلي قبجي باشا يرافقه أحد الفرسان واسمه (فينوجهيت) بمهمة إلى الجزائر لعقد الصلح معها، لكنهما فشلا في المهمة بسبب الشروط الثقيلة التي اشترطها ديوان الجزائر عليهما.

في سنة ١٧٤١م/ ١١٥٤ التجأت سفينتان جزائريتان إلى ميناء طولون هرباً من العاصفة التي هبت، وبقيتا هناك خمسة عشر يوماً، وبعد تحركهما تعرضتا لهجوم مفاجىء من السفن الإسبانية التي كانت مختبئة وراء رأس (سيجيةSicié) فألقوا القبض على سفينة الريس محمد، في حين تمكن الريس سليمان من النجاة، وبعد عودته إلى الجزائر، أخبر الديوان بما حدث وقال: إن الفرنسيين هم الذين أخبروا الإسبان عن مكان سفينة الريس محمد، ولهذا نصبوا الكمين لنا.

حقيقة الأمر، لقد تم هذا الحادث أمام أعين الفرنسيين الموجودين بسفينة زفيرZefir وكان بإمكان السفينة الفرنسية صد الهجوم الإسباني، لأن هناك اتفاقية بين فرنسا والجزائر تنص على حماية السفن لكل منهما على بعد ثلاثين ميلاً من سواحلهما، وبموجب هذه المعاهدة فإن السفن الفرنسية مكلفة رسمياً بالدفاع عن السفن الجزائرية لأنها ضمن المياه الإقليمية الفرنسية[٢].

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دي غراممونت.

رد الرياس على تصرف الفرنسيين بالاستيلاء، على قيادة السفن السبع الموجودة في ميناء الجزائر، وألقوا القبض على بحارتها ووضعوهم بالسجن، وبعد مدة كلفوهم القيام بالأعمال الشاقة، استمرت هذه الحالة حتى أوائل كانون الثاني سنة ١٧٤٢م/ ١١٥٥ وبعد ذلك تركوهم أحراراً، لكنهم لم يكفوا عن المطالبة بالمركب الذي استولى عليه الإسبان، وقد تعهد الفرنسيون بإعادة السفينة من الإسبان، لكنهم كانوا يماطلون بتنفيذ وعدهم، وكاد الجزائريون أن يفقدوا صبرهم، وأخيراً وفي الثامن عشر من أيار سنة ١٧٤٢م/ ١١٥٥م أعادوا السفينة وانتهى الموضوع[1]. لقد عامل الجزائريون الفرنسيين خلال تلك الفترة معاملة قاسية، ومهما كان الأمر فالفرنسيون يستحقون تلك المعاملة، لأنهم لا يكفّون عن تقديم الشكاوى سواء في الجزائر واستانبول، ويطالبون بصورة دائمة بالمعاملة الحسنة والحصول على امتيازات خاصة.

قدم السفير الفرنسي طلباً للدولة العثمانية يلتمس فيه مساعيها لتحديد موعد لعقد الصلح بين الطرفين، وقد قدم مشروع اتفاقية للدولة العثمانية وتضمنت المادة ٤١ من الاتفاقية التي عرضها ما يلي:

يجب رؤية واعتبار المواد المذكورة والمحررة من أجل أوجاقات الغرب عدة مرات، وحول ذلك من القراصنة المذكورين، لأنهم عندما يشاهدون السفن التجارية الفرنسية يعتدون عليها، ويشتمون القنصل والتجار الفرنسيين في الموانىء التي يمرون بها، فمن الآن فصاعداً يجب إنهاء هذه الوقائع والأحداث، كما يجب على الدولة العلية تبليغ الولاة والحكام وجميع ضباطها بالتعاون مع القناصل والتجار الفرنسيين، كما يجب على الدولة العلية منع قراصنتها من مهاجمة السفن الفرنسية والاستيلاء عليها ضمن موانئها، وعدم أسر واسترقاق واستعباد الفرنسيين الموجودين لديهم، وفي حالة أخذ هذه القلاع (السفن) بالقوة تحت قصف المدافع، يجب على الدولة العلية ألا تقبل هؤلاء القراصنة في موانئها، كما يجب تبليغ حكامها وولاتها في حالة حدوث مثل ذلك من قبل القراصنة المذكورين، إلزامهم

(١) دي غرامونت.

بدفع التعويضات اللازمة والناجمة عن ذلك[1].

لم يُعرف فيما إذا قُبل التماس السفير الفرنسي، لكن الجزائريين كانوا يتسترون عن الأخطاء التي يرتكبها الفرنسيون بحقهم وحق الدولة العلية.

بالرغم من معرفة الجزائريين لحقيقة الفرنسيين، فإن المسؤولين في استانبول لم يكن لديهم أي معلومات عن الأخطاء الفرنسية، وكان الديوان الهمايوني يتصور أن الفرنسيين من أعز أصدقائهم، وبعد أن تم عقد الصلح بين الدولة العثمانية وبين روسيا والنمسا، عينت الدولة العثمانية سعيد محمد باشا سفيراً لها لدى فرنسا، واستأجرت له قليوناً فرنسياً لنقله إلى باريس لكي لا يُهاجم من قبل قراصنة الدول الأوربية، وكُتب بالفرمان الذي زُود به الجملة التالية (بالصلح الذي عقدناه مع النمسا وروسيا هذه الدفعة عيَّنا سفيراً لنا في فرنسا، كدليل على حسن النية، وليشرف بنفسه على استمرار الصداقة بيننا)[2].

عندما كانت الدولة العثمانية تعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية كانت تتعهد لتلك الدول بالتوسط لدى أوجاقات الغرب من أجل عقد الصلح مع هذه الدول أيضاً، والفرمان الوارد أدناه، صورة طبق الأصل عن الفرمان الذي أرسله الديوان الهمايوني إلى أوجاقات الغرب بشأن الصلح المعقود مع ملك صقلية، ويُعد هذا الفرمان مثالاً أو صورة مكررة كانت الدولة العثمانية ترسله لدى عقدها أي معاهدة مع الدول الأوربية.

إلى أمير الأمراء الجزائر ودايها وقاضيها وإلى كافة عناصر الأوجاق المذكورين والمعنيين. . . زاد قدرهم حكم:

عقدت الدولة العثمانية معاهدة مع ملك صقلية، لقد أخذ الديوان بالاعتبار المادة السابعة من هذه المعاهدة، تابعية الأوجاق له، فتعهد بالتوسط والتمهيد لتطبيق الموالاة والمصافاة من طرفنا ويقول (هذه المواد المتفق عليها ستقوم دار السعادة بإعلام أوجاقات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، بأنها تكفلت بضمان الأمن والسلام لسفن وتجار ورعايا الملك المشار إليه

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٤٧/ صحيفة ٤٥٢ (أواسط سنه ١١٥٤هـ).

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٤٨/ صحيفة ١٣٦ (أواسط جمادى الاول ١١٥٤هـ).

من قبل الأوجاقات المذكورة ، فمن أجل إقرار ذلك عندما تجدون يوماً مناسباً تقومون بصياغة وإقرار هذه المواد عن طريق دار السعادة أو إرسال ممثل من دار السعادة فيقوم الشخص المرسل والمعين من قبل كل طرف بذكر وتحديد الشروط المتعلقة بالأوجاقات المذكورة ، ومن أجل تسيير ذلك وحسب العادات القديمة والدائمة ، يكلف قبطان داريا بذلك للاستفادة من رأيه وخبرته بمثل تلك المواضيع ، وبهذا الخصوص يقوم وزيرنا القبطان مصطفى باشا بإجراء التدابير وإحالة التعهد إلى الملك المشار إليه فمن أجل البدء والتمهيد مع الأوجاقات الآنفة الذكر، يُكلف القبطان مصطفى باشا بالعمل ليكون قدوة للأمراء المسيحيين، وتكون عواقب القدسين محتومة بالخير(*). إن أمير أمراء طرابلس الغرب أمير الأمراء قد وافق على البدء بالمباحثات ، فقدم في ختام المادة السابعة عشرة تعهداً مختوماً وموقعاً منه فتم تسجيله وحفظه ، ولا يزال سفير الملك المشار إليه يقيم حالياً عند سعادتنا في الآستانة ، وهو قدوة للأمراء المسيحيين ، وما يسعى إليه هو خاتمة للعواقب الشريرة وبداية خير ورفاه ، لقد أرسل الديوان الهمايوني أمراً شريفاً لإنهاء موضوع التعهدالمشار إليه إلى طرابلس الغرب وتونس ، وهو بانتظار جوابكم ، كما تم تعيين قنصل للملك المشار إليه من أجل المباشرة بالعمل ، وأن تقام قنصلية إيطالية إما في تونس أو طرابلس الغرب ، أو في المكان التي تتم فيها المباحثات أو أي مكان آخر إذا كنتم ترغبون ذلك ، ونحن سنقوم من طرفنا بإبلاغكم عن المكان المحدد بعد أن يتم الإتفاق مع الجزائر، ونلتمس منكم إعطاء وإرسال الجواب مختوماً وموقعاً ، مع إرسال صورة عنه إلى دار السعادة من أجل تقديمه للملك المشار إليه ، فبخصوص المباشرة يجب تعيين موظفاً للبدء بالمباحثات ، وبموجبها يتم التمهيد لعقد إتفاق جديد للمولاة ، شريطة أن تكون موافقتكم نابعة عن قناعة تامة وإرادة طوعية ، ومن أجل البدء والمباشرة أرسلنا من قبل دار السعادة شخصاً لأخذ وإعطاء التعهد ، ومنذ زمن والقبطان الوزير المشار إليه وحسب القواعد القديمة يقوم بالتمهيد والتوضيح التام للموضوع وسيتم السير والتحرك بواسطته ، ولدى وصوله مع الرجل المذكور

(*) وردت فى الفرمان كلمة القدسين والمقصود بها (الأماكن المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين وحرية الحج إليها).

إلى طرفكم، نوصيكم عند وصوله بالنظر للتعهد المقدم من أوجاق طرابلس الغرب وإلى صورة الأمر بخصوص المباشرة والتطبيق من قبل وكيل الملك ومع توقيعكم للتعهد الذي قدمتموه، أرسلوه إذا كنتم قد أعددتموه بعدما توقعون عليه إلى دار السعادة مختوماً كي نسجل مآله، ويتم فيما بعد وضع دستور المال والميري، ويتم تطبيق وتسيير ذلك حسب الاتفاق والطوع والتراضي. . . . أواسط ربيع الآخر سنة ١١٥٥هـ[1].

بموجب الفرمان الوارد أعلاه (أخذ الأصيل) وكتب بالخط الشريف وأُرسلت صوراً عنه إلى أوجاقات تونس ومن أجل ترفيق رجل كُتب فرمان موجه إلى قبطان داريا مصطفى باشا أيضاً.

في سنة ١٧١٩م/ ١١٣٢هـ أعطى الفرنسيون أماكنهم التجارية الموجودة في الباستيون والمناطق الأخرى في ولاية الجزائر إلى جمعية الهند، وهذه الأماكن التجارية أصبح أُسمها في سنة ١٧٣٠م/ ١١٤٣هـ جمعية إفريقية، وفي سنة ١٧٤١م/ ١١٥٤هـ في شهر شباط أطلق عليها إسم الشركة الملكية الإفريقية.

وجُد في جزيرة طبرق مركز تجاري لعائلة لوملين الجنوية، وهي الآن تريد بيعه. ولكن هذه العائلة لا تملك حق البيع لأنها لا تملك شيئاً في تلك الجزيرة، وكل ما حصلت عليه هو حق ممارسة صيد المرجان وممارسة التجارة في هذه الجزيرة فقط.

علم أمير تونس بموضوع البيع، وأخبر الجزائر بهذا الموضوع، وحينما حصل على أمر المحالفة والإتفاق مع الجزائر، أرسل ابنه يونس بك على رأس ثماني قليونات إلى جزيرة طبرق، وهاجم بحارة الجزيرة ودمر جميع المراكز والمؤسسات التجارية ،فيها، وأسر منها ثمانمائة شخص.

تعرضت الأماكن التجارية الفرنسية الموجودة في قرة بورون (الأنف الأسود) لنفس المعاملة وتمكن حوالي خمسمائة صياد من الهرب إلى القالة وسان بير سنة ١٧٤٠م/ ١١٥٣.

حاول الضابط الفرنسي (صوران) احتلال جزيرة طبرق، وتحرك في

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٤٨/ صفحة ٣٣٦.

نيسان سنة ١٧٤٢م/ ١١٥٥هـ من طولون، ووصل القالو في الثاني من تموز وفور وصوله أنزل جنوده إلى الجزيرة محاولاً شن هجوم مفاجىء، لكنه فشل في هجومه فجُرح وسقط أسيراً وقتل مائة شخص ممن كانوا معه وجرح منهم ستون شخصاً أيضاً، وتم أسر مائة وخمسين شخصاً.

لقى صوران معاملة جيدة، فتحسنت جراحه، وبموجب الصلح الذي عقده فيما بعد مع الفرنسيين تم مبادلته بالأسرى الأتراك[1]. وبما أن طبرقة كانت تابعة لتونس، سُمح للفرنسيين إقامة مراكز تجارية لهم في قرة بورون (الأنف الأسود) من جديد، بعدما أقيم صلح مع الفرنسيين سنة ١٧٤٢م / ١١٥٥هـ.

كان الفرنسيون يسعون بشكل حقيقي للتمركز في السواحل الجزائرية، ويهدفون إلى تحويل المؤسسات التجارية هناك إلى استحكامات ومواقع عسكرية، ففي سنة ١٧٤٤م / ١١٥٧هـ بدأوا بتحويل هذه المراكز إلى استحكامات حربية، فأخبر الإنكليز الجزائريين بذلك، فأرسلت العساكر من جديد واستولوا على الأموال والمرجان والنقود والمستخدمين فيها، فبعضهم وقع بالأسر والبعض الآخر فر هارباً إلى المناطق المجاورة فسقطوا أسرى بأيدي الأهالي، وكانت نهايتهم الموت.

إذا كان الإنكليز قد عرضوا تكليفاً بدفع ضعف ما تدفعه الشركة الملكية من أجل فتح مراكز تجارية لهم في المنطقة، إلا أن طلبهم رُفض بشدة[2].

في سنة ١٧٤٣م / ١١٥٦هـ سقطت صاعقة على برج السلطان (حصن الأمبراطور) فاشتعل مخزن البارود، وتهدم ثلاثة أرباع القلعة، فجمع الداي الأهالي وباشر بإصلاح الأماكن المتهدمة من القلعة.

أصبح الداي إبراهيم باشا في أيامه الأخيرة عجوزاً، فضعفت همته،

---

(١) للمزيد من الإطلاع عن تلك الأحدات. أنظر فسم توس المنرحم.

(٢) يوجد فى متحف الجزائر كنابان تعودان إلى إبراهبم باشا.

بنى أحمد بن حجى موصلى حجراً على نهرالحراش سنه ١٦٩٧م / ١١٠٩هـ ولكن الجسر تهدم، فقام ابراهيم باشا بإصلاحه من جدبد، فأخذ الكتابة الأولى من الجسر الأول.

(أ) كتابه الجسر: تم بناء البديل الباهى عن إذن بانيه لوجه الله إبراهيم باشا بن رمضان، فأصبح قنطرة لنا كما ترى. جعل الله سعيه سعياً مشكورا وجزاه الله جراءً موفوراً. سنة تسع وأربعين =

وانحل جسمه كثيراً ، وفي سنة ١٧٤٥م / ١١٥٨هـ أصيب بمرض (ديزانتري) ، فشعر بدنو أجله ، لذلك أوصى بتعيين ابن أخيه وخازنه إبراهيم الصغير ، وكان آخر عمل له في أمرة الأمراء وصيته بتعيين ابن أخيه ، وبعد أن سلمه منصب الداي انسحب من قصر الجينية للاستراحة ، وترك ابن أخيه يمارس صلاحياته بمطلق الحرية ، وقد عاش الداي إبراهيم باشا فترة قصيرة بعد ذلك ومات في السابع عشر من تشرين الثاني سنة ١٧٤٥م[1].

= ومائة وألف من هجرة له العزة والشرف (١١٤٩هـ).

(ب) الكتابة الثانية : أخذت عن حجر قبره . هذا قبر المرحوم بكرم الحي القيوم ، إبراهيم باشا كان حاكماً على الجزائر ، واستمر حكمه مدة ثلاث عشرة سنة رحمه الله ورحم المسلمين أجمعين سنة ١١٥٨هـ. غابرييل كولين جلد (١) صفحة ٠١٠٤ نمرة / ٠٦٧

- ٨ -
أوضاع فاس
من سنة ١٧٢٧م / ١١٣٩هـ حتى سنة ١٨٣٠م / ١٢٤٦هـ

بعد وفاة حاكم فاس مولاي إسماعيل نشب الصراع بين ولـديه مولاي أحمد وعبد المالك.

وفي سنة ١٧٢٧م / ١١٣٩هـ قدم سفير جزائري إلى فاس، لأن سفينـة جزائرية محملة بأشياء ثمينة أجبرت على اللجوء إلى السواحل الفاسية تفادياً من العاصفة التي هبت فجأة، فهاجمها الأهالي وسلبوا جميع ما فيها، وكان السفير الجزائري يريد الحصول على تعويضات السفينة من جهة، والمباركة لحاكم فاس الجديد من جهة أخرى، كما كُلف بالإطلاع على أحوال فاس عن قرب، ومع أي الأطراف تتعامل، وقد خرج السـفير بفـكرة مفادهـا أن الأخوين سيقتسمان حكم البلاد فيما بينهما، ولكن أي منهما لم يكون راضياً عن هذا الحل، وكل منهما يريد حكم البلاد لنفسه، ففي أثناء نشوب الصراع بين الأخوين كان بإمكان الجزائر مهاجمة فاس وقلبهـا رأسـاً علـى عقـب، وتخوفاً من قيام الجزائر بذلك، استقبل مولاي أحمد سفير الجزائر استقبالاً جيداً، وأظهر له احتراماً فائقاً، كما دفع له كامل التعويضـات المسلوبـة من السفينة، وقدم له الهدايا الثمينة، وأعاده إلى بلاده معززاً مكرماً، وبعد ذهاب السفير الجزائري، أعلن مولاي عبد المالك حكمه على مراكش.

استفاد المرابطون من صراع الإخوة واقتتالهم، فأعادوا بناء قوتهـم، ونظموا أنفسهم تنظيماً جيداً، ومما زاد من نفوذهم لجوء الحاكم المهزوم إلى

زواياهم، فأمنوا له الحماية ومدوا له يد المساعدة.

خلال العشرين سنة التي تلت وفاة مولاي إسماعيل، أُعلن عن استلام اثني عشر سلطاناً، ومن هؤلاء السلاطين مولاي عبدالله بن إسماعيل، فقد استلم حكم البلاد ست مرات وتركه، وبالرغم من ذلك فقد كان المرابطون يلقون معاملة سيئة من هؤلاء السلاطين، فبعد أن يتم تعيين السلطان أول عمل يمارسه هو تكليف جيشه النظامي الفاسي بضرب هؤلاء المرابطين، لأن جيش فاس مكوّن بغالبيته من الزنوج، ولم يكن هؤلاء الزنوج يؤمنون بالتعصب أو الخرافات التي كان المرابطون ينادون بها، ولهذا شهد المرابطون من هؤلاء الزنوج الضرب والتنكيل.

في سنة ١٧٣٠م / ١١٤٣هـ عندما كان مولاي عبد الله بن إسماعيل يحكم جميع الأطراف، جمع الأشراف والأعيان من حوله وطرد المرابطين، وفي آخر مرة استلم الحكم فيها كانت سنة ١٧٤٧م/ ١١٦١هـ تمت بفضل دعم الشرفاء له، فمنذ وفاة مولاي إسماعيل سنة ١٧٢٧م / ١١٣٩هـ. وحتى وفاة مولاي عبد الله بن إسماعيل سنة ١٧٥٧م / ١١٧١هـ. كان الصراع على الحكم يدور بين أكثر من ستة سلاطين، وبصراع هؤلاء تُركت حدود الجزائر حرة وخالية من أي هجمات قاسية، إلا أنها كانت تعج آنذاك بالمشاكل الداخلية، وبالصراع المستمر مع ولاة تونس، ولهذا انشغلت الجزائر تماماً عما يدور في فاس من أحداث ومشاكل.

في تشرين الثاني سنة ١٧٥٧م / ١١٧١هـ عيّن مولاي عبد الله ابنه مولاي محمد خلفاً له، وقد انصرف مولاي محمد منذ اللحظة الأولى لاستلامه الحكم إلى محاربة المرابطين، وخاصة مرابطي الريف، ثم وجه اهتمامه لزيادة التجارة وتوسيعها، وبنى الجوامع والمساجد[1]. وتدخل كوسيط بين الفرنسيين والجزائر لعقد الصلح بينهما، وقد قصد من جراء تدخله كوسيط، الحصول على مركز مرموق ومهم، واعتبر نفسه مساوياً للسلطان العثماني، كما كان يفعل والده تماماً، فمسألة الخلافة لا تزال تعتبر النقطة الرئيسية والأساسية في الخلاف الدائر بين سلاطين فاس وبني عثمان، فسلاطين فاس

(١) أوغست كور.

يعتمدون على شرعية الخلافة من خلال تأييد الأشراف لهم ، بينما يعتمد بنو عثمان على قوتهم .

اعتقد مولاي محمد بأن المساعي التي بذلها لعقد الصلح بين الجزائريين والفرنسيين ستكسبه العظمة من جهة، وتبعد عنه خطر المطالبين بالحكم من جهة أخرى ، ولضمان ذلك أقام مع الفرنسيين علاقات جيدة ، ومما دفعه لإقامة تلك العلاقات أيضاً ، تخوفه على تجارة بلاده ، على الرغم من أن إنكلترا تفي بحاجته التجارية ، لكن أحلامه ومراميه لا تقف عند هذا الحد من توسيع العلاقات .

ظل سلاطين بني عثمان يرقبون بحذر شديد تطلعات سلاطين فاس للخلافة ، ولهذا واجهوا محاولاتهم مواجهة علنية وصريحة ، والهدايا التي كان يرسلها سلاطين فاس لم تكن من باب الاعتراف بالتبعية للعثمانيين ، ولكنها بهدف الحصول على بعض البحارة للتدريب والحصول على بعض الآلات والمعدات الحربية ، وكانت الدولة العثمانية تلبي طلباتهم وتمدهم بالرجال والمعدات بكل سرور ، وخاصة حين مدتهم ببعض احتياجاتهم سنة ١٧٦١م / ١١٧٥هـ[١] .

عندما تدهورت الأوضاع الداخلية في فاس ، قطع الفرنسيون علاقتهم معها ، فلجأ قراصنة فاس لمهاجمة السفن الفرنسية ، كذلك فقد كان الجزائريون يهاجمون السفن الفرنسية رافعين العلم الفاسي أيضاً ، فأدرك الفرنسيون أن التقرب من الفاسيين والاتفاق معهم ، يُضمن لسفنهم نوعاً من الحماية ، فدخلوا معهم في مباحثات مطولة ، ثم توقفت من جديد ، وفي نهاية أيار سنة ١٧٦٧م / ١١٨١هـ تمكن السفير الفرنسي (بيروغنون) من توقيع المعاهدة ، وقال له مولاي محمد (أتمنى أن تدوم هذه المعاهدة مثلما تدوم معاهدة الفرنسيين مع الأتراك ، وهي معاهدة تختلف عن المعاهدات التي يقوم برعايتها دايات الجزائر وتونس) . وقد أعرب مولاي محمد بقوله عن مضمون فكره ونيته . وجاء في المادة التاسعة من المعاهدة (ستلتزم فرنسا الحياد التام في حال وقوع الحرب بين فاس والجزائر) . وكان مولاي محمد

---

(١) تاريخ واصف مجلد(١) صفحة ٢١٧ .

منذ زمن والده يخطط لعقد مثل تلك المعاهـدة ، ولهـذا اعتبرهـا نصـراً له ، وكانت سياسة مولاي محمد يكتنفها الغموض والتعقيد ، ولم تصل إلى مرحلة الوضوح والفهم ، فأحياناً يُفهم أنه يخاف من الأتراك ويحاول الاتفاق معهم وإقامة علاقات حسنة ، وأحياناً أخرى يفهم أنه يقيم معهـم علاقـات إسوة بالدولة العثمانية[1] .

قام حاكم فاس عبد الله بن إسماعيل بأسر عدو من رجال دوبروفنيك ، وهذا الشخص ورعاياه يعتبرهـم سلاطين بنـو عثمـان من جملـة رعاياهـم ، وعندما كان دوبروفنيك في إستانبول عُرض هذا الموضـوع بواسطـة مراقـب المصالح راغب باشا ، فوُجهت رسالة إلى حاكم فاس بشأن ترك هؤلاء الرجال الذين أسرهم .

لبى حاكم فاس رغبة الدولة العثمانية وأطلق سراحهم ، على الرغم من كثرة الذنوب والمخالفات التي ارتكبوها ، بعد ذلك وجه رسالة إلى السلطان العثماني مع أحد رجاله يُسمى عبد الكريم ، كما حمّله بعض الهدايا الثمينة مع أربعة خيول ، ولدى وصـول عبـد الكريم إلـى استانبـول سلمـه السلطـان العثماني رسالة جوابية ، وأعاده إلى بلاده سنة ١٧٦٧م / ١١٨١هـ[2] .

كانت الحكومة العثمانية تعامل فاس معاملة حسنة ، فقد أرسل السلطان العثماني مع سفير فاس بعض الهـدايا الثمينـة ، إضافـة إلـى سفينـة مملـوءة بالمدفعية والحيوانات ، وخاصة مدفعية للحصار[3] .

في سنة ١٧٦٨ م/ ١١٨٢ هـ زوج مولاي محمد أخته إلى شريف مكة ، وبعد فترة من الزمن توجه مولاي محمـد مع أولاده للحـج ، وبـذلك تكون العلاقات بين دولتين إسلاميتين قد تحسنت وتوطدت بشكل متين[4] .

في سنـة ١١٩٨هـ أرسـل حاكـم فاس مولاي محمد بـن عبـد الله بـن

---

(١) أوغست كور .

(٢) تاريخ واصف مجلد (١) صفحة ٢٩٤ .

(٣) لم يذكر أوغست كور تاريخ إرسال السفينة ، أما أبو القاسم أحمد الزياني فقد ذكر فى كتابه (أثر الجُمان المريب عن دول مراكش والمغرب) أن السفير الفاسى عبد الكريم قد عاد من استانبول سنة ١١٨١ هـ .

(٤) يقول أبو القاسم أحمد الزياني، فى سنة ١١٨٢ هـ ذهب أمير فاس مع أولاده وجميع أولاد

إسماعيل ابنه يزيد إلى الحج، ولكن يزيد كان مخادعاً ومحتالاً، فلم يأخذ برفقته سوى وكيل الخراج فقط[1].

في سنة ١٧٨٣م / ١١٩٨هـ أرسل مولاي محمد بن عبد الله سفيره إلى استانبول، وحمّله رسالة بخصوص إنقاذ الأسرى المسلمين الموجودين في مالطة، كما أرسل رجلاً إلى مالطة وأرسل معه مبلغ ٢٧٠٣٥٨ ريالاً فدية للأسرى، وكان عددهم ٦١٢ أسير، ولكن حكومة مالطة أعادت النقود، ورفضت ترك الأسرى، وقالت: إن هؤلاء الأسرى من رعايا الدولة العثمانية، وبما أن الدولة العثمانية تحتل مرتبة عالية من الشرف والشأن بين الدول المسيحية، وبإمكانها الإهتمام قليلاً بذلك، فأرسل مولاي محمد النقود للدولة العثمانية من أجل صدفها على إطلاق سراح هؤلاء الأسرى، وكتب في حال عدم إمكانية فدية هؤلاء الأسرى، وإذا كان غير ممكن بواسطة السلطان، تصرف على فقراء مكة والمدينة، فرد عليه السلطان: سنعمل على فدية هؤلاء الأسرى، وإن أهالي مكة والمدينة أحوج للنقود، وهذه النقود ستوزع عليهم، وقد وُضعت هذه النقود في دار الضربخانة، للمحافظة عليها، ووجد المحافظون أن تصرف الدولة العثمانية بهذا الشكل كان تصرفاً جيداً، فقدمت للسفير ضيافة جيدة، ثم سلموه الجواب، وأرسلوه إلى بلاده محملاً بالهدايا.

في سنة ١١٩٩هـ أرسل مولاي محمد بن عبد الله بن أخيه عبد المالك محملاً بالهدايا إلى مكة على متن سفينة إسبانية، وبنفس الوقت أرسل رسالة وعدداً من الهدايا الثمينة إلى السلطان عبد الحميد الأول، وكتب له رسالة يقول فيها: إن الهيئة التي تنقل الرسالة والهدايا أمينة على السر وطلب منه إرسالها، وقد اتخذ تلك الترتيبات تخوفاً من ابنه يزيد، لأن يزيد إذا قابل حامل الهدايا براً فسيأخذها منه.

جاء يزيد إلى القاهرة لانتظار قافلة حجاج فاس، وعندما علم بأن الهدايا تحركت من مكانها، عاد مباشرة إلى مكة، فوجد الهدايا موزعة، ولم

= الرؤوساء وكبار شخصيات فاس إلى الحج. وعندما زوج ابنته إلى ابن شريف مكة سرور، أرسل معها جهازاً فخماً.

(١) أبو القاسم أحمد الرياني.

يبق منها سوى الهدايا المخصصة لأهالي اليمن ، فدخل يزيد إلى الهدايا وسرق كل ما يستطع حمله منها ، فأخبرت الهيئة الوالي المسؤول عن الهدايا ، فأعاد قسماً منها ، لكن يزيد أنكر الصندوق المملوء بالذهب ، وحينما علم مولاي محمد بما فعله ابنه يزيد ، أعلن للجميع براءته منه ، وأخبر السلطان عبد الحميد الأول بعدم استقباله في حال زيارته لإستانبول .

عاد يزيد إلى فاس بعدما قضى في الشرق ثلاث سنوات ، ودخل فاس دون أن يشاهده أحد ، فالتجأ إلى تربة سيدي عبد السلام .

في سنة ١٧٨٦م / ١٢٠٠هـ ذهب أبو القاسم أحمد الزياني إلى استانبول مع هيئة تتألف من طالب عباس والكاتب محمد بن عثمان بصفته سفير حاكم فاس ، وكان مع الهيئة رسالة وكتاب شرح ، وقد اصطحبوا معهم بالسفينة هدايا متنوعة منها البارود وبعض الأدوات الحربية وبعض الأواني والساعات ، وكان مضمون الرسالة إنقاذ الأسرى العثمانيين الموجودين في مالطة ، كما طلب من السلطان وضع حد لنهاية الظلم واعتداءات الجزائريين عليهم[١] .

إذا كانت الهيئة قد أصرت على تزويدها بفرمان كجواب لرسالتهم ، فقد جاء فيه : إن المالطيين قوم عنيدون ، وإن التأخير بهذه المسألة لن يكون لصالحهم ، أما من ناحية اعتداءات الجزائريين وعودتهم إلى طريق العدل والتقوى ، فقد صدرت الفرمانات والأوامر السلطانية التي تحذرهم من الاستمرار بهذا الطريق ، ولكنه صدر عفو عام عنهم لأنهم كانوا منشغلين بالغزو والفتوحات ، وأن الواجب يفرض أن نشرح قلوبهم لذلك ، هذا ما تم إدراجه في الرسالة الهمايونية[٢] .

---

(١) أبو القاسم أحمد الزياني .

(٢) يذكر أبو القاسم أحمد الزياني فى كتابيه سنة ١٢٠٠ هـ . أرسلت هدايا من قبل مولاى محمد إلى السلطان عبد الحميد الأول ، وبقى مبعوث مولاى محمد ١٠٠ يوم فى استانبول ، وأثناء عودته رافقه أحد بوابى السلطان ، وبحث السلطان فى رسالته موضوع الهدايا ، وشاهدت في خزانتي أوراقاً كتب عليها خطاب موجه لأمير فاس فى الديوان الهمايونى باللغة العربية ، والكتاب مؤرخ فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٠٠ هـ ولم يذكر أبو القاسم أحمد الزياني أنه كان من حملة الهيئة الفاسية ، مع العلم أن النسخة الموجودة فى الديوان الهمايونى تؤكد ذلك .

عندما كان مولاي محمد يسعى جاهداً لبناء علاقات طيبة مع الدولة العثمانية وكان الجزائريون يمارسون الفساد، فأمير مسكرة كان يسمح لأبناء أمير فاس بالاتجاه إليه، ولهذا هرب بعض المتمردين وكبار المهربين من المغرب، كما قام بسلب ونهب القبائل التابعة لحكومة فاس، وقد تذرع أمير مسكرة، بأنهم اعتدوا على قافلة كانت تحمل له بعض الهدايا، وبغية تأديبهم، هاجم القبائل التي اتهمها بقطع الطريق وتقدم نحوهم وكأنه يقوم بغزو البلاد، لم يتخذ مولاي محمد أي موقفٍ معادٍ، وكل ما فعله قدم شكوى بحقه إلى السلطان العثماني عبد الحميد الأول[1].

كلف الديوان الهمايوني عزمي أفندي بالتوجه إلى فاس بصفته مبعوث شخصي للسلطان لإجراء مباحثات مع مولاي محمد، وأثناء عودته أرسل مولاي محمد معه محمد طاهر فينش مع كمية من الهدايا الثمينة، ووصلا إلى استانبول في التاسع من رجب سنة ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٧ م، ولكن السفير الفاسي اضطر للانتظار ريثما يعود الصدر الأعظم من مهمة مع الجيش إلى بلاد الروم، وفي نهاية رجب ذهب إلى الديوان الهمايوني بعد عودة الصدر الأعظم، وقدم له الهدايا والرسالة، وبعد انتظاره لمدة شهرين، عاد إلى بلاده حاملاً جواب الرسالة[2].

اعتقد مولاي محمد بأن الديوان الهمايوني سيقطع علاقته بالجزائريين لأنهم لم يتقيدوا بالنظام، وفي الحقيقة فإن الديوان الهمايوني كان يمارس ضغطاً شديداً على الجزائريين، لعلهم يلتزمون بالنظام، كما أن الإنكليز كانوا يحرضون الديوان الهمايوني لممارسة الضغط على الجزائر بقصد قطع علاقتها مع فرنسا، لكن الديوان الهمايوني لم يكن راضياً عن تصرفات الجزائريين والفاسيين لإعلانهم الحرب على الفرنسيين، وكان يرغب بأن ترتبط الجزائر بعلاقات حسنة مع فرنسا[3].

في سنة ١٢٠٤ هـ أرسل حاكم فاس ابن القبطان باشا والقائد محمد بن عبد الله إلى استانبول وحملهما رسالة إلى السلطان عبد الحميد

(١) أوغست كور.

(٢) تاريخ جودت مجلد (٤) صفحة ٥١.

(٣) أوغست كور.

الأول، وأرسل مع سفينتهما أربع سفن تحمل الأسرى الذي خلصهم من مالطة وعددهم ٥٣٦ أسير، كما أرسل ٥٠٠٠ سبيكة ذهبية من أجل توزيعها على أشراف الحرم بالتقسيط لمدة خمسة عشر عاماً[1]. وفي نفس العام وللمرة الثانية أرسل مع وزيره طاهر بن عبد الحق ألف سبيكة ذهبية من أجل توزيعها على فقراء الحرم، وطلب من أمينه وحافظ سره سيد علي بن اليوشيباني أن يقوم بالإشراف على توزيعها بنفسه وبموجب دفتر خاص[2].

تلقى مولاي محمد رسالة جوابية من القائد محمد بن عبد الله في جمادى الآخرة سنة ١٢٠٤ هـ، وذُكر في الرسالة الهمايونية أن الأسرى والبالغ عددهم ٥٣٦ أسير مع قنطار من البارود والسبائك الذهبية قد وصلت وسُجلت في القيودات الهمايونية[3]. ولكن الرسالة وصلت إلى مولاي محمد بعد وفاة السلطان عبد الحميد الأول.

توفي مولاي محمد سنة ١٧٩٠ م / ١٢٠٤ هـ وحل مكانه ابنه يزيد، وكان يزيد مثل أبيه فأقام علاقات جيدة مع الأتراك، وحينما قام محمد الكبير بمحاصرة الإسبان في وهران، قام هو الآخر بمحاصرتهم في سبتة، ولكنه فشل في حصاره وجُرح أثناء ذلك وتوفى على أثره.

تصارع أولاد يزيد الأربعة على السلطة، وتمكن مولاي سليمان بمساعدة جيش من العبيد والبربر من تأسيس حكومة شملت جميع مناطق المغرب، وسار على خطة أبيه في الارتباط مع الأتراك بعلاقة حسنة، ولكن الأتراك في إفريقيا الشمالية أصيبوا بنكسة كبيرة، وانخفضت قيمتهم بسبب الغزو الفرنسي لمصر، ولكن أصحاب الطريقة الحالونية (الخالونية) وقفوا إلى جانب الأتراك ونصروهم، وقد انتشرت هذه الطريقة في جبال أطلس، ولكن مولاي سليمان لم يرتح لها ولا لتحركاتها بسبب انتشارها بين الأهالي، فطرد جميع المرابطين من البلاد.

في سنة ١٧٩٦ م / ١٢٠٩ هـ أرسل مولاي سليمان قافلة من الهدايا

---

(١) دفتر معمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٨٧/ صفحة ٨ (٢٦ صفر ١٢٠٤ هـ).

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٨٧/ صفحة ٨ (١٢ رجب ١٢٠٤ هـ).

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٨٧/ صفحة ١٠ (أواخر جمادى الآخرة ١٢٠٤ هـ).

إلى الجزائر، ولكن القافلة تعرضت للسلب والنهب في أوجده، وكان أبو القاسم أحمد الزياني هو المسؤول عن إيصال القافلة، فذهب إلى حاكم تلمسان، وقدم له شكوى بما حدث معه، ومن ثم عاد إلى مراكش.

قام أمير تلمسان محمد الكبير بحملة تأديبية ضد أشقياء وجدة وحاصرها، فكلف مولاي سليمان موظفاً من قبله لإدارة وجدة، وجمع الضرائب المستحقة عليها، وزوده بقوة كبيرة، ولدى وصول موظف مولاي سليمان إلى وجدة انسحب منها محمد الكبير عائداً إلى بلاده.

بعد ثلاث سنوات من حصار وجدة، توفي محمد الكبير أثناء توجهه إلى الجزائر حاملاً معه الضرائب التي جمعها، فحل مكانه الحجي مصطفى، ولم يكن الحجي مصطفى بالقائد الشجاع.

تمكن مولاي سليمان من إخماد تمرد التطوانيين المدعومين من الجزائر، كما لاحق محمد بن عبد السلام الذي أعلن تمرده في الريف، وألقى القبض على نصيره الزيتاني.

أدرك مولاي سليمان أن سياسته العدائية تجاه المرابطين ستجر عليه المتاعب لذلك قرب إليه أصحاب الطريقة التيجانية، وبعض الطرق الأخرى المعادية للأتراك، وسخر جميع ما لديه من إمكانيات لإظهار التمرد والعصيان في الجزائر. بتحريض من المرابط عبد القادر بن الشريف أُعلن العصيان في ولاية الغرب الجزائرية، كما ساهم في قيام هذا التمرد الحاج محمد بن الأعرج والملقب بـ (بودالي) من قبيلة بابور.

لم يقم أميرمسكرة الحجي مصطفى بقمع تمرد ابن الشريف في بداية الأمر، وحدث بعد ذلك عدة مصادمات فيما بينهما، وفي النهاية ترك حجي مصطفى مسكرة ورحل إلى وهران.

احتل ابن الشريف مسكرة واتخذها مركزاً له، تم وزع بياناً على القبائل المجاورة يطلب منها الانضمام إليه، ويحثهم على محاربة الأتراك، أما في صنجق الشرق فقد تمكن ابن الحراش مع حليفه الزبوشي (Zebusi) من إيقاع أمير قسنطينة عثمان بك في كمين نُصب له، وأدى إلى مقتله مع عدد من

الجنود المرافقين له[1]. فكلف داي الجزائر محمد مكالش بإمرة صنجق الغرب، وعلى الفور تحرك محمد بك لتأديب المتمردين، فطرد ابن الشريف باتجاه الشرق، ثم شن هجوماً على مسكرة فاحتلها وطرد الأعداء منها، وأسر جميع أفراد عائلة ابن الشريف، أما ابن الشريف نفسه، فقد لجأ إلى زاوية محمد بن عودة، وعمل على تحصين الزاوية بشكل جيد، لكنه هزم ضمن هذا المكان المحصن أيضاً.

كانت الطريقة الدرقاوية من أكثر الطرق انتشاراً في فاس، وكان رؤساؤها يقطنون في فاس أيضاً، كذلك فقد انتشرت الدرقاوية في بعض مناطق الجزائر.

كان شيخ الطريقة الدرقاوية ورئيسها الحقيقي هو مولاي العربي الدرقاوي، أما شيخ الدرقاويين في الأراضي الجزائرية هو عبد القادر بن شيخ أو ابن الشريف[2].

اشترك الدرقاويون بالتمرد ضد الجزائر، وفر عبد القادر بعد هزيمته إلى أطراف تلمسان واجتمع مع أصدقائه من الدرقاويين، وقرروا شن هجوم على تلمسان، مستغلين انشغال محمد بك بمطاردة المتمردين، وحالما تعرضت حامية تلمسان إلى الهجوم من جميع الأطراف، انسحب إلى القلعة الداخلية (حصن المشور) وحينما علم محمد بك بهجوم الدرقاويين، توجه مباشرة إلى تلمسان، واصطدم مع الدرقاويين في وادي (الآحاد) وقتل منهم حوالي شتمائة متمرد، وبذلك انقذ تلمسان من الحصار.

كان مولاي سليمان يلاحق ويراقب أخبار الدرقاويين في كل مكان بدقة وحذر، وأثناء إنقاذ تلمسان، أثبت لهم بأنه لن يتدخل بالأحداث، وعاد محمد بك إلى وهران بعدما صالح المحافظين مع سكان تلمسان.

عين عبد الله أميراً على صنجق قسنطينة خلفاً لعثمان بك، وتمكن عبد الله من التصدي لابن الحراش بمساعدة زعماء البربر وخاصة المقرانيين،

---

(١) دُفن أمير قسنطينة عثمان بك بجوار وادي العواد بالقرب من الميليا Elmilya وكتب على حجر قبره تاريخ وفاته سنة ١٢١٩ هـ. غوستاف مرسيه.

(٢) أبو القاسم أحمد الزياني.

وهرب ابن الحراش، لكن عبد الله ظل يطارده من مكان إلى آخر حتى تمكن من قتله سنة ١٨٠٧ م.

إذا كان ابن الشريف قد حاول الاعتداء على صنجق وهران من جديد، لكنه هزم في المعركة التي حدثت في سهل (أفيرس)، وحاول المتمردون الفرار باتجاه الغرب، فلحق بهم محمد بك في تفنا (تافنا) فسحقهم بقوة، ولم يتركهم بل ظل يلاحقهم حتى مدينة توات (Taut) وهناك ضربهم الضربة الأخيرة.

عندما كانت القوات الجزائرية منشغلة بتأديب المتمردين في الشرق والغرب، احتل مولاي سليمان (فغيغ Fig̃ig̃) سنة ١٨٠٥ م/ ١٢١٩ هـ واحتل توات سنة ١٨٠٨م/ ١١٢٢هـ كما احتل غواره أيضاً، ومات سنة ١٨٢١ م/ ١٢٣٧ هـ واستلم مكانه مولاي عبد الرحمن.

لم يعد للمرابطين الدرقاويين أي نفوذ داخل الأراضي الجزائرية، فبدأ مولاي عبد الرحمن يستغل أصحاب الطريقة التيجانية من المرابطين الموجودين في عين مدحيه واستخدمهم كأداة بيده يوجهها كيفما شاء، ونتيجة لتحريض هؤلاء المفسدين أخذت قبائل بابور وجرجورة تعلن تمردها باستمرار، فاستخدم الجزائريون العنف والشدة لتأديبهم، واستمر الأمر على هذا المنوال حتى سنة ١٨٢٦ م.

عندما كان الفرنسيون يعدون العدة لاحتلال الجزائر، كان الفاسيون يقيمون علاقات جيدة مع الفرنسيين، وفي الفترة الأخيرة كان الفرنسيون يجمعون معلومات عن الجزائر من خلال مخبريهم من الفاسيين والتونسيين، وقد لعب المرابطون آنذاك دور المخابرات، لأن الفرنسيين جندوا أعداداً منهم، كمتسولين في شوارع وأزقة الجزائر، وحيتما قامت فرنسا باحتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ م كان مولاي عبد الرحمن لا يزال حاكماً على فاس.

في مطلع القرن التاسع عشر سادت العلاقات بين الدولة العثمانية وحكومة فاس، وكان آخر اتصال بين الطرفين في ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٢٢ هـ، فقد أرسل مولاي عبد الرحمن رسالة تهنئة إلى السلطان مصطفى الرابع بمناسبة توليه العرش العثماني، وفي الثالث والعشرين من رمضان

المبارك لسنة ١٢٢٢ هـ، أرسلت الحكومة العثمانية مذكرة إلى حكومة فاس تطالبها بالديـون المستحقة عليها منذ زمن بعيد[1].

بلغت ديـون الدولة العثمانية على حكومة فاس عشرين ألف كيسـه*. ومنذ ذلك التاريخ ظلت المعاملة بين الطرفين تتسم بطابع الرسميات، لكن طابع العداء هو الصفة الغالبة على تلك العلاقات.

(١) تاريخ جودت مجلد (٨) صفحة ٣٥٦، ٣٦٠.

(*) كيسه: وهي تعبير عثماني ومعناها الحرفي كيس من الذهب أو الفضة، وفيما بعد استخدم بدلاً عنها تعبير طور به، وهذه الوحدة التعبيرية أخذت، بالتبدل من مرحلة إلى أخرى، ففي عهد الفاتح كانت الكيسه تساوي ٣٠ ألف أقجة، وفي عهد سليمان القانوني غدت كل ٢٠ ألف إقجة.

استمر تعبير كيسه بالتبدل إلى أن غدت تساوي ١٠٠ ألف قرش، وفي سنة ١٧٢٠ م أصبح كل ١٢٠ قرش تساوي إقجة واحدة، وغدت الكيسه تساوي ٢ / ٤١١٣ قرش أي ٥٠ ألف إقجة وأصبح يطلق عليها اسم (كيسه ديواني) ثم اختلف باختلاف المناطق فمثلاً هناك كيسه رومي وكيسه مصري وكانت كيسه المصرية تساوي ٦٠٠ قرش وكان كل كيسين يعني حمل أي يوك (Yuk) والحمل (اليوك) يساوي ١٠٠ ألف أقجة، وفيما بعد أصبح كل ألف أقجة يعادل ٢٠ دوقة (Duka) وكل كيسه يساوي ألف ذهبية... للمزيد أنظر: التاريخ العثماني المصور ص ١٧٣.

- ٩ -

عهد الدايات

إبراهيم باشا الصغير (إبراهيم كوجوك) ـ الحرب مع تونس ـ تمرد تلمسان ـ وفاة إبراهيم باشا ـ الداي محمد باشا ـ الجيش الصليبي ـ الأمير كيبل (Keppel) ـ انفجار مصنع البارود ـ الوباء ـ الثورات ـ تمرد علي الطويـل ـ وفاة حسن بك بوحنك ـ الداى على ـ الاختلاف مع الفرنسيين ـ الحرب مع تونس ـ تمرد الأسرى ـ وفاة الداي علي.

في العشرين من تشرين الأول سنة ١٧٤٥ م / ١١٥٨ هـ عين ابراهيم الصغير (كوجوك) داياً على الجزائر، وكان عمره آنذاك خمساً وأربعين سنة، وقد ارتبط مع الأجانب بعلاقات جيدة، وخلال تلك الفترة كان أمير تونس يفكر بالهجوم على طرابلس الغرب.

في الحقيقة، كان سكان طرابلس الغرب أصدقاء وحلفاء للجزائريين، ومـن أجـل الهجـوم التونسـي، قاد الـداي في السـادس من نيسـان سنـة ١٧٤٦ م جيشاً يتـألف من أربعـة آلاف جنـدي من الأتـراك وعـدد كـبير من الأهالي، واتجه إلى تونس وحاصرها، وبعد حصار استمر طويلاً، فوجـيء الجزائـريون بهجـوم معـاكس يشـن عليهـم، فالوبـاء الـذي هاجـم الجيش الجزائري، أجبر الداي إبراهيم علـى فك الحصـار والانسحـاب في نهـاية كانون الأول سنة ١٧٤٦ م، وقد حدثت خلال فترة الحصار معارك عنيفـة، لكنها لم تعط أي نتائج مرضية للطرفين.

تخوف أمير تونس علي بك من محاولة الداي إبراهيم مهاجمته ثانية، فقدم له بعض الهدايا وعرض عليه الطاعة، فقبل إبراهيم الصغير عقد الصلح مع أمير تونس، لأن بعض المشاكل قد حدثت في الطرف الغربي، فمشاكل وهران تتطلب منه إرسال عدد كبير من جيشه لمحاصرتها.

تمرد الأهالي والقولوغلية في تلمسان، وطردوا قائدها يوسف بك، وشكلوا قيادة خاصة بهم، فوجه الداي إليهم قوة عسكرية سحقتهم وانتصرت عليهم، وأنزل بالمتمردين عقوبات صارمة، ففرض على الأهالي غرامة مالية كبيرة، وأصدر أمراً بقتل القولوغلية يوم الصيد، كما صمم على إبادة القولوغلية الموجودين بالعاصمة ولكنه مات فجأة، قبل أن ينفذ خطته، وكانت وفاته في الثالث من شهر شباط سنة ١٧٤٨ م / الموافق ٢ صفر سنة ١١٦٢ هـ ومن المحتمل أن يكون مات مسموماً[١].

حل مكانه حجة الخيل محمد باشا بن بكير، وبواسطة القبطان داريا والهدايا التي أرسلها الداي محمد إلى إستانبول، عُرض طلبه على العتبة العلية حسب القواعد والقوانين وبعد انقضاء أمر الله تعالى بإبراهيم باشا، ونتيجة لطلبه وطلب الأوجاق والاسترحام المقدم ثم ترقيته إلى رتبة باشا، وأسندت إليه إمرة الأمراء، وأُرسلت له حلة لرفع قدره وشأنه، وطلب منه حسن المشاورة مع رجال الأوجاق، ومراعاة الحدود البحرية مع البندقية، واحترام الصلح المبرم بين صقلية والدولة العلية، وعدم إلحاق الضرر بطواقم سفنها، هذا ما تضمنه الفرمان الشريف المرسل إليه[٢].

يتصف محمد باشا بالذكاء، وبحبه للأدب والعلم، فقد كان هو نفسه أديباً، كما اشتهر بالعدل والإنصاف، وفي السنوات الأخيرة، فقدت مدينة الجزائر نظامها وكثر اللصوص بها، ففرض الباشا إجراءات صارمة بحق اللصوص والمخالفين للأنظمة وتمكن خلال عدة شهور من تنظيف المدينة من المشاغبين والمخالفين واللصوص، وقد شهد القنصل الفرنسي توما (Toma) للداي بالحنكة والذكاء وحسن الإدارة وكتب عنه قائلاً (لا توجد

(١) دي غرامونت.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٥٣/ صفحة ٢٣٩ (أواخر ربيع الآخر ١١٦١ هـ)

مدينة في أوربا تتحلى بالنظام والانضباط مثلما تتحلى به مدينة الجزائر[1]) .

عمل محمد باشا على تقوية الاستحكامات ، وعلى زيادة الأسلحة والذخيرة ، وكان يؤمن لوازم الترسانةمن حكومات هولندا وإنكلترا والدانمارك والسويد، وكان يأخذ هذه اللوازم على شكل ضرائب ، فرضت عليهم سابقاً ، وكانت هذه الدول تهتم بذلك كثيراً ، كما عمدت في السنوات الأخيرة إلى إرسال البارود والذخيرة بأنواعها ، إضافة إلى لوازم السفن ، وتقدمها إلى الجزائر على شكل هدايا .

في سنة ١٧٤٧ م قدمت الدانمارك أربعين مدفعاً وأربعين مدفع هاون وستمائة قنبلة وعشرين ألف قذيفة ، وكمية من لوازم الإنشاءات ، ولكن الجزائريين رفضوا قبول مدافع الهاون المصنوعة من الحديد الصلب ، واشترطوا أن تكون مصنوعة من البرونز. وهددوهم بقطع العلاقات إذا خالفوا ذلك .

كذلك قدمت هولندا لوازم وبارود وقذائف ورصاص بقيمة أربعين ألف فرنك ، وقدمت السويد القطران وخمسمائة قنطار بارود وعشرين ألف قذيفة والصواري والأخشاب اللازمة لصنع السفن الكبيرة .

في هذه الأثناء تعرض السويديون لمعاملة غريبة ، فقد كان السويديون يشحنون الهدايا التي سيقدمونها للداي وأعيان الجزائر على متن سفينة نابولية ، فاستولى القراصنة على السفينة المحملة بالهدايا ، وكان قد كتب على كل صندوق من الصناديق ، اسم الشخص الذي ستقدم له الهدية ، وظن السويديون بعد كل هذه التفصيلات أن القراصنة لن يقتربوا منهم ، لكن الجزائريين اعتبروا ما حصلوا عليه غنائم لأنهم حصلوا عليه بقوة السلاح ، ورفضوا اعتبار ذلك هدايا منهم ، وأعلمهم الجزائريون بذلك ، وقالوا لهم إذا كنتم تريدون دوام الصداقة ، فأرسلوا هدايا من جديد ، لكن الجزائريين لم يعاملوا طاقم السفينة معاملة الأسرى .

منذ عدة سنوات والبابا بيوس الرابع يعد ويجهز لحرب صليبية ، لكي يغزو الحكومات البربرية ، وتعهدت كل من حكومات مالطة وجنوه والبندقية

---

(١) رسائل القنصل الفرنسي توما ، مخزن الأوراق بالغرفة التجارية في مرسيليا .

وصقلية بتقديم المساعدة اللازمة لهذا الجيش، وبما أنهم اتفقوا على أن تتخذ وهران مركزاً للأسطول الصليبي، فقد بدأوا يرسلون الأرزاق والمهمات إلى هناك، وقد وعدوا الجيش الذي سيخوض الحرب ضد البربر باثني عشر ألف جندي، وقد أصبح الجيش جاهزاً وهو ينتظر أمر الحركة.

ارتعد الجزائريون خوفاً لدى سماعهم هذا الخبر، فطلبوا المساعدة من استانبول فقابل الديوان الهمايوني طلبهم ببرود، بل على العكس من ذلك، فقد اعتبره عقاباً لائقاً بأوجاق الجزائر لتمردهم ولانتشار الفوضى بين صفوفهم، ورغم ذلك كله فقد أرسل لهم قوة تتألف من عدة مدافع مع الجنود العاملين عليها[1].

وفي الحادي والعشرين من أيار سنة ١٧٤٩ م استقبل الداي القنصل (أندري الكسندر لومير) الموجود في الجزائر، وتباحثا بأمر الجيش الصليبي فقال له الداي: إنني أخاف من قيام اتحاد ما بين إسبانيا وفرنسا، وشن هجوم مشترك على الجزائر.

لم يتم الهجوم الصليبي على الجزائر، نظراً لإهمال وبخل وخساسة بعض الحكومات وبفضل خساسة وبخل تلك الحكومات تخلصت الجزائر من الخطر أيضاً.

إن مثل هذا الهجوم، لفت أنظار أوربا قاطبة إلى الجزائر، لأنه لا توجد دولة أوربية إلا وترغب بالانتقام وأخذ ثأرها منها.

صادر الجزائريون سفينتين إنكليزيتين مع حمولتهما، لأنهما كانا يبيعان البارود للقبائل، ولم يستفد القنصل الإنكليزي (ستاني فورد) من شكواه. فأيقظت هذه الأحداث غضب لندن، وفي شهر آب قدم إلى الجزائر الأميرال كيبّل على رأس أسطول مؤلف من سبع سفن حربية، وفي اليوم الثاني لوصوله قدم شكوى إلى الديوان، فأعطاه الديوان جواباً مقنعاً، ووعده بإرسال سفيرين إلى إنكلترا لبحث الموضوع، وفي التاسع عشر من أيلول كلف الديوان شخصين بالذهاب إلى لندن، وحملهما بعض الهدايا الرخيصة، وفي العاشر من تموز سنة ١٧٥٠ م قدم الأميرال كيبّل إلى الجزائر ثانية ترافقه أربع سفن

(١) دي غرامونت.

حربية، ولكن الداي رفض الدخول معه بأي مفاوضات قبل عودة سفرائه من لندن، وفي السادس عشر من أيلول سنة ١٧٥٠ م شوهد الأسطول الإنكليزي أمام الجزائر مرة أخرى.

وفي الثامن عشر من أيلول، أي بعد يومين من وصوله، عقد الديوان اجتماعاً، أصر الأميرال على الدخول إلى الديوان متقلداً سيفه، ورفض تقبيل يد الداي فوافق الداي ضاحكاً منه. ولكن المهم هو بعدما تكلم الأميرال وخاصة حينما طالب بدفع تأمينات وتعويضات عن الخسارة التي لحقت بدولته، ولم يكتف بذلك، بل طالب بالامتيازات التي تتمتع بها فرنسا، فرفض الداي طلبات الأميرال، وقال له لقد نسيت الامتيازات التي حصلت عليها، دخولك الديوان متقلداً لسيفك، وعدم تقبيلك يد الداي، أما بالنسبة للطلبات الأخرى، فمن غير الممكن منحها لك أو لدولتك، لأن ذلك يولّد الحسد بين الحكومات الأخرى، وقفل الموضوع بإعطائه حوالي عشرين أسيراً، ومعاقبته اثنين من الرياس.

توجه الأميرال إلى تونس، بهدف الحصول على فتح أماكن تجارية في جزيرة طبرق (قاب نقره)، فأخبره التونسيون بأن هذه الأماكن تابعة للجزائر.

بذل الإنكليز جهوداً كبيرة للوصول إلى نتيجة مرضية لهم، ولكنهم فشلوا في تحقيق أي نجاح، ونتج عن قطع علاقاتهم مع الجزائر إلى فقدانهم لـ ٢٥٦ سفينة تجارية، فلجأوا ثانية إلى أسلوب التهديد، ففي السابع عشر سنة ١٧٥١ م / ١١٦٥ هـ أرسلوا إنذاراً إلى الجزائر، ولكن الجزائريين لم يكترثوا لتهديدهم.

تعرضت الجزائر لكارثة كبيرة، وفقدت بحدوثها ما تمتعت به من نجاح السياسة الخارجية للداي محمد بكير، ففي ليلة الثامن من أيلول سنة ١٧٥٠ م / ١١٦٤ هـ انفجر مصنع يلدز للبارود، وكان يشمل على ألف وخمسمائة قنطار من البارود، وتهدم برج مولاي محمد والمنازل المجاورة له، فطلب الداي من حكومتي الدانمارك والسويد تعويضه عن الذخيرة التي ضاعت، وإحضار الآلات اللازمة لإعادة المصنع كما كان.

طلبت حكومتا همبورغ وتوسكانيا الصلح مع الجزائر، وقدمتا الهدايا

الكثيرة، كما طلبتا من الحكومة العثمانية التدخل بالأمر، وتسهيلاً لذلك عقدت الدولة العثمانية معاهدة صلح مع أمبراطور روما وهو دوق توسكانيا، ونصت المادة / ١٦/ من المعاهدة على الشروط التالية: (ستقوم الدولة العثمانية بإخبار أوجاقات الغرب بهذا الصلح وسيتمتع تجار وسفن الأمبراطورية ورعاياها بحرية الملاحة، ويصبحون آمنين من هجمات القراصنة، كما ستتوسط الحكومة العثمانية لربط الأوجاقات بهذه المعاهدة). وهذه المباحثات ستتم إما في استانبول أو سترسل الدولة العثمانية موظفين مفوضين للقيام بها، ويمنحون الترخيص للأمبراطور.

لقد مثل الأمبراطور كل من (غريمو ماريسل) و (كارلو إبوليتي) وبلغا سفير النمسا البارون (دي بنغلر) المقيم في استانبول بذلك، إزاء ذلك عين الديوان الهمايوني القبطان باشا ومعه شخص آخر ليمثله بهذه المباحثات، ومنح تفويض المباشرة بها. كذلك فقد وجه الديوان الهمايوني إلى الجزائر سفينتين يحملان الفرمان السلطاني بشأن توقيع المعاهدة[1].

بعد إرسال الفرمان بشهرين أي في أوائل ربيع الآخر سنة ١١٦١ هـ / ١٧٤٧ م، أرسل فرمان آخر يأمر ويطلب من صنغور علي آغا المباشرة، وهذا الفرمان يتضمن بعض مواد هذه المعاهدة، كما هو وارد أدناه:

إلى أمير أمراء كل من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وإلى القضاة والمفتي والمباشر صنغور علي آغا. حكم.

نعرض عليكم أولاً مواد المعاهدة التي عقدناها مع أمبراطور روما وهو دوق توسكانا. (لقد تم معاهدة صلح بين الدولة العلية وأمبراطور روما وبموجبها تم الصلح وإقامة الصداقة مع رعايا أمبراطوريته براً وبحراً، لذلك يُسمح لتجار ورعايا وسفن المدن والجزر التابعة للأمبراطورية المذكورة، بدخول موانىء الدولة العثمانية وإقامة المبادلات التجارية فيها والالتجاء إليها في حالة حدوث عواصف بحرية، ونخصّ منهم دوقية توسكانيا وهمبورغ ومدينة لوبك وللسفن التي ترفع علم الأمبراطورية الآنفة الذكر،

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٥٣/ ص ٢٦٣.

كما يحق لسفن تلك الأمبراطورية إصلاح سفنها ضمن موانىء أمبراطوريتنا في حال تعرضها لأضرار، ولها الحق في بيع وشراء ما يلزمها من مواد بالأقجات. يُتلى عليكم إقرار هذه الشروط لعقد اتفاقية صلح والسعي من أجل تحقيقها. . . في أواسط جمادى الآخرة سنة ١١٦١ هـ.

بالرغم من هذا الفرمان المؤكد، فقد استمرت مباحثات الصلح مع توسكانيا وأمبراطور روما عاماً كاملاً[١].

ما زالت القرصنة مستمرة، لكن عائداتها إضمحلت، ولم تعد تغطي جزءاً يسيراً من تكاليفها، فانتشرت الفوضى، وحدثت عدة ثورات، واستخدم الداي القوة للحد منها، وتمكن من إحباطها، ونتيجة لذلك أصبح الداي يشك بكل من حوله، وغدا ظالماً وجباراً وسفاكاً للدماء.

في سنة ١٧٥٢ م، حل الوباء بالجزائر واستمر أربع سنوات متتالية، وتذكر التقارير بأنه كان يموت في كل شهرين ما يقرب من ألف وسبعمائة شخص، وفوق هذا أصيبت البلاد بالفقر والقحط، وحطم الأسرى باب السجن وفروا بقيادة الساعاتي الجنوي، ثم تسلموا وتوزعوا في أزقة المدينة، وبعد قتال عنيف وطويل، عاد الاستقرار والأمن إلى المدينة.

في أيلول سنة ١٧٥٢ م/ ١١٦٦ هـ، أطلق القبطان بريبود النار على سفينة كانت تقترب منه، لأنها لم تعط الإشارة أو ترفع علماً، واعتقد أنها سفينة تابعة لقراصنة (سلا)، وتبين بعد إشتداد القتال بين الطرفين بأنها جزائرية، فهُزم القبطان المذكور، وألقي القبض عليه، وبلغت خسارة الجزائريين ما يقرب من ثلاثين قتيلاً، ولدى وصول القبطان إلى مدينة الجزائر، تحركت عائلات القتلى وسط المدينة تطالب بالثورة، فأدخل القبطان إلى قصر الجينية، وكان الداي آنذاك غاضباً، فأمر بجلد القبطان دون أن يستمع إليه، فمات القبطان تحت الضرب، ثم سُجن بحارة السفينة في سجن الأسرى، ولم يتمكن القنصل الفرنسي إلا من إنقاذ الأسرى فقط، وفي هذه السنة جاء فرمان يؤكد بقاء محمد باشا في إمرة الأمراء[٢].

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دفتر مهماب الديوان الهمايونى نمرة / ١٥٥/ (أوائل جمادى الآخر سنة ١١٦٦ هـ).

وفي الحادي عشر من كانون الأول سنة ١٧٥٢ م / ١١٦٦ هـ، عندما كان الديوان مجتمعاً لتوزيع المعاشات هجم الأرناؤوطي علي الطويل على الداي متظاهراً بتقبيل يديه، فطعنه بسيفه أولاً، ثم أطلق عليه النار من مسدسه وأرداه قتيلاً[١]. ثم قام علي الطويل مع أنصاره بقتل الخزندار وبقية الشخصيات الكبيرة، وأعلن نفسه داياً، ثم وعد الإنكشاريين بزيادة رواتبهم، محاولاً بذلك كسب أنصار ومؤيدين له.

في هذه الأثناء دخل حجة الخيل على رأس النوبتجية (المناوبين) وهاجم المتمردين وحاول علي الطويل (أوزون علي) الفرار، فوجد الباب مغلقاً، فعاد يجلس على كرسي الداي منتظراً دوره بالقتل، وقُتل فعلاً، وأعقب ذلك قتال مدهش داخل القصر دام عدة ساعات، وتذكر بعض الشائعات بأنه تم انتخاب خمسة دايات قتلوا على التوالي.

بعد توقف القتال الذي حدث في قصر الجينية، تم الإتفاق على تعيين آغا الغرب علي ملمولي، وكان وكيلاً لمحمد باشا وصديقاً حميماً له، وبما أنه كان يمكث في منزله الصيفي، فقد أرسلوا إليه الخبر، وطلبوا منه الحضور إلى قصر الجينية وعينوه داياً عليهم.

توفي أمير قسنطينة أبو حنك سنة ١٧٥٣ م/ ١١٦٧ هـ، وقد استمر في هذا المنصب قرابة سبع عشرة سنة، وخاض المشار إليه عدة حروب وخرج منها منتصراً ظافراً. وقد امتاز بوحنك خلال إدارته لصنجق قسنطينة باعتماد العقل والحكمة في كل خطوة وعمل، ولم يقم بأي عمل إلا بعد دراسته دراسة جيدة، ويتأكد من نجاحه، كما أنه امتاز بهمة عالية ساهمت في تحسين وتجميل مدينة قسنطينة، كما أنشأ جامع سيدي الأخضر، ودفن فيه[٢].

لجأ الداي علي مثل أسلافه في إرسال الهدايا ورسائل الاسترحام إلى

---

(١) توجد كتابتان عن محمد باشا في متحف الجزائر. الأولى هى الحجر التاريخية حول بناء مستودع الذخيرة الذى أقامه محمد باشا بن بكير سنة ١١٦٣ هـ (غابرييل كولين صفحة (١٠٨) نمرة (٧٠). أما الكتابة الثانية. وهى تدل على أن محمد باشا حكم الجزائر مدة ١٧ سنة.

(٢) الجامع الذى بناه حسن بوحنك في القسنطينة الكتابة الموجودة عليه تؤكد ذلك.

استانبول وقد وافق السلطان على تعيينه وأرسل إليه فرمان مع حلة[1]. وقد عُرف واشتهر بين زملائه وأقرانه بلقب بابا علي أو (علي بو أصبع)[2].

بدأ علي باشا أعماله بقتل الذين أعدوا ورتبوا للثورة، فخوزق قسماً منهم، وجلد القسم الآخر حتى الموت، وفي نيسان سنة ١٧٥٥ م قضى بشدة على تمرد الإنكشاريين.

ارتبط الداي علي باشا بعلاقات حسنة وجيدة مع إنكلترا وفرنسا، ولكنه كان في حرب مع توسكانيا وهولندا، لأنه إذا أقام الصلح مع جميع الدول، فهذا يعني إلغاء القرصنة وحرمان البلاد من مورد أساسي، كان الدايات أنفسهم يعتمدون عليه لحل أزمتهم المالية.

اتخذ الدانماركيون والسويديون الهدايا كطعم لتهدئة العواصف بينهم وبين الجزائريين، وبقية الأوجاقات الأخرى.

في سنة ١٧٥٦ م / ١١٧٠ هـ، شن علي باشا الحرب على تونس واحتلها، وهاجم فيها قناصل النمسا[3]. والسويد[4]، ونيدرلاند[5]. وألقى القبض عليهم. كما استولى على أموالهم وسجنهم واسترق أفراد عائلاتهم، وسبى منزل القنصل الهولندي لأنه قدم البارود والذخيرة للتونسيين، وقد حاول القنصل الإيضاح للجزائريين بأن ذلك موجود لديهم أكثر من مائة عام[6].

احتج سفراء تلك الدول على تصرف داي الجزائر، وقدموا شكوى عاجلة إلى استانبول، وطالبوا بإطلاق سراح القناصل فوراً، وإعادة الأموال العائدة لهم، وعلى الفور أرسلت استانبول عدة فرمانات إلى أمير أمراء الجزائر تأمره بذلك، وقد استمرت الحرب بين تونس والجزائر فترة طويلة،

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٥٧/ ص ١٥.

(٢) يذكر دي غراممونت. أن علي باشا كان رجلاً غبيا وجاهلاً ومتعصباً وبه مس من الجنون، ويعطي أوامره دون تفكير، ويردد الأقوال التي يسمعها، وكان الديوان الهمايوني يخاطبه صديق محمد باشا المتوفى. بقي في منصبه ١٢ سنة.

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره / ١٥٩/ ص ٣٤.

(٤) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٥٩/ ص ٢٥٨.

(٥) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٥٩/ ص ٢٦٠.

(٦) دي غراممونت.

ولكن السلطان أجل التحقيق بهذا الموضوع ريثما يتم إطلاق سراح القناصل أولاً ، ولم يجد علي باشا وسيلة تكسبه رضاء السلطان إلا تلبية أوامره ، فأطلق سراح القناصل .

عين علي باشا بعد غزوه لتونس محمد بك أميراً عليها ، وقبل محمد بك دفع خمسين ألف سغين سنوياً إلى الجزائر مقابل ذلك[1] .

استولى أميرال مالطة (بايّ دي فلوري) على عدة سفن جزائرية ، فطلب علي باشا من القنصل الفرنسي التدخل لاسترجاع السفن ، فأوضح القنصل الفرنسي دولومير (Dölömer) ، للداي بأنه لا توجد علاقات بين الملك الفرنسي وفرسان مالطة .

إذا كان حجة الخيل هو الذي انتخب علي باشا لمنصب الداي ، فهو الآن يعد الترتيبات لقتله والتخلص منه ، فعلم الداي بذلك ، وفي صباح اليوم المعد للثورة ، ألقى الداي القبض على المدبرين والمعدين لها وقتلهم ، وقد جرت عدة اتصالات ما بين الدولة العثمانية وأوجاقات الغرب حول مسألة الرسوم الجمركية . لأن عناصر الأوجاقات كانوا يدفعون الأموال لضباط الأوجاقات أثناء ذهابهم إلى الحج والعودة إلى بلادهم بدافع الصلة التي تربطهم مع بعضهم البعض ، وذلك بسبب المضاربة بالأموال ، وكان هؤلاء يأخذون الأموال والمصنوعات الثمينة والنفيسة المصنوعة في مناطق الأوجاقات إلى بلاد الأناضول والروم إيلي (الروميلي) ويعرضونها للبيع هناك ، وكان هؤلاء العناصر يعتبرون أنفسهم من طبقة (القابي قولوغلية) أي **طبقة الخدم الحقيقة . وهذه الأموال والأشياء لم تكن بقصد التجارة ، ولهذا اعتقدوا أنها معفاة من الرسوم الجمركية والضرائبية .**

أما مسألة الميراث ، فقد طالبت مجموعة كبيرة من عناصر الدولة العثمانية ، بأولوية الميراث وأحقيته ، وقالوا إن كل من يكون من الأوجاق أو إذا كان في الطريق وحتى لو كان مندباً إلى بلدٍ آخر ، فتكون تركته عند وفاته ووفاة ورثته من حق الأوجاق ، وكانت سابقاً تعطى تركته لوكيل الأوجاق في الممالك العثمانية ، وفي أواخر ذي الحجة سنة ١١٤٥ هـ ، صدر فرمان

(١) دي غراممونت .

همايوني موشى بأمر شريف يسهل هذين الأمرين، وقد بُلغ قاضي إزمير وتلميذه الديني بذلك، وكان وكيل الأوجاقات حجي أحمد المقيم في إزمير ينقل الشكاوى المتعلقة بالتركة إلى الديوان الهمايوني، وبناءً على الأوامر الشريفة الصادرة بهذا الشأن طُلب منه التصرف على أساسها، وإعلام قاضي إزمير وتلميذه الديني بمضمون ذلك، وقد استمرت هذه المسألة حتى سنة ١٢٤٦ هـ، وحدثت خلال تلك الفترة مراسلات عديدة وصدر العديد من الأوامر الشريفة[١].

أعلن القبليون في سنة ١٧٥٦ م / ١١٧٠ هـ تمردهم وعصيانهم، وقاموا باحتلال برج بوغني، وفي شهر آب احتلوا برج البويرة، واستمرت الفوضى والاضطرابات حتى منتصف سنة ١٧٥٧ م.

ضجر الداي من كثرة شكاوى القنصل الفرنسي فطرده من مجلسه، فقال القنصل الفرنسي للداي: إن الفرنسيين أصدروا جوازات سفر فرنسية، ولم يعد أحد في فرنسا يهتم بهذه المواضيع التافهة، وقد استمر الأمر على هذا الحال حتى سنة ١٧٦٢ م، وفي هذه السنة قدم موظفان فرنسيان وشرحا للداي الأمر، فأجابهما الداي بأنه لا علم له وأنه خُدع بذلك، فطلب الخزنجي وأنزل به عقوبة صارمة لأنه خدعه، واعتقد الموظفان الفرنسيان بأن ما شرحاه للداي كان كافياً، وعادا إلى فرنسا دون أن يقدما تقريراً عن مهمتهما.

جاء اللورد كليفليند(Klevlend) إلى الجزائر، وأحضر معه كمية من اللوازم الحربية، ثم جدد المعاهدة، كذلك فإن البندقية قدمت مبلغ أربعين ألف سغين سلفة، إضافة إلى تقديمها تعهداً بدفع عشرة آلاف سنوياً، وبهذه الوسيلة تمكنت من عقد معاهدة صلح مع الجزائر.

ومن جملة المشاكل التي تعرضت لها مدينة الجزائر مؤخراً إنسداد أقنية المياه، فظلت المدينة لفترة طويلة بدون ماء، وبغية إصلاحها بسرعة، فرض علي باشا ضريبة على الأهالي، وأصلحت مناهل المياه والطرقات، وعادت الحياة إلى الهدوء ونعمت الجزائر بالأمن والاستقرار[٢].

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٥٧/ صفحه ٢٠٦ (أوائل صفر ١١٦٩ هـ).

(٢) نقلت الأحجار التاريخية التى استخدمت فى بناء مناهل الماء والتى بناها على باشا إلى متحف =

في سنة ١١٦١ هـ اضطر الأوجاقات للتوقيع على المعاهدة التي وقعتها الدولة العثمانية مع النمسا، ولكن القنصل النمساوي أخبر استانبول بالمضايقة التي يعانيها في الأوجاق، وأنهم لا يكترثون بأحد، فأمر الديوان الهمايوني بمعاملة قنصل النمسا معاملة حسنة فباشر عمله كالمعتاد.

عقدت الجزائر معاهدة جديدة مع النمسا، فطلب تبديل القنصل الحالي، فبلغت النمسا بعقد المعاهدة الجديدة بواسطة سفيرها المقيم في استانبول، وقد طلب الديوان الهمايوني من أمراء الجزائر إرسال صورة عن المعاهدة الجديدة بغية تسجيلها في قيودات الديوان الهمايوني، ووصلت صورة المعاهدة إلى الديوان في أوائل صفر سنة ١١٧١ هـ[١].

أرسل أمير أمراء الجزائر مبعوثه حجي محمد إلى استانبول قبل أن يرد على فرمان الديوان الهمايوني، وزوده بالهدايا مع رسالة يعلن فيها استعداده للجهاد ويعرض طاعته وعبوديته للسلطان. ويذكر في رسالته أن الإسبان احتلوا قلعة وهران، وأنهم اتفقوا مع العربان المقيمين بجوار القلعة، وبما أنهم يحاربون صيفاً وشتاءً، لهذا لم يبق لديهم قوة تكفيهم للمحاربة أكثر، وأن هؤلاء الكفار يأتون من إسبانيا التي تبعد عن وهران مسافة ليلة واحدة، وبهذه الصورة تأتيهم الذخيرة والمعونةوكل ما يلزمهم مباشرة، يطلب العون والمساعدة والسماح له بتطويع العساكر من الممالك المحروسة استعداداً لمحاربتهم، كما يطلب إمداده بالمدافع والذخيرة وغيرها من اللوازم الأخرى، كما يطلب السماح له. بجمع الضرائب من الذاهبين إلى الحج وبلاد الأناضول، كما أنه يسترحم السلطان بإصدار فرمان بذلك ورسالته مؤرخة سنة ١١٧٢ هـ[٢].

وافق الديوان الهمايوني على تسليم الحجي محمد جميع طلباته من مدافع وقنابل وقذائف وحديدوكافة اللوازم والمهمات الضرورية، وذلك

= الجزائر، ويبلغ عددها إحدى عشر حجراً، وقد بنى اثنين منها سنة ١١٧٤ هـ وستة منها سنة ١١٧٦ هـ، واثنين منها سنة ١١٧٨ هـ. وواحداً سنة ١١٧٩ هـ كما جدد بناء شارع سنة ١١٧٢ هـ.

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٥٩/ ص ٣٢٧.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٦٠/ صفحة ٣٠٦ (أوائل محرم سنة ١١٧٢ هـ).

بموجب الدفتر المخصص لذلك، وقد أرسل لداي الجزائر جميع ما يريده، كما أعلم علي باشا بنفس الفرمان المرسل إلى الجزائر بإبقائه في إمرة الجزائر[1]. ولكنه ما زال مصراً على عدم إرسال صورة عن معاهدة الصلح التي أقامها مع النمسا.

رد أمير أمراء الجزائر على طلب الديوان الهمايوني برسالة قال فيها (إن صورة مواد المعاهدة المعقودة والتعهد المقدم للأوجاق يبقى في الأوجاق، ونعطي الصورة الأخرى للقنصل وترسل من طرف الداي حسب قانون الأوجاق، وإذا حدث عمل خلاف ذلك فبإمكانه تمديد الصلح والإصلاح، وذلك حسب المواضيع المدرجة فيها، ومن الممكن تحرير صورة عنها وإرسالها إلى جميع الدول وسائر السرايا، ونعتذر عن تلبية طلب الديوان فالغزاة والمرابطون يريدون ذلك). فرد الديوان الهمايوني على رسالته بالفرمان التالي: إن العقود المبرمة بين الدولة العلية وسائر الدول وخاصة كالنمسا، كما أن عدم الالتزام لا يعني السرية، وإن الصلح الذي تقيمه سائر الدول معكم عن طريق التراضي، والتوضيح في مثل هذه الحالة غير مقبول، وعليك أن توضح ذلك لكافة الرجال والمحافظين والمرابطين وعن كيفية عقدها وإبرامها، يضاف إلى ذلك فإن مثل تلك المعاهدات يجب أن تدوّن في قلم الديوان الهمايوني، لذلك فإننا نصر كامل الإصرار بوصول صورة عنها، ونتمنى عدم مخالفة أوامر الديوان الهمايوني، وتجنب ذلك[2]. ولم تعرف النتيجة بسبب إصرار الطرفين.

تمرد الأسرى في الثالث عشر من كانون الثاني سنة ١٧٦٣ م/ ١١٧٧ هـ بسبب سوء المعاملة وبفقدانهم الأمل بعدم دفع الفدية من قبل ذويهم أو دولهم، ومرد ذلك إلى ارتفاع فدية الأسرى، هذا التمرد أدى إلى قتل العديد منهم، ومن جملة من قتل ابن أمير تونس القديم يونس بك[3].

سلحت فرنسا جميع سفنها التجارية تسليحاً جيداً، وقوة تسليحها دفعها

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٦٠/ صفحة ٣٠٦ (أوائل محرم سنة ١١٧٢ هـ).
(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٦٠/ صفحة ٣٢٩ (أواسط صفر ١١٧٢ هـ).
(٣) دي غرامونت.

لمهاجمةالسفن الجزائرية ، وخاصة التي تبدو لهم ضعيفة ، فإذا تغلبوا عليها ، أخذوها وأسروا طاقمها ، ثم يبررون ذلك بأنهم ظنوها تابعة لقراصنة (سلا) وبسبب هذا التصرف حدثت الحادثة التالية :

فتح القبطان (أوبين) قائد السفينة الفرنسية نيرانه على سفينة جزائرية ، لكن الجزائريين انتصروا عليه ، وألقوا القبض عليه وعلى السفينة ، وأحضروهم إلى الجزائر في الرابع عشر من أيلول . وعندما علم القنصل الفرنسي تدخل محاولاً إنقاذ القبطان ، فرد عليه الداي قائلاً (هكذا يقول الفرنسيون دوماً ، حدث خطأ ، فيهاجمون سفننا ويعتذرون ، ليكن بمعلوم القنصل الفرنسي أن عدونا الأول هم الفرنسيون) ، ونتيجة لإلحاح القنصل فاليير ، أمرالداي بوضعه في السجن مع كبير الكهنة الفرنسيين ، وبنفس الوقت ألقوا القبض على بحارة أربع سفن موجودة في الميناء ، وعلى السادة الفرنسيين وكافة رعايا القنصلية الفرنسية ، ووضعوهم في سجن البكوية (الأمراء) ، ثم نقلوهم للعمل بالأشغال الشاقة ، وظلوا على هذه الحالة ستة وأربعين يوماً ، كما قام أمير قسنطينة وبناءً على الأمر الصادر إليه ، بحجز كافة المؤسسات التجارية الفرنسية ، ومصادرة سفن المرجان ، وحينما أطلق سراح القنصل الفرنسي أرسل تقريره إلى باريس بخصوص المعاملة السيئة التي تعرض لها الفرنسيون في الباستيون والقالة والقنصلية الفرنسية ، وقال في تقريره : إن رعايا فرنسا الموجودين في الجزائر أصبحوا شبه رهائن في يد الداي ، وطلب منهم معاقبة الداي بشكل جيد ، وبعد إنسحاب الفرنسيين من الجزائر ، أرسلت الحكومة الفرنسية (دي فابري(Defabry) على رأس أسطول بحري مؤلف من فرقيطة وسفينتين حربيتين ، ووصل دوفابري إلى الجزائر في الحادي عشر من تشرين الثاني سنة ١٧٦٢ م ، وعندما حاول الفرنسيون أخذ السفن ، وضح لهم الداي بأن السفن تحت حمايته ، ولن يسمح للسفن بالتحرك ، ورد على شكاوى قائد الأسطول بشكاوى عديدة ، وذكره بأن الجزائريين منذ زمن بعيد وهم يعانون من سوء تصرف الفرنسيين ، فتراجع قائد الأسطول دوفابري عن إصراره وعاد إلى فرنسا من أجل الحصول على تعليمات جديدة .

عاد دوفابري في الرابع من كانون الثاني سنة ١٧٦٤ م وحينما كان

القنصل الفرنسي يذهب ويعود داخل سفينة الأسطول ، أطلق الداي له خمس طلقات تحية ، وعاقب ثلاثة من الرياس ، كما أنه أعدم الخزندار وقتل عدة أشخاص وأغلق الموضوع على هذا النحو[1] .

قدِمَ القبطان الإنكليزي هاريسون إلى الجزائر على رأس أسطول حربي ، وقدّم عدة شكاوى ، ولكنه لم يحصل على أي جواب ولا على وعود .

أعلنت الجزائر الحرب على توسكانيا وذلك لإعطائها جوازات سفر توسكانية لرعايا نابولي ، وبموجب هذه المعاهدة فلا يحق لهم منح أي جواز سفر إلا لرعاياهم ، وفي سنة ١٧٦٥ م تم نفي أربعين شخصاً من الأتراك إلى إزمير ، لأنهم خططوا لقتل الباشا ، كذلك فقد أمر الداي بمصادرة أموالهم . وعاش الباشا سنة أخرى ، ولكنه لم يخرج إلى الخارج ، ومات في الثاني من شباط سنة ١٧٦٦ م الموافق شهر رمضان ١١٧٩ هـ .

- ١٠ -

عهد الدايات

الداي محمد بن عثمان باشا - حقد الإنكشاريين - التمرد والثورة - زيادة الضرائب - الأسطول الدانماركي - تمرد القبليين - تبادل الأسرى مع الإسبان - طرد القنصل الإنكليزي - فشل الهجوم الإسباني سنة ١٧٧٦ م / ١١٩٠ هـ - فرار الأسرى الفرنسيين من وهران - الدرقاويون.

كان الداي محمد يعمل جليساً للسلطان ثم أصبح خزنداراً، وأثناء مرض علي باشا الأخير، تمكن الداي محمد بحزمه وحسن تدبيره من إفشال التمرد الذي أعده الإنكشاريون. وقد عُرف الداي محمد بقوة شخصيته وإرادته، ورجاحة عقله، وكان حاكماً عادلاً، لكنه خسيس ومحب للمال، وبالرغم من ذلك فقد كان تعيينه مناسباً، وهو يعتبر من أفضل الدايات الذين تولوا إدارة الجزائر، استمر حكمه فترة طويلة، وقد تمتع بلقب باشا مثل بقية الدايات الذين سبقوه.

عندما تسلم منصبه استدعى الرياس وتناقش معهم بموضوع الشكاوى المقدمة بحقهم، كما قلل من نسبة الإنكشارية وعمل على تأديبهم وتنظيمهم، فمنع أولاً الإنكشاريين من التجول بالسلاح ضمن المدينة، وكان يشدد عليهم بتنفيذ أوامره تنفيذاً تاماً، وبعد مرور شهرين من انتخابه داياً، حدثت ثورة في الحادي عشر من نيسان، فقتل سبعة من الثوار، وهرب ثلاثون منهم إلى

---

(١) دي غراممونت.

القبليين ، وفي شهر حزيران جرت محاولة لقتله أمام جامع التل ، فخنق ثلاثة عشر شخصاً من المتآمرين ، ثم نفى وكيل مصاريف القصر مع أعوانه إلى خارج البلاد ، بسبب الشكاوى المقدمة بحقهم .

وفي تشرين الثاني اجتمع الإنكشاريون بالقرب من رأس الخزان ، محاولين إعلان الثورة ، إلا أن الداي هاجمهم مباشرة وقتل أربعة منهم فأُخمد العصيان ، وكان محمد باشا يعامل الجزائريين معاملة حسنة وعادلة ، وبما أن نظام الإنكشارية فُسد منذ زمن بعيد ، لذلك فإن الإجراءات الحازمة التي اتخذها الباشا لم تحقق أي شيء ، وظل حتى تاريخ ١١٩٨ هـ/ ١٧٨٣ م ينزل بهم أشد العقوبات للحد من عصياناتهم المتكررة والمستمرة ، ورغم ذلك تصدى لهم وقاومهم بكل عند وشجاعة .

رفع محمد باشا قيمة الضرائب على السفن التابعة للبندقية وهولندا والدانمارك والسويد ، وذلك لقاء عدم التعرض للسفن الإنكليزية والفرنسية ، واستهل هذا الإجراء أولاً مع البندقية ، وقد جرت العادة على تقديم الهدايا من قبل القناصل للداي المنتخب حديثاً ، وبما أن قنصل البندقية لم يبادر إلى ذلك فقد طرده الباشا وأعلن عن إلغاء معاهدة ١٧٦٤ م ، وبصعوبة بالغة رضي الباشا بإعطائهم أربعة أيام لإقامة معاهدة جديدة ، وبغية عقد صلح جديد طلب أولاً خمسين ألفاً ، لتهدئة الوضع ، كما طلب بدلاً من العشرة آلاف التي تدفع ضريبة سنوية ثلاثة عشر ألف سغين ، وفي الثالث عشر من تموز سنة ١٧٦٧ م جاء أميرال البندقية أنكلو أموه (Angel Ammo) على رأس أسطوله ، ولكنه عاد دون أن يفعل شيئاً ، وفي الثامن من حزيران سنة ١٧٦٨ م شوهد الأسطول البندقي مرة ثانية ، وفي هذه المرة قدم / ٢٢,٠٠٠/ سغين ، وقبل زيادة الضرائب المفروضة ، وبما أنه تمكن من إبرام الصلح ، لذلك عاد إلى بلاده مسروراً ، كما قبلت هولندا زيادة كمية البارود والذخيرة وتأمين نقص الجزائر من السلاح علاوة على الهدايا الأخرى ، وفي الثاني والعشرين من شباط سنة ١٧٦٩ م جاء القبطان بينكس (Binkes) وجدد المعاهدة القديمة ، وكان إلى جانب سفينة سفير (Zefir) ثلاث سفن محملة بالهدايا ، وفي الثالث من آذار فُرغت حمولة السفن الثلاث في الميناء وسُلمت للباشا ، أما السويد فقد قبلت منذ الوهلة الأولى بدفع الضرائب وتقديم

المهمات ولوازم السفن وزيادة الضرائب إلى ثلاثمائة ألف ليفره(Livre) ، وجرت العادة على عدم اعتبار الهدايا من جملة الضرائب.

في زمن الداي السابق ، تمتع الإنكليز بنفوذ كبير ، فقد كان القنصل الإنكليزي يدخل ديوان الباشا حاملاً سيفه ، أما الداي محمد فقد قال: إذا أصر القنصل الإنكليزي على ذلك سأحطم رأسه بسيفه ، وبهذه الطريقة مُنع من دخول الديوان متقلداً سيفه. لم يكن الصلح مع الدانمارك سهلاً ، ففي سنة ١٧٦٧ م نقض الجزائريون الصلح معهم ، إلا أن الدانماركيين تمكنوا من عقد الصلح ثانية مع الجزائر ، وكان سبب نقض الجزائريين للصلح هو تأخر الدانماركيين عن تقديم الهدايا ولأنهم أخلوا بشروط المعاهدة فقد سمحوا لسفن همبورغ بالتجول تحت حماية علمهم ، ورفض الداي الاستماع لوصية الديوان الهمايوني ، وفي الأول من تموز سنة ١٧٧٠ م حشد الأميرال (قايسKaäs) أسطوله أمام الجزائر ، وكان الأسطول يتركب من أربع سفن حربية تحمل الواحدة منها سبعين مدفعاً ، إضافة إلى غاليوطة تفجير وفرقيطتين ، وأربع ناقلات[١]. إلا أن الأميرال رفع العلم الأبيض ، أما محمد باشا فقد أصدر أمراً إلى رئيس الميناء بالاستعداد ، كما أرسل القنصل الفرنسي للأميرال من أجل إعلامه (إن جئت بوصفك عدواً فنحن مستعدون ، وتستطيع أن تشرع بالقصف ، وإن كنت تريد عقد معاهدة فوجود غاليوطات التفجير لا لزوم لهم). فأجاب أحد الضباط الدانماركيين ، بأنه يطلب الأموال التي أخذها الرياس من السفن الدانماركية وأعلمه أن ميناء الجزائر محاصر ، وكانت استحكامات الجزائر قوية جداً ، وفي القلعة حوالي خمسمائة مدفع[٢]. وبغية التأثير على الاستحكامات يجب الاقتراب منها ، وهذا ليس بالأمر السهل ، وفي الرابع من تموز غادرت السفن الدانماركية ميناء الجزائر ، وفي السادس من تموز شن الجزائريون هجوماً مستخدمين الغاليوطات الحاملة للمدفعية ، ودار بين الطرفين قتال عنيف ، واستمر القتال والقصف حتى العاشر من تموز ، ولكن القصف الدانماركي لم يترك آثاراً كبيرة على المدينة ، لأن سفن العدو كانت بعيدة ، وكان محمد باشا يقول للدانماركيين

---

(١) دي غراممونت.

(٢) فور بيكه.

إنكم تحاربون الأسماك وأنا أتسلى بذلك، وفي الحادي عشر من تموز ساءت أحوال الطقس، وإذا كان الأميرال الدانماركي قد أرسل مندوباً للتفاوض، إلا أن مبعوثه لم يحقق أي فائدة لأن الجزائريين لم يتنازلوا عن شروطهم، فاضطر للإنسحاب والمغادرة. وواقع الأمر أنّ فشل الدانماركيين في تحقيق أهدافهم وإرغامهم على الانسحاب وعلائم الهزيمة بادية عليهم، أعطى الجزائريين دفعاً كبيراً إلى حد الغرور والتمرد والتباهي بالانتصار.

في سنة ١٧٧٢ م / ١١٨٦ هـ أرسل الدانماركيون الأميرال هوسلند (Hosland) إلى الجزائر، فعامله الجزائريون معاملة قاسية جداً، ولم يكتفوا بالاقتناع عن دفع الأموال التي سلبوها من السفن الدانماركية، بل طلبوا منه دفع خمسين ألف سغين وأربعة مدافع من البرونز وأربعمائة قنبلة وخمسمائة قنطار بارود وخمسمائة صارية للأشرعة، وكميات كبيرة من الأخشاب ومواد البناء، والعديد من الأحبال الضخمة، ودفع جميع الهدايا المترتبة على السنوات الماضية أثناء قطع العلاقات، وبالفعل فقد استجاب الأميرال للطلبات الجزائرية ووعد بتسليمها بأقرب فرصة.

في سنة ١٧٦٧ م / ١١٨١ هـ تمرد القبليون، وأعلنوا عصيانهم، وقتلوا ثلاثمائة جندي من العساكر التي كلفت بتأديبهم، وبعد عودة العساكر مهزومين، عمد الداي إلى قتل اغا الإنكشارية، واتهمه بالخوف والجبن، وعين مكانه خوجة الخيل (مسؤول الخيل) وأرسله لتأديبهم، بعدما زوده بأربعمائة إنكشاري وإثني عشر ألف متطوع من الأهالي (أهالي تيطري ووهران).

تحرك أمير قسنطينة باتجاه صطيف من أجل تعزيز القوة ومساندتها، وقد كانت جميع جبال القبائل ملتهبة بالثورة، وكان تحت إمرة المرابط سيدي أحمد السعدي أربعون ألف مقاتل، ونشب القتال بين الطرفين بالقرب من عمنوش (Amnes) وأسفرت المعركة عن قتل القائد التركي وألف ومائتي إنكشاري وثلاثة آلاف مقاتل محلي، وفقدان المعدات الثقيلة، ولاحق القبليون الجيش النظامي حتى أسوار المدينة، وانتشروا في سهول متيجة، فهبوا سكان المناطق المجاورة وقطعوا الطرق وسطوا على القوافل المحملة بالقمح

وغدت الأرزاق لا تصل إلى مدينة الجزائر، مما أدى إلى حدوث مجاعة شديدة، فنقم الجميع على الداي، وخلال ثلاثة أشهر جرت ثلاث محاولات لاغتياله، فانسحب إلى القصر ولم يخرج منه[1].

في سنة ١٧٦٩ م / ١١٨٣ هـ، شكل الداي قوة جديدة، وأرسلها لقتال القبليين، ولكنه أمر قادته بعدم التوغل، وعدم الاشتباك معهم وجهاً لوجه، بل بالتخفي والاستقرار في المواقع المنتشرة بينهم، ومحاربة الأقرب فالأقرب، وقد أسفرت هذه الخطة عن نتائج إيجابية، وتسبب في فرض حصار على القبائل وتمكنت القوات النظامية من قطع المؤن عن الثوار، فانتشر الجوع في صفوفهم ودب الخلاف بينهم، فلجأوا إلى مهاجمة البربر في فلساس وقصطاس، وفي تموز سنة ١٧٧٢ م / ١١٨٦ هـ طلب القبليون الموجودون في جبال بليدة ويسر الصلح، وفي تشرين الأول سنة ١٧٧٣ م/ ١١٨٧ هـ تمكن أمير قسنطينة صالح بك من إخماد الحرب وإقرار الصلح والسلام بعد حرب واقتتال استمر سبع سنوات.

في سنة ١٧٦٨ م / ١١٨٢ هـ تم تبادل الأسرى بين الجزائريين والإسبان على نطاق واسع، فمنذ مائتين وخمسين سنة، والمجلس الملكي الإسباني يعارض بيع وشراء وتبادل الأسرى، منطلقاً من مبدأ أن تبادل الأسرى يؤدي بشكل أو آخر إلى زيادة عدد المسلمين وتقويتهم، وبالرغم من ذلك فقد تم تبديل ألف ومائة وستة أسرى في سنة ١١٨٢ هـ، وبقي سبعمائة وعشرة أسرى إسباني، فدفع الإسبان فديتهم أكثر من سبعة ملايين ليرة.

دفع البرتغاليون مليونين مقابل أسراهم، ودفع النمساويون خمسمائة ألف ليرة، وكانت فدية الأسير الواحد ألفاً ومائتي قرش للمالك الخاص. وقد ارتبط الداي مع الفرنسيين خلال تلك الفترة بعلاقات جيدة وحسنة.

بعد حرب السبيل (Cesme) هاجمت سفينة روسية السفينة الفرنسية التي تنقل الحجاج الجزائريين، لأن الجزائر إحدى الولايات العثمانية، فالدولة العثمانية كانت تولي الحج اهتماماً كبيراً، وحينما حاول القبطان الروسي أورلوفا (Orlofa) ضرب السفينة أوضح له طاقم السفينة إن القيام بمثل هذا العمل سينتج عنه أحداث خطيرة، فترك السفينة.

أرسلت إستانبول إلى الجزائر مائتي مدفعي (رامي مدفع)، كما أحضر القنصل الفرنسي من باريس المعلمين والمهندسين المختصين بصب المدفعية وكان من جملتهم معلم يسمى (دوبونت Dupont)[1].

كانت علاقة الجزائريين بالإنكليز سيئة للغاية، وكان القنصل الإنكليزي يمارس ضغطه باستمرار على الداي من أجل فتح مؤسسات لتصدير الأرزاق والأطعمة، وبالحقيقة فإن البلاد كانت بحاجة ماسة لمثل تلك المؤسسات، ولكنها ستكون سبباً في حدوث أعمال عصيان وتمرد، وفي النهاية طرده الداي لأنه أصر على دخول مجلسه متقلداً سيفه.

وفي السابع والعشرين من تشرين الأول سنة ١٧٧٢ م جاء القبطان ويلكنس (Wilkins) إلى الجزائر معلناً التجاءه وطالباً مساعدة الديوان لإنقاذه لأن الأسرى فروا من سفينته، وبعد دخوله الديوان قدم شكواه. فأخبره الديوان بأنه لا يمكن استقبال القنصل المطرود في قصر الجينية، وأما الأسرى فهم مكبلون بالحديد، وقد حدد له يوماً لرؤيتهم، وهكذا عاد القبطان إلى بلاده دون أن يحقق طلبه.

وفي الحادي عشر من تشرين الأول سنة ١٧٧٣ م / ١١٨٧ هـ جاء ستوف Stoff على متن فرقيطته الآرم (Alarm) وأخبره الداي بأن سبب الخلاف هو القنصل، فإذا كنتم تريدون الصلح فعليكم تبديله.

في سنة ١٧٧٤ م / ١١٨٨ هـ جاء القائد دنيس (Denis) إلى الجزائر على رأس سفينتين وأحضر معه القنصل فراسر (Fraser)، ولكن الجزائريين لم يستقبلوه ولم يسمحوا له النزول من السفينة.

وفي السادس عشر من شباط سنة ١٧٧٥ م، جاءت سفينة الآرم حاملة أمر الصلح من السلطان، ويأمر الفرمان بترضية الإنكليز، وإذا كان من غير الممكن قبول القنصل فراسر، فعلى الأقل قبوله لمدة خمسة عشر يوماً، لكن الجزائريين لم يهتموا بالفرمان نهائياً، وبالرغم من المباحثات والإلحاحات من قبل دنيس للداي، فقد أسفرت النتيجة عن تزويد دنيس برسالة إلى ملك إنكلترا يعرض فيها الداي شكواه من القنصل القديم، ويطلب منه تعيين قنصل جديد إلا أن القنصل الإنكليزي الجديد الذي قدم إلى الجزائر سنة ١٧٧٦م ١١٩٠ هـ، أظهر من جديد مسألة السيف.

وفي هذه الأثناء كان الداي محمد قلقاً بشأن التحركات التي تقوم بها كل من روسيا وإنكلترا وإسبانيا والسويد، وخوفاً من شن هجوم مفاجيء ضده، عمل على تجهيز وتقوية الاستحكامات، وأشرف بنفسه على تنفيذها، ومن أجل تشجيع الأسرى وحثهم على العمل وزع عليهم النقود، كما أصدر الأوامر إلى أمراء البلاد لتجنيد أكبر عدد ممكن من العساكر، ووضعهم على أهبة الاستعداد، ولدى صدور أي إشارة عليهم التحرك فوراً، وبنفس الوقت سعى بالإقناع وبالمال لتحسين علاقته بالقبليين والمرابطين وحثهم على الجهاد، أما بالنسبة لوضع الإسبان في وهران فقد تشكلت لديه قناعة بأنهم لا يستطيعون العيش فيها بهناء، على الرغم من زيادة المصارف الباهظة التي أرهقت كاهل الحكومة الإسبانية، إلا أن الإسبان كانوا يتسلحون بشكل دائم ومستمر. إضافة إلي ذلك فإن الملك الإسباني شارل الثالث كان قد جمع أسطولاً ضخماً مؤلفاً من ست سفن حربية كبيرة وأربع عشرة فرقيطة وأربع وعشرين سفينة من كروفت وغاليوطة تفجير وثلاثمائة وأربع وأربعين سفينة نقل تحمل ثلاثة وعشرين ألف وستمائة جندي في مدينة قرطاجة، وقد أسند قيادة الجيش للجنرال أوراي (O'reilly) وقيادة الأسطول للأميرال دون بيدرو كاستجون (Don Pedro castejon). وكلفهما بمهاجمة الجزائر وإزالتها.

كان من المتوقع أن يتحرك الأسطول في منتصف أيار سنة ١٧٧٦ م / ١١٩٠ هـ، ولكنه تأجل حتى الثاني والعشرين من حزيران بسبب سوء الأحوال الجوية، وفي الأول من تموز شوهدت السفن الإسبانية أمام الجزائر، وكان أسطول العدو يراقب الساحل، فعلم قائد هيئة العدو أن الساحل بكامله مجهز ببطاريات المدفعية بشكل مدهش، وبعد تردد قليل، تقرر اختبار مصب نهر الحراش مكاناً لإنزال القوات، ونتيجة لاشتداد الرياح الشرقية، تأجل إنزال القوات حتى الثامن من تموز، وخلال سبع ساعات أنزلوا سبعة آلاف وسبعمائة جندي واثني عشر مدفعياً، ولم يلاقوا خلالها أي مقاومة، وما أن أنزلوا قواتهم حتى بدأ الجزائريون بإطلاق النار على الأسطول من خلف الرمال التي رست بالقرب منها قطع أسطول العدو، وبدأت نيران الجزائريين تحصدهم حصداً، فأدركوا أنهم وقعوا في كمين،

وقد حاول الإسبان التسلل إلى تلال مرتفعة تبعد عن الساحل قرابة ستمائة متر، ولكن كثرة الصيادين الذين اختبأوا ضمن المنازل والمزارع منعتهم من التقدم خطوة واحدة وبنفس الوقت بدأ الخيالة المحليون والقبليون بخيولهم الأصيلة شنّ هجومهم ذات اليمين وذات الشمال، كما أن بطاريات المدفعية الثلاث الموجودة في الحراش والحماد أخذت تلتقط جنود الإسبان الفارين من أتون النار، أما الجواجر التي أقامها ضباطهم بغية الإلتجاء إليها، لم تفدهم بأي حاجة، وتمكنت المدفعية الجزائرية من السيطرة على جميع نقاط الفصل الموجودة لدى الإسبان، وتعرض الإسبان خلالها لخسائر جسيمة، وبأقل من خمس ساعات قتل من الجيش الإسباني / ١٩١/ ضابط و / ٢٠٨٨/ جندي أو ظلوا خارج المعركة، وأحكم الحصار حول الإسبان تماماً، وغدا الصمود لا يجدي نفعاً لأن القوات الجزائرية تتزايد باستمرار، وهرع جميع سكان السواحل والمدن للحصول على الغنائم.

في بداية هذا المشهد نزل قائد الأسطول الإسباني من سفينته فلاسكو (Velasco) ولكنه لم يتمكن من جمع جنوده بالرغم من الجهود التي بذلها، كما فشل المتطوعون الإسبان والألوية الدفاعية والحامية من تنظيم صفوفهم، وذهبت جهودهم سدى، وعندما صعد الجنرال إلى التحصين المنشأ على عجل من جذوع الأشجار بغية تفقد جنوده، أدرك أن التعب وقلة النوم والماء أنهكت قواهم، لأنهم خلال ثمان وأربعين ساعة لم يعرفوا طعم النوم والراحة، إضافة إلى اشتداد الحر وقلة الذخيرة، فغدت بنادقهم بدون طلقات، وتكونت لديهم قناعة بعدم القدرة على الصمود والبقاء، ولا حتى الرد على نيران بنادق الجزائريين التي تتزايد باستمرار، وقرر المجلس الحربي الذي عقده هناك الانسحاب والعودة.

وفي الساعة الثالثة ليلاً من يومي ٨ ـ ٩ تموز، تمكن الذين نجوا بأرواحهم ورؤوسهم من رصاص وسيوف الجزائريين من إلقاء أنفسهم في السفن، وقد عمت الفرحة وجوههم، لتمكنهم من الإقلاع والإبحار، وبالطبع فقد تركوا المدفعية والمعدات الثقيلة التي أنزلوها إلى نقاط الاستحكام والتحصين، وظل الأسطول في الميناء حتى الرابع عشر من نفس الشهر، وكان الجنرال يفكر بقصف المدينة انتقاماً لهزيمته، ولكن المجلس

الحربي لم يوافقه على ذلك ، فتحرك الأسطول باتجاه إسبانيا ، وكان كلاً من الأميرال والجنرال يلقي أسباب الهزيمة على الآخر ، ولم يستطيعا التفاهم بأن من أسباب الهزيمة هو عدم قصف السفن الحربية للسواحل ، وحماية وتمشيط المنطقة قبل إنزال قواتهم من السفن التي دمرها الجزائريون والبالغ عددها أربعاً وأربعين سفينة .

إن تردد الجنرال باختيار نقطة الإنزال استغرق سبعة أيام ، ففي مثل هذه الحالة يجب أن يكون قد تم اختيار نقطة الإنزال مسبقاً ونشر القوات بداخلها بأقصى سرعة ، فنزل أولاً من السفن سبعة آلاف وسبعمائة جندي ، وبقي في السفن الأعداد الأخرى من الجنود ولم يُعرف السبب الحقيقي في عدم إنزالهم[1] .

عم الفرح والسرور مختلف مناطق إفريقيا الشمالية ، فاندفع الشعراء ينظمون قصائد المدح والثناء بحق المجاهدين[2] . وأقيمت الروايات الخرافية عن بطولة المجاهدين وما زالت تردد على ألسنة الناس حتى الآن[3] .

سطع اسم الداي في مناطق العالم الإسلامي وبخاصة في شمال إفريقية ، وأغرق بالتعظم والاحترام ، لأنه لم يترك شيئاً للصدفة ، وكوفىء الباشا على رجاحة عقله ، وبُعد نظره بإتخاذ الاحتياطات والتدابير اللازمة للدفاع .

في السادس والعشرين من حزيران تحركت السفينة بوستلورن (دالغر Postillon D'alger) مع فرسانها وهي تحمل قناصل فرنسا والسويد والدانمارك وهولندا مع عائلاتهم خوفاً من تعرضهم للخطر أثناء الهجوم ، ونقلاً عن القبطان دومرغو(Domergue) فقد بلغ عدد القوات الجزائرية التي قدمت من

(١) غالبية الوثائق المتعلقة بهذا الهجوم نشرت فى دليل إفريقيا لسنة ١٨٦٤ م فى الصفحات التالية ٥٥٠ ، ٧٢ ، ٣١٨ ، ٤٠٨ ، ولسنة ١٨٦٥ م ص ٩ ، ٣٩ ، ٣٠٣ ، وفى الصفحه الثالثة لكتاب دي غراممونت .

(٢) كتاب الزهور البراقة .

(٣) دي غراممونت .

مختلف الأطراف ما يزيد على مائة وخمسين ألف مقاتل، فقد وجد في رأس ماتيفو بقيادة صالح بك أمير قسنطينة / ٤٠/ ألف مقاتل، وفي متيجة بقيادة باي تيطري / ٤٠/ ألف جندي، وفي قلادة بأمرة خليفة أمير مسكرة / ٢٠/ ألف مقاتل، وفي آرزو بقيادة أمير مسكرة السابق / ٢٠٠٠/ مقاتل، وفي باب عزون بقيادة آغا السباهية / ٦/ آلاف جندي تركي، وفي باب القصر / ٣٠٠٠/ جندي من البحارة، وفي رأس كاكسين / ٢٠٠٠/ مقاتل من قبيلة زواوة[١].

عند رؤية أسطول الأعداء، نُقل كافة الأسرى إلى مديه (مدة Meda) ووضعوا تحت مراقبة شديدة، تحسباً من إعلانهم التمرد والعصيان، ولم يتعرض القناصل والرعايا المسيحيين إلى مضايقات أو إزعاج، وكان الداي محمد يعامل الأسرى والجرحى بمنتهى الإنسانية[٢].

ولدى سماع الداي بأن إسبانيا تستعد لشن هجوم جديد إنتقاماً لهزيمتها، قام بتحصين النقاط الضعيفة في الساحل، وأنشأ الإستحكامات الجديدة، ووضع بطاريات المدفعية فيها، وطلب من الدول الأوربية التي تتفق مع الجزائر مده بالسلاح والذخيرة وقدم الهدايا الثمينة للمقاتلين المحليين، وأرسلهم إلى مناطقهم فرحين مسرورين، ولم تتعرض القنصلية الفرنسية خلال الهجوم إلى أي أذى، بل على العكس من ذلك فقد أصبحت ملجأ للأسياد الإسبان.

وعقب الانتصار، أرسل الداي محمد حفيده حسن بك ووكيل خراج القصر إلى السلطان عبد الحميد الأول مقدماً له الهدايا وعارضاً عليه تفاصيل الحرب والانتصار الذي حققه الجزائريون، وقد رحبت استانبول بحسن بك وتوافد عليه جموع غفيرة لتهنئته بالنصر، ولدى عودته قُدمت له الهدايا، وأرسل للداي صواري وأشرعة للسفن وكميات كبيرة من لوازم السفن إضافة إلى برده وسيف وطره مرصعة بالجوهر.

---

(١) كتب هذا النص في جريدة دوفرانس لسنة ١٧٧٥ م ص ٢٦٣، وفي الحقيقة فقد بالغ القبطان بذكر عدد المقاتلين الجزائريين استناداً إلى ما قاله دي غراممونت.

(٢) دي غراممونت.

لاحظ حسن بك بأن عودته إلى الجزائر بسفينة عثمانية ستعرضه للخطر، ومن باب الاحتياط والحذر ركب سفينة فرنسية تسمى سبتمانية (Septimane) وقبل وصوله إلى الجزائر بمسافة قصيرة، وقعت السفينة بأيدي الأسطول الإسباني خلال قيامه بدورية البحر، فنُقلت السفينة إلى قرطاجة بتهمة تحميل مواد مهربة، فقرر مجلس الأميرالية الإفراج عن السفينة وطاقمها، واعتبرت الأشياء التي بداخلها غنائم وكان بداخلها / ٥٠٠/ قنطار حديد و/ ٨٢/ صارية شراعية و/ ٤٢٠٠/ شراع من القماش و/ ٥٠٠/ قنطار من الحبال، ولكن قبطان السفينة احتج على قرار المجلس، وهرع السفير الفرنسي معلناً احتجاجه، إلا أن موقفه وتحمسه كانا ضعيفين، وقد ترك هذا الحادث تأثيراً كبيراً لدى الجزائريين.

استدعى الداي محمد القنصل الفرنسي دولافاليره (Delavaliere) إلى مجلسه وأخبره بأن فرنسا مسؤولة عن حماية سفنها، وطلب منه إعادة الهدايا المرسلة إليه من قبل السلطان كاملة، وذلك استناداً لنصوص المعاهدة المبرمة بينهم.

لم يكن القصر الإسباني الملكي مخلصاً بمعاملته مع فرنسا، ولم يفكر بالنتائج المرتبة عن ذلك، ومدى تأثيراتها على الاتفاقات والمعاهدات المعقودة، بل على العكس من ذلك، فقد اعتقد الإسبان أن وقوع حسن بك والأشياء في أيديهم سيسهل الإتفاق مع الجزائريين وسيعجل به، وفي النهاية أعاد الإسبان الأشياء التي صادروها، واعتبروا ذلك لطفاً منهم وليس من حق الجزائريين، وزيادة على ذلك فقد قدموا لحسن بك هدايا ثمينة جداً، وأرسلوه إلى الجزائر، وقبل مغادرة حسن بك إسبانيا اعترف بحسن معاملتهم وأثنى عليهم وتعهد لهم بإعادة الحق إلى مجراه الطبيعي والوقوف ضد الفرنسيين، وأسفر عن ذلك أيضاً، إهمال القنصل الفرنسي، لكنه لم يظهر يأسه وحزنه من المعاملة التي عُومل بها مؤخراً.

فشل الملك الإسباني في التوصل إلى إقامة الصلح مع الجزائريين، ورغم توسطه مع السلطان العثماني فإن الجزائريين رفضوا الصلح معه رفضاً باتاً، لأن الداي محمد كان متأكداً من سوء نية شارل الثالث، لأنه كان يعلم أنه لو أجرى مفاوضات معه، فإن هذا يعني إقامة الصلح مع جنوة ونابولي

وصقلية وليفورن، وهذا لا يرضاه لأنهم ساهموا مساهمة مباشرة في الحملة الصليبية التي أُعدت على الجزائر سابقاً، حينما كان البابا بيوس السادس يدعو إليها، ولولا هزيمة الأسطول الإسباني أمام الجزائـريين في قاديش، لفعـل أهل الصليب مثلما فعلوا سنة ١١٩٤ هـ / ١٧٨٠ م.

أصبح نشاط الداي محمد فاتراً تجاه اتحاد دول البحر الأبيض المتوسط، ففي السابق كان أكثر حماساً وجرأة ونشاطاً، وقد أنزل في هذه الأثناء اثنتي عشرة سفينة حربية، وأعلن الحرب على الأمبراطورية النمساوية، وبالرغم من إصرار الديوان الهمايوني على عدم معاداة النمسا ومحاربة سفنها، إلا أنه تجاهل وصية الديوان الهمايوني، وبدأ بالاستعداد، وبغية حماية الميناء من هجوم مفاجىء من الأعداء صنع مائة زورق حربي من نوع شالوبه*، وكان في كل يوم يدرب الجنود عليها، وكان يقوم بهذه الأعمال المجهدة بالرغم من تقدمه بالسن وشعوره بالمرض وبما أنه كان يقوم بهذه الأعمال خلال تعرض الجزائر لقحط شديد، لذلك أوصى موظفيه وقادته الالتزام بالدقة والانتباه والإخلاص في عملهم.

هاجم الجراد جميع المحاصيل الزراعية في الجزائر خلال سنوات ١٧٧٨ م و ١٧٧٩ م، ومع نهاية تموز لم يبق للأهالي طعام يأكلونه سوى الجراد

وفي هذه الأثناء حدث بين فرنسا والجزائر مسألتان، فقد أُسر أحد القباطنة الفرنسيين ويدعى الريس قدوس (Kuddus Reis) من قبل الجنويين أثناء تجوله في إحد المناطق التابعة للمياه الإقليمية الجزائرية، وبموجب المعاهدة المبرمة بين الطرفين، فقد تحملت الجزائر قسطاً كبيراً من مسؤولية أسره، لكن هذه المسألة تم حلها بشكل مرضٍ، أما المسألة الثانية فهي مشكلة الأسرى الفرنسيين.

(*) شالوبة Salope. وهى نوع من السفن السراعية يبلغ طولها ٢٠ ذراعاً، ويُقام علها صاريتان وتتسع لاثنى عشر مدفعاً ويعين عليها رئيس يساعده معاونان ومسؤول شراع وكاتب وشاويش ودليل وخمسة من رماة القنابل وسبعة أفراد من عناصر المدفعية وتمتاز بسرعتها وقدرتها على الالتفاف.

أعلن الإسبان عن حملة تجنيد بحجة إرسالهم إلى المكسيك والبيرو حيث الذهب والمجوهرات، ولهذا فقد اندفع الجميع للتطوع وبخاصة الفرنسيين، وبعد ذلك نظموا في الجيش وأرسلوا إلى وهران بدلاً من أمريكا، وكلفوا بالحراسة تحت القلعة، وحكم الإسبان عليهم بالعيش ضمن الجدران، وقد تعرضوا خلال تواجدهم للإصابة بالأمراض الصفراء عوضاً عن المعاملة القاسية التي كانوا يتلقونها باستمرار، وبالطبع إنهارت معنوياتهم إضافة إلى قلة الطعام والنقود، وهذا ما انعكس عليهم فيزيولوجياً ونفسياً.

كان أفراد هذه الحامية المرتزقة تبغي الفرار من الجحيم، ولكنهم كانوا يعلمون أنهم إذا هربوا من هنا فلن يجدوا لأنفسهم وطناً آخر، ولكن تلك المشقات كانت تؤخذ بعين الاعتبار، فغدوا مستعدين لتغيير دينهم من أجل الخلاص مما هم فيه، وعلاوة على ذلك فإن عقولهم كانت مليئة بالثراء السريع من جراء احترافهم لمهنة القرصنة، أو ما يضمنه السودان من ثروات، وبناءً على ذلك فقد هربت الحامية على مرحلتين، قسم منها وقع بأيدي الأهالي وغدا مصيره مجهولاً، والقسم الآخر وقع بأيدي الجيش، فأرسلهم إلى الجزائر، وهناك وضعوا بالسجن، ولم يقبل إسلامهم.

كان الأسرى يمنعون من دخول الإسلام تحت تأثير القناصل والأسياد الروحيين، ولهذا فقد شُنت حملة ضد القناصل وكبير القساوسة وقتل عدد منهم خلال أعمال الاضطراب والفوضى التي حدثت احتجاجاً على تصرفهم.

وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول سنة ١٧٨١ م / ١١٩٦ هـ، دخل أحد هؤلاء الأسرى إلى غرفة القسيس بقصد الاعتراف (طرد الخطيئة) فطعن القسيس قوصان (Kosan) عدة طعنات بخنجرة، وبنفس اليوم حاول قتل القنصل، ولدى سماع القناصل بهذه الأحداث أخذوا الحيطة والحذر، ونتيجة لذلك أُعدم الأسرى المذنبون، وفقد الباقون حريتهم، وبالنتيجة فقد ازداد حقد الأسرى.

كتب القنصل الفرنس إلى بلاده تقريراً بالأحداث التي جرت، وطلب السماح له بشراء بعض الأسرى[١]. وقد نجح في هذا العمل وتمكن من شراء أعداد كبيرة منهم.

في سنة ١٧٨٠ م / ١١٩٤ هـ انتشر الفساد لدى أصحاب الطريقة الدرقاوية ، وهي طريقة أنشئت منذ عصور قديمة ، واتخذ مؤسسها فاس مركزاً له ، وقد وُجد في الجزائر وبجوار وهران بعض المنتمين لهذه الطريقة ، وحتى هذا التاريخ لم يمارس أصحابها أي نشاط سياسي ، ففي بعض الأحيان كان الدرقاويون يحرضون حكام فاس والمرابطين على مهاجمة الأتراك والثورة عليهم ، وقد أقاموا مركزاً لهم بالقرب من عينتموشنت (عين تموشنت) واتخذوا مركز عين الموت نقطة للفساد.

في سنة ١٧٧٧ م / ١١٩١ هـ توفي أمير الغرب ، وكان من المتوقع أن يخلفه محمد بن عثمان إلا أن رجلاً آخر عُيّن ويدعى حجي مصطفى ، وبقي محمد بك نائباً له .

تمرد الدرقاويون في ولاية الغرب بقيادة الشيخ عبد القادر بن الشريف ، وبما أن مصطفى بك لم يتحرك بسرعة ويظهر الشدة تجاههم ، فقد ازدادت جرأة الشيخ عبد القادر واستولى على مسكرة ، فأضاع على مصطفى بك فرصة الجهاد في إستعادة وهران.

في سنة ١٧٨٠ م / ١١٩٤ هـ جهز مصطفى بك جملة جديدة ضد الدرقاويين ، إلا أنه توفي في الطريق ، فعين مكانه نائبه محمد بن عثمان ، وقد تمكن محمد بك من سحق الدرقاويين وتشتيتهم ، وظل صوتهم لعدة سنوات لا يُسمع ، وخلال فترة الاستقرار هذه ، تمكن أمير العرب من طرد المفسدين وقطاع الطرق واللصوص من مناطقه ، وأخضع القبليين لسلطته ، وألزمهم بدفع الضرائب ، وبنفس الوقت كان يزيد من ضغطه على وهران. ويعمل بكل جهده لتشديد الخناق على الإسبان فيها[١] .

لم يتراجع الجزائريون عن مهاجمة السفن النمساوية ، ففي سنة ١١٩٥ هـ ألقو القبض على ست سفن نمساوية محملة بالمحصولات ، فعمد نائب السفير البارون هربرت Herert إلى مراجعة الديوان الهمايوني وأعلمه بما فعله الجزائريون ، فأصدر السلطان فرماناً إلى محمد باشا يأمره بإعادة السفن وما فيها إلى النمسا ، فأجابه الداي بأنه لم يصادر ست سفن بل ثلاث

---

(١) فور بيكة . (Forbige) .

سفن فقط،وهذه السفن ليس لدى قباطنتها أوراق تؤكد هويتهم ، كما أنها كانت تنقل البارود إلى أعدائنا الإسبان والبرتغاليين ورغم ذلك فقد أصر السلطان على إعادتها[1] .

في سنة ١١٩٧ هـ تم تعيين القنصل الفرنسي (كريسكركي Keriskercy) وكان الجزائريون أثناءها ، يخوضون حرباً مع جميع دول أوربا ما عدا فرنسا ، وبما أن الداي رفض السماح للقنصل الإنكليزي بالدخول إلى مجلسه ، لذلك لجأ القنصل المستهتر إلى تهديد الداي ، فأمر الداي بطرده نهائياً من البلاد سنة ١٧٨٣ م / ١١٩٨هـ[2] .

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٧٩/ ص ٢ (أوائل رمضان ١١٩٥ هـ) .

(٢) أدبي غرامونت .

- ١١ -
عهد الدايات

الهجوم الإسباني سنة ١٧٨٣ م / ١١٩٨ هـ ـ الهجوم الصليبي ١٧٨٤ م ـ المحاولات الإسبانية بشأن الصلح ـ مفاوضات الصلح من فرنسا ـ الوباء ـ محاولة الاغتيال ـ بيع الأسرى الفرنسيين ـ أحداث صنجقي الشرق والغرب ـ وفاة محمد باشا.

تلاشت قيمة إنكلترا في أعين الإسبان إثر انتصارهم عليها في ميورقة، وخاصة بعدما استعادوا هيبتهم عليها، فتلاحقت بذلك الضربات على إنكلترا إثر حرب الاستقلال الأمريكية وهزيمتها في ميورقة، وقد رفض الجزائريون خلال تلك الفترة إقامة الصلح مع روسيا.

بعد انتصار الإسبان في جزر البليار، اعتقدوا أنهم قادرون على تهدئة التوتر القائم بينهم وبين الجزائريين، فأخذوا يتقربون منهم، وازداد هوسهم بذلك.

في هذه الأثناء أرسلت إسبانيا سفيراً إلى السلطان العثماني وحملته بالهدايا الثمينة. أراد السفير مقابلة الصدر الأعظم، ولكن هذا مخالف لقواعد الباب العالي رسمياً، وعندما كان الصدر الأعظم يتفقد المدفعية السريعة في (محلة الورق)، التقى معه السفير الإسباني من باب الصدفة على ما يبدو[1].

ففي العاشر من ذي القعدة سنة ١١٩٧ هـ / ١٧٨٨ م، عندما كان

(١) تاريخ جودت مجلد ٣ ص ٨٠

الديوان الهمايوني يحتفل بتأييد عهد نامة جديد، قدم السفير الإسباني طالباً السماح له بالدخول، فسمح له بعدما قبلوه في مجلسهم، فقدم لهم الهدايا وقدم للسلطان العثماني ستين أسيراً من غير الجزائريين، كان الإسبان قد أسروهم خلال الحرب الإسبانية الجزائرية، وهؤلاء الأسرى من الممالك العثمانية، قُدموا إلى السلطان بعدما ألبسوهم الملابس التي تليق بمقام السلطان، قدم لهم السلطان ١٥٠٠ قرش، وآغا دار السعادة قدم لهم ١٠٠٠ قرش، والصدر الأعظم أعطاهم أيضاً ١٠٠٠ قرش.

كانت إسبانيا تريد إشراك الجزائر بالصلح المعقود بين إسبانيا والدولة العثمانية فسلم الفرمان المتعلق بالصلح للسفير الإسباني[1]. وأرسل السلطان كبير البوابين لإخبار الجزائريين بالصلح مع إسبانيا[2]. على الرغم من فرمان السلطان إلا أن محمد باشا لم يعترف بالصلح مع إسبانيا وقال: (إنني أعلم أن ملك إسبانيا شارل الثالث يقوم بتجهيز أسطوله، وتجنباً من أن يعتقد أنني خفت منه لذلك هرعت إلى عقد الصلح، ولهذا فلا أريد التحدث بهذا الموضوع)، وإن كل شيء غداً مرتبطاً بالسلاح والقوة.

عندما كان أسطول الجزائر يحارب جميع دول أوربا، كانت الفرمانات تأتي من استانبول، وتطلب من أسطول الجزائر الالتحاق بالأسطول الهمايوني، وكانوا ينفذون الأوامر ويؤدون واجبهم على أكمل وجه.

في سنة ١٧٨١ م / ١١٩٥ هـ نقض سكان البندقية الاتفاقية، واجتمع الكفرة الذين كانوا يقومون بخدمة السفن في رويودريا، واستولوا على جزيرة مورة، وكان يفهم من حركاتهم بأنهم يريدون الاستيلاء على بقية جزر البحر الأبيض المتوسط، لذلك تقرر إرسال الأسطول الهمايوني للتصدي لهم في أوائل الربيع. كما وجّه فرمان إلى أوجاقات الغرب يدعوهم للاشتراك في هذه الحرب، فشاركت الجزائر بعشرين زورقاً حربياً وأربع سفن ساحبة، وتونس بخمسة زوارق وسبع سفن ساحبة، وطرابلس الغرب بخمسة زوارق حربية

(١) تاريخ جودت جلد ٣ ص ٨١

(٢) دي غراممونت.

وثلاث سفن ساحبة، وخصص لكل زورق حربي ألفي قطعة ذهبية، ولسفينة الساحبة ألف قطعة ذهبية، وبناءً على رغبة الديوان الهمايوني فقد أضيف ألف أخرى مكافأة للأبطال الغرباء، فأصبحت حصة الجزائر خمس وأربعين ألف ليرة ذهبية، وتونس سبع عشرة ألف ليرة ذهبية وطرابلس الغرب ثلاث عشرة ألف ليرة ذهبية[1]. كما قدم الديوان الهمايوني لكل داي وآغا وكاخيا وقبطان زورقاً وسفينة ساحبة وحلة فخرية، فكان نصيب الجزائر تسعاً وعشرين حلة وتونس سبعاً وعشرين حلة وطرابلس الغرب اثنتي عشرة حلة[2].

وفيما بعد وفي أوائل ذي الحجة سنة ١١٩٥ هـ، تغيَّر نوع وعدد السفن التي ستقدمها الأوجاقات فطلب من الجزائر تقديم اثني عشر قليوناً وثلاث سفن ساحبة، ومن تونس ستة قليونات ومن طرابلس الغرب ثمانية قليونات، وإستناداً إلى هذه التغييرات، تغيَّر مقدار الأموال التي كانت سترسل إلى الأوجاقات، فأصبحت مخصصات الجزائر ثمانياً وعشرين ألف قطعة ذهبية وتونس اثنتي عشرة ألف قطعة وطرابلس الغرب ست عشرة ألف قطعة ذهبية[3].

اتحدت سفن الجزائر وتونس وطرابلس الغرب مع قطع الأسطول الهمايوني في سنة ١١٩٦هـ، وفي جمادى الأولى سنة ١١٩٦هـ دخلت قطع الأسطول الهمايوني المضيق بقيادة القبطان مصطفى باشا، وأمرهم القبطان بعدم الإنفصال لأنهم سيتحركون بالوقت المناسب، وكان هذا الأمر بناءً على أوامر الديوان الهمايوني،[4] وقد عُلم بأن يتفاهموا بشأن مهاجمة الجزيرة، إزاء ذلك أصدر الديوان الهمايوني أمراً مستعجلاً إلى قباطنة الأوجاقات في شوال ١١٩٦هـ يأمرهم بالتحرك السريع والاتجاه مباشرة إلى سواحل جزيرة المورة من أجل احتلالها وقصف قلاعها دون أي إهمال أو تأخير، والإتصال مع قبطان دريا مصطفى باشا لإعلامه بالزمن المناسب للتحرك.[5]

في سنة ١١٩٧هـ شنت روسيا هجوماً على بلاد القرم واحتلت قسماً منه،

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٨٠/ ص ١١٩ (أواسط شوال سنة ١١٩٥ هـ).

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٨٠/ ص ١٢٠ (أواسط شوال سنة ١١٩٥ هـ).

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٨٠/ ص ١٥١ (أواسط ذى الحجة ١١٩٥ هـ).

(٤) دفتر مهمات الديوانى الهمايونى نمرة / ١٨٠/ ص ٢٢٤ (أواسط ذى الحجة ١١٩٥ هـ).

(٥) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ١٨٠/ ص ٢٧٠ (أواسط ذى الحجة ١١٩٥ هـ).

وذلك بعد أن اتفقت مع النمسا على ذلك، وقد استغلت النمسا فرصة إنشغال الدولة العثمانية للمطالبة أولاً بإعادة السفن التي صادرتها الجزائر وبالحصول على تأمينات هذه السفن المأسورة، والحصول على تعهد بعدم مهاجمة القراصنة لسفنها، إستناداً إلى المعاهدة التي تعهدت الدولة العثمانية بموجبها بدفع كامل التعويضات عن الأضرار التي تتعرض لها سفنها إذا هوجمت من قبل أوجاق الغرب، وعلى العكس من ذلك فإن النمسا ستقوم بتحصيل حقوقها من الممالك المجاورة لها والتابعة للدولة العثمانية.[1]

عندما فشل الإسبان بالتوصل إلى عقد صلح مع الجزائر، قرروا استخدام سلاحهم وتجربته مرة أخرى، فبدأوا بالاستعداد لذلك، وكانت توقعات محمد باشا صحيحة.

في السابع عشر من تموز سنة ١٧٨٣ م/ ١١٩٨ هـ تحرك الدون أنطونيو بارسلوه (D.A.Barselo) من قرطاجنة على رأس أسطول يتركب من أربع سفن حربية كبيرة وست فرقيطات، واثنتي عشرة شبكة وثلاثة مراكب من نوع قوطره وعشرة زوارق حربية كبيرة وأربعين سفينة من نوع شالوبه، ونتيجة لسوء الأحوال الجوية لم يصل الأسطول المياه الجزائرية حتى التاسع والعشرين من تموز، وبعد الظهر من اليوم الأول من آب فتح نيران مدفعيته على الجزائر، فرمى خلال اليوم الأول والثاني قرابة ثلاثمائة وثمانين قذيفة، وقد استمر القصف حتى اليوم التاسع من آب، وبعد أن رمى المدينة بثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاث وخمسين قنبلة وثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاث وثلاثين قذيفة عاد إلى بلاده إثر انتهاء ذخيرته.[2] وكان رد الجزائريين على هذا الهجوم شن هجمات خاطفة خلال ٣ ـ ٤ ـ ٧ آب وهاجموا سفنه بكل شجاعة وإقدام بعدما أخرجوا سفنهم من الميناء تحت تغطية مدفعية مكثفة. فأجبروا أسطول العدو على الابتعاد عن الجزائر والوقوف بالخلاء، وأسفرت هجماتهم البطولية عن إبطال مفعول تأثير نيران العدو على المدينة والاستحكامات، وإفشال هجومه وخاصة الهجمات الثلاث الأخيرة له. ويذكر القنصل الفرنسي في تقريره: (بدأ الإسبان بقصف الجزائر في ١ آب بعد الظهر،

(١) كامل باشا. التاريخ العثماني مجلد (١) ص ٢١٤.

(٢) دي غراممونت.

واستمر القصف ساعة وربع، وكان الجزائريون هم الذين يبدأون بإطلاق النار، وهم آخر من يتوقف، أما الداي فقد أجبر الجميع على البقاء في المدينة، ولكنه عندما شاهد تأثير القصف سمح لهم بتركها، ولدى سقوط القذائف على القصر وما جاوره، انسحب إلى القلعة الداخلية، ومع ذلك فإن القصف وصل إليها، وكان الداي كالمعتاد يحاول الحفاظ على الأمن والاستقرار، وكان الهجوم الثاني ظهر اليوم الثاني من آب، وجرى الهجوم الثالث في الساعة السادسة صباح اليوم الرابع من آب، بينما كان الهجوم الرابع مساء اليوم نفسه، لكن الهجوم توقف ليلاً، أما الهجمات الأربع الأخيرة فكانت مثل لعب الأطفال، لأن كافة القذائف سقطت في البحر. وقد أسفر القصف عن تهديم ٤٠٠ منزل ودكان، أما بقية الأبنية والجوامع وزوايا المرابطين فلم تصب بأذى، كما أُصيب ١٢ منزلاً من منازل الإفرنجيين، لأن ثماني قذائف سقطت عليها. واحترق منزل القنصل السويدي، ولم تتعرض استحكامات المدينة إلى أضرار كبيرة، بينما غرقت سفينة في الميناء عائدة للأهالي، ولحقت بعض الأضرار بالسفن الأخرى، وقتل ١٠٠ جندي من عناصر البحرية، ومن الممكن أن يكونوا قد أخفوا الحقيقة، أما داخل المدينة فقد قتل عدة أشخاص، وعلى الرغم من كثافة الهجمات الإسبانية، فإن الجزائريين شنوا تسع هجمات رموا خلالها الأعداء بحوالي ١٢ ـ ١٥ ألف قذيفة، ومن المحتمل أن الحصار الذي فرضة الجزائريون على الإسبان، قد عرضهم لبعض الأضرار، وإن قطعة بحرية عائدة للإسبان تعرضت لنيران المدفعية الجزائرية، وأصيبت إصابة مباشرة، وفي الهجوم السابع للجزائريين أصيبت سفينة إسبانية، ومن المحتمل أن إصابتها نتيجة لحادث، وعلى الرغم من ذلك فلم يترك الهجوم أي تأثير على عزيمة الجزائريين، بل على العكس من ذلك فقد قويت عزيمتهم، ولو حدث هجوم آخر، لكانت التجهيزات أكثر من السابق، ولو أن الإسبان أوقفوا الهجوم من القصف الخامس لترك لدى الجميع تأثيراً كبيراً. [١]

لم يحقق الإسبان أي فائدة من هذا الهجوم الذي كلفهم أموالاً باهظة، ولدى مشاهدة الداي محمد لأسطول العدو أرسل إلى مديه ١٥٤٨ أسيراً،

---

(١) دي غرامموت. دليل إفريقيا (دونحوفش باركلسل سنة ١٨٧٦ (ص ٢٠ ـ ٣٠٠).

فمنذ شهر جاء إلى الجزائر / ٢٥/ ألف جندي من قسنطينة، ومن مسكرة / ٢٠٠٠/ جندي، ومن تيطري / ٥٠٠٠/ جندي كمتطوعين محليين، فأقام لهم الداي مقراً بالقرب من مدينة الجزائر، كما أقاموا في نهاية الرصيف قبة صغيرة، ووضعوا بداخلها بطارية مدفعية، كما وضعوا عوامة في الميناء.[١] وعندما جاء الدون أنطونيو في السنة التالية لم يشاهد أثراً للتخريبات التي حدثت نتيجة القصف.

وفي الثامن والعشرين من حزيران سنة ١٧٨٤ م/ ١١٩٩ هـ تحرك الأميرال أنطونيو من قرطاجنة على رأس أسطول مؤلف من مائة وثلاثين سفينة صغيرة وكبيرة.[١] منها إحدى عشرة سفينة لنابولي وثمان سفن مالطية، وكان الأسطول يضم ستاً وعشرين سفينة حربية وثلاثين سفينة تفجير وأربعاً وعشرين سفينة حاملة للمدفعية وقاليوطة واحدة، أما السفن الباقية فهي مخصصة للنقل، وكانت هذه القوة قوة صليبية حقيقية، وقبل إنطلاقها أقام البابا قداساً لكي تغفر لهم ذنوبهم[٢]. وفي التاسع من تموز وصل الأسطول مشارف الجزائر[٣]. ولكن الطقس استمر في رداءته حتى الثاني عشر من تموز، ومع صباح ذلك اليوم بدأ العدو بفتح نيران مدفعيته، ولكن قائد الأسطول الجزائري سلامي الحاج محمد مشهور بقوته وشجاعته وحسن تدبيره، وكان سابقاً قد صنع زوارق ذات ست وسبع مقاعد وجهزها بالمدافع والجنود والذخيرة، كما جهز أيضاً خمسين سفينة أخرى، وزودها بالمدفعية[٤]، فدفعها لمواجهة العدو ومجابهته، ونظراً لجرأة قباطنتها وصمود مقاتليها، أجبرت أسطول العدو للتراجع إلى الوراء.

وفي المساء قدمت فرقة من البحرية البرتغالية وأخذت لها موضعاً للقتال، ولكن حالة البحر خلال اليومي الثالث والرابع عشر من تموز أعاقت عملية إطلاق النار، وفي صباح الخامس عشر من تموز شن الجزائريون

---

(١) دي غرامونت.

(٢) تاريخ جودت مجلد ٣ ص ٨١، ويذكر بأن عدد سفن الأسطول ١٣٦ سفينة.

(٣) دي غرامونت.

(٤) تاريخ جودت مجلد ٣ ص ٨١. يذكر أن الأسطول وصل يوم الجمعة ٥، شعبان.

(٥) دي غرامونت يقول أنها سفن مدافع وجودت يذكر بأنها أرزاق.

هجومهم في تمام السادسة، حققوا من جرائه الاستيلاء على أهم المواقع الحربية المهمة، وخلال ١٦و١٧و١٨ تموز حدث قتال خفيف، وفي يوم الثامن عشر من تموز وتحت قصف نيران مدفعي مكثف حاول فرسان مالطة الاقتراب إلى جوار مكسر الأمواج، ولكن هجومهم مني بالفشل الذريع، وفي ١٩ تموز حدثت معركة استمرت ساعة واحدة. وفي الحادي والعشرين من تموز خرج من ميناء الجزائر سبعة وستون زورقاً حربيا، وشنت هجوماً عنيفاً على قوات العدو واستمر الهجوم حتى الظهيرة، وكان هجوماً دامياً وصعباً، حقق فيه الجزائريون نصراً عظيماً، وقد أطلق كل منهم قرابة ألفي قذيفة، وفي المساء عقد الأميرال مجلساً حربياً، ولو كلفوا بشن هجوم على المدينة والميناء لوجد الجميع في حالة خلاف واضطراب، وفي الثاني والعشرين من تموز انسحب أسطول العدو عائداً إلى بلاده.

بلغت مصاريف العدو / ٣٣٧٩/ قذيفة و/ ١٠٦٨٠/ كله و/ ١٤٥م/ طلقه مدفع و/ ٤٠١/ علبة رصاص، بهذا الشكل انتهى الهجوم الإسباني الأخير على الجزائر، وقد توجت جميع الهجمات الإسبانية بالفشل، وأسفرت قذائف العدو التي بلغت ست عشرة ألف قذيفة متنوعة عن قتل ثلاثين شخصاً جزائرياً، وقد وقف الجزائريون في مواقعهم ساعة كاملة ليثبتوا شجاعتهم وانتصارهم في المعركة، وبفضل الهجمات الضارية والشجاعة التي خاضوها، لم يسقط على المدينة قذائف نهائياً، ولم يختل الانضباط والنظام في المدينة أثناء القتال، لأنهم أرسلوا الأسرى خارج مدينة الجزائر، وذهبت العائلات إلى المصايف، أما الجاليات الأجنبية والقناصل والتابعين لهم لم يتعرضوا لأي أذى أو إزعاج قطعياً، وتحسباً لأي احتمال طارىء وزع لكل قنصل مرافق خاص.[1] وقد حق للجزائريين الإفتخار بهذه المعركة.

وفي السنة التالية عندما جاء الإسبان لعقد معاهدة الصلح قبلوا جميع الشروط الصعبة التي فرضها الجزائريون، وفي حزيران سنة ١٧٨٥م/ ١٢٠٠هـ، جاء الكونت دسكيبلي إلى القنصل الفرنسي كرسي من أجل الرسوم وإقرار الإتفاق والتقارب، والتحق به أيضاً فيما بعد الأميرال فراردو والمشهور بفشله، ولكن الداي والأهالي لا يريدون الصلح نهائياً،

---

(١) دي عراممونت.

وكانت المناقشات صعبة جداً، ونظراً للجهود المكثفة التي بذلها القنصل الفرنسي وقع الصلح في الرابع عشر من حزيران سنة ١٧٨٦م/ ١٢٠١هـ، وفي نهاية حزيران جاءت النسخة المصدقة إلى الجزائر.[1] إستفاد الجزائريون من عقد الصلح مع إسبانيا، لأنه كان في الجزائر ألف وثلاثمائة وخمسون أسيراً إسبانياً، باعوا الأسير الواحد بألف ريال، والعجيب في ذلك فقد أخذ الجزائريون ثمن الأسرى الذين ماتوا منذ توقيع الاتفاق حتى وصول النقود إليهم، وبعد الصلح أرسل الملك الإسباني / ٥٠٠/ كيس من المجوهرات والأمتعة والهدايا القيمة إلى حاكم الجزائر، كما تعهد بإرسال ست سفن محملة بالمعدات والذخيرة ولوازم السفن عملاً بنصوص المعاهدة المعقودة. نحن عندما كنا في مدريد أرسل أمير الجزائر إلى ملك إسبانيا ثلاثة خيول وأسدين وعدة نعامات، ولكي يليق هذا بمقام إسبانيا ولا يهان عرشها أرسل قنصلاً ولم يرسل مبعوثاً خاصاً، وكان في إسبانيا أكثر من ١٠٠ أسير جزائري، وقد اتفق على إرسالهم مقابل دفع ثمنهم بالأقجة، ولكن الجزائريين لم يعترفوا بهؤلاء الأسرى أثناء عقد الاتفاقية، وقالوا: نحن لا نريد خونة وجبناء، فغدا الإسبان في حيرة من أمرهم وخجلين أمام الدول الأخرى، فكتبوا إلى حاكم فاس يرجونه إنقاذ هؤلاء الأسرى، وحاكم فاس من أجل وحدة الجهاد الإسلامي قام بتخليصهم وأعطاهم الألبسة والمصاريف وأرسلهم إلى الجزائر، فأشاع الإسبان أن الأسرى رجوا حاكم فاس لإنقاذهم، وبعد عقد الصلح أخذ الجزائريون غليونتين (نوع من السفن)، وبما أنه لم يشر إليهم في الاتفاقية، لذلك ذهبت صيحات الإسبان سدى، وفي النهاية دفعوا أربعين ألف ريال ثمناً لإنقاذهما.

عندما كان الجزائريون في برشلونه استولوا أمام أعين الجميع على سفينتين لجنوه، وحمدوا الله على ذلك، لأن السكان كانوا ينظرون إليهم من المناطق المرتفعة وهم حزينون، عقد الإسبان الصلح مع طرابلس الغرب ويقول واصف أفندي: عندما كنا في مدريد جاءت الهدايا، وما زالت المراسلات مستمرة من أجل إقامة الصلح مع تونس.

---

(١) تاريخ جودت مجلد ٤ ص ٣٥٧.

في أحد الأيام سئلت هيئة جزائرية معتبرة المقام عندما كانت في مدريد لماذا عقدتم الصلح؟ وما هي مصلحتكم؟.

أجابت الهيئة: إن الفائدة من الصلح يضمن لنا فوائد كثيرة، لأن هذا الصلح على الأغلب يستمر ثلاث سنوات، فالربح السابق لا يزال مستمراً، فمن أجل ثلاث سنوات أخذنا كل هذه الأموال ولم نخسر شيئاً، ففي مضيق سبتة ألقوا القبض على سفينتين لسفير موسكو كانتا محملتين بالنبيذ، فباعوا حمولتهما ثم باعوا السفينتين لإسبانيا، لأنهما كبيرتان وهم لا يستخدمون السفن الكبيرة، وقالوا لقد شاهدنا ميناء قرطاجنة بأعيننا، وفي الخامس من شعبان سنة ١٢٠٢هـ عاد واصف أفندي من إسبانيا إلى إستانبول.

إن الصلح الذي كلف إسبانيا عشرين مليوناً لم تحقق من جرائه أي شيء يذكر، لأن إسبانيا منذ القديم تكمن العداء للأوجاق، فجذور الحقد والبغضاء، عميقة جداً، ولا يمكن اقتلاعها في يوم واحد.

الفرنسيون تضرروا كثيراً من هذه المسألة، لأن الداي والأعيان إنشغلوا خلال هذه الفترة بالصلح مع إسبانيا وأهملوا فرنسا، ففترت العلاقات بينهما، وبدأوا بالتراجع، كما أن الإسبان عملوا على تعطيل التجارة الفرنسية، وقد أيدهم لدى الديوان حلفاؤهم الإنكليز والدانماركيون بغية تقوية نفوذها الذي فقدته منذ سنوات طويلة، وقد تمكنوا من استعادته خلال أيام قليلة، وبما أن المعاهدة كانت تمنع القراصنة من العمل ضمن المياه الإسبانية والبرتغالية، لذلك تعرضت حكومات صقلية ونابولي والبندقية وإيطاليا الصغرى إلى أضرار كبيرة، بسبب الهجمات المكثفة التي شنها الرياس عليهم، كما أن أمريكا وهمبورغ وبروسيا دفعوا مبالغ كبيرة من أجل الحصول على إذن بالمرور.

وعلى الرغم من الغنائم والأموال الضخمة التي حصل عليها القراصنة خلال الأشهر الثمانية الأولى من سنة ١٧٨١ م/ ١٢٠١ هـ والتي قدرت بحوالي إثنتي عشر مليون، فإن الأهالي ما زالوا يشكون الفقر والضيق، لأن محاصيل البلاد كانت ضعيفة خلال السنتين الماضيتين.

إستناداً إلى المعاهدة التي عقدتها النمسا مع الدولة العثمانية، فقد حُذر أوجاقات الغرب من مهاجمة السفن النمساوية أو التعرض لها بأذى، وفي حال

الاعتداء عليها، فإن الدولة العثمانية ستدفع كافة الأضرار، وذلك بموجب المعاهدة، وبالطبع فإن الدولة العثمانية ستفرض على الأوجاق بالقوة تحمل كافة التكاليف التي تترتب على ذلك، ولن تدفعها من الخزينة العامرة، وإذا دفعتها فإن الدايات سيكونون الضحية. وقد كتب قبطان باشا هذا التعهد وأرسله إلى جميع أوجاقات الغرب، أما الأجوبة التي وردت بهذا الخصوص، فكانت تدور حول المجاعات والفقر الذي حل بالبلاد، وكما هو معروف فإن دخل الأوجاقات يعتمد بالدرجة الأولى على القرصنة، وكانت الأوجاقات تعتبر الدول المسيحية عدوة لها، وقد أبدت أوجاقات الغرب طاعتها للسلطان، لكنها عارضت بعض المسائل التي تتعلق بإقامة الصلح، أي أنه لا يمكن إقامة الصلح معهم دون الحصول على الأموال، ونتيجة للحروب التي حدثت مؤخراً، فقد أصبح النقص واضحاً في الذخيرة والمعدات الحربية، كما أن المجاعات بدأت تفتك بكثير من المواطنين، وطالبوا بإرسال رجل إلى القنصل النمساوي لمطالبته بثمن الصلح.

وكان قبطان باشا قد وعد الجزائريين بأن النمسا ستقوم بتأمين حاجاتهم من العتاد والذخيرة في كل سنة، وطلب منهم تسجيل حاجياتهم في دفتر خاص وإرساله إلى إستانبول، فإذا وافق عليها السلطان، فسيدفع مبلغاً من النقود وقدره سبعة وثلاثون ألف قرش، (وذلك حسب الزمن والظرف المناسب).[1]

في ربيع سنة ١٧٨٧م/ ١٢٠٢هـ تعرضت الجزائر لوباء شديد، وبعدما قتل العديد من الأهالي زال في تموز، وانتقل إلى وهران، فغدت البلاد خالية من الرجال حتى أن معظم المحاصيل بقيت دون أن تُجنى، وكانت هذه المصائب التي توالت على الجزائر باستمرار سبباً في حدوث الثورات والعصيانات في مدينة الجزائر، ففي هذه المرة أُلقي القبض على الخزنجي مع ابن أمير قسنطينة بتهمة الخيانة، فقتل الخزنجي، ووُجد في منزله جميع أموال الخزينة.

في سنة ١٧٨٧م/ ١٢٠٢هـ أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا فقدم سفير النمسا تقريراً يخبرهم بأن بلاده متفقة مع روسيا، وأنها ستلتزم

---

(١) تاريخ جودت مجلد ٣ ص ٦٢.

بالإتفاق، وبناءً عليه فهو يريد العودة إلى بلاده، فأجبرت الدولة العثمانية على محاربة الدولتين المتفقتين معاً.

خرج الأسطول العثماني إلى البحر الأسود، وفي هذه الأثناء ظهرت بعض سفن القراصنة في البحر الأبيض المتوسط، وشُكل أسطول بقيادة القبطان مامي يتألف من سبع سفن من تونس والجزائر، وانضمت إليه إثنتا عشرة سفينة من الأسطول العثماني، واتجهوا إلى هناك بغية المحافظة على هذا الطرف.[1]

إستمرت الحرب مع روسيا حتى سنة ١٧٩١م/ ١٢٠٦هـ، وفيما يلي الفرمانات والأوامر والوظائف التي أسندت إلى أوجاقات الغرب محذوف منها الأقوال المكرره كما وردت في سجلات الديوان الهمايوني

إلى أمير أمراء الجزائر وقاضيها و. . . . حكم.

لقد اتفقت النمسا وروسيا معاً، وحربنا هذه المرة ضدهما، فكفرة النمسا بالاتفاق مع الروس قاموا بالإعتداء على الحدود الإسلامية وخربوا البلاد وقتلوا وأسروا الأولاد والعائلات، وحقّروا جنود المسلمين، فكيف يمكن لهؤلاء الكفرة المشركين الإعتداء على الممالك الإسمية ومن أجل الرد عليهم في البر والبحر نطلب من أوجاق الجزائر إرسال كامل أسطولكم للإلتحاق بالأسطول الهمايوني في بحر سفيد (بحر إيجه) وسنقوم بمكافأة البحارة المشتركين بهذه الحرب على قدر ما يبدونه من الشجاعة، فقوموا بتنظيم جميع الجنود المشتركين بشكل صحيح وسليم وجيد، وأرسلوهم للإلتحاق بالأسطول الهمايوني. . . أواخر ربيع الآخر سنة ١٢٠٣ هـ[2]. وبلغ نفس الفرمان إلى أوجاق تونس وطرابلس الغرب.

من عالي المقام وكريم الكرام إلى أمير أمراء الجزائر محمد دام إقباله حكم.

في السنة الماضية كلف قبطان دريا المجاهد حسن باشا بمنع أسطول كفرة روسيا من عبور مضيق سبتة، ونأمركم حالياً وعلى الفور بتنفيذ ذلك ونطالبكم بالإتفاق مع إسبانيا وتناسى الخلافات والخصومات القديمة معها،

---

(١) كامل باشا. التاريخ العثماني مجلد ٢ ص ٢٢٩.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٨٨/ ص ٥١.

وأن تكتبوا لها مؤكدين ضرورة التعاون معكم من أجل منع سفن روسيا من عبور مضيق سبتة والدخول إلى مياه البحر الأبيض المتوسط. كما نطلب إليكم تجديد المعاهدة مع إسبانيا وتدوين هذه الشروط ضمن نصوص المعاهدة الجديدة. ففي السنة الماضية كانت سفن روسيا تتجول في بحر سفيد (بحر إيجه) تحت حماية العلم السويدي، فعليكم التأكد من ذلك ومنع روسيا من الإستفادة من هذا الإجراء، ونفذوا ذلك بأي طريقة ترونها، ومن أجل الإتفاق مع إسبانيا نأكد عليكم ربط ذلك ببنود الإتفاقية كي تمنعوا السفن الروسية من الدخول أو الخروج من مضيق سبتة، وهذا من باب التأكيد والتذكير. . . . . أوائل ربيع الآخر سنة ١٢٠٣هـ .[١]

إلى أمير أمراء جزائر الغرب محمد دام إقباله. حكم.

قبل بدء الحرب جاء من طرفكم عدد من السفن من أجل إستخدامها للمحافظة على المياه في بحر إيجه، وفي هذه الحرب أرسل من طرف الأسطول الهمايوني ستة أو سبع قطع بحرية، ولقد جاءت سفن الجزائر، وهي الآن تتجول بين جزر بحر إيجه، وهي مسؤولة أيضاً عن حماية جميع المناطق والجزر التي تتجول في مدارها، نطلب منكم التأكيد عليها بعدم إرتكاب المخالفات أثناء شراء المأكولات والمشروبات، ودفع ثمنها بالأقجات، والإنتباه إلى حماية وصيانة سفنهم، وهذا شيء بديهي. كما أننا نريد أن تقتسم سفن الجزائر الغنائم التي تحصل عليها من سفن العدو وأثناء تجوالها فيما بين جميع المجاهدين بالتساوي، وأن تستدرك هذه الأموال ضريبة الميري المترتبة عليها.

المقدار المذكور في بحر إيجه هو نفس المقدار في السواحل الجزائرية، ونطلب منكم السعي الجاد لهذا الموضوع وهو من باب التذكير. . . . . أوائل ذي الحجة سنة ١٢٠٣هـ .[٢]

إلى أمير أمراء الجزائر مجمد دام إقباله. . حكم.

---

(١) دفتر مهمات رقاب نمرة / ١٨٩/ ص ٦.

(٢) دفتر مهمات رقاب نمرة / ١٨٩/ ص ٨.

لقد جاء من الجزائر خمس سفن للإشتراك بالحرب في بحر إيجه ضد روسيا التي اتفقت مع النمسا. وإن عالي الشأن أصدر أمراً بالسماح بقرصنة هذه السفن في ترياس والقرن العالي ومهاجمة السفن التجارية التابعة لكلا الدولتين، فكلف بتبليغ ذلك لقبطان درايا المجاهد حسن باشا، وسيتم إرسال هذا الأمر، والسفن المذكورة يجب عليها دفع الضريبة وبدل المرور أثناء عبورها في البحر الأبيض المتوسط، ونطلب منهم الانتباه إلى حماية وصيانة سفنهم، كما أن الأموال التي تحصل عليها سفن الجزائر من اقتناص سفن العدو، يجب إخراج الضريبة منها، وتقسيمها فيما بين المجاهدين وإن هذا الفرمان صادر من عالي الشأن، وهذا من باب التذكير. . . أواخر ربيع الآخر سنة ١٢٠٣ هـ[1]

وقد أرسلت نسخ عن هذا الفرمان إلى كل من تونس وطرابلس الغرب وطلب من كل أوجاق ثلاث سفن، ولكي تسرع الجزائر بإرسالها، أصدر فرمان شريف ينص على إبقاء محمد باشا (الداي محمد) أمير الأمراء على الجزائر، كما أرسل له السلطان ثوباً من حلة فخرية. [2]

استغلت الأوجاقات هذه الفرصة للاستفادة منها، فهرعت سفنهم إلى البحر الأبيض لتبدأ أعمال الصيد والقرصنة، ولم يكتفوا بالهجوم على السفن المعادية بَل شمل الهجوم السفن الصديقة، فاستولوا على سفينة سويدية محملة بالفحم والأخشاب كانت في طريقها إلى برشلونة، وقالوا بأنها غير مستثناة من القنص والقرصنة ثم نقلوها إلى الجزائر، لكن السويد كانت متفقة مع الحكومة العثمانية، وعندما أُعلنت الحرب ضد روسيا خاصمتها براً وبحراً، مُنع الأسطول السويدي من التجول في البحر الأبيض المتوسط، فألحق ذلك خسائر كبيرةً بالسويد، وبعد عدة مشاورات ومراجعات قام بها القنصل السويدي في الجزائر، تمكن من الحصول على السفينة، ولم يحصل على حمولتها، ولكن بسبب إلحاح السفير السويدي وندستام أرسل فرمان إلى الجزائر بإعادة الحمولة. [1]

(١) دفتر مهمات رقاب نمرة / ١٨٩/ ص٢٩.

(٢) دفتر مهمات رقاب نمرة / ١٨٩/ ص ٣٠.

(٣) دفتر مهمات رقاب نمرة: ١٨٩ ص ١٠٤.

في هذه الأثناء توفي السلطان عبد الحميد الأول، وقد أكد السلطان الجديد على الأوامر القديمة.[1]

التحقت سفن الجزائر بالأسطول العثماني لسنتي ١٢٠٣هـ و ١٢٠٤هـ وقدمت خدمات قيمة جداً.[2]

بذلت فرنسا كل ما باستطاعتها للتهرب من دفع النقود بشأن الأسرى الفارين من وهران، ولكن لويس السادس عشر، أصدر أمراً بشراء هؤلاء الأسرى، وقد تم دفع مبلغ وقدره /٦٣٩٠٥٣/ ليفره مقابل /٣١٥/ أسير، وتم إنقاذهم في حزيران سنة ١٧٨٥م.

كذلك فقد وافقت حكومة نابولي وإسبانيا على شراء أسراهم، ففي السابع عشر من شباط سنة ١٧٨٧م دفعت نابولي وصقلية مبلغاً وقدره /١,٤٧٣,٠٢٠/ ليفره مقابل ٢٣٧ أسيراً، وبعد شهرين اشترت إسبانيا ٣٨٩ أسير بمبلغ قدره /٣,٠٠٣,٦٥٢/ ليفره، وعلى الرغم من بيع هؤلاء الأسرى فقد بقي في الجزائر ألف أسير قتل نصفهم في الوباء.[3]

كان الداي محمد مصاباً بمرض الديزانتري بشكل مزمن، إضافة إلى تقدمه بالسن، فسلم الحكم لابنه شيئاً فشيئاً، فعهد أولاً إلى إبنه حسن بك منصب الخزنجي، وكان حسن بك على خلاف مع الفرنسيين، والفرنسيون كما هو معروف عنهم كانوا يتحينون الفرص لطعن الجزائر. ففي سنة ١٧٨٨م/ ١٢٠٣هـ أغرقت السفينة الفرنسية المسماة برتانوبه سفينة جزائرية، وبسبب إلحاح الجزائريين قبلت فرنسا دفع ثمن السفينة، ولكن الجزائريين كانوا يريدون نفس السفينة، وفي هذه الأثناء نقض الجزائريون المعاهدة مع الإنكليز لأن الإنكليز كان يلحون بإصرار على الجزائريين لفسخ علاقتهم بفرنسا، وكان الرياس من أنصار فسخ العلاقات مع فرنسا، لأن ذلك سيدر عليهم أرباحاً كثيرة، وبنفس الوقت سيستفيد الديوان والأهالي والأعيان أيضاً، لأنها ستحاول من جديد عقد الصلح وخلال محاولاتها ستضطر إلى تقديم الهدايا،

---

(١) دفتر مهمات رقاب نمرة: ١٨٩ ص ٧٠.

(٢) دي غراممونت.

(٣) دي غراممونت.

وبناء على رغبة الجميع اتخذ الجزائريون من مسألة السفينة سبباً لفسخ المعاهدة مع فرنسا .

لكن السفير الفرنسي دي سنفيل في إستانبول ، تمكن من عقد معاهدة جديدة ، بعد إلحاحه الشديد ومساندة الديوان الهمايوني له ، وبقيت الامتيازات بأيدي أصحابها ، لكن الضريبة زادت بمقدار ستين ألف ليفره . [١]

في سنة ١٧٩٠م/ ١٢٠٤هـ تمرد القبليون ، فأُرسل آغا السباهية لتأديبهم ، وانتصر عليهم ، وفي هذا العام ظهر بعض النشاط للأشقياء وقطاع الطرق في المنطقة . في سنة ١٧٨٠م تسلم محمد بن عثمان وظيفته كأمير على صنجق الغرب ، وخلال السنة الأولى لحكمه عم البلاد القحط والوباء ، ولكنه استطاع إحلال الأمن في قسم التل ، وفي سنة ١٧٨٤م قام بعدة غزوات بإتجاه الجنوب ، وتمكن من إدخال الجيش التركي إلى مناطق لم تطأها أقدامه قبل ذلك ، كما استولى على جبل القصور الواقع غرب جبل عمور .

في سنة ١٧٨٥م/ ١٢٠٠ عاد بإتجاه الجنوب الغربي فعبر من آفلو (أفوغال Afoughal) إلى مشارف الأغواط، ولو عمد أهالي الواحة لمقاومته والتصدي له ، لما تمكنوا من الانتصار عليه بسهولة ، ووصل عين المهدي[٢] . ولم يتمكن أحد من مقاومته ، وبعد هذا النصر الباهر، قام بتحصين وتحكيم مسكرة ومستغانم ، ومن ثم توجه إلى محاصرة وهران . كانت إدارة صالح باي في الصنجق الشرقي إدارة جيدة وموفقة ، كما كان موفقاً بالإدارة العسكرية ، وتعاون مع أمير الصنجق الغربي سنة ١٧٨٩م/ ١١٩٩هـ ضد القبيلة الموجودة في مناطق الحدود الجزائرية التونسية ، ولولا حنكة صالح باي لنشب خلاف مع تونس ، لكن صالح باي تمكن من التفاهم مع التونسيين ولهذا لم ينشب أي خلاف بين الطرفين .

في سنة ١٧٨٧م/ ١٢٠٢هـ توترت العلاقات بين تونس والجزائر بسبب التجاء بعض المفسدين إلى تونس ، وحُمّل الجزائريون مسؤولية اختلاق الأسباب ، ووصل الأمر إلى حد صمم الطرفان على بدء الحرب .

---

(١) دي غراممونت .

(٢) عين المهدي جنوب جبل عمور وغربي الأغواط وتبعد بحوالي ٥٠ كم عن كل منهما .

في سنة ١٧٨٨م/ ١٢٠٣هـ شن صالح باي هجوماً على بلدة تقرت، وكان حاكم تقرت (توقرت) من عائلة ابن جلاب، فتوجه صالح باي إلى هناك للاستفادة من الخلاف الناشب بين أفراد العائلة، لكن الواحة صمدت لهجمات صالح باي ففشل بالاستيلاء عليها. ولكنه استطاع بسياسته أن يفعل أكثر مما يفعله السلاح، فحينما توفي سلطان تقرت أبعد أفراد عائلته عن الحكم، وتسلم حكم الواحة أحد أفراد عائلة (ابن غاطه) وهذا ما كان يريده صالح باي.[1]

وفي ١٢ تموز سنة ١٧٩١م/ ١٢٠٦هـ توفي الداي محمد بسبب مرضه المزمن وكبر سنه.[2] وكانت وصيته انتخاب ابنه حسن بك من بعده، كما أنه دبر ذلك قبل وفاته، ولهذا تسلم حسن بك الحكم دون إحداث أي ضجة أو عصيان، فأعلن حسن بك نفسه داياً على الجزائر، ولم ينافسه على منصب الداي سوى آغا السباهية، فألقى القبض عليه ورماه في السجن وصادر أملاكه.

---

(١) فور بيكة (Forbige).

(٢) انتخب محمد باشا داياً على الجزائر سنة ١١٧٩ هـ ومات سنة ١٢٠٦ هـ وقد استمر في منصبه ٢٧ سنة، ويصادف حكم محمد باشا في قيودات الديوان الهمايوني سنة ١٢٠٣ هـ وورد ذكره في كتاب الجزائر لمؤلفه غابرييل كولين.

يوجد في قيودات الديوان الهمايوني أمر يحمل الرقم ١٨٠ صفحة ٥٦. وكتب لأمير أمراء الجزائر اسماعيل وداي الجزائر الحاج حسن من أجل تأديب أمير تونس المتمرد على بك وتاريخ هذا الأمر جمادى الآخرة سنة ١١٩٥ هـ ويوجد في دفتر قيودات الديوان الهمايوني أيضاً أمر همايوني نمرة/ ١٨٠/ ص ٢٠٨ وهذا الأمر يؤكد بأن أمير أمراء الجزائر الحاج حسين، ويأمر الديوان الهمايوني الصادر في ربيع الآخر سنة ١١٩٦ هـ بتأديب على بك أمير تونس المتمرد. وبناءً على هذا الفرمان الموجود فإن الأمر يستدعي توضيحاً لهذه الوقائع.

ففي سنة ١١٩٥ هـ عين مكان محمد باشا اسماعيل باشا وقد قدم إلى الجزائر إلا أنه لم يستلم الحكم. وفي سنة ١١٩٦ هـ عين الحاج حسين باشا، ونظراً لفشله في إدارة الأمور عزل وأسند الأمر إلى محمد باشا، لكن غابرييل كولين ودي غراممونت لم يذكرا شيئاً عن اسماعيل باشا وحسين باشا، بل يذكرون محمد باشا وأن حكمه دام دون انقطاع من سنة ١٧٦٦ م حتى ١٧٩١ م.

- ١٢ -

عهد الدايات

الداي حسن باشا ـ القسم المتعلق بأوجاق الغرب من المعاهدة التى عقدت بين الدولة العلية من جهة وروسيا والنمسا من جهة أخرى سنة ١٢٠٦ هـ ـ المباحثات بشأن إخلاء وهران ـ الزلزال ـ حرب وهران سنة ١٧٩٠ م ـ المعاهدة مع الإسبان ـ تخلية وهران وتسليمها ـ تبديل أمراء الصناجق ـ عزل صالح بك ومقتل إبراهيم باشا ـ حسين بوحنك ـ العلاقات مع البندقية والسويد وهولندا والدانمارك ـ مكائد الفرنسيين والإنكليز ـ النفوذ اليهودي ـ بكرى وبوشناق ـ الصلح مع البرتغال ـ تمرد القبليين ـ أمراء الصناجق ـ الخلاف مع البرتغال والإنكليز ـ الديون الفرنسية ـ وفاة حسن باشا سنة ١٧٩٨ م.

إلى والي جزائر الغرب الوزير حسن باشا. حكم. [١]

كانت دولة النمسا ترتبط معنا باتفاق سابق، وفي هذه المرة وبما أنهم يلتمسون التوسط لدى قراصنة أوجاقات الغرب بشأن سفنهم والسفن التجارية التي ترفع العلم النمساوي، يطلبون منا عدم إلحاق الضرر بها، نحن تعهدنا بذلك، وإذا تم الاعتداء على هذه السفن فيجب دفع قيمة الأضرار الناجمة عن الاعتداء، ولتجنب حدوث مثل ذلك، فقد أصدر الصدر الأعظم أمراً بذلك ووقع من قبله ومن قبل رئيس الكتاب، وسُلمت نسخة منه إلى قبطان

(١) كان حسن باشا يتخاطب بلقب وزير طوال فترة حكمه، ولم يعرف شكل ونوع الوزارة ولا يعرف تماماً متى استلم هذا المنصب.

دريا المتوفي حسن باشا ليبلغ أمير أمراء الجزائر بمضمونه، ويفهم من محتويات الأمر المذكور بأن تترقبوا السفن المعادية وتحركاتها، ويطلب منكم إبلاغ محتويات هذا الأمر لعناصر الأوجاق والمرابطين، وبموجب هذا الأمر يجب عليكم إتمام نواقصكم، والحصول على حاجياتكم والاستعداد على أكمل وجه مثل السابق وأكثر من ذي قبل، من أجل التصدي لأخطار الدول العالمية، فالقوة هي أفضل وسيلة، وعليكم أن تكونوا مثل قوة بقية تلك الدول وحتى أقوى منها، ولدى وصول الحامل الإفرنجي للكتاب والمرسل من قبل سفير النمسا والمقيم في دار سفارته، أن تسلموا الأمر الشريف إلى وكيل النمسا، فإن كان من أجل الرسوم أو من أجل التجارة، فيجب عليكم حماية النمساويين وصيانة أملاكهم وبشكل خاص موانىء الأمبراطورية النمساوية، فعلى القراصنة من أوجاقات جزائر الغرب التقيد بمضمون الفرمان الصادر من الباب العالي لأنه قد تم الاتفاق بيننا وبين الأمبراطورية النمساوية، وهذا يتطلب بأي شكل من الأشكال عدم مخالفة ما نص عليه الإتفاق المعقود معنا، كما يجب التعامل معهم بشكل مرضٍ وجيد، وهذا سيؤدي إلى تقوية الروابط معهم، لأن ذلك تم برضا منا، وبناءً على رغبة من شهريارم (Schriyarimi) [1]. . . حرر في أواخر رمضان سنة ١١٩٧ هـ.

صدر الفرمان بهذا التاريخ موشحاً بالخط الهمايوني، وسجل في قلم الديوان الهمايوني بالخط الواضح، وبموجب هذه المقاولة تم إزالة العداء والخصومات التي كانت قائمة بين الدولة العلية ودولة النمسا وحل بينهما الصلح والسلام، وبناءً على هذا التعهد الذي قدمته الدولة المشار إليها في القيودات الهمايونية، وتتضمن المعاهدة في مادتها الثالثة ما يلي (فمن بعد ذلك لن تتعرض سفن الأمبراطورية النمساوية وموانئها لهجمات قراصنة الجزائر، ولا لغيرهم من أتباع الدولة العثمانية العالية، وإذا حدث مثل ذلك فستدفع الخسائر دفعة واحدة استناداً إلى السند الموقع في ٩ رمضان سنة ١١٩٧هـ وقد ثبت محتويات هذا التعهد ولا يجوز تبديله وبما أنه تم تنظيره صراحة وتأييده، فقد غدا أشبه بدستور معتبر. ولهذا فقد تم إدراجه وحفظه مفصلاً ومشروحاً في مقدمته، وهو يتضمن بجميع وجوهه حماية وصيانة السفن

---

(١) شهريار. وهي كلمة فارسية الأصل ومعناها ـ ملك ـ شاه ـ حكمدار.

التجارية للأمبراطورية النمساوية ، وهذا الأمر صدر خصيصاً إلى قراصنة الجزائر من أجل تحذيرهم من الاعتداء على الموانىء والسفن التجارية التابعة لدولة النمسا وعلى السفن التجارية التي تتجول تحت حماية العلم النمساوي أيضاً، وتم إرساله أيضاً. إن مضمون الأمر العالي وتحريرات القبطان السابق والسند موقعة صورته وأُعطيت الدولة النمساوية معلومات عنه. وهو أمر (محفوظ) يأمر القراصنة بعدم التصرف والتحرك خلاف ذلك ومُشار إلى وصول الأمر الشريف وهذا من أجل التنفيذ والتأكيد.

حرر في أوائل جمادى الآخرة سنة ١٢٠٦هـ .[١]

أرسلت صورة عنه إلى أوجاق تونس وطرابلس الغرب. كما صدر فرمان بخصوص السفن التي قدمت من أوجاقات الغرب للمحاربة مع الأسطول الهمايوني ، وتضمن الأمر السماح لتلك السفن بالعودة إلى بلادها بعد أن أدت واجبها على أحسن وجه ، على أن يتم إصلاح وتحسين هذه السفن.[٢] والفرمان المدون أدناه صدر بعد أن تم الصلح مع روسيا.

إلى والي جزائر الغرب وزيرنا حسن باشا وإلى قاضي الجزائر. حكم. بما أنه تم عقد معاهدة الصلح بين دولتنا العلية ودولة النمسا فيجب تجديدسندات المعاهدة المقدمة إليكم بتاريخ ٩ رمضان سنة ١١٩٧هـ كاملة ، كما يجب على أوجاق جزائر الغرب تأمين وحماية السفن التجارية النمساوية ودفع الأضرار التي تنجم من أتباع الدولة العالية من الخزينة العامرة وبصورة خاصة الأضرار الناجمة عن مهاجمة القراصنة التابعين للدولة العثمانية ، كما يجب على أوجاق الجزائر تجديد سند الإتفاق المقدم من قبل النمسا.[٣] وقد أرسل من الديوان الهمايوني أمر موشح بالخط الهمايوني إلى عساكر أوجاق جزائر الغرب طالباً منهم الإبتعاد عن الخصام والمنازعات مع دولة النمسا ويحذرهم من التعرض لسفنها ، ومن الواجب أن يكون الأمر قد وصل في هذا التاريخ ، وفي الوقت الحاضر كي يتم توقيع معاهدة الصلح مع روسيا. وتنص

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٨٦/ ص ١٦.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ١٩٨/ ص ٣١ (أوائل شعبان ١٢٠٦ هـ).

(٣) أعلنت أوجاق الجزائر موافقتها على السند المقدم من قبل النمسا.

المادة السابعة من الإتفاقية أن كل من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب شركاء في هذه المعاهدة التجارية، أما المادة / ٦١/ من المعاهدة التجارية مع روسيا فهي تنص (أنه إذا تم مهاجمة السفن التجارية الروسية من قبل أوجاقات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وتم نهب ما فيها وأسر طواقمها، فإن روسيا تطالبهم بواسطة الدولة العلية وهي تتكفل بما يلي: أن تعيد إلى روسيا الأسرى، وأن تعيد السفن المنهوبة وتدفع ثمن الأعطال والأضرار التي لحقت بها مع إعادة الأموال أو قيمة الأشياء التي كانت السفن تحملها وذلك في حال اعتداء قراصنة أوجاقات الغرب عليها، لأن هذه الأوجاقات من إتباع الدولة العثمانية العالية، وفي حال عدم تقيد أوجاقات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بالفرمان المرسل إليهم من قبل الديوان الهمايوني فيجب على الدولة العالية البدء بالتحقيق خلال شهرين أو أقل من ذلك اعتباراً من تاريخ وقوع الحادث وعلى السفير الروسي أو القائم بالأعمال والمقيم في دار أليم متابعة ما تعهدت به الدولة العالية وبهذا الشكل وضعت بنود وشروط المعاهدة، وغدت سفن النمسا وروسيا بعيدة عن هجمات القراصنة . . . . أواخر رجب سنة ١٢٠٦هـ.[١]

هذا الفرمان المذكور أعلاه (سيتم العمل بموجبه) فقد وُقع بالخط الهمايوني ومُهر بختمه، ومن ثم أُرسلت نسخ منه إلى كل من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بعد أربعة أشهر، أي في ذي القعدة من سنة ١٢٠٦ هـ وقد أُرسل إلى أوجاقات الغرب فرمان يؤكد الالتزام بنصوص الفرمان.

وفي سنة ١٢٠٦هـ حدث خلاف بين الجزائر وطرابلس الغرب وعلمت إستانبول بذلك، فأمرت أمراء الجزائر وطرابلس الغرب الابتعاد عن مثل تلك الخلافات، وأكدت لهم بأن مثل هذه المنازعات لا تليق بالمسلمين، فعلى كل منهما ضبط الأعصاب والتفاهم والاتفاق كي يزدادوا قوة ومتانة[٢].

إن الاتفاقية التي عقدت بين الجزائر وإسبانيا سنة ١٧٨٥م/ ١٢٠٠هـ نصت المعاهدة على إخلاء وهران والمرسي الكبير للجزائر، وتم تأجيل إخلاء

---

(١) دفتر مهمات رقاب نمرة: ١٨٦ ص ٢٢١.

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة: ١٨٦ ص ٩٥.

هذه المواقع لقضاء بعض المصالح العائدة لسكان مدريد فيهما. كما أن الداي كان يعلم أن الضريبة السنوية التي فرضت على الإسبان وقدرها أربعة ملايين قطعة نقدية مقابل ألف أسير هي ضريبة أرهقت كاهل الإسبان وهم أيضاً يريدون التخلص منها، ولهذا استعجلوا بالموافقة على هذه الشروط، ولهذا السبب كان الداي يرفض بإصرار مناقشة هذا الموضوع.

بعد فرار الجنرال أوريلي بسبب انزعاجه، بدأت القبائل الموالية للإسبان تتهرب من دفع الضرائب المستحقة عليها، ورفضوا تقديم الأرزاق.[1] كما أن أمير الصنجق كان باستمرار يهاجم وهران ويضعها تحت حصار شديد ومستمر.

وفي التاسع عشر من أيلول سنة ١٧٨٠م قام محمد بك بقطع مجاري الماء عن وهران، علاوة عن الحصار المفروض عليها، وفي السادس والعشرين من أيلول سنة ١٧٨٤م لولا دفاع الدون بدروغولفي القوي لسقطت المدينة، وعلى الرغم من صمود ودفاع هذا القائد بقي الحصار مستمراً حتى إنزال علم الأوجاق من فوق القصر الأحمر. وأثناء المباحثات المعقودة لتسليم المدينة، ظهرت حادثة طبيعية أدت إلى تأجيل المباحثات من قبل الطرفين.

في الساعة الواحدة صباح يوم التاسع من أيلول سنة ١٧٩٠م حدث زلزال لمدة ثلاث دقائق تهدمت جميع المنازل والكنائس والأماكن العامة والأسوار، ومات تحت الأنقاض حوالي ثلاثة آلاف شخص. فقام قائد اللواء دون نيقولا غارشيا (Don Nikol Garçia) بدفن أفراد ألوية أستوري، وبقي قسم كبير من الأهالي مدفوناً تحت الأنقاض، وفي مساء نفس اليوم اندلعت النيران بالسفينة بيرلانت التي تحمل اربعة وسبعين مدفعاً، وذلك خلال تجفيف الماء منها وتزفيتها على ضوء المشاعل، كما حدث حريق في المدينة، فهرع الكثير من الناس للنهب والسلب مستغلين حالة الاضطراب التي تواجهها المدينة، وقال القائد في تقريره (إن الكثير من الناس السيئين هرعوا إلى منازل الأغنياء، ولو كان الأعداء

---

(١) دي غرامونت.

يقومون بالاغتنام من هذه المنازل لما حدث ذلك التخريب، فطلب معاقبة المذنبين على قلة أدبهم، وأنني لم أتمكن من إيقافهم). استمرت الفوضى الناجمة عن الزلزال حتى الثاني والعشرين من تشرين الأول، ومن جديد بدأ الزلزال ثانية في تمام العاشرة من يوم السادس من تشرين الثاني سنة ١٧٩٠ م، ومع بداية الزلزال كان محمد بك يهاجم المدينة، وقد ساعد حدوثه على دخول المدينة من الثغرة التي فُتحت في السور، فكلف جومبرة هرموسه (Cumbre Hermose) بقيادة الموقع، وتمكن من جمع ألف وخمسمائة جندي، وبدأ بالتصدي لمحمد بك. وبالفعل فقد تمكن من إيقافه واستمر الصراع بينهما حتى السابع عشر من تشرين الثاني، وبنفس الوقت كانت أعمال الإصلاحات والترميم مستمرة بكل جد ونشاط، وبدأوا يزودونها ببطاريات مدفعية جديدة، ولم يتمكن محمد بك من تحقيق أي انتصار بالرغم من أنه شن هجومه بثمانية عشر ألف مقاتل[١].

وفي السادس والعشرين من تشرين الثاني وصلت الإمدادات إليه من إسبانيا وقد وصله سبعة آلاف جندي مع الخيام والأرزاق، وفي التاسع والعشرين بدأ محمد بك بالتراجع إلى الوراء بعدما واجهته مقاومة عنيفة جداً، ولكنه لا يزال قريب من قيادة الجيش الإسباني، وكان يأمل وصول الإمدادات إليه بأقصى سرعة، ومن المحتمل في عدم وصول الإمدادات إليه بسرعة عدم تمكنه من كسب شهرة عظيمة بين الأهالي الذين تطلعوا بكل أمل إلى محاولته اقتحام المدينة، ولكنه لم يستفد في الهجمات التي شنها في ٣و٩ أيار وفي ٢٥ تموز وفي يومي ١٧و١٨ أيلول سنة ١٧٩٠م إضافة إلى الهجمات التي شنها خلال سنة ١٧٩١م.

أرهقت هذه المعارك الطويلة المجلس الملكي الإسباني بتكاليفها الباهظة، وخاف من إنفاق النقود الكثيرة على إصلاح الإستحكامات، وتجهيز الجيش، لذلك قرر ترك وهران، فوافق الملك شارل على ترك وهران والمرسى الكبير لمحمد باشا شريطة أن يسمح للإسبان بفتح أماكن تجارية فيها[٢].

(١) دي غراممونت.

(٢) دي غراممونت.

وفي شهر نيسان سنة ١٧٩١م قدم السفير الإسباني إلى الجزائر، ولم يوفق في مهمته، لأن الديوان الجزائري رفض منح االإسبان أي امتيازات، وفي الثاني عشر من أيلول عاد السفير الإسباني ثانية إلى الجزائر، أي بعد وفاة الداي محمد، وتسلم حسن باشا مكانه، وقد قبل حسن باشا بالسماح للإسبان بفتح مراكز تجارية بجوار (جمع غزوات) وسمح لهم بشراء ثلاثة آلاف حمل مما ينقصهم سنوياً. كما سمح لهم بصيد المرجان في السواحل الغربية، ولكنه فرض عليهم أسعاراً بحيث تكون مرتبطة ومساوية للأسعار في إمارة مسكرة للمواد التالية: (القمح والشعير والبقول والصوف والجلود وشمع العسل) كما سمح للإسبان فتح مراكز تجارية لهم في مسكرة أيضاً، وفي السادس عشر من كانون الأول صدق الملك على الاتفاقية.

وكانت هذه الاتفاقية ذات مصاريف باهظة على الإسبان، لأنهم قدموا هدايا كثيرة وغالية الثمن، إضافة إلى أنهم قبلوا دفع مائة وعشرين ألف ليفره سنوياً، وعلى الرغم من ذلك فقد حُرم عليهم شراء بعض المواد.

في السابع عشر من كانون الأول سنة ١٧٩١م/ ١٢٠٦هـ بدأ الإسبان بترك وهران والمرسى الكبير، وقد انتهت عملية الإخلاء في آذار سنة ١٧٩٢م/ ١٢٠٧هـ وفي المرحلة الأخيرة أعاد الإسبان مدافعهم ومعداتهم الثقيلة التي نقلوها من وهران إلى قرطاجنة وسلموها لحكامها الجدد، أما الفرنسيون فلم يُسروا بهذه الإتفاقية نهائياً، لأن فرنسا هي المستفيد الأول من العداء الجزائري الإسباني، فبإقامة تلك الإتفاقية وهذا الصلح وجد الجزائريون مشترياً جديد لحاصلاتهم، كما أن إسبانيا ستؤثر تأثيراً مباشراً على السياسة الفرنسية في الجزائر، علماً بأنها تظاهرت بالتوسط لإقامة الصلح بين الجزائر وإسبانيا، لكن إسبانيا كانت تدرك ذلك ولهذا وجهت لها ضربات قوية أنهكت فرنسا، فبدأ الفرنسيون يصرخون من الضربات الإسبانية المستمرة عليهم. وفي الحقيقة، لم تكن فرنسا هي التي أقامت الصلح بين الإسبان والجزائر، بل الظروف والأوضاع المحيطة بكلا البلدين هي التي ساهمت مساهمة مباشرة في تحقيقه.

كانت الحامية الإسبانية في وهران تتراوح من ٥ ـ ٦ آلاف جندي، وكان المصروف السنوي لهؤلاء الجنود يقدر بأكثر من أربعة ملايين ليفره، ولا

فائدة منها سوى القذارة، وزهق الأرواح، إضافة إلى أن القلاع والموانىء الأفريقية التي كانت بيد الإسبان، محاصرة بصورة دائمة، وأن إقامة الإتفاق وتسليم وهران والمرسي الكبير للجزائريين، يمكنهم من التجول ضمن القبائل، وإقامة المبادلات التجارية مع هذه القبائل إضافة إلى صيد المرجان في السواحل الإفريقية. [١]

بالطبع هذا الوضع أشرف وأفضل وأربح من الوضع السابق، هذا التفكير السليم ساق الإسبان للإتفاق مع الجزائر، فارتفعت الأسعار، وعمت المنفعة والفائدة سائر الإمارات الجزائرية، وأصبحت فرنسا لا تستطيع تأمين حاجتها من المواد الغذائية بأسعار رخيصة، فضعفت التجارة الفرنسية كثيراً، وعندما ظهر التمرد في قسنطينة فكرت فرنسا بترك محلاتها التجارية في شمال إفريقية، لأنها غدت ذات أرباح ضئيلة جداً. [٢] ومنذ ذلك الوقت بدت الأطماع الفرنسية واضحة تهدف للاستيلاء على جميع مقدرات الجزائر، كما أنها تريد السيطرة على أملاكها وأراضيها، وتريد اقتلاع الأوجاق من جذورهم، وإزالة تاريخهم نهائياً.

تم إخلاء وهران نهائياً في آذار سنة ١٧٩٢، وكان أمير صنجق الغرب قد تلقى أمراً بدخولها قبل ذلك الوقت، ففي شباط دخل محمد بك وهران بلواء براق ولامع، وعامل سكان المدينة من إسلام ومسيحيين معاملة حسنة وجيدة، وحذر أصحاب السفن من زيادة الأسعار أثناء نقل الإسبان الراغبين بالعودة إلى بلادهم، وقد أرسلت مفاتيح وهران إلى إستانبول وقُدمت هدية للسلطان العثماني. [٣]

كان حسن باشا يتمتع بطبع حسن، فهو حليم ومحب للخير، فقد ألغى

---

(١) فتحت وهران في عهد حسن باشا وتوجد كتابة تاريخية على باب البرج الأحمر كتب عليها (موقع جمع الغزوات) وهو الآن في بلدة نومور على بعد كلم شرقاً وهذا الموقع يقع بالقرب من شاطىء البحر، ويحمل اسماً آخر وهو تاونت، ومعناه مكان تجمع المجاهدين.

(٢) دي غراممونت.

(٣) يقول دي غراممونت: لقد أرسل إلى استانبول مفتاحان من الذهب مخصصان لمدينة وهران مع إناءين مملوئين بالماء من مدينة وهران، ويعتقد فراممونت بأن هذين الشرطين كانا ضمن بنود المعاهدة.

عقوبة الإعدام عن معظم الأعمال الإجرامية ، وحسنّ حالة الأسرى ، أما في الإدارة فكان مثل بقية الدايات يأخذ الاحتياطاتْ اللازمة ، لكنه كان حذر من الجميع ، كذلك فقد وضع جميع منافسيه على منصب الداي في السجن ، كما ألقى القبض على آغا السباهية علي آغا ورماه في السجن ومات بداخله ، وصمم على التخلص من أميري صنجق قُسنطينة وتيطري لأنهما من أنصار آغا السباهية ، وقد جُعلت مدية مركزاً لصنجق تيطري ، وبينما كان أمير صنجق تيطري الوزنجي يجمع الضرائب ، سمع بأن الشواش يبحثون عنه فخاف على نفسه ، والتجأ إلى تربة عبد القادر الجيلاني ، فعين مكانه محمد بك الملقب بالدباح ، أما بك قسنطينة فلم يكن سهلاً على الداي التخلص منه بنفس السهولة ، لأن صالح بك هو ابن مصطفى أصلان من مدينة إزمير ، ولد سنة ١٧٢٥ م/ ١١٣٨ هـ وبعد دخوله الإنكشارية نقل إلى قسنطينة ، وهناك كسب شهرة عظيمة ، وتزوج من ابنة أمير الصنجق أحمد القلالي سنة ١٧٦٦م/ ١١٧٩هـ وأصبح خليفته ، ثم عين أميراً على الصنجق سنة ١٧٧١/ ١١٨٥هـ، واستمر في منصبه إحدى وعشرين سنة ، فهو شجاع قدير وإداري خبير وحكيم ، ففي سنة ١٧٧٥م/ ١١٨٩هـ حارب أولاد عمور في تقرت ، واشترك في الحروب ضد الإسبان ، وأظهر براعته وشجاعته فيها ، وكان جميع سكان الصنجق يحبونه ويحترمونه ، وقد قام بتعمير وتحصين وتقوية مدينة قسنطينة ، وقد أدرك حسن باشا بأن صالح بك يشكل عليه خطراً كبيراً بسبب نفوذه القوي الذي يتمتع به في المنطقة ، وقيل بأنه يناصر على آغا ومن المحتمل أن يعلن انفصاله واستقلاله عن الجزائر حالما ينتهي من عملية التحصين التي يقوم بها ، وفي الثامن من آب سنة ١٧٩٢م١٢٠٧هـ، عين الداي قائد سبو إبراهيم الشريف باياً على قسنطينة ، وتوجه إبراهيم الشريف ومعه ستون خيالاً إلى قسنطينة وكان صالح بك على علم بأن حسن باشا لا يثق به ، وعندما سمع صالح بك بنبأ عزله ، جمع أمواله وأمتعته وقرر الذهاب إلى بون (عنابه) ومنها إلى إزمير، ولكن حراسه من الأتراك والأهالي منعوه من السفر وأجبروه على البقاء ، ووعدوه بأنهم لن يسمحوا لأحد الاقتراب منه ، قدم إبراهيم بك واستقر في دار الحكومة ، وسكن صالح في منزله ، وبعد أربعة أيام هاجم محبو صالح بك من الإنكشاريين والأهالي إبراهيم بك

وقتلوه. (١) ونهبوا قسماً من المدينة ونشب القتال، ولم يرَ صالح بك هذه الحركة صحيحة ولاجيدة ولكنه استلم الإدارة، ووصل الخبر إلى الجزائر في الثالث والعشرين من آب. (٢) وعلى الفور عين حسين بك بوحنك أميراً على قسنطينة، وأرسل جيش بقيادة آغا السباهية ووكيل مصاريف القصر، وخرج الجيش متوجهاً إلى قسنطينة، فتمكن الإنكشاريون من دخول المدينة بعد قيامهم بهجوم قسري، كما أن صالح بك أقام الحواجز والمتاريس حول دار البيك بغية الصمود والمقاومة. (٣) وعندما وجد أن الصمود غير مجدٍ خرج لتسليم نفسه، فألقوا القبض عليه وخنقوه، واستولوا على جميع أمواله. (٤) ثم قتلوا جميع أنصاره بعد تعذيبهم تعذيباً شديداً وعاد الجنود بعد حصولهم على غنائم كبيرة. (٥)

تسلم حسين بوحنك إمارة صنجق قسنطينة، وحسين هذا هو ابن بوحنك حسن بك مات والده في قسنطينة ودفن في جامع سيدي الأخضر. (٦) انتقل إلى مدينة الجزائر خلال مدة حكم صالح بك خوفاً منه.

عم الهدوء والسكون مدينة قسنطينة خلال السنتين اللتين حكم بهما حسين بك وقد تعرض لمرض عجيب، وعندما غضب الداي منه قرر إعدامه، فأخذه إلى سجن القلعة الداخلية، وخلال مرضه قُتل خنقاً في تشرين الثاني سنة ١٧٩٤م الموافق رجب ١٢٠٩هـ. كان حسين بك مثل صالح بك قد ترك آثاراً كبيرة في قسنطينة. (٧)

---

(١) أثناء احتلال الفرنسيين لقسنطينة عثروا على حجر قبر إبراهيم بك في مخزن قصر الحجي أحمد بك.

(٢) دي غراممونت.

(٣) غوستاف موسية (Güstave Mersige)

(٤) قيل أن قبر صالح بك موجود في جامع القطاني

(٥) إذا كان دي غراممونت قد قال أن الإنكشاريين استولوا على أموال تقدر باثني عشر مليون من الذهب والمجوهرات والخمائل المرصعة، وإن ميراث صالح بك يبلغ قيمته بـ ٢٧٥ ألف دينار، يبالغ تماماً بذكر هذا الرقم المالي.

(٦) هذه الكتابة موجودة على حجر قبر حسن بك في قسنطينة وتتضمن ما يلي: هذا قبر المرحوم حسن بك بن حسين بكرم الحجي القيوم رحمه الله سنة ١١٦٧ هـ غوستاف مرسيه

(٧) بدأ صالح بك العمل بجسر بجوار قسنطينة وأنهاه حسين بك، ويفهم من حجر قبر صالح بك بأنه أنشأ المدارس في المدينة، وأن حسين بك أنشأ داراً للحكومة في حي دار البيك ويدل =

على الرغم من إنتهاء صالح بك، فإن حسن باشا لم يتخلص من مخاوفه، فلجأ إلى تبديل أمير صنجق تيطري مرتين خلال سنتين، وكان محمد بك أمير صنجق الغرب يتمتع بنفوذ قوي، ولهذا وضعه تحت مراقبة ورصد تحركاته، لأنه يشكل خطراً كبيراً عليه. وفي مطلع سنة ١٢٠٧هـ اندلعت الحرب بين الجزائر وهولندا، وكان الجزائريون منذ أربعة شهور لم يهاجموا السفن الهولندية، وأخيراً تلقوا أمراً بمهاجمتها والاستيلاء عليها، وخلال مدة لا تتجاوز، أربعة أشهر استولى الرياس على تسع سفن هولندية ثم تركوها، وأطلقوا جميع المحجوزين بعد انتهاء المهلة المعطاة لهم، فعمد التجار المسيحيون في إزمير إلى تحميل سفينتين هولنديتين بأمتعة قيمتها / ٣٥٠/ كيس من الذهب، فهاجمها الرياس واستولوا على أموالها، كما أن القراصنة حصلوا على أمتعة من التي تحمل الصبغة العثمانية قيمتها حوالي ألفين كيس من الذهب، فأصدر السلطان أمراً للقبطان باشا يأمر القراصنة بإعادة الأموال التي تحمل الصبغة العثمانية، لكن الديوان الجزائري لم يكترث بالفرمان، بل ادعى بأن هذه الأموال لا تحمل الصبغة العثمانية بل تحمل صبغة أخرى، ولهذا اعتبرها الجزائريون أموالاً هولندية، وهي من حقهم لأنها غنيمة، وكان وجهة نظرهم هي طلب هذه الأموال من الهولنديين، لذلك عاد المشترون والتجار بأيد فارغة، فتوجهوا ثانية إلى الديوان الهمايوني بغية الحصول على أموالهم وبضائعهم، ولو كان الديوان الهمايوني قد أصدر أمراً مشدداً آخر، فإن هذا الأمر أيضاً لن ينفذ ولا يؤخذ به، وقد جرت هذه الأحداث في أوائل شوال سنة ١٢٠٨هـ، وفي هذه الأثناء حدث فتور في العلاقات بين الدولة العثمانية والجزائر، ولم يعرف السبب كما أنه لم يذكر في بداية الفرمان الذي أرسل بشأن الأموال الآنفة الذكر اسم الوزير حسن بك بل كتب مكانة إلى داي الجزائر، وهذا دليل على فتور العلاقات. [1]

في أواسط ربيع الآخر سنة ١٢٠٨هـ كانت مسودة الفرمان الموجود في

= على ذلك الكتابة الموجودة، وقد دفن حسين بك بجوار أبيه في الجامع الأخضر والكتابة الموجودة على قبره بسم الله الرحمن الرحيم توفى المرحوم بكرم الحجي القيوم السيد حسين بك بن المرحوم السيد حسن بك يوم السبت التاسع من ربيع الاخر سنة ١٢٠٩ هـ غوستاف مرسيه.

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٢٠٠/ ص ١٧٣ (إلى داي الجزائر).

الديوان الهمايوني والمكتوب من أجل نائب إزمير على الشكل التالي (إلى جزائر الغرب والأقدم من ذلك خلاف صاحب الرضا العالي وبناء على اختصار الأوضاع، يوجد بخصوص الأوجاق، لقد منحت شرف تحرير فرمانات العساكر، واقتضاءً بموجب الأوامر العالية الصادرة يحال ذلك إلى القبطان باشا فهو المسؤول عن نشرها وتصديرها) ثم شطب منه العبارة التالية (بناءً على بعض الأسباب المترتبة بخصوص أوجاق الغرب لم يحق له تحرير الأوامر العسكرية). [1] إذاً لم يوجد ضمن قيود الديوان الهمايوني سبب يدل على خلاف إستانبول مع الجزائر، فمن المحتمل أن يكون سبب الخلاف ناجماً عن إصدار الأوامر من قبل الديوان الهمايوني بإعادة السفن التي صادرها أوجاق الجزائر للنمسا وروسيا بعدما تم الصلح بينهما وبين الدولة العثمانية سنة ١٢٠٦هـ، وفي سنة ١٢٠٨هـ نفذ صبر الديوان الهمايوني، فأرسل الصدر الأعظم كتاباً يوبخ حسن باشا على عدم التزامه بتنفيذ الأوامر. أما الديوان الهمايوني فليس لديه سبب حقيقي ليكن العداء للجزائر، كما أنه كان للنمسا قنصل في الجزائر قبل الحرب والصلح، والآن الجزائر لا تقبل بالوكيل بل تريد قنصلاً. [2]

أجبر حسن باشا على قبول معاهدة الصلح التي عقدتها النمسا مع الدولة العثمانية، لأنه حُرم من تحرير الأوامر الخاصة بالعساكر، ومراسلة ممالك الدولة العثمانية، إضافة إلى أن الضغوط الموجه إليه من قبل القبطان باشا والصدر الأعظم أجبرته على قبولها. ويذكر حسن باشا بالرسالة التي أرسلها إلى القبطان باشا بتاريخ ٢٧ربيع الآخر سنة ١٢٠٨هـ(وصلنا الأمر المرسل من قبل الصدر الأعظم والقبطان باشا بخصوص عدم التعدي والابتعاد عن مهاجمة سفن روسيا والنمسا، وعلمنا بقيام معاهدة صلح بين الدولة العثمانية والدولتين المذكورتين. ولكن لم يصلنا مسؤول أو ممثل لذلك حتى الآن).

أخبر القبطان باشا السلطان بخضوع الجزائريين لطاعته والامتثال لأوامره، ويطلب منه بكل استرحام أن ترسل النمسا قنصلاً أو وكيلاً أو تقوم بتوكيل أحد قناصل الدول المسيحية للقيام بالأعمال المترتبة عليها، كما أنه

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٢٠٠/ ص ٢٨.
(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني ـ مهمة مستعجلة نمرة / ١٨٦/ ص ٣٣٧.

يطلب من سعادة السلطان أن يخبر النمسا بذلك.[1]

في السابق كـان الديوان الهمايوني يرسل صوراً عن المعاهدات التـي يقيمها مع البلدان الأخرى إلى الجزائر، وذلك بناءً على طلب الجزائر، أما هذه المرة فقد قبل حسن باشا المعاهدة من خلال الفرمان الذي وصله، وقد سجل في قيود الديوان الهمايوني بأن الجزائر وافقت على الصلح مع روسيا والنمسا بشكل شرعي، ثم حفظ الأمر بالديوان.[2] أما الديوان الهمايوني فلم ير الموافقة بهذا الشكل تليق بحكام روسيا، لذلك أُرسل إلى الجزائر فرماناً جديداً كتب في مطلعه التالي (إلى والي الجزائر الوزير حسن باشا) مستخدماً هذا اللقب، وبهذا الشكل تُعتبر الخلافات القائمة قد زالت.[3]

إذا كانت حكومات البندقية وهولندا والسويد وقعوا بخطر الحـرب مع الجزائـر، إلا أن هذه الحكومـات تخلصـت من مسألـة الذهـب، ولـكن الدانمارك بعد مدة تعرضت لنفس المشكلة فيما بعد.

بعد فشل الصلح مع البرتغال، غدا الرياس يبحثون عن وسيلة للخروج من جبل طارق كما أن معاداة فرنسا لجميع الـدول الأوربيـة، أرغمها على التعايش مع الجزائر بسلام، علماً بأن الأرباح التى تحققها من جراء الاتجار بالحبوب لا يمكن تأمينها إلا من الجزائر، وكان القنصل الفـرنسي (فالـير Valier) يعمل كل ما بوسعـه لإرضـاء داي الجزائـر، وممـا ساعـده علـى إفشـال أطماع الإنكليز في الجزائر ومحاولتهم تحريض الداي بعدم بيع الأرزاق للإنكليـز، كونـه يرتبط مع أشراف وأعيان الجزائر بروابط متينة، فقد عمـل والـده قنصـلاً في الجزائر، فنشأ فالير وتربى في مدينة الجزائر، وكان يتقن العربية إتقاناً جيداً، كما أن الداي وقف إلى جانب أنصار الفرنسيين بكل رجولة وصراحة، وأعلن تأييده العلني لهم، فقدم للفرنسيين الأرزاق والحبوب والجلود والملح وغيرها من المواد الأخرى، وفتح لهم الأسواق الشرقية والغربية، ولم يبق للفرنسيين

---

(١) دفر الديوان الهمايوني ـ مهمة مستعجلة نمرة / ١٨٦/ ص ٣٣٨.

(٢) دفتر الديوان الهمايونى ـ مهمة مستعجلة نمرة / ١٨٦/ ص ٣٣٨ (تـاريخ القيد ١١ رمضـان ١٢٠٨ هـ.

(٣) دفتر الـديوان الهمايوـى ـ مهمـة مستعجلـة نمـرة / ٢٠٠/ ص ٢١٠ (أوائـل ذي القعـدة ١٢٠٨ هـ).

حاجة لمواد وأرزاق إلا ونقلتها سفنهم والسفن العائدة لجنوه، وبما أن جنوه تعاونت معه وأيدت الفرنسيين فقد أقام الصلح معها مكافأة لها. كما أن الأهالي باعوا أرزاقهم إلى الفرنسيين بالدين. فبلغت ديون الفرنسيين أكثر من خمسة ملايين فرنكاً فرنسياً، وكان حسن باشا شهماً وكريماً. [1] لكن الفرنسيين قابلوا شهامته وكرمه بالجحود والنكران، حينما غضوا أبصارهم لدى قيام بحارة نابولي والبندقية بإغراق سفينتين جزائريتين في ميناء بروفانس، أما طاقم فقد نُقلوا إلى الجزائر على الفرقيطة (قسطال Vestal).

غضب حسن باشا من تصرف الفرنسيين كثيراً، فأمر بطرد القنصل الفرنسي والرعايا الفرنسيين من الجزائر، ولكنه ما لبث أن تراجع عن قراره بعد يومين من إتخاذه وذلك سنة ١٧٩٢م. أما الدول المتحالفة، فقد استخدموا اليهود كوسيلة لممارسة الضغط على الفرنسيين والجزائريين بآن واحد، فحسن باشا كان قد عهد لليهود الإشراف على جميع الأعمال التجارية في الجزائر، ولهذا كانوا يتمتعون بنفوذ قوي لدى مجلس الباشا، فجميع اليهود أغنياء، وبأموالهم تمكنوا شراء أصحاب النفوذ حتى غدوا يحكمون البلاد سراً، فقد علموا أبناء جلدتهم بأن الرشوة والإهمال[*] هما من أفضل وسائل النجاح. ولكن اليهود لم يتدخلوا بالشؤون السياسية للبلاد، واكتفوا بخدمة الأوربيين وما يحققونه من أرباح من جراء بيعهم السلع الجزائرية لهم[1]. ولم تظهر قدرة اليهود وقوتهم إلا عندما كانوا يشعرون بالضيق، فقد كانوا يصرون بإلحاح شديد على تلبية طلباتهم، وكان الفشل عندهم شبه مستحيل، لأن فشلهم يعني زوال الجمعيات اليهودية.

ففي تلك الحقبة الزمنية كان يترأس الجمعيات اليهودية في الجزائر كل من جوزيف بكري ونفتالي بوشناق*، وكانا لهما دور كبير في الجزائر

---

(١) دي غراممونت.

(*) من المؤكد أن المؤلف ابتعد عن الحقيقة، فهو يدرك تماما أن سكان الجزائر كانوا لا يملكون أي شيء سوى جهدهم، وهم لا حول ولا قوة لهم، وإن السلطة والنفوذ للسلاح. والأتراك هم مالكو السلاح، وهذا يعني أن الأتراك هم الذين قبلوا الرشوة وأهملوا البلاد ورصخوا لإغراءات اليهود (المترجم).

(*): الأصح يوسف بكرى وليس جوزيف. فإسم جوزيف لا يُستخدم لدى اليهود.

واستمرا يتمتعان بهذا النفوذ أكثر من عشرين سنة، فقد كان لهما مخابرات سرية تتجول بين الأهالي على شكل تجار متجولين ينقلون لهما أتفه الأخبار وكانا ينقلان هذه الأخبار بدورهما للداي حسن باشا، ولهذا احتلا لديه مكانة بارزة وأصبحا موضع ثقته[1]. كما أصبحا يملكان صلاحية تعيين وعزل البايات، وبعبارة أصح أصبحا يسيطران على الجهاز الإداري في الجزائر سيطرة كاملة، وغدت مقدرات البلاد بيديهما، ويحركان شؤون البلاد بما يتناسب ومصلحتهما الخاصة والعامة. كان رؤوساء اليهود أذكياء ماكرين ومن أصحاب المهارات أيضاً، وكانوا تجاه مصالحهم كرماء وأصحاب تضحية، ففي سنة ١٧٩٢م/ ١٢٠٧هـ عندما هرب أمير صنجق تيطري الوزنجي مصطفى بك والتجأ إلى مقبرة عبد القادر الجيلاني، وخشي أصدقاؤه من مساعدته، فاتصل به بوشناق وقدم له الطعام وطمأنه، وتوسط له لدى الداي فقبل الداي توسطه وعفا عنه، ولكن مصطفى بك ضعف مركزه وسط الجميع وسقط من أعينهم، وغدا الأمل لديه ضعيفاً بتأمين الأموال المطلوبة منه. فأعطاه بوشناق الأموال اللازمة، وحينما أصبح أميراً على صنجق قسنطينة سنة ١٧٩٤م/ ١٢٠٩هـ عهد إلى بوشناق جميع الأعمال التجارية، وغدا التجار لا يقدرون على إخراج درهم من أرزاق قسنطينة إلا بموافقة ورضا بوشناق.

اتفقت الدول المتحالفة على الاتفاق مع اليهود في الجزائر من أجل منع بيع الأرزاق الجزائرية لفرنسا، لكن اليهود خدعوا تلك الدول، وجعلوها تعتقد بأنها نجحت في مساعيها، فالمتعهد الذي يؤمن الأرزاق للعساكر الموجودة في جبل طارق كان يهودياً، وقد تعامل اليهود مع الطرفين، وتعهدوا بتأمين الأرزاق للجيش الفرنسي، هذا التعهد ساهم بصورة مباشرة في جلب المصائب للجزائر.

لجأ الإنكليز إلى ترتيب خطة جديدة، فقد كلفوا قنصلهم بالعمل على عقد معاهدة صلح بين الجزائر والبرتغال مهما كان الثمن، وبهذا الشكل سيتمكن الرياس من عبور جبل طارق بسلام، وضرب السفن الفرنسية القادمة من أمريكا، وسيمنعون وصول الأرزاق إلى الموانىء الفرنسية في مقاطعة بريطانيا وبحر المانش، وقد نجح القنصل الإنكليزي في مهمته وعقد صلح

(١) دي غراممونت.

بين الجزائر والبرتغال، لكن القنصل الفرنسي أدرك هدف القنصل الإنكليزي، فعمل هو الآخر على عقد معاهدة بين الجزائر وأمريكا بالرغم من معارضة وكيل الخراج علي آغا والخزاندار محمد آغا وبعض الأعيان، ونجح في عقدها فأحبط بذلك الخطة الإنكليزية.

تمكن قائد سبو مصطفى آغا من إفشال استقلال القبليين بصعوبة شديدة، أما مصطفى آغا فقد تمسك بسبب تافه حيال المنازعات والخلافات التي دامت أربع سنوات، فألقى القبض على رئيس الفليساسيين (Flissas) حسين جامون عندما عاد من الحج أثناء عبوره في الجزائر وخنقه، وقد أدى هذا الحادث إلى تمرد الفليساسيين وأنصارهم.

أثناء الاحتلال الإنكليزي لمدينة طولون وحكم على الفرنسيين العاملين في بلديتها بالإعدام، ويعود السبب في ذلك إلى عم القنصل الفرنسي فالير، ونتيجة لذلك هرب إلى قرطاجنة وبغية ضمان العفو له، طلب القنصل الفرنسي من حسن باشا التوسط له لدى الحكومة الفرنسية، ولكن الحكومة الفرنسية رفضت ذلك لأن هذا الشخص ارتكب الخيانة بحق الوطن، فانزعج حسن باشا، ولهذا كلف أمير قسنطينة بإغلاق الشركة التجارية الفرنسية وقطع العلاقات معها.

حل مكان الشركة الإفريقية الملكية للتجارة الفرنسية وكالة إفريقية، فعمد الفرنسيون إلى عزل القنصل ڤالير، لأن الداي تمسك بطلبه بشأن العفو عن عم زوجة القنصل ڤالير. القنصل الفرنسي الجديد لم يستطع سد فراغ ڤالير، ولم يعد حسن باشا يستطلف الفرنسيين كما كان سابقاً، وغدا الفرنسيون عاجزين عن أخذ الأرزاق من الجزائر، ولكن بكري وبوشناق استمرا في إمداد فرنسا بالأرزاق كالمعتاد. وبما أنه لم يبق لدى الفرنسيين أموال، أصبحوا يعطون سندات مقابل ما يأخذونه من أرزاق.

كان حسن باشا يعزل أمراء الصناجق باستمرار ويعيِّن أمراء جدد وذلك بغية مصادرة أموالهم لصالح خزينته، ففي سنة ١٧٩٤ م / ١٢٠٩ هـ عزل أمير تيطري محمد الدباح وعيّن مكانه سيدي حسن.

وفي تشرين الثاني سنة ١٧٩٤ م / ١٢٠٩ هـ، سجن أمير قسنطينة

حسين بك بوحنك ثم أعدمه وعيّن مكانه مصطفى بك ، ولكن مصطفى بك اغتيل سنة ١٧٩٧ م عندما كان عائداً مع ستة آلاف شخص من حرب تونس ، فعيَّن مكانه على قسنطينة مصطفى بن إنكليزة .

الأمير الوحيد الذي لم يبدل من بين أمراء الصناجق محمد بن عثمان أمير صنجق الغرب ، وقد حصل محمد على لقب كبير الأعيان ، فكان يأتي بنفسه إلى الجزائر لدفع ضريبة الصنجق ثم يعود ، وفي إحدى المرات مات فجأة عندما كان في مضافة السباح ، وتذكر بعض الروايات بأنه مات مسموماً ، وليس هناك دليل يثبت صحة ذلك ، وكان لمحمد بك ولدان هما المكلش وعثمان .

عمل الاثنان على التوالي أمراء لصنجقي الغرب ، وكان عثمان بك صغير السن ، ولكنه قدم خدمات جُلى أثناء محاصرة وهران ، ولهذا السبب عهد إليه والده بإدارة قسم من صنجق الغرب ، وعقب وفاة والده ثبته الداي في أمرة صنجق الغرب[1] .

تمكن الإنكليز من عقد معاهدة صلح بين الجزائر والبرتغال ، ولكن البرتغاليين نقضوا هذه المعاهدة ، فغضب الداي كثيراً ، وبما أن الإنكليز توسط لعقد الصلح بين البرتغاليين والجزائر ، لهذا شدد الداي الخناق على الإنكليز وعاملهم معاملة قاسية ، وبعد ذلك أعلن الحرب عليهم ، وحالما شعر القنصل الإنكليزي بنية الداي فر بسفينته هارباً إلى بلاده .

لجأ الإنكليز إلى بكري بغية تهدئة الداي والتوسط لديه لعقد صلح جديد ، فانحنى بكري على أقدام الداي طالباً منه العفو عن القنصل ، فأجابه الداي لطلبه . لم تشف الدّمل التي أصيبت حسن باشا بساقيه ، واستمرت آلامها إلى أن أودت بحياة الداي في ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ الموافق ١٤ أيار سنة ١٧٩٨ م . وخلال فترة مرضه أعلن الانكشاريون تمردهم وعصيانهم ، وهاجم خمسون رجلاً منهم قصر الجنينة ، وسلبوا ونهبوا ما فيه إلى أن وصلوا إلى غرفة الباشا فهرع وكيل الخراج ولحق بهم وتمكن من قتل قسم كبير منهم . وظل يقاتل القسم الآخر إلى أن تمكن من الإنتصار عليهم ، أما

(١) دي غراممونت .

الفارون منهم فقد لاحقهم في أحياء المدينة وألقى القبض عليهم وأعدمهم، واستمر كذلك إلى أن أخمد العصيان وأعادهم إلى الالتزام بالطاعة ووطد الأمن والاستقرار ونسيت المسألة تماماً[1].

---

(١) وجد لحسن باشا عدة كتابيات.

أ - أنشأ حسن باشا على طريقي مصطفى وبلكو سبيل ماء، وفتح بئر ماء في ساحة بيرماند ريس، إضافة إلى العديد من الآبار والينابيع وتواريخها سنة ١٢٠٨ هـ ١٢١٢ هـ.

ب - قام ببناء جامع كشادا بتاريخ ١٢٠٩ هـ وقد حول الفرنسيون جامع كشادا إلى كنيسة.

جـ - أقام ثكنة في باب عزون خاصة بالإنكشاريين وتاريخها سنة ١٢١١ هـ.

- ١٣ -
عهد الدايات

الداي مصطفى باشا - طبائعه - العلاقات مع الأوربيين - غزو نابليون لمالطة - إعلان الحرب على فرنسا - الهدنة والصلح - إعلان الحرب من جديد - تأمينات الصداقة السرية - الإعداد للفساد - الصلح من جديد - الطريقة التيجانية - تقدم عثمان بك فى عين المهدية - عزل عثمان بك - عزل أميري تيطري وقسنطينة - مطالب نابليون القاسية - طرد القنصل الإنكليزي - الأسطول الإنكليزي - المؤامرة الإنكليزية - الاغتيالات - قتل اليهود - الداي أحمد باشا.

عهد حسن باشا إلى ابن أخيه مصطفى بك منصب الخزنجي، كما أن بوشناق توسط له للحصول على هذا المنصب، وكان بوشناق يريده أن يصبح داي الجزائر، لأنه باستلامه يزداد نفوذه، لكن مصطفى بك لا يرغب باستلام منصب الداي لأنه حساس ومهلك، لذلك أوصى بانتخاب آغا السباهية، إلا أن توصيته رفضت وعيّن داياً على البلاد.

كان مصطفى رجلاً طماعاً، استولى على أموال عمه وأخذها من عائلته بعدما سجنها مع والدها وأولادها لأنهم رفضوا إخباره عن مكان النقود، كما أنه جدد أمور المصادرات التي كان الدايات السابقون يطبقونها، ومارس أعمالاً كثيرة للحصول على الأموال سواء على الأهالي أو القناصل. فتضايق الجميع منه وحقدوا عليه.

عامل مصطفى بك الإنكليز والإسبان والدانمارك معاملة سيئة، وأثناء

مقابلة قنصل السويد له غضب منه كثيراً، فرفع السيف في وجهه، ولولا حذر القنصل لقطع رأسه، وبما أن جميع دول أوربا مشغولة بمشاكلها الداخلية، لذلك لم يوجد من يقف في وجهه ويضع حداً لتصرفاته، كما أنه احتقر القنصل الفرنسي مولتدو(Moltedo) لأنه لم يقدم له الهدايا كالمعتاد.

لم يكترث الداي عندما رفضت حكومة الديركتوار الفرنسية إطلاق سراح الأسرى المسلمين، وبعد مجيء القنصل الفرنسي بعدة أيام علم الداي بأن الجيش الفرنسي تحرك بأسطوله بحراً، واعتقد الجزائريون أن هذه القوات موجهة ضدهم، لكن نابليون اتجه بقواته إلى مالطة، وبعد محاصرتها محاصرة جزئية تمكن من احتلالها ثم أطلق سراح الأسرى الموجودين فيها، وكان نابليون يهدف من ذلك خدمة أهدافه الخاصة وبعد احتلاله لمالطة طلب من الأسرى المسلمين أن يقولوا بأنه قضى على عش القراصنة وأنقذ العالم الإسلامي من خطرهم وطلب منهم نشر ذلك في كل مكان[1]. وفي السابع عشر من محرم سنة ١٢١٣ هـ توجه نابليون إلى الإسكندرية[2]. وبهذا الشكل تكون فرنسا قد فتحت باب الحرب على مصراعيه ضد الدولة العثمانية وبشكل صريح وعلني، فأصدرت استانبول أمراً إلى واليها على مصر أبو بكر باشا بالتصدي للفرنسيين ومواجهتهم والدفاع عن مصر، كما أمرت جزار باشا والي عكا بإمداد مصر بالقوات.

أمرت الدولة العثمانية أوجاق طرابلس الغرب بتجهيز الأسطول وسفن الإمداد حالاً وإرسال كافة تشكيلات الأوجاق من الخيالة والمشاة وتزويدها بالمدافع مع العشائر والأمراء بالذات باتجاه الإسكندرية والاتصال مع إبراهيم باشا في منطقة الرشيد من أجل شن هجوم موحد على قوات العدو، كما وجه فرمان إلى أوجاقي الجزائر وتونس الوارد أدناه.

إلى جلالة والي جزائر الغرب. حكم.

---

(١) بعد طرد فرسان القديس جان من جزيرة رودس استقروا في مالطة وعندما احتل نابليون الجزيرة يكون بذلك قد أنهى نهائياً حكومتهم، ولكن طريقتهم ما زالت مستمرة حتى الآن. وما زالوا ينتخبون المعلم الكبير ففي سنة ١٩١٩ كان المعلم الكبير يدعى (برنيا غاليس) دونون هوهنشتن إلوسية أسيود مرة: ٣٣٩٨.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٢٠٧/ ص ١٩ (أواسط صفر ١٢١٣ هـ).

لقد نقضت فرنسا الصلح بينها وبين الدولة العثمانية العلية بدون سبب موجب. وعلمنا بأن الجنرال بونابرت تحرك بأسطول وجيش كبيرين إلى الإسكندرية ، وهو الآن يحاربنا بالأشهر الحرم أي يوم ١٧ محرم ، وأنه يحاول دخول بغداد عن طريق الإسكندرية .

لقد وجه فرمان همايوني إلى والي مصر ، وبلغنا أحمد باشا الجزار بتجهيز جيوشه مع أسطوله بشكل كامل وتام ، وعليك أنت والي جزائر الغرب أن تضع كل احتمال للشائعات والأكاذيب التي قد تنتشر بين طائفة الأوجاق وتحاول القضاء عليها في أراضي أوجاق جزائر الغرب . كما أن الأمر يتطلب منك الانتباه إلى الحدود بصورة خاصة وبقية الأطراف كي لا تكون عرضة مثل الإسكندرية ، وألا تغفل عينيك عن مكرهم ودسائسهم . وأعلم أن الفرنسيين عملاء يريدون إلحاق الضرر بجميع الممالك الإسلامية ، فهم يهاجمون الإسكندرية الآن ، ومنها يقصدون بغداد ، وبعدها سيقصدون أوجاق الجزائر ، لذلك يلزم عليك أن تجمع كل ما تستطيع جمعه من سفن كبيرة وصغيرة وجمع أرباب الحرب والضرب واستكمال جميع النواقص وسد الثغرات الموجودة في قوات ومعدات أوجاق الجزائر . وتجهيز قواتكم بالقرب من الترسانة (ترسانة طولون) بغية إمداد الإسكندرية ، وأن تعلموا قراصنة أوجاق الغرب التوقف بسفنهم والتأهب للاشتراك بهذه الحرب ومساعدة عموم أمة محمد المشغولة بقتال العدو في الإسكندرية وحوالي القاهرة وتجهيز أسطولكم للإلتحاق بالأسطول الهمايوني القادم من البحر الأسود . تم إرسال هذا الأمر الشريف في أواخر صفر سنة ١٢١٣ هـ[١] .

أرسلت نسخ من هذا الفرمان الهمايوني إلى أميري تونس وطرابلس الغرب ، ونظراً لأهمية هذا الفرمان ، ولكي لا يقع بيد العدو أو يعلم بمضمونه أخرت النسخ الأخرى حتى بداية ربيع الأول ، وتم إرساله بطرق مختلفة ، ويوجد على قيود الفرمان العبارة التالية (حفظ هذا الفرمان بالقسم المخصص من الباب العالي) ومن المحتمل أن يكون سبب تأخير إرساله هو وفاة حسن باشا ، لأن الأمر الجديد أرسل في أواخر ربيع الآخر وكتب بإسم أمير الأمراء الجديد وأضيف عليه البنود التالية : (سترسل روسيا من طرفها أسطولاً إلى

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٢٠٧/ ص ٨٢ (أواخر ربيع الأول ١٢١٣ هـ) .

البحر الأبيض المتوسط لمهاجمة الأسطول الفرنسي بالاتفاق مع الإنكليز أعداء فرنسا، ولتتجول السفن الجزائرية مجتمعة، فإذا شاهدت السفن الفرنسية، عليها بمهاجمتها بكل شجاعة وبسالة)[1].

تبلغت الجزائر الفرمان الأول، ولكنها لم تبد حراكاً، وفي السادس عشر من تشرين الأول سنة ١٧٩٨ م/ ١٢١٣ هـ، أرسل السلطان سليم الثالث لداي الجزائر مصطفى مع فرمان توليته أمير أمراء الجزائر سيفاً وريشة مرصعة وبُردة[1]. وأخبره بإعلان الحرب على فرنسا ووصل أمر التأكيد في ٢٢ تشرين الثاني[2]. وكانت بريطانيا تعلم بأن الأوامر المرسلة إلى الجزائر لن تنفذ، ولهذا سعت لدى الديوان الهمايوني على ضرورة تنفيذها.

في التاسع عشر من كانون الأول سنة ١٧٩٨ م/ ١٢١٣ هـ، جاء كبير البوابين (القابجي باشي) وبلغ الداي رسمياً إعلان الحرب على فرنسا و بشكل قطعي، وبعد نقاش حاد قرر الديوان إطاعة الأمر[3]. فسجن القنصل الفرنسي وكبير الكهنة مع العاملين بالقنصلية وكان عددهم اثني عشر شخصاً، ولكنه أخرجهم من السجن بعد ذهاب القابجي باشي. قدم بكري وبوشناق مساعدات كبيرة للفرنسيين، ورداً على هذه المساعدات أمرت حكومة الديركتوار في فرنسا، بحجز المراكز التجارية في مرسيليا وسجنت الأتراك والرعايا الجزائريين الموجودين في فرنسا.

أرسل القنصل الفرنسي مولتدو (Moltedo) رسالة إلى حكومته حول المعاملة الحسنة التي يعاملها الجزائريون لهم، فرفض طلبه، وفي الثالث عشر من أيار سنة ١٨٠٠ م / ١٢١٥ هـ، قدم إلى الجزائر ديبوا تانفيل يرافقه القنصل الفرنسي في الجزائر مولتدو بهدف إقامة الصلح مع الجزائر وعقد معاهدة[4].

سلم القنصل الفرنسي الأول للداي رسالة من حكومة الديركتوار، ومن ثم عقد الطرفان اتفاقية هدنة فيما بينهما، وقد عارضت إنكلترا ذلك،

(١) دى غراممونت.
(٢) دي غراممونت.
(٣) دي غراممونت.
(٤) دي غراممونت.

وأصدرت قراراً تهدد فيه بقطع علاقاتها بالجزائر. وعلى الرغم من ذلك فقد أقام الداي الصلح مع فرنسا في ثلاثين أيلول سنة ١٨٠٠ م، فقدمت له فرنسا مليون فرنك فرنسي هدية له ومكافأة لموقفه الجيد تجاه فرنسا، وعندما عجزت إنكلترا عن تنفيذ تهديدهابشكل فعلي أو التأثير عليه، لجأت إلى الديوان الهمايوني، ووضحت له المسألة بشكل مفصل، فأصدر الديوان الهمايوني أمراً قطعياً إلى الجزائر بشأن دوام الحرب واستمرارها ضد فرنسا، وبناءً على هذا، فإن الصلح بين فرسا والجزائر لم يدم أكثر من أربعة أشهر.

لم يجد داي الجزائر بداً من الالتزام بالأمر الهمايوني، فاستدعى القنصل الفرنسي الأول ديبوا تانفيل إلى قصره وأخبره قراره، ووعده بتأمين سفينة له تنقله إلى فرنسا بأمان.

توجه الفرنسيون إلى ألقنت، وبعد عشرة أيام أرسل مصطفى باشا رسالة إلى القنصل الفرنسي الأول يخبره فيه بأنه كان مجبراً على هذا التصرف، وأنه تلقى تهديداً من السلطان يعلمه بأنه في حال عدم التزامه، فأنه سيوجه الأسطول لإحراق الشمال الإفريقي، وهو الآن يجهز بعض السفن لهذه المهمة، وطلب من القنصل المحافظة على سرية هذه الرسالة وعدم السماح لأي شخص كان بالاطلاع عليها[1].

تأسست الطريقة التيجانية في عين مهدي، واتخذتها مقراً أساسياً ورئيسياً لها، وكان مؤسس هذه الطريقة يتردد إلى شريف فاس ويلتقي معه، ويأخذ التعليمات والأوامر منه.

بدأ مؤسس الطريقة بنشر طريقته سنة ١٧٨٢ م / ١١٤٧ هـ وكان يغدق على أنصاره الهدايا بشكل مدهش، وغدا كثير من المسؤولين يترددون إليه، وبهذه الوسيلة بدأ نفوذ الشيخ يزداد ويعلو في كل مكان، وقد لاحظ عثمان بك أمير صنجق الغرب أن أصحاب الطريقة يسعون لإقامة حكومة خاصة بهم، فجهز جيشاً واتجه إليهم، لكن الشيخ تمكن من الهروب، ففرض البيك على الأهالي غرامات مالية كبيرة وثقيلة، ثم عاد دون أن يتمكن من القضاء على الطريقة بشكل نهائي، فمارست الطريقة نشاطها كالمعتاد.

---

(١) دي غراممونت.

في سنة ١٨٠٠ م / ١٢١٥ هـ، عزل عثمان بك ثم اعتُقل ونقل إلى الجزائر، وفي سنة ١٨٠١ م عزل أمير تيطري وصودرت أملاكه، وفي سنة ١٨٠٣ م عفا الداي عن عثمان بك وعينه أميراً على صنجق قسنطينة مكان مصطفى بك الإنكليزي. وبعد عزل عثمان بك من صنجق الغرب عيّن الباشا مكانه ما ينسلي مصطفى بك.

كان الداي مصطفى باشا من أنصار فرنسا، ولم يرتح لتقاربه مع الإنكليز، فلجأ الأميرال (كايت) والقنصل (فولجون Folcon) إلى تحريض حجة الخيل للتمرد ضد الباشا والثورة عليه، ووعده الأميرال بتسليمه منصب الباشوية، وفي سنة ١٨٠١ م / ١٢١٦ هـ عندما كان الباشا في المسجد دخل بعض العصاة قصر الجينية وعملوا على انتخاب داي جديد للجزائر، وعندما سمع الداي بهذا النبأ أرسل جنوده لمحاصرة القصر وبذلك تمكن الداي من إلقاء القبض عليهم وأعدم جميع من كان بالقصر[1].

عقب مغادرة السفن الفرنسية للجزائر، تجول قراصنة الجزائر في البحر، وخلال ذلك استولوا على عدة سفن تابعة للنمسا والبندقية، وبما أن الدولة العثمانية كانت قد وقعت معاهدة صلح مع النمسا وتنص إحدى بنود المعاهدة على عدم التعرض للسفن النمساوية، وفي حال وقوع مثل ذلك، فستدفع الدولة العثمانية الأضرار والتأمينات في خزينتها العامرة، وخاصة أن الجزائر وافقت على تلك المعاهدة، ولهذا أرسل شخص من قبل النمسا لاستلام السفن المصادرة، ومزود بفرمان تحذير من تكرار مثل ذلك مستقبلاً[2].

في هذه الأثناء احتلت النمسا عدة أماكن عائدة للبندقية، وألحقت هذه الأملاك بأراضيها، كما طلبت من الدولة العثمانية إلحاق الأراضي التابعة لحكومة البندقية إلى أراضيها كما فعلت هي، وخاصة (برغالي - بروزه - فونيكا - ترتنو) وإضافة تلك الأراضي إلى خزينة الأراضي الجديدة[3]. وكانت النمسا تريد مقابل ذلك معاملة سفن البندقية التي تمر في موانىء الدولة

(١) دي غراممونت.
(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٢٠٩/ ص ٢٤٩ (أواسط جمادى الآخرة ١٢١٤ هـ).
(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٢١٢/ ص ١٢٣ (أواسط جمادى الآخرة ١٢١٥ هـ).

العثمانية كأنها سفن نمساوية وليست سفناً عائدة للبندقية.

في الحقيقة ظن الجزائريون بأن هذه السفن عائدة للبندقية وإن العائدات التي حصلوا عليها من أملاك البندقية، وأخبروا إستانبول بذلك، والفرمان الوارد من استانبول يوضح ذلك.

إلى أمير أمراء جزائر الغرب دام إقباله. حكم.

علمنا من التحرير الوارد إلينا بشأن السفن التي كانت بالأصل هي للنمسا، وإن السفن التي تعود للبندقية لم تعد لها، لأن البندقية الواقعة ما بين فرنسا والنمسا تم اقتسامها فيما بينهما، والسفن التي تتجول في سواحل البندقية وترفع العلم النمساوي، فمن الموجب واللازم عدم التعرض لها وعدم مصادرتها كما أنه يجب إعادتها وتسليم الأمر أولاً إلى القبطان باشا إسماعيل فور وصوله، ثم الامتثال للأوامر وتسليمه مائة وتسعين أسيراً، والبندقية تطالب النمسا بعائداتها، لذلك نريد منكم إشعاراً مفصلاً بذلك. . . . يجب عليكم تحصيل وجمع جميع السفن والأموال والأشياء المصادرة والعائدة للنمسا، ثم ردها مع دفع الترضية لها[١].

وبما أن قراصنة طرابلس الغرب صادروا سفينة نمساوية، لذلك وجه الفرمان إلى طرابلس الغرب أيضاً، ولكن الأوجاقات تريد التهرب والتخلص من إعادة هذه السفن والسفير النمساوي يعمل جاهداً للحصول عليها ويطالب مقابل ذلك من ٧٠٠ ـ ٨٠٠ كيسه من الأوجاقات، والسلطان لا يريد دفع هذه الأموال، وانتهت المباحثات بإعطاء النمسا ١٠٠٠ قرش مقابل هذه السفن من أموال الخزينة العامرة والديوان الهمايوني يريد استرداد هذه الأموال من الأوجاق، لذلك أرسل فرمان همايوني إلى الأوجاقات يطلب منهم هذه الأموال ويأمرهم بعدم التعرض للسفن النمساوية[٢].

عندما أقامت الدولة العثمانية الصلح مع فرنسا عاد القنصل الفرنسي لممارسة وظيفته كالمعتاد، وفي الثامن عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٠١ م / ١٢١٦ هـ، أقيمت معاهدة الصداقة بين الطرفين[٣]. لكن هذه

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٢١٠/ ص ١٧٣ (أوائل صفر ١٢١٥ هـ).

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٢١٤/ ص ١٤٦ (أواخر ربيع الآخر ١٢١٦ هـ).

(٣) دي غراممونت.

الصداقة لم تستمر طويلاً ، وذلك لأن المسألة التي ظهرت والمعاملة التي جرت بدلت كل شيء وقلبت الأمور رأساً على عقب . والفرمان الوارد أدناه يوضح ذلك صراحة .

إلى أمير أمراء جزائر الغرب مصطفى دام إقباله . حكم .

لم يتم الالتزام بالمعاهدة المعقودة بين الجزائر والجمهورية الفرنسية ، لذلك قمتم بضرب ومنع السفن الفرنسية من صيد المرجان وحتى في السنة الماضية اقتربت سفينة من ساحل وهران ، فهاجمها العربان ، وأسروا من في السفينة ، ثم نقلوهم إلى الجبال التي يسكنون فيها ، فهلك معظمهم بسبب سوء المعاملة والجوع والعطش الذي شهدوه وعانوه ، وإن الفرنسيين الآن يوجهون إنذاراً وإذا لم تدفع لهم خلال أربعين يوماً مائتي ألف قرش ، فأنهم سينهون الصداقة التي بيننا ، ويعلنون الحرب علينا ، فإذا ما كانوا مصرين على التحرك خلافاً للمعاهدة المذكورة ، فإن الجمهورية الفرنسية ستقوم بإرسال جيشها لإحتلال أوجاق الجزائر ، وبما أن أوجاق الجزائر تابع للدولة العثمانية العلية ومن السلطانات الجانبية للدولة العثمانية ، وللاستفادة من ذلك فإن السيد محمد سعيد دام مجده اطلع على التقرير الفرنسي المقدم من قبل ناظر الخارجية الفرنسية ، وهذا الشخص هو الذي أشرف على إعداد معاهدة الصلح بين فرنسا والدولة العلية وما ينتمي إليها من سلطانات ، ومن هذه السلطانات أوجاق الجزائر ، وهذه الحركة غير لائقة بالجزائر ، لذلك يجب التقيد بالأوامر والتعليمات الشريفة الصادرة من قبلنا ، كما يجب الانتباه إلى الأوامر الشريفة الصادرة عن دار السعادة ، والتعهد بتنفيذ مضمونها ، كما يجب عليكم إذا أردتم عقد أو فسخ معاهدة الصلح بينكم وبين دول النصارى أن تستشيروا وتستأذنوا الدولة العلية وتتحركوا حسب توجيهات إرادتنا العلية ، وإن تحركاتكم مع الجمهورية الفرنسية منافية للصدق والإستقامة ويجب اختصار هذه التحركات فيما بعد والتحرك بموجب التقرير المرسل مع أحد رجال القبطان باشا . . . . أوائل جمادى الآخرة سنة ١٢١٧ هـ.

ختم هذا الفرمان بالختم الشريف بعد أن أضيفت إليه العبارة التالية (يجب العمل بموجبه والحذر من مخالفته)[1].

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٢١٧/ . لا يوجد رقم للصفحة.

رداً على هذا الفرمان وعلى ضرب القنصل الفرنسي في ميناء تونس، أرسل نابوليون رسالة تهديد إلى الأوجاقات (المقصود أوجاق تونس والجزائر وطرابلس الغرب) ووصل حامل رسالة التهديد الأميرال ليساغو(Amiral Leyssgue) مع فرقة بحرية إلى الجزائر في السابع عشر من آب سنة ١٨٠٢م وقد خاطب نابليون الجزائريين بلهجة شديدة وقوية جداً، وقال لهم فيها بأنه سيأتي بثمانين ألف جندي إلى الجزائر لهدمها وتخريبها، كما أنه تحدث في هذه الرسالة عن الأعمال التي قام بها في مصر، أما الداي فقد عامل الضباط الفرنسيين معاملة حسنة، وأرسل الريس المذنب تتر علي إلى أمام القنصل الفرنسي ليقطع رأسه، لكن القنصل عفا عنه، ثم أرسل الداي رسالة تقدير واحترام لنابليون وأطلق سراح طاقمي السفينتين، وطلب من أمير صنجق قسنطينة تجهيز الأراضي العائدة لامتيازات الشركات الفرنسية[1].

في هذه الأثناء نشبت الحرب بين الإنكليز والفرنسيين، فاتخذت الدولة العثمانية موقف الحياد في هذه الحرب، أما كبير الكتاب أفندي ففي الرابع من جمادى الآخرة سنة ١٢١٨هـ وزع هذا القرار المذكور على سفراء الدول وأخبر الأوجاقات بذلك[2].

لم يفعل داي الجزائر أي شيء تجاه الإجراء الذي اتخذته الدولة، أما الإنكليز فقد أبدوا استياءهم من ذلك، فعمد القنصل الإنكليزي إلى إحضار النساء المسلمات إلى منزله بدون أي سبب أو مناسبة، إزاء ذلك قام الشواش باقتحام منزله وأخرجوا النساء من منزله، وباشروا بضربه وإهانته، ومن ثم أمسكوا القنصل ورموه في سفينته، وبعد عدة أيام جاء الأميرال الإنكليزي نلسون إلى الجزائر، وبرفقته أسطول بحري ضخم، وبدأ بإطلاق التهديدات إذا لم تقم حكومة الجزائر بالاعتذار عما حدث للقنصل مع ترضية، فأجابه الداي قائلاً: إذا كنت تريد الهجوم فنحن مستعدون ولا يوجد لا اعتذار ولا ترضية، وكان كل شخص ينتظر القصف من الأسطول الإنكليزي، فهربت قناصل الدول إلى المصايف، في حين أخذ الأهالي يستعدون للدفاع عن مدينتهم وحمايتها، إلا أن الأسطول الإنكليزي لم ينفذ تهديداته ولم يقم

(١) دى غراممونت.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة ٢١٨. ص ٣.

بأي عمل، فرفع مرساته وغادر البلاد، لكنه عاد ثانية في شهر حزيران سنة ١٨٠٤م / ١٢١٩هـ، إن الإنكليز لن يغفروا لقنصلهم فالكون (Falkon) قباحته وإساءته فعزلوه من منصبه وعينوا بدلاً عنه القنصل ماكدونيل (Makdonel) وبما أن الجزائريين طردوا القنصل السابق ولذلك لن يقبلوا القنصل الجديد دون ترضية.

علم مصطفى باشا بأن الإنكليز لا يريدون معاداته، ولهذا أصر على طلب الترضية، فتلقى نلسون أمراً بالعودة كي لا تسوء الأمور أكثر من ذلك.

الإنكليز عندما يعجزون عن تحقيق أي هدف بالقوة، يلجأون إلى اتباع أسلوب الحيلة والخداع، ولهذا سعوا إلى خلق المشاكل للداي، واغرقوه بها. ففي سنة ١٨٠٤م / ١٢١٩هـ حرضوا القبليين على التمرد والعصيان وقدموا لهم السلاح. وإن جميع المؤمرات التي حُيكت ضد الداي كان للإنكليز أصبع فيها، فمثلاً في ٢١ آذار تعرض الداي لرصاص أربعة من الإنكشاريين أثناء زيارته لحجر أساس الأوجاق، وقد أصيب برصاصتين، لكن إصابته كانت خفيفة، فتصدى لهم الداي مع مرافقيه من الشواش، كما هرع عمال حجر الأوجاق إلى مكان الحادث وتمكنوا من إلقاء القبض على المجرمين ومعاقبتهم.

في سنة ١٢١٨هـ صدر فرمان سلطاني يقضي بتثبيت مصطفى باشا في إمرة أمراء الجزائر[١].

انضمت جمهورية سبا (Seba) إلى اتفاقية الصلح مع روسيا كي لا تتعرض لتجاوزات الأوجاق، كما أن البندقية أقامت حدوداً لمياهها الإقليمية، وقررت منع القراصنة من الدخول إلى هذه المياه، وعلى الرغم من ذلك فقد استولى القراصنة على سفينة أمام مدينة كورفو الصقلية[٢].

عاد سكان البندقية من جديد للاعتداء على سفن الجزر التي ألحقت بالدولة العثمانية مثل بروزة وبرغالي (Preveze - Pargali)، وكان الديوان الهمايوني يصدر أوامره باستمرار بخصوص هذه الأمور التافهة[٣]. وفي أوائل

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة: ٢١٩ ص ١٥٦ (أوائل ذى الحجة ١٢١٨هـ).

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة: ٢٢١ ص ١٩٣ (أوائل جمادى الآخرة ١٢١٩هـ).

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة: ٢٢٢ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ (أوائل جمادي الآخرة ١٢٢٠هـ).

أيار سنة ١٨٠٥م / ١٢٢٠هـ، تعرض الداي لحادث اغتيال جديد، وكان هدفاً لثلاث طلقات أطلقت عليه من مكان قريب، فأصابت أحداهما كيس نقود، ولو كان لها تأثير كبير لأردته قتيلاً. أما الطلقتان الأخريان فقد أصابتا يده اليمنى، فقطعتا له إصبعين منها، وتعرض الخزنجي الموجود بقربة لضربة سيف[1].

أعلمت الدولة العثمانية أوجاقات الغرب، بضرورة مخاطبة النمسا بالأمبراطورية النمساوية، بدلاً من دولة النمسا وبصورة خاصة أثناء المراسلات الرسمية[2].

أما الجزائريون فمنذ عدة سنوات وهم يتحملون عناد الداي بشأن امتيازات واعتبارات اليهود، وكان اليهود ينفقون الأموال الطائلة على الداي سراً. لتحقيق أهدافهم الخاصة والعامة وتعميق وتثبيت نفوذهم داخل الجزائر، لكنهم لم يقوموا بممارسة أي دور سياسي بشكل علني وصريح، وعندما يشعرون بالضيق يقومون بتوزيع الهدايا على ذوي المناصب العالية والمهمة وعلى الأعمال الخيرية بغية الحصول على اهتمام ورضا الجميع، كما كانوا يحاولون بأموالهم الكثيرة التأثير على ذمة وشرف الحكومة[3]. وقد دفعتهم قوتهم السرية ونفوذهم القوي إلى حد الهوس بضرب أقدامهم بالميدان، وفي ذلك الزمن لاحظوا بأن التبعية التركية لم تفهم جيداً، وتناسوا عن قصد بأنهم لا يضرون إلا أنفسهم فقط، لأن الغرور التركي أعلى من طمعهم وجشعهم.

كانت جميع فئات الشعب من إنكشاريين ومدنيين وغرباء وفقراء وأغنياء ضد اليهود، وكان الجميع يظنُ بأن سبب ظلم الداي ومعاقبته للناس بسبب تحريض اليهود وتشجيعه على ذلك، وإذا بدل الداي أحد أعوانه يصبح الشخص المعزول عدواً لدوداً لليهود، كما أن الأهالي اتهموا اليهود ببيع المواد الغذائية وترك البلاد بدون أغذية حتى أصبحت البلاد عرضة لمجاعة حقيقية، إضافة إلى شرائهم تلك

(١) دي غراممونت.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة: ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٢٤ (أوائل جمادي الأخر ١٢٢٠هـ).

(٣) دي غراممونت.

المواد بأسعار زهيدة جداً، حقيقة الأمركان اليهود يقومون بممارسة تلك الأعمال، وفي هذه الأثناء تعرضت المناطق إلى قحط شديد، ونتج عنه قلة المواد الغذائية في المدن.

كان بكري وبوشناق يريدان الفرار من الأحداث التي تواجههما، لكن كبرياءهما وغرورهما منحهما الهمة على مضاعفة الجهد والتصدي للأحداث، على الرغم من شعورهما بالخطر المرتقب، وكانا على علم بأن القنصل الفرنسي يعمل ضدهما، وقد قام القنصل الفرنسي بإعلام الداي عن الفساد السائد في صنجقي وهران وقسنطينة، الذي نتج عنه قيام تمرد وعصيان في كلا الصنجقين، وأكد له بأن السبب الرئيسي هو الوجود اليهودي، وكان بوشناق على علم بذلك، لكنه صمم على اتباع النهج الذي رسمه لنفسه، واعتقد بأنه إذا أظهر شجاعته، فبإمكانه إخافة أعدائه والانتصار عليهم.

وفي الساعة السابعة صباحاً من يوم ٢٨ حزيران سنة ١٨٠٥م وبينما كان بوشناق خارجاً من قصر الجينية هتف أحد أفراد الإنكشارية وأسمه يحيى (عاش داي الجزائر)، ثم أطلق النار على بوشناق فرماه أرضاً، أسرع حراس القصر حاملين سيوفهم، فقال لهم يحيى (أنا قتلت يهودياً، أنتم ما الذي جرى لكم، فهل أنتم كلاب اليهودي يا ترى؟). ففتح له الحراس الطريق، ولدى عودته إلى ثكنته حمله رفاقه (اليولداشي) على الأكتاف وراحوا يتدافعون إلى تقبيل اليد التي أنقذتهم من هذا الظالم، وبغية حسم الموقف، وتجنب حدوث اضطرابات ومشاكل، أرسل الداي مصطفى مسبحته دلالة على إصدار العفو عنه، ولدى انتشار النبأ في المدينة، حدث إضراب مخيف هاجم خلاله الجنود والأهالي والمور والبيسكريون (BIskiri) (*)اليهود وقتلوا جميع اليهود الذين لم يتمكنوا من الفرار، فدخلوا منازلهم مستخدمين مختلف أنواع التخريب والدمار فيها، وكانت النساء والأطفال يصفقن للرجال ليشجعنهم على ذلك، وأول ما هاجموا منزل ومخازن بوشناق، لكن بكري تمكن من الفرار[1].

التجأ إلى القنصلية الفرنسية أكثر من مائتي يهودي، وتمكنوا من النجاة،

(*) الموريسكيون والبيسكريون هم مهاجرو الأندلس.

(١) دي غرامونت.

وبلغ عدد القتلى أكثر من خمسين يهودياً، أما الداي فقد استقبل هذا التمرد بتغطية وجهه، وبدأ بتوزيع الذهب يميناً وشمالاً لينقذ رأسه، ثم أمر بنفي جميع اليهود الذين بقوا على قيد الحياة إلى تونس، ووعد الجميع بأنه لن يسمح لأي يهودي بدخول قصر الجينية بعد الآن، لكن وعده وإحسانه لم ينه التمرد والعصيان.

بعد مقتل بوشناق، اجتمع الإنكشاريون في الساعة السابعة من صباح ٣٠ آب سنة ١٨٠٥م / ١٢٢٠هـ، وقرروا انتخاب حجة الخيل أحمد بك داياً عليهم، لأن بوشناق تسبب في عزله وإبعاده عن منصب الداي، فطلب الداي مصطفى باشا السماح له بأخذ أمواله وأملاكه وعياله والإبحار إلى الديار العثمانية، لكن الإنكشاريين رفضوا ذلك، وصمموا على مصادرة أملاكه وإعدامه، وبينما كان الباشا والخزنجي يحاولان الالتجاء إلى أحد الأماكن[١]، رآهم العصاة، فلحقوا بهما وقتلوهما، وبدأ الأهالي يجرون أجسادهما في شوارع المدينة، ثم رموا بهما أمام باب عزون[٢].

بعد انتخاب حجة الخيل أحمد بك استمر الإضراب شهراً كاملاً، لأن آغا السباهية كان يريد هذا المنصب، وبما أنه لم ينتخب أبدى عدم رضاه وحاول إسقاط الداي الجديد بغية استلام منصب الداي بدلاً منه، ولهذا استمرت الفوضى في المدينة.

---

(١) لو أننا نظرنا إلى الكتابة الموجودة على حجر سبيل الماء كما يذكر المؤرخ غابرييل كولين لعلمنا أن الخرنجى فى سنة ١٢١٨هـ كان قازدغلى مصطفى بك.

(٢) دي عراممونت يشرح الأحداث على الشكل التالى: إن مصطفى باشا كان رجلاً كريماً جداً، فبينما كان يوزع الأموال على الإنكشاريين هاجموه فى إحدى الليالى وقتلوه. لقد ترك مصطفى باشا اثارا كبيرة فى الجزائر، وإن اسمه لا يزال موجوداً فى أماكن متعددة من المدينة، وهناك صفحات كثيرة تثنى عليه بالشكر والعرفان لما فعله.

- ١٤ -
عهد الدايات

الداي أحمد باشا ـ إعدام آغا الإنكشارية ـ تمرد الشرق ـ وفاة أمير قسنطينة عثمان بك ـ أوضاع وهران ـ الدرقاوي ابن الشريف ـ محمد مكلش ـ اغتيال ابن الشريف ـ الصلح مع البرتغال ـ ضرائب بقية الحكومات الأخرى ـ هلاك أمير قسنطينة عبدالله ـ القتال بين إيالتي تونس والجزائر ـ مقتل أحمد باشا ـ الداي علي ـ طغيان الإنكشارية ـ اغتيال الداي علي.

كان الداي متعلماً ومثقفاً وحازماً[1]. ولكنه غدار وقاس جداً[2]. وبغية القضاء على الفساد السائد في البلاد، ألقى القبض على آغا الإنكشارية وقطع رأسه، فتمكن بذلك من توطيد الأمن والاستقرار في البلاد، أما صنجق الشرق فقد كان يعيش مرحلة فوضى وفساد منذ سنتين، فعمل الداي على تهدئة الوضع فيه.

أثناء قيام الإنكليزي مصطفى بك بإخماد تمرد العصاة في (حنانشة (Hanench) وذهاب عثمان بك لتأديب قبيلة نماشة (Nemench) حاصره القبليون وبعض القبائل الأخرى بالسلاح، وقد تزعم هذه القبائل محمد عبدالله بن الأحرش أحد أنصار الدرقاويين[3]. وهو من مرابطي فاس، أثناء

---

(١) تاريخ غرامونت.

(٢) تاريخ الجزائر.

(٣) الوثائق المتعلقة بحق المتمرد ابن الأحرش موجودة في دليل إفريقيا لنسخ سنوات ١٨٥٩ - ١٨٦٢ - ١٨٦٩ - ١٨٧٠م.

عودته من مكة مر بمصر واشترك بالجهاد ضد الفرنسيين، ثم جاء على متن سفينة إنكليزية إلى بون، وقد اتفق مع الإنكليز على إثارة الفوضى والمشاكل مقابل مبلغ من المال[1].

في بداية الأمر اتخذ ابن الأحرش قسنطينة مركزاً له، ثم انتقل إلى جيجل، وقد جعل نفسه ولياً، وادعى بإظهار المعجزات والكرامات، وبنفس الوقت كان قرصاناً بحرياً، فقد استولى على سفن المرجان، وبهذه الوسيلة استطاع التقرب من مريدي ومرابطي الطريقة الدرقاوية، وهذا ما ساعده على اتساع نفوذه بسرعة.

في صيف سنة ١٨٠٤م دعا الجبليون الناس إلى حمل السلاح لمهاجمة قسنطينة، وقد تمكنوا من جمع ستين ألف شخص، لكن الهجوم فشل بسبب افتقاره إلى النظام والانضباط، كما أن القصف المدفعي المركز من قلعة قسنطينة أحدث تدميراً كبيراً في صفوف المهاجمين، وكان عثمان بك أمير قسنطينة خارج المدينة يقوم بجمع الضرائب، وقد عهد إلى أحمد بن الحاج بياض بقيادة الحامية في المدينة، فخرج أحمد بقواته وشن هجوماً منظماً على المتمردين، وقتل خلالها أكثر من ألف شخص. وكان عثمان بك بنواحي صطيف، ولدى سماعه نبأ هجوم المتمردين، أسرع عائداً بقواته إلى مركز الصنجق، وأثناء عودته صادف فلولاً من العصاة الهاربين، فهاجمهم وألحق بهم خسائر كبيرة، وقد سرت شائعة تقول بأن (جروم نابليون) كان يشرف على إدارة وتنظيم المتمردين، وقد أحدثت هذه الشائعة انفعالاً كبيراً لدى الجزائريين، وصدق البسطاء هذه الشائعة، لأن (جروم نابليون Jerom.N) جاء إلى الجزائر لأخذ الأسرى الفرنسيين والطليان[2].

أرسل الداي أمراً إلى أمير قسنطينة بإخماد العصيان القائم فيها، وقطع رأس ابن الأحرش وأسفر القتال الدائر بين الطرفين عن جرح ابن الأحرش بجوار أسوار قسنطينة، فانسحب إلى جوار (هودنا) محاولاً جمع أنصاره، فزحف عثمان بك باتجاههم، والتقى معهم في وادي الزهور مقر تجمع قبيلة

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دي غراممونت.

بني فرقان ، ونظراً لاستخفافه بقوات خصمه ، دخل المعركة دون أن ينظم قواته ، ونتج عن تهوره وطيشه تعرضه لهزيمة شنعاء أودت بحياته مع خمسمائة جندي من الأتراك والمحليين ، بعدما طوقه الأعداء بحصار محكم وسط الوادي[1] .

حل مكان عثمان بك عبدالله بن إسماعيل بك أميراً على قسنطينة ، وكان عبدالله أكثر حيطة وحذراً من سابقه ، فعندما كان القبطان حامد يؤدب المتمردين في جيجل ، كان عبدالله يشن هجوماً منظماً ضد ابن الأحرش ، وتمكن من هزيمته في ميلة وطرده إلى الجبال وشتت قواته من حوله ، وفي سنة ١٨٠٥م تمكن ابن الأحرش من إعلان تمرده في بجاية ، بعدما انضم إليه القبليون الذين يتلقون المساعدة من المرابط ابن بركات فحاصر المدينة ، ولكنه فشل في احتلالها ، وقد انعكس عليه الفساد الذي أحدثه فيها .

تمكنت بعض بلوكات الإنكشارية من التغلب على ابن الأحرش بجوار سيطف ، بعدما قدمت آل المقراني لهم مساعدات كبيرة ، وفي سنة ١٨٠٧م / ١٢٢٢هـ هزموه ثانية في رابطه ، وأسفرت المعركة الأخيرة عن مقتل ابن الأحرش ، وبعد زمن قليل ظهر منافق جديد بعدما أوشكت على الانتهاء ، فلاحقه أمير صنجق الغرب مصطفى بك في كل مكان ، وبعد أربع سنوات من المعارك الجانبية قتل في كمين بالقرب من سي أمعراني .

لقد كان صنجق الغرب مثل الصنجق الشرقي مثقلاً بالمشاكل أيضاً ، فعزل الداي عثمان بك وعين مكانه مانيسلي مصطفى بك ، وقد صادف تعيينه

---

(١) غوسته مرسيه مجلد ٢ ص ٨٥. ينوه في كتابه على بعض الشروح الموجودة فيقول: منطقة القبليين صغيرة وموجودة بجوار ميلة ويطلق عليها أسم قبيلة ولد عواد ، وفي هذه المنطقة يوجد قبر عثمان بك ، وقد كتب على حجر قبره . هذا ضريح المرحوم سيد عثمان بن محمد الذي كان أميراً على قسنطينة قتل بهذه الأرض المسماة بأرض أولاد عواد سنة ١٢١٩ هـ .

اتحد ابن الأحرش مع عبدالله الزبوش بجوار ميله تم سارا سوية باتجاه قسنطينة فهزم عثمان حتى ميلة (تبعد عن قسنطينة حوالي ٣٥ كم باتجاه الشمال العربي وتبعد عن مليانة ١٦ كم شمالاً وإذا كان مرابطو بني صبح بن تقريش قد عرضوا على عثمان بك إمساكهم لابن الأحرش ، فإن عثمان بك لم يثق بهم ولاحق العصاة إلى داخل معاقلهم ، ولقي ابن تقريش (بقاريش) عقابه نتيجة لخيانته ، وسقط عثمان بك مع حصانه في حفرة فرماه أعداؤه من الخلف ، ثم قطعوا رأسه ويقال أن سعيد بن عامر هو الذي قطع رأسه .

بداية تمرد الدرقاويين، وفي سنة ١٨٠٥ م/ ١٢٢٠ هـ قاد التمرد في وهران شخص يدعى شريف الدرقاوي، فبعد أن جمع قواته، اتجه إلى منابع نهر المينا (Mina) فزحف مصطفى بك باتجاهم والتقى الجيشان عند ملتقى وادي العبد أو (وادي المينا)، فهزم مصطفى مع جيشه هزيمة كبرى، وسقط مقر القيادة بيد المتمردين واحتلوا مسكرة، فأغلق مصطفى بك أبواب وهران عليه، أما خليفة مصطفى بك فكان يقاتل العصاة بجوار (ضهرة Dahra) لكنه هُزم هو الآخر[١]. وسُحق صنجق الغرب تحت أقدام المتمردين وأعلنت القبائل الموجودة من مليانة حتى أوجده تمردها ضد الأوجاق الذي لم يبق له علم مرفوع إلا في مستغانم ووهران والمرسى الكبير فقط[٢]. وقد أدت هذه الأحداث إلى تعيين أمير جديد على صنجق الغرب ممن يتمتع بقوة حربية ممتازة وحنكة عسكرية جيدة، فعين ابن محمد الكبير شقيق أمير صنجق الغرب السابق عثمان بك واسمه محمد بك ويلقب بمحمد مكلش ومعناه (قبيح الوجه، بشع المنظر) فتوجه محمد مكلش إلى وهران بحراً لأنه لا يتمكن من الذهاب براً، وباشر فور وصوله إلى اتخاذ التدابير اللازمة لإعادة تنظيم قواته وإعدادها إعداداً سليماً، وخلال فترة قصيرة تمكن من شل نشاط وفعاليات المتمردين، وأخمد عصيانهم وتمردهم، وأعاد مناطق الصنجق الواحدة تلو الأخرى، وأثناء احتلال محمد بك لتلمسان أرسل آلاف الجماجم إلى الجزائر بعدما تمكن من استعادة المدينة تماماً، وأخضع الأطراف لطاعته، وغدا الحكم التركي معروفاً بالمنطقة بصورة كاملة.

إن الانتصارات التي حققها محمد مكلش دفعت جميع الأطراف إلى احترامه وتقديره، وبنفس الوقت غزت الظنون قلب الداي فأراد محاسبته، فوجه لمحمد مكلش ممارسة الظلم والاختلاس، فأرسل هيئة للتحقيق معه، وحالما وصلت الهيئة ألقت القبض عليه وخنقته بعدما عذبته عذاباً كبيراً بحجة إخبارها عن مكان النقود التي اختلسها، وعاد مانيسلي مصطفى بك ثانية إلى صنجق الغرب، وفي منتصف سنة ١٨٠٨م / ١٢٢٣هـ عين مانيسلي مصطفى بك في منصب الخزنجي، فترك إدارة الصنجق لأخيه محمد الكبير (محمد

---

(١) فور بيكه.

(٢) دي غراممونت.

الرفيع أو النحيف) وكان محمد هذا يلقب بأبي قابوس[1].

وبعد مقتل الشريف الدرقاوي، عمل والد زوجته (بوطافش Boutafas) على نشر الفساد في البلاد، وأسفر عن ذلك حدوث عدة ثورات، شغلت أمراء الصناجق لأشهر عدة، ولم يتمكنوا من القضاء عليها إلا بعد استخدامهم العنف والشدة.

عندما تسلم أحمد باشا الحكم في الجزائر فرض على اليهودي بكري عقوبة مالية قدرها خمسمائة ألف قرش. وكان البرتغاليون منذ عشرين سنة يحاولون إقامة الصلح مع الجزائر، وتعهدوا بدفع خمسين ألف قرش سنوياً لخزينة الجزائر، لكن الباشا طلب مليوني قرش لقاء إبرام الصلح والمعاهدة دفعة واحدة، فرفض البرتغاليون ذلك، وفي سنة ١٨٠٧م حصل الداي من الإسبان على مبلغ مالي قدره اثنا عشر ألف قرش، ومن إنكلترا على عشرة آلاف قرش، ومن هولندا على أربعين ألف ومن النمسا على خمسين ألف. هذه الضرائب التي جمعها الداي من مختلف الأمم زادت في غزوه، فدفعته إلى طلب الضريبة من فرنسا، وحينما رفضت فرنسا الاستجابة له، أوعز للجزائريين بمضايقة الفرنسيين لإجبارهم على دفع الضريبة.

هاجم الجزائريون سفن جنوه ونابولي، وكانت فرنسا تعتبرهم من أتباعها، إزاء ذلك عمدت فرنسا إلى حجز السفن والأموال الجزائرية الموجودة في مرسيليا، وسجنت الرعايا الجزائريين أيضاً[2]. فأدى ذلك إلى استبداد الداي أحمد باشا ومحاولته الانتقام من جميع الدول المسيحية، ففي سنة ١٨٠٧م/ ١٢٢٢هـ، جاءت قطعة بحرية برتغالية إلى الجزائر لإقامة الصلح، فاستدعى الداي القنصل البرتغالي وسجنه بتهمة أنه جاسوس يهودي، وفي نفس السنة سجن القنصل الهولندي فرايسنت (Frayssinet) لأنه تأخر عن تقديم الهدايا.

وتعرض القنصل الدانماركي اولريش (Ulrich) لنفس المعاملة بسبب

---

(١) أبو قابوس (Kaboz) ومعناه صاحب المسدس، وقد لقب بهذا الاسم لأنه قتل رجلاً بمسدسه عندما كان يشكوه، وكان على عكس إخوته ظالماً وجباراً.

(٢) دي غراممونت.

تأخره هو الآخر عن تقديم الهدايا ، لكن شيخوخة القنصل الهولندي فرايست جلبت عطف وشفقة الجميع ، فاجتمع القناصل معلنين إضرابهم ، وطالبوا بالحصانة السياسية الممنوحة لهم ، حاول الداي التهرب من مطالبهم ، وعندما هددوه بترك الجزائر والعودة إلى بلادهم ، أطلق سراح القناصل السجناء .

عندما حجز نابليون السفن والأموال الجزائرية في مرسيليا ، عمد الداي إلى منح امتيازات صيد المرجان وفتح المكاتب التجارية لإنكلترا ، وكانت إنكلترا منذ زمن قديم تطالب بهذه الامتيازات ، لكن الأمل الذي حصل عليه الأنكليز كان وهماً وخيالاً ، لأنهم لم يتمكنوا من الاتفاق والتفاهم مع الأهالي الذين عارضوهم ، فكتب أمير قسنطينة عبدالله بك رسالة إلى الباشا (الداي) يخبره بامتناع الأهالي عن دفع الضريبة بسبب قطع العلاقات مع فرنسا .

أعلن عبدالله بك الحرب على الداي ، ولم يغب عن نظر الداي أحمد دسائس أمير تونس حموده باشا ، وكان الداي يدرك ذلك ، لذلك عين حسين بك بن صالح بك أميراً على قسنطينة وأمره بتأديب عبدالله ، وتوجه حسين بك إلى قسنطينة وألقى القبض على عبدالله ، وبعد ضربه وتعذيبه قطع رأسه ١٨٠٦م/ ١٢٢١هـ[1] .

كان أحمد باشا يريد الضرائب المستحقة من أمير تونس بعدما صرف نظره عن طبرقه ، وإذا كانا قد عملا زمناً طويلاً من أجل حل هاتين المسألتين ، لكنهما لم يتفقا على حل مسألة النقود ، لذلك اندلعت الحرب بين الولايتين .

زحف الجيش التونسي بقيادة الكخيا الكاهية سليمان باتجاه قسنطينة ، ولدى أول اصطدام هزم حسين بك وانسحب إلى بلدة جميلة لجمع قواته ، أما الكخيا سليمان فقد قصف المنصوره بالمدافع لمدة ثلاثين يوماً ، لكن الأهالي دافعوا عن مدينتهم بكل شجاعة وبسالة[2] .

هاجم المتمردون القوات القادمة من الجزائر في فليسة ، فاضطر قائد القوات للتفاوض مع رئيس فليسة ودفع له مبلغاً من المال ، فانضم الفيلسيون إلى الجزائريين طمعاً بالحصول على الغنائم ، أما آغا السباهية مع فرسانه

---

(١) دي غراموت .

(٢) المنصورة وهي مركز قسنطبنة .

والخيالة المحليين فقد توجهوا بحراً، في حين توجه الإنكشاريون بحراً إلى بون، ومن هناك بدأوا حركتهم[1].

عندما سمع الكخيا سليمان بوصول الإمدادات من الجزائر، رفع الحصار عن المدينة، وتمركز في بومرزوق، وهناك نشب قتال استمر ثلاثة أيام، أسفر عن هزيمة التونسيين هزيمة شنعاء، وغنم الجزائريون الشيء الكثير.

استمر الجزائريون بزحفهم إلى تونس، لكن القائد يوسف تمكن من إيقافهم عند بلدة الكاف، وبعد صدام عنيف انهزم الجيش الجزائري، وبدأ القائد يوسف بملاحقته مع قواته والبالغ عددها ثمانية عشر ألف مقاتل، وفي الطريق انضم إليه عدد من المقاتلين المحليين.

كانت استحكامات الكاف قوية ومزودة بمدفعية كافية، لكن بك قسنطينة أهمل مواقعه بسبب انشغاله بالمحاصرة، وبقي بدون تدبير وتنظيم، وحالما سئم المحاصرون ذلك، عمت الفوضى صفوفهم فترك المقاتلون المحليون القتال عائدين إلى أراضيهم لجمع الحصاد.

في العاشر من تموز سنة ١٨٠٧م نشب القتال ثانية في وادي سرت، وأسفر عن هزيمة الأتراك هزيمة نكراء[2]. وتشتت القوات الجزائرية، فانضم بعض منها إلى القوات التونسية، والبعض الآخر عاد إلى قسنطينة، والذين عادوا أمر الداى بشنقهم في باب عزون، كما أمر بخنق حسين بك، وبغية الانتقام من هزيمة جيشه، عين على باي أميراً على قسنطينة وكلفه بمحاربة التونسيين، اتخذ علي باي وادي الرمال مقراً لجيشه[3]. لكن الجيش أعلن تمرده وعصيانه عليه بسبب تحريض أحد الجنود ويُدعى أحمد الشاويش، الذي تمكن من قتل علي باي وباش آغا حسين آغا، ثم أعلن نفسه باياً على قسنطينة، وقد شهدت قسنطينة فترة اضطراب وفوضى استمرت خمسة عشر يوماً، أباح خلالها لأنصاره المدينة وفتح خزينة الحكومة، ووزع

---

(١) دي غراممونت.

(٢) تقع وادي سرت شمال الكاف وهى تبعد(عنها قرابة ٢,٥كم، أما القصور فتقع في الجنوب الغربي من الكاف وتبعد عنها حوالي ٢٨كم.

(٣) وادي الرمال وتقع في الشمال الغربي من قسنطينه وتبعد عنها٣كم.

على كل شخص خمس قطع ذهبية سلطانية ، وقد ذاق أهالي المدينة كأس الظلم والذل والهوان ، فاتجه أحمد طوبال (أحمد الأعرج) مسرعاً إلى قسنطينة ، وما أن علم الأهالي بقدوم أحمد طوبال حتى تجاسروا على مقاومة الظلم الذي يواجههم ، وحالما وصل أحمد طوبال إلى المدينة عمل على إنقاذ المدينة ، وحقن الدماء التي جرت فيها من جراء الجنون ، وضرب العصاة ضرباً موجعاً ، لكنه لم يتمكن من ملاحقة الجيش التونسي بسبب قلة جنوده التي قتل غالبيتها في فتنة قسنطينة ، ولم يكن هناك وسيلة سوى تسوية الأمر مع تونس حول الضريبة التي طالبت بها تونس[1] .

عندما كان الصراع على أشده بين تونس والجزائر ، كانت الدولة العثمانية في حالة حرب مع روسيا . وقد دأب السلطان العثماني على إرسال الفرمانات الهمايونية إلى تونس والجزائر ، يأمرهم بضبط النفس وإنهاء النزاعات والخلافات القائمة بينهما ، كونها مخالفة للشرع الشريف ومغايرة لرضى الدولة العلية ، ولكنهما تجاهلا تلك الفرمانات واستمرا يسفكان دماء بعضهماالبعض ، وكانت الفرمانات الهمايونية تؤكد عليهما بضرورة حل النزاع وإنزال سفنهما إلى البحر للعمل سوية متحدين من أجل أسر وإغراق سفن العدو .

ومع نهاية سنة ١٢٢٣ هـ توصلت الدولة العثمانية وروسيا إلى إيقاف القتال وعقدا هدنة بينهما ، وبما أن النتيجة غير معلومة ، فالسفن الإنكليزية لا تزال راسية خارج المضيق ، بانتظار توضيح الأهداف والنتائج الروسية . ولهذا ظلت الدولة العثمانية تؤكد على أوجاقات الغرب الاتفاق وضرورة التيقظ ومراقبة الأحداث مراقبة دقيقة ، ولتهدئة داي الجزائر أحمد باشا أرسل له السلطان برده مع أمير البحر الوزير سيد علي باشا إضافة إلى رسالة تحتوي على بعض التوصيات بشأن الانتباه لإنجاح خطواته ، والابتعاد عن الخصومات والمنزاعات[2] . (أواسط رمضان سنة ١٢٢٢هـ) .

وقد أكد السلطان في توجيهاته لأحمد باشا في أوائل شوال سنة ٢٢٣ هـ

---

(١) دى غراممونت .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ٢٢٦/ ص ٣٤ .

توجيه ينص على إبقائه داياً على الجزائر[1] .

أرسل نابليون بونابرت (روكن بريك Röken Birik) إلى الجزائر لمطالبتها بإطلاق سراح مائة وستة أشخاص من الأسرى الفرنسيين والإيطاليين. وقد استجاب الداي لطلبه نظراً لاضطراب الأحداث الداخلية في الجزائر، وكان يدور في خلد الداي بعض الأفكار والغيوم السوداء التي تنذر بهبوب العاصفة، ووصل التفكير به إلى حد طلب اللجوء من مبعوث نابليون بريك، لكنه غير فكرته حينما علم بنجاح أحمد طوبال في مهمته. وبالتخلص من فكرته القديمة يكون قد أنقذ حياته[2] .

استمر الغليان مسيطراً على عناصر الانكشارية، لاعتقادهم بأن الداي سيعدم العساكر القادمة من تونس بسبب فشلهم، وقد حملوا الداي مسؤولية الفشل الذي تعرضوا له، ومع ذلك فقد اشتكوا من وجود حرم الداي خارج قصر الجنينية، لذلك فكروا بنقلها إلى هناك، ومنذ ذلك التاريخ تغير النظام القاضي بإبعاد الداي عن حرمه.

في السابع من تشرين الثاني سنة ١٨٠٨م هاجمت قوة انكشارية مؤلفة من خمسمائة شخص قصر الجنينية، وبعد اقتحامهم لأبواب القصر احتلوا الممرات وصالونات القصر، فحاول الداي الفرار عن طريق السقف، لكن العصاة لم يسمحوا له بالفرار، لأنهم أطلقوا النار عليه فسقط أرضاً، فأسرعوا إليه وقطعوا رأسه[3] . وجروا جثته في أزقة المدينة.

انتخب القتلة علي خوجه المعروف والملقب بالغسال، وكما يفهم من اللقب فقد كانت مهنته غسل الموتى، ومن ثم أصبح إمام جامع ؛ وفي النهاية أصبح مسؤول التشريفات في القصر وحصل على لقب خوجه، وكان علي الغسّال عصبي المزاج وغدّاراً وضعيف التفكير[4]، بدأ عمله أولاً بقتل رجال أحمد باشا، وكانت فترة حكمه الأولى مليئة بالثورات.

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره / ٢٢٧/ ص ٢٤١.

(٢) دي غراممونت.

(٣) دي غراممونت.

(٤) دي غراممونت.

بلغت الفوضى أقصى ذروتها وعنفوانها، وانقسمت الانكشارية إلى قسمين فالانكشارية اعتادت لدى تبديل كل داي على البخشيش والترفيع وزيادة الرواتب، لكن الداي الجديد لم يقدم أي شيء لأن الخزينة فارغة تماماً، ولإرضائها فإن الأمر يقتضي منه نهب المدينة وسلب ما فيها، لكن القسم المتزوج من الانكشارية لن يقبل هذا مطلقاً، ولهذا بقي الأهالي يعيشون حالة خوف ورعب شديدين.

اتحدت جماعة القولوغلية مع المهاجرين الأندلسيين وقرروا الدفاع عن الأهالي، وفي هذه الأثناء عاد الجيش المكلف بإخماد عصيانات قسنطينة إلى مدينة الجزائر، وانضم إلى جماعة الدفاع عن الأهالي، ولم تستطع جماعة السلب والنهب من القيام بأي شيء، ورفضت جماعة المحافظة على المدينة إبقاء الداي في منصبه.

عقدت جماعة المحبة للهدوء والنظام اجتماعاً في الثكنة الخضراء برئاسة عمر آغا، وقررت بالإجماع قتل علي خوجه، وفي السابع من شباط سنة ١٨٠٩م/ ١٢٢٤هـ هجمت مجموعة من الانكشاريين على القصر، وأرادوا إجبار الداي على الانتحار بالسم، فرفض ذلك بحجة أن الدين يحرم ذلك فقتلوه خنقاً[1]. استمر حكم الداي علي خوجه مدة أربعة أشهر من ٧ تشرين الثاني ١٨٠٨م وحتى ٧ شباط ١٨٠٩م.

رفض عمر آغا استلام منصب الداي، فانتخب حجة الخيل علي خوجه داياً على الجزائر.

بمناسبة جلوس السلطان محمود الثاني على كرسي السلطنة أرسل أوجاق الجزائر الهدايا والتحف الثمينة مع سفينة هدية له، وقد اهتم السلطان محمود الثاني بالهيئة اهتماماً كبيراً وأكرمها تكريماً عظيماً. ورداً على هديتهم واعترافاً منه بحبهم أرسل لهم فرقيطة وسفينة وكميات من الحديد والخشب والقنب والقطرن، وبعد أن جمعت الهيئة الهدايا المقدمة لها عادت إلى الجزائر مع بداية سنة ١٨١٠م/ ١٢٢٥هـ[2].

---

(١) دي غراممونت.

(٢) تاريخ جودت مجلد ٩ ص ٣.

- ١٥ -
عهد الدايات

الداي خوجه على باشا - أخلاقه - صنجق الغرب - أبو قابوس - أول نشاط للفرنسيين في الجزائر - الاختلاف مع تونس - الريس حامد - إعلان الحرب على إمريكا - أمير قسنطينة نعمان بك - تدخل استانبول - التمرد - شاكر محمد - ورثة بكري - وضع الانكشارية - موت علي باشا - الخزنجي محمد داي الجزائر - إغتياله - الداي عمر آغا - عبور نابليون من ألبا إلى فرنسا - قرارات مؤتمر فيينا - الحرب والصلح مع إمريكا - الأسطول الإنكليزي والهولندي - محاولة إلغاء الأسر - انسحاب الأسطول الإنكليزي - عودة اللورد اكسمورت من جديد - الحرب والصلح - الداي يسمح بالقرصنة ضد الحكومات الصغيرة - إصلاح الاستحكامات - الوباء - اغتيال عمر باشا - الداي علي خوجة - توقع إلغاء الانكشارية - الانسحاب إلى القصبة - إصلاح المدينة - تشتت الانكشارية - وفاة الداي سنة ١٨١٨م.

كان الداي علي باشا عبوس الوجه كثير الظن، مدمناً على الأفيون، مستبداً برأيه، إذا حصل على استحقاقه من الأفيون يصبح شبه مجنون، وإذا أخذ زيادة عن استحقاقه يصبح متهوراً فاقداً لوعيه وعقله، وكان الزمن الممكن به رؤيته بكامل قواه العقلية قليلاً جداً، معظم الدايات كانوا سفاكين للدماء، إلا أن الداي علي فاق أقرانه، كما أنه امتاز عنهم بذوقه الخاص في

ابتداع أساليب التعذيب[1] . فقد كان يزين باب عزون بالرؤوس المقطوعة . وكان التعذيب على الدولاب والتعليق بالشناكل والخوزقة شيئاً محبباً له ويسر برؤيته ويتلذذ به[2] . لكنه كان مثقفاً ويجيد القراءة والكتابة[3] .

قبل استلامه للحكم كان يعمل مخبراً للسلطان ، فقد دبر مقتل اليهودي بكري ونقل إليه خبر مقتله لابن طلبيي ، فكُلف بقتل ابن دوان المشرف على ورثة بكري ، ثم أرسل أمراً إلى قسنطينة يأمر فيه بقتل أحمد الأعرج لأنه باع القمح لليهود ، وقد أعادت هذه الأوامر الظالمة صنجق الشرق إلى حالة الفوضى السابقة .

اشتعل صنجق وهران بكامله بالفوضى والفتن[4] . في سنة ١٨٠٨م تسلم أبو قابوس محمد بك إدارة صنجق الغرب ، فحارب الدرقاويين ، لكنه لم يتمكن من القضاء عليهم تماماً، إزاء ذلك انسحب ابن الشريف باتجاه هودنا[5] . فعمد أبو قابوس لملاحقته ، فهرب ابن الشريف إلى فاس ، وفي العودة عرج أبو قابوس على المناطق الشمالية لتلمسان وضرب بشدة قبيلة طرارة لتأييدها الدرقاويين ، كما أخضع الصنجق لطاعة قسرية ومشددة[6] .

عندما تسلم علي باشا الحكم في الجزائر ، لم يقدم له القنصل الفرنسي ديبوا تانڤيل الهدايا له كما هو معتاد ، فاستاء منه ، وفي السابع من حزيران سنة ١٨٠٩م ترك القنصل الفرنسي ديبوا وكيله فيس (Vis) قنصلاً مكانه وعاد إلى بلاده . لكن ڤيس لم يتمتع بدبلوماسية ديبوا ولهذا اختلف مع وكيل مصاريف القصر وحدثت بينهما مشاجرة ، فوضعه في سفينة أمريكية وأرسله إلى بلاده في العاشر من نيسان سنة ١٨١٠م .

رداً على هذه المعاملة أضربت القنصلية ، وقال السكرتير بأنه لن يتدخل بموضوع المعاملة رسمياً ، فعاد ديبوا إلى الجزائر في شهر أيلول ، ولم يطلب

---

(١) دى عراممونت .

(٢) دى غراممونت .

(٣) دى غراممونت .

(٤) غابرييل كولين ص ١٨٤ .

(١) فور بيكه .

(٢) فور بيكه .

نابليون تأمينات أو ترضية من الجزائر، لأن الاتفاقية السرية التي عقدها نابليون مع روسيا تنص على إلحاق إفريقية الشمالية بفرنسا، وبهذا الشكل صمم نابليون على التخلص من الحكومات البربرية في إفريقية الشمالية[1].

في سنة ١٨٠٨ م أرسل نابليون المقدم بوتان (Botin) إلى الجزائر لدراسة حصونها والمناطق المحيطة بها وإعداد الخرائط اللازمة لذلك، وقد حقق نابليون من الخرائط التي قدمها بوتان فوائد كبيرة.

لقد نجت الجزائر هذه المرة من الخطر بسبب النزاع والخلافات القائمة بين الدول الأوربية، وأجبر الفرنسيون للتراجع عن شن هجوم ضد الجزائر، كما أن علي باشا لم يكف عن طلب الديون من الجمهورية الفرنسية بل أمطرها بالتهديدات[2]. وفي أواسط جمادى الآخرة سنة ١٢٢٦هـ، جاء فرمان من استانبول ينص على إبقاء علي باشا في منصبه[3].

استمرت الفوضى تعصف في مختلف مناطق الجزائر، ففي سنة ١٨١٠م تمرد القبليون وتمكنوا من هزم قوات الصنجق الشرقي، وعلي باشا يأمر قادته بتدمير استحكامات (الكاف) واحتلال تونس وإخضاعها لسلطة الجزائر[4].

رفض التونسيون شروط الجزائر وأعلنوا الحرب عليها، فدمر الأسطول الجزائري فرقيطة تونسية، وفي سنة ١٨١١م استولى الريس حامد على فرقيطة تونسية تحمل ثمانية وثلاثين مدفعاً، كما استولى على سفينة برتغالية، وهكذا بهذه الخطوات بدأت القرصنة تنمو وتشتد عما كانت سابقاً، وفي شهر تموز سنة ١٨١٣م حاصر آغا العرب مع عمر آغا نعمان بك أمير صنجق قسنطينة في بلدة الكاف، لكنهم فشلوا في احتلالها وطاردهم حتى هودنا، ومن المحتمل أن يكون سبب هذه الهزيمة هو خيانة القبليين، ولدى عودة عمر آغا إلى الجزائر قطع رأس مائتين وستين شخصاً من الخيالة وبقية الرؤوساء، فكلف السلطان كبير البوابين بالتوجه إلى الجزائر وتونس لحل الخلاف القائم بين الإيالتين. وقد واجه المبعوث صعوبات جمة، ورغم ذلك لم يتوصل إلى

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دي غرامموںت.

(٣) دفر مهمات الحيش نمره/ ٢٣٠.

(٤) دي غرامموںت.

نتيجة مرضية لأن أياً منهم لم يستمع لأقواله، وقالوا له: (إذا لم نحصل على حقوقنا بأنفسنا فإننا لا نقبل أي أمر). فعاد كبير البوابين إلى إستانبول. فقال السلطان محمود الثاني (إن من يتحمل مثل ذلك لايُعد من السلاطين). فأمر بحجز ومقاطعة الجزائريين وسفنهم في جميع الممالك العثمانية، وأخبرهم في حال عدم خضوعهم لأوامره، فإنه سيأمر الأسطول بالتوجه إلى الجزائر لتأديب العصاة والخارجين عن القانون، وقطع رأس الداي المتمرد، فخضع الحاج علي باشا، واستتب السلم بين تونس والجزائر[1].

كلف أحمد الأعرج بإدارة قسنطينة بعد نعمان بك الذي قُطع رأسه بحجة أنه تسبب في هزيمة تونس، وبما أنه كان أثناء صدور القرار بإعدامه في الحرب، لذلك دُبر مقتله أثناء الحرب[2].

عندما أعلن الحاج علي باشا الحرب على تونس طلب منه الاشتراك فيها، لكنه رفض لأن السلطان غير راضٍ عن هذا، وبما أن أبا قابوس ضمن جانب السلطان، بدأ يميل بشكل واضح إلى الاستقلال والانفصال عن الداي وخاصة بعد رفضه الاشتراك في الحرب.

بدأ أبو قابوس بتسريح الموظفين الأتراك العاملين في الصنجق، وبهذا الشأن يقول فوربيكه: طرد أبو قابوس الأتراك الذين يقومون بالمحافظة، وشكل جيشاً من الأهالي واحتل المناطق المجاورة حتى مليانه، أما دي غرامونت فيقول: أنه اتخذ وضعية التهديد على ضفة نهر المينا (مينا) وبغية القضاء على هذه الضائقة أرسل الداي جيشاً يتألف من ثمانية آلاف جندي براً وعهد قيادته إلى عمر آغا، كما كلف الكخيا ملا أحمد بقيادة قوة أخرى عن طريق البحر إلى وهران.

هرب أنصار أبو قابوس قبل وصول عمر آغا، إزاء ذلك لحق بهم أبو قابوس إلى وهران، وأغلق أبوابها عليه وتمركز في إحدى قلاعها، وحينما

---

(١) تاريخ جودت مجلد ١٠ ص ١٥. إن الصراع بين الإيالتين حدث على النطاقين البري والبحري وكان كل منهما يوجه التهمة للآخر، فاستغل الأجانب ذلك وبدأوا يتدخلون في شؤونهما، وبغية إصلاح ذات البين قدمت لجنة من استانبول بتاريخ ذي الحجة سنة ١٢٢٩هـ.

(٢) دي غرامونت. أما غوستاف مرسيه فيقول أنه دفن بمصلى جامع سيدي ابو جمال ولكن لا توجد أي علاقة تدل على ذلك.

شدد عليه الخناق، هدد أبو قابوس بإطلاق ما لديه من ذخيرة، وبعد تدخل العلماء وتوسطهم سلم نفسه.

تعرض أبو قابوس لتعذيب مدهش وعنيف، ثم علق بالشناكل ومات وهو لايزال معلقاً، ثم أنزل وحشي جلده بالتبن وأرسل إلى الجزائر[1].

عيّن مكان أبو قابوس صهر محمد الكبير علي قره بارغلي سنة ١٨١٢م، وكان قره علي بارغلي عاقلاً وقوياً في إرادته، تمكن من إدارة البلاد بشكل قوي وجيد، وقضى على الفوضى السائدة، وقضى معظم أوقاته مع العلماء[2].

نشطت القرصنة خلال هذه المرحلة نشاطاً كبيراً، بعدما تعرضت لجمود استمر عدة سنوات، وكان من أكثر البلدان التي تعرضت لأضرار القرصنة إسبانيا والبرتغال، وعندما قدم القنصل الإسباني شكوى، صفعه وكيل مصاريف القصر وطرده من مجلسه[3].

استاء الإسبان كثيراً من الريس حامد بسبب مهاجمته لهم بكثرة، وما ألحقه بهم من أضرار، فقد أصبح أطفالهم يخافون من إسم الريس حامد[4]. وكان الداي علي باشا يحترم الريس حامد ويقدره كثيراً، فقدزاره في مضافته أكثر من مرة، عندما أعلن الجزائريون الحرب على الأمريكيين أخرجوا المسؤولين عن المصالح الأمريكية من البلاد[5].

استمرت البلاد تشهد فترة اضطراب وفوضى بسبب ضعف الأمن، فقد تمردت قبائل الجنوب، واتجهت إلى الشمال وانتصرت على أمير تيطري، وفي سنة ١٨١٤ م نهبت المناطق الواقعة بين فليسة وميتجه، وعلى الرغم من أن قائد سبو قطع ستين رأساً من هؤلاء إلا أنه لم يتمكن من تثبيت الأمن والاستقرار في تلك المناطق.

---

(١) فور بيكه.
(٢) دي غرامونت.
(٣) مرآة الجزائر.
(٤) دي غرامونت.
(٥) دي غرامونت.

إن اتباع محمد بك أمير قسنطينة الظلم والإرهاب ضد الأهالي دفعهم إلى التمرد وأعلنوا الاحتجاج على حكمه، وبدأوا يعملون على تخريب البلاد وقطع الطريق، وصمموا على ذلك ما دام في الحكم، وفي هذه الأثناء تمكن أفراد أسرة بوربون من إقامة سلطة ملكية جديدة في فرنسا.

في السادس من تموز سنة ١٨١٤ م ١٢٣٠ هـ، قدم المبعوث الفرنسي فونه بريكي (Faune Briki) نسخة مصدقة من الحكومة الفرنسية الجديدة بخصوص معاهدة الصلح بين فرنسا والجزائر، فاستعمل الداي علي باشا هذه المناسبة وطلب الديون المتراكمة على فرنسا من القنصل الفرنسي، فأجابه القنصل دبويس (Debois) بأنه لا يستطيع عمل أي شيء قبل أن يتلقى أمراً من حكومته، وغادر الجزائر متوجهاً إلى بلاده في السادس عشر من تشرين الأول سنة ١٨١٤ م.

لم يدم الصلح طويلاً مع تونس، لأن الجزائريين أصروا على هدم قلعة الكاف، فأعلنت الحرب ثانية، لكن الإنكشاريين لم يكونوا راغبين بالقتال. وكما هو معروف عن أفراد الإنكشارية فهم عصاة ويتجاوزون رؤوسهم، لكنهم في مقر قيادتهم حريصون على الأمن والنظام، يثورون ويتمردون لأتفه الأسباب، لم يبق لديهم الحماس والشجاعة كالسابق، فقديماً كان الجندي الإنكشاري لا يخاف حشداً من الجنود، أما اليوم بعد التسليح الجديد، غدا يخشى الاصطدام مع عدة جنود من الأهالي[1].

كان الإنكشاريون منذ زمن طويل يخططون لعزل علي باشا من منصبه محاولين تكليف عمر آغا بهذا المنصب، مع العلم بأن عمر آغا لا يريد الاقتراب من هذا المنصب الخطر.

سرت الشائعات في مختلف مناطق الجزائر على أن الفرنسيين سوف يحتلون البلاد، وقد تنبأ بذلك أحد الأولياء الذي خرج من ضريحه في مالطة، وقد تنبأ هذا الولي التقي بقدوم الكفار ولعن الداي، وبالرغم من العقوبات الصارمة التي فرضها الداي بحق المروجين لتلك الشائعات، إلا أنها كانت تزداد يوماً بعد يوم.

---

(١) دي غرامونت.

كان علي باشا يحب الجلوس مع الفتيات بالحمام كثيراً، وقد استطاع القتلة شراء خدمه بالنقود، فدخلوا عليه الحمام وقتلوه، وبعد ذلك قتلوا العبد الذي اشتروه[1].

تسلم الإدارة خلفاً له أماسيلي الحاج علي باشا منذ سنة ١٨٠٩ م وحتى سنة ١٨١٥ م، وكان الداي المنتخب الحاج علي باشا نشيطاً، أقام معملاً للبارود على طريق سان أوجن (Sent üjen) بمساعدة القنصل السويدي القديم شولتز. ثم تحول إلى ثكنة عرفت باسم ثكنة سالبزيير، ونقل الحجر التاريخي العائد للمصنع، ووضع بالقرب من الباب الخارجي للقلعة الداخلية[2]. كذا فقد أنشأ سبع مستودعات أطلق عليها المخازن[3]، وجدد باب قصر الجينية وزينه بأحجار مرمر[4].

رفض عمر آغا استلام منصب الداي، فانتخب الخزنجي محمد خوجة داياً ولقب محمد باشا. لكنه لم يحكم طويلاً، لأنه كان في التسعين من عمره، وكان ابنه الأكبر يقوم بإدارة كافة أعماله.

عمل الداي إحصاء للإنكشاريين من باب الحيطة والحذر، وأسفر الإحصاء عن وجود سبعة آلاف جندي إنكشاري لا فائدة منهم، فقلل عددهم إلى أربعة آلاف جندي، فدبروا مقتله، وهكذا لم يدم حكمه سوى خمسة عشر يوماً[5].

---

(١) كتبت مرآة الجزائر ما يلي: قام علي باشا بإرسال عمر باشا لتأديب القولوغلية الذين يقطنون في منطقة الزيتون، لأنهم أفشلوا حملته وأرادوا الاستيلاء على الحكم، ولكن عمر آغا كان يكره علي باشا فاتفق معهم على قتال علي باشا كما اتفقوا مع عبده من أجل قتله، وحالما دخل الحمام أشعلوا النار بالحمام بعد مقتله واحترق الحمام.

(٢) يذكر غابرييل في كتابه مجلد ٨ ص ١٩٦ نمرة / ١٩٩/ بخصوص مصنع البارود ما يلي: لتقام الأفراح والأعراس، فالحمد لله مصنع البارود أقيم ودخل النظام حده وهذا ما يلزمنا

(٣) غابرييل كولين مجلد ١ ص ١٩٢ يقول: إن هذه المخازن حولها الفرنسيون إلى كنيسة لجنودهم البحريين.

(٤) غابرييل كولين مجلد ١ ص ١٩١. أنشأ باب الدولة وجدده صاحب الصدارة علي باشا دو الهمة العالية بحق مولاه محمد، أنظر إليه. وقل ما شاء الله تاريخه ١٢٢٧ هـ.

(٥) يقول دي غرامونت ومرآة الجزائر (استمر محمد باشا في الحكم مدة سبعة عشر يوماً، وفي إحدى الليالي ذهب عمر آغا إلى ثكنة الجنود، وأثناء الاجتماع بهم قال لهم نحن سلمنا الحكم =

بعدما تخلصوا من محمد باشا كلفوا عمر آغا باستلام منصب الداي من جديد، وإذا كان عمر آغا قد رفض هذا المنصب في السابق ، إلا أنه هذه المرة أجبر على استلامه.

وقد صدر فرمان سلطاني بتعيين عمر آغا داي جزائر الغرب ، ويتضمن الفرمان بعض النقاط والوقائع المهمة[1] .

إلى آغا العرب في جزائر الغرب ، بعد ما رُفع إلى مرتبة أمير الأمراء عمر دام إقباله حكم.

منذ عدة سنوات وسفن قراصنة جزائر الغرب تقوم بالاعتداء على التجار من رعايا الدولة العثمانية ، وعلى سفن وملاحي وقباطنة الدول الصديقة للدولة ، فتقوم بنهبها وأسر طواقمها وسجنهم ، ومن هذه الدول البندقية والنمسا ، ودولة النمسا تطالب الدولة العلية بمبلغ اثني عشرة ألف قطعة ذهبية ، وقد اشتكت عدة مرات من اعتداءات القراصنة عليها ، نأمركم بعدم الاعتداء على سفن الدول الصديقة ، ففي السابق كان أوجاق الجزائر يصرون على الاعتداء والقيام بمثل هذه الحركات ، فإننا سنقوم بمنع المراسلات العسكرية مع إزمير وسائر الأماكن ، فإذا كان قد أرسل كتاب الرأفة إلى إزمير وسائر الأماكن ، فمن جديد وبالنظر لرأفة السلطان من باب التنبيه ، نرسل إليكم أحد كبار البوابين خادم الباب العالي محمد.

وفي هذه الأثناء وبينما كان الداي عمر في منصبه الجديد، فدخل عليه كبير البوابين وأعطاه التنبيهات والنصائح ، كما أن الداي عمر المشار إليه أظهر طاعته وتقييده بالأوامر الواردة من الباب العالي ، وعدم مخالفته لأوامر الباب العالي ، فكسب رضا الدولة العلية أما بالنسبة للذين تسلموا منصب الداي من أمثال الداي مصطفى والداي أحمد وخلفه الداي علي ، فلم يلتزموا بقواعد الأوجاق المتبعة ، ولقد أساءوا إليها ونشروا الفساد والسيئات ، وهذا ما

= لمحمد باشا، ولكنه ترك هذه المصالح لابنه ، وبعد أن نهب ابنه الخزينة طالب بالباشوية ، وأدعى أنه من القولوغلية ، وهدد الأتراك بالفناء والدمار، عندها هرعت إلى القصر مباشرة وضربت وقتلت محمد باشا وابنه مصطفى.

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٢٣٦/ ص بدون رقم.

أدى إلى انحلال الأوجاق ، وعبث هؤلاء بأوامر السلطان ولهذا قرر معاقبتهم بأقصى سرعة ، كما يجب عليكم إطلاق سراح رعايا الدول الصديقة وتسليمها للمشار إليه ، والإقلاع عن مهاجمة سفن الدول الصديقة أمثال النمسا وروسيا ، وفي زمن الداي علي كانت النمسا تطالب باثني عشر ألف قطعة ذهبية من أجل البندقية بسبب الأضرار التي أنزلها الأوجاق بها ، كما يجب عليكم تفريق هذه الأموال كمرتبات للأوجاق بوجود كبير البوابين ومعاونه ، كما يجب صك النقود باسم السلطان محمود الثاني وترتيب معروضاتكم باسم الصدر الأعظم كما نوجه إليك إمرة الأمراء في جزائر الغرب ، وعليك أن تتعهد لنا بعد ذلك بالتقييد والتحرك حسب أوامرنا والابتعاد عن المخالفات وتجنب كل مايسبب في إحداث أي خلاف مهما كان ، كما إننا عفونا عن كل سوابق الأوجاق وذنوبه السابقة من صغيرة وكبيرة ، فمن الآن فصاعداً سيتم حسب النظر بكم كما كان في السابق. . . . . أوائل رمضان سنة ١٢٣٠ هـ.

بعد اطلاع عمر باشا على الفرمان ومراجعة الدولة العلية ، سمح للأوجاق بالمراسلات العسكرية مع الدولة العثمانية والأوجاقات التابعة لها ومع إزمير وتكه وصنجق حامد بشأن سفن الدول الصديقة التي تقيم مع الدولة العثمانية معاهدات صلح ، وبعد مراجعة عمر باشا للفرمان الوارد ذكره أعلاه تم ترك قيود الأوامر القديمة وسمح للصنجق المذكور بالمراسلات العسكرية مع رودس[١] .

بعد استلام عمر باشا بعدة أيام ، سُمع بأن نابليون هرب من جزيرة ألبا واستلم الحكم في فرنسا من جديد ، وفي الثلاثين من أيار قدم أحد الموظفين إلى أمير أمراء الجزائر وأخبره بذلك ، ثم ذهب للقنصل الفرنسي ديبوا . الداي عمر لا يريد معرفة ومقابلة القنصل قبل أن يحصل على جواب قطعي بشأن الديون الفرنسية ، فإذا كان ديبوا قد ذهب لفرنسا لحل هذه المشكلة ، فإن الأمور الآن زادت تعقيداً ، وبقي ديبوا في فرنسا وأرسل عنه القنصل ديفال ، وكان سبب سكوت الجزائر وبقية الأوجاقات عن مطالبة فرنسا بالديون ، الصلح الذي أقاموه مع أوربا ، لأن الحكومات الأوربية انتهت من حروبها الداخلية ، وأصبح لديها الوقت الكافي للتفكير بمسألة القرصنة ، كما أن

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمرة / ٢٣٧/ ص ١٧ .

الحكومات الأوربية اتفقت في مؤتمر فيينا على إلغاء قراصنة أوجاق الغرب، وأصبح الأسطول الأمريكي منذ سنة ١٨١٢ م / ١٢٢٧ هـ، يتجول في البحار بقيادة القبطان دجاتور (Decatur) من أجل الانتقام لما أصاب السفن الأمريكية من خسائر، وكان مهمة الأسطول الحصول على ترضية من الجزائر وإعادة الأسرى ورفع ضريبة الميناء عن سفنها، فخاف الأسطول الجزائر من الأسطول الأمريكي، ولم يعد يتجول في البحر السابق.

كان الداي عمر باشا يطالب الريس حامد بتنشيط أعمال القرصنة، وذلك من أجل الحصول على الغنائم، وقد قبل الريس ذلك بعد إلحاح وإصرار الداي عمر باشا عليه[1].

في السابع من حزيران سنة ١٨١٥ م التقى الأسطول الأمريكي بالأسطول الجزائري في رأس جالطه، وكان من بين سفن الأسطول الجزائري سفينة الريس حامد وهي تحمل ستة وأربعين مدفعاً، فحدث اشتباك بينهما أسفرت النتيجة عن استشهاد الريس حامد وسقوط سفينته بيد الأمريكيين[2]. أما البقية فقد تمكنت من النجاة[3]. وفي التاسع عشر من حزيران هاجم الأمريكيون زورقاً جزائرياً واستولوا عليه، وكان الزورق مجهزاً بـ ٢٢ مدفعاً، فأضافه الأمريكيون إلى سفنهم الاحتياطية، وفي الرابع والعشرين من حزيران رسا الأسطول الأمريكي أمام مدينة الجزائر، ونتيجة لهزيمة القبطان الذي لا يقهر الريس حامد عم الأهالي حزن شديد، وبعد ثلاثة عشر يوماً من المباحثات بين الأمريكيين والحكومة الجزائرية وقع الصلح بين الطرفين رسمياً في السابع من تموز.

في هذه المرحلة زادت الدول الأوربية من قواتها البحرية، فأضاعوا بذلك الفرصة على أوجاق الغرب لممارسة أعمالهم البحرية، وكان الأوجاق يعمدون بعد منع تجارة الرقيق إلى مهاجمة السفن الأوربية وأسر من فيها، ثم يبيعونهم كمجدفين على السفن، وغدا الأوربيون لا يحتملون تلك المذلة، وخاصة أن حكومة الجزائر لم تكن تعترف ببعض الحكومات الأوربية.

---

(١) مرآة الجزائر.

(٢) دي غراممونت.

(٣) مرآة الجزائر.

لقد كانت الدولة العثمانية على علم بتصرفات الأوجاق، فهي لم تفكر يوماً ما بتأديب عساكر الأوجاقات وتنظيمها، والدولة العثمانية بتجاهلها تكون قد ساهمت في القضاء على ثلاث ولايات من أجمل ولاياتها، فالفوضى والإهمال عم الجزائر، وعجزت الإدارة عن إصلاح تلك المساوىء، لأن الأخطار والمساوىء استفحلت فيها، وعلاوة على ذلك فقد كان أركان الدولة العثمانية وكبار مسؤوليها يعتقدون بأن الأخطار ستلحق بالدولة العثمانية من قبل الأوربيين، وإن هذه الأخطار ستنجم بسبب تصرفات أوجاقات الغرب[1].

إن العلاقة التي كانت قائمة بين الدولة العثمانية والأوجاقات كانت ضعيفة على ما يبدو، لأن الدولة العثمانية كانت ترتبط مع الدول الأجنبية بعلاقة أقوى بكثير من علاقتها بالأوجاق.

لقد قدمت إنكلترا تقريراً إلى استانبول تشكو فيه من تصرفات الأوجاق وتطالب الدولة العثمانية بوضع حد لتلك التصرفات السيئة، وفي حال عدم قيامها بعمل جاد، فإن كافة الدول المطلة على البحار، ستعمد إلى إتخاذ إجراء قاس ضد الأوجاقات: فأجابتها الدولة العثمانية، بأنها لن تتدخل في حال قيام حرب بين تلك الدول وأوجاقات الغرب.

وهكذا، فإن قيام الصلح أو الحرب غدا حراً، وبإمكان كل الدول التصرف بشكل مستقل، كما أن العلاقة التي كانت بين الأوجاقات والدولة العثمانية قد انتهت منذ ذلك اليوم الذي ردت فيه الدولة العثمانية على إنكلترا.

وعلاوة على ذلك فقد اتفقت الدولة العثمانية مع حكومات إنكلترا والنمسا وروسيا ضد أوجاقات الغرب، وفي تشرين الثاني سنة ١٨١٦ م الموافق ذي الحجة سنة ١٢٣٠ هـ أرسلت إنكلترا أسطولها الموجود في البحر الأبيض المتوسط إلى الجزائر، وعهدت إلى اللورد إكسموث بقيادته ومعاقبة الجزائر بشدة لأنها حصلت على الموافقة الرسمية من الدولة العثمانية بإنزال العقاب الصارم بالجزائر، وكان الأسطول يتألف من سفينة بثلاثة

---

(١) تاريخ جودت مجلد ١٠ ص ٢١١ لسنة ١٢٣١ هـ.

عنابر، وخمس قليونات وأربع فرقاطات، وسبع زوارق ووصل الأسطول إلى الجزائر في ٣١ آذار سنة ١٨١٦[1].

عندما شاهد الداي الأسطول الإنكليزي، سلم القنصل الإنكليزي رسالة يطلب فيها توسط إنكلترا لإقامة الصلح بين حكومته وحكومتي صقلية وسردينيا، وكان الداي عمر لا يرغب بدخول مباحثات صلح مع الحكومات المذكورة، لكن الأميرال طلب من الداي عمر باشا إجراء مباحثات مع حكومات تلك الدول بنفسه، إلا أن الداي رفض ذلك، فأرسل الأميرال تهديداً له، يحذره فيه بأنه في حال عدم قيامه بالمباحثات خلال ساعتين، فإنه سيبدأ بقصف المدينة، فاضطر عمر باشا قبول المباحثات بنفسه مرغماً.

وبما أن إنكلترا كانت مسؤولة عن تنظيم ورعاية أمور حكومات سردينيا وصقلية وهولندا، فقد عملت على إقامة الصلح بينهم وبين أوجاقات الغرب، كما انضمت كل من جنوة وبعض جمهوريات إيطاليا إلى مفاوضات الصلح، وقد اشترطت تلك الحكومات إقامة الصلح بنفس الشروط التي عقدتها إنكلترا ونابولي والبرتغال، وقد تعهد القنصل الإنكليزي في الجزائر بالإشراف من الآن فصاعد على مصالح سردينيا وبعد ذلك عرض الأميرال التكليف التالي:

من الآن فصاعد يمنع استخدام الأسرى المسيحيين، وخلال ستة أشهر يدفع عن كل أسير مسيحي مبلغ خمسين قرشاً ثم يمنح حريته، لقد كانت تلك المباحثات عجيبة ومذهلة، وعلى الرغم من ذلك فقد قُبل معظم بنودها، إلا أن مسألة الأسرى وفديتها المحددة بخمسين قرشاً عن الأسير الواحد سببت مشكلة كبرى، لأنها لا تتعلق بالجزائر فقط بل بتونس وطرابلس الغرب أيضاً، فقال لهم الداي يجب استشارة الدولة العلية، فقبل الأميرال هذا الشرط، ونقلت سفينة إنكليزية الموظف المكلف بالذهاب إلى استانبول، ثم غادر الأمير البلاد.

بدأ سكان الجزائر يتناقلون شروط الاتفاقية، ويقولون كيف يحق

---

(١) تاريخ جودت مجلد ١٠ ص ٢١١. يقول دى غراممونت إن إنكلترا توسطت لإقامة الصلح بين الجزائر وكل من سردينيا وصقلية، ويذكر أن الأسطول جاء إلى الجزائر في الخامس عشر من أيار، وليس فى ٣١ آذار، وإن قائد الأسطول كان يتكلم باسم جميع الدول المسيحية. حول تسليم الأسرى وإطلاق سراحهم.

للمسيحيين التدخل بالشؤون الإسلامية والعادات المتبعة لديهم ، فمسألة الأسرى عادة قديمة لدينا ، فكيف يتجرأون على إلغائها، وأسفر ذلك عن حدوث عصيانات في البلاد ضد الداي عمر، فخاف عمر باشا منهم ، وتعهد للجميع بإلغاء الاتفاق الذي عقده مع الأميرال ، وفي الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، تجمع (٢٠٠٠) شخص واتجهوا إلى الساحل مباشرة، وحالما شاهدهم الداي مع مجموعة من ضباطه ، تركهم ولم يعترض طريقهم ، وتابع المتظاهرون تحركهم إلى مصيف القنصل الإنكليزي ، فاعتقلوه مع زوجته والجالية الإنكليزية مع بقية الجاليات التي تحتمي بإنكلترا . ثم أنزلوا العلم الإنكليزي ومزقوه[١] .

أما أهالي وهران وبون فقد هاجموا الإنكليز والإيطاليين الموجودين هناك ، وقتلوهم كما قتلوا كافة العاملين بصيد المرجان ، ولدى وصول النبأ إلى إنكلترا تحرك أسطولهم بقيادة (فون كابلن) وانضمت إليه قطع الأسطول الهولندية المتواجدة في مضيق سبتة ، فأصبح عدد قطع الأسطول ثلاثاً وثلاثين قطعة بحرية ، وفي الثالث من شوال وصل الأسطول إلى ميناء الجزائر[٢] .

عمل الداي على إقامة الترتيبات الدفاعية ، وبنفس الوقت كان أمراء الصناجق قد وصلوا مع جنودهم إلى مدينة الجزائر، وعلى الفور باشروا باتخاذ مواقعهم القتالية ، في حين اتخذ الداي بطارية الفنار مقراً له ، وبما أن القنصل كان صديقاً حميماً للداي ، حاول إقناعه بإقامة الصلح مع الدول الأوربية ، إلا أن الداي عمر باشا أجابه بالرفض ، وقال له : الحكومات الصغيرة غدت تمانع القرصنة ، ولكي نضمن إطعام أفراد الإنكشارية يجب أن

---

(١) يذكر دى غراممونت: أنه عندما ألقى القبض على القنصل والجالية الإنكليزيه كان الأسطول موجودا أمام مدينة الجزائر، ولكنه لم يحرك ساكناً وأنه عاد الجزائر فى ٢٢ أيار ، وبهذا يتبين لنا أن الروايه التى يذكرها جودت أقرب إلى الصحه ، ويضيف غراممونت أن الداى قرر الدفاع عن المدينة وأرسل أمراً إلى أمير صنجق قسنطينة يأمره بهدم المؤسسات التجارية المسيحية الموجودة فى الساحل وقتل من فيها ، وبالفعل فقد تم قتل حوالي مائتى شخص من العاملين فى المؤسسات وجرح وأسر حوالى مائه شخص آخر، وإن الأسطول الإنكليزى دخل ميناء الجزائر فى ٢٧ آب .

(٢) تاريخ جودت مجلد (١٠) ص ٢١١ .

تستمر أعمال القرصنة، وفي الحقيقة كان عمر باشا كأسلافه مجبراً على الاستمرار بالحروب إرضاء للإنكشارية.

في التاسعة صباحاً أرسل اللورد إكسموث مندوبه يطلب جواباً نهائياً خلال ساعتين[1]، لكن الداي رفض إعطاء جواب نهائي في هذا الصدد، وفي الثانية والنصف خرج عضو البرلمان البريطاني من الميناء وأعطى إشارة عدم الاتفاق[2].

ساعدت الرياح الشمالية التي هبت خلال تلك الفترة الأسطول على الإقتراب من المدينة الميناء، وأصبحت سفن الأسطول لا تبعد عنهما أكثر من ميل تقريباً، وقد تم الاتفاق على إشارة القصف من مركب المفاوضات الذي يحمل عضو البرلمان وبعد هذه الإشارة تبدأ المعركة، وكان الأميرال فوق السفينة شارلوت (Sarlot) سفينة الملكة.

فتحت السفن الإنكليزية والهولندية نيران مدفعيتها فجأة، وكان تأثير سفن الأسطول التي اقتربت من الميناء كثيراً، وخاصة على الفنار ومكسر الأمواج، كما أن مدفعية سفينة (لاندرة) تمكنت من إغراق (٤٢) مدفعاً في الميناء، لم يستعمل منها سوى ثلاثة وثلاثين مدفعاً، وذلك بسبب ضيق الوقت والقصف المفاجىء من قبل السفن الإنكليزية والهولندية، فالجزائريون لم يتوقعوا أن يكون الهجوم كثيفاً ومفاجئاً بهذه الصورة، لأن قسماً كبيراً من الأهالي خرج إلى شاطىء البحر لمشاهدة سفن الأسطول، وقد فقد الكثير من هؤلاء الأبرياء حياتهم منذ الطلقات الأولى، وفي واجهة القلعة المطلة على البحر كان يوجد قرابة خمسمائة مدفع لم تستخدم منذ زمن بعيد، وكان قسماً من هذه المدافع يعود إلى زمن خير الدين بربار وس.

بعد مرور لحظات الحيرة والدهشة، بدأ الجزائريون يركزون دفاعهم المستميت فالقصف المدفعي من كلا الطرفين كان مدهشاً ومذهلاً، لكن العدو بعد نصف ساعة من تبادل إطلاق النار، تمكن من إسكات مدفعية الجزائريين في موقع مكسر الأمواج، وفي الساعة الخامسة مساءً حصل توقف جزئي

(١) تاريخ جودت مجلد (١٠) ص ٢١١.
(٢) دي غراممونت.

للقتال، ثم بدأ من جديد، واستمر حتى منتصف الليل، ونتيجة للقصف المكثف احترق للجزائريين فرقاطتين (فرقيطتين)، وسقطتا بالقرب من الساحل، فاندلعت النار في بعض سفن ساحبات المدفعية، كما أن بعض المنازل تعرضت للنيران بسبب طلقات المدفعية التي سقطت عليها، وأثناء عمليات القصف هبت عاصفة قوية زادت من حدة المعركة فاتسعت دائرة القصف.

بلغت خسارة الجزائريين قرابة خمسمائة جندي، وتهديم بعض المواقع والاستحكامات[1]. أما عدد القتلى من الأهالي فقد قدر بحوالي سبعين شخصاً[2]. في حين قدرت خسائر الأعداء من القتلى والجرحى حوالي ثمانمائة وثلاثة وثمانين جندياً[3]. كما دُمرت لهم سفينة تفجير، وقد أطلق الأسطول أكثر من خمسين ألف قنبلة وتسعمائة وستين قذيفة، وعلى الرغم من كميات الطلقات التي أطلقت خلال ذاك الصدام العنيف، فقد أظهر الطرفان شجاعة فائقة، أما الداي عمر باشا فقد ظل في بطارية الفنار إلى أن تهدمت تماماً، وبذلك يكون قد انتقى لنفسه أخطر موقع، لكنه أظهر شجاعة منحت جنوده الشجاعة والحماس، وقد قام بنفسه بإطلاق المدافع، وخلال طلقاته الثلاث الأولى تمكّن من إصابة سفينة الأميرال إكسموث.

لقد استخدم الإنكليز الحيلة منذ اللحظة الأولى، فقد استغلوا العلم الأبيض المرفوع على سفينة المفاوضات، وبدأوا يقتربون من المدينة، وبهذه الوسيلة تمكنوا من تدمير ساحبات المدافع الراسية في الميناء، ولهذا إدعوا بأنهم انتصروا على الجزائريين، ولولا استخدامهم الحيلة لما تعرض الجزائريون لتلك الخسائر الفادحة، فالعلم الأبيض خدع الجنود والأهالي بآن واحد، وعلى كل حال فقد دُمرت بطاريات المدفعية منذ اللحظة الأولى، واشتعل معمل البارود، وقتل رجال المدفعية أو أصيبوا بجراح، ولم يبق أمام الجزائريين سوى التفاهم والاتفاق مع الأعداء

---

(١) دي غراممونت.

(٢) فوربيكه.

(٣) دليل إفريقيا(Revue Afriken) لسنة ١٨٧٥ صفحة ١٨٩٤. تاريخ الجزائر في سنة ١٨١٦ م، ومعلوماته نقلاً من تاريخ البحرية الفرنسية لسنة ١٨٣٠ ص ٣٨٤.

لم يكن الجزائريون على علم بأن ذخيرة الأعداء قد نفذت منهم ، وأنهم غدوا مثل الجزائريين مجبرين على التفاهم ، إلا أن موقفهم الحربي كان أقوى بكثير من موقف الجزائريين[1] .

أرسل الداي عمر قنصل السويد إلى الأميرال ، فعاد القنصل ومعه السير شارل بنزور (Sir Sarl Penroz) والنقيب بريسبان (Yuzbas Brisban) وتم الصلح حسب الشروط التالية :

نصت الإتفاقية المعقودة بين الجزائر والأميرال الإنكليزي بتاريخ ٢٢ آب سنة ١٨١٦م/ ١٢٣٢هـ على ما يلي[2] !

أولاً : من الآن فصاعداً لايحق للأوجاق استرقاق الأوروبيين، وبناء على هذا الشرط، يتعهد الأوجاق المذكور بإطلاق سراح جميع الأوربيين مباشرة دون أي تأخير.

ثانياً : إن حاصلات منطقتي بروني ووهران ستدفع تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بإنكلترا ورعايا الدول التابعة لها ، وقد قدر قيمة تلك الحاصلات بحوالي ٣٦٠ ألف ريال ، وهي تدفع على شكل ضرائب ، وبناء على هذه الاتفاقية فقد تم إلغاؤها .

ثالثاً : من الآن فصاعداً ، تُلغى الهدايا والأقجات المقدمة من قبل القنصل للداي ، لأن هذه العادة غير متبعة في الغرب ، ولدى قدوم القنصل ، يحق له إقامة حفلة إذا رغب بذلك ، شريطة ألا تتجاوز تكاليفها خمسة آلاف ليرة إنكليزية .

رابعاً : سيتم الصلح مع هولندا أو توابعها بنفس الشروط. على الرغم من هذه الشروط فقد احتفظ الجزائريون بحق محاربة الدول الأوربية ، لكن الدول الأوربية اتحدت وتعاونت فيما بينها ، وبهذا الشكل لم يعد لدى الجزائريين عبيد ، ولا يحق لهم معاملة الأسرى معاملة العبيد.

وبناء على التعهد الذي قدمه عمر باشا في المعاهدة السابقة ، فقد أقام مع هولندا الاتفاقية التالية :

---

(١) دي غرامونت .

(٢) يذكر تاريخ جودت أن الدولة العثمانية ليس لديها أي معلومات عن هذه الإتفاقية .

ثُبتت قرارات وشروط الاتفاقية الموقعة من قبل الملك الهولندي وليم أورانج، وأمير أمراء الممالك المستحكمة في أوجاق جزائر الغرب عمر باشا المحترم، وقد تم تثبيت مقررات هذه المعاملة بالكامل وتضم البنود التالية:

أولاً: يتم الصلح بين هولندا وأوجاق الجزائر والأطراف التابعة لكلا الدولتين وذلك حسب الاتفاقية المقدمة سنة ١٧٥٧م/ ١١٧١هـ، ومن المستحسن تطبيقها حالياً على أن تكون جميع شروطها وقيودها سارية المفعول ضمن هذه المعاهدة وأن تطبق بنودها بحذافيرها، كما يجب على كلتا الحكومتين مراعاة وحماية جميع السفن العائدة لهما، سواء أكانت حربية أم تجارية، وعدم حدوث أي صدام بين الطرفين، ومن الآن فصاعداً يجب إقامة علاقات ود وصداقة بين الطرفين.

ثانياً: من أجل تسوية الأمور التجارية مع الجزائر، سيقيم القنصل الهولندي في الجزائر حفلة إذا رغب مثل القنصل الأنكليزي، وسيكون له أتباع وأعيان ومراقبون (عيون ـ جواسيس) لذلك يجب عدم الاعتراض على هذه الإجراءات التي يقوم بها أعوانه. حرر في محروسة الجزائر سنة ١٢٣١هـ. وعقب هذا الصلح أطلق سراح ألف ومائتي أسير إيطالي وأسباني.

عندما كان الأميرال اكسموث، يحاول إقناع حكام تونس وطرابلس الغرب بإلغاء القرصنة، وإنهاء الاقتتال، كان الجزائريون يحترقون غيرة وغضباً لأنهم لم يكلفوا بهذا التكليف[1].

وبناء على هذه التوصيات التي صدرت عن مؤتمري فيينا واكس لاشابل، لم يعد الأسرى يعاملون معاملة العبيد، بل أصبحوا يعاملون معاملة أسرى حرب، ولهذا أعلن الداي عن حرية القرصنة، وقد استفاد الداي من هذا القرار فطالب توسكانيا والسويد والدانمارك بالضرائب المستحقة عليهم، كما أصدر أمراً إلى الرياس بمهاجمة السفن العائدة لحكومة بروسيا وهامبورغ، وكان الأمريكيون يدركون الضائقة التي يواجهها أوجاق الغرب، وخاصة من ناحية وضع شروط الصلح بما يتناسب ومصالحهم، لكن الظروف عاكستهم، لأن ممثلهم قدم إلى الجزائر بفترة وجيزة من تفاقم الأزمة، فمدد المعاهدة القديمة سنة أخرى

---

(١) فوربيكه.

إن الهزيمة التي منيت بها الجزائر، سببت في قيام حالة تمرد وعصيان، عمت مختلف مدن الجزائر، فاضطر الداي لتوزيع الأموال على الانكشاريين خوفاً من نهب المدينة، لكن نفوذ الداي تلاشى نهائياً، وغدا يلقب بالمنحوس، وتجنباً من حدوث هجوم مفاجىء ضده، طلب من استانبول إمدادات، فأرسلت إليه فرقاطة وزورقين حربيين ومدفعاً وذخيرة.

عمل الداي جاهداً على إقامة التحصينات والاستحكامات، فرمم القلاع وزاد من قوة التحصينات، وبما أنه لايملك أسرى مسيحيين، اضطر إلى إلغاء عقوبة الإعدام ضد المذنبين من الأهالي، وطبق عوضاً عنها الأعمال الشاقة بهدف إتمام التحصينات اللازمة.

داهم الوباء المدينة في فصل الشتاء وذهب ضحيته العديد من الأهالي في المدينة والمناطق المجاورة، وكان الوباء يداهم الجزائر باستمرار، ويأخذ معه آلاف الضحايا، إلا أنه هذه المرة اتفق حدوثه مع نحس الداي، وحالما عاد الجيش من الشرق إلى مدينة الجزائر، اتفق الإنكشاريون على قتل الداي، وفي الثامن من تشرين الأول سنة ١٨١٦ م/ ١٢٣١ هـ، هجموا عليه في قصر الجينية، ولم يبد الداي عمر أي مقاومة، فألقوا القبض عليه، وشنقوه[1].

كان الداي عمر رجلاً عاقلاً وحكيماً أخلص لأهل الجزائر، فأحبه الصغير والكبير على حدٍ سواء، وكان يحب الإعمار والزخرفة، وهو رجل عصامي، بعصامته تدرج من جندي عادي، إلى أن بلغ المناصب الكبيرة، وقد أوصله إخلاصه إلى مرتبة باشا فداي، وترك في الجزائر آثاراً وذكريات كثيرة، ومن آثاره القشلة (الثكنة) في باب حسن، وإصلاحه الغرفة الموجودة هناك، وقد سجل على الحجر التاريخي مجمل أعماله[2]. كما قام بإصلاح برج الحراسة والمراقبة في الميناء[3].

---

(١) تاريخ شأن زاده مجلد / ٢/ ص/ ٣٢٩/ إذا كان قد كتبت بأن وفاة عمر باشا كانت بسبب إصابته في الوباء فهذا غير صحيح.

(٢) كتب على الحجر التاريخي: اللهم ارض عن عمر، فعمر باشا هو الذي قام بتعمير هذه الأوضة (الغرفة) وقد قام بتعميرها سنة ١٢٣١هـ غابرييل كولين مجلد / ١/ ص/ ١٩٧/ نمره / ١٤٠/ .

(٣) الكتابة المنقولة إلى متحف الجزائر من برج الكمندان (الكومندان) كان من المستحيل ترميمه، وتم بفضل هذا الجهد والدأب المتواصل، وقد انتهينا منه بحمد الله وفضله، وقد وضع فيه سابقاً =

بعد وفاة عمر باشا انتخب الانكشاريون على خوجه داياً جديداً على الجزائر، وكان لعلي خوجه يد بالترتيبات السرية، وفي الفساد الذي شهدته الجزائر، كما كان سبباً مباشراً في موت الكثيرين، ولكي يتخلص من أيدي الانكشارية عليه ومن الفوضى التي تسبب بها، صمم على اتخاذ الإجراءات التي نفذها حمود باشا في تونس، فعمل أولاً على إزالة الانكشارية من الوسط، وحالما تولى إدارة البلاد قام بتنفيذ مخططه[1].

بعد انتخابه داياً، أرسل الحاج حافظ إلى استانبول لتقديم عبوديته للسلطان واسترحامه لاستكمال تجهيز الانكشارية، وكالمعتاد صدر فرمان سلطاني يقضي بإرسال السفن اللازمة، وتسليح المعدات والمهمات والذخيرة لانكشارية الجزائر مع الحاج حافظ[2].

كان الداي علي باشا صهر مفتي الجزائر المشهور مالك، لذلك كان واثقاً من مساعدة الأهالي ومساندتهم له بكل ما يفعله[3].

نقل علي باشا دار الحكومة من دار السلطان (قصر الجينية) إلى القلعة الداخلية، وقام بتسليحها تسليحاً قوياً ومتيناً، كما نقل الخزينة إلى القلعة الداخلية أيضاً، وأوكل حراستها لأفراد من القبليين، وبعد ذلك التفت إلى تسليح القولوغلية وجمعهم حوله، وحينما اطمأن إلى قوته وأن مقاليد الأمور أصبحت بيديه، بلّغ الانكشاريين، بأنه استغنى عن خدماتهم، ولهم كامل

= مدفعان فقط، أما اليوم فقد تمكنا من وضع ستة مدافع فيه، فغدا أسلم وأقوى من السابق بكثير، تم بناؤه على يد عمر باشا جزاه الله عناكل خير وسلامة، لقد توقفت الدنيا يوم القيامة، فبإمكانكم التجول والتنزه في أي ساعة ترغبونها. فالمناوبة مستمرة ومدافعكم جاهزة للتصدي للمعتدين.

غابرييل كولين مجلد / ١/ ص / ٢٠٠/ نمره / ١٤١/.

(١) فوربيكه.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمره/ ١٣٧/ ص ٦١. إلى أمير أمراء الجزائر، حكم قبل ذلك أرسل داي الجزائر الحاج حافظ إلى استانبول، وقد وصل المذكور إلى قدرنا الزائد، وعرض علينا احتياجاته، وحالما عُرضت على الديوان الهمايوني عرضها على السلطان، فأحسن السلطان عليكم بكل ما طلبتم من المهمات وتسليح السفن وذلك حسب الأمر الشريف. . . . أواسط ربيع الأول ١٢٣٢هـ.

(٣) مرآة الجزائر.

الحرية بالعيش الحر الذي يختارونه لأنفسهم، وقال لهم، من يريد البقاء معنا فنحن لا نؤذيه، وسيلقى منا معاملة حسنة، ومن كان يرغب بإحداث الفوضى، فبإمكانه الذهاب إلى الديار العثمانية، وأبلغهم بأنه لا يريد عساكر من بلاد الأناضول. ثم قام بجمع اليولداشية في الثكنات، وطرد النساء وأغلق أماكن الشرب والترف (الخانات والمخازن)، وقد أدت هذه الإجراءات إلى تمرد الإنكشاريين لكن حراس علي باشا قتلوا كل من ألقوا القبض عليه، ففر قسم منهم، والقسم الآخر اتجه إلى الشرق ورداً على ذلك أعلن جيش المحلة الشرقية العصيان والتمرد، واتجه إلى مدينة الجزائر، وتحاشياً من عدم وصوله وقطع الطريق عليه، أرسل رسولاً من قبله إلى القبليين طالباً منهم إغلاق ممرات بيبان بوجه جيش الشرق، لكن الجيش عبر ممر بيبان قبل وصول رسول الداي علي باشا وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني وصل جيش الشرق، وطالب برأس الداي، وكان الداي علي مستعداً لمثل هذا الهجوم، فرجال مدفعيته يتمركزون ضمن القلعة، ومستعدون لتنفيذ أوامره، وخاصة أن القولوغلية ناقمة على الإنكشاريين منذ زمن قديم، وهم ينتظرون مثل هذه الفرصة للإنتقام من الظلم الذي فرضه الإنكشاريون عليهم، وكان عددهم أكثر من ستة آلاف قولوغلي.

أراد المتمردون بدء المفاوضات أولاً، لأن موقفهم ضعيف، وأسلحتهم قليلة وضعيفة وذخيرتهم غير كافية، فعرض عليهم آغا العرب يحيى آغا، تقديم فروض الطاعة دون قيد أو شرط، فرفضوا ذلك بشدة، فأمر الداي علي باشا بقصفهم في أماكن تواجدهم في حصن الامبراطور وباب عزون، ثم شن القبليون والقولوغلية عليهم هجوماً قوياً، تشتت الانكشاريون على أثره، وقتل منهم حوالي مائة وخمسين ضابط، وألف ومائتي انكشاري، كما تم إعدام من قبض عليه، وفي الثاني من شهر كانون الأول طلب الباقون منهم على قيد الحياة العفو والأمان، فمنحه لهم، وبهذه الوسيلة تمكن الداي التخلص من الانكشاريين في سنة ١٢٣٣هـ. وأقيمت الأفراح بالمدينة لمدة ثلاثة أيام، وتقبل الداي تهاني قناصل جميع الدول على هذا العمل، وفي هذه الأثناء كان صنجق قسنطينة يعاني موجة تمرد وعصيان لا مثيل لها، فقد قام أولاد دراج بالتمرد والعصيان نتيجة للظلم الذي فرضه عليهم الباي شاكر، ولكن الباي شاكر تمكن

من فك الحصار المفروض عليه من قبل أولاد دراج ، ولدى إعلانه بقبول كافة شروطهم لجأوا إلى الهدوء والسكينة ، وقد اتهم وزراء الداي علي باشا الباي بأنه متواطىء مع باي تونس ، فعزله الداي مع ابنه ، وعين مكانه قرة مصطفى بك .

رفض الباي شاكر التنازل عن حكم قسنطينة ، وقرر مقاومة قرة مصطفى بك لكن أنصاره تخلوا عنه وتركوه وحيداً في ميدان المعركة ، فألقى قرة مصطفى بك القبض عليه وأعدمه ، لكن قرة مصطفى بك ، لم يكن مؤهلاً لهذا المنصب ، ولم يستمر سوى شهر واحد ، فقد عُزل وأمر بقتله[1] .

خلال حكم الدايات ، كان الاستبداد يزداد باستمرار ، وكان الداي علي باشا مصاباً بداء الاستبداد والظلم ، فقد حجز على القمح بحجة تعرض البلاد للقحط ،وقتل كل من يحاول بيع القمح ، ونتيجة لمصادرته القمح ، خلت البلاد نهائياً منه ، كما أصدر أمراً برمي النساء الفاحشات في البحر ، وبصعوبة بالغة تمكن مقربون من تعديل هذا القرار ، فبدلاً من رميهم في البحر ، أمر بنفيهم إلى شرشال ، وفي بداية سنة ١٨١٨م/ ١٢٣٣هـ ، مات الداي علي باشا نتيجة لإصابته بوباء الطاعون .

---

(١) فور بيكه .

- ١٦ -
الانهيار والاحتلال

فرمان تعيين الداي حسين أميراً للأمراء ـ العفو العام ـ عزل الأمراء السابقين ـ الاغتيالات ـ أوضاع البلاد ـ دعاية مرابطي الغرب ـ إعدام على قره برغل ـ والد عبد القادر المشهور من المرابطين المعادين للأتراك ـ الهجوم على عين المهدية ـ استقرار ولاية الغرب ـ الأسطول الإنكليزي والفرنسي يبلغان أوجاق الغرب بمنع القرصنة وتجارة الأسرى سنة ١٨١٩ ـ مغادرة القنصل الإنكليزي ـ قدوم الأميرال هاري نيل ـ حرب ١٢ حزيران ـ مشاركة الأوجاق بتأديب تمرد موره ـ حدوث موجة غضب ضد المسيحيين ـ مسألة بكري وبوشناق ـ سقوط الجزائر.

عندما كان الداي علي على فراش الموت أوصى بإسناد منصب الداي للخزنجي حسين آغا[١]. ولد حسين آغا سنة ١٧٧٩م في مدينة دينزلي، جاء مع أخيه إلى الجزائر فعمل صياداً للسمك، وبعدها دخل الجيش الانكشاري وترفع حسب التسلسل إلى أن أصبح حجة الخيل، وبعدها تقرب من مفتي الجزائر الذي يتمتع بنفوذ كبير. واتفق معه أنه في حال توليه لمنصب الخزنجي فإنه سيتزوج من ابنته، فتوسط له المفتي، ولكن حسين لم يلتزم بوعده، فبعد استلامه لهذا المنصب بسبعة أيام قتل مفتي الجزائر[٢]. وعندما كلف بمنصب

---

(١) دي غرامونت

(٢) مراة الجزائر.

الداي رفض الاستلام، إلاأنه قبل الاستلام لمنصب الداي بسبب إلحاح وإصرار جميع الأطراف[1]. ولدى إعلانه القبول أطلقت المدفعية إيذاناً باستلامه المنصب الجديد، وكالعادة جاء فرمان من استانبول بخصوص تعليمات وتوصيات الدولة العثمانية وتضمن الفرمان الوارد أدناه.

حكم من ذوي المراتب العالية رفيع الشأن، مرفوعاً إلى صاحب المقام والطرف المعتبر أمير أمراء الجزائر حسين دام إقباله.

قبل الآن كانت عهدة حكم الجزائر مسندة من قبل عالي المقام إلى علي باشا بعد وفاته وبناءً على توجيهات الجزائر ورغبة الجميع، علمنا بأن المقصود بالجلوس مكان المتوفي علي باشا هو أنت، وهذه المرة وبسبب سعي وتوجيهات ومحاسن الجميع، الواردة في طلبات ومعروضات وجهاء وأعوان الجزائر، يتفضل ملك الأنعام بقبول جدارتكم، ولتكن من أرباب الشجاعة والخبرة والدراية والصداقة، وعليك معاملة الجانب الهمايوني بالصدق والخبرة والسلوك الحسن والعناية بمتابعة الجهاد وإكرام القائمين بذلك، وصدور الأمر الشريف عن الديوان الهمايوني والمأخوذ بعطف وحماية عالي المقام وصاحب الجلالة، يوجه لأمير أمراء الجزائر رتبة جديدة، ورداً على إحسان السلطان يجب أن تتقيد بالصدق والإخلاص، وأن تقوم بالتفاهم مع أمراء الأوجاق وتعتني بالأهالي والسكان، وتتصدى للطامعين بالأوجاق وأن تقوم بالصيانة الكاملة والشاملة وأن تؤمن الحماية للأوجاق بشكل كامل، وأن تتقيد بأمور المسألة التي تجري بين الدولة العلية وبين الدول الأوربية والتقيد بشروط المعاهدات المعقودة، وتأمين المواد الغذائية والتجارية لهذه الدول إستناداً للاتفاقيات المعقودة، وعليك تجنب التعرض للسفن التجارية، وباختصار يجب تطبيق الشرع الشريف، ونتمنى لك التوفيق بالتفرغ لأمرة أمراء الجزائر، وجميع المهام ومعالجتها وجهاً لوجه، ومراعاة الأطوار المرغوبة والحسنة والتقيد بإطاعة السلطان ودفع العمالة المستحقة عليكم، والدقة بتحركات الأوجاق وعدم تعرضها للهلاك والفناء، ويجب توفير المكانة وذلك بتوفير الأسباب والوسائل وعلى كل حال يجب الحصول مسبقاً على رضا، همايوني من أجل الأوجاق وأجلكم أيضاً. . . حرر في أوائل جمادى الآخرة سنة ١٢٣٣ هـ[2].

---

(١) فور بيكه.

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره/ ٢٣٧/ ص ٢٣٢

كان حسين باشا قوياً ومتيناً وفعالاً ، وهو قاسي وصلب في إجراءاته[1] . فقد عزل أمراء الصناجق عدة مرات دون أن يقتلهم ، ولكنه كان يحاسبهم محاسبة عادلة .

عندما استلم حسين باشا أصدر عفواً عاماً ، كما ألغى مفعول جميع الأوامر التي صدرت في عهد علي باشا السابق ، وبدأ بمراسلة الدولة العثمانية ، بعدما سمح لأفراد الانكشارية الذين هاجروا إلى الأناضول بالعودة إلى الجزائر من جديد ، وكان هدفه من ذلك الحصول على بعض المهمات والمدفعية ، ولهذا أرسلت الحكومة العثمانية سفينة من نوع كروڤت (Krovet) * محملة بالمدفعية والمهمات حسب المقدار المطلوب ، وصدر أمر بتوجيهها إلى أوجاق الجزائر كمكافأة له[2] .

لقد هدم حسين باشا جميع ماقام به علي باشا، وأعاد الأمور على سابق عهدها ، إلا أن ظهور طبقة اليولداشية ثانية في الساحة الجزائرية ، عرض الداي حسين للاغتيال ، وبدأت هذه الطبقة التي عادت ثانية بإعداد المؤتمرات السرية ضده ، فاضطر حسين باشا لإغلاق أبواب القلعة الداخلية عليه بعد ذلك ، وعاش ضمن حماية الأفراد وكان يصدر الأوامر دون أن يخرج إلى الخارج ، فسيطرت الفوضى على البلاد ، واندلعت الثورات في كل مكان . فأعلن النامشة والاوراس ووادي سوف الثورة على باي قسنطينة ، وظل أمير الصنجق أحمد بك يحاربهم مدة ثلاث سنوات حتى تمكن من إخماد ثورتهم وإخضاعهم ، لكن سكونهم وخضوعهم لم يستمر طويلاً ، ففي سنة ١٨٢٠م/ ١٢٣٩هـ ، عادوا للثورة من جديد ، وحينما عجز عن إخماد الثورة ، فعزله الداي وعين مكانه محمد بك ، وحالما وصل محمد بك سجن الأمير السابق ، وبعد ذلك أعد جيشاً وتحركّ إلى منطقة الزاب ، ولكنه فشل بمهمته بسبب ضعف جيشه وجهله بالقيادة وتصرفاته الهمجية ، فعزله الداي وعين مكانه إبراهيم

---

(١) فور بيكه .

(*) كروڤت وهى نوع من السفن الشراعية ، لها ثلاثة أعمدة فى وسطها حمولتها من ٢٠ ـ ٣٠ مدفعاً طولها من ٣٣ ـ ٣٩ ذراعاً طاقمها ١١ ضابط و ١٧٤ جندي للمزيد أنظر: التاريخ العثمانى المصور ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايونى نمره / ٢٣٨/ ص/ ٨١/ (أواخر صفر ١٢٣٥هـ)

بك ، وحينما فشل ابراهيم بك عزله الداي وعين مكانه أحمد بك بعدما أخرجه من السجن ، وحالما تسلم أحمد بك ألقى القبض على ابراهيم بك وقتله ، ولا يُعرف تماماً فيما إذا كان أحمد بك قتل ابراهيم بك بأمر من الداي أم لا . وفي سنة ١٨١٥م شن أحمد بك هجوماً على قبيلة بنى جهل في منطقة طرغوت (Tugurt) وانتصر عليهم ، وحصل على غنائم كثيرة ، وفي نفس السنة تجدد القتال ثانية مع باي تونس ، وبسبب تدخل الدولة العثمانية توقف القتال وقبل الطرفان الصلح ، وبما أن أحمد بك قد فشل في مهمته فقد عزل ووضع بالسجن بسبب ارتكابه الظلم والاستبداد ، وعين مكانه كريتي إبراهيم بك سنة١٨٢٢م وكان إبراهيم بك من أصحاب وأرباب الخبرة والدراية والإدارة ، أما أمير تيطري فلم ينجح في إخماد وقمع العصيانات .

في سنة ١٨٢٤م/ ١٢٤٠ ، استمع الداي حسين لدسائس المحتالين فعزل الكريتي إبراهيم بك وعين مكانه محمد منارلي ، وكان محمد هذا رجلاً منافقاً سيء الطباع عديم الأخلاق ، وقد استمر في إمارة قسنطينة حتى سنة ١٨٢٦م/ ١٢٤٢هـ. أفرغ خلالها خزينة الصنجق من الأموال ، وحتى أنه أوقع الصنجق بعجز مالي كبير ، وبقيت الانكشارية بدون رواتب ، فعزله الداي ووضعه بالسجن وعين مكانه أحد الأمراء المشهورين التابعين للحاج أحمد بك ، وأحمد بك من الرجال المشهورين بالصدق والأمانه ويعرفه جميع سكان قسنطينة .

تمكن قرة برغلي علي بك بقوته وصلابته واستقامة إدارته من توطيد الأمن والاستقرار في صنجق الغرب ، ففي سنة ١٨١٧ م عندما كان يقوم بتسليم ضرائب الصنجق للداي ، خاف الداي من نفوذه وإعلانه الاستقلال فأمر بقتله ، وقد تم قتله خنقاً بجوار مليانة[١] .

أدت سياسة الداي الفاشلة إلى زيادة أعمال الشغب والعصيان في الصنجق وكثر عدد المتمردين ، وعين مكانه حسن بك صهر أبو قابوس (قابوز) ولم يكن حسين بك مثل أبو قابوس سفاكاً للدماء ، وإنما كان رجلاً مجداً وقوياً صلب الإرادة قوي الشكيمة ، لا يمكن قهره والانتصار عليه ، وكان

---

(١) دى غراممونت .

بالأصل طباخاً، وبسبب جهده وجده واجتهاده زوجه أبو قابوس ابنته[1].

كان لأمير صنجق الغرب حسن بك صهر شرس، أراد الجلوس مكان عمه، فذهب إلى الداي ووشى له بحق عمه، ثم قال للداي: سأدفع سنوياً ٤٠٠٠ دوبلون في حال تعييني أميراً على الصنجق، لكن الداي أعلم حسن بك بما فعله صهره، وقال له افعل ما تريد بصهرك، وغدا يطالبه بـ ٤٠٠٠ دوبلون، فأرسل حسن بك النقود وأضاف عليها رأس صهره، وكان التردد عند رجل مثل حسن بك من الأمور المستحيلة[2].

أعلن الابن الأكبر لسيدي محمد التيجاني محمد الكبير استقلاله في عين ماضي، فتوجه إليه يحيى بك لتأديبه، وقد حاول يحيى آغا الاستعانة بفرسان قبيلة عمراوة، لكن الخيالة المذكورين رفضوا الذهاب معه، قائلين له: لا نستطيع القتال خارج حدود منطقة القبائل، وقد اتسعت دائرة الخلاف بين محمد الكبير ويحيى آغا وأسفر الصراع بينهما عن تحطيم برج بوغني.

في سنة ١٨٢٣م ثار سكان مناطق بجاية، واحتل بنو عباس ممر بيبان ولم يتمكن أفراد قبيلة بني كانون من إخراج بني العباس من المنطقة إلا بصعوبة بالغة.

في سنة ١٨٢٠م أرسل حسن بك جنوده لمحاربة ابن التيجاني في عين ماضي، وأثناء مسارهم إليه هاجموا المناطق المجاورة ونهبوها، وقصفوا واحات كثيرة، وبهذه الصورة يكون قد حصل على انتصار جزئي.

في سنة ١٨٢٠م شن بنو عباس على بني كانون هجوماً مفاجئاً، وحرقوا لهم حوالي اثنتي عشرة قرية، فَكُلف يحيى آغا لتأديبهم على رأس جيش مؤلف من ألف إنكشاري وثمانمائة جندي محلي، وحالما بلغ مناطقهم شن عليهم هجوماً صاعقاً وحرق لهم حوالي ثلاثين قرية، وشدد في ضربهم حتى ألزمهم بالطاعة والخضوع، ولكن العمليات التأديبية التي شنت ضد قبيلة بني العباس لم نقضِ على العصاة، فما زال بعض الأشقياء منهم في وادي الساحل، وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول سنة ١٨٢٤م قتل المتمردون القائد

(١) فور بيكه.

(٢) دي غراممونت.

التركي ، وفي السنة التالية توجه إليهم يحيى آغا وبدأ بملاحقتهم ، ثم توجه إلى قلعة بني العباس ، فهدم وحرق جميع قراهم والمناطق التابعة لهم ، وعلى الرغم من الدرس القاسي الذي تعرض له بني العباس ، إلا أن عصياناتهم استمرت ولكن على شكل حرب عصابات وفي سنة ١٨٢٦م ظهر التمرد من جديد ، فاضطر يحيى آغا إلى إخماده بنفس القساوة والشدة السابقة .

بدأ مرتبطو صنجق الغرب ينشطون ويحيكون المؤامرات والدسائس بشكل سري ، ويحرضون الأهالي باستمرار ، وانتشر المرابطون في كافة الأطراف وأعلنوا صراحة العداء للأتراك ، وقالوا أمام الجميع بأنهم سيقضون على الأتراك عما قريب ، وبسبب تشجيع المرابطين وتحريضهم بدأت دائرة التمرد تتسع وتزداد[١] .

حيال التمرد والعصيان في صنجق الغرب ، أسند أمير الصنجق حسن بك المراكز المهمة عنده للعساكر الذين يثق بهم بشكل جيد ، ثم بدأ بملاحقة المرابطين ففر قسم منهم إلى فاس ، أما من ألقى القبض عليهم فقد أحضروا إلى وهران وأمر بقتلهم أمام أعين الناس ، وكان من بين المرابطين الذين حكموا عليهم بالإعدام والد المجاهد المشهور الذي تصدى للفرنسيين محيي الدين والد عبد القادر الجزائري ، وقد عفا عنه حسن بك بسبب رجاء زوجته له ، فأجبره حسن بك على الإقامة في وهران ، وبعد الانتهاء من هذه الإجراءات اتجه حسن بك بجيشه لمحاربة ولدي التيجاني في عين ماضي وبعد محاصرتهما ، فك الحصار عنهما ، وقفل راجعاً دون أن يتمكن من دخول عين ماضي ، وقد أدى هذا إلى تمرد المناطق الجنوبية .

في سنة ١٨٢٧ م تمردت قبيلة هاشم وقادها التيجاني محمد الكبير ، وذهب بجنوده إلى مقره وأحكم حصارها : فظن المتمردون بأن جميع القبائل ستنضم إليهم ، لكن قبائل الغرب لم تكن جاهزة في تلك المرحلة ، فجمع حسن بك قواته على عجل ، واتجه بها لمحاربة المتمردين ، وهاجم العصاة قبل أن يتحدوا في عين البيضاء[٢] . وفي هذه المعركة قتل محمد فتشتت قواته

(١) دي غراممونت .

(٢) دي غراممونت .

ومؤيديه ، وكانت المناطق المجاورة لتلمسان خلال السنة الماضية تعج بالمشاكل ، ففي هذه السنة كان حسن بك منشغلاً بحرب (سيدي محمد) فسحق قبيلتي (انغاض ومحي) . وبما أنه مارس الشدة والقسوة تجاه العصاة ، فقد عادت السكينة والهدوء إلى صنجق الغرب ، بعدما حُرم منهما عدة سنوات وفي سنة ١٨٢٨م حاولت القبائل الموجودة في سفوح (زيد خور) التمرد فضربت ضرباً مبرحاً .

بعد تنصيب حسن باشا بسنة واحدة ، أي سنة ١٨١٩م قدم إلى الجزائر أسطول إنكلترا وفرنسا بقيادة كل من الأميرال فريمانت والقائد جوريان ، وبلغا الداي القرارات الصادرة عن مؤتمر أكس لاشابل الذي يحرم القرصنة وتجارة الأسرى ، فرفض الداي توقيع القرار المعروض عليه ، وادعى بأنه لا يعترف بالتعهد الذي قدمه علي باشا سنة ١٨١٦م بإقامة معاهدة جديدة . وأعطى لنفسه الحق بالقرصنة ضد الدول الأخرى[1] . أما بشأن الأسرى فلم يعطِ رأياً واضحاً . وشرح ذلك بحسب نصوص القرآن فعاد الأمير الآن دون أن يتمكنا التوصل إلى قرار واضح[2] . أما تونس وطرابلس الغرب فقد وافقتا على هذا القرار[1] .

استمرت علاقة الجزائر بالدول الأوربية جيدة حتى سنة ١٨٢٣م وفي تلك السنة بدأت بعض القبائل الموجودة بجوار بجاية بالتمرد والعصيان ، فأمر الديوان بسجن أفراد هذه القبائل المتواجدين بالمدينة وذلك حسب الأصول القديمة ، وبما أن بعض أفراد هذه القبائل كان يعمل بالقنصليات الأوربية ، فقد رفض القناصل تسليم العاملين لديهم ، ولكن الداي أصر على سجنهم ، فألقى القبض على بعض العاملين لدى قنصليات السويد والدانمارك وبافاريا ، في حين هرب العاملون في قنصليات فرنسا وهولندا سراً ، أما القنصل الإنكليزي فقد أصر على رفضه بعدم تسليم العاملين لديه ، فدخل عساكر الداي مقر القنصلية بالقوة ، وقبضوا على الأشخاص المطلوبين ، فحاول القنصل الإنكليزي إنقاذهم ، وبعد مناقشات طويلة عاد إلى بلاده في

---

(١) دي غراممونت .

(٢) دي غراممونت .

كانون الثاني سنة ١٨٢٤م، وفي الثالث والعشرين من شباط قدم إلى الجزائر السير هاري نيل طالباً الترضية والتأمينات وإعادة القنصل، كما طلب إعطاء الأفضلية لإنكلترا عن بقية الدول الأخرى، ورفع العلم البريطاني في مدينة الجزائر إضافة إلى بعض الشروط الأخرى.

قبل القنصل دفع التأمينات فقط، لكنه رفض عودة القنصل لأنه أصبح منبوذاً من قبل الأهالي، وأعلن عدم مسؤوليته عنه في حال عودته، فاشتد النقاش بينهما، ورحل السير هاري نيل دون أن يحصل على نتيجة مرضية.

وفي الثامن من آذار عاد الإنكليز إلى الجزائر ثانية، وألقوا القبض على عدد من السفن الجزائرية، وقد أثار عملهم حفيظة الجزائريين، وغدا سكان الجزائر بمجمعهم ناقمين على الإنكليز، فقدم الداي شكوى بحق الإنكليز، إلا أن الأميرال عاد بأسطوله للمرة الثالثة، وفي هذه المرة وضع قائد الأسطول ست عشرة قطعة حربية في وضعية القتال، فخرج الجزائريون للتصدي لهم بكل شجاعة وبسالة، وتبادل الطرفان إطلاق النار، وبالرغم من إطلاق النيران الكثيفة إلا أن الخسائر المادية والبشرية كانت بسيطة هذه المرة على الرغم من أن القطع الحربية الإنكليزية الجديدة ظلت تلتحق بالأسطول حتى اليوم الثاني والعشرين من حزيران أي خلال العشرة الأيام التي كان الطرفان يتبادلان النار فيها، وفي الرابع والعشرين من حزيران، جددت السفن الإنكليزية قصفها المدفعي، إلا أن تأثيرها كان ضعيفاً لبعدها عن المدينة.

وخلال تلك الفترة حاول قائد الأسطول الدخول بمفاوضات مع الجزائريين إلا أنهم رفضوا التباحث معه رفضاً باتاً، فاضطر في التاسع والعشرين من حزيران لمغادرة الجزائر عائداً إلى بلاده، وقد عم الفرح مختلف مناطق الجزائر لهذا النصر العظيم الذي حققوه، وتكونت لديهم قناعة باستحالة الهزيمة[1].

كان الأسطول العثماني منذ سنتين يقوم بتأديب الروم الذين أعلنوا تمردهم وعصيانهم على العساكر والرعايا العثمانيين، وكان الأسطول يشارك في تلك المعركة الجهادية.

---

(١) دي غراممونت.

أُعجب السلطان العثماني بموقفهم الجهادي وتصديهم للإنكليز فقدم لهم التهاني، ووجه إليهم فرماناً همايونياً يتضمن التهنئة، وضرورة مشاركة أسطولهم للأسطول العثماني في المعارك الجهادية التي ستبدأ في مطلع الربيع[1].

في سنة ١٢٤٢هـ ظهر الخلاف من جديد بين تونس والجزائر دون أي مبرر يستدعي ظهور ذلك الخلاف، فقد لجأ بعض عساكر الأوجاق إلى تونس، فطالب الداي حسين بإعادتهم، إلا أن باي تونس رفض تسليمهم، فعرض الأمر على إستانبول، فأمرت إستانبول أمير تونس بإعادتهم للجزائر، ورغم ذلك رفض حكام تونس أوامر إستانبول، فاضطر السلطان للتأكيد على ذلك[2].

في سنة ١٢٤٥هـ حدثت بعض المنازعات والمعارضات بين النمسا وفاس، ووصل الأمر بينهما إلى حد الاصطدام المباشر، كما سرت شائعة مفادها أن فاس تحرض الجزائر وتتفق معها على محاربة النمسا، فوصلت الأخبار إلى إستانبول، وعلمت إستانبول بأن خمس أو ست سفن جزائرية على أهبة الاستعداد للاشتراك بالقتال إلى جانب فاس. ومن باب الحيطة والحذر كتبت إستانبول إلى الجزائر تذكرها بأن الدولة العلية قد عقدت اتفاقية مع النمسا وبموجبها فإنالدولة العثمانية مطالبة بحماية وصيانة سفن النمسا[3].

في سنة ١٨٢٧م / ١٢٤٣هـ كان أمير صنجق قسنطينة أحمد بك وأمير صنجق تيطري مصطفى بك وأمير ضجق وهران حسن بك وآغا العرب يحيى آغا في مدينة الجزائر[4]. وجميعهم من أصحاب الشجاعة والخبرة والحرب، ولم يكن هناك أي منازعات ما بين الجزائر والدول الأوربية، وكان الأمن والاستقرار مخيماً على البلاد[5]. وخلال ذلك ظهرت مشكلة جديدة لم يحتمل ظهورها.

---

(١) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٢٤١/ ص ٢١٦ (سنه ١٢٤٠هـ).

(٢) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٢٤٢/ ص ١٧٤ (أوائل جمادى الآخرة ١٢٤٢هـ).

(٣) دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة / ٢٤٦/ ص ٤١ (أواسط ربيع الأول ١٢٤٢هـ).

(٤) كان آخر حكم لمصطفى بك في صنجق بتطري سنة ١٢٤٣هـ وقد أقام فيها جامع مراد.

(٥) فور بيكه.

فخلال السنوات ١٧٩٣م وحتى ١٧٩٨م كانت فرنسا تعيش أصعب مراحل حياتها وكانت جميع دول أوربا تقف ضدها، وكانت الجزائر الدولة الوحيدة التي تمدها بالأرزاق بالرغم من تهديد إنكلترا والدول المتحالفة معها ضد فرنسا للجزائر، ورغم تهديد الجميع للجزائر، فقد فتح الداي حسين باشا جميع الأسواق الجزائرية للفرنسيين وكان يعلن تأييده العلني لفرنسا، ووصل الأمر به إلى حد السماح للفرنسيين بإخراج البضائع الممنوعة، وعقد صلحاً مع جنوة عدوة الجزائريين لأنها كانت تنقل البضائع لفرنسا، وجميع ما كانت تأخذه فرنسا خلال تلك المرحلة من الجزائر كان بالدين، وبلغت ديون الأهالي على فرنسا خمسة ملايين فرنك فرنسي علماً بأن الحكومة الجزائرية تدفع أيضاً عن فرنسا رسوم المواد التي يأخذها الفرنسيون[1]. رغم ذلك وبعد تخلص فرنسا من أزمتها لم تقم بتقديم المساعدة للجزائريين، إضافة إلى ذلك فقد قدم اليهوديان المعتمدان التجاريان التموين اللازم للجيش الفرنسي وخاصة عندما كان الجيش الفرنسي يغزو إيطاليا (وكما هو معلوم فقد اشترك الجيش الإيطالي بغزو مصر) وبذلك يصبح مقدار الأموال والأرزاق التي حصلت عليها فرنسا من الجزائر ما قيمته أربعة عشر مليون فرنك فرنسي. ومنذ خمس وعشرين سنة وولاة الجزائر يطالبون فرنسا بهذه الأموال، ولم يحصلوا عليها، كما أن الجزائر لم تثر أي خلاف مع فرنسا بشأنها حتى سنة ١٨٢٧م، إلا أنه حدث خلال تلك الفترة قطع للعلاقات فيما بينهما لم يستمر طويلاً وخاصة أثناء اعتداء نابليون على مصر وبإلحاح مستمر وتهديد مباشر من الدولة العثمانية، وبناءً عليه فقد أظهرت فرنسا خلال تلك الفترة مكراً وخيانة للصداقة القائمة بينها وبين الجزائر. عوضاً على ذلك فإن تقديم الأرزاق لفرنسا من قبل الجزائر أثناء غزوها لمصر يعتبر خيانة للوطن، ولهذا السبب فرضت الحكومة العثمانية على أوجاق الجزائر غرامة مالية قدرها مئتا ألف قرش[2].

وفي سنة ١٨٠١م أبرمت معاهدة صداقة بين الجزائر وفرنسا، وتعهدت

---

(١) دي غراممونت.

(٢) يقول الكسندر دولابور. لا يوجد في قيود الدواد الهمايوني نص بخصوص العقوبة المذكورة، وكما هو معلوم فإن مائتي ألف قرش تعادل مليون ومائة ألف فرنك فرنسي.

فرنسا بموجبها بتسديد الديون السابقة مباشرة، ولكن الجزائر لم تحصل على ديونها بأي شكل من الأشكال، وبتاريخ السابع من آب سنة ١٨٠٢م قدم الأميرال ليساغو والجنرال هولين إلى الجنرال يريدان ترضية وإعادة السفينتين اللتين صادرتهما الجزائر لفرنسا، وفي تلك الأثناء كان مصطفى بك يشغل منصب الداي، فنفذ رغبة الفرنسيين، وكتب في نهاية رسالته مخاطباً القنصل الأول لفرنسا نابليون بونابرت (نرجوكم تسوية الديون الفرنسية لبكرى لأن قسماً عائداً لي، ووعدني قنصلكم ديبوا تانفيل بذلك، إنني بانتظار توجيهاتكم) وبالرغم من هذا الطلب الواضح لم تدفع النقود، ومرت سنوات أخرى وأصبح ديفال قنصلاً، فطالبه الداي من جديد وضغط عليه جيداً، فوعده القنصل بدفع النقود بتاريخ التاسع والعشرين من شباط سنة ١٨١٦م[١]. ولكن الداي لم يحصل على النقود، وفي سنة ١٨١٩م عقد الملك الفرنسي اجتماعاً لتصفية الحسابات الفرنسية بشكل قطعي، وخلال شهر واحد أعطت اللجنة المجتمعة نتيجة النزاع الذي استمر خمس وعشرين سنة[٢]. كما أن اللجنة التي عينها الملك الفرنسي من أجل تصفية حسابات فرنسا مع الموظفين الجزائريين وهي تتمتع بصلاحيات واسعة بشأن تصفية الديون التي تطالب بها الجزائر والمقدرة بأربعة عشر مليون فرنك فرنسي، وقد مُنحت هذه الصلاحية منذ الثامن والعشرين من تشرين الأول سنة ١٨١٩ م.

وفي الحادي والعشرين من حزيران سنة ١٨٢٠م أحال وزير الخارجية الفرنسية موضوع الديون إلى اللجنة لدراستها، وقد أقر القانون الفرنسي هذه القروض وقبلت بها كافة الجهات المختصة ووافقت على دفعها كاملة، إلا أن أمير أمراء الجزائر لم يحصل خلال تلك السنوات إلا على مليوني فرنك منها، وبما أن القراصنة لا يحصلون على الغنائم في غزواتهم، وفرنسا لم تدفع ما عليها من أموال، فإن الجزائر غدت تعيش ضائقة مالية خانقة[٣].

طالب الداي بتسوية وتطبيق بنود الاتفاقية المرخصة تحت الرقم الرابع والخامس والسادس والسابع والمؤرخة بتاريخ العاشر من حزيران سنة

(١) الكسندر دولابور.

(٢) الكسندر دولابور.

(٣) الكسندر دولابور.

١٨١٠ م والنقود المأخوذة من القنصلية الجزائرية حتى إعلان الحرب في عشرين كانون الثاني سنة ١٧٩٨م وتسوية الأضرار الناجمة عن هذه الديون.

وقد اتفق الداي علي باشا مع القنصل الفرنسي ديفال سنة ١٨١٧م على رفع المبلغ الذي سيدفع عن المؤسسات التجارية الفرنسية في إفريقية من سبعة عشر ألف فرنك إلى ستين ألف فرنك فرنسي، وفي الرابع والعشرين من تموز سنة ١٨٢٠ واستناداً إلى القانون الأساسي المتعلق بالمعاهدة أصبح المبلغ مائتي ألف فرنك فرنسي، وقد قبل القنصل الفرنسي ذلك.

إن الأضرار التي تعرضت لها فرنسا ولحقت بتجارها، وكانت بسبب تعرض الجزائر لحرب لم تكن سبباً في حدوثها، فالتجار الفرنسيون الذين اشتركوا في مقاولات الشركة الإفريقية أمر مشكوك بصحته، كما أن أرقام بنود الاتفاقية الواردة أعلاه كانت مضامينها الحقيقية والأصلية سرية، وقد اعتقد الداي بأنهم سيأخذون مقادير صغيرة لذلك وافق، لكن التجار تجاوزوا الاتفاق، وتذرعوا بأنهم سيكتفون بهذه المقادير، وبعدها لن يأخذوا شيئاً دون دفع ثمنه نقداً.

لم يكن الداي علي على علم بأن جميع ما يأخذه الفرنسيون سيكون ديناً عليهم، ولو علم ذلك لما وافق عليها نهائياً[1]. كذلك فإن أوجاق الجزائر قدموا تضحية كبيرة تجاه فرنسا، وإن الواجب يفرض على الفرنسيين تقدير تلك التضحية، علاوة على ذلك فقد خفضوا المبلغ من أربعة عشر مليون فرنك إلى سبعة ملايين فرنك، كما أن القانون الفرنسي ينص صراحة على أن الذي يعترض على بنود المعاهدة، يحجز على الأموال وتوضع في الصندوق، والمبالغ المحجوز عليها ليست / ٢٠٠/ ألف فرنك، وإنما هي مليونان ونصف مليون فرنك، وبما أن فرنسا هي التي اعترضت على المعاهدة لذلك تم الحجز على مليونين ونصف مليون فرنك.

أما الأربع ملايين ونصف المليون، فقد تذرع القنصل بأنها دفعت لليهوديين بكري وبوحريص (بوشناق)[2]، وهذان الشريكان الجشعان، كانا يعلمان

---

(١) الكسندر دولابور.

(٢) دي غرامونت.

بأنهما إذا عادا إلى الجزائر سيقطع رأسيهما، لذلك فر واحد منهما إلى (ليفورن) والتجأ الآخر إلى فرنسا، وكُلف القنصل الفرنسي من قبل حكومته بالشرح للداي بأن الديون الفرنسية تم تسويتها بهذا الشكل(*). وعندما علم الداي بهذا النبأ كتب بنفسه رسالة إلى الملك الفرنسي يقول فيها: إن القنصل ديفال اتفق مع اليهوديين وقد حصل ديفال على حصة كبيرة من هذه النقود، وبناءً عليه فهو لا يريد ديفال أن يكون قنصل فرنسا في الجزائر، وإنه يرغب بإعادة اليهوديين ليتم تقديمهما إلى العدالة، ويطالب بدفع المبلغ المذكور، لكن الداي لم يتلق جواباً لرسالته، وإذاً فالمسألة تتطلب اهتماماً أكبر من ذلك، لأن المعاهدة أقيمت بين الحكومتين، وهذه الأموال عائدة للخزينة الجزائرية ولا بد من تسويتها بشكل تام ونهائي.

في الحقيقة إن تصفية حسابات بكري وبوشناق مع الداي تعطي فوائد كبيرة، ولكن بكري وبوشناق لن يسلما إلى الجزائر ولكي لا تكشف خيانتهما، وكما هو معلوم فالهيود يدافعون عن مصالحهم دفاعاً مستميتاً، وفرنسا لا تهتم بهذا الموضوع ولن تتدخل بحقوقهما[1]. وهذا يعني بأن فرنسا تبحث عن فوائدها، ولا يهمها إيصال الجزائر لحقها.

وقد أوضح وزير الخارجية الفرنسية (دوماس Dumas) في مراسلاته التي أرسلها إلى قنصله في الجزائر، بأن الديون تم تسويتها حسب القانون المتعارف عليه من قبل الطرفين وحسب الاتفاقية المعقودة في الثامن والعشرين من تشرين أول سنة ١٨١٩م، وقد طلب من القنصل الفرنسي في الجزائر تبليغ الداي بأنه لن يقوم بالعمل ثانية، ولم يعد باستطاعته إعادة اليهوديين إلى الجزائر، لأن بكري دخل تحت الحماية الفرنسية، وذهب بوشناق إلى ليفورن.

ترك هذا الخبر تأثيراً كبيراً لدى الجزائريين، وخاب ظنهم بالفرنسيين

(*) يذكر المؤلف هنا أن بوشناق التجأ إلى فرنسا، علماً بأنه ذكر في الفقرة الثالثة عشرة، أن الإنكشاري يحيى أطلق النار عليه عندما كان خارجاً من قصر الجينية في تمام الساعة السابعة صباحاً من الثامن والعشرين في شهر حزيران سنة ١٨٠٥م ورماه أرضاً، وهذا يعني أنه لم يمت بل نجا من الموت (المترجم).

(١) الكسندر دولابور.

والجميع يعلم بأن الحقوق الجزائرية لا يمكن أن تؤكل بالغش والخداع ، فعندما تلقى الجزائريون هذا النبأ كانت سفنهم تشترك مع السفن العثمانية بتأديب المتمردين في مورة منذ سنة ١٨٢٣ وحتى سنة تلقي النبأ أي سنة ١٨٢٧م[1] .

لدى دعوة الرياس من حرب مورة ، تحدثوا عن وحشية اليونانيين وعن شجاعة الأتراك ، والحقد التي يعشعش في قلوب المسيحيين ، ولهذا فقد تدافع الأتراك إلى الموت تدافعاً مدهشاً ، لكن المساعدات الأوربية لليونان كانت تحزن الأتراك وتزيد من أساهم وألمهم ، وقد تضايق الداي حسين باشا من هذه الأنباء السيئة ، وخاصة الهزيمة التي تعرضت لها السفن الجزائرية في قندية (Kandige) ، والجوع الذي تعرض له بحارتها[2] .

وزيادة على هذه الأحداث ، فقد ظهرت حادثة جديدة زادت من غضب الداي ، وهي أن الفرنسيين لم يكتفوا بتحصين الباستيون ، بل عمد الكسندر ديفال ابن أخ القنصل ديفال سنة ١٨٢٥ م إلى تسليح بعض الأماكن الموجودة في منطقتي بون والقالة ، وقد فهم من ذلك أن الفرنسيين يهدفون إلى جعل تلك المناطق مستعمرة فرنسية خاصة بهم ، ورداً على هذا التصرف كلف الداي أمير قسنطينة بهدم جميع المواقع الفرنسية هناك فجهز أمير قسنطينة قوة كبيرة ، واتجه إلى المناطق التي حصنها الفرنسيون ، فهدم تحصيناتهم وطردهم من المنطقة[3] .

أدعت الحكومة الفرنسية بأن هذا العمل هو إعتداء على الأراضي الفرنسية ، لأن العاملين بها من الفرنسيين ، وادعوا أيضاً بأن المنطقة كائنة ما بين نهر سبو وكابرو(Kapru) ، وهي منذ منتصف القرن الخامس عشر تحت الحكم الفرنسي ، وبناءً على هذه الادعاءات فإن الموظفين الفرنسيين يتجاهلون المعاهدة الموجودة أو لا يعترفون بوجودها أصلاً ، ففرنسا لم تكن يوماً من الأيام صاحبة أملاك في الأراضي العثمانية[4] .

---

(١) الكسندر دولابور

(٢) دي غراممونت .

(٣) الكسندر دولابور .

(٤) الكسندر دولابور .

إن السلطان العثماني سمح للفرنسيين بصيد المرجان وممارسة بعض الأعمال التجارية في هذه السواحل فقط، وبهذا الخصوص فإن صورة الفرمان السلطاني لا تزال موجودة وتثبت كذب الإدعاءات الفرنسية، والفرنسيين حينما أقاموا هذه التحصينات كانوا يدركون جيداً أن هذا ليس من حقهم، وإن الأهالي سوف يهدمونها في أي وقت يرغبون، وقد هدمها الأهالي أكثر من مرة، وفي كل مرة كان الفرنسيون يلجأون إلى السلطان للسماح لهم بالعودة إلى تلك المناطق بعد أن يوجه فرماناً إلى الأهالي بذلك.

عندما تأخر رد الملك الفرنسي على حسين باشا، ظن بأن رسالته لم تصل، فأرسل رسالة أخرى بواسطة سردينيا، وعلى الرغم من معرفة الداي بوصول رسالته، إلا أنه لم يتلق جواباً[1].

في الثالث من نيسان سنة ١٨٢٧ م الموافق من شوال سنة ١٢٤٣ هـ قدم القنصل الفرنسي ديفال لتهنئة الداي بعيد الفطر في القلعة الداخلية، ولم يكن استقبال الداي للقنصل الفرنسي بشوشاً، ولكن القنصل الفرنسي لم ينزعج لأنه اعتاد على هذا الموقف منذ توتر العلاقات بين الدولتين، بل على العكس أراد الاستفادة من هذه المناسبة، وكان ديفال يتقن اللغة التركية، فعندما قدم التهاني للداي، حدثه عن حجز الرياس لسفينة البابا التي تحمل العلم الفرنسي[2] كان الداي غاضباً من إقامة التحصينات، فقال للقنصل: لم تستمع لأوامرنا فأقمت التحصينات في القالة، وساعدت اليهود بخداعك، وأخفيت أجوبة الملك عني، وكان كلاهما يتحدثان بالتركية، فاحتدم النقاش بينهما وفي النهاية قال له الداي (أنت لا تعنيك فرنسا بشيء حيال مصلحتك الخاصة وتمارس الضغط علينا في سبيل تحقيق مصلحتك، كما أن حكومتك لا تتنازل بالرد علينا بشأن الأشياء التي طلبتها منها) فأجابه القنصل أمام جميع أعضاء هيئة الديوان (إن سيدي لا يعطي أجوبة لأمثالك من الناس)[3]. ولدى سماع الداي بذلك، ثار غضبه، فصفع

(١) الكسندر دولابور.

(٢) دى غراممونت ـ الكسندر دولابور.

(٣) الكسندر دولابور. يقول فى كتابه نقلاً عن مرآة الجزائر: إن القنصل الفرسى قال للداى لدى مليكنا أعداد من الباشوات من أمثالك ينتظرون منه جوابا، والملك يجب عليهم بالدور، وعلى ما يبدو أن دورك لم يأت، وفد أكدت المصادر الفرسية رواية الكسندر دولابور.

القنصل بالمروحة المرصعة والمصنوعة من ريش النعام[1]. وعلى الفور انسحب من المجلس مهدداً بتبليغ حكومته بكل شيء، وفي الحقيقة كان الداي مخطئاً، فلو كان مكانه لويس الثامن عشر لرماه بعصاه من النافذة إلى الخارج، فهذا ما يجب أن يكون قد فعله الداي، لأنه لا يجوز حدوث مثل ذلك تحت شمس إفريقية، وفي قصر الجزائر[2].

بعد زمن قليل اتضح لحسين باشا بأن ما فعله كان خطأ، ولم يقصد تحقير القنصل الفرنسي، وأن الأمر مجرد مناقشة شخصية خاصة، وفي يوم العيد، ومن باب التخفيف من الموضوع قال للبعثة الفرنسية، إن كل فرنسا يمكنها الإستراحة بالجزائر، أما القنصل الفرنسي فقد أرسل وقائع ما حدث معه إلى باريس بنفس اليوم.

استحسنت الحكومة الفرنسية تصرف قنصلها ديفال، وكلفته بتحذيرهم وإقامة آخر مباحثات معهم، وكان حسين باشا قد كتب عدة مرات بأنه لا يريد هذا الشخص في بلاده، ولكن فرنسا أصرت على تعيينه، ويفهم من ذلك أن فرنسا تضمر تجاه الجزائر نوايا سيئة، كما أنها منذ زمن بعيد وهي تخطط لاحتلال الجزائر، وقد اتفقت مع روسيا والنمسا، وهم ينتظرون فرصة مناسبة لتحقيق أطماعهم، والآن جاءت الفرصة المناسبة.

في الأول من شهر حزيران تحركت فرقة بحرية بقيادة الكومندان كولله Gollet من ميناء طولون، ووصل الجزائر في الحادي عشر من حزيران، وفور وصوله وجه إنذاراً إلى الداي بواسطة قنصل سردينيا[3]. وكان الإنذار يتضمن مايلي:

١ ـ على كبار شخصيات الجزائر التوجه إلى السفينة وتقديم اعتذارهم للقنصل.

٢ ـ عند إعطاء الإشارة يجب رفع العلم الفرنسي فوق القصر وجميع الاستحكامات وعلى المدفعية إطلاق مائة طلقة تحية للعلم الفرنسي.

---

(١) الكسندر دولابور ـ دي غراممونت.

(٢) دي غراممونت.

(٣) دي غراممونت.

٣ ـ يمنع مصادرة الأموال العائدة لفرنسا، وسفن الدولة الصديقة لفرنسا.

٤ ـ لا يحق للقراصنة تفتيش السفن التي تحمل العلم الفرنسي.

٥ ـ على الداي الاعتراف بالاميتازات القائمة بين فرنسا والدولة العثمانية، وتطبيق تلك الامتيازات على الجزائر.

وإذا لم يجب حسين باشا على هذه الشروط خلال أربع وعشرين ساعة سيبدأ الحرب والقتال.

يتضح من الشروط التي طلبها القائد الفرنسي استحالة تحقيقها على الجزائريين، فلو عمد الجزائريون على وضع القنصل في فوهة مدفع، ومزقوه إرباً إرباً فإن الملك الفرنسي لويس الثامن عشر لن يضع مثل تلك الشروط[١].

ضحك حسين باشا من هذا التكليف، وطلب مقابل ذلك، الرد على الشكاوى التالية:

١ ـ مسألة بكري: لمَ لم يتم إلى الآن دفع الديون البالغة سبعة ملايين فرنك فرنسي لأوجاق الجزائر.

٢ ـ لماذا أقيمت التحصينات في منطقة الامتياز.

٣ ـ لا يوجد في المعاهدة المبرمة بين فرنسا وأوجاق الجزائر، نص يتضمن اعطاء جواز سفر لغير الفرنسيين، ورفع العلم الفرنسي فوق منطقة الامتياز.

إنتهت مدة الإنذار، ولم يجب الداي على أي شروط من الشروط التي طلبها الفرنسيون، وفي الثاني عشر من حزيران أعلنت فرنسا الحرب ضد الجزائر، في حين صرح وزير الخارجية الفرنسية أن الجزائر أعلنت الحرب على فرنسا في الخامس عشر من حزيران[٢]. وقد دام الحصار الفرنسي مدة ثلاث سنوات، وكان الحصار طويلاً وصعباً جداً، ولم تكن الجزائر الوحيدة التي عانت من هذا الحصار، ففرنسا أيضاً عانت الكثير من المصاعب

---

(١) الكسندر دولابور.

(٢) دى غراممونت.

والخسائر، وقد عجزت السفن الجزائرية عن فك الحصار.

في عشرين حزيران سنة ١٨٢٨ م توفي الكومندان كولله وعين مكانه برتونيرة (Bretonniere)، وقبل فرض الحصار الفرنسي أبحرت عشر سفن جزائرية للملاحة، وبسبب الحصار لم تستطع العودة إلى الجزائر، فتوجهت إلى الإسكندرية، فألقى والي مصر القبض عليها، وبذلك لم يبق لدى الجزائريين سوى بعض السفن الصغيرة والمرابطة داخل الميناء.

وفي الرابع من تشرين الثاني سنة ١٨٢٧ م تحرك الأسطول الجزائري والمؤلف من فرقاطة وقالون وست سفن من نوع بريك وساحبة مدفع، وبعد قتال دام ثلاثة أيام، عادت السفن الجزائرية إلى الميناء[١]. وقد استخدم حسين باشا القسوة تجاه الرياس لأنهم لم يتمكنوا من فك الحصار.

خلال سنوات الحصار، تمكن الفرنسيون من إعادة سفينتين فرنسيتين من وهران، وسفينة مرسيلية من الجزائر، كما تمكن الأسطول الفرنسي من إسكات بطارية مدفعية الجزائر، وفي الثامن عشر من حزيران سنة ١٨٢٩ م / ١٢٤٥ هـ تعرضت سفينتان فرنسيتان لبعض الأضرار بسبب اصطدامها بالشاطىء، فألقى الأهالي القبض على عناصرهما، وعاملوهم بادىء الأمر معاملة حسنة، وبعد مدة قطعوا رؤوس غالبيتهم، وأرسلوهم للباشا، فقدم لهم الباشا مكافأة قدرها خمسة وخمسين فرنكاً.

ما زال الحصار مستمراً، وقدرت تكاليفه السنوية ثمانين مليون فرنك فرنسي[٢]. وبسبب طول الحصار بدأ سكان المناطق الجنوبية من فرنسا، يقدمون الشكاوى لأنهم حُرموا من بضائع إفريقية.

كان المجلس الملكي الفرنسي لا يريد دخول حرب، لأن الشعب الفرنسي سئم من كثرة الحروب التي خاضتها، أما الفريق المعارض للمجلس، فقد اتخذ موضوع الصراع فرصة لتحقيق مكاسبه ومسرحاً لأحلامه.

---

(١) الكسندر دولابور.

(٢) يذكر الكسندر دولابور. أن دي غراممونت يضيف فوق هذا المبلغ سبعين مليون فرنك فرنسي، وبذلك يبلغ تكاليف الأسطول سنوياً مائة وخمسين مليون فرنك.

قرر بولينياك عقب توليه منصبه الجديد الدخول في حرب مع الجزائر، وفي الثامن من آب سنة ١٨٢٨ م / ١٢٤٤ هـ، عهد الملك الفرنسي إلى بولينياك برئاسة الحكومة الفرنسية، وكانت الحكومة الفرنسية الجديدة بنظر الدول الأوربية تقوم بحركة معتدلة، ولهذا طلبت من سفرائها في استانبول التدخل لدى السلطان للضغط على الجزائر لدفع التعويضات لفرنسا، وفي حال عدم الموافقة فإن بولينياك ينكر تأديب الجزائر بواسطة مصر، ولكن والي مصر محمد علي باشا، لم يبدِ استعداداً حقيقياً، وكانت الخطة المدبرة من فرنسا على الشكل التالي:

شقيق القنصل الفرنسي في مصر حمل لائحة وتوجه إلى مصر ليعرضها على والي مصر محمد علي باشا، وذلك بواسطة إبنه إبراهيم باشا، وفي هذه اللائحة ستقوم فرنسا بتقديم عشرين سفينة لمصر من أجل تأديب الجزائر، وبعد الانتهاء من الحملة ستكون السفن من نصيب مصر، فرفض محمد علي باشا لأن الاتفاق مع الفرنسيين وخوض الحرب ضد بلدٍ مسلم سيقلل من قيمته وهيبته لدى كافة المسلمين في العالم. ويعتبر خائناً في نظرهم، لكنه تعهد للفرنسيين التدخل بشأن إقامة الصلح بين الطرفين، فأرسل محمد علي باشا سفينة إلى الجزائر وطلب من الداي تسوية خلافه مع فرنسا، فرد حسين باشا قائلاً (كل شخص مستقل برأيه، فانظر إلى ولايتك وبلادك، فأنا لست محتاجاً لنصائحك)[1].

وبنفس الليلة سمع الداي صوت زمور سفينة راسية في الميناء فتوترت أعصابه وقال: (هذا الطبل خصيصاً للأفرانج، يجب ألا تعمل هذه السفينة أمام قلعتنا ولترحل مباشرة). وعلى الفور بُلغت السفينة وأُخرجت من الميناء[2].

في شهر حزيران سنة ١٨٢٩ م تراجعت فرنسا أمام أنظار جميع الدول الأوربية الحاسدة لها والحاقدة عليها بآن واحد، فوصلت إلى مرحلة تسليم القيادة للقائد دوبرى، وكلف بالاقتراب من الجزائر أكثر.

وللمرة الأخيرة والساعة الأخيرة، أعلنت فرنسا شروطها التالية:

---

(١) مرآة الجزائر، ودى غراموموت يقولان: أن حسين باشا رد على محمد على (تريد نصح من لا يريد النصيحة مثل بائع الفول على منابر الكمار).

(٢) مرآة الجزائر.

١ ـ إعادة الأسرى.

٢ ـ إرسال الجزائر سفيراً إلى باريس للاعتذار.

٣ ـ إعلان الهدنة وإقامة الصلح.

وصلت سفن البروفانس وآلبرت إلى ميناء الجزائر في ثلاثين تموز سنة ١٨٢٩ م وفي الحادي والثلاثين من تموز، التقى دوبرى مع الداي وقرر الاجتماع بتاريخ الثاني من آب، وأعلنا أن هذا الاجتماع هو اجتماع رسمي وقطعي، وبنفس اليوم اجتمع الطرفان، واستمر اللقاء مدة ساعتين، واستخدم دوبرى جميع الأساليب التي تساهم بالتقارب والوفاق، إلا أن الداي لا يريد الاتفاق والتفاوض، وكان يدرك تماماً أن فرنسا لن تتنازل عن موقفها، بعدما قدمت إنذارها الأخير، وإنها لا تقبل عن تحقيق ما تريده[١]، وكان المسيوبيانكي يعمل مترجماً في تلك المفاوضات[٢].

وخلال اللحظات الأخيرة من المفاوضات وصلت إلى الجزائر سفينتان إنكليزيتان، لأن إنكلترا اعتقدت بأنها قد تلعب دوراً بارزاً في تصعيد الموقف، وتتمكن من إقناع الداي بعدم الرضوح للمطالب الفرنسية.

وفي نهاية الاجتماع قال الداي لدوبرى أثناء خروجه من باب القلعة (يوجد عندي المدفعية والبارود، ولا أعرف سوى الحرب) وعند باب القلعة أوقف الترجمان وقنصل سردينيا دوبرى، وطلبا منه الانتظار يوماً آخر، فتردد دوبرى قليلاً ثم وافق على ذلك.

راجع أشخاص عديدون الداي وطلبوا منه التروي وإيقاف نزيف الدماء بين الطرفين، لكن جميع التوصيات لم تعط أي فائدة، إزاد ذلك اضطر دوبرى إلى مغادرة الجزائر في الثالث من آب، وأثناء مغادرته كانت

---

(١) دى عراممونت.

(٢) بيانكى وهو صاحب القاموس (التركى الفرنسى) ومؤلف كتاب مرآة الجزائر وقال دوبرى للداي من الممكن أن يكون تصرف قنصلنا مخالفاً للأدب، ولكن صربك له بالمروحة غير لائق، والآن جئنا لنطلب الصلح منك، ومعى بالسفينة أموال سنقدمها لك، والمطلوب منك إرسال رجل من قبلك إلى باريس لكى يترآى للفرنسيين أنك أنت الذى تطلب الصلح وبعدها نفذ جميع رغباتك فرغبة ملكنا أن يكون الصلح من قبلك، وسفيرك يطلب الصلح منه فأجابه الداى لا أعرف سوى الحرب

سفينة آلبرت من أمامة وسفينة بروفانس من ورائه يحملان إشارة البرلمان الفرنسي[1].

اضطرت السفينتان للمرور بالقرب من المدفعية الجزائر بسبب الرياح، فأمر الداي بإطلاق النار عليهما، لكن الرياس حاولوا إقناعه وإن الرياح أجبرتهما على ذلك، فقال لهم: إذا لم تطلقوا النار، فسأقتل قائد المدفعية، وفي الساعة الثانية ظهراً أعطيت الإشارة بإطلاق النار عليهما، وأطلقوا عليهما حوالي مائة قذيفة، وقد أصيبت سفينة البروفانس بعشر طلقات، لكن إصابتها كانت خفيفة، وتمكنت من متابعة سيرها[2].

حال وصول دوبرى إلى فرنسا، قدم تقريراً بنتائج مفاوضاته، وكان بولينياك على رأس حملة كرئيس للحكومة الفرنسية، فباشر بالإعداد للحرب، وأمر وزير البحرية والحربية بتوجيه اهتمامهما لذلك، ومن المؤكد أن فرنسا تنوي مهاجمة الجزائر، لأن تقارير القائد بوتان والقبطان كولله لا يتركان أي شبهة بذلك، ففرنسا كانت مصممة على ذلك منذ المباحثات الأولى التي أجريت سنة ١٨٢٧ م.

تدارك قادة فرنسا أمر الحملة، وأدركوا أن أعمال القصف والتدمير تحتاج لمصاريف باهظة، وللتخفيف من النفقات وإنجاح الحملة والاحتلال بأقصى سرعة وأقل تكاليف، قرروا إتخاذ سيدي فرج نقطة إنزال، وفي الثاني من آذار سنة ١٨٣٠ م تُلي القرار الملكي في مجلس الأمة، وبوشر العمل الفعلي، وعين بورمونت قائداً للجيش، والأميرال دوبرى قائداً للأسطول.

أثناء إعداد فرنسا لهذه الحرب، أجرت الحكومة مباحثات واتصالات مع الدول الأوربية تشرح لهم الدوافع التي أجبرت فرنسا على اتخاذ ذلك، وكان الفرنسيون قد وضعوا خطة محكمة وجيدة[3].

---

(١) تقول مرآة الجزائر بأنه غطاء سياسى فقط.

(٢) تذكر مرآة الجزائر: إن المدفعية أطلقت النار بسبب تهديد الباشا، أما غراممونت فيقول أن الإطلاق جاء صدفة وأن الباشا عزل وكيل خراج القصر وقائد المدفعية وأخبر فرنسا بأنه يريد الصلح.

(٣) دى غراممونت.

أظهرت روسيا تاييدها للعمل الفرنسي وشجعتها على ذلك، أما بروسيا والنمسا فكانتا مسرورتين لإرسال القوات الفرنسية لخارج أوربا، أما الحكومات الأوربية الأخرى، فتأتي بالدرجة الثانية بالترحيب بالعمل الفرنسي، لأنهم سوف يتخلصون من قراصنتها، وقد حاولت تركيا وإنكلترا إيقاف العمل الفرنسي وبذلا جهوداً كبيرة، وإذا كانت تركيا لا تحكم الجزائر بشكل فعلي، فإن الجزائر لم تطلب في وقت من الأوقات الانفصال عنها، ولم تعلن استقلالها عنها بشكل واضح، بل على العكس كانت تعترف بإرتباطها مع تركيا، على الرغم من مخالفتها في بعض الأحيان الأوامر الصادرة عن استانبول، وحقيقة الأمر فالجزائر كانت للدولة العثمانية، وهذا الاعتبار كافٍ لوقوف تركيا إلى جانب الجزائر ضد الاعتداء الفرنسي، وكان على تركيا اتخاذ إجراء فعلي للدفاع عن الجزائر[1]. ولكن السفير في استانبول تمكن بذكائه ومهارته من منع تركيا من القيام بأي إجراء فعلي، وغدا يمارس ضغطاً كبيراً على الديوان الهمايوني من أجل إجبار الجزائر على دفع كافة التعويضات لفرنسا، كما أن رفض الجزائر لأوامر الديوان الهمايوني كان يخفف من عظمة الإعتراف بالدولة العثمانية، فأرسل مفتي الجزائر السابق الموجود في إزمير إلى الجزائر لنقل توجيهات الدولة العثمانية من أجل توصل الجزائر إلى إتفاق مع فرنسا، ولكنه لم يتوصل لأي نتيجة، وكان الوقت يمر بسرعة، والوسائط لا تعطي نتائج، وقد جاء هذا التأخير لصالح المجلس الملكي الفرنسي، لأن الفريق المعارض للغزو، مارس ضغطاً شديداً على المجلس، وعندما تقرر القيام بالغزو بُلغ السفير الفرنسي في استانبول برفع صوته في الديوان الهمايوني، ولم يكن الديوان الهمايوني مقتنعاً بتهديد السفير الفرنسي عندما رفع صوته في الديوان قائلاً: بموجب المعاهدة القديمة يحق لفرنسا أن تأخذ حقها بيدها، وكانت الجزائر تتصدى بقوة للتهديدات الفرنسية، واعتقد ديوان الجزائر بأن هذه المرة لن يهزم أيضاً، أما إنكلترا فلم تصدق هذه الرواية التي يرويها الديوان عن حلمه الأسطوري، وكانت مقتنعة تماماً بأن الفرنسيين سيربحون المعركة، ويحققون انتصاراً كبيراً على الجزائريين، ولكنها لا تريد أن تطأ الأقدام الفرنسية المناطق الكائنة ما بين

---

(١) دي غرامونت.

مالطة وجبل طارق[1]. فمنذ القرن السابع عشر والصراع قائم مابين فرنسا وإنكلترا من أجل بسط نفوذها على أوجاقات الشمال الإفريقي، والآن كيف تستريح وتستقر، وهي ترى عدوتها الأولى ومنافستها الوحيدة تربح الجولة، وبناءً عليه فقد حاولت جاهدة التأثير على الجزائر واستانبول وأيضاً باريس لإيقاف هذا العمل الحربي، وبالرغم من ممارستها جميع ما تملكه من ضغوط وإمكانيات وتحركات سياسية لم تحقق أي نجاح ملموس، ففي الجزائر اقنعت الداي بأن فرنسا لا يمكنها أن تعلن الحرب وشجعته على التصدي لها ومعاداتها، وعندما تأكدت من جدية العمل الفرنسي أدركت الخطأ الذي ارتكبته، فلجأت إلى الوعيد والتهديد، فرد الملك الفرنسي على آراء الحكومة البريطانية في مجالس الحكومات الأوربية (نحن لا نتدخل بشؤون إنكلترا وعليها ألا تتدخل بشؤوننا) عندما تأكد الغزو الفرنسي، أصبح من الواجب والضروري إرسال شنكل أوغلو طاهر باشا إلى الجزائر للاستفادة من خبرته[2].

كان قائد القوات البحرية الفرنسية متشائماً منذ اليوم الأول لتجهيز قواته، وظل هذا التشاؤم مرافقه حتى نهاية الغزو، وبنفس الوقت كان يكن للجزائريين كرهاً كبيراً، وقد شاركه هذا الشعور قسم كبير من الفرنسيين، لأن نسبة كبيرة منهم كانت تعتقد بفشل هذا الهجوم، وبما أنه صدر قرار قطعي بتنفيذ الغزو فقد بذلت البحرية الفرنسية جميع ما لديها من طاقة لإعداد الأسطول بشكل كامل.

بعد صدور القرار بعشرين يوماً، أرسلت جميع دول البحر الأبيض المتوسط المؤيدة لفرنسا السفن المطلوبة منها، وإذا كان الغزو قد تأخر عن الموعد المحدد بسبب تأخر وصول سفينتين وثلاث فرقاطات في الوقت المناسب، فقد أُمر الأسطول بالتحرك بعد فترة وجيزة من الوقت المحدد له، وطلب إلى القطع المتأخرة اللحاق به.

في نهاية شهر نيسان اجتمعت حشود الجيش وقطع الأسطول في

---

(١) دي غراممونت.

(٢) دي غراممونت.

سواحل بروفانس، وكان يتألف جيش الغزو من ثلاثين ألف جندي وأربعة آلاف حيوان، وهو مقسم إلى ثلاث فرق، مدفعية حصار وهي ذات قطر كبير وعددها /٨٢/ مدفعاً و/٩/ مدافع هاون و/١٠/ مدافع صحراء، وأربع بطاريات للخيالة.

في الخامس والعشرين من حزيران اجتمع في مرسيليا وطولون مائة وثلاث قطع حربية وستمائة وخمس وسبعين سفينة عادية أيضاً، وكانت السفن محملة بالعتاد والمهمات واللوازم الصحية والشوادر والأغذية المتعلقة بالجيش، وإن الأرزاق التي جمعوها خلال شهرين تساوي ٧٨,٦٤٥ دنك (كل دنك يعادل ٤ قيراط). وقد وضعوا هذه الأرزاق في خزانات الماء، وقد أدركوا القيمة لهذة الترتيبات.

عندما كانت فرنسا تقوم بهذه الاستعدادات، كانت الجزائر تتقلب بالفوضى والمشاكل، وقد حاول الداي حسين باشا إيقاظ الوعي الديني لدى الأهالي، ويظهر لهم بأن النصر والكرامة من حق الإسلام، لكن المدينة كانت تعيش في ضيق شديد، وقد فقد الأهالي الغنائم التي اعتادوا على مشاهدتها بسبب الحصار المفروض، وتوقفت الحياة التجارية بالمدينة، وكانت المحاصيل مكدسة في الصناجق لأنها لم تتمكن من بيعها، فانعدمت الثقة بالدايات منذ أن حل الداي علي باشا سنة ١٧١٧م وخاصة بعد أن قضى على الإنكشارية، ففسد الجيش القديم، وأصبح إيجاد عساكر متطوعة ضرباً من المحال، وانصرفت الأهالي عن الخدمة العسكرية لأن الغنائم انعدمت نهائياً والمعاشات ستدفع من الخزينة والخزينة فارغة، وإن الجميع يعلمون هذا ويدركونه، وأصبح الداي عرضة للاغتيال، وحتى ذلك الحين لم يسفك الدماء، ولهذا باشر بالاعدامات فاختل حبل الأمن، وانعدم الاستقرار والاطمئنان، وكان من أقوى القادة يحيى آغا العرب، لكن أعداءه كثيرون، وقد تمكنوا من خداع الباشا ولفقوا تهمة ضده، وأكدوا للباشا بأنه باع أرزاق الجيش، وأنه يتآمر عليه[1]. وكان يحيى آغا إنساناً جيداً، ومفكراً قوياً، ويمتاز ببعد نظره، واستباقه للأحداث، وكان القنصل الهولندي من الأصدقاء المخلصين للجزائر، فقال ليحيى آغا: إذا لم تعقدوا صلحاً مع

(١) فور بيكه.

فرنسا، فإنها ستقوم بإنزال قواتها في سيدي فرج، ومن هذه النقطة ستشن هجوماً ضد الجزائر، وهي ستحاول الدخول من الباب الخلفي، فباشر يحيى آغا بإقامة التحصينات في المنطقة، لكن الباشا صدق أقوال أعداء يحيى آغا فعزله من منصبه ونفاه خارج البلاد، وفي اليوم الثاني أرسل رجلاً خلفه فقتله[1]. وعندما دق جرس الخطر، عهد الباشا لإبراهيم آغا بقيادة الجيش، وحالما شاهد الداي ضعف إبراهيم آغا وسوء قيادته للجيش، تملكه الندم والحزن على قتله ليحيى آغا[2]. فاضطر الداي للإشراف بنفسه على التحصينات بدلاً من إبراهيم آغا الذي عينه آغا العرب، وقد عمد الداي إلى نصب بطاريات المدفعية بالساحل وبالقسم المجاور للبرج، ووضع ساحبات مدفعية بمكان أمين، ولم يصدق حسين باشا بأن فرنسا ستهاجم الجزائر براً، لذلك أهمل ترتيبات الدفاع عن المدينة، ولم ير ضرورة ملحة لتقوية التحصينات حول المدينة، وكان يراها تحصينات زائدة عن حاجة المدينة، إلا أنه طلب من أمراء الصناجق إحضار ما لديهم من جنود[3].

القنصل الهولندي صديق حميم للجزائر وظل وفياً لها حتى بعد وفاة صديقه يحيى آغا، وكان باستمرار يتردد على إبراهيم آغا فيدربه ويحذره ويطلب منه الاستعداد باستمرار، وهكذا كان إبراهيم آغا يتلقى الدروس من القنصل الهولندي وكان إبراهيم آغا يردد قائلاً (إيه جلبي، آه لو أن الفرنسيين ينزلون عساكرهم براً، ففي البر لا يمكن تقدير قواتنا، فلدينا خيالة كالمجانين، إذا ما تحركوا فقط، فسيبعثرون ويشتتون الجيش الفرنسي، ولدى سماع القنصل الهولندي هذه الرواية، قال لا يمكنني مخاطبة ومحادثة هذا القبلي الجاهل، فهو رجل لا يفهم والحديث معه بدون فائدة، فتركه ومشى)[4].

بلغ عدد الجنود الذين قدموا من مختلف المناطق حوالي ستين ألف

---

(١) مرآة الجزائر.

(٢) دى غراممونت.

(٣) مرآة الجزائر.

(٤) تقول مرآة الجزائر: بأن عدد الجنود كان عشرين ألفاً، والحقيقة كانت تفوق هذا الرقم بكثير، وذكر بالمقالة التى كتبت بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر للكاتب برنسي سيكي دو بوربون. أن عدد الجنود الذين جاؤوا من ضاجق تبطري ووهران وقسنطينة تتراوح ما بين ١٥ ـ ١٧ ألف جندى مع عدد الجنود من الصناجق الأخرى فالعدو يفوق ٦٠ ألف جندي.

مقاتل وعندما بدأت فرنسا بإنزال قواتها إلى البر، تدافع الأهالي بالقدوم، وبدأ عددهم بالازدياد شيئاً فشيئاً[1].

في مساء الخامس والعشرين من أيار سنة ١٨٣٠م، تحركت سفن الأسطول الفرنسي من طولون باتجاه جزر البليار، وفي صباح السادس والعشرين من أيار شاهد المراقبون فرقاطتين من الأفق واحدة منهما للأميرال الإنكليزي دوبيري (Düses dö Berri) والثانية تحمل علم الأميرالية العثمانية، ولقد جاء طاهر باشا لحل النزاع بين فرنسا والجزائر، وكان مزوداً بفرمان سلطاني موجه إلى أمير الجزائر.

دفتر مهمات الديوان الهمايوني نمرة ٢٤٦ صفحة ١٢٨. وكان الفرمان ممهوراً بالخط الهمايوني وقد خاطب الفرمان طاهر باشا بما يلي:

إلى طاهر باشا كريم الكرام: نظم هذا الأمر من قبل عالي المقام السلطان العثماني، وذلك لحفظ الوعد والتقيد بما ينص عليه الفرمان وعليك تفهيم أمير الأمراء المذكور بشكل جيد مضمونه ومحتوياته وبلغه الوصايا الحسنة من طرف السلطان والاستفادة من الأطراف، وتوضيح الحاصل والأخذ به من بابا العبرة والاعتبار، وإنهاء المنازعات والخلافات والوصول إلى تأمين اتفاق بين الأطراف، وإصلاح ذات البين حسب القاعدة المطلوبة، ومعاقبة كل من يخالف الفرمان الهمايوني، ونأمل إيقاف الخلاف وعدم تحريك خلاف ذلك.

نص الفرمان الهمايوني

أمر من عالي المقام إلى الموجودين هذه المرة في الجزائر طاهر باشا وأمير أمراء الجزائر دام إقبالهما والمفتي والعلماء وذوي الهمة وإلى دايات الجزائر زاد الله قدرهم.

من سلطان الممالك المحروسة والمسالك، منذ زمن والنزاعات تدور بين أوجاق الجزائر ودولة فرنسا، وكان سبب هذه الخلافات بعض الأسباب المادية، وحادثة القنصل، وتأخير التجار الفرنسيين عن تسديد ما عليهم من ديون، ودولة فرنسا منذ سنتين تفرض الحصار على الجزائر بحراً، فحاولوا

---

(١) مرآة الجزائر.

حل هذا الموضوع دون التوصل إلى الحرب ، لأن هذا سبب الخسائر والأضرار لفرنسا ، وقد راجعتنا بهذا الخصوص ، وقررنا الالتزام بقانون الحماية والصيانة القديم ، ومفتي الجزائر السابق الموجود في إزمير خليل أفندي زيد علمه ، أحضر إلى داء السعادة هذه المادة ، ورأى بأن مستقبلها غير جيد ومن السهل إنهاء المشكلة ، ولهذا السبب أرسلناه إلى الجزائر لحل هذه المشكلة ، يجب الاستماع لنصائحه ووصاياه الشفهية ، فالخلاف غير ناجم من طرف واحد ، وتقول بعض الروايات بأن فرنسا تستعد للهجوم على الجزائر من البر والبحر ، وقد أعلنت صراحة ، ولدى النظر لذلك ، أصبح من اللازم إقامة الصلح ولو تبين بأن نتيجته مضرة بالجزائريين ، يطلب من الوفد القادم من طرفنا إرضاء الإدارة السلطانية ، وإحلال الخير لكلا الطرفين ، وأسكات النزاع الموجود بين الطرفين ، وفي النتيجة يلزم عدم التوصل للحرب وسفك الدماء ، ورفع دوافع هذه الحرب بأسرع وسيلة عن ولايتنا ، وسلطتنا الموقورة والمعتبرة بالعناية والدراية ، عندما كان بها المعروف والمشهور بالفساد والفتنة كان موظفاً بالجزائر ، والآن جاء كريم الكرام الموصوف بالأوصاف الحميدة ، والمذكور يقدم الخدمات المطلوبة بالوجه الصحيح ، يعطي حسن الاعتماد ، وهذا اقتراح الديوان الهمايوني ومرخص بكل وظائفه من قبل السلطان ، ومن الممكن الاعتقاد وبعون الله تعالى أن تأتي معاهدة الصلح بشكل يليق بتعديل الاقتدار إن تعلق السلطان بالخط الهمايوني وصدور النصيحة برأيه ، وأنت بهذا الشكل تقوم برئاسة وظيفتك ، وسنعلم السفير الفرنسي المقيم بدار السعادة ، بأن الجزائر من اتباع الدولة العلية ، وسيتم الصلح والسلام الأبدي بينها وبين فرنسا ، وإن الخلاف الناشىء بين الطرفين ناجم عن أسباب غير مهمة ، سيتم رفع وإزالة هذه الأسباب ، ونحن بدورنا سنصر على حصول الوفاق والتفاهم ، وقد حررنا أمراً ، نضغط به على الجزائر للتقيد بمطالبينا وأنت من طرفك ستقوم بإخبار دولتك ، أما نحن فسنجبر الجزائر على التقيد بالوصايا الموجهة إليها ، كما سنبين للجزائريين بأن أي شيء مخالف لذلك سيؤثر على السلطان ويثير غضبه وبالنظر للأوهام المتشكلة ، يجب الابتعاد عن آرائهم وتلقينهم ما يلزم ، وإذا اقتضى الأمر وكانت الدولة المشار إليها متشبثة بفكرة الحرب ، فعلى أي حال يجب إزالة

النزاع القائم بينكم وبين الدولة المشار إليها ، والعمل على إقامة الوفاق والتقارب ، وإصلاح ذات البين بين الطرفين ، ويجب عليكم صرف الجهد من أجل حل هذه الخلافات ، وأصدر الفرمان بخصوص الوظائف التي يتضمنها ، فهو موشح بالخط الهمايوني ، وموقع بتوقيع جليل الكرام السلطان ، وبالانتباه إلى مقصد هذا الأمر حالياً ، وهو حل النزاع والخلافات التي لا تسهم في الحرب ، فالحرب سفك دماء ، والإقدام على حلها وإزالتها بكل دقة ومهارة ، كما يجب تنفيذ ذلك بشكل واضح ، فبعون الله تعالى تكون مهمتكم موفقة وتسير حسب المعمول به ، والمنتظر منكم إظهار كامل مهارتكم ، وتتمكنون من الوصول إلى إحلال الصلح وتستجلبون توجيه أصحاب المكارم ، وأنت مع أمير الأمراء والمفتي والعلماء وجميع المشار إليهم تستطيعون الوصول من جديد والتآلف والوفاق بين الجزائر ودولة فرنسا ، وقد كلفت بهذه المهمة لتقوم بالتسوية في البحر الشريف المروض لنا بملكته ، ولتكن جملك وعباراتك مسخرة لهذا الهدف وخدمة صاحب سعادة السلطان ، هو منذ القديم تابع للدولة العثمانية ، كما يجب التقيد وإطاعة الأمر الصادر عن السلطان وعدم التحرك خلاف حضرة الله تعالى. . . حرر في أواخر رمضان ١٢٤٥ هـ.

توجه طاهرباشا إلى الأسطول الفرنسي والتقى مع قائده ، وقال له الأمير: يجب عرض شروط الاتفاق على المجلس الملكي ، أما قائد الجيش الفرنسي فقد رفض مقابلة طاهر باشا[١] . حاول طاهر باشا الذهاب عن طريق تونس ولكن أمير الجزائر حسين بك منعه من المرور بالجزائر.

خدع الفرنسيون حسين باشا بكلامهم وكانوا يريدون الاستيلاء على كامل مناطق الجزائر وهم يريدون إلغاء الإمارات وضم إمارة تونس إلى الجزائر أيضاً[٢] . عاد طاهر باشا دون أن يحظى بدخول الجزائر، وكان الفرنسيون خائفين من دخول طاهر الجزائر، لأنه إذا وصل إلى الجزائر وأقنع الداي بالموافقة على شروط المعاهدة والاتفاق مع فرنسا ، بهذه الحالة لم يعد أي وجود للمشكلة القائمة .

---

(١) دي غرامسونت.

(٢) الأثر المنشور من قبل الشيخ إسماعيل صفا (شكاوى الأمم المظلوبة) سنة ١٩١٧م.

إن الحصار المفروض على الجزائر منع طاهر باشا من الوصول إليها ومعارضة قائد الجيش والأسطول له خاصة بعد إطلاعهم على فرمان من المباحثات التي جرت بين الطرفين ما هو إلا دليل واضح وقطعي على تصميم الفرنسيين لاحتلال الجزائر[1].

وفي صباح ٣١ أيار شوهد الأسطول الفرنسي في قاب قاسين Kap Kaksin أما ناقلات الأسطول إلى حد الآن لم تصل، وقد اتجه الأميرال دوبري بأسطوله شمالاً بغية جمعه في جزيرة (بالما)، وبنفس اليوم وصلت ناقلات الأسطول، وكانت حالة الطقس مساعدة جداً لإنزال القوات، ولكن الأميرال لم يستفد من ذلك، واستمرت حالة الطقس مدة خمسة أيام، فتضايق الجنود من البقاء في السفن، وفي التاسع من حزيران غادر الأسطول جزيرة بالما، وفي الثاني عشر من حزيران غدا الأسطول بعيداً عن الجزائر أكثر من اثني عشر ميلاً، كما أن حال الطقس تبدلت، فعلت أمواج البحر، وأصبحت الرياح متقلبة تارة جنوبية غربية وتارة جنوبية شمالية، فأعطى الأميرال المتردد أمراً باستمرار التحرك شمالاً، فمنعه الجنرال بورمونت، وقبل التحرك كان الجنرال مالكاً لكل الصلاحيات وعندما شاهد معارضة قوية لم يستخدم صلاحياته، والآن فقد حان استخدامه لصلاحياته، فأخذ جميع الأوامر الإدارية المحايدة، وأصدر الأمر ببدء الإنزال وفي الثالث عشر من حزيران الساعة الثامنة صباحاً مر الأسطول بالقرب من بطاريات المدفعية أثناء اتجاهه إلى سيدي فرج، ثم دخل المنطقة المذكورة، وفي هذه المدة لم تواجه سوى بضع طلقات مدفعية[1].

ومع بزوغ فجر الرابع عشر من حزيران نزلت الفرقة الأولى إلى البر دون أن تتعرض لأية مقاومة، وفي الساعة السابعة شنت هجومها على تل يبعد ١٢٠٠م عن الساحل، كانت نيران مدفعية التل في بداية الهجوم شديدة وكثيفة ثم حمدت، وفي هذا الأثناء شن الجزائريون هجوماً بغية إيقاف تقدم الفرنسيين، وقد شارك في هذه الهجوم من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ خيال، لكنهم فشلوا، فرد عليهم الفرنسيون بهجوم عنيف، وفي النهاية احتل الفرنسيون

(١) لو أن طاهر باشا قتل حسين باشا واستولى على الموقع، واستجاب لمطالب فرنسا ما هي عقوبته، وما هو حال تلك السياسة المشؤومه.

(٢) دي غراممونت.

التل، وكان يحيى آغا قد بدأ التحصينات في التل، ولكنه لم ينته منها، إضافة إلى ذلك فإن المدفعية الموجودة في التل قديمة ولا تفيد بشيء، ولكنها أوقعت بعض الخسائر بالجيش الفرنسي، وحينما استولى العدو على التل غنموا إثني عشر مدفعاً ومدفعين للهاون، وتابع العدو حركته فاستولى على شبه الجزيرة، وبدأ بإقامة تحكيمات دفاعية برسم خطوط باستيون، واتخذها مقراً لقيادة الجيش.

كانت أولى الفرق التي تقدمت فرقة (برتيزن Bertezen) بقيادة الماريشال دوقان بورت دا مورفان Marsel dŏkan de Morvan).

تابع الفرنسيون تقدمهم إلى ما بعد سيدي فرج، واستولوا على موقع جزائري يقع خلف خط باستيون، واحتلوه بفرقة كاملة، وبعد مرور أربعة أيام بدأوا التمركز بالمواقع التي احتلوها، وكان قائد قوات الجزائر إبراهيم آغا، ولضعف قيادته وجهله فنون الحرب، لم يقاومهم بعنف، وكل ما فعله هو إطلاق النار على الفرنسيين في كل صباح ما بين الساعة الثامنة والتاسعة، وفي السادس عشر من حزيران هبت عاصفة بحرية قوية قلبت البحر رأساً على عقب، وقد تعرض الفرنسيون خلالها إلى تعب وإنهاك شديدن بسبب محاولتهم إيقاف سفن لنقل، ونتيجة لاصطدام هذه السفن بعضها ببعض تعرض أسطول النقل إلى أضرار بالغة، ولو أن العاصفة البحرية استمرت أكثر من ساعتين لغرق الأسطول الفرنسي حسب تقرير قائد الأسطول دوبري.

تعرض بورمونت إلى إرباك شديد بسبب هبوب العاصفة، فهو لم يُنزل إلى البر سوى المدفعية الصحراوية، كما أن ما لديه من قذائف لا يتعدى /٢٢/ قذيفة وأن الأرزاق الموجودة لديهم لا تكفي لمدة خمسة عشر يوماً، وإن ذخائره وأسلحته ومدافعه لا تزال بغالبيتها في السفن، ولإنقاذ السفن من عدم التحرك والاصطدام ببعضها البعض أو بالصخور، أمر بإلقاء خزانات المياه المحملة بالسفن، وبتصرفه هذا قلل من الأضرار الشيء الكثير، أما أهالي الجزائر فكانوا يتجمعون صباح كل يوم حول قيادة الجيش التي أقامها إبراهيم آغا.

انتبه إبراهيم آغا لسكون وهدوء القوات الفرنسية، فشن هجوماً خاطفاً عليهم، وكان بحوزته ٦٠ ألف مقاتل[1]. لكن الجنرال بورمونت رد على

(١) دي غراممونت.

هجوم الجزائريين باتخاذ شكل القوس تحسباً من تشتت قواته في وادي (بريجا Brica) الواقع على يمينه والبحر على يساره، يضاف إلى ذلك فقد وضع فرقتين في الخط وترك فرقة تحمي مؤخرته.

عند بزوغ شمس التاسع عشر من حزيران شن الجيش الجزائري هجومه بقيادة إبراهيم آغا، وقد اتخذ إبراهيم آغا أثناء هجومه قوساً هلالياً بهدف تمزيق القوات الفرنسية، وفصلهم عن الجزيرة ومركز الاحتياط، لكن الفرنسيين كانوا قد تحسبوا وقوع هجوم مفاجىء عليهم، فاتخذوا مواقعهم من الجانب الأيمن، فأضاعوا بعملهم الهجوم الجزائري، وبما أن المنطقة لم تكن سهلة، ولذلك تركوا ممراً بين الجناح الأيمن والأيسر بعرض خمسمائة متر، ولكي لا يكون هذا الممر خالياً من القوات، فقد كُلف أرجينا لويس بالتمركز فيه مع قوة قليلة، وفي اليوم التالي تعرض الفرنسيون لهجوم الإنكشاريين وقوات تيطري، فتمزق الصف الثالث والعشرين من الجيش، ولو استمر الهجوم ساعة أخرى لتعرض هذا الخط للإبادة الشاملة، وسقط من جراء الهجوم المئات من الجرحى، أما الهجوم الذي سنه الجناح الأيمن للجيش الفرنسي، فقد أفشل هجوم أمير قسنطينة، واستمر الجزائريون يتراجعون حتى جنوب وادي بريجا، وفي هذه الأثناء قاد أمير وهران هجوماً على المركز، وكان هجوماً سهلاً، وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي تقدم لواءان فرنسيان مسافة أربعة الآف متر، وتقدمت الفرقة الثانية لكسر خط المحاربة الجزائرية وبذلك غدت مدينة الجزائر لا تبعد عن القوات الفرنسية أكثر من ميل واحد.

كانت جنود إبراهيم آغا تتجمع حول مقر القيادة في ستوالي، وفي هذه الأثناء ظهر قائد الجيش الفرنسي في ساحة المعركة، وكان الجزائريون المنسحبون من كل طرف يجمعون قواتهم ومعداتهم لشن هجوم جديد، ففاجأهم الفرنسيون بشن هجوم سريع وخاطف، استولوا من خلاله على المعدات والبطاريات وهرب المقاتلون من الأهالي، كما استولوا على مهمات كثيرة ومدفعية وأرزاق أيضاً. وكانت خسائرهم سبعة وخمسين قتيلاً وأربعمائة وثلاثة وسبعين جريحاً[1].

---

(١) دي غراممونت.

بينما كانت خسائر الجزائريين تزداد أكثر فأكثر، كان الداي حسين باشا يفقد أعصابه وغدا به مس من الجنون من صهره لأنه لم يرم الفرنسيين في البحر، فأرسل له تهديداً بقطع رأسه[1]. وكان الأهالي القادمون من الأطراف والمناطق المجاورة بدون سلاح وذخيرة، لأن الباشا كان يعتقد بأنهم إذا منحوا السلاح والبارود، فإنهم سيعلنون التمرد والعصيان بعد رحيل الفرنسيين لذلك رفض إعطاءهم السلاح، ومن استطاع منهم الحصول على السلاح لم يكن لديه أكثر من إثنتي عشرة طلقة[2]. وكانت ساحة القتال لا تبعد عن مدينة الجزائر سوى إثني عشر كيلو متراً، وبهذه الحالة فلا يمكن للمقاتل الغربي أن يذهب إلى ساحة المعركة ويعود عند انتهاء ذخيرته وبالنتيجة هاجم الأهالي إبراهيم آغا واستولوا على صناديق الذخيرة بالقوة، ثم ذهبوا إلى ساحة القتال، وكتب الفرنسيون لوحات بالعربية وعلقوها في كل مكان ليخففوا من غضب الأهالي ضدهم، وكتب على هذه اللوحات. نحن قادمون من قبل السلطان لرفع ظلم الإنكشارية عنكم، ولا يوجد لديكم مبرر للوقوف معهم. وقد أحدثت تلك اللوحات وما كتب عليها بعض التردد، ولكنهم لم يتركوا ساحة القتال. فكما معروف لم يكن الجزائريون معتادين على محاربة الجيوش النظامية، كما أن الجزائريين كانوا يعانون من نقص المدفعية المتحركة.

كان يحيى آغا سابقاً يحضر بعض المعلمين من مصر، وكان يجر هذه المدفعية على البغال، وهو الذي عمل على انتشار البطاريات المتحركة، ولكن الحرب بدأت قبل أن يتم التدريب والتعليم على هذه البطاريات، فالمدفعية كانت تنقل بواسطة الحمالين[3].

لدى مشاهدة الداي حسين باشا صهره بأنه غير أهل للقيادة أوكلها للأمير صنجق تيطري مصطفى بك، فجمع مصطفى بك من الأطراف حوالي عشرين ألف مقاتل وأرسلهم إلى مقر القيادة.

أخذ مصطفى بك وضعاً دفاعياً من استحكام الأمبراطور (حصن

(١) دي غراممونت.
(٢) مرآة الجزائر.
(٣) مرآة الجزائر.

السلطان) وكان يُعرف ببرج مولاي حسن ، كما جهز كافة الأطراف بالكمائن والمراصد، وقد اعتاد الأهالي على هذا النوع من الحروب ، لكن الجنرال بورمونت كان يدرك الأخطار التي تحدث عن عدم تحركه ، لكن معدات الحصار لم تصل بعد والسفن المحملة بهذه المعدات لا تزال في طريقها إلى شبه جزيرة سيدي فرج ، ولن تصلها قبل أربع وعشرين ساعة .

عندما كان الفرنسيون بدون تحرك ، كان مصطفى بك يهاجم المخافر الفرنسية المتقدمة التي تستقر وتستريح ، وما أن دُعمت الفرقة الأولى بلواء جديد حتى أصبحت مجبرة على التحرك ، فانسحب الجزائريون إلى خط ولي إبراهيم (سيدي خلف) ، وفي هذه الأثناء كانت المعارك صغيرة وخفيفة ، وقد اشتدت خلال الأيام (٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) حزيران وأصبح الفرنسيون منشغلين بالدفاع ، لأنهم هوجموا من كافة الأطراف ، ونظراً لاتساع الجبهة ، تمكن مصطفى بك من إلحاق خسائر كبيرة بالفرنسيين .

في الثامن والعشرين من حزيران أصبحت جميع معدات الحصار الفرنسية موجودة على الساحل ، وفي التاسع والعشرين من حزيران ، أعطى بورمونت أمراً بالتقدم والهجوم فتحركت الفرقة الثالثة معلنة بدء الهجوم .

نظم بورمونت هجومه على الشكل التالي :

الدوج داغارس يقود الفرقة الثالثة من الجانب الأيسر لتل بو زراعة .

لوفيردو يقود الفرقة الثانية مسؤول المركز والوسط مقابل قلعة السلطان .

برتيزين يقود الفرقة الأولى من الجانب الأيمن ما بين البحر وقلعة السلطان .

عندما تحركت الفرقة الثالثة تصدى لها الجيش الجزائري ، ثم تفرق وتشتت وفي الساعة الخامسة رفع العلم الفرنسي فوق تل بو زراعة ، ووصلت المفارز المتقدمة للفرقة الثانية إلى البيارة ، كما احتلت الفرقة الأولى التل المطل على فرايس فالون (Frais Vallon) بهدف التمركز فيها لفصلها عن المناطق المجاورة لكن رئيس الأركان الحربية أعطى أمراً بالتراجع لاعتقاده بأن سهل متيجة بحر، وقد بنى تصوره الخاطىء بسبب الضباب الكثيف ،

وعلى كل حال لو كان الجنرال أرسين (أرسين Arcin) شاهد قلعة السلطان ، وعلم أنه الاتجاه الصحيح لما استمع إليه ، وأثناء التراجع حدثت فوضى كثيرة في صفوف الجيش ولو شن مصطفى بك هجومه في تلك الأثناء لحقق نجاحاً مدهشاً[1] ، إلا أن الضباب حجب عنه هذه التحركات أيضاً ، أما الفرنسيون فقد تراجعوا إلى مواقعهم من جديد ، ولم يكن لديهم القدرة على إقامة الاستحكامات فخلدوا للراحة .

أعد الفرنسيون ست بطاريات مدفعية لاحتلال موقع قلعة السلطان[2] . وفي الساعة الرابعة من صباح الرابع من تموز فتحوا نيران مدافعيتهم عليها . لقد كان قلعة السلطان قوية وتمتاز بتحصين قوي وهي تتحكم بالمدينة والقلعة الداخلية ، وقد وجد فيها ألفا مقاتل وثلاثة وخمسون مدفعاً ، وكانت قيادتها مسندة للخزنجي المشهور بشجاعته وبسالته[3] .

وكان لديه كميات كبيرة من الذخيرة ، والجنود المدافعون عن القلعة كلهم أتراك ، وإن ما قدمه رجال المدفعية من شجاعة وبسالة ، جعلهم يستحقون التقدير والاحترام .

بدأت المدفعية الفرنسية بقصف البرج على شكل مقص ، وبناء على هذا القصف إنهار البرج تماماً ، فأصبح رجال المدفعية الأتراك في الخلاء ، وفي الساعة الثامنة سكت جزء من مدفعية القلعة ، وفي تمام الساعة العاشرة خمدت جميعها ، في حين واصلت المدفعية الفرنسية قصفها بغية فتح ثغرة في جدارها .

لم يعد من الممكن الدفاع عن الموقع ، لذلك بدأ المقاتلون

---

(١) مصطفى بك هو الآخر أمير يحكم تبطري ، والكتابة المدونة على المسجد الذي بناه تؤكد ذلك , أنشأ هذا الجامع أمير تبطري مصطفى بك تاركاً أثراً عظيماً فيها ، وقد تم بناؤه سنة ١٢٣٧ . غابرييل كولين مجلد (١) ص ٢٦٨ .

(٢) يقول دى غراممونت ست بطاريات ، أما البرنسس سيكست فيقول سبع بطاريات .

(٣) البرنس سيكست دوبور پوة مقالة بعنوان (Illüstrasyon) الألوستراسيون) .

بالانسحاب باتجاه المدينة وظل الخزنجي قائد القلعة صامداً حتى خرج آخر جندي منها، وقبل مغادرته القلعة أشعل النار في مخازن البارود، وفي الساعة العاشرة والربع حدث إنفجار عنيف في جميع الأطراف، وقد أوقعت الأحجار المتناثرة خسائر فادحة بالمدينة، وبالرغم من قوة الانفجار، فإن جدران ظلت متماسكة ما عدا جدران برج المركز وخاصة الجهة الشمالية الغربية، وعقب الانفجار تقدم الفرنسيون مستغلين الدخان المتصاعد منها، فاحتلوا القلعة، فغدت مدينة الجزائر تحت رحمة المدافع الفرنسية فانقلبت المدينة رأساً على عقب، وأصبح كل شخص فيها يفكر بماله وروحه فقط.

كان الداي حسين قد جمع الأهالي في الجامع من أجل بحث المشكلة التي يواجهونها وعندما دخل عليهم كان بيده منديل يمسح به دموعه، فسأله الأهالي المجتمعون ما هو المطلوب منا عمله، فقرر العلماء والعقلاء شن هجوم على قلعة السلطان منذ الصباح الباكر، وسيشترك في هذا الهجوم كل الأهالي من الخامسة عشرة حتى السبعين عاماً.

وحالما سمع الأهالي بهذا القرار، فر كل واحد إلى منزله، ولم يفكر أحد بإجراءات وعواقب هذا القرار، وأول من هرب من المدينة من لا يملك مالاً ولا بنين، وبعد أن فكر أصحاب العائلات بما سيحدث بهم أثناء دخول الفرنسيين للمدينة، ذهبوا ليلاً للباشا، وطلبوا منه إعطاء الفرنسيين مايريدون، وهذا هو الحل الأفضل للتخلص من المشكلة، فأرسل الباشا سيدي حسان وسيدي محمد إلى الجيش الفرنسي من أجل إيقاف القصف[1]. فرد عليهم القائد الفرنسي بأن مدينتهم ستسلم مقابل الشروط التالية:

١ ـ سيتم تسليم القلعة الداخلية وبقية الاستحكامات في ظهيرة الخامس من تموز.

٢ ـ يتعهد القائد الفرنسي بمنح الباشا كامل الحرية والسماح له بالسفر بعد أخذ جميع أملاكه الشخصية.

٣ ـ سيسمح للداي بأخذ عائلته وأمواله إلى المكان الذي يريده، أما

(١) مرآة الجزائر: كلف مصطفى خوجة للمرة عرعانية من أجل مذكرة التسليم.

العائلات الموجودة في الجزائر ستبقى تحت الحماية الفرنسية، وسيعطي الأوجاق مع عائلاتهم لمحافظي القطع (القواد).

٤ ـ سيؤمن قائد الجيش نفس الحماية للإنكشاريين.

٥ ـ السماح للجزائريين بحرية إجراء الطقوس الدينية الإسلامية، وحرية كل أصناف الأهالي، وعدم التعرض للديانات والأموال الخاصة والصناعات والمحافضة على حرية النساء، وعدم التعرض لهن، ويتعهد القائد العام للجيش الفرنسي بتنفيذ ذلك.

٦ ـ تنفيذ هذه المعاهدة اعتباراً من الخامس من تموز قبل الظهر.

وقعت المعاهدة في الساعة المحددة، ودخل الجيش الفرنسي إلى المدينة [١]. فذهب الباشا إلى الجنرال بورمونت والتقى معه ثم سلمه مفاتيح الخزينة التي جمعت بها الأموال منذ عدة سنوات، فسمح الجنرال للباشا بأخذ ما يشاء من أموال الخزينة، فأخذ الباشا كل ما باستطاعته حمله من الذهب والمجوهرات والأموال [٢].

خجل الإنكشاريون من الأهالي، فتجمعوا داخل ثكناتهم، وسلمت الثكنات للجيش الفرنسي أيضاً، وكان يوجد في خزينة الجزائر أكثر من ثمان وأربعين مليون فرنك فرنسي، وكان قيمة المواد والأدوات الحربية والأرزاق وأملاك الدولة وغيرها من المواد الأخرى بنفس المقدار، وبناءً عليه، غدت هذه الأموال كافية لتغطية مصاريف الحملة بل يزيد منها [٣].

حالما دخل الفرنسيون المدينة حدثت أعمال سطو، ولكن القادة الفرنسيين حذروا جنودهم من ذلك، أما المصايف والقصور الموجودة بالمناطق المجاورة، فقد نهبت من قبل الأهالي، أما اليهود فقد تقربوا من الفرنسيين، لأنهم كانوا يتقنون اللغة الفرنسية، كما أن الفرنسيين منذ اللحظة الأولى عاملوهم معاملة حسنة، وقد نكل اليهود بالجزائريين أكثر

---

(١) دي غراممونت.

(٢) مرآة الجزائر.

(٣) دي غرامموت: كتب في مرآة الجزائر بأن الغنائم المأخوذة حسب تقدير الفرنسيين بلغ قيمتها /١٥٠/ مليون فرنك و/ ٢٠٠٠/ مدفع من البرونز، وهي تعادل عشرة أمثال مصاريف الغزو.

مما نكل بهم الفرنسيون، وفوق هذا بدأوا بتحريض الفرنسيين، وأخذوا يذكرونهم بما فعله الجزائريون خلال السنوات الماضية، وقد حصل المترجمون المصريون على أموال كثيرة نتيجة ترجمتهم لشكاوى الأهالي، وتقديمها للجنرال، وهؤلاء المصريون كانوا يعملون برفقة الجنرال بورمونت[1].

وأخيراً وجد الداي نفسه وحيداً، وفقد الأمل بالجميع حتى من صديقه القنصل الإنكليزي سانت جون (Sent John) وإذا كان المذكور لا تثار حميته وغيرته إلا بالترجي، فإن الداي لن يحدثه بهذا الشأن، وأدرك الداي ضرورة إيقاف القتال والدخول بالمباحثات، فطلب من مصطفى بك وبعض الأصدقاء التوسط لدى الجنرال الفرنسي، لكن الجنرال بورمونت رفض قاطعاً أي نوع من التدخل والتوسط بهذا الموضوع[2].

بعد أن تم للفرنسيين احتلال المدينة احتلالاً كاملاً، علقوا اللافتات في كل مكان وكتبوا عليها، بأنهم لن يعتدوا على حرمة الجوامع والأماكن المقدسة، وطلبوا من الأهالي فتح متاجرهم وحوانيتهم، والعودة إلى العمل بكل حرية، والمطلوب منهم تسليم ما لديهم من أسلحة وذخيرة إلى الحكومة الجديدة.

أعطى الفرنسيون فترة محددة للأتراك الذين لديهم عائلات من أجل إعداد حوائجهم، أما الذين بدون عائلات فقد وضعوا بالسفن مباشرة، وأرسلوا إلى إزمير وكريت[3]. وفيما بعد تم ترحيل العائلات التركية إلى بلادهم.

لم يسمح الفرنسيون لأصحاب الأسلحة المصنوعة من الفضة أو المرصعة بالمجوهرات بإرسالها خارج البلاد من أجل بيعها أو اصطحابها، بل أجبروا على استبدالها ببضعة فرنكات فرنسية، وقد استغل اليهود ذلك،

---

(١) مرآة الجزائر.

(٢) دى عراممونت.

(٣) من الآثار المتعددة للفرنسيين، بقي عليهم عملية إخراج الأتراك من البلاد، حتى وجودهم كأناس عاديين محرم عليهم. فكيف إذا كانوا حكاماً، وقد تناسى الفرنسيون بأن الأتراك لا يرمون كقطع تافهة، ولا يغلبون.

واشتروا تلك الأسلحة بأسعار بخسة، ويعتبر من أبشع أنواع الاستغلال، وهي مواقف ليست جديدة على اليهود.

بعد احتلال المدينة، توجه الداي حسين باشا مع أفراد عائلته وثروته إلى نابولي ومنها ذهب إلى مدينة ليفورن بإيطاليا حيث قضى فيها مدة من الزمن، وفي كانون الثاني سنة ١٨٣١م ذهب إلى باريس ثم عاد ثانية إلى إيطاليا ومنها إلى مصر ومات في الإسكندرية[١]. وقد خلف حسين باشا آثاراً كثيرة في الجزائر[٢].

بعد سقوط الجزائر جمع أحمد بك أمير قسنطينة جميع الأهالي الفارين من الفرنسيين وجمع الإنكشاريين أيضاً من أجل الدفاع عن الصنجق، كان أحمد بك من القولوغلية وكان الأهالي يحبونه ويقدمون له كل المساعدات اللازمة، وقد التفوا حوله، فتمكن من تجهيز قوة جيدة.

لكن حسن بك أمير صنجق العرب فلم يكن ناجحاً بعمله، وهو مدين بحياته لزوجته لقد قام المرابط الشيخ محيى الدين مع ابنه عبد القادر بتحريض الأهالي ضد الأتراك، وعندما أصبح حسن بك وحيداً في صنجقه غدا مجبوزاً على الانسحاب من الصنجق، وبقي المرابط الشيخ محيي الدين مستقلاً بالصنجق، إلا أنه أسند القيادة لابنه عبد القادر، فتسلم عبد القادر إدارة منطقة الغرب، وقد قام عبد القادر بإعداد مركزين للمقاومة، ومركز في الغرب والآخر بالشرق.

أرسل أحمد بك مذكرة إلى إستانبول يطلب فيها المساعدة، وجلى ما فعله السلطان هو منحه لقب الباشوية مع سيف مرصع ونيشان وبردة.

---

(١) قاموس الأعلام.

(٢) إن الآثار التي تركها حسين باشا مذكور إسمه عليها.

أ ـ الكتابة الموجودة على جامع خارج القلعة الداخلية تاريخ ١٢٣٥هـ.

ب ـ الكتابة المسجلة على جامع الترك في بليدة.

و ـ الكتابة المسجلة على الجامع في القلعة الداخلية تاريخ ١٢٤٣هـ.

ء ـ مجر سبيل الماء الموجود على رصيف الميناء سنة ١٢٤٥هـ.

ر ـ كتابة مجهول تاريخها سنة ١٢٣٦هـ.

ز ـ كتابة سبيل الماء في بلدة موادة سنة ١٢٣٨هـ.

س ـ كتابة باب حمام الأميرال سنة ١٢٣٩هـ.

قاوم أحمد بك بقواته المستقلة الفرنسيين مقاومة عنيفة، وحينما تلقى جواب إستانبول خطط للاعتماد على نفسه بمؤازرة الأهالي، وقرر الاستقلال بمقاومته عن الأمير عبد القادر.

تمكن عبد القادر من جمع المرابطين حوله، ولكنه في النهاية هزم والتجأ إلى الأراضي التركية التي قام بخيانتها(*).

بعد قتال طويل تمكنت فرنسا من الاستيلاء على جميع الأراضي الجزائرية، وقد شهد الفرنسيون حروباً طاحنة وتضحيات كبيرة أذهلتهم.

لم يعرف عدد الأتراك الذين رحلوا من الجزائر، أما الأتراك المدينيون الذين يعيشون في المدن الكبيرة فلم تتوفر لدينا أي معلومات عنهم.

طبق الفرنسيون في الجزائر سياسات متنوعة ارتبطت كل سياسة حسب المدينة ولقد استفاد الفرنسيون من طبقة الأفندية (الأسياد) القدماء، فاستطاعوا بواسطتهم إخضاع السكان المحليين، ففي سنة ١٨٣١م كان في مدينة وهران مفرزة إنكشارية تعدادها تسعون إنكشارياً، وقد وضعهم الفرنسيون ضمن تشكيلات الصيادين، كما وجد في مستغانم مائة وسبعة

= ص - كتابة سبيل الماء الموجود بجانب باب الوعد سنه ١٢٣٩هـ.

ض - كتابة البرج المقام ما بين شاطىء البحر وبرج الميدان سنة ١٢٣٩هـ.

ط - كتابة البرج الجديد سنة ١٢٣٩هـ.

ط - كتابة جامع سفر فى مدينة الجزائر سنة ١٢٤٢هـ.

ع - كشك الأميرال سنة ١٢٤٢هـ.

ع - كتابة سبيل الماء فى بليدة سنة ١٢٤٣هـ.

غابرييل كولين.

(*) مع الأسف لا نوافق المؤلف على توجيه تهمة الخيانة للأمير المجاهد عبد القادر الجزائرى، وهل كان المؤلف (رحمه الله) يريد عبد القادر أن يقول للأتراك خذوا أنتم منازلنا، والفرنسيون يأخذون الأرض، ألم يكفيهم ثلاثة قرون من الزمن، وجلى ما فعلوه الصراع والاقتتال وسفك الدماء، أما بالنسبة للخدمات التى قدموها فكانت لأنفسهم أولاً. أين دفاعهم عن التراب الذى أكلوا من خيراته طوال هذه القرون. وأين غيرة السلطان العثمانى.

احتجاج أفلاطونى وسيف مرصع من مال الجزائر وبرده. وهل نسى المؤلف (رحمه الله) دماء الجزائريين التى سفكت فى سبيل العرش العثمانى فى المورة ومالطة وكريت، وأيضاً ألم يتذكر (رحمه الله) أن الأتراك الذين حكموا الجزائر مشردون فى الأناضول ومن خونة الوطن الأم. ولماذا لم يعتبر عدم تقديم مساعدة السلطان خيانة. سامحه الله (المترجم).

وخمسون إنكشارياً فمنحهم الفرنسيون معاشات، وفي سنة ١٨٣٢م تمكن الفرنسيون من احتلال مدينة بون ووجدوا فيها مائة وخمسة جنود أتراك، استخدمهم الفرنسيون كنواة رئيسية لفصيلة الخيالة.

عندما احتل الفرنسيون قسنطينة قدم حراسها الطاعة للجيش الفرنسي، وشكل منهم الفرنسيون فصيلة مشاة وطاقم مدفعية[١].

كان أبناء الأتراك من القولوغلية يشكلون عدة جماعات، وكانت عائلات الإنكشاريين في كل معسكر، تسكن في أحياء خاصة بهم، وكانوا ساندو بعضهم بعضاً بعيدين عن الأهالي كذلك فقد وجد في بسكرة وبعض المدن الأخرى أحياء تابعة للقولوغلية.

كان للقولوغلية في المدينة حياً منفصلاً عن قولوغلية المعسكرات، فقد أسسوا قبائل خاصة بهم، ومن هذه القبائل قبيلة زامورة التي استقرت في جنوب منطقة القبائل، وعلى بعد عشرين فرسخاً من جنوب الجزائر في وادي زيتون والمناطق المجاورة لها كانت قبائل تركية تقطن هناك، كما وجدت بعض القبائل في وادي أسرة، كذلك فإن قبائل زوانتة هم من أبناء الأتراك[٢]. ولا توجد لدينا معلومات صحيحة عن عائلات العساكر وأولادهم المتمركزين في المدن والنقاط الهامة.

عندما احتل الفرنسيون الجزائر، اعتبروا القولوغلية من العناصر البربرية أو العربية، ويتميزون عن الأتراك بملامح عدة منها البياض المائل للصفرة قليلاً، ويتميزون عن آبائهم، وبهذا الشكل يكون اتحادهم واتفاقهم مع العناصر أكثر سهولة، وقد أجبرهم القانون الفرنسي على الانطواء تحت الجنسية الجزائرية أولاً.

إن الأبطال الأتراك الذين عاشوا حوالي ثلاثمائة سنة في الجزائر، وتمركزوا بها، وأسسوا حكوماتهم فيها، ومن المحتمل والمرجح أن يكون أولادهم كثيرين جداً. لأن اليولداشية في الجزائر لم يحضروا نساءً معهم من بلادهم، وقد عاشوا في الجزائر واستقروا بها، ثم أصبحوا أصحاب

(١) مرآة الجزائر.

(٢) مرآة الجزائر.

عائلات ومنازل وقصور، وإذا قلنا إن متوسط عدد أفراد الإنكشارية كان حوالي خمسة عشر ألف إنكشاري، ونظراً لتزاوج هؤلاء خلال ثلاثمائة سنة، عندها يمكننا تقدير كمية الدم التركي الذي يجري في عروق الجزائريين.

للأتراك عادات غريبة، فإذا أجبر التركي على ترك قطعة ما، وإذا أهين من قبل ملة من الملل، فإنه يظل محباً ومتعلقاً بهذه القطعة والملة.

في هذه الأيام (يقصد المؤلف سنوات ١٩٣٧ وفيما بعد) سكان تونس والجزائر وطرابلس الغرب يتذكرون عصر السعادة (الإدارة التركية) ويفخرون بالحديث عنها. أي أعمال أجدادهم الأتراك، ولكن أثناء الإدارة التركية كان السكان المحليون يريدون التخلص من هذه الإدارة الشديدة، فقد أعلنوا الثورات عليها، وهم اتفقوا في بعض الأحيان مع أعداء البلاد (الأجانب من أجل الهجوم على الإدارة التركية، وفيما بعد قدروا قيمة الإدارة القاسية، ولم يكن سقوط الجزائر لهذا السبب، فهم لم يطلقوا الرصاص بهدف التسلية، ولم يشهروا سيوفهم لذبح الخراف، فجيش الجزائر وجيش إستانبول أجبرا الدول الأوربية جمعاً، على الخضوع والانحناء أمام قوتهما.

بعد سقوط الجزائر أعلنت إستانبول الإضراب، وأيدتها كافة الأطراف ولم يكن هناك قوة كافية لإعادة الحق، لأنه من المستحيل الوصول إلى الجزائر، وبعد ذلك بمدة كان البحارة العثمانيون يتفاخرون بذكر أمراء الجزائر في البحر، وكان هذا عنوان قبطان دريا (أمير البحر) ولكن كل ما نملكه هو الأسف والتأسف على تلك الحقيقة من العصر الذهبي القوي والجميل في الجزائر، ولكن هل يجب أن يكون الأمر كذلك.

- ١٧ -
مسكوكات أوجاق الجزائر

كانت النقود تطبع باسم السلطان العثماني منذ عهد خير الدين باشا، وكان لتونس والجزائر وطرابلس الغرب حالياً (ليبيا) دار خاصة بكل منهم لضرب النقود بها. ولهم عملة معدنية أيضاً.

يوجد عدد من النقود الذهبية ضربت باسم السلطان سليمان القانوني[١]. وقد نقشت هذه النقود في تلمسان. ويعود تاريخ أقدم عملة معدنية ضربت في طرابلس الغرب لسنة ٩٧٩هـ، ففي سنتي ٩٨١ و ٩٨٢هـ كان يوجد قطع نقدية ذهبية مؤرخة بتاريخ ٩٨٦ هـ، كما وجد أيضاً عملية فضية ونحاسية.

لم أجد عملة أقدم من عملة تونس، ومن الطبيعي أن يكون قد طبع فيها عدة عملات أيضاً، فأصغر قطعة نقدية تونسية كانت غير منتظمة الشكل، وهي مصنوعة من النحاس، ويطلق عليها التونسيون إسم (فلس فلوس) ويطلق عليها الأجانب والعبيد اسم (البورية) كما أن اثنتي عشرة قطعة منها أي /١٢/ فلس يساوي (أسبرة) وكل ٦٢٤ فلس يساوي قرشاً واحداً تونسياً، لكن هذه العملة لم تستخدم فيما بعد[٢].

---

(١) المسكوكات العثمانية لخليل أدهم بك مجلد (١) صفحة ٢٥٦ لوحة (٧٠) وقد كتب على أحد أطرافها (دار الغرب) صاحب الفرة من البحر والبر وعلى الطرف الآخر (السلطان سليمان بن سليم خان عز نصره ضربت فى الجزائر ٩٢٦هـ.

(٢) كتب على أحد أطراف المسكوكات الذهبية في تلمسان (٩٧٤) تلمسان ملك البرين والبحرين =

أما الفلس أو البورية، فلم تستخدم إلا في الحسابات وعملية قياس النقود، وتذكر المعلومات أن كل إسبرة تساوي (١٢) فلس، وأن كل قرش تونسي يساوي / ١٠٤/ فلس والأسبرة معناها أقجة.

الأسبرة أو بلانكويل، كان الأهالي يطلقون عليها اسم (مصاري) فالقطعة النقدية /١٢/ بورية تساوي بارة، وكل ٥٢ بورية تساوي قرش، وهذه النقود الصغيرة تكون منقطة في أطرافها، كتب على وجه منها السلطان مصطفى وعلى الوجه الآخر ضربت في تونس سنة ١١٧١هـ. ومعنى كلمة إسبرة باللغة الروسية تعني الأبيض، يقابلها بالتركي أقجة والقطعة النقدية التي تعادل قيمتها / ٦٠/ قرشاً كان يطلق عليها (ضروباً) وهذه القطعة أكبر من الأقجة، كتب على إحدى وجوهها ضمن دائرة منقطة (السلطان مصطفى) وعلى الوجه الآخر (ضربت في تونس سنة ١١٧١هـ).

كان الريال أو ما دون القرش يُصنع من الفضة، وكتب على أحد وجوهه أربعة سطور كما يلي: (سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان محمد خان عز نصره) وكتب على الوجه الآخر (ضرب في تونس سنة ١٢٤٣هـ)[١].

أما القطعة النقدية التي قيمتها ريالان، فكان يطلق عليها ريالات أو ربع قرش أو ربع قيمة الريال، وكان يتضمن نفس الكتابة ولكن حجمه أصغر، وكتابته أدق، وكان يطلق عليها سغين أو زري محبوب في كل من تونس والجزائر وطرابلس الغرب.

السلطاني: وهي عملة نقدية ذهبية تماماً، كذلك فقد وجدت أجزاء لهذه القطع النقدية بمقدار الربع والنصف، ودوّن عليها ما دوّن على القرش من كتابات.

كذلك فقد شوهدت عملة نقدية مربعة الشكل مصنوعة من الفضة، وهذه العملة ضربت زمن السلطان أحمد بن محمد خان والسلطان مراد بن أحمد خان وقد استعملت هذه النقود في تونس.

= والشام والعراقين خلد الله ملكه) وعلى الطرف الآخر (خمسة أعشار قيراط ٩٧٤هـ أعز الله نصره صاحب النصر والعدل والزمان السلطان سليمان بن سليم).

(١) المسكوكات العثمانية. خليل أدهم ص ٣٤٥ ـ ٣٨١، ٤٠٥ ـ ٤١٠.

أطلق أهالي تونس والجزائر وطرابلس الغرب علي النقد الإسباني (بو مدفع) وقد تداول الإسبان الذهب في أعمالهم التجارية ونشاطهم السياسي، وكانت نقود الولايات الثلاث (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب) مقبولة ويتعامل بها الإسبان، كذلك فقد تداولت العملة العثمانية في ولايات الغرب.

قائمة بأسماء الولاة الذين تولوا أمرة الجزائر

أسماء أمرة الأمراء والباشوات	التاريخ هجرى	ميلادي
خير الدين باشا	٩٢٤ هـ	١٥١٨ م
حسن آغا	٩٤٢	١٥٣٥
حسن باشا	٩٥١	١٥٤٤
صالح باشا	٩٦٠	١٥٥٢
حسن باشا	٩٦٤	١٥٥٦
محمد باشا	٩٦٤	١٥٥٦
حسن باشا (للمرة الثانية)	٩٦٥	١٥٥٧
أحمد باشا	٩٧٠	١٥٦٢
حسن باشا (للمرة الثالثة)	٩٧٠	١٥٦٢
محمد باشا	٩٧٥	١٥٦٧
قلج علي باشا	٩٧٦	١٥٦٨
عرب أحمد باشا	٩٧٩	١٥٧١
رمضان باشا	٩٨٢	١٥٧٤
فندقلي حسن باشا	٩٨٥	١٥٧٧
جعفر باشا	٩٨٩	١٥٨١
رمضان باشا (للمرة الثانية)	٩٩١	١٥٨٣
حسن باشا (للمرة الثانية)	٩٩١	١٥٨٣
محمد باشا	٩٩٣	١٥٨٥
استانكولو أحمد باشا	٩٩٤	١٥٨٦

خضر باشا	٩٩٧	١٥٨٨
شعبان باشا	١٠٠١	١٥٩٢
مصطفى باشا (وكيل)	١٠٠٣	١٥٩٤
خضر باشا	١٠٠٣	١٥٩٤
مصطفى باشا	١٠٠٥	١٥٩٦
حسن باشا	١٠٠٨	١٥٩٩
سليمان باشا	١٠٠٩	١٦٠٠
خضر باشا	١٠١٣	١٦٠٤
كوسا محمد باشا	١٠١٣	١٦٠٤
الوزير مصطفى باشا	١٠١٤	١٦٠٥
رضوان باشا	١٠١٧	١٦٠٧
مصطفى باشا (للمرة الثانية)	١٠١٩	١٦٠٩
الشيخ حسين باشا	١٠٢٢	١٦١٣
مصطفى باشا	١٠٢٦	١٦١٧
سليمان باشا	١٠٢٦	١٦١٧
الشيخ حسين باشا	١٠٢٦	١٦١٧
خوجة شرف باشا	١٠٢٩	١٦١٩
خضر باشا	١٠٣١	١٦٢١
خسرو باشا	١٠٣٤	١٦٢٤
حسين باشا	١٠٣٧	١٦٢٧
يوسف باشا	١٠٤٢	١٦٣٢
حسين باشا	١٠٤٢	١٦٣٢
يوسف باشا	١٠٤٥	١٦٣٥
علي باشا	١٠٤٧	١٦٣٧
حسين باشا	١٠٥٠	١٦٤٠
بورصلي محمد باشا	١٠٥٢	١٦٤٢
أحمد علي باشا	١٠٥٥	١٦٤٥
يوسف باشا	١٠٥٧	١٦٤٦
محمد باشا	١٠٦٣	١٦٥٢

أحمد باشا ١٠٦٤ ١٦٥٣

إبراهيم باشا ١٠٦٧ ١٦٥٦

علي باشا ١٠٧٠ ١٦٥٩

بوشناق إسماعيل باشا ١٠٧٣ ١٦٦١

الآغوات

خليل آغا ١٠٧١ ١٦٦٠

رمضان آغا ١٠٧١ ١٦٦١

شعبان آغا ١٠٧٢ ١٦٦١

علي آغا ١٠٧٦ ١٦٦٥

الدايات

الداي حجي محمد ١٠٨٢ ١٦٧١

الداي بابا حسن ١٠٩٢ ١٦٨١

موزمورتو حسين باشا ١٠٩٥ ١٦٨٣

إسماعيل باشا ١١٠٠ ١٦٨٨

الداي حجي شعبان ١١٠١ ١٦٨٩

الداي حجي أحمد ١١٠٧ ١٦٩٥

الداي حسن شاويش ١١١٠ ١٦٩٨

الداي حجي مصطفى (الذقن المشعبة) ١١١٢ ١٧٠٠

الداي حسن خوجة ١١١٧ ١٧٠٥

الداي محمد بكطاش ١١١٩ ١٧٠٧

الداي دلي إبراهيم ١١٢٢ ١٧١٠

الداي علي شاويش ١١٢٢ ١٧١٠

الداي محمد أفندي ١١٣٠ ١٧١٧

الداي كور عبدي (عبد الأعمى) ١١٣٦ ١٧٢٤

الداي إبراهيم ١١٤٥ ١٧٣٢

الداي رودس جوكلو إبراهيم ١١٥٨ ١٧٤٥

الداي محمد بن بكري ١١٦١ ١٧٤٨

الداي بابا علي (أبو سبا)	١١٦٨	١٧٥٤
الداي محمد بن عثمان	١١٧٩	١٧٦٦
الداي حسن	١٢٠٦	١٧٩١
الداي مصطفى	١٢١٣	١٧٩٨
الداي أحمد	١٢٢٠	١٨٠٥
الداي علي خوجة (غسال)	١٢٢٣	١٨٠٨
الداي حجي علي خوجة	١٢٢٤	١٨٠٩
الداي محمد	١٢٣٠	١٨١٥
الداي عمر	١٢٣٠	١٨١٥
الداي علي خوجة	١٢٣١	١٨١٦
الداي حسين	١٢٣٣	١٨١٨

الأمراء الذين عيّنوا زمن الدايات:

محمد باشا	١١٠٦	١٦٩٤
مصطفى باشا	١١٠٧	١٦٩٥
علي باشا	١١١٣	١٧٠١
إبراهيم باشا	١١٢٣	١٧١١
أصلان محمد باشا	١١٤٢	١٧٢٧

تم بعون الله ولطفه.

الفهرس العام

- ا -

ج

ك

ل

م

ي

محتويات الكتاب

الفصل الثالث

ـ ٣ ـ

ـ ٤ ـ

- ٧ -

- ١٣ -